موسوعة
روائع الكتب الإسلامية
الجزء الأول

فهرسة أثناء النشر / إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، إدارة الشئون الفنية

عمارة، محمد
موسوعة روائع الكتب الإسلامية
روابط للنشر وتقنية المعلومات
17 × 24 سم
تدمك: 9789776543782
رقم الإيداع: 21016/2018
1 ـ الكتب ـ موسوعات
أ ـ العنوان

دار النشر:	**روابط للنشر وتقنية المعلومات**
عنوان الكتاب:	**موسوعة روائع الكتب الإسلامية**
الكاتب:	**محمد عمارة**
رقم الطبعة:	**الأولى**
تاريخ الطبع:	2019

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر

rawabt روابط
للنشر وتقنية المعلومات
For Publishing & Information Technology

ويحذر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنضيد للكتاب كاملًا أو جزئيًا، أو تسجيله على أشرطة كاسيت، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناشر الخطية الموثقة

روابط للنشر وتقنية المعلومات
19 حسن أفلاطون ـ بجوار مستشفى عبد القادر فهمى
أرض الجولف ـ مصر الجديدة
تليفون: 20224178673
info@rawabtonline.com
www.rawabtonline.com

موسوعة

روائع الكتب الإسلامية

دكتور

محمد عمارة

الجزء الأول

rawabt روابط
للنشر وتقنية المعلومات
For Publishing & Information Technology

المحتويات

الجزء الأول

تقديم ١٥

الإسلام فى عيون غربية بين افتراء الجهلاء وإنصاف العلماء ١٩

تمهيد ٢١

الموقف الإسلامى من الحضارات غير الإسلامية ٥٩

الإحياء الإسلامى فى عيون غربية ٦٥

فلسفة المشروع الحضارى ٦٩

الفتوحات العربية فى ميزان الإسلام والتاريخ ٧٧

أبو عبيد القاسم بن سلام ٨٩

كتاب الأموال لأبى عبيد القاسم بن سلام ١١٥

حجة الإسلام أبو حامد الغزالى ١٢٩

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر للغزالى ١٣٣

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ١٤١

الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ١٤٩

مقال فى السنن الإلهية ١٦٥

الأقليات غير المسلمة فى العالم الإسلامى ١٨١

عبد الرحمن الكواكبى ٢١٧

طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد للكواكبى ٢٢٣
الإعلان الإسلامى لحقوق الإنسان ٢٣١
كتاب قاموس المصطلحات الاقتصادية فى الحضارة الإسلامية ٢٤٣
عبد الله النديم ٢٥٩
بم تقدم الأوربيون وتأخرنا والخلق واحد؟! ٢٦٣
بطاقة حياة الشيخ عبد العزيز جاويش ٢٧٩
أثر القرآن فى تحرير الفكر البشرى ٢٨٥
الشيخ الأكبر محمد الخضر حسين بطاقة حياة الشيخ محمد الخضر حسين . ٢٩٣
نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم للشيخ محمد الخضر حسين ٣٠٥
ضلالة فصل الدين عن السياسة للإمام الشيخ محمد الخضر حسين ٣٢٧
الإسلام والدولة المدنية ٣٣١
الإسلام والسياسة ٣٣٧
العَلمانية ٣٩٧
الأزهر والعلمانية ٤٠٣
حوار الإسلامية والعلمانية ٤١٧
العقل والعقلانية فى الإسلام ٤٣٣
فى كتاب الاجتهاد للشيخ الأكبر محمد مصطفى المراغى ٤٦١
رسالة فى الزمالة الإنسانية للشيخ الأكبر محمد مصطفى المراغى ٤٦٧
مقدمة فى صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ٤٧٣
للشيخ الأكبر محمد مصطفى المراغى ٤٧٣
خطاب فى إصلاح الأزهر للشيخ الأكبر محمد مصطفى المراغى ٤٧٥

مقدمة فى العظمة المحمدية للشيخ الأكبر محمد مصطفى المراغى ٤٨١
القاضى عياض بطاقة حياة القاضى عياض ٤٨٥
الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض ٤٨٩
الدكتور نظمى لوقا بطاقة حياة أ.د نظمى لوقا ٤٩٧
محمد الرسالة والرسول للدكتور نظمى لوقا ٥٠١

الجزء الثانى

الدكتور عز الدين فراج ٥٢٥
نبى الإسلام فى مرآة الفكر الغربى ٥٢٧
صورة الإسلام فى التراث الغربى (دراسات ألمانية) ٥٣٩
الدين والأخلاق فى عصر العولمة للكاردينال هانس كينج ٥٤٣
مُقَدِّمَةُ مُحَمَّدِ عِمَارَةَ ٥٤٥
أولًا: الموقف الإسلامى من العنف ومن الآخر الدينى ٥٤٧
ثانيًا: الموقف من الوحى القرآنى ٥٥٥
مقدمة هانس كينج ٥٦١
الدكتور/ محمد عبد الله دراز ٥٦٣
الدين بحوث ممهدة لتاريخ الأديان للدكتور محمد عبد الله دراز ٥٦٩
النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ٥٩٣
نظرات فى الإسلام للدكتور محمد عبد الله دراز ٥٩٧
الإمام الشيخ/ محمد أبو زهرة ٦٠٩
شريعة القرآن للإمام الشيخ محمد أبو زهرة ٦١٧

الوحدة الإسلامية للإمام الشيخ محمد أبو زهرة ٦٢٧

بحوث فى الربا للإمام الشيخ محمد أبو زهرة ٦٣٧

الدكتور حسين مؤنس ٦٤٥

كتاب الربا وخراب الدنيا للدكتور حسين مؤنس ٦٤٩

الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت ٦٦١

منهج القرآن فى بناء المجتمع للشيخ محمود شلتوت ٦٧٣

حاجة الإنسان إلى الدين للشيخ محمود شلتوت ٦٨٧

الإسلام والوجود الدولى للمسلمين للشيخ محمود شلتوت ٦٩٩

الشيخ محمد الغزالى ٧٠٧

كتاب مائة سؤال عن الإسلام ٧١٥

المرأة فى منهاج الشيخ الغزالى ٧٩٣

مقدمـة ميثاق الأسرة فى الإسلام ٧٩٥

تحرير المرأة بين العقل والجنون ٨٠٥

الدكتور عبد الرزاق السنهورى ٨٣١

المدنية الإسلامية للدكتور السنهورى ٨٤٥

الإسلام: دين ودولة.. دين الأرض ودين السماء ٨٦١

الشيخ محمد الفاضل بن عاشور ٨٧٣

روح الحضارة الإسلامية للشيخ محمد الفاضل بن عاشور ٨٧٥

العلامة محمد إقبال ٨٨٥

روح الثقافة الإسلامية للعلَّامة الفيلسوف محمد إقبال ٨٩١

مولانا أبو الكلام آزاد ٨٩٥
الجهاد للعلَّامة أبو الكلام آزاد ٩٠٥
الشيخ محمد محمد المدنى ٩١٥
وسطية الإسلام للشيخ محمد المدنى ٩٢٣
الشيخ عبد الجليل عيسى ٩٣١
ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين للشيخ عبد الجليل عيسى ٩٣٥
اجتهاد الرسول ﷺ للشيخ عبد الجليل عيسى ٩٤٥
الدكتور محمد يوسف موسى ٩٥١
التشريع الإسلامى وأثره فى الفقه الغربى للدكتور محمد يوسف موسى ٩٥٧
الشيخ عبد الوهاب خلاف ٩٧١
نور من القرآن للشيخ عبد الوهاب خلاف ٩٧٥
السياسة الشرعية ونظام الدولة الإسلامية للشيخ عبد الوهاب خلاف ٩٨٥
الإمام الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج ٩٨٩
السياسة الشرعية والفقه الإسلامى للشيخ عبد الرحمن تاج ٩٩٥
الشيخ عبد العال عطوة ١٠٠٣
المدخل إلى السياسة الشرعية للشيخ عبد العال عطوة ١٠٠٩
نظام الحكم فى الإسلام للشيخ عبد العال عطوة ١٠١٧

الجزء الثالث

شيخ الإسلام ابن تيمية ١٠٤١

أئمة الصحوة المعاصِرة وابن تيمية........................ ١٠٥١
ابن تيمية إمام دعوات الاستنارة فى عصرنا الحديث........................ ١٠٥٧
السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية........................ ١٠٦١
الحسبة ومسئولية الأمة والدولة فى الإسلام........................ ١٠٧٥
رفع الملام عن الأئمة الأعلام لشيخ الإسلام ابن تيمية........................ ١٠٩١
أربع شهادات.. فى رَدّ الافتراءات........................ ١٠٩٩
الدكتور صوفى أبو طالب........................ ١١٠٣
بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى........................ ١١٠٥
تقنين الشريعة الإسلامية بمجلس الشعب........................ ١١٢٣
الشيخ عبد المتعال الصعيدى........................ ١١٣١
لماذا أنا مسلم؟........................ ١١٣٥
الشيخ محمد متولى الشعراوى........................ ١١٤٧
الإيمان بوجود الله ضرورة لغوية وعقلية........................ ١١٥٥
ردًا على الملاحدة والعلمانيين لإمام الدعاة الشيخ محمد متولى الشعراوى ١١٦٥
حوار الإيمان والإلحاد........................ ١١٩١
الدكتور مصطفى محمود بطاقة حياة ـ دكتور مصطفى محمود........................ ١٢١١
حوار مع صديقى الملحد للدكتور مصطفى محمود........................ ١٢٢١
فى الرد على الماديين للعلامة محمد فريد وجدى........................ ١٢٣١
وهْم الإلحاد........................ ١٢٤١
أ. أورخان محمد على........................ ١٢٥٣

مناقضة علم الفيزياء لفرضية التطور لأورخان محمد على........................ ١٢٥٧
الدكتور عبد الرحمن بدوى بطاقة حياة الدكتور عبد الرحمن بدوى ١٢٧١
دفاع عن القرآن ضد منتقديه للدكتور عبد الرحمن بدوى........................ ١٢٩٣
دفاع عن محمد ضد المنتقصين من قدره للدكتور عبد الرحمن بدوى........ ١٣٠٣
الدكتور طه حسين بطاقة حياة الدكتور طه حسين ١٣٣١
مرآة الإسلام للدكتور طه حسين.. ١٣٤١
الأدلة المادية على وجود الله ١٣٥٣
السنة والشيعة الانقسام الأكبر فى تاريخ الإسلام ١٣٦٥
قضايا الخلاف ١٣٩١
منهاج النظر فى الخلافات.. ١٣٩٧
الإمامة عند أهل السنة ١٣٩٩
الإمامة عند الشيعة الإمامية ١٤٠٥
ظاهرة الغلو الحديثة... ١٤٢٥
الموقف الشيعى من صحابة رسول الله ﷺ.. ١٤٣٣
ملاحظات شيخ الإسلام موسى جار الله.. ١٤٥٥
الوشيعة فى نقض عقائد الشيعة.. ١٤٦٧
الشيخ محب الدين الخطيب.. ١٤٧١
الخطوط العريضة لدين الشيعة.. ١٤٧٥
الشيخ أبو الحسن الندوى.. ١٤٨٣
صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة الإمامية ١٤٨٧

الأزهر والشيعة ١٤٩٣
نقد الفكر الدينى لآية الله مرتضى مطهرى ١٥٠١
القــرآن يتحــدى ١٥١٩

الجزء الرابع

الحداثة الغربية والقرآن الكريم ١٥٥١
الإعجاز فى التدوين والجمع للقرآن الكريم ١٥٧٩
عن مناهج التفسير للقرآن الكريم ١٦٠١
الدكتور طه جابر العلوانى ١٦٠٧
أدب الاختلاف فى الإسلام للدكتور طه جابر العلوانى ١٦١٥
أمريكا: هل هى شعب الله المختار؟! ١٦٢١
خطة أمريكية لتحديث الإسلام ١٦٢٧
الإسلام فى عيون غربية ١٦٤٣
ويسألونك عن صراع الغرب والشرق ١٦٤٩
الجذور العميقة لظاهرة الإسلاموفوبيا ١٦٦٣
والآن ١٦٦٧
الاستراتيجية الغربية لتنصير المسلمين ١٦٧٣
الاستغلال الأمريكى للأقليات ١٦٨٥
صليبية حتى النهاية ١٦٨٩
الحرية أولًا.. مسار الحرية فى الحضارة الإسلامية ١٦٩٥

الحرية روح الإسلام ١٧١١
ثقافة الاستشهاد ١٧١٩
الأعمال الكاملة للشيخ عبد الجليل عيسى ١٧٢٩
ندوة «التبيان» فقه الواقع الإسلامى عند الأستاذ الدكتور
الشيخ محمد المختار المهدى ١٧٣٥
الإصلاح بواسطة البيان ١٧٦٧
دور الوقف فى صياغة الحضارة الإسلامية ١٧٧٥
القدس بين اليهودية والإسلام ١٧٨٧
تقديم ١٧٩١
القدس: رمز الصراع.. وبوابة الانتصار ١٧٩٧
حقائق القضية الفلسطينية ١٨١٥
أنّا مارى شيمل ١٨١٩
الإعلام والإسلام ١٨٢٣
رؤية نقدية للحركات الإسلامية ١٨٣٣
سيد قطب.. والعنف ١٨٤٣
فرعون الخروج.. التفسير المادى للمعجزات ١٨٥٣
فى نقد المنهجية الاجتماعية الغربية ١٨٦٥
أهى حرب على الإرهاب.. أم على الإسلام؟! ١٨٧١
مَرْكَسةُ الإسلام ١٨٨٥
العلمانيون والحرام العلمى ١٨٨٩
المسلمون الأوائل؟.. أم القتلة الأوائل؟! ١٨٩٧

امتياز الإناث على الذكور فى الميراث والنفقة ١٩٠٧
العلَّامة الدكتور موريس بوكاى........ ١٩١٣
كتاب القرآن والتوراة والإنجيل والعلم........ ١٩٢١
العلَّامة الشيخ محمد بخيت المطيعى........ ١٩٦٥
كتاب حقيقة الإسلام وأصول الحكم ١٩٧٣
كتاب الإلحاد للمبتدئين ٢٠١٧
إسلاميات الدكتور نظمى لوقا........ ٢٠٣٣
ابن تيمية والسنن الربانية........ ٢٠٥٥
السيرة الذاتية للأستاذ الدكتور/ محمد عمارة........ ٢٠٦٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

«.. وخير صديق فى الزمان كتاب».

تلك هى الحكمة التى اجتمعت عليها عقول الحكماء على مر التاريخ الإنسانى، عبر الديانات والفلسفات والثقافات والفنون والآداب والعلوم فى كل الحضارات..

* ولقد شاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن تتخذ أسماؤه الحسنى وصفات جلاله وكماله وجماله، وهداياته وشرائعه وألطافه ـ فى الوحى الإلهى للنبوات والرسالات ـ عبر تاريخ علاقات السماء بالإنسان ـ صورة الكتاب ـ من صحف إبراهيم، وتوراة موسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى، إلى الكتاب الذى لا ريب فيه، الذى نزل به الروح الأمين على قلب الصادق الأمين ـ عليهم جميعًا صلوات الله وتسليماته.

* وحول هذا الكتاب الخاتم الخالد المعجز ـ الذى جاء مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ـ انداحت العلوم والفنون والآداب والفلسفات، التى اتخذت ـ هى الأخرى ـ صورة الكتاب.

* لقد تمايزت العقائد.. واختلفت الشرائع.. وتنوعت الفلسفات والفنون والآداب.. لكنها اتخذت جميعًا صورة الكتاب ـ الشفهى.. أو المخطوط.. أو المطبوع على الحجر.. أو بالمطبعة الحديثة.. أو المرقوم ـ فتنوعت الصور والأشكال، وظل الكتاب ـ مطلق الكتاب ـ هو الصديق الأوفى للإنسان ـ مطلق الإنسان..

* وإذا كانت هذه هى الحكمة التى أجمع عليها الحكماء:

وخير صديق فى الزمان كتاب

فكيف بهذا الكتاب ـ [الموسوعة] ـ الذى نقدم بين يديه، وهو يقدم لقارئه أكثر من مائة كتاب ـ مختارة بحكمة، لتمثل كوكبة من الأصدقاء الأوفياء لقارئ هذا الكتاب؟

* لقد مثل الإسلام جماع العقائد والشرائع والقيم والأخلاق والآيات المعجزات التى عرفتها الإنسانية على مر تاريخها الطويل.

وتفرد هذا الإسلام ـ فى صورته الخاتمة الخالدة ـ بأنه الدين الذى أسس الدولة.. وأقام المدنية.. والثقافة.. والحضارة.. وجمع بين عمران الواقع المادى وعمران النفس الإنسانية.. وألّف بين الخصوصية والعالمية.. بين الفرد والطبقة والأمة والإنسانية.. ومن ثم كانت صناعة الكتاب فى حضارته لصيقة بوحى السماء ـ الكافى به الله فقد ما سواه ـ فأمة الإسلام وحضارته قد ولدتا من بين دفتى كتاب.

* وإذا كان «اختيار المرء قطعة من عقله» ـ كما قال الحكماء من سلفنا الأوائل ـ فإننا نرجو أن يكون اختيارنا لهذه الدراسات التى كتبناها مقدمات لهذه الكتب ـ والتى يقدمها هذا [الكتاب ـ الموسوعة] ـ مع الترجمة للعلماء الأعلام الذين أبدعوا هذه الثروة وهذه الكنوز ـ نرجو أن يكون ذلك خير هدية نقدمها لقرائنا الأعزاء..

إنها موسوعة فريدة، تصوغ المعارف المبثوثة فى كتبها التى تجاوزت المائة.. بغية تكوين العقل الإسلامى المنشود.. الذى يفقه إسلامه.. ويفقه واقعه.. ويعقد القرآن بينهما، فيجمع بين المثالية والواقعية.. كما يستشرف المستقبل، الذى نرجو أن يكون أفضل من الأمس، وأخف قيودًا من اليوم..

فبروائع الكتب الإسلامية يتم إحياء العقل المسلم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وبهذا الإحياء الإسلامى تعود أمتنا إلى مكانها الطبيعى مكان الريادة والإمامة والقيادة ـ الذى تبوأته عندما كانت العالم الأول على ظهر هذه الأرض لأكثر من عشرة قرون.

﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ [المعارج: ٦، ٧].

فهى خير أمة أخرجت للناس.. ولدت من بين دفتى الكتاب الذى لا ريب فيه.. وكانت حياتها وإحياؤها ـ دائمًا وأبدًا ـ بواسطة الكتاب.. الذى هو أوفى أصدقاء الإنسان..

وعلى الله قصد السبيل.. نسأله الهداية والتوفيق.. إنه ـ سبحانه وتعالى ـ خير مسئول وأكرم الحبيب.

٣ ذو القعدة ١٤٣٨ هـ — دكتور

٢٦ يوليو ٢٠١٧م — **محمد عمارة**

الإسلام فى عيون غربية

بين افتراء الجهلاء وإنصاف العلماء

تمهيد

الإسلام: الدين.. والأمة.. والدولة.. والحضارة

الإسلام: دين التوحيد.. توحيد الله، سبحانه وتعالى، فى الألوهية والربوبية.. والذات.. والصفات.. والأفعال.. حتى إنه قد بلغ فى هذا التصور التوحيدى قمة التنزيه والتجريد، اللذين لا تستطيع اللغة البشرية التعبير عن حقيقة كنههما.. وإنما ـ فقط ـ تضرب لهما الأمثال التى تقربهما إلى التصورات.. فخلاصة الإسلام، والإخلاص للإسلام، هو التوحيد الذى جاءت به سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]..

والله، سبحانه وتعالى، فى التصور الإسلامى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].. وبعبارة فلاسفة الإسلام: «فكل ما خطر على بالك فالله ليس كذلك!»..

وعلى حين ترى مذاهب وفلسفات أخرى أن لله صورة، وأنه قد خلق آدم على صورته ـ أى على صورة الله ـ فإن الإسلام العقيدة ـ ومعه العربية اللغة ـ وهى لغة كتابه وشريعته ـ يفسر هذه المأثورة ـ «لقد خلق الله آدم على صورته» ـ رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد ـ بأن الله قد خلق آدم ـ عليه السلام ـ على صورته، ـ أى صورة آدم، إذ الضمير، فى «صورته» يعود إلى أقرب مذكور، فسبحان الله وتنزه عن التصور والصُّور والتصوير.

* * *

● وشريعة الإسلام: هى الدرجة العليا والأخيرة والخاتمة فى سلم شرائع

النبوات والرسالات، التى توالت ـ فى إطار دين الله الواحد ـ من آدم إلى محمد، عليهم الصلاة والسلام.. لذلك، جاءت هذه الشريعة الإسلامية مصدقة ومستوعبة لما بين يديها، ولما سبقها من النبوات والرسالات والكتب والصحائف والألواح.. مصدقة فى ثوابت عقائد الدين الإلهى الواحد وقيمه.. ومهيمنة على تلك الشرائع، بالتصحيح لما حدث فيها من التحريف والتغيير والتبديل.. وبالتذكير لما وقع فيها من النسيان.. وبالتجديد والإضافة فيما تجاوزه التطور الزمانى والتغير المكانى والتبدل فى الأعراف.. كما جاءت هذه الشريعة الإسلامية الخاتمة بالانتقال بنطاق التشريع الإلهى من المحلية إلى العالمية.. ومن التوقيت إلى الخلود.. ومن مجرد «الدعوة الدينية» إلى «المنهاج الشامل» للدين والدولة والأمة والحضارة والاجتماع.. وذلك حتى تحرس الدولة الدين، ويسوس الدين الدولة.. فلم تقف هذه الشريعة ـ فقط عند مملكة السماء ـ خارج هذا العالم ـ وإنما شملت الدنيا مع الآخرة، والفرد مع المجموع، والآخر مع الذات.. ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

وإذا كانت آيات العالمية فى القرآن الكريم قد نزلت فى المرحلة المكية، قبل الهجرة والدولة ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤]. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].. فإن هذه العلاقة بين الشريعة الإسلامية وبين أهل الشرائع الإلهية السابقة قد أخذت طريقها إلى «التنظير» و«التقنين» و«التطبيق» منذ اللحظات الأولى للعلاقات التى قامت بين الأمة الإسلامية ودعوتها ودولتها وبين أهل تلك الشرائع والديانات.

□ ففى دولة المدينة المنورة، ومنذ العام الأول لقيامها سنة ١ هـ ٦٢٢م ـ نص «دستورها» ـ الذى اشتهر بـ«الصحيفة» و«الكتاب» ـ على: أن «**يهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. ومن تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، غير مظلومين ولا مُتَنَاصر عليهم.. وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم**»[1].

---

(١) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١٧ ـ ٢١ جمعها وحققها: د. محمد حميد الله الحيدر آبادى ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

■ وفى أول لقاء مع النصرانية ـ سنة ٧ هـ ٦٢٨م ـ السنة التى بدأت فيها العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية ـ خاطب الصحابى «حاطب بن أبى بلتعة» [٣٥ ق. هـ ـ ٢٠ هـ ـ ٥٨٦ ـ ٦٥٠م] «المقوقس» ـ عظيم القبط فى مصر ـ محددًا علاقة الإسلام بما سبقه من شرائع ورسالات.. فقال ـ «للمقوقس»: «**إن لك دينًا ـ [أى النصرانية] ـ لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام، الكافى به الله فقد ما سواه. وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل. ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به..**»(١).

فلما استقبل رسول الله ﷺ وفد نصارى «نجران» ـ فى المدينة سنة ١٠ هـ سنة ٦٣١م ـ فتح لهم باب مسجد النبوة. فصلوا فيه صلاتهم لعيد الفصح.. وقنن لهم ـ فى العهد الذى كتبه لهم ـ علاقة الشريعة الإسلامية ودولتها بالشريعة النصرانية والمتدينين بها، وهى علاقة «المواطنة» الكاملة فى ظل الدولة الإسلامية والمرجعية الدينية والأمة الواحدة.. صنع ذلك رسول الله ﷺ، عندما كتب لهم: «**لنجران وحاشيتها وسائر من ينتحل دين النصرانية فى أقطار الأرض جوار الله وذمة محمد رسول الله، على أموالهم وأنفسهم وملتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم.. أن أحمى جانبهم، وأذب عنهم، وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان، ومواطن السياح.. وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا بما أحفظ به نفسى وخاصتى وأهل الإسلام من ملّتى.. لأنى أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم.. حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم**»(٢).

فقرر الإسلام وقنّن ـ منذ ذلك التاريخ ـ كامل حقوق المواطنة، انطلاقًا من الدين، وعلى أساس من العقيدة الإسلامية ـ وليس على أنقاض الدين والاعتقاد الدينى كما هو حال «المواطنة» فى حضارات أخرى!

* * *

(١) ابن عبد الحكم: [فتوح مصر وأخبارها] ص ٤٦. طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م.

(٢) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١١١ ـ ١٢٨.

● والإسلام: هو الدين القيّم.. ودين القِيَم: أى الدين المستقيم، والمقوِّم لأمور الناس ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]. ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وهو دين القيِّمة.. أى دين الأمة التى تسلك سبيل العدل والاستقامة ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].. فمساحة القيم والأخلاق فى شريعة الإسلام هى مصدر القانون والمعيار لإسلامية هذا القانون.

* * *

● والإسلام: دين البيّنة، التى تبيّن الشىء وتوضحه، حسيًّا كان هذا الشىء أو عقليًّا.. ولقد ورد هذا المصطلح ومشتقاته فى القرآن الكريم فى ثلثمائة وسبعة وخمسين موضعًا: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢]. ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

* * *

● والإسلام: دين البرهان، أى الحجة الفاصلة البينة.. يقيم البرهان على عقائده وحقائقه.. ويدعو الآخرين إلى البرهنة على ما لديهم من مقولات وتصورات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]. ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤]. ﴿وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٥]. ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٦٣ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٥٩ ـ ٦٤].

* * *

● والإسلام: علم ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

والله ـ في الإسلام ـ هو: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [التوبة: ٩٤]: وأولوا العلم، فى الإسلام، هم ـ مع الله والملائكة ـ القائمون بالقسط: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [آل عمران: ١٨]. وهم الأكثر خشية لله، عندما يكتشفون أسرار الإبداع الإلهى والقدرة الإلهية فى الكون ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨].

لذلك، فإن الإسلام إذا حاكم واحتكم إنما يحاكم إلى العلم وإليه يحتكم: ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣]. ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ

فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٤].

* * *

● والإسلام: نور واستنارة وتنوير إيمانى ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [النور: ٣٥]. ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

والله ـ فى الإسلام ـ نور: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ [النور: ٣٥].. والقرآن نور: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ [التغابن: ٨]. وكذلك «الحكمة» ـ التى هى الصواب العقلى هى الأخرى نور.. وفى الحديث النبوى يقول رسول الله ﷺ: «إن الله يحيى القلوب بنور الحكمة» ـ رواه الإمام مالك فى [الموطأ]. ورسول الله ﷺ، نور: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥].

* * *

● والعدل ـ فى الإسلام ـ اسم من أسماء الله سبحانه وتعالى(١).

والله، سبحانه وتعالى يأمر بالعدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

ولأن العدل نقيض الظلم، فلقد حرّم الله الظلم على نفسه، وعلى عباده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء: ٤٠]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا ﴾ [يونس: ٤٤]. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]. ولذلك، كان العدل هو الروح السارية فى الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية.. فلقد حرم الإسلام حتى ظلم الإنسان لنفسه،

(١) الغزالى أبو حامد: [المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى] ص ٦٠ ـ ٦٣ طبعة مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.

ومن باب أولى ظلمه لغيره ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

ولقد أوجب الإسلام العدل فى كل المعاملات والعلاقات، حتى مع من نكره ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٨] وحتى مع من يُقاتلنا ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]. ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

ولقد أسس الإسلام فريضة العدل مع الآخرين على سنة من سنن الله الكونية والتكوينية التى لا تبديل لها ولا تحويل.. وليس على مزاج يتغير أو خُلق يتبدل.. فالتنوع والاختلاف ـ أى وجود الآخرين ـ هو سنة من سنن الله فى كل عوالم المخلوقات.. والواحدية والأحدية هى فقط للذات الإلهية، ومن عداه وما عداه ـ فى عوالم الإنسان.. والأفكار.. والشرائع والملل.. والمناهج والثقافات والحضارات.. والألسنة واللغات والقوميات.. والأجناس والألوان.. والشعوب والقبائل ـ بل وفى النبات والحيوان والجماد.. هذا التنوع والتمايز والاختلاف فى جميع هذه العوالم سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل.. والتعارف ـ المؤسس على التعايش والتعاون والتحاور ـ هو المقصد الأسمى لهؤلاء الفرقاء المختلفين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]. ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]. ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩]..

أى وللتنوع والاختلاف والتمايز خلقهم.. وفى هذا التنوع والاختلاف الحافز على التسابق فى طريق الخيرات بين المختلفين ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وإذا كان الإسلام قد اعترف بكل النبوات والرسالات والكتب والشرائع التى توالت على طريق علاقة السماء بالإنسان، عبر التاريخ الطويل للنبوات والرسالات ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].. وتجاوز ـ بذلك ـ مجرد الاعتراف بالآخر إلى حيث جعل هذا «الآخر» جزءا من «الذات»، عندما قرر أن تنوع الشرائع السماوية إنما هو تمايز فى إطار وحدة دين الله.. فلكل أمة شرعة، أما الدين فواحد.. والأنبياء ـ ومن ثم أممهم ـ إخوة، أمهاتهم ـ أى شرائعهم ـ شتى، وأبوهم ـ أى دينهم ـ واحد.. وفى هذا المعنى وهذه الفلسفة جاء حديث رسول الله ﷺ: «الأنبياء أولاد عَلّات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد» (رواه البخارى ومسلم وأبو داود والإمام أحمد).

ولهذه الحقيقة ـ حقيقة نظرة الإسلام هذه إلى «الآخر»، وعلاقته به.. كان العدل الإسلامى الذى حرص دائمًا على أن يميز بين الفرقاء والفصائل والمذاهب والتيارات والطوائف فى هذا «الآخر»، فلا يعمم ولا يضع الجميع فى «سلة» واحدة كى لا يظلم بهذا التعميم.. ولذلك، لا نجد الإسلام ـ مثلاً ـ يضع أهل الكتاب جميعهم فى «سلة» واحدة، فيعمم الحديث عنهم، إنما نجده يتحدث عن «كثير» من أهل الكتاب.. و«طائفة» من أهل الكتاب.. و«فريقًا» من أهل الكتاب.. فهم [ليسوا سواء].. وإنما [منهم أمة مقتصدة] ومنهم الذين [ساء ما يعملون]. يسلك القرآن الكريم سبيل العدل هذا، فيميز بين الفرقاء المتمايزين وفق تمايزهم وعلاقاتهم بالكلمة السواء.. فنقرأ فيه: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ

شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣ ـ ١١٦]. ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٩]. ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٢]. ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٩]. ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٥]. ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فمن أهل الكتاب: [أمة مقتصدة] ومنهم من هم ﴿أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾. ومنهم من هم أقرب مودة للذين آمنوا ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣].

وإذا كانوا ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ﴾.. فإن جزاءهم عند الله ليس واحدًا.. فالذين كفروا منهم ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٦]. أما ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [المائدة: ٦٩].

والمسلمون يدعون كل فرقاء «الآخر» إلى كلمة سواء ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤]. والجدال معهم يجب أن يكون، ليس فقط بالأسلوب الحسن، وإما بالأحسن ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]..

فالكلمة السواء هى أصول الإيمان الثلاثة: التوحيد لله.. والإيمان بالغيب.. والعمل الصالح.. مع التنوع فى الشرائع داخل أصول هذه الكلمة السواء.

ولهذا العدل الإسلامى، لم يعمم القرآن الكريم الحكم بالتحريف على كل ما لدى أهل الكتاب، وإنما نبه على أن فيما لديهم هدى ونور.. فـ﴿ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦]. ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧]. ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]. ﴿وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣].

هكذا بلغ الإسلام الذروة فى العدل مع كل ألوان أطياف «الآخرين» و«المخالفين».

* * *

● ولأن الإيمان ـ فى الإسلام وبالإسلام ـ هو تصديق قلبى يبلغ مرتبة اليقين، استحال الوصول إلى هذا الإيمان بأى لون من ألوان الإكراه، فكانت القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].. لذلك كان سبيل الإسلام إلى القلوب هو الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].. فمن استجاب قلبه كان مؤمنًا بالإسلام.. ومن أعرض قلبه، فـ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]. ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].. وحسابه فى الآخرة ـ إلى الله وعلى الله.. أما فى الدنيا، فإن «له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين».

ولهذه الحقيقة كان انتشار الإسلام سلميًّا.. بل ودون مؤسسة تبشيرية ترعى وتعمل على هذا الانتشار.. وإذا كانت أغلب بقاع عالم الإسلام وأكثر شعوب الأمة الإسلامية عددًا لم تجرِ فيها فتوحات ولا حروب إسلامية.. فإن كل حروب الإسلام إنما كانت دفاعًا عن حرية الاعتقاد، وحرية الضمير، وحرية الاختيار، وحرية الوطن الذى يعيش فيه المسلمون.. فكل غزوات عهد النبوة إنما كانت ضد الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم وفتنوهم فى دينهم ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ

عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤٠].

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الممتحنة: ٧ ـ ٩].

فلم يعرف الإسلام «حروبًا دينية»، لقهر المخالفين على الإيمان به.. وكل ضحايا غزوات عهد النبوة من الجانبين ـ شهداء المسلمين وقتلى المشركين ـ هم، على سبيل الحصر ٣٨٦ قتيلًا!! ـ ١٨٣ هم جملة شهداء المسلمين.. و٢٠٣ هم جملة قتلى المشركين[١]. بينما ضحايا «الحروب الدينية»، داخل النصرانية ـ بين الكاثوليك والبروتستانت ـ قد بلغت عشرة ملايين ـ وفق إحصاء «ڤولتير» [١٦٩٤ ـ ١٧٧٨م] ـ أى ٤٠٪ من شعوب وسط أوروبا أبيدوا فى هذه الحروب الدينية التى امتدت نحو قرنين من الزمان!

أما كل معارك الفتوحات الإسلامية، فى القرن الهجرى الأول، فإنها كانت ضد جيوش القوى الاستعمارية التى قهرت الشرق، سياسيًّا وحضاريًّا ودينيًّا وثقافيًّا، لأكثر من عشرة قرون.. ضد جيوش القيصرية الرومانية والكسروية الفارسية.. ولم تدر معركة واحدة بين جيوش الإسلام وبين أهل البلاد المفتوحة.. بل لقد وقف أهل تلك البلاد ـ وهم على دياناتهم القديمة ـ مع جيوش الفتح الإسلامى، وشاركوا فى هذه الفتوحات.. ورأوا فيها تحريرًا لأوطانهم من القهر الاستعمارى الرومانى.. وتحريرًا لضمائرهم وعقائدهم من القهر الدينى والحضارى.. بل ورأوها إنقاذًا إلهيًّا لهم ـ على يد المسلمين ـ وعقابًا إلهيًّا للمستبدين الرومان.

وبهذه الحقيقة شهد الأسقف «يوحنا النقيوس» ـ وهو شاهد عيان على الفتح

---

(١) ابن عبد البر: [الدرر فى اختصار المغازى والسير]. تحقيق: د. شوقى ضيف. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩م.

الإسلامى لمصر فقال: «**إن الله الذى يصون الحق، لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتجرئهم عليه، وردَّهم إلى يد الإسماعيليين ـ [العرب المسلمين] ـ ثم نهض المسلمون وحازوا كل مدينة مصر، وكان «هرقل» [٦١٠ ـ ٦٤١] حزينا.. وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا فى مدينة مصر، وبأمر الله الذى يأخذ أرواح حكامهم، مرض «هرقل» ومات. وكان عمرو بن العاص يقوى كل يوم فى عمله، ويأخذ الضرائب التى حددها، ولم يأخذ شيئًا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئا ما، سلبا أو نهبا، وحافظ على الكنائس طوال الأيام**»[١].

وشهد بذلك أيضا الأسقف «ميخائيل السريانى» [١١٢٦ ـ ١١٩٩م] فقال: «لم يسمح الإمبراطور الرومانى لكنيستنا بالظهور، ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنائس التى نُهبت، ولهذا، فقد انتقم الرب منه، **لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء إسماعيل لينقذونا من أيدى الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية، وعشنا فى سلام**»[٢].

فالفتوحات الإسلامية كانت تحريرًا لأوطان الشرق من الاستعمار والاستعباد والاستغلال الرومانى.. وكانت «إنقاذًا» لنصارى الشرق ونصرانيتهم من القهر الرومانى.. حررت الأرض.. وحررت ضمائر الشعوب، ثم تركتهم وما يدينون فى «سلام».. فكانت نصرانية الشرق ـ بهذه الفتوحات ـ «هبة الإسلام»!

* * *

● ولأن الإسلام «دين» و«دولة» و«حضارة» فلقد فجر، منذ ظهوره «الإبداع الحضارى» مع هدايته القلوب إلى «الإيمان بالله».

فبينما اقترن انتشار النصرانية فى أوروبا ـ فى القرن الرابع الميلادى ـ ببدايات العصور الأوروبية الوسطى والمظلمة، التى بدأت فى القرن الخامس الميلادى، وامتدت عشرة قرون.. حتى أن أوروبا النصرانية لم تعرف أول فلكى فى تاريخها

(١) يوحنا النقيوسى: [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى] ص ٢٠١، ٢٢٠. ترجمة ودراسة: د. عمر صابر عبد الجليل. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

(٢) د. صبرى أبو الخير سليم: [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] ص ٦٢ طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١م.

«كوبر نيكوس» [١٤٧٣ ـ ١٥٤٣م] ـ إلا فى القرن السادس عشر.. وكتابه الذى كتبه عن [دوران الأفلاك] سنة ١٥٣٠م، لم يطبع إلا بعد وفاته.. وظل مصادرًا من قبل الكنيسة حتى القرن الثامن عشر سنة ١٧٥٨م!!

بينما حدث هذا لأوروبا المسيحية، فجرّ الإسلام ـ منذ ظهوره ـ الإبداع الحضارى، فى علوم التمدن المدنى مع علوم العقيدة والشريعة والتفسير والحديث.

إن أوروبا المسيحية قد تخلفت عن العلوم المدنية والطبيعية عشرة قرون، فى ظل نصرانيتها، بينما فجر الدين الإسلامى الإبداع الحضارى فى العلوم المدنية والطبيعية منذ القرن الهجرى الأول.. ولقد وقفت خلف هذا الامتياز والتميز الإسلامى أسباب عديدة.. فى مقدمتها:

● تميز النظرة الإسلامية «للطبيعة» و«العالم» عن النظرة المسيحية لهذه «الطبيعة» وهذا «العالم».. فالطبيعة والعالم ـ فى النظرة الكنسية ـ «مدنَّس»، فى مقابل اللاهوت «المقدس»، ومملكة هذا اللاهوت الكنسى أشرف من أن تتحقق فى هذا العالم «المدنَّس».. لذلك، كان الاشتغال بالعلوم الطبيعية والتجريبية عملًا شيطانيًّا، لأنه طلب للعلم خارج «المقدس» ـ الإنجيل واللاهوت ـ وكانت «التجارب» فى ظل هذا اللاهوت الكنسى كالعمل اليدوى فى ظل الفكر الإغريقى مما لا يليق بالأحرار والأشراف.. وإنما هى من عمل العبيد الأرقاء!

ومن هنا كان اضطهاد الكنيسة لكل الذين اشتغلوا بالعلم التجريبى.. وكانت انتصارات هذه العلوم الطبيعية التجريبية ـ فى النهضة الأوروبية ـ على أنقاض سلطان الكنيسة وسلطان رجال الدين، وفى ظلال العلمانية، التى استبدلت «الدين الطبيعي» «بالدين الإلهي»، وجعلت العالم والطبيعة المصدر الوحيد للمعرفة، بل وألّهت الطبيعة، وأحلتها محل الله، وجعلت مملكتها فى هذا العالم وحده، منكرة عالم الغيب ومملكة السماء.

هكذا تأخر العلم الطبيعى فى أوروبا المسيحية ـ حتى استردت العلمانية «الشرف» للطبيعة، فى ثورتها على اللاهوت!

ـ أما الإسلام ـ الذى اقترن فيه «الإيمان» «بالعمل» ـ فإنه قد رأى ويرى فى هذه «الطبيعة» خليقة مخلوقة لله سبحانه وتعالى، مثلها فى ذلك مثل الإنسان، وكل عوالم المخلوقات.. فلها ـ ككل المخلوقات ـ شرف الخلق الإلهى.. بل إن هذه الطبيعة ـ فى الرؤية الإسلامية ـ حية مؤمنة بخالقها، وهى تسبحه كما نسبحه، حتى وإن لم نفقه نحن تسبيحها!.. إن لها شرف الخلق الإلهى حتى إن الإمام محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ ـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] كان يؤثر أن يسميها «الخليقة»، بدلا من «الطبيعة»، ولها شرف الخطاب الإلهى لها.. بل وعرض الأمانة عليها.. ولها ـ كذلك ـ شرف العبادة والتسبيح لله!

ـ ثم إن هذه الطبيعة ـ الخليقة ـ قد سخرها الله سبحانه وتعالى، بكل قواها وطاقاتها، لخدمة الإنسان، فغدا عمرانها التحقيق للأمانة التى حملها الإنسان، كخليفة لله، سبحانه وتعالى.. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤]. فالبحث فى هذه الطبيعة التى خلقها الله.. وخاطبها.. وسخرها للإنسان.. والنظر فى سننها، والاكتشاف لأسرارها، عبادة لله، وقيام بالفريضة الإلهية التى كانت أولى فرائض الإسلام ـ فريضة القراءة لآيات الله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

فالقراءة هنا قراءتان: قراءة لآيات الله الكونية والطبيعية ـ المودعة فى الطبيعة وقراءة لآيات الله المنزلة.. أى قراءة فى كتاب الله المنظور.. وقراءة فى كتاب الله المسطور.

بل إن القرآن قد جعل البحث والتجريب والاكتشاف لأسرار الله فى الطبيعة

والكون، بواسطة العلوم الطبيعية والتجريبية، فى مقدمة الأسباب الداعمة للإيمان الدينى، والمفضية إلى أن يكون علماء هذه العلوم الطبيعية هم الأكثر خشية لله، سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧ ـ ٢٨].

على حين كان المشتغلون بهذه العلوم الطبيعية والتجريبية ـ بنظر الكنيسة الأوروبية ـ هم المارقون والملاحدة، الذين تركوا البحث فى «المقدس» ـ اللاهوت ـ واشتغلوا بالتجريب فى «المدنَّس» ـ الطبيعة وعلومها!!

لهذه الحقائق، التى ما يزت بين الإسلام وبين نصرانية الكنيسة الأوروبية، عاشت أوروبا المسيحية عشرة قرون مظلمة ـ بدأت بسقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية سنة ٤٧٦م ـ الذى تزامن مع انتشار المسيحية فى أوروبا ـ وامتدت حتى اكتشاف «كريستوفر كولمبس» [١٤٥١ ـ ١٥٠٦م] لأمريكا سنة ١٤٩٢م.. وبدء الإصلاح الدينى على يد «مارتن لوثر» [١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م] فى القرن السادس عشر الميلادى.

أما الإسلام، فإنه ـ لتميزه.. ولتميز موقفه من الطبيعة ـ ولأنه دين ودولة وحضارة قد سلك طريقًا آخر.. اقترن فيه الإبداع فى العلوم الطبيعية والتجريبية والمدنية بالإبداع فى العلوم الشرعية.. وكانت فيه الطبيعة وعلومها وآيات الإبداع فيها هى السبيل إلى معرفة الله وعظمته وقدرته وهى السبيل إلى خشيته.. بينما أدى الغلو العلمانى الذى جاء رد فعل للغلو الكنسى إزاء الطبيعة إلى أن صاح الذين أحلوا العلم الطبيعى محل الله، صحيتهم المنكرة التى قالوا فيها «لقد مات الله!!».

لقد برئ الإسلام من غلو احتقار الطبيعة.. ومن غلو تأليه الطبيعة.. حتى لقد رأينا الإبداع فى العلوم الشرعية والإلهية يجاور ويزامل الإبداع فى العلوم الطبيعية والتجريبية، ليس فقط فى المجتمع الإسلامى، وإنما فى عقل العالم المسلم، وفى المشروع الفكرى لكثير من علماء الإسلام.. فلم نعرف علماء للعلوم الشرعية.. وآخرين للعلوم الطبيعية.. وإنما وجدنا تجسد هذه النظرة الإسلامية الجامعة

بين عالم الغيب وعالم الشهادة.. بين قراءة آيات الله المسطورة فى كتاب الوحى وقراءة آيات الله المنظورة والمبثوثة فى الأنفس والآفاق.. وجدنا تجسد هذه النظرة الجامعة فى المشروعات الفكرية لكثير من علماء الإسلام الذين جمعوا ـ فى ثقافتهم ـ بين «الشرعى» و«المدني» فى المعارف والعلوم.. فكانوا «تجريبيين ـ مؤمنين».. و«روحانيين ـ ماديين»، لأن الدين ـ فى حضارتهم: وضع إلهى يسوق الإنسان لعبادة الله ولعمران الكون، ولإقامة دولته فى هذا العالم الطبيعى، مستعينًا فى أداء أمانة الاستخلاف بكتابى «الوحي» و«الوجود».

ومن هؤلاء العلماء، الذين امتزجت فى إبداعاتهم العلوم الإلهية بالعلوم الطبيعية:

● أبو الوليد ابن رشد [٥٢٠ ـ ٥٩٥ هـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨م] الذى كان الناس يفزعون إلى فتواه فى «الفقة» كما يفزعون إلى فتواه فى «الطب».. فهو الطبيب المجرب.. والفقيه الأصولى المتكلم.. والحكيم.. إنه صاحب [كتاب الكليات] ـ فى الطب ـ و[بداية المجتهد ونهاية المقتصد] ـ فى الفقه ـ و[مناهج الأدلة فى عقائد الملة] و[فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] ـ فى علم الكلام والتوحيد..

● وابن سينا، أبو على الحسين بن عبد الله [٣٧٠ـ٤٢٨هـ ٩٨٠ـ١٠٣٧م] الذى كان «الشيخ الرئيس» فى «الشرعى» و«المدني».. فى «الإلهيات» و«الطبيعيات». فى «التصوف» و«النبات والحيوان» و«الهيئة».. فمن آثاره فى الطب: [القانون].. وفى الحكمة والإلهيات: [الشفاء] و[المعاد] و[أسرار الحكمة المشرقية].. وفى التجريب والطبيعة: [النبات والحيوان] و[الهيئة] و[أسباب الرعد والبرق].. إلخ.

● والبغدادى، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر [٤٢٩هـ ـ١٠٣٧م] الذى اشتهر بإبداعاته المتميزة فى أصول الدين.. والمبرزة فى الحساب.. وفى الهندسة.. حتى لقد قالوا: إنه كان يُدَرّس فى سبعة عشر فنًا! ومن آثاره: [أصول الدين] و[تفسير القرآن] و[معيار النظر] و[التكملة فى الحساب] و[رسالة فى الهندسة].. إلخ.

● والخيام، أبو الفتح عمر بن إبراهيم [٥١٥ هـ ١١٢١م] اللغوى.. والشاعر.. والفيلسوف.. والمؤرخ.. والرياضى.. والفقية.. والمهندس.. والفلكي!

.. ولقد بقيت لنا من آثاره: [مقالة فى الجبر والمقابلة] و[شرح ما يشكل من مصادرات إقليدس] و[الاحتيال لمعرفة مقدارى الذهب والفضة فى جسم مركب منهما] و[الرباعيات] و[الخلق والتكليف].. وغيرها من الآثار الشاهد تنوعها وتكاملها على هذا المذهب الإسلامى فى تكامل مصادر المعرفة وتكامل أدواتها، وتكامل الإبداع فيها..

● والفخر الرازى، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر [٥٤٤ ـ ٦٠٦هـ ١١٥٠ ـ ١٢١٠م] الذى كان الإمام فى علوم الدين والدنيا جميعًا.. حتى لقد قال مؤرخوه: «إنه كان أوحد زمانه فى: المعقول.. والمنقول.. وعلوم الأوائل».. ومن بين آثاره الكثيرة والجامعة لأقطار المعرفة وتخصصاتها، نجد: [مفاتيح الغيب] ـ فى تفسير القرآن الكريم ـ و[معالم أصول الدين] و[لوامع البينات فى شرح أسماء الله الحسنى والصفات] و[الخلق والبعث] ـ فى التوحيد وأصول الدين.. و[محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين] و[نهاية العقول] و[والبيان والبرهان] ـ فى الفلسفة.. و[المباحث المشرقية] ـ فى التصوف.. و[السر المكتوم] ـ فى الفلك.. و[النبوات] ـ فى النبوة والرسالة.. و[النفس] ـ فى علم النفس.. كما أبدع فى الهندسة [كتاب الهندسة] و[كتاب مصادرات إقليدس].. إلخ.

هكذا تكامل وتزامل وامتزج «الشرعى» و«المدنى».. «الإلهي» و«الطبيعى».. «الروحى» و«المادى».. و«المنقول» و«المعقول» فى الإبداع الإسلامى، دونما تناقض، كذلك الذى رأيناه فى أوربا النصرانية، ذلك أن الإسلام قد جاء ليعلم الإنسان أن المقاصد من خلق الله له، هى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. لكنه لم يحصر العبادة فى الشعائر وفى المحاريب.. بل لقد رأيناه يجعل الأرض والطبيعة كلها محرابًا ومسجدًا..!! ورأيناه قد جعل عمران الكون وصلاح الدنيا ـ بالمعارف والعلوم الكونية والشرعية ـ من أفضل العبادات.. فالدنيا والطبيعة ليست «دنسًا»، مقابلًا للدين «المقدس» وإنما هى خلق الله، الذى يسبحه، والذى يتوقف «صلاح الدين» على صلاحه، لأن معارف الدنيا والأمن فيها هما شرط صحة العبادات وصلاح الدين.. حتى ليقول حجة

الإسلام أبو حامد الغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م]: «**إن نظام الدين لا يصلح إلا بنظام الدنيا.. فنظام الدين، بالمعرفة والعبادة، لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن، وبقاء الحياة، وسلامة قدر الحاجات من: الكسوة، والمسكن، والأقوات، والأمن.. فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية.. فبان، إذن، أن نظام الدنيا.. شرط لنظام الدين**»(١).

بل ووجدنا من فلاسفة الإسلام وعلماء الإلهيات فى الحضارة الإسلامية من يرى فى الاشتغال بأبحاث العلوم التجريبية قربة إلى الله، سبحانه وتعالى، وعبادة من أفضل العبادات.. فالعلم الطبيعى، وتدبر حقائق الكون وسننه وقوانينه، واكتشاف أسرار الإبداع الإلهى فيه، هى السبيل لمعرفة الله، التى هى جوهر الدين، وباب الدخول إليه، كما أنها هى السبيل إلى خشية الإنسان لربه، وهى المحققة لجوهر الشعائر والمناسك والعبادات ومقاصدها وثمراتها.. ولذلك تحدث الجاحظ [١٦٣ ـ ٢٥٥هـ ٧٨٠ ـ ٨٦٩م] عن هذا العلم الطبيعى «**الذى تفرغ للجدال فيه الشيوخ الجلّة، والكهول العلية، حتى يختارون النظر فيه على التسبيح والتهليل وقراءة القرآن، وطول الانتصاب فى الصلاة، حتى ليزعم أهله أنه فوق الحج والجهاد، وفوق كل بر واجتهاد**»(٢).

فالطبيعة ليست مدنسة، بل هى مخلوق يسبح الخالق.. ومقامها فى الشرف هو مقام الحقيقة التى بدونها لا يعرف الإنسان الألوهية ولا التوحيد!.. فالجمع بين علومها وبين الإلهيات خصيصة من خصائص الفلسفة الإسلامية، وأمارة من أمارات التمكن من الصناعة والرياسة فى العلم الإسلامى.. وبعبارة الجاحظ: «**وليس يكون المتكلم جامعًا لأقطار الكلام، متمكنًا من الصناعة، يصلح للرياسة، حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة. والعالم عندنا هو الذى يجمعهما، والمصيب هو الذى يجمع تحقيق «التوحيد» وإعطاء «الطبائع» حقها من الأعمال، ومن زعم أن «التوحيد» لا يصلح إلا بإبطال حقائق «الطبائع»، فقد حمل**

(١) الغزالى ـ أبو حامد: [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ١٣٥ طبعة مكتبة ومطبعة صبيح ـ القاهرة. بدون تاريخ.
(٢) الجاحظ: [كتاب الحيوان] جـ ١ ص ٢١٦، ٢١٧. تحقيق: عبد السلام هارون. طبعة القاهرة ـ الثانية.

عجزه على الكلام فى «التوحيد»، وكذلك إذا زعم أن «الطبائع» لا تصح إذا قرنها «بالتوحيد». ومن قال هذا فقد حمل عجزه على الكلام فى «الطبائع». وإنما ييأس منك الملحد إذا لم يدعك التوفر على «التوحيد» إلى بخس حقوق «الطبائع» لأن فى رفع «أعمالها» رفع «أعيانها»، وإذا كانت «الأعيان» هى الدالة على الله، فرفعت «الدليل»، فقد أبطلت «المدلول عليه».. ولعمرى! إن فى الجمع بينهما لبعض الشدة.. وأنا أعوذ بالله تعالى أن أكون كلما غمز قناتى باب من الكلام صعب المدخل، نقضت ركنًا من أركان مقالتى. ومن كان كذلك لم ينتفع به!»[1].

فأعيان الطبيعة هى الدليل إلى الألوهية والتوحيد.. والتجريب هو السبيل إلى ذلك.. بينما احتقار الطبيعة، والانصراف عن علومها التجريبية، هو المعطل للدليل على معرفة الله وما له من صفات الكمال والتنزيه.

* * *

والإسلام لم يعرف التناقض بين «العقل» و«النقل».. فالنقل فيه ـ القرآن الكريم ـ معجزة عقلية[2]. والآيات التى تتحدث عن العقل ومقامه، وعن القلب وتعقله، وعن الحكمة، واللُّب، والنُّهى، والفقة، والاعتبار، والتفكر، والتدبر ـ فى القرآن الكريم ـ تقرب من ثلثمائة آية!

فالنقل ـ فى الإسلام ـ معجزة عقلية.. والعقل ـ فى الإسلام ـ هو سبيل فقه النقل، فهو الأساس للدين، ولا بناء بدون أساس.. وبعبارة الماوردى [٣٦٤ ـ ٤٥٠ هـ ٩٤٥ ـ ١٠٥٥م]: «**فإن السبب المؤدى إلى معرفة الأصول الشرعية والعمل بها هو علم الحس، وهو العقل، لأن حجج العقل أصل لمعرفة الأصول، إذ لا تُعرف الأصول إلا بحجج العقول..**»[3].

وإذا كان النقل والشرع كالضياء والنور، فإن العقل كالبصر، وبدون العقل يصبح

---

(١) المصدر السابق. جـ ٢ ص ١٣٤، ١٣٥.

(٢) محمد عبده: [الأعمال الكاملة] جـ ٢ ص ٢٧٩ ـ ٢٨١. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

(٣) الماوردى: [أدب القاضى] جـ ١ ص ٢٧٤. طبعة بغداد سنة ١٩٧١م.

الناس عميانًا أو مغمضى الأجفان لا يستفيدون من ضياء الشرع ونور النقل.. وبعبارة حجة الإسلام الغزالى: «**فإن مثال العقل: البصر السليم عن الآفات والآذاء، ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء.. فالمعرض عن العقل، مكتفيًا بنور القرآن، مثاله: المتعرض لنور الشمس مغمضا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان.. فالعقل مع الشرع نور على نور**»[1].

فالإسلام، ليس الكهنوت الكنسى الذى ناصب العقل ـ مع الطبيعة ـ الاحتقار والازدراء.. حتى لقد قال القديس الفيلسوف «أنسيلم» [١٠٣٣ ـ ١١٠٩م]: «**يجب أن تعتقد أولا بما يعرض على قلبك، بدون نظر، ثم اجتهد بعد ذلك فى فهم ما اعتقدت، فليس الإيمان فى حاجة إلى نظر عقل**»!![2].

الإسلام ليس هذا اللاهوت الكنسى، وإنما هو الدين الذى قال بعض فلاسفته ـ ومنهم أبو على الجبّائى [٢٣٥ ـ ٣٠٤هـ ٨٤٩ ـ ٩١٦م] انطلاقًا من أوامر القرآن الكريم بالنظر ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [يونس: ١٠١]. ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]. قال كثير من فلاسفة الإسلام ـ انطلاقًا من هذا الأمر القرآنى بالنظر ـ أى التأمل والتدبر والتفكر والاعتبار: «**إن الواجب الأول على الإنسان هو النظر**»، لأن النظر هو السبيل إلى معرفة الله[3].

* * *

● لهذه الحقائق، التى ميزت الإسلام عن النصرانية ـ فى لاهوتها الكنسى ـ أقام الإسلام ـ فى أرض الواقع ـ مدنية وحضارة وإبداعًا فى العلوم الطبيعية، مع إقامة إنسانه الصلوات فى المساجد والمحاريب.. ولم يقف هذا التميز، فقط عند الإبداع المبكر ـ منذ القرن الهجرى الأول ـ فى هذه الميادين، على حين تأخر إبداع الغرب النصرانى فى العلوم الطبيعية عشرة قرون! ـ وإنما تميز الإسلام ـ فى هذا الميدان ـ أيضًا بإقامته المدنية والحضارة والإبداع فى العلوم الطبيعية، انطلاقًا من الدين،

(١) [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ٣٢.

(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٣ ص ٢٧٩.

(٣) د. على فهمى خشيم: [الجبائيان: أبو على وأبو هاشم] ص ٣٣٣. طبعة طرابلس ـ ليبيا سنة ١٩٦٨م.

وبحافز الدين وتحقيقًا لمقاصد الدين، وإرضاء وقربة وعبادة لرب هذا الدين.. وليس ـ كما حدث فى الغرب ـ على أنقاض الدين، وبعد العلمنة، التى مثلت ثورة على الدين، وفى ظل الحداثة، التى مثلت «دين العلم.. الدين الطبيعى» الذى حل محل الدين الإلهى!

لهذه الحقائق، بدأ الإحياء الإسلامى للمواريث العلمية ـ مواريث العلوم الطبيعية والكونية ـ فى الحضارات السابقة.. وبدأ تمثّل الإسلام لهذه المواريث.. و«**بدأ الإنتاج الفكرى العلمى فى الإسلام منذ القرن الأول للهجرة» أى منذ اللحظة التى بدأ فيها تكوين المجتمع الإسلامى فى منتصف القرن الهجرى الأول.. فهذا المجتمع قد «تكوّن من بيئات شتى، وثقافات مختلفة، وألسنة متباينة، فأصبح ـ فى الواقع ـ مقرًا لاتصال أصحاب المدارس العديدة، وتلاقح أفكارها، بعد أن كانت قبله مفصولة بعضها عن بعض، وكان تأثرها ببعضها غائبًا تقريبًا..»**[1].

ومن الشهادات التى شهد بها العلماء الثقاة، على أن هذا الإبداع الإسلامى المبكر فى العلوم المدنية والطبيعية إنما كان ثمرة من ثمرات الدين الإسلامى، شهادة العالم الحجة فى تاريخ العلم: الدكتور فؤاد سيزكين، التى يقول فيها: «**إن هناك دافعًا خطيرًا أسهم إلى حد كبير فى محاولة المسلمين أخذ ما لدى غيرهم من الأمم من علوم ومعارف دون عوائق.. وهذا الدافع يتضح مما أوجزه «فرانس روزنتال» فى كتابه [استمرار علوم الإغريق القدماء فى الإسلام] حيث قال: ليس يكفى الدافع النفعى العملى، أو النظرى ليعلل لنا ظاهرة العملية الواسعة لترجمة الكتب الأجنبية، بل لا بد من فهم موقف الدين الإسلامى ذاته من العلم.. وموقفه هذا كان المحرك الكبير لا للحياة الدينية فحسب، بل للحياة الإنسانية فى جميع جوانبها، وموقف الإسلام هذا هو الدافع الأكبر فى السعى وراء العلوم، وفى فتح الأبواب للوصول إلى المعارف الإنسانية، ولولاه لانحصرت الترجمة فى أشياء ضرورية للحياة العملية وحدها..»**[2].

---

(١) د. فؤاد سيزكين: [مكان المسلمين والعرب فى تاريخ العلوم] مجلة «الثقافة» ـ الجزائرية عدد مارس ـ إبريل سنة ١٩٨٦م ص ٣٦.

(٢) المرجع السابق. ص ٣٧.

فموقف الإسلام من العلم، كان العامل المؤثر فى هذا التمثل المبكر والإبداع المبكر للمسلمين فى ميادين العلوم الطبيعية والكونية والحضارية..

* * *

● ويلفت ابن النديم [٤٣٨ هـ ١٠٤٧م] ـ صاحب [الفهرست] ـ النظر إلى أن البحث عن مواريث السابقين والنظر فيها، والتدوين لعلومها ومعارفها، إنما بدأ فى النصف الأول من القرن الهجرى الأول، على عهد معاوية بن أبى سفيان [٢٠ ق.هـ ـ ٦٠هـ ـ ٦٠٣ ـ ٦٨٠م].. وذلك عندما يذكر **أن عبيد بن شرية [٦٧هـ ٦٨٦م] وهو جاهلى، أدرك الإسلام، وأسلم ـ وفد على معاوية، فسأله معاوية عن الأخبار المتقدمة، وملوك العرب والعجم، وسبب تبلبل الألسنة ـ [أى اختلافها] ـ وأَمْر افتراق الناس فى البلاد؟ ـ وكان استحضره من صنعاء اليمن ـ فأجابه إلى ما أمر به، فأمر معاوية أن يدون وينسب إلى عبيد بن شرية. وعاش عبيد بن شريَّة إلى أيام عبد الملك بن مروان [٢٦ ـ ٨٦هـ ٦٤٦ ـ ٧٠٥م]، وله من الكتب [كتاب الأمثال] و[كتاب الملوك وأخبار الماضين]..»**[١].

فالتدوين لمعارف وعلوم الأوائل قد بدأ فى النصف الأول من القرن الهجرى الأول.. وليس فى العصر العباسى ـ كما شاع عند الكثيرين..

* * *

● ولقد أصبحت الترجمة لعلوم الصنعة ـ العلوم الطبيعية ـ وإحياء تراث مدرسة الإسكندرية فى هذه العلوم «صناعة إسلامية كبرى»، يتفرغ لها كوكبة من المترجمين والعلماء منذ القرن الهجرى الأول.. وكان الأمير الأموى «خالد بن يزيد» [٩٠هـ ٧٠٨م] على رأس العلماء المتبتلين فى هذا الإحياء والتمثل والإبداع العلمى.. وكما يقول صاحب [الفهرست]: «**فإن خالد بن يزيد كان يسمى حكيم آل مروان، وكان فاضلًا فى نفسه خطيبًا شاعرًا، فصيحًا حازمًا، جوادًا ذا رأى. وله همة ومحبة فى العلوم.. ولقد خطر بباله نقل علوم الصنعة إلى العربية، فأحضر جماعة من فلاسفة**

(١) ابن النديم: [الفهرست] ص ٨٩. طبعة ليبزج سنة ١٨٧١م.

اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر، وقد تفصّح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى. وهذا أول نقل كان فى الإسلام من لغة إلى لغة.. كما نقل له «اصطفن القديم» [الإسكندرى] كتب الصنعة وغيرها..»(١).

وخالد بن يزيد هذا - كما يضيف صاحب [الفهرست] - «**هو أول من ترجمت له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء.. ويقال إنه قيل له:**

- لقد فعلت أكثر شغلك فى طلب الصنعة - [أى تخصصت وتفرغت لهذه العلوم] - فقال:

- ما أطلب بذلك إلا أن أغنى أصحابى وإخوانى. وأنا أريد أن أبلغ آخر هذه الصناعة، فلا أحوج أحًدا عرفنى يوما أو عرفته إلى أن يقف بباب سلطان رغبة أو رهبة!

ويقال - والله أعلم - إنه قد صح له عمل الصناعة، وله فى ذلك عدة كتب ورسائل، وله شعر كثير فى هذا المعنى رأيت منه خمسمائة ورقة، ورأيت فى كتبه [كتاب الحرارات] و[كتاب الصحيفة الكبير] و[كتاب الصحيفة الصغير] وكتاب وصيته إلى ابنه فى الصنعة..»(٢).

فنحن هنا أمام ما هو أكثر من الترجمة للعلوم الطبيعية - علوم الصنعة - إلى العربية.. نحن هنا - أيضًا - أمام تطبيقات عربية وإسلامية لهذه العلوم.. وبعبارة «ابن النديم»: فإن خالد بن يزيد «**قد صح له عمل الصناعة**».. **ومشروعه العلمى هذا كان يريد به خلق دولة للعلم والعلماء، توازى - إن لم تتفوق - على دولة السياسة والخلفاء.. فهو بعد أن ذهبت عنه الخلافة، أراد أن يغنى العلماء - ومن ثم الأمة - «عن الوقوف بباب السلطان، رغبة أو رهبة!»**.

فمنذ القرن الهجرى الأول، تخّلقت فى الحضارة الإسلامية والاجتماع الإسلامى نواة «سلطنة العلماء»، التى تعصم أركانها من الوقوف بباب الأمراء!

ونحن هنا أمام إبداعات رأى كتبها صاحب [الفهرست].. بل وأمام صياغات

---

(١) المصدر السابق: ص ٢٤٢، ٢٤٤.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٥٤.

شعرية ومنظومات أدبية لحقائق وقوانين هذه العلوم الطبيعية ـ على عادة العرب فى تركيز الفنون والمتون ـ رأى منه ابن النديم خمسمائة ورقة لخالد بن يزيد وحده!

ويدعم هذه الحقيقة ـ حقيقة التطبيقات الإسلامية المبكرة للعلوم الطبيعية ـ قول «ابن عساكر» [٤٩٩ هـ ـ ١١٠٥م] عن خالد بن يزيد: **إنه قد مارس تجارب تحلية مياه البحر المالحة وتحويلها إلى مياه عذبة!.. وأنه قال لأصحابه: «إن شئتم أُعذبُ لكم ماء البحر؟ فأتى بقلال من ماء.. ثم وصف كيف يصنع به حتى يَعْذُب..»**[١].

وخالد بن يزيد هذا، هو الذى قال فيه خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز [٦١ ـ ١٠١هـ ٦٨١ ـ ٧٢٠م] ـ تقديرًا لمكانة العلم الذى أشرف على ترجمته وتدوينه والإبداع فيه: «**ما ولدت أميّة مثل خالد بن يزيد. لا أستثنى من ذلك عثمان ولا غيره**»![٢].. فقدّمه على عثمان بن عفان [٤٧ ق. هـ ـ ٣٥ هـ ٥٧٧ ـ ٦٥٦م] ـ عليهم جميعًا رضوان الله.

ولعل هذه الكلمات أن تلفت الأنظار إلى البعد العلمى وإلى مقام العلم الطبيعى فى عقل وفكر ودولة وإنجازات الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز ـ وهو بُعْدٌ لم يلتفت إليه أحد ـ فلقد وقف دارسوه عند تقواه وورعه، وإحيائه السنة وتدوينه لها، وإماتته البدعة ومحاربته إياها.. وعند ثورته الإصلاحية التى رد بها المظالم إلى أهلها.. وعند إحيائه للشورى.. وإقامته للسلام العام فى المجتمع ـ بل لقد زعم البعض أنه لم يكن «رجل دولة»[٣]! لكن استقراء تاريخ العلم الطبيعى ـ فى الحضارة الإسلامية ـ يكشف عن إنجازات هذا الراشد الخامس ـ عمر بن عبد العزيز ـ فى القرن الهجرى الأول ـ فى هذا الميدان.. **ففى عهده عمم تدريس الطب «بعد أن كان بالإسكندرية.. ويقول ابن أبى أصيبعة [٥٩٦ ـ ٦٦٨ هـ ١٢٠٠ ـ ١٢٧٠م] فى [عيون الأنباء فى طبقات الأطباء] عن ابن أبجر الكنانى: «كان طبيبا عالما ماهرا، وكان فى أول أمره مقيما فى الإسكندرية، لأنه كان المتولى فى التدريس بها من بعد الإسكندرانيين.. وذلك**

---

(١) ابن عساكر: [تهذيب تاريخ ابن عساكر] جـ ٥ ص ١١٩، ١٢٠ طبعة دمشق سنة ١٣٣١هـ.

(٢) ابن عبد ربه: [العقد الفريد] جـ ٢ ص ٢٣٢. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م.

(٣) انظر رد «فلهوزن» على هذا الرأى فى [تاريخ الدولة العربية] ص ٢٩٤ ـ ٣٠١. ترجمة: د. محمد عبد الهادى أبو ريدة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

عندما كانت البلاد فى ذلك الوقت لملوك النصارى ـ [الرومان] ـ ثم إن المسلمين لما استولوا على البلاد وملكوا الإسكندرية، أسلم ابن أبجر على يد عمر بن عبد العزيز ـ وكان حينئذ أميرًا قبل أن تصل إليه الخلافة ـ وصَحِبَهُ، فلما أفضت الخلافة إلى عمر سنة تسع وتسعين للهجرة، نقل التدريس إلى إنطاكية وحران، وتفرق فى البلاد. وكان عمر بن عبد العزيز يستطب ابن أبجر، ويعتمد عليه فى صناعة الطب»(1).

فعمر بن عبد العزيز ـ فى القرن الهجرى الأول ـ هو الذى عمم تدريس الطب فى حواضر الدولة الإسلامية، بعد أن كان وقفًا على الإسكندرية.

ولقد بدأت اهتمامات عمر بن عبد العزيز بهذا الميدان قبل إمارته وخلافته.. وإلى هذه الحقيقة يشير صاحب [طبقات الأطباء والحكماء] **فيقول: إن أول كتاب فى الطب ترجم إلى العربية هو [كناش] القس «أهرن بن أعين» ـ من أهل الإسكندرية ـ وهو فى ثلاثين مقالة «وجده عمر بن عبد العزيز فى خزائن الكتب، فأمر بإخراجه، ووضعه فى مصلاه، فاستخار الله فى إخراجه إلى المسلمين للانتفاع به، فلما تم له فى ذلك أربعون صباحًا أخرجه إلى الناس وبثه فى أيديهم».. وكان مترجمه هو «ماسرجويه» الطبيب البصرى ـ وكان يهوديًا سريانيًا..**(2).

هكذا، كانت المحاريب، وكانت استخارة الله سبحانه وتعالى، الطريق الذى سلكته الحضارة الإسلامية لإحياء العلوم الطبيعية وتعميمها بين الناس.. بعد أن ظلت مواريث تلك العلوم حبيسة الصناديق الحديدية لعدة قرون بسبب الكهنوت الذى أقام العداء بين هذه العلوم ولاهوت المحاريب!

* * *

وفى هذه المرحلة المبكرة، أصبحت الترجمة صناعة كبرى، فتحت النوافذ أمام

---

(1) ابن أبى أصيبعة: [عيون الأنباء فى طبقات الأطباء] ص ١٧١. طبعة بيروت سنة ١٩٦٥م: والنقل عن: خليل داود الزرو [الحياة العلمية فى الشام فى القرنين الأول والثانى للهجرة] ص ١٨٦. طبعة بيروت سنة ١٩٧١م.

(2) ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان الأندلسيى: [طبقات الأطباء والحكماء] ص ٦١، ٦٢. تحقيق: فؤاد سيد. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م.

العقل المسلم والحضارة الإسلامية على كل مواريث العلوم فى مختلف الحضارات التى سبقت ظهور الإسلام.. حتى ليذكر ابن النديم ـ فى [الفهرست] ـ أسماء أكثر من سبعين من التراجمة عن اليونانية والسريانية والفارسية والهندية إلى العربية[1] وهى كل لغات العلم العالمى فى ذلك التاريخ ـ ومن نماذج هؤلاء المترجمين:

ـ «يوحنا بن ماسويه» [١٩٠ ـ ٢٦٠ هـ ٨٠٩ ـ ٨٧٣م] الذى قلده هارون الرشيد [١٤٩ ـ ١٩٣هـ ٧٦٦ ـ ٨٠٩م] ترجمة الكتب القديمة (الطبية) التى وجدت بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم.. ووضعه أمينا على الترجمة، ووضع له كُتّابًا حذاقًا يكتبون بين يديه.. وخدم الرشيد والأمين [١٧٠ ـ ١٩٨ هـ ٧٨٧ ـ ٨١٣م] والمأمون [١٧٠ ـ ٢١٨ هـ ٧٨٦ ـ ٨٣٣م] وبقى على ذلك إلى زمن المتوكل [٢٠٦ ـ ٢٤٧هـ ٨٢١ ـ ٨٦١م]..[2].

ـ «ويوحنا بن البطريق) الذى تولى أمانة الترجمة على عهد المأمون.. وترجم كثيرًا من كتب الأوائل.. وترجم كتاب أرسطو طاليس [٣٨٤ ـ ٣٢٢ق.م] إلى الإسكندر [٣٥٦ ـ ٣٢٤ ق.م] ـ المعروف بسر الأسرار، وهو كتاب السياسة فى تدبير الرياسة ـ من اللسان اليونانى إلى اللسان الرومى، ثم من اللسان الرومى إلى اللسان العربى.. ولقد عانى فى طلب أصل هذا الكتاب «فقصد الهياكل ـ [المعابد] فى البحث عنه، حتى إلى هيكل عيد الشمس، الذى كان بناه، «هرمس الأكبر» لنفسه يمجد الله تعالى فيه. قال: فظفرت فيه بناسك متعبد مترهب، ذى علم بارع، وفهم ثاقب، فتلطفت به، وأعملت الحيلة عليه، حتى أباح لى مصاحف ـ [كتب] الهيكل المودعة فيه، فوجدت فى جملتها المطلوب الذى نحوه قصدت وإياه اتبعت ـ الذى أمرنى أمير المؤمنين ـ [المأمون] ـ بطلبه مكتوبًا بالذهب، فرجعت إلى الحضرة المنصورة ظافرًا بالمراد»![3].

ـ «وحنين بن إسحاق» [١٩٤ ـ ٢٦٠هـ ٨١٠ ـ ٨٧٣م] ـ تلميذ يوحنا بن ماسويه

(١) [الفهرست] ص ٢٤٤، ٢٤٥.
(٢) [طبقات الأطباء والحكماء] ص ٦٥.
(٣) المصدر السابق ٦٧، ٦٨.

ـ كان عالمًا بلسان العرب، فصيحًا باللسان اليونانى جدًّا ـ تعلمه بالإسكندرية ـ بارعًا فى اللسانين بلاغة بلغ بها تمييز علل اللسانين.

ومما يشهد على أن النشاط العلمى فى هذه العلوم الطبيعية قد استمر حتى فى اللحظات التى اضطهد فيها التيار العقلانى المعتزلة ـ أن «حنين بن إسحاق» هذا قد اختير للترجمة، وائتمن عليها.. ووضع المتوكل له كُتّابا نحارير عالمين بالترجمة، كانوا يترجمون ويتصفح حنين ما ترجموا... وهو الذى أوضح ـ فى عهد المتوكل ـ معانى كتب «أبقراط» [٤٦٠ ـ ٣٧٧ ق.م] و«جالينوس» [١٣١ ـ ٢٠١ ق. م] ولخصها أحسن تلخيص، وكشف ما استغلق منها، وأوضح مشكلها.. وعمد إلى كتب «جالينوس» فاحتذى فيها حذو الإسكندرانيين، فصنعها على سبيل المسألة والجواب، فأحسن فى ذلك.. وله كتاب صناعة المنطق، لم يسبق إلى مثله غيره، لحسن تقسيمه، وبراعة نظامة..[١] فاستمر النشاط فى العلوم الطبيعية حتى فى عهد المتوكل العباسى، الذى اضطهاد المعتزلة والمتكلمين!

● ثم نبغ الكندى، أبو يوسف يعقوب بن صباح الكندى [١٨٥ ـ ٢٦٠ هـ ـ ٧٩٦ ـ ٨٧٣م] الذى كان عالمًا بالطب والفلسفة والحساب والمنطق والهندسة والهيئة والنجوم وطبائع الأعداد واللحون.. وترجم من كتب الفلسفة الكثير، وأوضح منها مشكلاتها، ولخص المستصعب، وبسط العويص.. وألف فى التوحيد كتابًا على طريق أصحاب المنطق فى سلوك مراتب البرهان لم يسبقه إلى مثله أحد.. وكتاب فى إثبات النبوة، بذات المنهاج..[٢] فبرهن بالعقل على التوحيد.. وعلى النبوات.. حتى قال «البيهقى» [٤٩٩ ـ ٥٦٥ هـ ـ ١١٠٦ ـ ١١٧٠م] عن فلسفة الكندى: إنه قد جمع فى بعض تصانيفه بين أصول الشرع وأصول المعقولات..

ولقد أوجز الكندى فى رسالته إلى «المعتصم بالله» [١٧٩ ـ ٢٢٧ هـ ٧٩٥ ـ ٨٤١م] منهاج الحضارة الإسلامية فى الانفتاح على الحضارات العالمية، فقال: «.. **وينبغى أن لا نستحى من الحق واقتناء الحق من أين أتى، وإن أتى من الأجناس**

(١) المصدر السابق ٦٨، ٦٩.

(٢) المصدر السابق. ص ٧٣، ٧٤. و[الفهرست] ص ٢٥٥.

القاصية عنا والأمم المباينة لنا، فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق، وليس ينبغى بخس الحق ولا التصغير بقائله، ولا بالآتى به، ولا أحد بُخس بالحق، بل كل يشرفة الحق.. ومن أوجب الحق أن لا نذم من كان أحد أسباب منافعنا الصغار الهزلية، فكيف بالذين هم أكبر أسباب منافعنا العظام الحقيقية الجدية، فإنهم وإن قصروا عن بعض الحق، فقد كانوا لنا أنسابًا وشركاء فيما أفادونا من ثمار فكرهم، التى صارت لنا سبيلًا وآلات مؤدية إلى علم كثير مما قصروا عن نيل حقيقته، ولا سيما إذ هو بيّن عندنا وعند المبرزين من المتفلسفين قبلنا من غير أهل لساننا.

إنه لم ينل الحق ـ بما يستأهل الحق ـ أحد من الناس بجهد طلبه، ولا أحاط به جميعه، بل كل واحد منهم إما لم ينل منه شيئًا، وإما نال منه شيئا يسيرًا بالإضافة إلى ما يستاهل الحق، فإذا جمع يسير ما نال كل واحد من النائلين الحق منهم، اجتمع من ذلك شيء له قدر جليل. فينبغى أن يعظم شكرنا للآتين بيسير الحق، فضلًا عمن أتى بكثير من الحق، إذ أشركونا فى ثمار فكرهم، وسهّلوا لنا المطالب الخفية، بما أفادونا من المقدمات المسهلة لنا سبل الحق، فإنهم لو لم يكونوا، لم يجتمع لنا مع شدة البحث فى مددنا كلها هذه الأوائل الحقّيّة، التى بها تخرجنا إلى الأواخر من مطلوباتنا الخفية، فإن ذلك إنما اجتمع فى الأعصار المتقادمة عصرًا بعد عصر إلى زماننا هذا، مع شدة البحث ولزوم الدأب وإيثار التعب فى ذلك»(1).

بهذا المنهاج، الذى ظل متبعًا فى تاريخ العلم الإسلامى تفتحت نوافذ العقول الإسلامية على المواريث الفكرية والعلمية فى كل الحضارات.. ورأينا هذا المنهاج عند أبى الوليد بن رشد، الذى قال: «**إنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا فى ذلك.. سواء أكان مشاركًا لنا فى الملة أو غير مشارك فى الملة.. فننظر فيما قالوه من ذلك، فإن كان صوابًا قبلناه منهم، وإن كان فيه ما ليس بصواب نبهنا عليه..**»(2).

---

(1) قدرى حافظ طوقان: [تراث العرب العلمى] ص ١٧١، ١٧٣، ١٧٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م.

(2) ابن رشد (أبو الوليد): [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] ص ٢٦. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة ـ الثالثة ـ سنة ١٩٩٩م.

وحتى جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م] الذى قال: «**إن أبا العلم وأمه هو الدليل.. والحقيقة تلتمس حيث يوجد الدليل**»..

ومن قبل جميع هؤلاء، حديث رسول الله ﷺ: «**الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، أنَّى وجدها فهو أحق الناس بها**» ـ رواة الترمذى وابن ماجة.

* * *

● ومن الذين نبغوا ـ فى العلوم الطبيعية والكونية ـ أبناء شاكر: محمد بن موسى ابن شاكر [٣٥٩ هـ ـ ٨٧٣م] وأحمد بن موسى بن شاكر [كان حيا قبل ٢٥٩ هـ ـ ٨٧٣م] ووالدهما: حسن بن موسى بن شاكر [٢٠٠ هـ ـ ٨١٥م].. والذين مثلوا نموذجًا للمؤسسات «الأكاديمية» الأهلية، فى المجتمع الإسلامى.. فأنجزوا إنجازات كبرى فى الرياضيات وعلم الهيئة والحيل والنجوم والفلسفة والموسيقى.. وأقاموا لذلك مجمعًا للترجمة والتأليف.. حتى ليقول صاحب [الفهرست]: «**إنهم قد بذلوا الرغائب، وأنفذوا حنين بن إسحاق وغيره إلى بلاد الروم فجاءوهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات فى الفلسفة والهندسة والموسيقى والأرثما طيقى والطب**».. **وأقاموا نظام «التفرغ» للترجمة والتأليف.. وكانوا «يرزقون حنين بن إسحاق، وحبيش بن الحسن، وثابت بن قرة [٢٢٠ ـ ٢٨٧ هـ ـ ٨٣٥ ـ ٩٠٠م] وغيرهم فى الشهر خمسمائة دينار..**»[(١)].

* * *

وغير هذا الموقف الإسلامى المتميز من الطبيعة والتجريب والعلوم الطبيعية.. وثمرات هذا الموقف فى التمثل المبكر والإبداع المبكر فى ميادين هذه العلوم وتطبيقاتها.. يشير مؤرخ العلوم الإسلامية الدكتور فؤاد سيزكين إلى لون آخر من التميز الإسلامى فى هذا الميدان.. وهو النظرة الإسلامية إلى أصحاب تلك المواريث العلمية القديمة.. وكيف تميزت هذه النظرة الإسلامية عن نظرة اللاتين عندما نقلوا العلوم عن الآخرين.. يشير الدكتور فؤاد سيزكين إلى ذلك، فيقول: «**إن عملية الأخذ**

---

(١) [الفهرست] ص ٢٤٣.

والتمثل قد تمت لدى اللاتين على غير الصورة التى تمت بها عند العرب، ذلك أن المسلمين اهتدوا إليها بوساطة الذين اعتنقوا الدين الإسلامى، وبواسطة مواطنيهم أصحاب المعارف الأجنبية. أما عند اللاتين فكانت على صورة أخرى.. لقد كانوا ـ أعنى اللاتين ـ مضطرين إلى أخذ المعارف، وإلى أخذ أنظمة المؤسسات المختلفة، وإلى أخذ أساليب الجامعات وبرامجها من الأعداء السياسيين والدينيين. لقد كانوا يشعرون بشعور المعاداة والبغضاء تجاه من يأخذون عنهم، وانعكس ذلك على عملية الأخذ بصورة عُقد نفسية، وطبيعى بعد هذا أن يفقدوا عنصرى الوضوح والصراحة، وهما العنصران الأصليان فى عملية أخذ المسلمين عن الآخرين».

نعم.. لقد كان اللاتين ـ إبان نهضتهم ـ يأخذون عن من يعتبرونهم «أعداء.. هراطقة» وعن من يعتبرونهم دونهم فى سلم الإنسانية.. ولذلك افتقر نقلهم ـ كما يقول الدكتور سيزكين إلى الوضوح والصراحة، فلم يذكروا المصادر ولا الأسماء التى نقلوا عنها فى الأغلب الأعم، فكان نقلًا أقرب ما يكون إلى «السرقة»!. بينما كان النقل الإسلامى واضحًا صريحًا موثقًا.. فهم يقومون بواجب دينى، هو الإحياء لمواريث الإنسانية، وينهضون بفريضة إلهية هى النظر فى آثار الأمم والشعوب والقراءة لآيات الله المبثوثة فى الأنفس والآفاق، والتى نظر فيها الأولون، الذين ينقل عنهم المسلمون.. وذلك فضلًا عن أن هذا النقل إنما كان يتم من مراكز علمية وحضارية كانت جزءًا من دار الإسلام، ويقوم به مسلمون أو أهل كتاب، هم جميعًا أمة واحدة تعيش فى دار الإسلام..

* * *

● وبعد مرحلة النقل والتمثل لمواريث الحضارات القديمة فى العلوم والمعارف.. وبعد بواكير التطبيقات الإسلامية لحقائق وقوانين هذه العلوم.. جاءت مرحلة النضج للعقل العلمى الإسلامى، والتى تجلت فى المراجعة والاختبار والتجريب لكثير من نظريات تلك العلوم.. ومن ثم النقد والتصحيح والتطوير لكثير منها.. ثم الإضافات الإبداعية فى ميادينها.. كل ذلك بفضل براعة المسلمين فى التجريب، وإبداعهم للمنهج التجريبى الذى جاء ثمرة لموقف الإسلام من الطبيعة ومن العمل والتجريب فى أنحائها.

ويتحدث الدكتور فؤاد سيزكين عن هذه المرحلة من مراحل العلم الإسلامى، فيقول: «**ولسنا نخالف الحقائق التاريخية إذا اعتبرنا أن مرحلة «الأخذ والتمثل» تنتهى فى أواسط القرن الثالث الهجرى إلى مرحلة الإبداع.. وذلك بإدراك المسلمين بأنفسهم أنهم قادرون على الإبداع، وهم قادرون بالتالى على أن يصلوا إلى ما لم يصل إليه الإغريق من قبلهم..**

فالإخوة الثلاثة المشهورون ببنى موسى، والذين كانوا يقومون بعمل مشترك فى دراستهم لأرخميدس [٢٨٧ ـ ٢١٢ ق.م] وأبلونيوس [٢٦٠ ـ ٢٠٠ ق.م] كانوا يحاولون الوصول إلى تحديد الرقم اليونانى أدق مما وصل إليه القدماء، وإلى حل جديد لمسألة تقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية، وقد كانوا يصححون ما وقع لأبولونيوس فى كتابه [المخروطات] على رأيهم.

كذلك نذكر فى ميدان الرياضيات أن الماهانى [كان حيا قبل ٢٦٠ هـ ٨٧٤م] حاول فى أواسط القرن الثالث من الهجرة أن يجد الحل العددى لمعادلة من الدرجة الثالثة.

وفى ميدان الطب والبصريات كان الرازى [٢٥١ ـ ٣١١ هـ ٨٦٥ ـ ٩٢٣م] يرد على إقليدس وجالينوس قولهما فى كون رؤية الأشياء تتكون بخروج الرؤية من العين إلى الأشياء، ويصرح الرازى بأن الرؤية تحدث بوصول الضياء من المادة إلى العين، كما يرى أن حدقة العين تتغير كبرًا وصغرًا بمقدار قوة الضياء الذى يدخل فيها.

ونرى مثلًا أن الكندى ينصرف عن معظم ما توصل إليه أرسطو طاليس والعلماء اليونانيون الآخرون فى ميدان الآثار العلوية (ميثاؤرولوجيا) ويأتى بآراء خطيرة لا يختلف بعضها عن النتائج الحديثة..»[1].

ويقول «ألاردغور» عن كتاب عبد الرحمن الصوفى [٢٩١ ـ ٣٧٦هـ ٩٠٣ ـ ٩٨٦م] [كتاب الكواكب الثابتة]: إنه أصح من كتاب «بطليموس» [٩٠ ـ ١٦٨م] وزيجه أصح زيج وصل إلينا من كتب القدماء.. وأكثر الأقدار التى أوردها الصوفى

---

(١) د. فؤاد سيزكين: مجلة «الثقافة» ـ الجزائرية ـ عدد مارس ـ أبريل سنة ١٩٨٦م ص ٣٨، ٣٩.

مثل أقدارها المعتمد عليها الآن فى أزياج «اجلندر» و«هيس» [١٨٦٦ ـ ١٩٤٩م].. وفى كتاب الصوفى هذا ـ [كتاب الكواكب الثابتة] ـ صور الأبراج والصور السماوية فى هيئة أناسى ملونة..

وللبتانى [٣١٧هـ ـ٩٢٩] [زيج الصابى].. الذى يقال إنه أصح من زيج بطليموس.. ومن كتب الكوهى: [كتاب الزيادات على أرخميدس فى المقالة الثامنة.. وللأمير أبو نصر منصور بن على بن عراق [٤٢٥هـ ـ ١٠٣٤م] [رسالة فى حل شبهة عرضت فى الثالثة عشرة من كتاب الأصول][1].. وللرازى محمد بن زكريا ـ [كتاب الشكوك والمناقضات التى فى كتب جالينوس].. هذا غير تحقيقه لصناعة الكيمياء ـ التى ألف فيها أربع عشرة مقالة.. وتأليفه فى الجبر[2].

ولابن الصلاح ـ نجم الدين أبو الفتوح أحمد بن محمد السرى [المتوفى بدمشق سنة نيف و٤٥٠هـ] ـ [كتاب المقالات السبع] الذى انتقد فيه عددًا من العلماء القدماء، منهم أرسطو فى المقالة الثانية من [كتاب البرهان].. والمقال الثالثة من كتاب [السماء والعالم].

وللسموأل بن يحيى بن عباس المغربى [٥٧٠هـ ـ ١١٧٥م] [كتاب الباهر].. ومن مباحثه تعليل ما زعم «فيثاغورس» [القرن السادس ق.م] أنه أدركه بطريق الوحى..

كما كانت لابن باجة [٥٣٣ هـ ـ ١١٣٩م] ملاحظات قيمة على نظام بطليموس فى الفلك، وقد انتقده، وأبان مواضع الضعف فيه.. وكذلك صنع ابن طفيل [٤٩٤ ـ ٥٨١هـ ـ ١١٠ ـ ١١٨٥م] فى نقد بطليموس أيضًا..

ولقد تنبه نصير الدين الطوسى [٥٩٧ ـ ٦٧٢هـ ١٢٠١ ـ ١٢٧٤م] لنقض أقليدس [القرن الثالث ق.م] فى قضية المتوازيات.. كما انتقد ـ فى كتابه [التذكرة فى علم الهيئة] ـ [كتاب المجسطى] واقترح نظامًا جديدًا للكون أبسط من النظام الذى وضعه بطليموس.. ويعترف مؤرخ العلم «سارطون» [١٨٨٤ ـ ١٩٥٦م] بأن

(١) [تراث العرب العلمى] ص ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٤٦، ٢٥١، ٢٧٢.
(٢) [طبقات الأطباء والحكماء] ص ٧٧، ٧٨.

الانتقاد الذى وضعه الطوسى للمجسطى يدل على عبقريته وطول باعه فى الفلك.. ويمكن القول إن انتقاد الطوسى هذا كان خطوة تمهيدية للإصلاحات التى تقدم بها «كوبرنيكس» [١٤٧٣ ـ ١٥٤٣م]. ومن مؤلفات ابن الهيثم [٣٥٤ ـ ٤٣٠ هـ ٩٦٥ ـ ١٠٣٩م] [كتاب حل شك أقليدس].. ومن مؤلفات الخيام [٥١٥هـ ١١٢١م] كتاب [شرح ما يشكل من مصادرات أقليدس] و[مقالة فى الشكوك على بطليموس]. ومن مؤلفات قسطا بن لوقا البعلبكى [٣٠٠هـ ٩١٢م] [كتاب شكوك كتاب أقليدس]. ومن مؤلفات العباس بن سعيد الجوهرى [ظهر حوالى سنة ٨٣٠م] [كتاب الأشكال التى زادها فى المقالة الأولى من إقليدس].

ولقد أجرى أمير سمر قند «أولغ بك بن شاه روخ بن تيمور [٧٩٦ ـ ٨٥٣هـ ١٣٩٣ ـ ١٤٤٩م] أرصادا صححت بعض الأرصاد التى قام بها اليونان، وذلك عندما رأى أن حساب التوقيعات للحوادث ـ وفق التجارب والأرصاد ـ لا يتفق مع ما قرره بطليموس..

وهكذا ـ بعد النقل والتمثل لعلوم الأولين ـ قاد المنهج التجريبى علماء المسلمين إلى المراجعة والنقد والشكوك والتصحيح لما ترك الأولون.. ثم توالت إبداعات الإضافة والتطوير بعد الإبداع فى المراجعة والتصحيح.

ولعلنا ندرك مدى الأمانة العلمية، والتقدير لما أبدعه القدماء، حتى أثناء المراجعة لتراثهم، والنقد له، والتصحيح لأخطائه.. ندرك مدى هذه الأمانة والعظمة العلمية الإسلامية، التى جعلت العلم والحقيقة «رحما» بين بنى الإنسان.. ندرك ذلك، ونحن نقرأ كلمات الخيام فى كتابه [مقالة فى الشكوك على بطليموس].. والتى يقول فيها: «**إن الحق مطلوب لذاته، وكل مطلوب لذاته فليس يعنى طالبه غير وجوده، ووجود الحق صعب، والطريق إليه وعر.. ولما نظرنا فى كتب الرجل المشهور بالفضيلة.. أعنى «بطليموس القلوذى» وجدنا فيها علومًا كثيرة، ولما خصمناها وميزناها.. وجدنا فيها مواضع مشبهة وألفاظًا بشعة ومعانى متناقضة.. إلا أنها يسيرة فى جنب ما أصاب فيه من المعانى الصحيحة. ورأينا أن فى الإمساك عنها هضما للحق وتعديًا عليه.. ووجدنا أن أولى الأمور ذكر هذه المواضع وإظهارها، ثم نجتهد بعد ذلك فى**

سد خللها وتصحيح معانيها. ولسنا نذكر فى هذه المقالة جميع الشكوك التى فى كتبه..»[1].

إنها حضارة العدل والحق، التى صنعت مناهج هؤلاء العلماء العظماء!

* * *

● وإذا كان الإسلام قد تميز عن الرسالات السماوية التى سبقته، بإقامته «للدولة» التى تحرس «الدين»، والتى يسوسها هذا الدين.. كما تميز بتكوينه «لأمة.. وجماعة».. و«بوطن» هو الوعاء «للأمة.. والدين».. كما تميز بإبداعه «للحضارة والمدنية»، كأثر من آثار تطبيقاته «كدين».. كما تميز «بالعالمية»، لأنه لن يُبعث نذير فى أى مكان من هذا العالم، بعد بعثة رسول الإسلام ﷺ.. وتميز ـ كذلك ـ «بخلود شريعته» إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لأنها الشريعة التى ختم بها الله رسالات السماء والوحى الإلهى لبنى الإنسان.

إذا كان الإسلام قد تميز فى هذه الميادين عن الرسالات التى سبقته.. فلقد تميزت حضارته بمنهاج «الوسطية الجامعة» فى النظر إلى «ذاتها» وإلى «غيرها» من الحضارات..

وإذا كان كتاب [الفهرست] لابن النديم [٤٣٨هـ ١٠٤٧م] قد مثل باكورة علم إسلامى، ارتادت به الحضارة الإسلامية ميدان التصنيف للعلوم والفنون والعلماء والفرق والمذاهب والملل والنحل.. فإن فى هذا الكتاب ـ العمدة ـ معالم منهاج إسلامى فى النظر إلى العلاقات بين الحضارات..

● فهو فى الديانات والمعتقدات والمذاهب يفرد لكل أمة مكانا يحكى فيه عقائدها وكتبها والمبرزين من علمائها.. ويصنع ذلك ـ أيضًا ـ فى الحديث عن الأساطير والخرافات والعزائم والسحر.. وذلك إشارة إلى سنة اختلاف الأمم فى الشرائع والملل والمناهج والثقافات.

● وهو فى علوم الكلام، والفقه، واللغة والنحو والآداب والسير والأنساب،

(١) [تراث العرب العلمى] ص ٣٦٩، ٣٧٢، ٣٨٦، ٣٨٩، ٤١٢، ٤١٣، ٣٠٥ ـ ٣٠٧، ٣٠٩، ٢١٣، ٤٤٦.

والشعر، وعلوم القرآن والسنة، يقف عند إبداع المسلمين.. وذلك إشارة لتميز علوم الأمة الخاتمة ـ أمة الإسلام ـ عن نظائرها فى الأمم الأخرى.

● وهو فى الفلسفة، والعلوم الطبيعية، وعلوم الصنعة التطبيقية ـ يسوق أخبارها وأعلامها وكتبها فى تسلسل واحد، منذ النشأة وحتى عصره، عبر الأمم والتاريخ.. وذلك إشارة إلى أنها مشترك إنسانى عام، تتوارثه الأمم والحضارات وتضيف إليه وتبدع فيه، وتتفاعل مع غيرها فى حقائق هذه العلوم وقوانينها..

الأمر الذى يزكى التمييز بين «العام ـ الإنساني» و«ما هو خاص متميز» لدى كل أمة من الأمم وحضارة من الحضارات.

فإذا علمنا أن فلاسفة الإسلام ـ من الكندى [١٨٥ ـ ٢٦٠هـ ٧٩٦ ـ ٨٧٣م] إلى مصطفى عبد الرازق [١٣٠٢ ـ ١٣٦٦هـ ١٨٨٥ ـ ١٩٤٦م] ـ قد تميزت فلسفتهم عن الفلسفة اليونانية.. وأن الكثيرين منهم قد اشتغلوا بـ«الكلام ـ التوحيد».. وكانت قراءة من درس منهم الفلسفة اليونانية قراءة بعيون إسلامية وعقل إسلامى، وذلك من خلال محاولاتهم التوفيق بين الفلسفة والدين، أو الجمع بين أرسطو [٣٨٤ـ ٣٢٢ ق.م] وأفلاطون [٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق.م].. ومن خلال الانتقادات التى أوردوها على المقولات اليونانية أو الشروح والإضافات التى بثوها أثناء شروحهم لهذه المقولات.

إذا أدركنا ذلك، علمنا أن العلوم الطبيعية وعلوم الصنعة ـ التطبيقات والتقنيات ـ قد كانت أرض الوحدة الفكرية الإنسانية.. على حين تمايزت المعتقدات والشرائع والملل والمناهج والثقافات والآداب والتصورات الفلسفية للوجود ولمكانة الإنسان فى هذا الوجود.. **أى أن الأمم والحضارات قد تمايزت فى التكوين النفسى، وعمران النفس الإنسانية.. بينما اشتركت فى علوم التمدن المدنى، وعمران الواقع المادى، أى العلوم الطبيعية والدقيقة والتجريبية وتطبيقاتها.. فكانت علاقة «العموم والخصوص» هى التى «تجمع» وأيضًا «تمايز» بين الأمم والحضارات..**

* * *

هذا هو الإسلام ـ كما تجلى، بالحقائق، من خلال هذه الإشارات والشهادات.

● دين التوحيد، الذى يبلغ فى التنزيه قمة التجريد.. فكل ما خطر على بالك فالله ليس كذلك.

● وهو المصدق لما بين يديه من الكتب والنبوات والرسالات.. والمصحح والمضيف والمستوعب لمواريث النبوات.

● وهو دين القيّمة.. والبيّنة.. والعلم.. والبرهان.

● وهو دين النور والاستنارة والتنوير بالله.. والرسول.. والقرآن.. والحكمة.

● وهو دين العدل.. مع الذات.. ومع الآخرين.. ومع من نكره.. وحتى مع الذين يقاتلون أهله.

● ودين التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف فى كل عوالم الخلق والأفكار.. مع التوحيد للذات الإلهية.. التى ليس كمثلها شىء فى الأرض ولا فى السماء.

● ودين الحرية فى الاعتقاد، لأن الإيمان به: تصديق قلبى يبلغ مرتبة اليقين، فلاسلطان عليه إلا لله.. ومن المحال أن يتأتى بالإكراه.

● وهو الدين الذى تفرد بتكوين «الأمة» و«الدولة» و«الوطن» و«الحضارة»، التى تتنوع فى إطارها الشعوب والقبائل والألسنة واللغات والقوميات والشرائع والملل والألوان والأجناس والعادات والتقاليد والأعراف.. فالوحدة فيها قائمة على التنوع، والتنوع فيها قائم فى إطار جوامع المشتركات..

● وهو الدين الذى جمع ـ فى مصادر المعرفة ـ بين عالمى الغيب والشهادة.. وفى سبل المعرفة ـ بين العقل والنقل والتجربة والوجدان.. فامتزج فى ثقافة أمته «الشرعى» و«المدنى» و«الروحى» و«المادى».. حتى لقد تدينت ـ فيها ـ الفلسفة، وتفلسف الدين!

● وهو الدين الذى مثل الإحياء العام.. للإنسان.. والأمـة.. والحضارة.. وللمواريث العلمية التى أبدعها الأولون.. فكان إنقاذاً لمواريث العلم الإنسانى من الضياع.

● وهو الدين الذى أدالت فتوحاته قوى الهيمنة والقهر والاستغلال، فحرر الأوطان الشرقية.. وحرر ضمائر الشعوب.. وترك الناس ـ أحرارًا ـ وما يدينون، فكان المنقذ حتى للديانات التى لا يدين أهلها بالإسلام.. بل والتى يجحد أهلها الإسلام الذى أنقذهم من الفناء!!

● وهو الدين الذى تآخى فى ثقافته عالم الغيب والشهادة.. وآيات الكتاب الإلهى المسطور وآيات الكتاب الإلهى المنظور.. فكانت نظرته إلى «الطبيعة» باعتبارها «خليقة.. حية».. تؤمن بخالقها.. وتتجه إليه بالحمد والتسبيح».. فكان إبداع حضارته مقترنًا بإيمان إنسانه.. وكانت التجارب والمنهج التجريبى مظهرًا لعبقرية أمته فى ميادين العلوم..

* * *

وهنا يسأل الإنسان:

ـ إذا كان هذا هو الإسلام.. الدين.. والحضارة.. فماذا يستحق هذا الإسلام من الناظرين فيه؟.. حتى ولو لم يكونوا من المؤمنين بثوابته فى الاعتقاد؟

ماذا يستحق هذا الإسلام من الناظرين فيه.. والدارسين لحضارته.. ولتاريخ أمته؟!. الإنصاف؟.. أم الافتراء؟!(1).

(١) انظر هذا الكتاب فى طبعة دار الشروق ـ القاهرة سنة ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م.

الموقف الإسلامى من الحضارات غير الإسلامية

من القضايا الفكرية التى يحتدم من حولها الجدل، فى حياتنا الفكرية المعاصرة، قضية: علاقة «الأنا: الحضارية» بـ«الآخر الحضارى».. وعلى وجه التحديد، بـ«الآخر الحضارى»، المهيمن عالميًّا، وهو الحضارة الغربية!

وفى اعتقادى أن الرؤية الإسلامية لهذه القضية هى من البساطة والتميز والموضوعية، إلى الحد الذى لابد وأن تحسم حسمًا نهائيًّا، شريطة أن تفهم عناصر هذه الرؤية الإسلامية فهمًا جيدًا.. وهى العناصر التى نوجزها فى هذه النقاط:

● إن الإسلام ينظر إلى البشر أجمعين باعتبارهم: «**وحدة واحدة متساوية فى الخلق لله الخالق الواحد**».. وباعتبارهم فى ذات الوقت: «متعددين فى الروابط والجامعات».. وهذه الوحدة فى الخلق مع «التعددية فى الجامعات»، هما موطنا الإشارة فى الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

فالاشتراك والوحدة فى الخلق، وفى الإنسانية، يزاملهما التعدد والتمايز إلى شعوب وقبائل وأقوام.. بل إن القرآن الكريم يتحدث عن هذه التعددية باعتبارها آية من آيات الله سبحانه، وسنة من سننه فى خلقه، فيقول: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

● وفى الدين أيضًا، يؤكد الإسلام على «**وحدة البشرية فى دين الله الواحد**»، أزلًا وأبدًا.. مع «تعدد الشرائع بتعدد أمم الرسالات الدينية». أزلًا وأبدًا كذلك.. فالقرآن

الكريم قد نزل بإذن الله ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

و﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١]..

والرسول ﷺ، كذلك ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١].

والله، سبحانه وتعالى، يتحدث إلى رسوله فيقول له: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

ومع هذه «الوحدة فى الدين» كانت «التعددية فى الشرائع» لدى أمم الرسالات.. فالبعثة المحمدية قد تميزت بالشريعة الخاتمة ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

وكذلك كان حال الأمم السابقة فاليهود:

﴿وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣].

﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤].

وكذلك حال النصارى مع الإنجيل: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧].

ثم كانت الشريعة الخاتمة: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾..

ثم تمضى الآية لتقرر أزلية وأبدية هذه السنة الإلهية فى تعدد الشرائع بتعدد أمم الرسالات، فتقول: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً

وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨].

ففى الدين: وحدة الرسل والرسالات، ووحدة أمم هذه الرسالات.. وفى الشريعة: تعددية تتمايز فيها وبها أمم الرسالات.. للابتلاء والاختبار والتنافس واستباق الخيرات.. ولقد وقف مفسرو القرآن الكريم أمام هذه الآيات فقالوا: «إن الشرعة والشريعة: هى الطريقة الظاهرة التى يتوصل بها إلى النجاة.. والمعنى: أن الله جعل التوارة لأهلها، والإنجيل لأهله، والقرآن لأهله، وهذا فى الشرائع والعبادات. والأصل: التوحيد، لا خلاف فيه..

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾.

أى لجعل شريعتكم واحدة..

﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾..

أى ولكن جعل شرائعكم مختلفة ليختبركم والابتلاء: الاختبار[(١)].

وعن هذه الحقيقة، التى أفاض القرآن فى تقريرها وفى الإفصاح عنها ـ حقيقة الوحدة فى الدين مع التعددية فى الشرائع ـ يعبر الحديث النبوى هذا التعبير الجميل، عندما يقول صلوات الله وسلامه عليه: «الأنبياء: إخوة من علات ـ [أى من أب واحد] ـ وأمهاتهم شتى. ودينهم واحد[(٢)]..».

فكما توحد الناس ويتوحدون فى الخلق والإنسانية، مع التعددية فى الأقوام والشعوب والقبائل والألوان واللغات.. كذلك. قد اتحدوا فى الدين، وتعددت أمم الرسالات فى الشرائع التى شرعها الله.. فالوحدة.. مع التعددية هى سنة الله، التى تلتزمها الرؤية الإسلامية فى هذا الميدان..

● وكذلك الحال فى ميدان الحضارات.. **فعلى مر التاريخ عرفت البشرية التعددية**

(١) القرطبى [الجامع لأحكام القرآن] جـ٦ ص ٢٢١ طبعة دار الكتب المصرية.
(٢) رواه البخارى ومسلم.

فى الحضارات، مع الالتقاء والتبادل والتفاعل فيما هو مشترك إنسانى عام بين هذه الحضارات.. فمع الخصوصيات الحضارية، التى تتميز بها كل حضارة عن غيرها، هناك ما هو مشترك إنسانى عام بينها جميعًا، وخصوصًا فى المعارف والعلوم التى تشترك فى ثبات الموضوع ووحدة المناهج والحقائق والقوانين..

فالعلاقة بين «الأنا: الحضارية» وبين «الآخر: الحضارى»، يجب أن يحكمها هذا القانون.. التفاعل والتبادل الحضارى، لا التبعية ـ بزعم الوحدة الحضارية ـ ولا الانغلاق والعزلة ـ بزعم الاختلاف الكامل والكلى.. فكما أن التعددية فى الأمم هى سنة من سنن الله فى الخلق، كذلك التعددية فى الحضارات؛ لأن هذا التمايز الحضارى هو واحد من أهم أسباب هذه التعددية بين الأمم.. وكما أن «التعارف» ـ الذى أمرنا الله به ليكون طابع العلاقات بين الأمم والشعوب ـ يقتضى العدول عن القطيعة، ورفض «الصراع».. فكذلك «الاختلاف» ـ الذى جعله الله سنة ومظرًا للتعددية، يقتضى رفض «التبعية» أو «الهيمنة». بزعم وحدة الحضارة للبشرة أجمعين ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

ولقد قال المفسرون لقوله تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾: إن معناها: «وللاختلاف خلقهم»(١)!. ففى الاختلاف والتمايز: التنوع، والغنى، والتنافس فى استباق الخيرات..

وهنا.. لسائل أن يسأل: إذا كانت الرؤية الإسلامية مع «التعددية الحضارية»، كسنة من سنن الله فى تعدد الأمم التى تتمايز بتمايز الحضارات.. ومع التبادل والتفاعل الحضارى فيما هو مشترك إنسانى عام بينها، امتثالًا لأمر الله وحكمته أن يكون التعارف هو رباط وسمة العلاقات بين أمم الحضارات المتعددة.. إذا كانت هذه هى رؤية الإسلام لهذه القضية، فما الموقف إزاء علاقة «النفى والصراع» التى مارستها وتمارسها الحضارة الغربية مع وبإزاء غيرها من الحضارات والمواريث الحضارية التى وجدتها لدى الأمم التى اتصلت بها أو غزت بلادها منذ الزحف الاستعمارى الكبير الذى مارسته على العالم قبل قرنين من الزمان؟!

---

(١) [الجامع لأحكام القرآن] جـ٩ ص ١١٤، ١١٥.

هنا، وفى الإجابة على هذا السؤال، لا بد من التنبيه على رفض الإسلام أن يكون «النفى والصراع» هو طابع العلاقة مع «الغير» ـ فالإيمان بالتعددية يقتضى الإيمان بحق الغير فى الوجود المتميز، حتى تكون هناك تعددية حقيقية.. ولهذه الحكمة كان «التوازن» بين الفرقاء المتميزين هو مذهب الإسلام فى العلاقة بين الطبقات والجماعات داخل الأمة الواحدة، وبين الأمة وغيرها من الأمم الأخرى.. وهذا «التوازن» يفترض، بل ويشترط كى يقوم وجود «فرقاء» متمايزين ومختلفين.. أما «الصراع» فإنه يعنى: ابتغاء «نفى» الآخر، والانفراد والواحدية دون شريك!

ولأن هذه هى فلسفة الإسلام فى العلاقة بالآخر، كان استخدام القرآن الكريم لمصطلح «الدفع» عندما تدعو الحاجة، بسبب اختلال توازن العلاقات مع الأغيار، وحلول «الخلل» محل «التوازن» وسيادة «الظلم» بدلًا من «العدل»، وقيام «الجور» بدلًا من «الوسطية».. هنا يكون «الدفع»، أى الحركة الاجتماعية التى تبتغى إعادة العلاقات إلى مستوى ولحظة ومقام «التوازن» ثانية، مع الاحتفاظ بالتعددية والتمايز للفرقاء المختلفين.. هنا يكون «الدفع» ولا يكون «الصراع»، لأن الصراع يقتضى نفى الآخر، بصرعه، وإنهاء وجوده، والانفراد والواحدية ـ فهو ضد فلسفة التعددية، ضد شرعية ومشروعية تمايز الفرقاء المختلفين.. ففى «الصراع»..

﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

أما فى «الدفع» فإن الغاية مختلفة..

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]..

فإذا كانت الحضارة الغربية قد تبنت واعتمدت فلسفة «الصراع»، فرأته قانون العلاقة فى الأحياء ـ صراع البقاء فى الداروينية ـ وفى الاجتماع ـ الصراع الطبقى فى الماركسية ـ وفى العلاقة مع الحضارات الأخرى ـ المسخ والنسخ والتشويه لمواريث الأمم التى أصابها الاستعمار والهيمنة الغربية.. إذا كان هذا هو طابع العلاقة، كما فرضتها الحضارة الغربية علينا.. **فهو كالقتال الذى فُرِض علينا. وهو كُرْهٌ لنا!** ـ وعسى أن تكون الثمرة، ثمرة هذا الصراع الذى فرض علينا، شحذ الهمة فى معركة التجديد للفكر الإسلامى، إخراجًا له من أزمته المعاصرة، وتجديدًا لواقع الأمة به، لا لننفى

«الآخر الحضارى»، وإنما لنقسره غدًا، كما قسره أسلافنا بالأمس، على التخلى عن طموح الهيمنة الحضارية، وعلى القبول بالتعددية؛ ليصبح الكوكب الذى نعيش عليه «منتدى حضارات»، تتفاعل وتتبادل العلم النافع، وتحتفظ كل منها بما لها من خصوصيات.. مثلها كمثل الإنسان الراشد المستقل، يصافح الجميع، دون أن يفقد بصمته وهويته التى تميزه عن الجميع!

إننا نرى الآن قضية علاقة «الأنا: الحضارية» بـ«الآخر: الحضاري»، واحدة من قضايا «أزمة الفكر» المعاصر.. بينما هذه القضية لم تكن بالأمس ـ عندما قامت علاقة أسلافنا العظام بالحضارات الأخرى، هندية وفارسية وإغريقية ـ لم تكن من قضايا «الأزمة».. بل كانت من سمات «الصحة» ومظاهر «النهضة»؟! وما كان هذا الفارق بين حال ذات القضية اليوم عنها بالأمس إلا من الفارق بين حالنا اليوم وحال أسلافنا بالأمس.. لقد تفاعلوا مع «الآخر الحضارى» من موقع القوى الراشد المستقل، فكانت «لمعدتهم الحضارية».. إن جاز التعبير ـ القدرة على التمييز بين الصالح والفاسد، بين النافع والضار، بين الملائم وغير الملائم فى مواريث الآخرين.. فلم تكن فى العلاقة «قضية مشكلة» على الإطلاق! أما نحن، فإننا نتعامل من موقع الضعيف المهزوم، الذى تحالفت عليه تحديات: التخلف الموروث.. وتحديات: الاستلاب الحضارى الوافد فى ركاب الغزاة!

وليس كالتجديد للفكر الإسلامى باب يدخل منه العقل المسلم إلى عالم النهضة ـ له ولأمته ـ من جديد، فيتجاوز هذه المآزق ويحل هذه المشكلات[١].

(١) انظره فى كتاب [قارعة سبتمبر] طبعة الشروق الدولية ـ القاهرة سنة ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

الإحياء الإسلامى فى عيون غربية

إذا كان عمر الإسلام قد أكمل الآن أربعة عشر قرنًا، فلقد أمضى المسلمون أغلب هذا العمر فى مواجهة التحديات التى فرضها عليهم الغرب والحضارة الغربية؟!

فالقرن الأول من عمر الإسلام قضاه المسلمون فى فتوحات تحرير الشرق من الاحتلال البيزنطى، الذى امتد من القرن الرابع قبل الميلاد ـ غزوة الإسكندر الأكبر [٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق.م] ـ وحتى القرن السابع للميلاد..

وما إن أوشك القرن الحادى عشر الميلادى على الرحيل، حتى عاد الغرب ـ تحت إعلام الصليب ـ فى الحملات الصليبية المتعددة ـ لتقيم الدول والإمارات الاستيطانية فى قلب العالم الإسلامى، على امتداد قرنين من الزمان [٤٨٩ ـ ٦٩٠ هـ ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م] ـ وإبان هذه الغزوة الصليبية أقام الغرب النصرانى ـ بقيادة البابوية ـ مع الوثنية الفكرية حلفا ضد الإسلام وأمته وعالمه؟

وفى العقد الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى، نجح الغرب فى اقتلاع الإسلام من الأندلس، عندما سقطت غرناطة [٨٩٧هـ ١٤٩٢م].. وليبدأ حرب القرون الخمسة ـ من يومها وحتى الآن ـ للالتفاف حول العالم الإسلامى ثم غزو قلب هذا العالم، واحتلال واحتواء أقاليمه وأقطاره.. وفى هذه الغزوة، أيضًا، استعان الغرب باليهودية... بل وبالمادية والإلحاد.. فى الصراع مع الإسلام والمسلمين؟

ولقد تميزت هذه «الدورة» من دورات هذا الصراع «الحضارى ـ التاريخى»، بدخول «الفكر» كجبهة من جبهات هذا الصراع عندما نهض «التبشير ـ التنصيرى» و«الاستشراق السياسى» و«الغزو الفكرى» بأدوار رئيسية لفتح ثغرات فى هذه الجبهة الفكرية فى الميدان الواسع والممتد لهذا الصراع.

ورغم تعدد أدوات الفكر الغربى، ومدارسه ومناهجه ومنطلقاته، فلقد اتفقت مؤسساته ومذاهبه على اعتبار الغرب ـ عند النظر إلى الإسلام ـ هو «المعيار» الذى يتم الوزن والقياس بالنسبة إليه.. وهو «المطلق» ونحن «النسبى». وهو «المركز» ونحن «الهوامش.. والأطراف»؟!. فإسلامنا «هرطقة نصرانية»!. وحضارتنا «ساعى بريد» نقل علوم الإغريق إلى الأوروبيين المحدثين!.. وشرقنا «أدنى» أو «أقصى» أو «أوسط»، بحسب موقع أجزائه من «المركز الأوروبى»؟!. لكن هذا الادعاء الغربى لم ينجح فى إخفاء مخاوفه من الإسلام وحضارته، ولا فى التغطية على حجم هذه المخاوف، التى لم يستشعر الغرب مثلها، بل ولا بعضًا منها، تجاه غير الإسلام من الديانات والحضارات.

فالخبرة التاريخية قد جعلت الغرب يرى فى الإسلام «نفير الإحياء والتحرير» للشرق من قبضة الهيمنة والاستغلال الغربيين.. إن فى التاريخ القديم، أو الوسيط، أو حتى هذه اللحظات!

والتدافع الحضارى، علم الغرب أن الحضارة الإسلامية هى المنافس الحضارى الوحيد ـ على الساحة العالمية ـ لحضارته الغربية.. فحضارات الهند والصين واليابان حضارات «محلية» لا تمتلك العطاء الحضارى الصالح للاستلهام فيما وراء حدود أوطان هذه الحضارات ـ ولذلك فإن منافسة أممها لا تتعدى مزاحمة «مصانع» و«مراكز إنتاج» فى «سوق الاقتصاد»... وليس هكذا حضارة الإسلام، المالكة لوسطية التوازن والعدل ـ المفتقدة فى الصيغة الحضارية الغربية ـ تلك التى تفتح لها أبوابًا حتى فى قلوب الشعوب الغربية ذاتها، وعلى النحو الذى يجعل الغرب يخشاها، لا كمجرد «منافس» وإنما «كبديل»؟! ولهذه الخصوصية من خصوصيات الصراع بين الغرب والإسلام وحضارته وأمته وعالمه، كان اهتمام الغرب «بالثغور الفكرية» على جبهة هذا الصراع..

فالاستشراق القديم مثَّل «الثغرة الفكرية» فى جبهة الزحف الغربى على ديار الإسلام، أعان بامتلاك مفاتيح التعامل مع العقل المسلم ـ أعان دوائر الاستغلال الاقتصادى والاحتلال العسكرى على إلحاق الشرق بالغرب.

واليوم، وأمام فشل «النخب العلمانية» فى الحفاظ على ثمرات التحرر الوطنى، وفى إقامة المشروع الحضارى المستقل.. تتعاظم ظاهرة الإحياء الإسلامى، وتتقدم قواها لتنهض بالدور الذى فشلت فيه النخب العلمانية: تحرير الأوطان.. واستخلاص الثروات.. وأيضًا استرجاع الهوية.. واستكمال إسلامية الفكر والواقع.. وبعث الحضارة الإسلامية كنموذج متميز فى التقدم والنهوض والتجديد.. الأمر الذى أبرز دور الإسلام فى المواجهة مع الغرب من جديد.. والذى استنفر «العقل الاستشراقى الغربى» فوظف مراكز أبحاثه ودراساته وجامعاته ومعاهده وكنائسه لدراسة ظاهرة الإحياء الإسلامى، محاولا تطويقها، وإجهاض مشروعها، وتزييف الوعى بحقيقتها استنفارًا لشعوبه كى تتخذها عدوًا، وصرفًا لشعوبنا عن السير فى طريق هذا الإحياء؟!

وإذا كان الباطل قد استنفر قواه لتزييف الوعى بحقيقة الإحياء الإسلامى، فإن على قوى الحق ـ إحياء لسنة التدافع الفكرى والحضارى ـ أن تواجه «الكلمة الخبيثة» بـ«الكلمة الطيبة»، حتى يذهب «الزبد» جفاء، ويبقى ويمكث ما ينفع الناس!

وإذا كانت هذه الدراسة ـ التى نقدم بين يديها ـ قد تخيرت خمسة وستين بحثًا، تمثل ألوان الرؤية الغربية لظاهرة الإحياء الإسلامى المعاصرة، وأخضعتها «للتحليل ـ النقدى. المنهجى»، فإنها قد نجحت نجاحًا كبيرًا فى أن تقدم للقارئ دراسة رفيعة المستوى، بالغة العمق لقطاع من الرؤية الغربية لظاهرة الإحياء الإسلامى.. والنهوض الحضارى.. وضوءًا كاشفًا لمقاصد الغرب من وراء تزييف وعينا بحقيقة حركات اليقظة الإسلامية... وفتحًا لعيون مثقفينا وإعلاميينا ـ الذين جمدوا فى مواقع من فغرت أفواههم ـ دائمًا وأبدًا ـ لابتلاع «الطعم» الساقط فى أفواههم من مصادر الثقافة والإعلام الغربيين؟!. إنها ـ بالمنهج «التحليلى ـ النقدى ـ الموضوعى» ـ والمنحاز للحق فى ذات الوقت ـ تكشف زيف الرؤية الغربية، التى تختزل ظاهرة الإحياء الإسلامى ـ وهى ظاهرة تاريخية ـ فى «طورها المعاصر» كما تختزل الإسلام فى «بعده السياسى»! وتكشف محاولات كثير من الدراسات الغربية، التى تختزل اليقظة الإسلامية فى بعض العوامل الجزئية والمحلية، التى إن لعبت دورًا فى الظاهرة، فإنها عاجزة عن تفسيرها..

وتفضح محاولات الدراسات الغربية لظاهرة الإحياء الإسلامى، الرامية إلى صب الإسلام، ونموذجه الحضارى، وتاريخه فى التقدم والتجديد ـ قسرًا ـ فى قوالب التجربة الحضارية الغربية.. إن من حيث المصطلحات التى تطلقها على مكونات ظاهرة الإحياء الإسلامى، أو من حيث المفاهيم والمضامين التى تقدمها فى هذه المصطلحات فهى ـ بذلك ـ تصنع «صورة ورؤية غربية» لا تريد للحضارات كلها أن ترى إلا ما تراه الحضارة الغربية (ما أريكم إلا ما أرى)؟!

وهى ـ هذه الدراسة التى نقدم بين يديها ـ بهذه الجرعة من «الوعى» ـ إنما تمثل دعوة للدارسين العرب والمسلمين كى يولوا ظاهرة الإحياء الإسلامى حقها من التأمل والبحث والدرس، وذلك على النحو الذى يليق بما يمثله الإحياء الإسلامى من «الخيار النهضوى» الراجح فى الوزن، والمعقول والمقبول بين الخيارات المطروحة والبدائل المعروضة لسبل النهضة والتقدم والتجديد فى عالم الإسلام. إنها صفحات قليلة.. لكنها «نموذج» جيد «للدراسة التحليلة ـ النقدية المنهجية»، تسهم إسهامًا متميزًا وأكيدًا فى زيادة وعى العقل العربى والمسلم بظاهرة الإحياء الإسلامى ـ أعظم ظواهر العصر الذى نعيش فيه ـ والصورة العصرية لطوق نجاة أمتنا من المآزق والتحديات التى اعترضت طريق تقدمها على مر تاريخها الملىء بالمآزق والتحديات!

ولجدارة هذه الدراسة بالتنويه.. فإن الباحثين اللذين قاما بإعدادها ـ الدكتور/ حسنين توفيق إبراهيم والأستاذة أمانى مسعود الحدينى... جديران بالشكر والتقدير..

والله من وراء القصد. منه نستمد العون والتوفيق[1].

---

(١) انظره بكتاب [ظاهرة الإحياء الإسلامى فى الدراسات الغربية] للدكتور حسنين توفيق إبراهيم، والأستاذة أمانى مسعود الحدينى سنة ١٩٩٤م..

فلسفة المشروع الحضارى

فى القرآن الكريم يقترن الحديث عن «الإيمان» بالحديث عن «العمل».

وفى النشأة والتبلور والنمو للعلوم الإسلامية، الشرعية منها والاجتماعية والطبيعية، كانت البداية للتطبيقات، ومنها.. وبعد تراكمها.. استُخلصت القواعد والمناهج والنظريات.. بل إن حضارتنا الإسلامية قد تميز تراثها الفكرى بالاقتصاد الشديد فى التآليف التى انفردت بالمنهجيات والتجريدات والنظريات، وجاءت هذه الجهود الفكرية، عالية المستوى، فى ثنايا العلوم التى توجهت إلى ميادين الممارسة والتطبيق.. وهذه الميزة والخصوصية يحسبها البعض ـ من الذين تأثروا بالنموذج اليونانى.. الذى انفصل فيه العمل الذهنى عن العمل اليدوى، والفكر النظرى عن الممارسات العملية ـ يحسبها هذا البعض نقيصة تعكس فقرًا فى الفكر المنهجى والتجريدى بحضارتنا الإسلامية، بينما هى ميزة وخصوصية جسدت موقفًا حضاريًا إسلاميًا من «العمل» مزج الذهنى منه بالعملى، على النحو الذى ربط فيه الوحى الإلهى بين العمل وبين الإيمان..

* * *

وفى العقود الأخيرة، برزت كثير من الدعوات التى تطلب من الفلسفة أن تنزل من «الأبراج العاجية» لتعالج مشكلات الأمة وبسطاء الناس.. وعقدت مؤتمرات فلسفية عالمية تبحث دور الفلسفة فى حياة «رجل الشارع».. لكن أحدًا لم يلتفت إلى أن هذه «المشكلة» التى تداعت هذه المؤتمرات إلى البحث فيها إنما هى «مشكلة يونانية» المنشأ، منذ أن كان كل «الشرف» لقلة من الأحرار الذين يحترفون العمل الذهنى، وكل «الدونية» لجماهير الأرقاء الذين يحترفون ـ بل ويسجنون ـ فى العمل اليدوى!

وأن الحضارة الإسلامية قد تميزت، انطلاقًا من القرآن الكريم ـ البلاغ الإلهى ـ الذى جسدته السنة ـ بيانًا نبويًا عمليًا ـ بالمزج بين النظريات والممارسات، حتى لقد اقتصد تراثها فى التآليف التى ميزت التجريدات النظرية عن العلم التطبيقى لهذه النظريات.

* * *

وإذا كان الاحتكاك الحضارى بين عالم الإسلام وبين الغرب ـ العنيف منه والسلمى ـ فى القرنين الأخيرين ـ قد طرح على العقل العربى والمسلم، ضرورة «النهضة» كطوق نجاة من المأزق الحضارى ـ الذى يمثل «الجمود.. والتقليد.. والتخلف الموروث» عن عصور التراجع الحضارى، أحد جناحيه.. بينما تمثل «التبعية.. والتقليد للنموذج الغربى فى التحديث» جناحه الآخر ـ حتى لقد أصبحت قضية «النهضة» المنشودة، ومعالم مشروعها الحضارى، هى محور الاتفاق وبؤرة الاختلاف ومجال التحالف وميدان الصراع بين كل تيارات الفكر فى وطن العروبة وعالم الإسلام.. بل لقد تزايدت مركزيتها فى الحياة العقلية لأمتنا مع هذه المتغيرات الفكرية التى شهدتها وتشهدها الساحة الغربية والعالمية فى العقود الأخيرة ـ والتى سقطت فيها فكريات وفلسفات.. وتراجعت فيها أيديولوچيات ونظريات.. وزادت فيها علامات الاستفهام ومساحات المجهول مع زيادة الإجابات ومساحات ما هو معلوم للإنسان؟!

إذا كانت هذه إحدى الحقائق الكبرى فى حياتنا الفكرية المعاصرة.. فإن البحث فى «فلسفة مشروع النهضة العربية الإسلامية»، قد غدا ويغدو الصورة المعاصرة لإنزال الفلسفة من أبراجها العاجية لتبحث المشكلة المحورية للأمة ـ مشكلة «النهضة» ـ والسبيل لإنارة طريق الأمة وهى تواجه المأزق الحضارى الذى يأخذ منها بالخناق...

وفى محاولة للإسهام بهذه المهمة.. مهمة بلورة «فلسفة المشروع النهضوى للأمة»، تأتى هذه الصفحات..

* * *

لقد واجهت أمتنا الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة ـ التى كشفت اتساع وعمق

الهوة بين تخلفنا الحضارى وبين النهضة الغربية الحديثة ـ واجهتها بالدعوة إلى «التغيير» طلبًا «للنهوض».. وكانت كلمات العالم المجدد الشيخ حسن العطار [١١٨٠ ـ ١٢٥٠هـ ١٧٦٦ ـ ١٨٣٥م]: «إن بلادنا لا بد أن تتغير، ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها»!. إيذانًا بطرح مشكلة «التغيير.. والتجديد.. والنهضة» ـ فى إلحاح ـ على العقل العربى والمسلم، قبل قرنين من الزمان.

لكن هذه الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة، قد تميزت عن سابقتها الصليبية الوسيطة [٤٨٩ ـ ٦٩٠هـ ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م] بمقاصد جديدة.. فهى لم تأت فقط، لتحتل الأرض، وتنهب الثروة، وإنما أرادت ـ لتأبيد ذلك ـ احتلال العقل، بتغريب الفكر؛ كى تكون التبعية للمركز الغربى، خيارنا الذاتى، حتى بعد جلاء جيوش الاحتلال؟!. ولذلك، جاءتنا هذه الغزوة ـ مع المدفع والبارود.. وشركات الاستغلال والنهب الاقتصادى ـ بالبعثات العلمية.. والمناهج الفكرية.. ومؤسسات التعليم والثقافة والإعلام التى تعيد صياغة العقل والوجدان فى بلادنا، صياغة تجعل النموذج الغربى هو أداة الربط لعالمنا بالغرب، كالمركز الحضارى النموذجى القائد والوحيد!

ولهذه «النازلة» التى طرأت على الساحة الفكرية فى بلادنا، لم تعد المرجعية الإسلامية ـ كما كانت عبر تاريخنا الطويل ـ هى المنطلق الوحيد لكل دعوات وحركات وأعلام التجديد والنهوض والتغيير.. وإنما ازدوجت المنطلقات، وتعددت المرجعيات.. فأصبح «النموذج الغربى» وبتياراته ومدارسه ومذاهبه ـ يزاحم «المرجعية الإسلامية» إنْ فى المنطلقات والفلسفات.. أو فى المقاصد والغايات ـ لدى التيارات الفكرية والسياسية الساعية إلى النهوض والتغيير.

وزاد من حدة الصراع حول «فلسفة المشروع الحضارى» بين دعاة التغريب وبين أنصار الإحياء الإسلامى، انتصار السلطة الاستعمارية ـ التى ملكت ناصية الحكم وزمام الأمر وصناعة القرار فى طول العالم الإسلامى وعرضه ـ انتصارها لخيار تغريب مشروع النهضة والتحديث.. حتى لقد بلغ الأمر بها حد «إلزام» دولنا ـ المحتلة.. والتابعة ـ بأن تسير سيرة الغرب فى «الحكم.. والإدارة.. والتشريع»؟!

وشهد بهذا «الإلزام» شاهد من أهلها.. فكتب الدكتور طه حسين [١٣٠٦ ـ ١٣٩٣هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م] يقول: «**لقد التزمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبها فى الحكم، ونسير سيرتها فى الإدارة، ونسلك طريقها فى التشريع. التزمنا هذا كله أمام أوروبا. وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال**[١] **ومعاهدة إلغاء الامتيازات**[٢] **إلا التزامًا صريحًا قاطعًا أمام العالم المتحضر بأن نسير سيرة الأوروبيين فى الحكم والإدارة والتشريع؟ فلو أننا هممنا الآن أن نعود أدراجنا وأن نحيى النظم العتيقة لما وجدنا إلى ذلك سبيلًا، ولوجدنا أمامنا عقابًا لا تُجاز ولا تذلل، عقابًا نقيمها نحن.. وعقابا تقيمها أوروبا؛ لأننا عاهدناها على أن نسايرها ونجاريها فى طريق الحضارة الحديثة**»[٣]؟!

لقد انعقد الإلزام والالتزام، على اختيار النموذج الغربى للتحديث، سبيلًا للتقدم فى بلادنا، بين مؤسسات المشروع الاستعمارى الغربى وبين النخب الثقافية العربية والمسلمة، التى صنعها الاستعمار فى بلادنا على عينه، وصاغ عقولها ووجداناتها وتوجهاتها وفق فلسفات مرجعيته الفكرية.. فليبراليتنا.. وشموليتنا.. ورأسماليتنا.. واشتراكيتنا.. ووضعيتنا.. وماديتنا.. ومثاليتنا.. إلخ.. إلخ.. غدت امتدادًا لأصولها ومذاهبها الغربية.. بل لقد صنعوا لنا فكرًا «إسلاميًا» يحاكى النصرانية، التى تقف عند خلاص الروح ومملكة السماء، وذلك حتى تكون «الدولة» و«الدنيا» و«العمران» تحت مظلة «العلمانية» التى تعزل السماء والشريعة والدين عن هذه الميادين؟!

لكن اقتحام النموذج الغربى لميدان «المرجعية» فى بلادنا، لم يستطع إجلاء «النموذج الإسلامى» من هذا الميدان.. بل لقد استنفر هذا الاقتحام دعوات وأعلام الإحياء والتجديد الإسلامى للاجتهاد والإبداع فى بلورة الفلسفة الإسلامية لمشروع النهضة، وصياغة المعالم والسمات المحددة والمميزة للخصوصية الإسلامية فى هذا المشروع.

● فمن رفاعة الطهطاوى [١٢١٦ ـ ١٢٩٠هـ ١٨٠١ ـ ١٨٧٣م] الذى رفض

---

(١) الإشارة إلى معاهدة سنة ١٩٣٦م.

(٢) معاهدة «مونترو» سنة ١٩٣٨م لإلغاء الامتيازات الأجنبية تدريجيًا.

(٣) [مستقبل الثقافة فى مصر] جـ ١ ص ٣٦، ٣٧. طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م.

«الوضعية الغربية» مقررًا «**أن تحسين النواميس الطبيعية لا يُعْتَدّ به إلا إذا قرره الشارع.. وينبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع، لا بطرق العقول المجردة**».. والذى رفض القوانين الوضعية الغربية، ودعا إلى تحكيم فقه المعاملات الإسلامى «**لأن بحر الشريعة الغراء لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقى والرى**»(1).

● إلى جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م] الذى دعا إلى اتخاذ الإسلام مرجعية لمشروع النهضة.. **لأن** «**الدين قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سعادتها، وعليه مدارها.. وهو النظام المدنى الحقيقى.. والسبب المفرد لسعادة الإنسان.. يرفع أعلام المدنية لطلابها، بل يفيض على التمدين من دِيَم الكمال العقلى والنفسى ما يظفرهم بسعادة الدارين**».

والذى حذر من تقليد نموذج «التمدن الغرب»؛ **لأن فيه** «**نفيًا لثروة الأمة إلى غير بلادها، وإماتة لأرباب الصنائع من قومنا، وجدعًا لأنف الأمة يشوه وجهها ويحط بشأنها. ولقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها.. وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم..**»(2)؟!

● إلى الإمام محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] الذى قطع بعبثية وفشل أى مشروع للنهضة الإسلامية لا يكون الإسلام هو مرجعيته ومنطلقه، وذلك «**أن سبيل الدين، لمريد الإصلاح فى المسلمين، سبيل لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شىء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدًا.. وإذا كان الدين كافلًا بتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها،**

---

(١) [الأعمال الكاملة] جـ٢ ص ١٥٩، ١٦٠، ٧٩، ٣٢، ٤٧٧، ٣٨٦، ٣٨٧، جـ١ ص ٥٤٤، ٣٦٩، ٣٧٠ طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

(٢) [الأعمال الكاملة] ص ١٣١، ١٧٢، ١٧٣، ١٩٥ ـ ١٩٧. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم فى غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء فى إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟!.»(١).

● إلى الإمام محمد رشيد رضا [١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م] الذى حدد تميز مشروعنا النهضوى، فى ضوء العلاقة بين «خصوصيته» وبين «التفاعل» مع النموذج الغربى، فقال: «**إننا فى أشد الحاجة إلى الصناعات الإفرنجية وما تتوقف عليه من العلوم والفنون العملية، وإلى الاعتبار بتاريخهم وأطوار حكوماتهم وجماعاتهم، ولكن يجب أن يقوم باقتباس ذلك جماعات منا يجمعون بينه وبين حفظ مقوماتنا وشخصياتنا، وأركانها: اللغة، والدين، والشريعة، والآداب، فمن فقد شيئًا من هذه الأشياء فقد فقد جزءًا من نفسه، لا يمكن أن يستغنى عنه بمثله من غيره، كما أنه لا يستغنى بعقل غيره عن عقله ولا بجسم سواه عن جسمه، وإنما نستفيد من العبرة بحالهم، كيف نرقى لغتنا كما رقوا لغاتهم، وكيف ننشر ديننا كما ينشرون دينهم، وكيف نسهل طرق العمل بشريعتنا وآدابنا كما سهلوا طرق شرائعهم وآدابهم..»**(٢).

● إلى الإمام حسن البنا [١٣٢٤ ـ ١٣٦٨ هـ ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م] الذى تحدث عن إفلاس الخيار الحضارى الغربى، حتى فى بلاده، وعن انفتاح الباب وانفساح الأفق أمام إسلامية مشروع النهضة، فقال: «**إن مدنية الغرب، التى زهت بجمالها العلمى حينا من الدهر، وأخضعت العالم كله بنتائج هذا العلم لدوله وأممه، تفلس الآن وتندحر، وتندك أصولها وتنهدم نظمها وقواعدها. فهذه أصولها السياسية تقوضها الديكتاتوريات، وأصولها الاقتصادية تجتاحها الأزمات، ويشهد ضدها ملايين البائسين من العاطلين والجائعين، وأصولها الاجتماعية تقضى عليها المذاهب الشاذة والثورات المندلعة فى كل مكان، وقد حار القوم فى علاجها وضلوا السبيل.. والإنسانية المعذبة فى أشد الحاجة إلى عذب من سؤر الإسلام الحنيف يغسل عنها أوضار الشقاء، ويأخذ بيدها إلى السعادة.**

لقد كانت قيادة الدنيا، فى وقت ما، شرقية بحتة، ثم صارت بعد ظهور اليونان

---

(١) [الأعمال الكاملة] جـ ٣ ص ٢٤٨. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

(٢) مجلة [المنار] المجلد ٧، جـ ١ ص ١٠.

والرومان غربية، ثم نقلتها النبوات الموسوية والعيسوية والمحمدية إلى الشرق مرة ثانية. ثم غفا الشرق غفوته الكبرى، ونهض الغرب نهضته الحديثة، فكانت سنة الله التى لا تتخلف، وورث الغرب القيادة العالمية. وها هو الغرب يظلم ويجور ويطغى ويحار ويتخبط، فلم يبق إلا أن تمتد يد «شرقية» قوية يظللها لواء الله، وتخفق على رأسها راية القرآن، ويمدها جند الإيمان القوى المتين، فإذا بالدنيا مسلمة هانئة، وإذا بالعوالم هاتفة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].. ليس ذلك من الخيال فى شىء، بل هو حكم التاريخ..»[١].

* * *

هكذا، دار واحتدم الصراع بين تيارات الفكر فى وطن العروبة وعالم الإسلام، على امتداد القرنين الماضيين، حول «فلسفة المشروع الحضارى».. والمرجعية والنموذج للنهضة المنشودة لإخراج الأمة من هذا المأزق الذى يسد عليها طريق التقدم والارتقاء والانعتاق[٢].

* * *

(١) [مجموعة رسائل الإمام الشهيد].. رسالة «نحو النور» ص ٥٩، ٦٠. طبعة دار الشهاب. القاهرة. بدون تاريخ.

(٢) بهذا قدمنا لكتاب [فلسفة المشروع الحضارى] للدكتور أحمد جاد ـ وهو ـ فى الأصل ـ رسالة دكتوراة بقسم الفلسفة ـ كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة ـ طبعة المعهد العالمى للفكر الإسلامى.

● جلوب باشا [١٨٩٧ ـ ١٩٨٦م] هو: اللفتنانت جنرال سيرجون باجوت جلوب.

● قائد عسكرى بريطانى كان أبوه شاويش تعليم فى الجيش البريطانى.

● تخرّج فى كلية وولتش العسكرية ١٩١٤م. واشترك فى الحرب العالمية الأولى ـ بالميدان الفرنسى ـ ثم خدم فى جيش الاحتلال الإنجليزى للعراق ١٩٢٠م. وفى ١٩٢٦م التحق بقوات الصحراء المحاربة للقبائل العربية العراقية. ثم انتقل إلى شرق الأردن ١٩٣٠م للتصدى للقبائل البدوية. وفى ١٩٣٩م اختير رئيسًا لأركان حرب «الفيلق العربى» ـ الجيش العربى الأردنى ـ وليشرف على تدريبه.

● ومن موقع الجنرال جلوب فى قيادة الجيش الأردنى، قام ـ إبان حرب فلسطين ١٩٤٨م بتشتيت وحدة الجيوش العربية، الأمر الذى أدى إلى كارثة تسليم «اللد» و«الرملة» إلى العصابات الصهيونية.

● ولقد ظل جلوب فى موقعه بالجيش الأردنى إلى ما بعد العدوان الثلاثى على مصر أواخر ١٩٥٦م، عندما اضطر الملك حسين [١٩٣٥ ـ ١٩٩٩م] ـ ملك الأردن ـ إلى الاستغناء عن خدماته ١٩٥٧م، تحت ضغط الحركة الوطنية العربية.

● ولقد أقام جلوب ـ فى الأردن ـ علاقات واسعة مع البدو ـ الذين كانوا عماد الفيلق العربى ـ وكان البدو يطلقون عليه اسم «أبو حنيك»، لما فى وجهه من آثار إصابة أصيب بها فى الحرب العالمية الأولى.

● وكما خدم جلوب الاستعمار الإنجليزى من موقعه العسكرى ـ فى الأردن والعراق ـ فلقد خدم التوجهات الاستعمارية الغربية بالكتب التى ألفها.. وهى:

١ ـ «الفتوحات العربية الكبرى» ١٩٦٣م.

٢ ـ «الإمبراطورية العربية» ١٩٦٣م.

٣ ـ «جندى مع العرب» ١٩٥٧م.

٤ ـ «بريطانيا والعرب» ١٩٥٩م.

٥ ـ «الحرب فى الصحراء» ١٩٦٠م.

٦ ـ «قصة الفيلق العربى» ١٩٤٨ [١].

* * *

وفى كتاب الجنرال جلوب «الفتوحات العربية الكبرى» تتجلى النزعة الاستشراقية التى تعمل على تجريد الإسلام وأمته وحضارته من التميز والعبقرية والإبداع، وذلك لزرع اليأس والهزيمة فى وجدان الأجيال العربية والمسلمة المعاصرة، حتى لا تتوجه إلى بعث حضارتها الإسلامية، طالما أن هذه الحضارة خالية من أى إيجابيات، الأمر الذى يدفعهم نحو التغريب، والذوبان فى النموذج العلمانى الغربى.. بل وحتى استبدال النصرانية بالإسلام!

● وللجنرال جلوب موقف واضح وصريح ـ يحمد له ـ يعلن فيه أن موقف الغرب ـ السياسى والدينى ـ من الشرق الإسلامى، ومشكلة هذا الغرب مع هذا الشرق ـ التى سميت بـ«مشكلة الشرق الأوسط» ـ إنما تعود جذورها إلى ظهور الإسلام!.. وليس ـ كما يحسب البعض ـ إلى قيام الكيان الصهيونى ١٩٤٨م.. أو «وعد بلفور» ١٩١٧م.. أو اتفاقية «سيكس ـ بيكو» ١٩١٦م.. ولا حتى «المسألة الشرقية» ـ العلاقات الأوروبية العثمانية ـ فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

يعلن الجنرال جلوب موقفه هذا ـ فى تاريخ «مشكلة الغرب مع الشرق» ـ عندما يقول ـ فى كلماته التى توقظ النيام وتنبه الغافلين ـ «إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد»!

(١) أحمد عطية الله [القاموس السياسى] دار النهضة العربية ـ الطبعة الرابعة ـ القاهرة ١٩٨٠م و[موسوعة السياسة] ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٨٦م.

● وفى ظلال هذه الحقيقة، التى تعبر عنها هذه الكلمات، يجب أن تكون القراءة الواعية لموقف الغرب من الشرق، ونظرة الغرب إلى الشرق ـ الذى يمثل كتاب جلوب «الفتوحات العربية الكبرى» نموذجًا لها.. وهو ذات الموقف الذى أطلق عليه المفكر الإستراتيجى الأمريكى ـ الصهيونى ـ «صموئيل هنتنجتون» [١٩٢٧ ـ ٢٠٠٨م]: «صدام الحضارات».. والذى تحدث عنه الرئيس الأمريكى الأسبق «ريتشارد نيكسون» [١٩١٣ ـ ١٩٩٤م] ـ فى سياق الدعوة إلى الاصطفاف الغربى ضد الأصولية الإسلامية، التى تريد ـ كما يقول:

١ ـ بعث الحضارة الإسلامية.

٢ ـ وتطبيق الشريعة الإسلامية.

٣ ـ واتخاذ الإسلام دينا ودولة.

فأصحاب هذه الأصولية الإسلامية ـ كما يقول نيكسون ـ وإن انطلقوا من بعث الماضى، فإنهم مستقبليون، وهم ليسوا محافظين، وإنما هم ثوار![1].

● وإذا كان الجنرال جلوب قد كرس كتابه «الفتوحات العربية الكبرى ـ كما سيرى القارئ لهذا الكتاب الفذ الذى نقدم بين يديه ـ للانتقاص من العسكرية الإسلامية.. بل والتشويه للرموز والمثل العليا الإسلامية ـ بمن فى ذلك رسول الإسلام ﷺ وكبار الصحابة.. بل والإسلام ذاته.. وذلك حتى تدير الأجيال العربية والإسلامية الحاضرة ظهورها لهذه الحضارة وذلك التاريخ، ولتستبدل بها النموذج الغربى العلمانى.. فإن الرجل قد مثل مجرد حلقة ونموذجًا من النماذج الغربية ـ التى ضمت بابوات.. وكرادلة.. وساسة.. ومستشرقين.. وشعراء ـ احترفوا ـ منذ ظهور الإسلام ـ صناعة التزييف لصورة هذا الدين، الازدراء بمقدساته، وبأمته، وبحضارته.. وذلك لكسر شوكته، والاستيلاء على الشرق من جديد!

● لقد ظهر الإسلام فى القرن السابع الميلادى، وكان الشرق ـ يومئذ ـ خاضعًا للقهر الحضارى والدينى والسياسى والاقتصادى والثقافى ـ وحتى اللغوى ـ للإغريق

(١) نيكسون [الفرصة السانحة] ص ١٤٠ ترجمة: د. أحمد صدقى مراد. طبعة دار الهلال القاهرة ١٩٩٢م.

والرومان والبيزنطيين.. قهر الغزوة التى امتدت عشرة قرون ـ من الإسكندر الأكبر [٣٥٦ ـ ٣٢٤ ق.م] ـ فى القرن الرابع قبل الميلاد ـ وحتى «هرقل» [٦١٠ ـ ٦٤١م] ـ فى القرن السابع للميلاد.. فجاءت الفتوحات الإسلامية لتحرر أوطان هذا الشرق وضمائر شعوبه، ولتنزع من فم الأسد الغربى أكبر لقمة استولى عليها فى تاريخه الاستعمارى القديم.. فلقد فتح المسلمون فى ثمانين عامًا أوسع مما فتح الرومان فى ثمانية قرون، وكان فتحهم فتح تحرير، حرر الأوطان، وترك الناس وما يدينون، حتى إن نسبة المسلمين فى الدولة الإسلامية بعد قرن من الفتوحات لم تتعد ٢٠٪ من السكان(١)!

وفى ظلال الدولة الإسلامية أقامت شعوب الشرق الحضارة الإسلامية، التى أعادت إلى الشرق قيادة الحضارات العالمية، وجعلت الشرق الإسلامى العالم الأول على ظهر هذه الأرض لأكثر من عشرة قرون.

وهكذا مثل الإسلام ـ بفتوحاته التى حررت الشرق من غزوة القرون العشرة ـ وبالحضارة التى بناها هذا الدين ـ مثل الزلزال الذى أصاب الهيمنة الغربية على الشرق، وقلب موازين النظام العالمى القديم.. فالشرق، الذى كان قلب العالم المسيحى، قد صار قلب العالم الإسلامى.. ولما انتقل قلب العالم المسيحى إلى أوروبا، ها هو الإسلام يتمدد فى قلب أوروبا ـ بعد أن أصبحت فراغًا دينيًّا بسبب العلمانية ـ حتى ليستغيث الكاردينال «المونسنيور جوزيبى برنارديني» ـ فى حضرة بابا الفاتيكان «يوحنا بولص الثانى» [١٩٢١ ـ ٢٠٠٥م] من أن «الإسلام يفتح أوروبا فتحًا جديدًا»!(٢).. ويتحدث بابا الفاتيكان السابق «بنديكتوس السادس عشر» عن «مخاوفه من انقراض المسيحية فى أوروبا، ومن أن تصبح أوروبا جزءًا من دار الإسلام فى القرن الواحد والعشرين»(٣)!

لذلك ولهذا الزلزال الذى أحدثه ظهور الإسلام، والذى أحدثته فتوحاته فى النظام

(١) فيليب فارج، يوسف كرباج [المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى] ص ٢٥ ترجمة: بشير السباعى طبعة دار سينا ـ القاهرة ١٩٩٤م.
(٢) صحيفة [الشرق الأوسط] ـ لندن ـ فى ٣٠/ ١٠/ ١٩٩٩م.
(٣) [بلا جذور: الغرب. النسبية المسيحية. الإسلام] نيويورك ٢٠٠٦م.

العالمى القديم، والذى ظل ممثلًا للتحدى الأكبر أمام الهيمنة الغربية، كان التزييف الاستشراقى للإسلام وللفتوحات الإسلامية ـ منذ القرن السابع للميلاد وحتى هذه اللحظات ـ وهو التزييف الذى جاء كتاب الجنرال جلوب ـ عن «الفتوحات العربية» ـ حلقة من حلقاته الممتدة عبر هذا التاريخ الطويل.

وإذا كان سرد نماذج هذه الافتراءات الغربية على الإسلام وفتوحاته وحضارته يحتاج إلى مجلدات.. فإننا نكتفى ـ فى هذا المقام ـ بنماذج ـ هى عبارة عن شهادات غربية ـ على هذا التزييف وهذا الافتراء..

● لقد تحدث المستشرق الفرنسى «مكسيم رودنسون» [١٩١٥ ـ ٢٠٠٤م] عن الصورة الزائفة والعجيبة التى صنعتها الكنيسة الكاثوليكية الأوروبية لرسول الإسلام ﷺ فقال:

«لقد حدث أن الكُتّاب اللاتين، الذين أخذوا بين ١١٠٠م و١١٤٠م على عاتقهم إشباع هذه الحاجة لدى الإنسان العامى، أخذوا يوجهون اهتمامهم نحو حياة محمد، دون أى اعتبار للدقة، فأطلقوا العنان «لجهل الخيال المنتصر» ـ كما جاء فى كلمات «ر. وساوثرن» ـ فكان محمد «فى عرفهم» ساحرا، هدم الكنيسة فى إفريقيا والشرق عن طريق السحر والخديعة، وضمن نجاحه بأن أباح الاتصالات الجنسية.. وكان محمد ـ «فى عرف تلك الملاحم» ـ هو صنمهم الرئيسى وكان معظم الشعراء الجوالة يعتبرونه كبير آلهة السراسنة ـ «البدو» ـ وكانت تماثيله ـ «حسب أقوالهم» ـ تصنع من مواد غنية، وذات أحجام هائلة.

لقد اعتُبر الإسلام ـ فى العصور الوسطى ـ نوعًا من الانشقاق الدينى، أو هرطقة ضمن المسيحية، وهكذا رآه «دانتى» [١٢٩٥ ـ ١٣٢١م][(١)].

ولم يكن هذا التزييف وقفًا على الشعراء الجوالة وجمهورهم من الدهماء والغوغاء.. بل وصل إلى قديس الكاثوليكية وفيلسوفها الأكبر القديس «توما الإكوينى» [١٢٢٥ ـ ١٢٧٤م] الذى ادعى على رسول الإسلام ﷺ بأنه:

(١) رودنسون [الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية] ـ بحث منشور بكتاب «تراث الإسلام» بإشراف «شاخت» و«بوزورت» القسم الأول ص ٢٧، ٢٨. ترجمة: د. محمد زهير السمهورى. مراجعة: د. شاكر مصطفى. الكويت ـ عالم المعرفة ـ ١٩٧٨م.

«هو الذى أغوى الشعوب من خلال وعوده الشهوانية، وقام بتحريف جميع الأدلة الواردة فى التوارة والأناجيل من خلال الأساطير والخرافات التى كان يتلوها على أصحابه، ولم يؤمن برسالة محمد إلا المتوحشون من البشر، الذين كانوا يعيشون فى البادية»[(١)]!

● وإلى ذات المستنقع سقط رأس البروتستانتية «مارتن لوثر» [١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م] الذى وصف القرآن الكريم بأنه: «كتاب بغيض وفظيع وملعون وملئ بالأكاذيب والخرافات والفظائع» معتبرًا أن «إزعاج محمد والإضرار بالمسلمين يجب أن تكون المقاصد من وراء ترجمة القرآن وتعرّف المسيحيين عليه.. وأن على القساوسة أن يخطبوا أمام الشعب عن فظائع محمد، حتى يزداد المسيحيون عداوة له، وأيضًا ليقوى إيمانهم بالمسيحية ولتتضاعف جسارتهم وبسالتهم فى الحرب ضد الأتراك المسلمين، وليضحوا بأموالهم وأنفسهم فى هذه الحروب»[(٢)]!

● ولم يقف هذا التزييف العجيب عند الحقبة الصليبية.. وإنما استمر فى ظل الغزوة الاستعمارية الحديثة:

«فوصف «جى توينبى» [١٨٨٩ ـ ١٩٧٥م] العرب ـ فى كتابه «دراسة فى التاريخ العلمى» ١٩٤٩م ـ بأنهم «غير متحضرين.. وخلْق غريب مستبعد من العالم اللهللينى، أو المتطفلين على الحضارة الهللينية الإغريقية.. أولئك المحمديين البدائيين.. وأقصى القول فيهم: إنهم تقليد بربرى جاهل زائف لديانة السريان الغريبة عنهم.. وهم لبدائيتهم وقصورهم ـ لا يسعون إلى اعتناق النصرانية»[(٣)]!

● بل لقد استمرت صناعة هذه الصورة الزائفة للإسلام وكتابه ورسوله ﷺ حتى هذا القرن ـ القرن الواحد والعشرين.

---

(١) هوبرت هيركومر [صورة الإسلام فى التراث الغربى] ص ٣٢، ٣٣. ترجمة: ثابت عيد. تقديم: د. محمد عمارة طبعة نهضة مصر سلسلة «فى التنوير الإسلامى» القاهرة ١٩٩٩م.

(٢) المرجع السابق. ص ٢١.

(٣) سيجريد هونكة [الله ليس كذلك] ص ٨، ١١، ١٤ ترجمة: د. غريب محمد غريب طبعة دار الشروق ـ القاهرة ١٩٩٥م.

«فبابا الفاتيكان السابق ـ بنديكتوس السادس عشر ـ يتهم الإيمان الإسلامى بأنه «وثنى.. لا عقلانى»!. ويدعى أن رسول الإسلام ﷺ «لم يأت بخير.. وأنه قد أمر بنشر دينه بالعنف»!. ويفترى على القرآن الكريم بادعاء أنه قد «أضيفت إليه تعليمات أوامر اللئام» التى تحض على الإكراه فى الدين»(١)!

● وفى نوفمبر ٢٠٠٧م يصدر فى إنجلترا تقرير أعدته لجنة من كبار المفكرين وأساتذة الجامعات والخبراء فى الإعلام جاء فيه:

«إن الصورة السائدة عن الإسلام فى الغرب هو أنه يماثل النازية والفاشية والشيوعية.. وأن ازدراء الإسلام، وتشبيهه بالشيطان ليس مقصورًا على الصحافة الصغيرة والشعبية.. بل إن صورته هذه هى السائدة فى الصحف الكبرى.. وفى الكتب.. والمحاضرات الجامعية»(٢)!

هكذا احترفت مؤسسات الهيمنة الغربية ـ الدينية والسياسية ـ صناعة الصور المزيفة للإسلام وأمته وحضارته ورموزه ومقدساته، لتشحن شعوبها بكراهيته ـ «الإسلاموفوبيا» ـ فى صراعها التاريخى ـ الصليبى.. والحديث ـ لإعادة اختطاف الشرق من التحرير الذى صنعته الفتوحات الإسلامية.. ولتصور لشعوبها الغزو والاستعمار فى صورة «الرسالة النبيلة» التى يقوم بها الرجل الأبيض لتمدين المسلمين المتخلفين!

وفى سياق هذا «التزييف التاريخى» جاء كتاب الجنرال جلوب عن «الفتوحات العربية الكبرى»!

لكن.. وحتى لا نبخس الناس أشياءهم، وحتى لا نقع فى خطأ الإطلاق والتعميم، وحتى نلتزم بالمنهاج القرآنى فى التمييز بين فرقاء «الآخر» وتياراته وتوجهاته ـ منهاج:

﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ [آل عمران: ١١٣].

---

(١) من محاضرته الشهيرة فى جامعة «ريجنسبورج» الألمانية، فى ١٢ سبتمبر ٢٠٠٦م انظر نص المحاضرة بكتابنا [الفاتيكان والإسلام] ص ١٥٢ ـ ١٦٢. طبعة مكتبة وهبة ـ القاهرة ٢٠١١م.

(٢) [الأهرام] فى ٢٢/ ٧/ ٢٠٠٨م.

فلا بد من الإشارة إلى أن الفكر الغربى قد ارتفعت فى فضاءاته أصوات منصفة للإسلام وأمته وحضارته وللفتوحات الإسلامية الكبرى، تجعلنا ـ نحن المسلمين ـ نرد على افتراءات الجهلاء بإنصاف العلماء..

● ففى مواجهة دعاوى انتشار الإسلام بالسيف، يشهد البروفيسور الفرنسى «مونتيه» [١٨٥٦ ـ ١٩٢٧م] ـ الذى ترجم القرآن الكريم إلى الفرنسية، وكتب عن «حاضر الإسلام ومستقبله» ـ على أن الإسلام قد انتشر بالعقل والمنطق والسلم، فيقول:

«إن الإسلام فى جوهره دين عقلى، بأوسع معانى هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية، والتاريخية، فإن تعريف الأسلوب العقلى» Rationalism «بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق، ينطبق على الإسلام تمام الانطباق.. إنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق والعقل.. وإن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهى على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة فى الدين وفى نشاط الدعوة إلى الإسلام.. لقد حفظ القرآن منزلته من غير أن يطرأ عليه تغيير أو تبديل، باعتباره النقطة الأساسية التى بدأت منها تعاليم هذه العقيدة، وقد جهر القرآن دائمًا بمبدأ الوحدانية، فى عظمة وجلاء وصفاء لا يعتريه التحول، ومن العسير أن نجد فى غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا. وإن هذا الإخلاص كمبدأ الدين الأساسى، والبساطة الجوهرية فى الصورة التى يصاغ فيها هذا الدين، والدليل الذى كسبه هذا الدين من اقتناع الدعاة الذين يقومون بنشره اقتناعًا يلتهب حماسة وغيرة، إن هذا كله يكوّن الأسباب الكثيرة التى تفسر لنا نجاح جهود دعاة المسلمين. وكان من المتوقع لعقيدة محددة كل التحديد، خالية كل الخلو من جميع التعقيدات الفلسفية، ثم هى تبعًا لذلك فى متناول إدراك الشخص العادى، أن تمتلك، وإنها لتمتلك فعلًا، قوة عجيبة، لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس»[١].

● وفى مواجهة دعاوى إكراه المسلمين الأوائل المسيحيين الشرقيين على

(١) آرنولد [الدعوة إلى الإسلام] ص ٤٥٥، ٤٥٦. ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوى، طبعة القاهرة ١٩٧٠م

اعتناق الإسلام، يشهد المستشرق الإيطالى «كايتانى» [١٨٦٩ ـ ١٩٢٦م] ـ صاحب «حوليات الإسلام» ومعه «آرنولد» [١٨٦٤ ـ ١٩٣٠م] فيقولان:

«لم يضطهد العرب أحدًا فى السنوات الأولى من أجل الدين، كما أنهم لم يعملوا على ضم أحد إلى دينهم، ومن ثم تمتع المسيحيون الساميون فى ظل الإسلام، بعد الفتوحات الأولى، بحرية لم يتمتعوا بها من قبل طيلة أجيال عديدة.. وهناك شواهد كثيرة تبين أن المسيحيين قلما كانوا فى عهد الفتوحات الإسلامية الأولى يشكون مما يضعف من قوة دينهم.. ونستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التى اعتنقت الإسلام، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على التسامح.. إن الفكرة التى شاعت بأن السيف كان العامل فى تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق.. إن نظرية العقيدة الإسلامية تلتزم التسامح، وحرية الحياة الدينية لجميع أتباع الديانات الأخرى.. ولقد ظل غير المسلمين ينعمون، فى ظل الحكم الإسلامى، بدرجات من التسامح لم نكن نجد لها مثيلًا فى أوروبا حتى عصور حديثة جدًّا.. وإن التحول إلى الإسلام عن طريق الإكراه محرم، طبقًا لتعاليم القرآن.. وإن مجرد بقاء الكنيسة المسيحية القومية فى إفريقيا الشمالية مثل هذا الوقت الطويل ليدحض أى زعم بأن تحولهم إلى الإسلام قد قام على القوة والإكراه»[١].

● ويؤكد هذه الحقيقة ـ المستشرق الإنجليزى «جورج سيل» [١٦٩٧ ـ ١٧٣٦م] ـ مترجم القرآن إلى الإنجليزية فيقول:

«لقد صادفت شريعة محمد ترحيبًا لا مثيل له فى العالم.. وإن الذين يتخيلون أنها انتشرت بحد السيف إنما ينخدعون انخداعًا عظيمًا»[٢]!

● ويشير الفيلسوف الأمريكى «جون تايلور» [١٧٥٣ ـ ١٨٢٤م] إلى العوامل الذاتية التى امتاز بها الإسلام، والتى ضمنت له سرعة الانتشار، وهزيمة المسيحية التى أصابتها عوامل الإعياء.. فيقول:

---

(١) المصدر السابق، ص ٧٠، ٧٧، ٧٨، ٩٧، ١٢٣.

(٢) المصدر السابق، وانظر [الإسلام فى عيون غربية] ص ٨١.

«كان الناس، فى الواقع، مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة، كما كانت الطبقات العليا مخنثة، يشيع فيها الفساد، والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب، ولم يكن للعبيد أمل فى حاضرهم ولا مستقبلهم، فأزال الإسلام، بعون من الله، هذه المجموعة من الفساد والخرافات. لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء فى العقيدة، وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى. ولقد بين أصول الدين التى تقول بوحدانية الله وعظمته، كما بين أن الله رحيم عادل يدعو الناس إلى الامتثال لأمره والإيمان به وتفويض الأمر إليه. وأعلن أن المرء مسئول، وأن هناك حياة آخرة ويومًا للحساب. وأعد للأشرار عقابًا أليمًا، وفرض الصلاة والزكاة والصوم، وفعل الخير، ونبذ الفضائل الكاذبة والدجل الدينى والترهات والنزعات الأخلاقية الضالة، وسفسطة المتنازعين فى الدين، وأحل الشجاعة محل الرهبنة، ومنح العبيد رجاء، والإنسانية إخاء، ووهب الناس إدراكا للحقائق الأساسية التى تقوم عليها الطبيعة البشرية»[1].

● ولقد بلغ إنصاف هؤلاء العلماء الغربين للإسلام القمة، عندما دعت المستشرقة الألمانية «سيجريد هونكة» [١٩١٣ ـ ١٩٩٩م] شعوب الشرق إلى بناء نهضتهم الحديثة ـ انطلاقًا من أصولها الحضارية التاريخية، تلك «الأصول والجذور التى ينبغى على العالم العربى أن يجددها ويتعهدها حتى يشق طريقه إلى الأمام.. أصول:

١ ـ اللغة العربية.. فهى المفتاح الرئيسى إلى عالم الفكر الذاتى للعرب.

٢ ـ والدين الإسلامى، النقى، المنفتح على العالم، الذى لا يعارض التطور العقلى، وهو المحور الذى يدور حوله الوجود العربى.

٣ ـ وعودة الوعى، والرجوع إلى الهوية الذاتية.. فالتعلم من الماضى لبناء المستقبل حق مفروض.. ورفض غلو التقوقع والانغلاق.. وغلو الانفتاح المطلق بلا قيد ولا شرط، المؤدى إلى الاغتراب، هو شرط النجاة من الانحياز لجبهة واحدة، الأمر الذى يتهدد الحياة».

---

(١) المصدر السابق. ص ٩٠.

ثم ختمت هذه المستشرقة حديثها عن البعث الإسلامى بقولها:

« إن الإسلام هو ولا شك أعظم ديانة على ظهر الأرض سماحة وإنصافا.. نقولها بلا تحيز.. ودون أن نسمح للأحكام الظالمة بأن تلطخه بالسواد. وإذا ما نحينا المظالم التاريخية الآثمة فى حقه، والجهل البحت به، فإن علينا أن نتقبل هذا الشريك والصديق، مع ضمان حقه فى أن يكون كما هو»[1].

تلك إشارات إلى نماذج من المواقف الغربية إزاء الإسلام وأمته وحضارته.. مواقف التزييف والافتراء.. ومواقف الاحترام والإنصاف.. نقدم بها بين يدى كتاب قد كتبه عالم فى التأريخ العسكرى، وباستراتيجيات المعارك التى كتب عنها.. وصبور على التعامل مع المصادر والمراجع، بروح نقدية، أثمرت نزاهة فى إصدار الأحكام.. كما حباه الله انتماء عميقًا وواعيًا للإسلام وأمته وحضارته، وإخلاصًا للحقيقة، التى هى ضالة المؤمن، يسعى إليها، كى يقدمها للقراء..

إنه ـ ولا نزكيه على الله ـ واحد من الذين يفخر بهم علم التأريخ العسكرى فى بلادنا.. لقد وفقه الله لنقد ما جاء فى كتاب الجنرال جلوب عن «الفتوحات العربية الكبرى».. فكسر شوكة الباطل، وأنصف الحقيقة التى أضاءت سماء الشرق إبان تلك الفتوحات[2].

(١) سيجريد هونكة [الله ليس كذلك] ص ٩٥، ٩٦، ١٠١. ترجمة: د. غريب محمد غريب طبعة دار الشروق القاهرة ١٩٩٥م. وانظر فى ذلك ـ أيضًا ـ كتابنا [الإسلام فى عيون غربية] طبعة دار الشروق ـ القاهرة ٢٠٠٥م وكتابنا [أسباب انتشار الإسلام] طبعة دار السلام ـ القاهرة ٢٠١٢م وكتابنا [عوامل امتياز الإسلام] طبعة دار السلام ـ القاهرة ٢٠١٢م.

(٢) ذلك هو اللواء أ.ح (متقاعد) بهاء الدين حنفى، الذى قدمنا كتابه هدية مجلة [الأزهر] عدد ربيع الآخر سنة ١٤٣٥هـ.

أبو عبيد القاسم بن سلام
[١٥٧ ـ ٢٢٤هـ ـ ٧٧٤ ـ ٨٣٨م]

قليلة هى المعلومات والحقائق، والوقائع التى حفظتها لنا مصادر التاريخ عن حياة أبى عبيد القاسم بن سلام، وذلك إذا ما قيست بآثاره الفكرية، ومكانته العلمية، والتأثيرات التى أحدثها فى الفكر، سواء على معاصريه أو على الذين أتوا من بعده.. ولقلة هذه المعلومات تبقى الترجمة لحياته متسمة فى العديد من الفترات بقدر غير قليل من الغموض، وأمور هى أدخل فى باب الاحتمالات التى لا تيقن منها..

ويضاف إلى هذه الحقيقة، التى تجابه من يريد ترجمة واضحة المعالم، ودقيقة المعلومات لحياة القاسم بن سلام، أن عددًا كبيرًا من «الوقائع» والمعلومات التى ذكرها المؤرخون عندما ترجموا له، مليئة بالتناقض، ولا تصمد عند التأمل والنقد، على الرغم من أن الذين ذكروها هم أئمة كُتَّاب التراجم وأعلام المؤرخين فى حضارتنا!.. بل لقد تناقل الكثير من الخلف هذه المعلومات المتناقضة، والوقائع غير الحقيقية، تناقلوها عن السلف، كما هى، دونما نقد أو فحص أو تحقيق!.. فهناك مثلًا: الخلاف فى تاريخ مولده.. وفى تاريخ وفاته.. وفى مكان هذه الوفاة.. وفى تاريخ أدائه لفريضة الحج.. وفى عدد السنوات التى جاورها بمكة منذ حجته إلى وفاته.. وفى تاريخ اتصاله بالقائد طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعى [١٥٩ـ ٢٠٧هـ، ٧٧٥ ـ ٨٢٢] ـ الذى بدأت به رعاية رجالات الدولة لابن سلام ـ وفى تاريخ رحلته إلى مصر.. وفى مذهبه الفقهى.. كل هذه القضايا، فى عناصر الترجمة لحياة ابن سلام، هى موضوع للخلاف، والغموض والاضطراب.. يضاف إلى ذلك؛ بل وربما ساعد عليه، أن العديد من الآثار الفكرية التى أبدعها أبو عبيد، قد ضاعت

فيما ضاع من كنوز تراثنا العربى الإسلامى، الأمر الذى امتد بالثغرات إلى كم وكيف إنجازه الفكرى.. وإن يكن ما بقى له، مضافًا إليه عناوين الكتب التى ضاعت من تآليفه، قد أعانا على «تصور» الصرح العملاق الذى مثله الرجل فى تراث الإسلام...

تلك هى المصاعب التى تواجه من يريد الترجمة الدقيقة لحياة ابن سلام.. ومع ذلك، فلا بد من بذل الجهد، واستفراغ الوسع، فى استقراء المعلومات والروايات، وفى مقارنتها ونقدها، ابتغاء الاقتراب من الصورة الأدق لحياة هذا لعالم الفذ.. وهو الأمر الذى نستعين بالله عليه فى هذه الصفحات..

ـ كثيرون، من المؤرخين للأعلام أو المدن أو الفكر، هم الذين عرضوا فى مؤلفاتهم لحياة أبى عبيد القاسم بن سلام ـ مع تفاوت فى حجم الترجمة ـ واختلاف فى المناسبة التى تحدثوا عنه لأجلها.... تحدث عنه ابن النديم فى [الفهرست]، والخطيب البغدادى فى [تاريخ بغداد]، وياقوت الحموى فى [معجم الأدباء]، والفراء الصغير فى [طبقت الحنابلة]، والذهبى فى [تذكرة الحفاظ] وفى [تاريخ دول الإسلام] وفى [ميزان الاعتدال]، والأنبارى فى [نزهة الألبا]، وابن الجزرى فى [طبقات القراء]، والسيوطى فى [بغية الوعاة]، والشيرازى فى [طبقات الفقهاء]، وابن العماد فى [شذرات الذهب]، وابن الأثير فى [الكامل فى التاريخ]، والنووى فى [تهذيب الأسماء واللغات] وفى [مختصر دول الإسلام]، واليافى فى [مرآة الجنان]، وابن حجر العسقلانى فى [تهذيب التهذيب]، والزبيدى فى [المختصر من تاريخ اللغويين]، وابن تغرى بردى فى [النجوم الزاهرة]، وطا شكبرى زاده فى [مفتاح السعادة]، والخوانسارى فى [روضات الجنات]، وحاجى خليفة فى [كشف الظنون]، والبغدادى فى [إيضاح المكنون] وفى [هدية العارفين]، وعد الباقى اليمانى فى [إشارة التعيين فى تراجم النحاة واللغويين]... وفى عصرنا الحديث كَتَبَ عنه بروكلمان فى [تاريخ الأدب العربى]، وفؤاد سزكين فى [تاريخ التراث العربى]، ومحمد كرد على فى [كنوز الأجداد] وكذلك [دائرة المعارف الإسلامية]، و[دائرة المعارف] التى يشرف عليها أفرام البستانى، والرزكلى فى [الأعلام]، وكحالة فى [معجم المؤلفين]....

تلك هى أبرز المصادر، والمراجع التى ترجمت لأبى عبيد، أو عرضت لحياته أو لفكره أو لمؤلفاته بالحديث... وهى شاهدة، بتنوعها، على مكانته فى العديد من ميادين الفكر العربى الإسلامى، وناطقة ـ بمكانة مؤلفيها ـ على قدر ابن سلام.

وبعد أن رجعنا إلى جميع هذه المصادر والمراجع، وجمعنا ـ باستقراء كامل ـ جميع ما ذكرته عن حياته، وآثاره، ومكانته، ومذهبه من حقائق، ووقائع، وتواريخ، ومعلومات، وجدنا أن أغلب هذه المصادر والمراجع إنما تترجم لأبى عبيد انطلاقًا من المصدرين الأقدمين اللذين ترجما لحياته، وتحدثا عن مؤلفاته [تاريخ بغداد] للخطيب البغدادى [٣٩٢ ـ ٤٦٣هـ، ١٠٠٢ ـ ١٠٧١م] ـ وهو المصدر الأول والأشمل الذى ترجم لحياة القاسم بن سلام... و[الفهرست] لابن النديم [٤٣٨هـ، ١٠٤٧] ـ وهو المصدر الأول والأشمل فى تعداد مؤلفات ابن سلام.... هذان هما المصدران اللذان جمعا أوفى المعلومات عن حياة ومؤلفات أبى عبيد، ومنهما انطلق ونقل من جاء بعد ذلك ليترجم للرجل، دون إضافات تذكر لما كتبه البغدادى وابن النديم..

وإذا كان المنهج الذى ساد فى أغلب هذه المصادر هو منهج «الرواية» الذى يذكر الروايات بسندها دونما نقد يذكر أو تحقيق يجلو الغموض وينفى التناقض، فإن صنيعنا بهذه المعلومات التى أوردها القدماء عن أبى عبيد قد خطا خطوة أخرى، عندما عقدنا المقارنات بين الوقائع، والحقائق، والمعلومات التى ذكرها عنه القدماء، وأيضًا المحدثون، طلبًا لكشف الغموض ونفى التناقض، اللذين أشرنا إلى أهم معالمهما من قبل، وابتغاء لتكوين الصورة الأقرب إلى الحقيقة عن حياة الرجل، ومكانته العلمية، وآثاره الفكرية.. وهى الصورة التى نقدمها إلى الباحثين والقراء، موجزة فى هذه النقاط:

* هو أبو عبيد القاسم بن سلام بن مسكين بن زيد، الأزدى بالولاء.

* كان أبوه سلام؛ عبدًا روميًّا عند رجل من أهل «هراة»، إحدى المدن العظيمة المشهورة فى مقاطعة خراسان.. وكان سلام هذا يحترف صنعة «الحمال»، ويتكلم العربية بلسان غير فصيح.. وكانت هراة ـ حيث ولد ونشأ أبو عبيد ـ مدينة جميلة ببساتينها ورياضها، وورودها؛ قال فيها أحد الشعراء:

هــراه أرض خصبهـا واسـع ... ونَـبْـتـهـا الـلِّـقَـاحُ والـنـرجـس
مـا أحــد مـنـهـا إلــى غـيـرهـا ... يــخـرج إلَّا بـعـد مـا يـفـلـس!

* فى هذه المدينة الجميلة، التى يعشقها أهلها، ولد أبو عبيد، على خلاف فى تاريخ مولده ما بين أعوام [١٥٧هـ، ٧٧٤م] أو [١٥٠ هـ، ٧٦٧م] أو [١٥٤م، ٧٧١م].. والأرجح أن مولده كان [١٥٧هـ، ٧٧٤م]؛ وذلك لأن البغدادى يقول: «وبلغنى أنه بلغ سبعًا وستين سنة»، ولما كان الراجح أن وفاته كانت [٢٢٤هـ، ٨٣٨م]، فالأرجح أن ميلاده كان عام [١٥٧هـ، ٧٧٤م]...

* وفى صغره صحبه أبوه إلى معلم الكُتَّاب، طالبًا تعليمه، وزكاه بعبارة ملحونة ـ كعادته فى نطق العربية ـ فقال للمعلم: «علمى القاسم فإنها كيِّسَة»... أى «علم القاسم فإنه كيِّس» ومنذ ذلك التاريخ ـ فى حداثة الصبا ـ سلك القاسم طريق التَّعُّم والعلم، فلم تعرف حياته له طريقًا سواه...

* وفى أوائل العقد الثالث من عمره [حوالى ١٧٩هـ، ٧٩٥]، وبعد أن استوعب علم هراة، ومرو ـ أعظم مدن خراسان ـ رحل فى طلب العلم إلى أشهر حواضره فى ذلك التاريخ، رحل إلى الكوفة.. والبصرة.. وبغداد.. فأكمل دراساته فى النحو والقراءات والحديث والفقه؛ فسمع من أعلام علماء عصره: إسماعيل بن جعفر(١).. وشريك(٢).. وإسماعيل بن عياش(٣).. وهشيم بن بشير(٤).. وسفيان بن عيينة(٥).. وإسماعيل بن علية(٦).. ويزيد بن هارون(٧).. ويحيى بن سعيد القطان(٨).. وحجاج

(١) [١٣٠ ـ ١٨٠هـ، ٧٤٧ ـ ٧٩٦م].. من علماء القراءات.
(٢) [٩٥ ـ ١٧٧، ٧١٣ ـ ٧٩٤م].. من الفقهاء المقدمين.
(٣) [١٠٦ ـ ١٨٢هـ، ٧٢٤ ـ ٧٩٨م].. من علماء الحديث.
(٤) [١٨٣هـ، ٧٩٩م].. من علماء التفسير والحديث.
(٥) [١٠٧ ـ ١٩٨هـ، ٧٢٥ ـ ٨١٤م].. محدث وفقيه.
(٦) [١١٦ ـ ١٩٣هـ، ٧٣٤ ـ ٨٠٩م].. مفسر، ومحدث، وفقيه.
(٧) [١١٨ ـ ٢٠٦هـ، ٧٣٦ ـ ٨٢١م].. من الحفاظ.
(٨) [١٩٤هـ، ٨١٠م].. من الحفاظ.

ابن محمد[١].. وأبى معاوية الضرير[٢].. وصفوان بن عيسى[٣].. وعبد الرحمن بن مهدي[٤].. وحماد بن مسعدة[٥]، ومروان بن معاوية[٦].... وأبى بكر بن عياش[٧].. وعمر بن يونس[٨].. وإسحاق الأزرق[٩].. وغيرهم من العلماء الأعلام.

وروى عن أعلام البصرة، من مثل: أبى زيد الأنصاري[١٠].. وأبى عبيدة[١١].. والأصمعى[١٢].. واليزيدى[١٣].. وغيرهم.. وكذلك عن أئمة الكوفة، من مثل: ابن الأعرابى[١٤].. وأبى زكريا الكلابى[١٥].. والأموى[١٦] وأبى عمرو الشيبانى[١٧].. والكسائى[١٨].. والأحمر[١٩].. والفراء[٢٠] وغيرهم.

ولأن أبا عبيد قد أخذ عن البصريين والكوفيين جميعًا، ولأنه كان رضى الخلق، عاشقًا للعلم، فلقد تميز موقفه منذ ذلك العهد بالنفور من التعصب لأى من البصريين والكوفيين، وزكى هذا الموقف أن الرجل قد وضع قدميه برسوخ على درب الاجتهاد،

---

(١) لم نعثر على ترجمته فيما بين أيدينا من المصادر.
(٢) [٢٢٠هـ، ٨٣٥م].. شاعر، وراوية.
(٣) لم نعثر على ترجمته فيما بين أيدينا من المصادر.
(٤) [١٣٥ ـ ١٩٨هـ، ٧٥٢ ـ ٨١٤م].. من كبار الحفاظ.
(٥) [٢٣٥هـ، ٨٤٩م].. أديب، وراوية.
(٦) [١٩٠هـ، ٨٠٥م].. شاعر، ونحوى.
(٧) [١٠٦ ـ ١٨٢هـ، ٧٢٤ ـ ٧٩٨م].. عالم ومحدث.
(٨) [٢٤١ هـ، ٨٢١م].. مقرئ، ومحدث.
(٩) [٩٤ ـ ٢٠٦هـ، ٧١٣ ـ ٨٢١م].. لغوى، وأديب.
(١٠) [١١٨ ـ ٢١٥هـ، ٧٣٦ ـ ٨٣٠م].. فقيه، ومحدث.
(١١) [١١٠ ـ ٢٠٩هـ، ٧٢٨ ـ ٨٢٤م].. من أئمة اللغة، والأدب.
(١٢) [١٢٢ ـ ٢١٦، ٧٤٠ ـ ٨٣١م].. من علماء الرواية، والشعر، واللغة، والبلدان.
(١٣) [١٣٨ ـ ٢٠٢هـ، ٧٥٥ ـ ٨١٧م].. قارئ، ونحوى، ولغوى.
(١٤) [١٥٠ ـ ٢٣١هـ، ٧٦٧ ـ ٨٤٥م].. راوية، ونسابة، ولغوى.
(١٥) [٢٠٠ هـ ـ ٨١٥م].
(١٦) [١١١ ـ ١٩١هـ، ٧٢٩ ـ ٨٠٧م].. مؤرخ.
(١٧) [٢٠٥هـ، ٨٢٠م].. لغوى، وشاعر، ومحدث، ومؤدب.
(١٨) [١٨٠هـ، ٧٩٦م].. قارئ، ومجود، ولغوى، ونحوى، وشاعر.
(١٩) [١٨٠هـ، ٧٩٦م].. راوية، وشاعر، وعالم بالأدب.
(٢٠) [١٤٤ ـ ٢٠٧هـ، ٧٦١ ـ ٨٢٢م].. إمام الكوفيين، وأعلمهم بالنحو، واللغة، وفنون الأدب.

فأصبح من أهل العطاء العلمى، الذين تجاوزوا التقليد، ويرفضون التعصب لمذهب بعينه لا يتجاوزون مقولاته.

* وبعد أن امتلك أبو عبيد علوم عصره وفنون حضارة العروبة والإسلام، عاد إلى موطنه فعمل مؤدبًا للصبيان.. ولقد اشتهر بهذه الحرفة، حتى لقد ذكره الجاحظ فى [كتاب المؤدبين].. وذكر الذين أرخوا له: أنه أدَّب غلامًا فى شارع بشر وبشير.. وأنه أدَّب أبناء آل هرثمة بن أعين الذى تولى إمارة خراسان لهارون الرشيد سنة [١٨٩هـ ـ ٨٠٤م]، وولاية مصر قبل ذلك سنة [١٧٨هـ ـ ٧٩٤]، والذى تولى ابنه حاتم إمارة مصر سنة [١٩٤هـ ـ ٨١٠م]...

وإذا كانت أخبار علمه قد عمت خراسان منذ ذلك التاريخ؛ فإن تأديبه لأبناء الولاة والقواد قد لفت إلى علمه وفضله علية القوم وأهل الثراء والسلطان..

* وفى تلك الحقبة من حياته ـ حقبة اشتغاله بتأديب الصبيان ـ التقى أبو عبيد بالقائد البارز والأمير الأديب طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعى [١٥٩ ـ ٢٠٧هـ، ٧٧٥ ـ ٨٢٢م] الذى لعب الدور الأول فى الانتصار للخليفة المأمون[١٩٨ ـ ٢١٨هـ] ضد أخيه الأمين [١٩٣ ـ ١٩٨هـ].. وهو اللقاء الذى أقام العلاقة بين القاسم بن سلام وبين آل طاهر بن الحسين، وخصوصًا عبد الله بن طاهر بن الحسين [١٨٢ ـ ٢٣٠هـ ٧٩٨ ـ ٨٤٤م] عندما تمتع برعايتهم، فانقطع إلى العلم والتأليف..

والذين أرخوا لهذا الحدث من أحداث حياة ابن سلام ـ لقائه بطاهر بن الحسين ـ يقدمون نموذجًا لما سبقت إشارتنا إليه من الاضطراب وعدم الدقة اللذين شابا تأريخهم لحياته.. فالبغدادى صاحب [تاريخ بغداد] ـ يتحدث عن هذا الأمر فيقول: «.. وكان طاهر بن الحسين ـ حين مضى إلى خراسان ـ نزل بمرور يطلب رجلًا فيحدثه ليله، فقيل: ما ههنا إلا رجل مؤدِّب، فأُدخل عليه أبو عبيد القاسم بن سلام، فوجده أعلم الناس بأيام الناس [المعارك والحروب] والنحو، واللغة، والفقه، فقال له: من المظالم تركُك أنت بهذا البلد!. فدفع إليه ألف دينار، وقال له: أنا متوجه إلى خراسان إلى حرب، ولست أحب استصحابك شفقة عليك، فأنفق هذا إلى أن أعود إليك؛ فألَّف أبو عبيد [غريب المصنف] إلى أن عاد طاهر بن الحسين من خراسان، فحمله معه إلى (سر من رأى)..».

ولنا فى نقد رواية البغدادى هذه ـ التى رددها كل من أتى بعده ـ ملاحظات..

(أ) هو يقول إن تاريخ هذا اللقاء كان عندما ذهب طاهر بن الحسين إلى خراسان محاربًا.. ولقد كان ذلك سنة [١٩٥هـ، ٨١١م].. ووقائع تاريخ حياة ابن سلام ـ على ما سنذكره ـ تقطع بأنه كان فى ذلك التاريخ قاضيًا فى طرسوس، ولم يكن مودِّبًا فى مرو أو هراة بولاية خراسان..

(ب) وهو يقول إن ابن سلام قد ألَّف [غريب المصنف] إلى أن عاد الحسين من خراسان.. والثابت ـ بشهادة ابن سلام ـ أن هذا الكتاب ـ وهو أعظم أعماله ـ قد استغرق منه سنوات طوال.. وربما لم يكن قد أنجزه فى تلك المرحلة من حياته..

(جـ) كما يقول إن طاهر بن الحسين، فى عودته من خراسان، حمل معه ابن سلام إلى (سر من رأى)... والثابت أن طاهر بن الحسين قد توفى سنة [٢٠٧هـ، ٨٢٢م] على حين لم تتأسس مدينة (سر من رأى) إلا فى عهد المعتصم سنة [٢٢٠ هـ، ٨٣٥م] ـ أى بعد وفاة طاهر بن الحسين بثلاثة عشر عامًا!

ذلك نموذج لما فى التأريخ لحياة أبى عبيد من خلط وغموض واضطراب..

وما دامت الرواية تحدد أن هذا اللقاء قد حدث عندما كان أبو عبيد يحترف تأديب الصبيان فى هراة ومرو، فلا بد وأن يكون تاريخه سابقًا على مغادرته خراسان إلى طرسوس.. أى قبل سنة [١٩٢هـ، ٨٠٧م]..

* وفى إطار العمل كمؤدب للصبيان، قامت الصلات بين القاسم بن سلام وبين الوالى ثابت بن نصر بن مالك الخزاعى، عندما عمل مؤدبًا لولده.. فلما ولى ثابت ولاية طرسوس، حمل معه إليها القاسم، وولاه قضاءها، فقام بهذا العمل فى طرسوس ثمانية عشر عامًا، من سنة [١٩٢هـ، ٨٠٧م] حتى [سنة ٢١٠هـ، ٨٢٥م].

وبعد أن ترك أبو عبيد قضاء طرسوس سنة [٢١٠ هـ ـ ٨٢٥م] أقام ببغداد، فى رعاية القائد الأمير عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعى، الذى خلف أباه فى تقدير ابن سلام ورعايته، حتى لقد رتب له راتبًا شهريًّا مقداره ـ كما قيل ـ

عشرة آلاف درهم!.. أقام ببغداد ينعم برعاية واحد من أبرز أمراء دولة المأمون، الأمر الذى أتاح له التفرغ للتأليف والتصنيف والتدريس، وذلك دون أن يكون واحدًا من حاشية بلاط الخليفة، فيشغل عن التفرغ للعلم، أو تلحقه سلبيات القرب الشديد من السلطان!..

لقد كان أبو عبيد واحدًا من أئمة أهل الحديث.. ولم تكن الدولة تركن إلى هذا التيار فى عصرى المأمون والمعتصم، اللذين تألق فيهما علم أبى عبيد..

كذلك لم يكن أبو عبيد مجرد محدِّث يقف عند الرواية.. ولهذا لم يعرف عداؤه للدولة ولا عداؤها له، على النحو الذى كان طابع علاقة الدولة بأحمد بن حنبل [١٦٤ ـ ٢٤١هـ، ٧٨٠ ـ ٨٥٥م] وغيره من أئمة أهل الحديث..

وإنما توسط موقف أبى عبيد من الدولة العباسية وخلافتها يومئذ ـ عندما كان انحيازها للتيار العقلانى، المعتزلة ـ وجفاؤها لأهل الرواية والنصوصيين من المحدِّثين.. فأبو عبيد قد قدَّم رائعته الفريدة [غريب الحديث] إلى الخليفة المأمون.. وكان ـ كما قدمنا ـ مشمولاً برعاية عبد الله بن طاهر ـ وهو من أبرز قواد المأمون ـ لكنه ظل بعيدًا عن بلاط الخلافة فى بغداد... كما نلحظ أنه فى [كتاب الأموال] ـ الذى تناول فيه السياسة المالية والتدبير الاقتصادى ـ لم يتحدث بشىء عن الدولة العباسية.. بل ـ وأكثر من ذلك ـ حكى بالتفصيل خلاف الصحابة والتابعين حول شرعية ومشروعية سلطان الدولة الأموية ـ التى غيرت فلسفة سياسة الأمة من الشورى إلى الملك العضود ـ بل ولم يطلق على حكامها لقب «الخلفاء».. وإنما تحدث عنهم بلقب «السلطان والأمراء»!.

وهو تقويم من أبى عبيد للدولة الأموية، لا بد وأن تنسحب ظلاله على نظيرتها فى هذه السمة: دولة بنى العباس!..

ولعل خُلُق الرجل وورعه وزهده.. وتوسطه ـ الذى جعله بعيدًا عن التعصب المذهبى قد أسهمت ـ هى الأخرى ـ فى تحديد الموقع الذى اختار.. موقع العالم، الذى وإن لم يناهض السلطان، إلا أن الانقطاع إلى العلم، والتحلى بكبرياء العلماء، قد جمعا له حسنات رعاية الدولة للعلم، مع النجاة من مسالب العيش فى كنف بلاط السلطان!..

* ولقد تخللت إقامته ببغداد أسفار عاد بعدها إلى الإقامة فيها.. والذين أرخوا له يذكرون أنه رحل إلى مصر مع يحيى بن معين [١٥٨ ـ ٢٣٣هـ، ٧٧٥ ـ ٨٤٨م] ـ وهو سيد الحفاظ ـ فى سنة [٣١٣هـ، ٨٢٨م].. ونحن نرجح أن تاريخ هذه الرحلة إلى مصر هو سنة [٢١١هـ، ٨٢٦م]... ففى ذلك التاريخ تولى عبدالله بن طاهر إمارة الصلاة والخراج على مصر.. وإذا كانت الرواية تقول إن ابن سلام «قد كتب بمصر»، أى تولى الكتابة بديوانها، فالأرجح أن ذلك قد تم فى صحبة عبد الله بن طاهر وفى إمارته.. فلقد كانت رعايته لابن سلام مظلة الدولة لهذا العالم الجليل فى ذلك التاريخ.. ولقد استمرت ولاية عبد الله بن طاهر على مصر سنة وأربعة أشهر وثلاثة وعشرين يومًا.. عاد بعدها أبو عبيد إلى بغداد..

* كذلك رحل أبو عبيد من بغداد إلى مكة حاجًّا إلى بيت الله الحرام.. وهنا ـ مرة أخرى ـ يختلف المؤرخون فى تاريخ هذه الرحلة.. فمنهم من يجعلها سنة [٢١٤هـ، ٨٢٩م].. ومنهم من يجعلها سنة [٢١٩هـ، ٨٣٤م].. ومنهم من يجعلها سنة [٢٢٣هـ، ٨٣٨م].. والراجح عندنا هو هذا التاريخ الأخير [٢٢٣هـ، ٨٣٨م].. وذلك أن الجميع يجمعون على أنه قد جاور بمكة من تاريخ ذهابه إليها حاجًّا حتى وفاته بها سنة [٢٢٤هـ، ٨٣٨م].. ومن ثم فلا سبيل إلى الجمع بين هذه التواريخ المختلفة لحجته، بالقول إنها حجات ثلاث، كان يعود بعد كل واحدة منها إلى الإقامة ببغداد.. كما يحول دون القول بمجاورته بمكة تلك السنوات ما هو ثابت من وجوده ببغداد، يملى ويسمع منه الرواة نص [كتاب الأموال] فى تلك السنوات.. فأبو بكر ابن سنان بن محمد بن طالب، يذكر فى «سماع» النسخة المصرية من هذا الكتاب قوله: «وسمعت منه [أى من أبى عبيد] سنتى عشرين وإحدى وعشرين ومائتين ببغداد»، الأمر الذى يرجح أن حجه إنما كان فى سنة [٢٢٣هـ، ٨٣٨م] وليس فى سنة [٢١٤هـ، أو ٢١٩هـ]..

* وبعد أن فرغ القاسم بن سلام من حجه سنة [٢٢٣هـ] جاور بمكة وأقام بها، حتى إذا كان العام التالى، همَّ بالرجوع إلى بغداد.. فاكترى دابة فى ركب مسافر فى الغد.. فلما نام ليلته، رأى فيما يرى النائم تلك الرؤيا التى يحكيها هو فيقول: «رأيت النبى ﷺ، فى النوم، وهو جالس على فراشه، وقوم يحجبونه، والناس يدخلون إليه

ويسلمون عليه ويصافحونه.. فلما دنوت لأدخل مع الناس مُنِعْتُ؛ فقلت لهم: لم لا تخلُّون بينى وبين رسول الله ﷺ؟ فقالوا: أى والله! لا تدخل إليه ولا تسلم عليه وأنت خارج غدًا إلى العراق! فقلت: فإنى لا أخرج إذًا، فأخذوا عهدى، ثم خلوا بينى وبين رسول الله ﷺ، فدخلت، وسلمت، وصافحت»!.

فلما أصبح أبو عبيد، واستيقظ من نومه، ذهب إلى القيم على القافلة، ففسخ اتفاقه على السفر من مكة إلى بغداد!.. وسكن مكة، حتى توفى بها [٢٢٤هـ، ٨٣٨م][١].. ودفن فى دار جعفر بن أبى طالب.

تلك هى الوقائع الأساسية لمسيرة حياة أبى عبيد القاسم بن سلام.. الذى ولد أواخر عهد المنصور العباسى.. وعاش فشهد خلافة المهدى... والهادى... والرشيد والأمين... والمأمون... والمعتصم... والذى مات عن سبعة وستين عامًا.. أقام فيها للعلم بناء شامخًا، قاوم شموخه عاديات القرون.. وما زال حيًّا فاعلًا فى العقلين العربى والمسلم حتى الآن!..

تلك هى وقائع حياته، استقرأنا تفصيلاتها وحققنا رواياتها.. قدر الطاقة والإمكان.. عليه رحمة الله.

ـ ولقد تجاوز أبو عبيد القاسم بن سلام المرتبة التى يكون فيها المفكر المبدع ظاهرة من ظواهر العصر الذى عاش فيه، إلى حيث أصبح ظاهرة من ظواهر الفكر العربى الإسلامى عبر تاريخه الطويل، بلغ ذلك بحجم إبداعه، وبعمقه، وبتنوع هذا الإبداع..

ولقد سبق وأوردنا كلمة الجاحظ ـ وهو من أعلام التيار العقلانى فى حضارتنا ـ التى قوَّم بها مكانة أبى عبيد، فقال: «لم يكتب الناس أصح من كتبه، ولا أكثر فائدة»!.

---

(١) هناك خلاف فى تاريخ الوفاة، فالبعض يقول إنها حدثت سنة (٢٢٢هـ) والبعض يقول إنها حدثت سنة (٢٢٣هـ) وهناك خلاف فى مكانها، إذ يرى البعض أنه قد توفى بالمدينة، ولكن الأرجح هو ما اخترناه، وهو اختيار أغلب من أرخ له.

ثم، ها هو عبد الباقى اليمانى صاحب [إشارة التعيين وتراجم النحاة واللغويين] يشير إلى المكانة العلمية لابن سلام، فيقول: «إنه إمام فى سائر الفنون»!

أما إبراهيم الحربى [١٩٨ ـ ٢٨٥هـ، ٨١٤ ـ ٨٩٨م] ـ وهو المحدث، الفقيه، الأديب، اللغوى ـ فيصور ويتصور ابن سلام هكذا.. «كأنه جبل نُفخ فيه الروح، يتكلم فى كل صنف من العلم»!. كما نقل عنه ذلك صاحب [تاريخ بغداد].

تلك بعض من إشارات لشهادات أعلام العلماء على مكانة أبى عبيد القاسم بن سلام.. وحتى ندرك صدق وواقعية هذه الشهادات ـ وأمثالها ـ لا بد من إشارات إلى الصرح الفكرى الذى أقامه أبو عبيد فى تراث الإسلام، وفنون العربية وعلومها..

ويبدو أن الرجل، منذ بداية حياته المبدعة، كان يدرك ما يريد أن يصنع فى ميدان العلم، أى أنه كان صاحب «مشروع فكرى» توفر على إقامة بنيانه بما صنف من مؤلفات.. ففى أعماله الفكرية الأساسية كان يبدأ فيستوعب ما كتبه فيها السابقون، فيقف موقف المحقق الناقد المصنف، المؤصل للمسائل، الجامع للشواهد عليها، ثم ينطلق فيضيف إبداعه الجديد.. وهو صنيع من يقول: من هنا يمكن أن تبدأ، دون أن يفوتك شىء ذو بال!.. فإذا أضفنا إلى ذلك إبداعه فى الكثير من ميادين معارف عصره، أدركنا كيف نجح فى أن يمثل فى تراثنا علامة متميزة، ومشروعًا فكريًّا عملاقًا، ظل فى كثير من فنونه نقطة انطلاق جامعة ووافية ـ يبنى عليها ويضيف إليها اللاحقون، حتى هذا العصر الذى نعيش فيه..

لقد كان «رجل المشروعات الكبرى»، فأنجز فى العلوم التى أبدع فيها وصنف، ما يشبه أن يكون «موسوعة عصره»، حتى لقد كان يصبر ـ صبر العلماء ـ على العمل الواحد ـ كما صنع مع كتابه الفذ [غريب الحديث] ـ السنين التى تصل الأربعين عددًا!..

وإذا نحن تأملنا الميادين التى تغيًّا أبو عبيد خدمتها بهذا «المشروع الفكرى» وجدناها قد أحاطت بحاجات الإنسان العربى المسلم العقلية إحاطة شبه تامة.. فهو قد استهدف خدمة القرآن الكريم.. والحديث النبوى الشريف، وعلوم العربية، التى هى لغة القرآن والسنة.. والكثير من علوم الإنسان العربى، الذى اصطفاه الله

فحمَّله رسالة الإسلام إلى العالمين.. فى هذه الميادين؛ أبدع أبو عبيد أعماله الفكرية الكبرى، وأقام لبنات مشروعه الفكرى الكبير..

وإذا كانت عاديات الدهر ـ ومنها دمار بغداد على أيدى التتار ـ قد حرم المكتبة العربية الإسلامية من كثير مما كتب أبو عبيد.. فإن فى عناوين مصنفاته ـ فيما بقى منها ـ البرهان الساطع على شموخ هذا المشروع الذى أبدعه ذلك «الجبل الذى نفخ فيه الروح فتكلم فى كل صنف من العلم» ـ كما قال عنه العلماء.

لقد بلغت أعماله الكبرى والشهيرة، التى يتداول الناس روايتها ـ كما يقول البغدادى فى [تاريخ بغداد] ـ «بضعة وعشرين كتابًا، فى القرآن، والفقه، وغريب الحديث، والغريب المصنف والأمثال، ومعانى الشعر، وغير ذلك».. ثم يستطرد البغدادى فيذكر أن لأبى عبيد كتبًا أخرى مهمة ومطلوبة، غير هذه التى طبقت شهرتها الآفاق.. فيقول: «وله كتب لم يروها قد رأيتها فى ميراث بعض الطاهريين [آل طاهر ابن الحسين، الذين عاش فى رعايتهم] تباع كثيرة فى أصناف الفقه كله».. ثم يمضى الخطيب البغدادى متحدثا عن رواج هذه الكتب فى عصره، وبكل بلاد الإسلام، فيقول: «وكتبه مستحسنة، مطلوبة فى كل بلد..».. ثم يضيف حقيقة أخرى نعلم منها أن كتب ابن سلام كانت تعمل عملها مخطوطة على الورق، ومنقولة بواسطة الرواة الثقات.. فيقول: «والرواة عنه مشهورون، ثقات، ذوو ذكر نبيل»!.

لقد اكتسبت جميع هذه «الوسائل» ـ من الأوراق والصحائف.. إلى عقول الرواة وألسنتهم ـ «الشهرة» و«الثقة» و«النبل» عن مصدرها ومنبعها.. من كتب أبى عبيد، ولبنات مشروعه الفكرى العملاق!..

أما عناوين هذه الكتب، كما ذكرها ابن النديم ـ فى [الفهرست] ـ وغيره من الذين صنفوا فى الفنون ومؤلفاتها، فإنها تبلغ الخمسة والثلاثين كتابًا.. منها الأمهات.. ومنها الرسائل الصغيرة.. أو المأخوذة من الكتب الأمهات.. ونحن نرصدها على النحو التالى ـ وفقًا لفنونها:

١ ـ [كتاب غريب القرآن]. وعنه قال القدماء ـ كما فى تاريخ بغداد: إنه «كتاب جيد، ليس لأحد من الكوفيين قبله مثله».

٢ ـ [كتاب معانى القرآن].

٣ ـ [كتاب فضائل القرآن]. ويتحدث فيه عن فضائل القرآن ككل، وعن فضائل بعض السور والآيات، وعن الغزوات، والتفسير.. إلخ.. ولقد طبع منه قسم فى برلين سنة ١٩٥٢م، وله طبعة كاملة بعنوان [فضائل القرآن وآدابه] نشرها إرنست إيزين E وEisen بالاشتراك مع بريتسل O وPretzl [١٨٩٣ ـ ١٩٤١م] (إسلاميكا ٢٦، ٢٤٣).

٤ ـ [كتاب الناسخ والمنسوخ].

٥ ـ [كتاب عدد آى القرآن].

٦ ـ [رسالة فيما ورد فى القرآن الكريم من لغات القبائل] وهى منسوبة إلى أبى عبيد، طبعت بهامش كتاب [التيسير فى علوم التفسير] للديرينى، كما طبعت بهامش كتاب [تفسير القرآن العظيم] للسيوطى.

٧ ـ [كتاب القراءات].

٨ ـ [كتاب المقصور والممدود] وهو فى القراءات.

٩ ـ [كتاب غريب الحديث] وهو الذى يسميه حاجى خليفة ـ فى [كشف الظنون]: «مسند القاسم بن سلام»، ولقد ظل العمدة والمصدر الفريد فى بابه حتى ألَّف ابن قتيبة الدينورى [٢١٣ ـ ٢٧٦هـ، ٨٢٨ ـ ٨٨٩م] كتابه فيه، فحذا فيه حذو أبى عبيد، وقال فى مقدمته: «أرجو ألا يكون بقى بعد هذين الكتابين من غريب الحديث ما يكون لأحد فيه مقال» ولقد نشره المستشرق دى خويه، M.J.de GoeJe [١٨٣٦ ـ ١٩٠١م]، وكانت مخطوطته أقدم المخطوطات العربية فى أوروبا، بعد القرآن الكريم وأوراق البردى، إذ كانت منسوخة سنة (٣٥٢هـ)، ولقد مكث أبو عبيد فى تأليفه أربعين عامًا.

١٠ ـ [كتاب الأموال] وسيأتى حديثنا عن طبعاته.. وتحقيقنا له بعد قليل وواضح من عنوانه أنه فى الاقتصاد والمعاملات المالية والتجارية.

١١ ـ [كتاب الحجر والتفليس]. كتبه على مذهب الشافعى.

١٢ ـ [كتاب أدب القاضى].

١٣ ـ [كتاب الطهارة].

١٤ ـ [كتاب الأيمان والنذور].

١٥ ـ [كتاب الحيض].

١٦ ـ [كتاب آداب الإسلام].

١٧ ـ [كتاب فى الإيمان ومعالمه وسننه واستكمال درجاته].

١٨ ـ [كتاب الخطب والمواعظ].

١٩ ـ [كتاب غريب المصنف] ومخطوطته تقع فى مجلدين، وهو يشتمل على ألف باب ومائتين، وعلى ألف شاهد، ويعد أول معجم عربى كبير مرتب على الموضوعات، مثل كتاب [المخصص] لابن سيده، ووصفه القدماء بأنه «من أجل كتبه فى اللغة».

٢٠ ـ [كتاب الأجناس من كلام العرب] وهو مستخرج من كتاب [غريب الحديث]. طبعه امتياز على الزمغورى ـ فى بومبى ـ سنة (١٣٥٦هـ) مع [كتاب ما اشتبه فى اللفظ واختلف فى المعنى] بعنوان: [كتاب الأجناس من كلام العرب، وما اشتبه فى اللفظ واختلف فى المعنى].

٢١ ـ [رسالة فيما اشتبه فى اللفظ واختلف فى المعنى] وهى مستخرجه من [كتاب غريب الحديث] طبعت ـ كما أشرنا ـ فى بومبى سنة (١٣٥٦هـ) مع [كتاب الأجناس من كلام العرب].

٢٣ ـ [كتاب المذكر والمؤنث].

٢٤ ـ [كتاب الأضداد والضد فى اللغة].

٢٥ ـ [كتاب فعل وأفعل].

٢٦ ـ [كتاب خلق الإنسان ونعوته] وهو قسم من كتاب [غريب المصنف].

٢٧ ـ [كتاب النسب].

٢٨ ـ [كتاب معانى الشعر].

٢٩ ـ [كتاب الشعراء].

٣٠ ـ [كتاب الإيضاح].

٣١ ـ [كتاب الأحداث].

٣٢ ـ [كتاب مقاتل الفرسان].

٣٣ ـ [كتاب فضائل الفرس].

٣٤ ـ [كتاب النَّعم، والبهائم، والوحش، والسباع، والطير، والهوام، وحشرات] نشره الأب موريس بويج M. Bouyges فى بيروت سنة (١٩٠٨م).

تلك هى عناوين الأعمال الفكرية، التى حفظتها لنا الموسوعات التى أرخت لتراثنا وعلومه.. وهى شاهد على أن أبا عبيد القاسم بن سلام إنما تغيًّا وأنجز «مشروعًا فكريًّا عملاقًا»، مثَّل ـ مع صاحبه ـ معلمًا متميزًا وبارزًا فى التراث الفكرى لحضارة الإسلام..

ـ وإذا كانت الرواية والرواة قد نافسوا صحائف الأوراق ومخطوطات الكتب فى إشاعة فكر أبى عبيد ـ على النحو الذى ساد فى تاريخنا الفكرى ـ وكما أشار إلى ذلك الخطيب البغدادى، فى الحديث عن أبى عبيد ـ فإن من المفيد أن نعلم أن الرجل قد روى عنه كوكبة من أبرز الرواة، ذكر البغدادى منهم: نصر بن داود ابن طوق[١].. ومحمد بن إسحاق الصاغانى[٢].. والحسن بن مكرم[٣].. وأحمد بن يوسف

(١) لم نعثر على ترجمته فيما بين يدينا من مصادر..
(٢) لم نعثر على ترجمته فيما بين يدينا من مصادر..
(٣) لم نعثر على ترجمته فيما بين يدينا من مصادر..

التغلبى[١].. وأبا بكر بن أبى الدنيا[٢].. والحارث بن أبى أسامة[٣].. ومحمد ابن يحيى المروزى[٤].. وعلى بن عبد العزيز البغوى[٥].. وغيرهم من مشاهير الرواة.. فاكتمل شيوع فكره بجناحى المشافهة والتدوين..

ـ ولقد زاد من قدر هذا العلم ورفع من مكانة صاحبه، ذلك الخلق الإسلامى النبيل الذى تحلى به، فكان نموذجًا له عالمنا أبو عبيد القاسم بن سلام..

فالرجل كان لا يفتأ يردد الدرس الذى وعاه منذ كان طالبًا للعلم، عندما كان يتلهف على لقاء بعض الشيوخ ليأخذ عنهم.. فقال له عبد الله بن إدريس[٦] [١٢٠ ـ ١٩٢هـ، ٧٣٨ ـ ٨٠٨م]: «أيا أبا عبيد، مهما فاتك من العلم، فلا يفوتنك العمل»!. لقد وعى الدرس الذى علَّمه إياه ابن إدريس، فارتبط العلم بالعمل فى حياته، حتى كان نموذجًا للعالم العامل كما يريده خُلق الإسلام..

ولقد عرض علماء عصره لهذه الفضيلة من فضائله، فعبروا عنها بعبارات تصور قدر الرجل فى ميدان الأخلاق.. أخلاق العلماء الربانيين.. فأحمد بن كامل القاضى [٣٥٠ هـ، ٩٦١م] يقول عنه: «كان أبو عبيد القاسم بن سلام فاضلًا فى دينه، وفى عمله، ربانيًّا، متفننًا فى أصناف علوم الإسلام، من القرآن، والفقه، والعربية، والأخبار، حسن الرواية، صحيح النقل، لا أعلم أحدًا من الناس طعن عليه فى شىء من أمره ودينه..».

وأبو الحسن بن المنادى [٢٥٦ ـ ٣٣٦هـ، ٨٧٠ ـ ٩٤٧م] يصفه بأنه «كان ذا فضل ودين، وستر، ومذهب حسن..».. أما أبو الحسن محمد بن جعفر بن هارون التميمى النحوى [٣٠٣ ـ ٤٠٢هـ، ٩١٥ ـ ١٠١١م] فإنه يقول عنه: «.. وكان أبو عبيد ديِّنًا، ورعًا، جوادًا..».

(١) [١٨٣ ـ ٢٦٤هـ، ٧٩٩ ـ ٨٧٨م].. من علماء الحديث.

(٢) [٢٠٨ ـ ٢٨١هـ، ٨٣٣ ـ ٨٩٤م].. من الحفاظ، والمصنفين.

(٣) [١٨٦ ـ ٢٨٢هـ، ٨٠٢ ـ ٨٩٦م].. من الحفاظ.

(٤) [١٧٢ ـ ٢٥٨هـ، ٧٨٨ ـ ٨٧٢م].. من الحفاظ الثقات.

(٥) [٢٨٦هـ، ٨٩٩م].. من الحفاظ الثقاة المأمونين.

(٦) [١٢٠ ـ ١٩٢هـ، ٧٣٨ ـ ٨٠٨م]. ـ من أعلام حفاظ الحديث.

ويذكر القاضى عياض [٤٧٦ ـ ٥٤٤هـ، ١٠٨٣ ـ ١١٤٩م] فى كتابه [الشفاء] ـ على ما ينقله بروكلمان ـ أن خُلق أبى عبيد قد قاده إلى التحرج من رواية الفحش والرفث فى الشواهد اللغوية منسوبًا إلى الناس.. فإمعانًا منه فى التقوى والورع، وحرصًا على تجنب كل خطيئة، كان يمحو الأسماء التى ينسب إليها الشعراء الفحش والخُلق الردىء، حتى لا يشارك فى ذنوب فضح أصحاب هذه الأسماء، فيضع مكان أسمائهم فى أبيات الهجاء التى يسوقها شواهد فى مجموعاته اللغوية كلمات تتناسب مع الأوزان!.. فيلتزم أمانة العلم التى تسوق المعانى دون تغيير.. ويستر على الذين فضحهم أو فضحهن شعراء الهجاء والمجون!

وناهيك برجل تحدث عنه أبو بكر بن الأنبارى [٣٨٠هـ، ٩٩٠م] فقال: «إنه كان يقسم الليل أثلاثًا، فيصلى ثلثه، وينام ثلثه، ويضع الكتب ثلثه»!.

وعلى الرغم من أن الرجل كان يعيش فى رعاية الأمير القائد عبد الله بن طاهر، إلا أن خُلقه الربانى قد حباه شموخ العلماء إذا ما تعلق الأمر بذوى الجاه والسلطان، مع تواضع شديد إذا ما تعلق الأمر بالعلماء والفقراء!..

فطاهر بن عبد الله بن طاهر ـ ابن الأمير الذى يرعى القاسم بن سلام ـ يأتى من خراسان إلى بغداد ـ وهو حَدَث، فى حياة أبيه ـ وهو فى طريقه إلى الحج، فينزل فى دار إسحاق بن إبراهيم، ويدعو إسحاق العلماء، ليراهم ويسامرهم ويقرأ عليهم، فيلبى الدعوة كثيرون من الفقهاء والمحدثين والرواة.. لكن أبا عبيد ـ وهو الذى يعيش فى رعاية والد هذا الأمير، ويتلقى عطاءه من صاحب الدعوة إسحاق بن إبراهيم ـ يضرب المثل فى شموخ العلماء، فيعتذر عن عدم تلبية الدعوة، قائلًا: «العلم يُقْصَد»!. فيغضب إسحاق من قوله ورسالته، فيقطع عنه عطاء عبد الله بن طاهر ـ الذى كان ـ كما قيل ـ ألفى درهم فى الشهر ـ ويكتب إلى عبد الله بن طاهر بالخبر.. لكن الأمير العارف بأقدار العلماء، عبد الله بن طاهر يكتب إلى إسحاق بن إبراهيم قائلًا: «صدق أبو عبيد فى قوله، وقد أضْعفْتُ له الرزق من أجل فعله، فأعطه فائته، وأدر عليه بعد ذلك ما يستحقه»!. وبذلك يصنع أبو عبيد نصرًا مؤزرًا للشموخ، كواحد من أفضل سجايا العلماء!...

ومع هذا الشموخ الذى يحفظ كرامة العلم وقدر العلماء، كان تواضع أبى عبيد لطلاب العلم وراغبيه.. فهو الذى كان ـ كما يروى الخطيب البغدادى عن ابن عرعرة ـ يحمل كتبه، ويذهب إلى حيث القادمين إلى بغداد ـ من مثل على بن المدينى، وعباس العنبرى ـ «يحمل كل يوم كتابه، ويأتيهما فى منزلهما، فيحدثهما» فيما رغبا سماعه من كتابه [غريب الحديث]!.

ولقد وقف وراء هذا الشموخ الذى تحلى به أبو عبيد، فى علاقاته بالأمراء والقواد ورجالات السلطان، زهد فى عرض الدنيا، وعزوف عن جمع ما زاد عن الاحتياجات التى تيسر للعالم سبل النهوض برسالته فى الحياة.. فالرجل قد كفته رعاية عبد الله بن طاهر لمطالبه المادية عن طلب المزيد، ولقد حدث يومًا أن أرسل أبو دلف القاسم بن عيسى العجلى [٢٢٦هـ، ٨٤٠م] ـ وكان من أمراء الدولة، وأحد أئمة البلاغة ـ أرسل إلى ابن طاهر طالبًا منه أن «يهدى إليه» أبا عبيد مدة شهرين يسمع منه العلم، ويتدارسه وإياه.. فذهب أبو عبيد إلى إمارة «أبو دلف»، فأقام شهرين، فلما أراد الانصراف، أراد أبو دلف أن يصله بثلاثين ألف درهم، فاعتذر أبو عبيد عن عدم قبولها، قائلًا: «إننى فى جنبة رجل ما يحوجنى إلى صلة غيره! ولا آخذ ما فيه على نقص»، وبلغ هذا الموقف النبيل عبد الله بن طاهر، فأراد أن يصل أبا عبيد بدلًا من الثلاثين ألف درهم ثلاثين ألف دينار!.. فدعا الأدب أبا عبيد إلى القبول، وقاده الزهد إلى التصدق بهذه الدنانير، وكان جوابه أمام صلة ابن طاهر أن قال: «أيها الأمير قد قبلتها ولكن قد أغنيتنى بمعروفك وبرك وكفايتك عنها، وقد رأيت أن أشترى بها سلاحًا وخيلًا، وأتوجه بها إلى الثغر، ليكون الثواب متوفرًا على الأمير..»!.

لقد قبل العطية أدبًا ومجازًا.. واعتذر عن ردها أدبًا وحقيقة؛ لأنه عندما وضعها فى سبيل الجهاد، سلاحًا وخيلًا، إنما أراد أن يكون ثوابها «متوفرًا على الأمير»!. لقد كان زاهدًا حتى فى ثواب ما لا يحتاج إلى طلبه من الإنفاق!..

وتشهد الوقائع التى أرَّخت لأخلاق الرجل أن شموخه هذا لم تشبه شائبة تكبُّر، إذا ما تعلق الأمر بما أبدع من علم توجه إليه الانتقادات.. فعمله الفذ [غريب المصنف].. والذى كان أشبه ما يكون بمشروع حياته، الذى ارتاد به ميدان المعاجم

فى العربية.. يبلغه أن إسحاق الموصلى ـ إسحاق بن إبراهيم بن ميمون التميمى الموصلى [١٥٥ ـ ٢٣٥هـ، ٧٧٢ ـ ٨٥٠م] ينتقده، زاعمًا أن فيه «ألف حرف خطأ».. فلا يغضب أبوعبيد، وإنما يجيب على هذا النقد إجابة العالم الثقة، فيقول: كتاب فيه أكثر من مائة ألف، يقع فيه ألف ليس بكثير، ولعل إسحاق عنده رواية وعندنا رواية، فلم يعلم فَخَطَّأَنا، والروايتان صواب، ولعله أخطأ فى حروف وأخطأنا فى حروف، فيبقى الخطأ شيئًا يسيرًا.. ولعله لو بدا لنا فناظرناه ـ [فيما بقى] لوجدنا مخرجًا..»!.

شموخ حيث يتطلب الخلق العلمى الشموخ.. وتواضع حيث يزدان العلم والعلماء بالتواضع.. وموضوعية تتخذ الأدب والرفق سبيلين لمحاورة الناقدين... هكذا كان خلق ابن سلام، زينة تحلى بها هذا الجبل الذى نفخ فيه الروح، فتكلم فى كل صنف من أصناف العلوم، على النحو الذى صار فيه إمامًا فى سائر الفنون.. كما قال معاصروه..

بل لقد حكى لنا معاصروه أن الرجل، مع دينه وورعه، ومع شموخه وكبريائه، ومع مكانته وإمامته فى العلم.. إنما كان يتبسط حتى بالطرفة والدعابة التى تليق.. فلقد أتاه يومًا سائل كان على حظ وافر من الجهل والغباء، يسأله عن معنى «الرَّباب»، فدار بينهما هذا الحوار الطريف الذى بدأه السائل:

ـ ما الرَّباب؟...

ـ هو الذى يتدلى دون السحاب.. ولقد أراده عبد الرحمن بن حسان بقوله:

كان الرَّباب دُوَيْن السحاب ... نعام تَعَلَّق بالأرجل

ـ لم أُرِدْ هذا!..

ـ الرَّباب اسم امرأة... ولقد قال الشاعر:

إن الذى قسم الملاحة بيننا ... وكسا وجوه الغانيات جمالا

وهب الملاحة للرَّباب وزادها ... فى الوجه من بعد الملاحة خالا

ـ لم أُرِد هذا أيضًا!..

ـ عساك أردت قول الشاعر:

رَبـــابُ ربَّــة الـبـيـت تَــصُــبُّ الـخَــلَّ فـى الـزيـت
لــهــا ســبــع دجــاجــات وديـــك حـسـن الـصـوت

ـ نعم! هذا أردت..

ـ من أين أنت؟!.

ـ من البصرة.

ـ على أى شىء جئت؟!

ـ فى الماء.. على السفينة..

ـ كم أعطيت الملاح!..

ـ أعطيته أربعة دراهم..

ـ اذهب، واسترجع منه ما أعطيته، وقل له: إنك لم تحمل شيئًا، فعلام تأخذ منى الأجرة؟!

هكذا كان خُلق الرجل ـ كما تحدث عنه معاصروه.. لقد كان فاضلًا فى دينه وعلمه.. ربانيًّا لم يطعن عليه أحد فى شىء من أمره ودينه... شامخًا حيث يحسن الشموخ.. متواضعًا للعلم وطلابه، غير متجهم، حتى مع هذا الذى سأله عن معنى «الرباب»؟!.

ـ وإذا كان هذا الذى أسلفنا، هو قبس من حديث معاصريه عن «خلقه»... فإن لهم أحاديث عن مكانة الصرح العلمى الذى أبدعه، والمقام الذى بلغه أبو عبيد بين صفوة العلماء ـ الذى مثلوا، فى حضارتنا يومئذ، صفوة البشرية جمعاء ـ بسبب هذا الصرح العلمى الذى بناه..

ولما كان أبو عبيد واحدًا من أئمة الحفاظ والمحدثين ـ وكتابه الذى نقدم بين يديه هو العمدة الحجة فى أحاديث فقه الأموال ـ فلقد كان طبيعيًّا أن يكون موضع الإعزاز

والتقدير والتقديم من أئمة أهل الحديث.. فالرجل كان منافحًا عن سنة رسول الله ﷺ، فى عصر أشاعت فيه الشعوبية «الغنوصية ـ الباطنية»، التى تغض من شأن النصوص والمأثورات ـ ومنها السنة ـ كما أشاع فيه الفلاسفة المشاءون عقلانية اليونان، التى ترفض النصوص والمأثورات الدينية ـ ومنها السنة.. ومن هنا تبرز عظمة أبى عبيد، وتتجلى الأبعاد الحقيقية لكلماته التى يقول فيها: «إن المتبع للسنة كالقابض على الجمر! وهو اليوم عندى أفضل من ضرب السيف فى سبيل الله عز وجل»!.

لقد كان الدفاع عن السنة، بجمع رواياتها، وتحقيق متنها، وفرز رجالات إسنادها وتدوينها علمًا من علوم الإسلام.. كان ذلك ـ يومئذ ـ جهادًا على سبيل الله، شهد ميدانه أبا عبيد القاسم بن سلام قائدًا، لا يشق له غبار!..

ولهذا المعنى.. وبسبب هذا الدور.. نجد التقدير الخاص، والثناء العاطر، وعبارات الإكبار تجرى على ألسنة أئمة أهل الحديث فى الحديث عن القاسم بن سلام..

فإمام هذه المدرسة أحمد بن حنبل [١٦٤ ـ ٢٤١هـ، ٧٨٠ ـ ٨٥٥م] هو الذى يصف أبا عبيد فيقول: «إنه أستاذ!.. يزداد عندنا كل يوم خيرًا..».. وعندما يذهب أبو عبيد لزيارة الإمام أحمد، يلقاه معانقًا، ويجلسه فى صدر مجلسه.. فإذا سأله أبو عبيد:

ـ يا أبا عبد الله! أليس يقال: صاحب البيت أو المجلس أحق بصدر بيته أو مجلسه؟!

ـ [يجيب الإمام أحمد]: نعم!.. يَقْعُد ويُقْعِدُ من يريد!..

ويصر على أن يجلس أبو عبيد، فى مجلس علمه، ببيته، حيث يجلس الرئيس!.. حتى إذا ما أراد أبو عبيد الانصراف، خرج الإمام أحمد فى صحبته مودعًا.. فيقول له أبو عبيد:

ـ لا تفعل، يا أبا عبد الله!..

ـ [فيجيبه] ـ بقول الشعبى: إن من تمام زيارة الزائر أن يُمْشَى معه إلى باب الدار، ويُؤْخَذَ بركابه!..

هكذا يحكى الفراء الصغير ـ فى [طبقات الحنابلة] ـ عن علاقة الإمام أحمد بابن سلام.. أما عبد الله بن أحمد بن حنبل [٢١٣ ـ ٢٩٠هـ، ٨٢٨ ـ ٩٠٣م] فإن الخطيب البغدادى ينقل عنه ثناء أبيه على [كتاب غريب الحديث] لأبى عبيد، إذ يقول: «عرضت كتاب غريب الحديث، لأبى عبيد، على أبى، فاستحسنه، وقال جزاه الله خيرًا».

وغير الإمام أحمد، وابنه عبد الله، نجد أبا زكريا يحيى بن معين بن عون بن زياد المرى [١٥٨ ـ ٢٣٣هـ، ٧٧٥ ـ ٨٤٨م] ـ صاحب كتابى [التاريخ والعلل] و[معرفة الرجال].. والذى كان يلقب بسيد الحفاظ.. والذى تحدث عنه الإمام أحمد فقال: «إنه أعلمنا بالرجال، وكل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فليس هو بحديث»! ـ يحيى بن معين هذا، يصف أبا عبيد بأنه «ثقة».. وعندما يسأله حمدان بن سهل عن الكتابة عن أبى عبيد والسماع منه؟ يتبسم يحيى بن معين ويقول: «مثلى يُسْأَل عن أبى عبيد!.. أبو عبيد يُسْأل عن الناس! لقد كنت عند الأصمعى يومًا، إذ أقبل أبو عبيد، فشق إليه بصره حتى اقترب منه، فقال ـ [أى الأصمعى]:

ـ أترون هذا المقبل؟!.

ـ قالوا: نعم!..

ـ قال: لن تضيع الدنيا ـ أو: لن يضيع الناس ـ ما حيا هذا المقبل»!.

وعلى هذا التقدير والتقديم أجمع أئمة أهل الحديث..

فأبو داود، سليمان بن الأشعث [٢٠٢ ـ ٢٧٥هـ، ٨١٧ ـ ٨٨٩م] ـ صاحب (السن) ـ يقول عن أبى عبيد: «إنه ثقة مأمون»..

والدار قطنى [٣٠٦ ـ ٣٨٥هـ، ٩١٩ ـ ٩٩٥م] يقول عنه: «إنه ثقة، إمام جبل»!.

أما ابن حبان [٢٧٠ ـ ٣٥٤هـ، ٨٨٤ ـ ٩٦٥م] فإنه يتحدث عنه فى كتابه [الثقات] فيقول: «أبو عبيد: كان أحد أئمة الدنيا، صاحب حديث وفقه، ودين وورع، ومعرفة بالأدب، وأيام الناس. جمع وصنف واختار، وذَبَّ عن الحديث ونصره وقمع من خالفه!»..

وهو فى رأى أبى عبد الله الحاكم [٣٢١ ـ ٤٠٥هـ، ٩٣٣ ـ ١٠١٤م]: «الإمام

المقبول عند الكل»!.. وفوق ما رواه هو ـ إن فى [كتاب الأموال] أو فى [كتاب غريب الحديث] ـ الذى سماه البعض [مسند القاسم بن سلام].. فلقد ذكره البخارى [١٩٤ ـ ٢٥٦هـ، ٨١٠ ـ ٨٧٠م] فى صحيحه، فى كتاب الأدب، وفى كتاب أفعال العباد، وفى القراءة خلف الإمام... وذكره أبو داود فى كتاب الزكاة.. وذكره الترمذى [٢٠٩ ـ ٢٧٩هـ، ٨٢٤ ـ ٨٩٢م] فى أكثر من موضع بكتابه [السنن]..

ـ على أن استقصاء حقيقة شهادات علماء ذلك العصر لأبى عبيد القاسم بن سلام تكشف لنا عن ما هو أكثر من هذا التقدير الذى رأيناه بين أهل الحديث.. فكثيرون من أعلام هذه المدرسة، إنما كانوا يضعونه ويقارنونه، لا بأئمة أهل الحديث وحدهم، وإنما بصفوة أئمة الأمة جمعاء!..

فإبراهيم الحربى يجعله واحدًا من ثلاثة هم أئمة عصره، فيقول ـ على ما يذكر الخطيب البغدادى ـ «أدركت ثلاثة لن يرى مثلهم أبدًا، تعجز النساء أن يلدن مثلهم: رأيت أبا عبيد القاسم بن سلام، ما مثلته إلا بجبل نفخ فيه الروح، يتكلم فى كل صنف من العلم. ورأيت بشر بن الحارث [١٥٠ ـ ٢٢٧هـ، ٧٦٧ ـ ٨٤١م]، فما شبهته إلا برجل عجن من قرنه إلى قدمه عقلًا، ورأيت أحمد بن حنبل، فرأيت كأن الله جمع له علم الأولين من كل صنف، يقول ما شاء، ويمسك ما شاء»!.

أما الهلال بن العلاء الرقى [٢٧٣هـ، ٨٨٦] فإنه يجعله واحدًا من أئمة أربعة فيقول: «مَنَّ الله على هذه الأمة بأربعة فى زمانهم، بالشافعى [١٥٠ ـ ٢٠٤هـ، ٧٦٧ ـ ٨٢٠م]، تفقه بحديث رسول الله ﷺ، وبأحمد بن حنبل، ثبت فى المحنة، لولا ذلك كفر الناس، وبيحيى بن معين، نفى الكذب عن حديث رسول الله ﷺ، وبأبى عبيد القاسم بن سلام، فسر الغريب من حديث رسول الله ﷺ، لولا ذلك لا قتحم الناس فى الخطأ..».

فإذا ما سأل إبراهيم بن أبى طالب، أبا قدامة عن الأربعة: الشافعى، وأحمد بن حنبل، وإسحاق ـ أبو يعقوب بن إبراهيم الحنظلى [١٦١ ـ ٢٣٨هـ، ٧٧٨ ـ ٨٥٣م] ـ وأبى عبيد؟ فإنه يقوِّم مكانة كلٍّ منهم، فيقول: أما أفهمهم فالشافعى، إلا أنه قليل الحديث، وأما أورعهم فأحمد بن حنبل، وأما أحفظهم فإسحاق، وأما أعلمهم بلغات العرب فأبو عبيد...».

غير أن واحدًا من هؤلاء الأربعة وهو إسحاق ـ أبو يعقوب بن راهويه ـ يشهد لأبى عبيد ـ على ما يرويه الخطيب البغدادى ـ بالتقدم على الشافعى وعلى ابن حنبل، فيقول: «الحق يحبه الله عزل وجل! أبو عبيد القاسم بن سلام أفقه منى، وأعلم منى.. إن الله لا يستحى من الحق!.. أبو عبيد أعلم منى، ومن ابن حنبل، والشافعى.. أبو عبيد أوسعنا علمًا، وأكثرنا أدبًا، وأجمعنا، إنا نحتاج إلى أبى عبيد، وأبو عبيد لا يحتاج إلينا..»!

أما الأمير الأديب عبد الله بن طاهر ـ الذى كان له شرف رعاية أبى عبيد ـ فإنه يجعله واحدًا من أربعة، تفرد كل منهم فى زمانه، فيقول: «كان للناس أربعة: ابن عباس [٣ ق هـ ـ ٦٨ هـ، ٦١٩ ـ ٦٨٧م] فى زمانه، والشعبى [١٩ ـ ١٠٣هـ، ٦٤٠ ـ ٧٢١م] فى زمانه، والقاسم بن معن [١٧٥هـ، ٧٩١م] فى زمانه، وأبو عبيد القاسم بن سلام، فى زمانه..».. أى أنه قد جعله فريد العصر الذى عاش فيه.. وعندما انتقل أبو عبيد القاسم بن سلام إلى الرفيق الأعلى، صاغ ابن طاهر هذا المعنى شعرًا رثاه به، فقال:

يا طالب العلم، قد مات ابن سلام — وكان فارس علم غير محجام
مات الذى كان فيكم ربع أربعة — لم يُلْفَ مثلهُم إسناد أحكام
حبر البرية عبد الله، أولهم — وعامر، ولنعم، الثاويا عامى
هما اللذان أنافا فوق غيرهما — والقاسمان: ابن معن وابن سلام

لقد انعقد الإجماع على إمامته.. وتراوح التقدير بين أن يكون إمامًا فى عصره، أو إمام العصر الذى عاش فيه!..

ـ ولا يحسبن أحد أن فى هذا التقدير ـ الذى سقنا طرفًا من شواهده ـ لأبى عبيد القاسم بن سلام، شبهة من شبهات الانحياز المذهبى، أو تعصب أهل الحديث لهذا الحافظ المحدث، الخبير فى نقد المرويات والرواة.. فلقد سبق وأوردنا كلمات الجاحظ ـ وهو من أئمة المعتزلة ـ التى قال فيها عن أبى عبيد: «لم يكتب الناس أصح من كتبه، ولا أكثر فائدة»... كما أن ابن سلام، رغم باعه الطويل فى الدفاع عن السنة،

وخدمة الحديث النبوى الشريف، إلا أنه لم يكن من أتباع المذهب الذى تزعمه الإمام أحمد بن حنبل ـ مذهب أهل الحديث.. فلقد كان أبو عبيد صاحب مذهب فى كثير من القضايا والفنون التى أبدع فيها.. صحيح أنه قد وقف بكلتا قدميه، وبكل إبداعه على طريق أهل السنة، لكنه كان الإمام الذى نظلمه إذا نحن سلكناه فى عداد مذهب بعينه من المذاهب التى تبلورت فى ذلك التاريخ...

فهو فى الفقه قد تنازعه الشافعية والحنابلة.. فترجم له ابن السبكى فى [طبقات الشافعية][1].. كما ترجم له الفراء الصغير فى [طبقات الحنابلة].. لكن الحق، أنه لم يكن من أتباع الشافعى، ولا من أتباع الإمام أحمد فى المذهب الفقهى.. لقد تحدث عن هذا الجانب من علمه الخطيب البغدادى فقال: «وأما كتبه فى الفقه، فإنه عمد إلى مذهب مالك والشافعى فتقلد أكثر ذلك، وأتى بشواهده، وجمعه من حديثه ورواياته، واحتج فيها باللغة والنحو، فحسنها بذلك...».. فهو قد نهض بالموازنة، والنقد، والتأصيل، والتحسين لهذه الاجتهادات الفقهية التى أبدعها مالك بن أنس [٩٣ ـ ١٧٩هـ، ٧١٢ ـ ٧٩٥م] ومحمد بن إدريس الشافعى ـ بل وغيرهما من أئمة الفقه ـ على النحو الذى نراه فى [كتاب الأموال] ولم يكن متمذهبًا بواحد من هذه المذاهب بالذات.. ويعزز هذا الرأى الذى نذهب إليه كلمات ابن راهويه ـ وهو من أئمة أهل الحديث ـ التى تتحدث عن ابن سلام فتقول: «إنه أعلم من ابن حنبل، ومن الشافعى»!..

وكذلك كان حال أبى عبيد فى غير الفقه، من العلوم التى أبدع فيها.. فهو قد أخذ عن البصريين، وعن الكوفيين، دون أن يتعصب لفريق دون فريق، أو يلتزم مدرسة دون الأخرى.. وإنما ـ على حد تعبير [دائرة المعارف الإسلامية]: «لم يتبع فى هذه العلوم ـ النحو، والقراءات، والحديث، والفقه ـ مذهبا أو جماعة، بل اختار طريقًا وسطًا يأخذ من كل بطرف».. ولا غرابة فى هذا.. فلقد شهد أعلام عصره له بالإمامة، سواء بين أقرانه فى عصره، أو على جميع أقرانه الذين عاصروه!...

ـ تلك هى الخيوط العامة لحياة هذا الإمام الفذ: أبى عبيد القاسم بن سلام..

(١) نلاحظ أن [طبقات الشافعية] لأبى بكر هداية الله الحسينى (المتوفى سنة ١٠١٤هـ) قد خلت من ترجمته، انظرها، بتحقيق عادل نويهض، طبعة بيروت سنة (١٩٧١م).

استقرأنا أخبارها ووقائعها، ونثرناها، وأعملنا فيها النقد والمقارنة والتمحيص، ثم أعدنا تركيبها لنقدم للقارئ المعاصر بطاقة حياة هذا الإمام العظيم..

وتلك هى معالم «مشروعه الفكرى» الذى أنجزه، فصار معلمًا بارزًا فى تراث حضارتنا، منذ عصره، وحتى هذا العصر الذى نعيش فيه.. بل وإلى ما شاء الله لعلوم الإسلام والعربية من الخلود!..

وتلك هى شهادات أعلام عصره، ناطقة بمكانته فى «العلم» و«العمل» و«الخلق النبيل»....

عليه رحمة الله ورضوانه، بقدر ما قدم للإسلام وعلومه.. وللعربية وعلومها... وللمسلمين من عطاء[١].

---

(١) مصادر ومراجع هذه الدراسة: الخطيب البغدادى [تاريخ بغداد] [١٢/ ٤٠٣ ـ ٤١٦] الطبعة الأولى ـ الخانجى، القاهرة، وابن النديم [الفهرست] (ص ٧١)، طبعة ليبزج سنة ١٨٧١م، وياقوت الحموى [معجم الأدباء] [١٦/ ٢٥٤ ـ ٢٦١]، طبعة فريد رفاعى، القاهرة دار المأمون، والفراء الصغير [طبقات الحنابلة] ص ١٩٠ ـ ١٩٢، طبعة السعودية، بدون تاريخ، وعبد الباقى بن عبد المجيد اليمانى [إشارة التعيين وتراجم النحاة واللغويين] ص (٢٦١، ٢٦٢). تحقيق: د. عبد المجيد دياب، طبعة الرياض سنة (١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م)، وطا شكبرى زاده [مفتاح السعادة] (٢/ ١٦٧) طبعة القاهرة سنة (١٩٦٨م)، وحاجى خليفة [كشف الظنون] ص (٤٧، ١٦٧، ١٢٠٤، ١٢٠٧، ١٢٠٩، ١٢٧٧، ١٣٧٥، ١٤٠١، ١٤١٤، ١٤٤٩، ١٤٥٨، ١٤٦١، ١٦٨٤، ١٧٣٠، ١٩٢١)، طبعة مكتبة المثنى، بغداد، وإسماعيل البغدادى [إيضاح المكنون] (٢/ ١٩٩/ ٢٧٣، ٢٨٨، ٣٠٦، ٣١٢، ٣١٣، ٣٤٣)، طبعة مكتبة المثنى، بغداد، و[هدية العارفين] (١/ ٨٢٥)، طبعة المكتبة المثنى، بغداد، وبروكلمان [تاريخ الأدب العربى) (٢/ ١٥٥ ـ ١٥٩). ترجمة د. عبد الحيم النجار، طبعة دار المعارف، القاهرة، ومحمد كرد على [كنوز الأجداد] (ص ٦٧ ـ ٧٠) طبعة دمشق سنة (١٩٥٠م)، ومحمد حميد الله الحيدر آبادى [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة]، طبعة القاهرة سنة (١٩٥٦م)، ابن تغرى بردى [النجوم الزاهرة] (٢/ ٢٤١)، طبعة القاهرة، و[دائرة المعارف الإسلامية] الطبعة العربية، دار الشعب، القاهرة، و[دائرة المعارف] بالإشراف أفرام البستانى، طبعة بيروت سنة (١٩٦٠)، وأبو بكر بن هداية الله الحسينى [طبقات الشافعية] تحقيق: عادل نهويض، طبعة بيروت سنة (١٩٧١م)، وابن السبكى [طبقات الشافعية] (١/ ٢٧٠ – ٢٧٤)، و[تاريخ الطبرى]، طبعة دار المعارف، القاهرة، و[مراصد الإطلاع] لصفى الدين البغدادى، طبعة القاهرة سنة (١٩٥٤م)، و[الأعلام للزركلى، طبعة بيروت، الثالثة، و[معجم المؤلفين] لرضا كحالة، طبعة دمشق، و[التوفيقات الإلهامية] لمحمد مختار باشا المصرى، طبعة بيروت سنة (١٩٨٠م)، و[تقويم النيل] لأمين سامى باشا طبعة القاهرة سنة (١٩١٦م)، و[كتاب الأموال] لأبى عبيد القاسم بن سلام، طبعة الشيخ محمد حامد الفقى، القاهرة سنة

كتاب الأموال
لأبى عبيد القاسم بن سلام

[١٥٧ ـ ٢٢٤هـ ـ ٧٧٤ ـ ٣٨٣٨]

عن المشروع

بهذا الكتاب ـ بعون الله وتوفيقه ـ نبدأ مشروعًا فكريًّا نطمح أن يكون «انعطافة ـ متميزة» على «درب ـ مطروق» فى ميدان تحقيق التراث.

فليس الهدف هو ـ فقط تحقيق نص ـ أو عدد من النصوص ـ فى فن الأموال والخراج، من تراثنا العربى الإسلامى.. ففى المكتبة العربية الإسلامية عدد لا بأس به من النصوص المحققة فى هذا الميدان.

وإنما الهدف هو تقديم مجموعة النصوص التى تكوِّن الصورة الدقيقة والمتكاملة لـ «الفكر» و«الواقع» الاقتصادى والاجتماعى فى «الحضارة» الإسلامية و«التاريخ» الإسلامى، على امتداد الزمان، والمكان، والمذاهب الفقهية، والتيارات الفكرية التى تبلورت وتمايزت فى بناء هذه الحضارة، وتاريخها الطويل.. وذلك تحقيقًا «لحضور» هذه القسمة المهمة من قسمات حضارتنا وتاريخنا فى مكتبتنا العربية الإسلامية؛ وذلك:

(أ) تمكينًا للباحثين والدارسين من «المادة العلمية» ـ فى الفكر النظرى ـ والممارسات التطبيقية ـ التى هى [المادة العلمية] الأساس والمنطلق

(١٣٥٣هـ)، وطبعة محمد خليل هراس، القاهرة سنة (١٩٦٨م)، وطبعة مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت سنة (١٩٨١م)، و[كتاب الخراج] لأبى يوسف، طبعة دار الشروق، القاهرة سنة (١٩٨٥م)، و[كتاب الخراج] ليحيى بن آدم طبعة دار الشروق سنة (١٩٨٧م)، و[كتاب الأموال] لابن زنجويه، طبعة الرياض سنة (١٤٠٦هـ،١٩٨٦م) و[صحيح البخارى]، طبعة دار الشعب، القاهرة، و[السنن] لأبى داود، طبعة القاهرة سنة (١٩٥٢)، و[السنن] للترمذى، طبعة القاهرة سنة (١٩٣٧م).

للتحليل، والتنظير، والتقنين وعقد المقارنات بين هذه القسمة فى حضارتنا، ونظائرها فى الحضارات الأخرى.. كما أنها هى مصدر استلهام ما هو صالح للإلهام، والعطاء لعصرنا، ولمستقبلنا من صفحات هذا التراث.

(ب) وتمكينًا للأمة ـ فى صراعها الحضارى الراهن من أجل التحرر من هيمنة الغرب الحضارية ـ تمكينًا لها من امتلاك واحد من أمضى أسلحتها فى معركة الاستقلال الحضارى، ألا وهو سلاح «تميز نهجها الحضارى فى ميدان الأموال، والثروات والاقتصاد».

ذلك أن سبر أغوار «الفكر» و«الواقع» الاقتصادى فى تراثنا الحضارى يضع يدنا، ويطلع عقولنا على حقيقة تميز حضارتنا العربية الإسلامية عن حضارات أخرى ـ وعن الحضارة الغربية بخاصة ـ فى قضايا جوهرية... من مثل:

* النظرة إلى الوظيفة الاجتماعية للثروات والأموال فى حياة الفرد، والأسرة، والأمة..

* ونطاق الحقوق العامة ـ الاجتماعية ـ فى هذه الثروات، والأموال.

* ومعنى.. وحدود.. وضوابط كلٍّ من الملكية العامة ـ الاجتماعية ـ والملكية الخاصة ـ الفردية ـ فى هذه الثروات والأموال..

* ومشروعية تمايز الطبقات الاجتماعية ـ فى المجتمع الطبقى ـ وعلاقاتها.. وعلاقة الفرد بالطبقة، وبالأمة، كما يحددها الإسلام «دين الجماعة» الذى اعترف بالتفاوت الاجتماعى «المشروع» والمؤسس على «الطبيعى ـ والمشروع» من العوامل والأسباب، والمحكوم بنطاق التكافل الاجتماعى العام بين الأمة جمعاء.

* ومعنى «العدل الاجتماعى» الذى هو «وسطية التوزان الاجتماعى» بين الفرد والمجموع وبين مجموع الطبقات الاجتماعية فى المجتمع ككل.

* ودور ونطاق وآفاق وضوابط «الدفع الاجتماعى» ـ الذى يسميه البعض «الصراع الطبقى» ـ إذا ما اختلت وتخلفت «وسطية التوازن الاجتماعى»؛ فسقط

العدل، وحل الظلم الاجتماعى محله، وانحلت عرى التوازن والوسطية الاجتماعية كالرابطة الجامعة بين الطبقات، دور هذا «الدفع الاجتماعى» فى إزالة الظلم، والعودة بالعلاقات الطبقية إلى لحظة العدل، أى وسطية التوازن الاجتماعى، دونما جورٍ أوغلوٍّ يطمح ويجنح إلى إلغاء التمايز الاجتماعى، والطبقى إلغاءً تامًّا ودائمًا.

* والإطار الفلسفى الجامع لهذا التميز فى «القسمة الاقتصادية بحضارتنا العربية الإسلامية، والمتمثل فى كون الملكية الحقيقية ـ ملكية الرقبة ـ فى الأموال والثروات؛ إنما هى لله عز وجل، وحق الله هنا هو حق المجتمع؛ وكون الناس ـ مطلق الناس ـ مستخلفين عن الله فى حيازة وتنمية وتداول هذه الأموال، لهم فيها الملكية المجازية ـ ملكية المنفعة ـ التى هى الوظيفة الاجتماعية لملكية الأموال وحيازتها، كما حددتها مقاصد الشريعة الإسلامية، التى هى هنا بمثابة بنود عقد وعهد استخلاف الله للناس فى هذه الأموال..

فى كل هذه القضايا المالية، والاقتصادية، والاجتماعية، يقدم «الفكر» الاقتصادى للحضارة العربية الإسلامية العديد من السمات والقسمات التى تميزت فيها وبها حضارتنا عن غيرها من الحضارات؛ فيضع ـ من خلال المشروع الذى نقدم بين يديه ـ فى متناول عقل الأمة بعضًا من أمضى الأسلحة فى صراعها من أجل إثبات تميز الهوية الحضارية العربية الإسلامية، طلبًا للاستقلال الحضارى، كمطلب ضرورى، وهدف مشروع، وليس ـ كما يظن البعض ـ مجرد تعصب، ومحض رفض، وضيق أفق، وانغلاق!

ـ كذلك نأمل أن تقدم نصوص هذا المشروع، الذى نستهله بهذا الكتاب، مسيرة التاريخ، ووقائع الممارسة، والتطبيق لهذا الفكر، عبر العمر الزمنى لتاريخنا العربى الإسلامى، وعبر الامتداد المكانى لوطن العروبة وعالم الإسلام، ومن خلال التنوع فى اجتهادات مدارس الفكر الإسلامى وتياراته.. وذلك حتى نضع أيدينا، ونقف بعقولنا على صفحات النجاح، التى جسدت منهج حضارتنا.. وعلى منعطفات الإخفاق، التى صنعها الضعف الذاتى، وغيبة التجديد، والاجتهاد، والاختراق الخارجى.. فنبصر معالم التقدم، وأسبابها، وسمات التراجع، وعواملها.. وذلك

اختبارًا للفكر.. وبرهنة على ضرورة إعمال قانون التجديد، وملكة الاجتهاد، ورعاية سمات الاستقلال الحضارى.. الأمر الذى يحقق لواقعنا الراهن: إغناء العقل المعاصر بالدروس والعبر والعظات من هذا التراث، وذلك التاريخ.. تحقيقًا للغاية المرجوة من وراء الوعى بالتراث، والتاريخ.. غاية: إضافة أعمار السابقين ـ إذا نحن وعينا تاريخهم وتراثهم ـ إضافة أعمارهم إلى أعمار المعاصرين!..

فهو إذن مشروع طموح، نأمل أن تكون مجلداته ـ التى تبدأ بهذا الكتاب ـ بمثابة: [ديوان الفكر والواقع الاقتصادى فى حضارة الإسلام]، وذلك عندما تقدم مجلدات هذا المشروع أهم الأعمال الفكرية التراثية المعبرة عن حقيقة فكرنا العربى الإسلامى فى قضايا ومشكلات:

(أ) الأموال والخراج..

(ب) الكسب، والتجارة، والنقود، والأسواق..

(جـ) أحكام الأراضى: إحياء.. وحيازة.. واستثمارًا..

(د) الحسبة.. والحرف والصناعات، وتنظيماتها المهنية والاجتماعية..

(هـ) الزكاة، والصدقات، والضرائب، والحقوق العامة فى الأموال..

(و) واقع الحياة الاقتصادية والمالية.. وما شهد من ازدهار وأسبابه.. وما مر به من أزمات ومجاعات، وأسبابها..

(ز) قاموس لمصطلحات هذا الفن ـ بشقيه: الفكر النظرى.. والواقع التطبيقى ـ فى حضارة الإسلام، باعتباره «مفتاح المفاهيم» الذى ييسر للقارئ المعاصر التعامل الواعى مع نصوص التراث فى هذا الميدان..

(ح) وأخيرًا ـ وبعد اكتمال التحقيق والنشر لنصوص التراث المجسدة، والمعبرة عن هذه القضايا والمشكلات ـ دراسة تحليلية نظرية تُقيم هذه القسمة من قسمات حضارتنا العربية الإسلامية، وتحدد ما لها «من خصوصيات حضارية» وما بينها

وبين نظائرها فى الحضارات الأخرى من «مشترك إنسانى عام».. وذلك وصولًا إلى المكانة المأمولة من وراء هذا المشروع فى دعم جهاد الأمة العربية الإسلامية فى سبيل الاستقلال الحضارى عن هيمنة الغرب الحضارية المعوقة لإبداعنا، ولعودتنا مرة أخرى للإسهام فى إثراء الفكر الإنسانى على النحو الذى صنع أسلافنا فى عصر الازدهار.. ووصولًا إلى الإسهام فى بلورة ملامح المشروع الحضارى، المحرك لطاقات الأمة، والباعث فيها روح الولاء والانتماء، تحقيقًا لنهضتها المتميزة، وانعتاقها من ربقة التخلف الموروث، والتحديات الوافدة من خارج الحدود!..

تلك هى الخطوط العامة لهذا المشروع الطموح، الذى يمثل هذا الكتاب الحلقة الأولى فى سلسلته المرتقبة، إن شاء الله.

وعن الكتاب

وإذا كان لا بد من كلمة ـ فى هذا التقديم ـ عن بواكير الاهتمام بفكر الأموال والخراج، والفكر الاقتصادى فى حضارتنا الإسلامية.. فإن الحقائق تتضافر لتشهد على بدء الاهتمام العربى الإسلامى بهذا الفن وهذا العلم منذ ظهور الإسلام..

* ففى الوحى الإلهى، جاءت آيات القرآن الكريم التى تشرع للأموال.. وتتحدث عن الفرائض المالية.. الواجبة ـ زكاة وصدقة وتكافلًا اجتماعيًّا ـ وعن ما هو تطوع من وجوه الإنفاق.. وكذلك نزلت الآيات التى حددت النهج الوسطى لفلسفة الإسلام المالية، إن فى الملكية أو فى الإنفاق.. وهى آيات سيجدها القارئ فى مكانها من هذا الكتاب الذى نقدم بين يديه..

* وفى الممارسات النبوية، فى عصر البعثة، كانت السنة النبوية بيانًا لمنهج القرآن فى هذا الميدان، شرحت المجمل، وفصلت الإشارات، وجسدت الفلسفات والكليات.. وفى ثنايا هذا الكتاب ـ الذى هو فى الأساس «أحاديث ومأثورات ووقائع فقه الأموال» ـ سيجد القارئ «الغنى ـ المبكر» الذى عرفته حضارتنا العربية الإسلامية فى هذا الميدان..

* وانطلاقًا من الواقع الاقتصادى، الباحث عن سبل الاتساق مع نهج الكتاب والسنة، انطلق إبداع العقل العربى المسلم واجتهاده؛ فألف ودَوَّن وصنف فى الأموال والخراج، وتدبير الأموال.

وإذا شئنا أن نعرف دور الممارسة والتطبيق، المسترشدين بالفكر النظرى، فى تطوير هذا الفكر، وفى استدعاء الإبداع فيه، منذ عصر البعثة النبوية، والخلافة الراشدة، وجدنا فى الوثائق السياسة لعصر البعثة والخلافة الراشدة عشرات الشواهد التى تمثلت فى معاهدات الفتح، والصلح، ومراسلات النبى ﷺ والخلفاء الراشدين وقوادهم وولاتهم إلى الملوك والحكام والأمراء.. عندما أفردت هذه الوثائق للقضايا الاقتصادية بنودًا فى نصوصها..

إن الاهتمام بالفكر الاقتصادى فى الدين والدولة، بحضارتنا الإسلامية، ما كان له إلَّا أن يكون مهمًّا وبارزًا، منذ اللحظة الأولى لانبثاق الدعوة وتأسيس دولتها.. فوثيقة المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية التى تعاهدت عليها قريش ضد المسلمين، مبكرة وشهيرة منذ بواكير العهد المكى للدعوة، وهى وثيقة فرضت تطبيقاتها على المسلمين وضع «الأمة المتميزة » ذات «السلطة» الجنينية، حتى قبل تأسيس الدولة الإسلامية عقب الهجرة إلى المدينة.. كما فرضت «الاهتمام الإسلامى» بالاقتصاد الإسلامى منذ ذلك التاريخ..

ووثائق «الإقطاع» ـ إقطاع الأرض لإحيائها وللانتفاع بها ـ كثيرة فى وثائق عصر البعثة والخلافة الراشدة.. والحديث عن الأموال، والخراج، والصدقات، والتراتيب المالية لا تكاد تخلو منه معاهدة، أو مكاتبة أو رسالة من معاهدات ومُكَاتَبات ومراسلات عصر صدر الإسلام... والعديد من هذه النصوص سيجده القارئ فى مكانه من أبواب وصفحات هذه الكتاب[1].......

---

(١) ولمن شاء معرفة اهتمام الدولة الإسلامية، منذ نشأتها، بهذا الأمر، فله أن ينظر (ص٤، ٦٦ـ٧١، ٩٢ـ٩٤، ٩٦، ١٠٣ـ١٠٨، ١١١، ١٣٣، ١٥٠ـ١٥٤، ١٥٧، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٥، ١٧٦، ١٩٣، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٦ـ٢٠٨، ٢٢٥ـ٢٣٤، ٢٣٩، ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٤٩، ٣١٠ـ٣١٤، ٣٢١، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٩، ٣٣٣، ٣٣٩، ٣٤٢ـ٣٤٩ـ٣٥١، ٣٥٣، ٣٥٥) من كتاب [مجموعة الوثائق السياسية

* وبعد هذه الآيات القرآنية، والأحاديث، والممارسات النبوية، والإشارات؛ والمكاتبات والعهود التى قننت لحركة الواقع الاقتصادى.. جاء «عصر التدوين» لفكر الإسلام وعلوم حضارته، فكان التأليف فى الاقتصاد وتدبير مالية الدولة وتنظيم الثروة فى المجتمع، وقضايا الأموال والخراج، كان التأليف فى ذلك فنًّا متميزًا، كمًّا وكيفًا وشمولًا، منذ بواكير عصر التدوين، فى القرنين الثانى والثالث الهجريين..

وفى أول ثبت ـ فهرست ـ عن فنون التأليف، والمؤلفين فى حضارتنا العربية الإسلامية نجد حضور هذا الفن، عندما يرصده ابن النديم (٤٣٨هـ، ١٠٤٧م) فى الفهرست، فيذكر من بين بواكير المؤلفين، والتآلف فى الأموال والخراج:

١ ـ حفصويه ـ وكان من كُتَّاب الخراج ـ ولقد ألف فى هذا الفن أول كتاب.. [كتاب الخراج]..

٢ ـ الحسن بن زياد اللؤلؤى [٢٠٤هـ، ٨١٩م] الذى ألف كتابى: [الخراج] و[النفقات].

٣ ـ الهيثم بن عدى الكوفى [١١٤ـ٢٠٧هـ، ٧٣٢ـ٨٢٢م]..

٤ ـ ابن داود [٢٠٨هـ، ٣٢٣م].

٥ ـ الأصمعى، أبو سعيد عبد الملك [١٢٢ـ٢١٦هـ، ٧٤٠ـ٨٣١م] صاحب [كتاب الخراج].

٦ ـ ابن المدينى، على بن عبد الله بن جعفر السعدى [١٦١ـ٢٣٤هـ، ٧٧٧ـ٨٤٩م] صاحب كتاب [أموال النبى ﷺ]...

٧ ـ جعفر بن مبشر [٢٣٤هـ، ٨٤٨م]..

٨ ـ أبو العباس الأحوال [٢٧٠هـ، ٨٨٣م]..

للعهد النبوى والخلافة الراشدة] جمع وتحقيق: د. محمد حميد الله الحيد آبادى. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م).

وإذا كانت هذه الكتب قد ضاعت فيما ضاع من كنوز تراثنا؛ فإن هذه المرحلة المبكرة من عصر التدوين، قد شهدت مؤلفين ومؤلفات فى الأموال والخراج والاقتصاد وصلت إلينا نصوصها؛ لتكشف عن مكانة هذا الفن فى تراث الإسلام، وتاريخ حضارته.. فلقد وصل إلينا من ذلك العصر:

* [رسالة الصحابة] لعبد الله بن المقفع [١٠٩ـ١٤٥هـ، ٧٢٧ـ٧٦٢م] التى كتبها للخليفة العباسى أبو جعفر المنصور [١٣٦ ـ ١٥٨هـ، ٧٥٤ـ٧٧٥م] عن حاشية الخليفة وبطانته..

* و[كتاب الخراج] للقاضى أبى يوسف [١١٣ـ١٨٢هـ، ٧٣١ـ٧٩٨م] الذى كتبه للخليفة العباسى هارون الرشيد [١٧٠ـ١٩٣هـ، ٧٨٦ـ٨٠٩] حول سنتى [١٧٠ و١٧١هـ] جوابًا عن ستة وعشرين سؤالًا سألها ووجهها إليه الرشيد..

* [كتاب الخراج] ليحيى بن آدم القرشى [١٤٠ ـ ٢٠٣هـ، ٧٥٧ ـ ٨١٨م]..

* [كتاب الأموال] لأبى عبيد القاسم بن سلام [١٥٧ ـ ٢٢٤هـ، ٧٧٤ـ٨٣٨م]..

والذى كتب أيضًا ـ كما يذكر ابن النديم ـ كتابًا عنوانه: [كتاب الحجر والتفليس]..

والذى يوحى عنوانه ـ ولقد ضاع نصه ـ بشمول التأليف فى الاقتصاد مختلف نواحى النشاط الاقتصادى منذ هذا الوقت المبكر من عصر التدوين لعلوم الإسلام وفنون حضارته..

* [كتاب الأموال] لأبى أحمد بن زنجويه [١٨٠ ـ ٢٥١هـ، ٧٩٦ ـ ٨٦٥م].

ثم توالت الكتابات فى هذا الفن على امتداد وطن أمتنا.. وبأقلام العلماء، والأعلام فى مختلف المذاهب الفقهية، والتيارات الفكرية فى تراثنا العربى الإسلامى..

وإذا كانت [رسالة الصحابة] لعبد الله بن المقفع ـ مع صغر حجمها ـ قد وقفت عند «فن السياسة والإدارة المالية»، عندما استهدفت الحديث عن صحابة الخليفة، ورجال بطانته، وعلاقاتهم بإدارة المال وتصرفاتهم فيه..

وإذا كان [كتاب الخراج] للقاضى أبى يوسف، قد جاء «فتوى فقيه مجتهد»، يجيب على أسئلة بعينها، فى الخراج، وجهها إليه الخليفة هارون الرشيد..

فإن [كتاب الخراج] ليحى بن آدم القرشى ـ المعاصر لأبى عبيد القاسم بن سلام ـ على الرغم من توجهه إلى التأليف فى «أحاديث فقه الأموال»، إلَّا أن صغر حجمه ـ الذى هو خُمْس حجم [كتاب الأموال] لأبى عبيد ـ قد وقف به عند نطاق محدود من الوفاء بحق التأليف فى فن الأموال..

أمَّا [كتاب الأموال] لحميد بن زنجويه [١٨٠ ـ ٢٥١هـ، ٧٩٦ ـ ٨٦٥م] وهو [أى ابن زنجويه] تلميذ لأبى عبيد القاسم بن سلام فإنه ـ الكتاب ـ قد جاء ـ فى أغلبه ـ كالأثر لكتاب أبى عبيد؛ نقلًا عنه، وتكرارًا لمسائله، وروايةً لأحاديثه ومأثوراته ـ مع القليل من الإضافات والخلافات ـ حتى ليقول محقق كتاب ابن زنجويه: «يعتبر أبو عبيد أبرز شيوخ ابن زنجويه؛ وقد ألف [أبو عبيد] كتابًا فى الموضوع نفسه [موضوع الأموال] فاستفاد منه ابن زنجويه كثيرًا، فهو يكثر من رواية الأحاديث، والآثار من طريقه، ومن ذكر أقواله الفقهية، وآرائه فى مختلف المسائل، وتعليقاته حول النصوص، حتى بلغ مجموع ما حكاه من أقواله حوالى أربعمائة قول، وذلك سوى روايته عنه الأحاديث والآثار. ولقد وصف الكتاني(١)، فى [الرسالة المستطرفة] كتاب ابن زنجويه وصفًا دقيقًا مجملًا؛ حيث قال: «وكتابه كالمستخرج على كتاب أبى عبيد، وقد شاركه فى بعض شيوخه، وزاد عليه زيادات.......»(٢).

إذًا، فكتاب أبى عبيد فى هذا الفن قد انفرد وتفرد بأنه:

(أ) أول عمل كبير فى تراث الإسلام ـ وصل إلينا ـ يعرض للأصول فى هذا الفن.. أى لآيات وأحاديث ومأثورات ووقائع وتطبيقات الأموال فى شريعة الإسلام ودولته، وكذلك لاجتهادات المذاهب الفقهية فى هذا الميدان..

---

(١) هو محمد بن جعفر الكتانى [١٢٧٤ ـ ١٣٤٥هـ، ١٨٥٧ ـ ١٩٢٧م] صاحب [الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة].

(٢) انظر مقدمة تحقيق [كتاب الأموال] لابن زنجويه ـ تحقيق: د. شاكر ذيب فياض ـ جـ (١/ ٤)، طبعة الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. سنة [١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م].

(ب) كما أنه أوفى وأشمل وأدق كتاب ـ بتراثنا ـ فى هذا الفن على الإطلاق.. وجميع الأعمال العلمية التى جاءت بعده، فى هذا الفن، قد انطلقت منه، تكرارً أو محاكاة، فى أغلب ما اشتملت عليه من أبواب، وميادين، وموضوعات، ومسائل الأموال مع إضافات اقتضاها عصر أصحاب هذه المؤلفات..

(جـ) ويزيد من أهمية وخطر [كتاب الأموال] لأبى عبيد، أن صاحبه، فيه، لم يكن مجرد راوية، ومصنف لأحاديث فقه الأموال؛ وإنما كان ـ كما هو شأنه فى مصنفاته ـ العالم الفذ والعقل الناقد، فهو يروى الأحاديث.. ويوازن، ويقارن بين الروايات.. وينقد السند [الرواية].. ويعمل عقله فى المتن [الدراية]... ويرجح ما يراه راجحا فى هذا الميدان، الذى هو أشبه ما يكون بالبحر المتلاطم بلا ضفاف.. فلديه ـ كواحد من أئمة المحدثين، والحفاظ ـ «المنهج النصوصى»، منهج أصحاب الحديث، الذين يعلون من مقام النص والرواية.. ولكنه لا يقف عند هذا المنهج وحده ـ كما يصنع غيره من المحدثين والحفاظ «النصوصيين» ـ ولكنه يجمع إلى «منهج الرواية» قدرًا غير قليل من «منهج الدراية» الذى تميز به التيار العقلانى فى تراث الإسلام..

(د) كذلك تتجلى ملكة الفقيه عند ابن سلام فى هذا الكتاب.. فتراه يؤصل مذاهب الفقهاء، من أمثال سفيان بن عيينة [١٠٧ ـ ١٩٨هـ، ٧٢٥ ـ ٨١٤م]، ومالك بن أنس [٩٣ ـ ١٧٩هـ، ٧١٢ـ ٧٩٥م]، وأهل الحجاز.. وأبى حنيفة النعمان [٨٠ ـ ١٥٠هـ، ٦٩٩ـ٧٦٧م]، وأهل العراق.. والأوزاعى عبد الرحمن بن عمرو [٨٨ ـ ١٥٧هـ، ٧٠٧ ـ ٧٧٤م]، والليث بن سعد [٩٤ ـ ١٧٥هـ، ٧١٣ـ ٧٩١م] وغيرهم من أئمة المذاهب الفقهية ـ وذلك عندما يحدد لنا المأثورات، والأصول التى بنوا عليها آراءهم ومذاهبهم فى قضايا الأموال..

ثم هو يمارس ـ كذلك ـ النقد والموازنة بين آراء الفقهاء واختياراتهم.. فهو أكبر من «راوية» وأعظم من «محدث»، تجاوز مرتبة «الحافظ»، إلى حيثُ تبوأ مرتبة

«المحقق» فى الحديث، و«المجتهد» فى الفقه، و«العالم» فى أصول الفقه وقواعد البرهنة والاستدلال والاستنباط.. الأمر الذى أعطى ويعطى [كتاب الأموال] هذا مكانًا فريدًا، فى فنه بتراث الإسلام..

وإذا كنا قد أعطينا هذه «الإشارة» لهذه الحقيقة بعضًا من التفصيل؛ فإننا نود أن ننبه على أن هذا التقدير لمقام أبى عبيد القاسم بن سلام ليس جديدًا، عند كل من اقترب من أعماله العلمية.. فلقد وصفه القدماء ـ من جهابذة العلم، وعلماء الرجال ـ فقالوا: «إنه إمام فى سائر الفنون»(١)....

وشهد له الحافظ بن حجر العسقلانى [٧٧٣ ـ ٨٥٢ هـ ـ ١٣٧٢ ـ ١٤٤٩م] ولكتابه [الأموال]؛ فقال عنه: «وكتاب أبى عبيد فى [الأموال] من أحسن ما صنف فى الفقه وأجوده»(٢)....

وإذا كانت هذه شهادة حافظ محدث لإمام من أئمة الحديث، وعلم من أعلام الحفاظ فى كتاب هو الأم فى بابه.. فلقد شهد له الجاحظ [١٦٣ ـ ٢٥٥هـ، ٧٨٠ـ٨٦٩م] ـ وهو من هو فى تراث العربية والإسلام ـ بل وفى تراث الإنسانية كلها ـ شهد لكل إبداعات القاسم بن سلام ـ مع خلافه له فى المذهب الفكرى ـ فالجاحظ معتزلى، وابن سلام من أهل الحديث ـ ولقد كان معاصرًا له، خبيرًا ـ لموسوعيته ـ بآثاره الفكرية، عالمًا ـ لعلمه ـ بأقدار العلماء..

شهد الجاحظ لكل إبداعات القاسم بن سلام؛ فقال عبارته الجامعة: «لم يكتب الناس أصح من كتبه، ولا أكثر فائدة»(٣).. قال ذلك، وشهد هذه الشهادة، من موقع المعتزلة، الذين كانوا يخوضون صراعًا فكريًّا ـ يومئذ ـ مع التيار الفكرى الذى ينتسب إليه ابن سلام... تيار أصحاب الحديث!... الأمر الذى يعطى لهذه الشهادة قيمتها، وقدرها فى الدقة والأمانة، كما يفهمها أهل الدقة، والأمانة من العلماء!....

---

(١) عبد الباقى بن عبد المجيد اليمانى [إشارة التعيين وتراجم النحاة واللغويين]، (٢٦١). تحقيق: د. عبد المجيد دياب. طبعة الرياض سنة (١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م).

(٢) [التهذيب] (٧/ ٣١٦).

(٣) [دائرة المعارف] ـ إشراف: أفرام البستانى ـ (٢/ ١٩٧) طبعة بيروت.

هذا عن مقام [كتاب الأموال] لأبى عبيد القاسم بن سلام، بين مؤلفات الأموال والخراج فى تراث الإسلام.

ـ وإذا كان هذا العلم من علوم الإسلام؛ إنما قام وتبلور كبرهان على إسلامية «الواقع» الذى احتكم إلى «فكره» وقواعده، فإن هذا «الفكر» وهذه القواعد قد امتدت أغصانها وأينعت بالتفاعل مع المعضلات الاقتصادية لهذا «الواقع».. وهو الأمر الذى نأملة لنهضة «واقعنا» الاقتصادى و«فكرنا» الاقتصادى من وراء هذا المشروع الذى نقدم بين يديه.. فإبراز الضوابط الإسلامية فى الفكر الاقتصادى، وتطوير الواقع على هدى من هذه الضوابط، إنما يثمران تفاعلًا خلاقًا يغنى هذه الضوابط، ويطور آلياتها الفكرية أيضًا.. الأمر الذى يحقق: «إسلامية الواقع»، و«واقعية الاجتهادات الإسلامية»، مواكبة للمستجدات من الضرورات والمشكلات..

إن [كتاب الخراج] ـ لأبى يوسف ـ قد كان: إجابة الفقيه المجتهد على الأسئلة الستة والعشرين، التى أفرزها الواقع علامات استفهام حملها الخليفة هارون الرشيد إلى أبى يوسف، طالبًا فيها رأى الإسلام.. أى أنه كان «الفكر» الإسلامى الذى يقنن «للواقع» الإسلامى، ويضبط حركته بمعايير الإسلام، وذلك بالقدر الذى يتطور فيه «الفكر» ـ وفق قواعد الاجتهاد الإسلامى وفى إطار فلسفته ـ ليستوعب الجديد فى هذا «الواقع»، حتى يتمكن من ضبط حركته، الضبط الإسلامى الصحيح، دون إفراط أو تفريط..

ولقد ظلت هذه الوظيفة «للفكر» قائمة، وفاعلة عبر القرون التى شهدت فيها حضارتنا العربية الإسلامية قيام العلاقات «الصحية ـ والقوية: بين «الواقع»، و«الفكر».

فبقدر ما كان «الواقع» متخذًا من الإسلام فلسفته وإطاره وقانونه ومعيار تطوره، كان العقل المسلم نشطًا فى إبداع «الفكر» الذى يلبى ويرشد ويضبط حركة هذا «الواقع».. وعندما انفلت زمام «الواقع» من الإطار الإسلامى، وتحلل من ضوابط فلسفة الإسلام وقانونه، توقف العقل المسلم عن الإبداع فى «علوم الواقع» ـ ومنها الاقتصاد الإسلامى ـ واقتصر إبداعه واجتهاده على تفاصيل، وجزئيات العبادات، وما هو شخصى وأُسَرى من العلاقات... وتلك حقيقة تقوم فى تراثنا ومسيرتنا الحضارية

والتاريخية، شاهدةً على العلاقة بين «إسلامية الواقع» وبين تنمية وازدهار «الاجتهاد»، وعلى دور «الاجتهاد والتجديد» فى تمكين «الواقع» من أن يكون إسلاميًّا!..

كذلك، تُعلمنا هذه الحقيقة، ضرورة ألا نطلب للواقع الراهن أو المستقبل «القوالب» فيما نحقق ونحيى من كتب التراث، وإنما نطلب من هذه الكتب الأُطر والفلسفات والقواعد والأصول، التى تهيئ لاجتهادنا المعاصر والمستقبلى أن يكون بحق إسلاميًّا، والتى تضمن لنهضتنا المنشودة أن تكون تواصلًا حضاريًّا، وليست انقطاعًا عن الجذور والسمات والقسمات التى ميزت حضارة الإسلام... فتراث الإسلام فى الأموال والخراج، وقسمة الحياة الاقتصادية فى مسيرتنا الحضارية قد شهدت نمو الاجتهاد والتجديد بتوالى تطور الواقع، وحدوث المستجدات من الأمور والمشكلات، إن فى مصادر الثروة أو أساليب الإنتاج أو قواه أو فى أنماط العيش، وطرائق الانتفاع، والاستهلاك... حدث ذلك عبر الزمان وعبر المكان، وتبعًا لتنوع الاجتهادات...

تلك حقيقة لا بد أن نعيها؛ ونحن نحيي تراثنا فى الاقتصاد، لنكون على بينة من نوع وحدود وإطار «الفعل» الذى نريده لنصوص التراث فى واقعنا الراهن والمستقبل.. فنحن نريده ضابطًا لاجتهادنا المعاصر بضوابط الإسلام، ولا نريده بديلًا عن هذا الاجتهاد المعاصر، الذى هو طوق النجاة لواقعنا من أغلال الفلسفات غير الإسلامية فى هذا الميدان!...

لقد كان «الواقع الاقتصادى»، فى القرون الأولى من حضارة الإسلام، قد جعل من الزراعة.. ومن الثروة الحيوانية.. ومن التجارة.. ومن الركاز [دفائن الأرض] ومن الغنائم القتالية: المصادر الأساسية للثروة فى المجتمع، ولذلك وجدنا «الفكر الاقتصادى»، فى تراثنا حينئذ، لا يعير انتباهًا للحرف، والصناعات كمصادر للثروة، تفرض عليها الضرائب، وتجب فيها الصدقات..

كذلك لم تكن هناك وسائل الحفظ للفواكه، والخضراوات الطازجة، فخرجت عن أن تكون ـ فى الفكر الاقتصادى ـ يومها مصادر للضرائب والصدقات..

فلما تطور الواقع، فى إطار الضوابط الإسلامية، نهض الاجتهاد بتطوير الفكر، ليستجيب لمستحدثات الواقع، دونما خروج عن إطار منهج الإسلام.. تشهد على هذه الحقيقة معالم الاجتهاد الدائم، والمتطور التى نأمل أن يقف عليها العقل المسلم فى نصوص هذا المشروع الذى يبدأ بكتاب القاسم بن سلام.

إن المقاصد والعلل الغائية؛ هى الثوابت التى يجب أن تظل مجسدة لمعنى «إسلامية الحياة الاقتصادية فى المجتمعات الإسلامية»، وليست الجزئيات والتطبيقات والسبل والمؤسسات والآليات ـ التى هى «تجارب سلف» ـ ارتبطت بواقع تغير، وعلل تبدلت وأعراف تجاوزها التطور.. وحتى تتمكن المجتمعات الإسلامية المعاصرة من التطبيق الخلاق الذى يحقق المقاصد، والعلل الغائية لمنهج الإسلام فى الحياة الاقتصادية، لا بد من أن يبدع العقل المسلم، بالاجتهاد والتجديد، للواقع الجديد والمشكلات المستحدثة، إبداعًا إسلاميًّا، يلتزم المنهج والفلسفة، ويتغيّا تحقيق مقاصد الإسلام فى تدبير الأموال والثروات، التى هى إقامة العدل بين مجموع الأمة، وبينها كأمة وبين الأمم الأخرى.

ولحسن الحظ؛ فإن هذه الحقيقة ليست فقط ثمرة الاستنتاج الناضج من منهج الإسلام.. ولا هى فقط استخلاص من مسيرة الفكر الاقتصادى فى حضارتنا، كما ستتبينها من الأعمال الفكرية التى ستتوالى فى مجلدات هذا المشروع.. وإنما هى أيضًا، واحدة من الحقائق التى نتعلمها من [كتاب الأموال] لأبى عبيد القاسم بن سلام.. فالتنوع فى الاجتهاد، الذى يحكيه أبو عبيد عن علماء الإسلام وفقهائه فى قضايا الأموال، مع احتكام الجميع إلى منهاج الإسلام ومقاصده والعلل الغائية لأحكام شريعته، هو مَعْلَم بارز من معالم هذا الكتاب نتعلم منه العلاقة الصحية بين «الأصول» و«الفروع».. بين «المنهج» و«تطبيقاته».. بين «الوحى الإلهى» و«الإبداع البشرى» الملتزم والمسترشد بمنهج النبوة وكلمات الله[1]...

---

(١) انظر كتاب الأموال ـ فى طبعة دار السلام ـ القاهرة.

حجة الإسلام
أبو حامد الغزالى

[٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ ـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م]

بطاقة حياة الغزالى

* هو حجة الإسلام أبو حامد الغزالى، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالى الطوسى [٤٥٠ـ٥٠٥ / ١٠٥٨ ـ ١١١١م] فقيه شافعى، ومتكلم أشعرى، وأحد الذين طوروا الأشعرية، التى غدت ـ مع الماتريدية ـ المذهب الكلامى لجمهور الأمة الإسلامية.. وهو ـ أيضًا ـ أصولى، ارتاد تقعيد قواعد علم أصول الفقه.. وفيلسوف، تصدى لكثير من مقولات فلاسفة اليونان.. وصاحب تجربة صوفية شديدة الغنى والثراء، أثمرت إبداعًا متميزًا فى التصوف الشرعى، وعلم السلوك والتربية والقلوب.

* والغزالى من أصول فارسية، ولد فى «الطابران» من أعمال «طوس» بخراسان..

واشتهر بالغزالى نسبة إلى أبيه الذى كان يعيش من غزل الصوف وبيعه، وقيل نسبة إلى غزالة، إحدى قرى طوس ـ ولقد تميز عصر الغزالى ـ العصر العباسى المتأخر ـ بازدهار الفلسفة اليونانية الوافدة، وازدهار التصوف، بألوانه المتمايزة ـ السنى منه والباطنى ـ كما اتسم عصره السياسى باستبداد الدولة، التى تعسكرت، وبسيطرة الإسماعيلية الباطنية على أغلب بقاع العالم الإسلامى.. وبشيوع المظالم، الأمر الذى فتح الثغرات لهجمات الصليبيين على ديار الإسلام، فكان أن انتعشت مقاومة العلماء للمنكرات ولاستبداد السلاطين.. ومقاومة الغزاة.

* تلقى الغزالى طرفا من علوم الإسلام فى «طوس» ثم انتقل إلى «نيسابور» سنة ٤٧٣هـ ـ ١٠٨٠م فتعلم التصوف والفقه والكلام والمنطق على إمام الحرمين

الجوينى [٤١٩ ـ ٤٧٨هـ ـ ١٠٢٨ ـ ١٠٨٥م].. وتعمق فى الفلسفة والحكمة حتى تفوق فى هذه العلوم.. وأخذ فى التأليف فيها.

* استدعاه الوزير السلجوقى نظام الملك [٤٠٩ ـ ٤٨٥ هـ/ ١٠١٨ ـ ١٠٩٢م) إلى بغداد، وضمه إلى حاشيته سنة ٤٧٨هـ ـ ١٠٨٥م بعد أن التقاه وأعجب به، ثم عينه أستاذًا بالمدرسة النظامية فدرّس بها أربع سنوات، ذاعت فيها شهرته حتى لقب «بحجة الإسلام». وفى هذه المرحلة انصرف الغزالى للتبحر فى الفلسفة ووضع كتابه (مقاصد الفلاسفة) ثم طور موقفه إلى نقد عدد من مقولات الفلسفة اليونانية فى كتابه (تهافت الفلاسفة).

ولقد عاش الغزالى ـ إبان حياته ببغداد ـ أزمة فكرية ونفسية وروحية، مثلت تجربة صوفية شديدة الغنى وبالغة الثراء، أثمرت إبداعًا متميزًا فى علم السلوك والقلوب، وكان كتابه (المنقذ من الضلال) تجسيدًا لهذه التجربة الفريدة.

* وإبان هذه المعاناة الروحية، ترك الغزالى التدريس بالمدرسة النظامية وغادر بغداد (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) فأدى فريضة الحج بمكة المكرمة.. ثم تنقل طويلًا بين دمشق والحجاز وبيت المقدس ومصر وبغداد ونيسابور، ممارسا التصوف والزهد والتقشف.

* وفى [٤٩٩هـ/ ١١٠٦م] استدعاه الوزير السلجوفى فخر الملك [٤٩٩هـ/ ١١٠٦م] ابن نظام الملك ـ إلى نيسابور للتدريس ـ مرة ثانية ـ بالمدرسة النظامية ـ لكنه غادرها ـ بعد عام ـ إلى طوس ـ بعد قتل الحشاشين للوزير ـ حيث لازم بيته، وانقطع للعبادة والوعظ والتدريس إلى أن وافته المنية وهو فى الخامسة والخمسين من العمر.

ولقد جمع الغزالى ـ فى معاناته المعرفية وحياته الفكرية ـ بين العقل والقلب وجعل الشك المنهجى ـ وليس العبثى ـ طريقًا لتحصيل اليقين، ومن كلماته الشهيرة: «من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر ففى العمى والضلال». والعقل ـ عند الغزالى ـ مثل نور البصر والشرع مثل نور الضياء، فمن لا عقل له هو

أعمى يسير فى الضياء، ومن لا شرع لديه هو مبصر يسير فى الظلام، والعقل مع الشرع نور على نور.

* ولقد مثل الغزالى ـ ولا يزال ـ بإبداعاته العلمية «ظاهرة فكرية» منذ عصره وحتى هذا العصر الذى نعيش فيه.. ولقد تناولت إبداعاته علوم عصره وعلوم القدماء، فكتب فى التصوف، والفقه، والأصول، والمنطق، والفلسفة، والتربية، والأخلاق، والنفس، والاجتماع، والسياسة، والطبيعيات.. ومن أشهر آثاره الفكرية:

١ ـ (آداب الصوفية).

٢ ـ (الأدب فى الدين).

٣ ـ (الأربعين فى أصول الدين).

٤ ـ (الإملاء عن أشكال الإحياء).

٥ ـ (إحياء علوم الدين).

٦ ـ (أيها الولد).

٧ ـ (مشكاة الأنوار).

٨ ـ (معراج السالكين).

٩ ـ (ميزان العمل).

١٠ ـ (الاقتصاد فى الاعتقاد).

١١ ـ (عقيدة أهل السنة).

١٢ ـ (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة).

١٣ ـ (القسطاس المستقيم).

١٤ ـ (كيمياء السعادة).

١٥ ـ (تهافت الفلاسفة).

١٦ ـ (فضائح الباطنية).

١٧ ـ (رسالة الطير).

١٨ ـ (محك النظر فى المنطق).

١٩ ـ (معارج القدس فى مدارج معرفة النفس).

٢٠ ـ (معيار العلم).

٢١ ـ (المنقذ من الضلال).

٢٢ ـ (مقاصد الفلاسفة)..

هذا إلى كثير من الرسائل التى وصلت بكتبه ـ فى رأى البعض ـ إلى أكثر من مائتى رسالة وكتاب، ويعد كتابه (إحياء علوم الدين) دائرة معارف موسوعية، بعثت الروح والأخلاق والإخلاص فى علوم الدين، فأنقذتها من موات الجمود وجفاف التقليد، حتى قال عنه الإمام النووى [٦٣١ ـ ٦٧٦هـ/ ١٢٣٣م ـ ١٢٧٧م]: «كاد الإحياء أن يكون قرآنًا».

* ولقد كتب الغزالى أغلب كتبه بالعربية.. وكتب بعضها بالفارسية، ثم ترجمت إلى العربية.. ولقد كان لفكره وفلسفته تأثيرات كبيرة فى الفكر الدينى الغربى، وفى النهضة الأوروبية.. ولقد وصفه المستشرق الفرنسى «دى بور» [١٧٩٨م ـ ١٨٦٣م] بأنه «أعجب شخصية فى تاريخ الإسلام».. عليه رحمة الله..

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
للغزالى

فى الإسلام ـ وحضارته وتاريخه ـ كانت فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر التعبير عن «مشروعية» المقاومة للاستبداد والثورة ضد الظلم والفساد والإفساد..

وعندما تراجعت الشورى ومؤسساتها عن «الدولة والسلطة» بعد عهد الخلافة الراشدة ظلت هذه الشورى ومؤسساتها قائمة ـ إلى حد كبير ـ فى نطاق الأمة.. فبنت الأمة حضارتها الزاهرة على الرغم من استبداد «الدولة والسلطة» ومارست الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، باليد ـ والثورة ـ حينا.. وباللسان والقلم أحيانًا كثيرة وبالقلب ـ أى الرفض الذى يشابه العصيان المدنى ـ فى أغلب الأحايين...

ولقد أكد القرآن الكريم على أن فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هى الفريضة الجامعة لكل ميادين الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية وعلى أن وجوبها شامل لكافة المكلفين ـ من الرجال والنساء ـ إنها فريضة عامة على عموم الأمة.. وفريضة خاصة على النخبة والصفوة من العلماء والقادة والحكماء:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [التوبة: ٧١].

* ولأن السنة النبوية هى البيان النبوى للبلاغ القرآنى، فلقد توالت الأحاديث الشريفة التى تؤكد وتفصِّل هذه الفلسفة الإسلامية، فلسفة التشريع والمشروعية لإنكار المنكر وتغييره وإحلال المعروف محله، ولمقاومة الظلم والاستبداد والفساد والإفساد...

«لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه (تجبرونه) على الحق أطرا، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم تدعون فلا يستجاب لكم».

«من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

«خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ثم رجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فى ذات الله تعالى فقتله على ذلك».

«أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر».

«إذا رأيتم الظالم فلم تأخذوا على يديه يوشك الله أن يعمكم بعذاب من عنده».

وفى فقه المقاومة للولاة الظلمة والسلاطين المستبدين، وردت العديد من الأحاديث النبوية:

«ما من نبى بعثه الله فى أمه قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

«سيكون من بعدى أمراء يكذبون ويظلمون، فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه، ولم يرد الحوض.. ومن نابذهم نجا، ومن اعتزلهم سلم أو كاد أن يسلم، ومن وقع معهم فى دنياهم فهو منهم».

وفى فقه المقاطعة للحكام الظلمة والولاة المستبدين، وممارسة العصيان المدنى ضدهم وضد استبدادهم.. وردت الأحاديث التى تؤكد ذلك، وخاصة على العلماء:

«أبغض القراء ـ (العلماء) إلى الله تعالى الذين يزورون الأمراء، وخير الأمراء الذين يأتون العلماء، وشر العلماء الذين يأتون الأمراء.. والعلماء أمناء الرسل على عباد الله ما لم يخالطوا السلطان، فإن فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم».

«إن الله ليغضب إذا مُدح الفاسق».

«من أكرم فاسقًا فقد أعلن على هدم الإسلام».

«من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يُعصى الله فى أرضه».

«لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وكنفه ما لم تمالئ قراؤها أمراءها».

«إن الله لعن علماء بنى إسرائيل إذ خالطوا الظالمين فى معاشهم».

«اللهم لا تجعل لفاجر عندى يدا فيحبه قلبى».

* * *

ولقد كان حجة الإسلام أبو حامد الغزالى واحدًا من أبرز العلماء الذين لم يقفوا فقط عند مقاطعة ولاة الاستبداد والفساد، وإنما جمعوا تراث الأمة فى مقاومة الاستبداد، وقعدوا القواعد الشرعية للإنكار على هؤلاء المستبدين.

وفى باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ من كتابه الفذ «إحياء علوم الدين» ـ اجتهد الغزالى فى تحويل فقه مقاومة الاستبداد من أحكام فقهية جامدة إلى خُلق يحكم حياة الناس وروح تسرى فى العقول والقلوب لتحرك الملكات والطاقات ـ فى الممارسات ـ لمقاومة منكرات الاستبداد والفساد..

وإذا نحن شئنا إشارات ـ مجر إرشادات ـ إلى بعض المبادئ والقواعد والأحكام التى شرعت لفقه مقاومة الاستبداد ـ فى هذا الكتاب ـ فسنجد ـ على سبيل امثال:

إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الفرائض والواجبات، «ومن فروض الكفاية الاجتماعية» التى هى أهم وآكد من فروض العين الفردية، وإن الفلاح ـ فى الدنيا والآخرة ـ محصور فى القائمين بهذه الفريضة.

وإن إقامة هذه الفريضة واجب حتى مع شدة الخوف من عواقبها.

وإن من لا يقوم بهذه الفريضة هو ميت ـ حتى وإن كان يأكل ويشرب ـ لأن إنكار المنكر ومقاومة الاستبداد والفساد «حياة»، والتفريط فى إقامة هذه الفريضة «موت وموات».

ولا يجوز دخول دور الظلمة والفسقة ولا حضور الأماكن التى يشاهد المنكر فيها عند العجز عن تغييره.

وإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على آحاد الناس، دون اشتراط أخذ الإذن من الولاة، وإذا كان الوالى ساخطًا لإقامة هذه الفريضة فإن سخطه لإقامتها منكر يجب الإنكار عليه.

وإن عقاب العالم الذى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أشد من غيره؛ لأنه لا عذر له مع قوة علمه، كما أنه لا حرمة لعالم لا يعمل بعلمه، أما الروافض «الشيعة» الذين لا يجيزون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، إلا إذا ظهر إمامهم المعصوم، فهم حمقى، وأخس رتبة من أن يُكَلَّموا» «ولقد ناقضوا أنفسهم بطلبهم استخلاص حقوقهم ومنع الظلم عنهم فى غيبة هذا الإمام»!

وعند العجز عن تغيير المنكر باليد، يجب أن تكفهر الوجوه أمام مرتكبى المنكرات.

وإذا طلب سلاطين الجور من بعض الأعوان المساعدة فى الظلم والمنكرات، وجبت عليهم الهجرة ـ إن قدروا عليها ـ إذ الإكراه لا يكون عذرًا لمن يقدر على الهرب بالهجرة.

ويستحب للإنسان التضحية فى سبيل إنكار المنكر، وذلك بتعريض نفسه للضرب، وحتى للقتل إذا كان فى موقفه هذا تأثير فى رفع المنكر، أو فى كسر جاه الفاسق أو فى تقوية قلوب أهل الدين، ولا يجوز دفع المنكر إذا أدى ذلك إلى منكر آخر.

وعوام الناس ينبغى لهم إنكار المنكر إذا كان جليًّا معلومًا، أما إذا كان حكمه محتاجًا إلى اجتهاد العلماء فخوض العوام فيه مفسدة تزيد على المصلحة.

ولا بد للمنكر، الذى يجب تغييره من شروط:

١ ـ أن يكون المنكر موجودًا فى الحال، فلا إنكار على أمر قد انقضى.

٢ ـ وأن يكون معلومًا كونه منكرًا بغير حاجة إلى اجتهاد المجتهدين من العلماء.

٣ ـ وأن يكون ظاهرًا بغير تجسس.

وفى التعريف بالمنكر يجب سلوك طريق اللطف والرفق، أما فى دفع المعاصى وتغييرها فلا بد من الجهد والتعب، فكما أن الإنسان يتعب نفسه فى ترك المعاصى، كذلك يجب عليه التعب فى تغييرها ودفعها، ففى ترك المعاصى تعب، وفى تغييرها تعب، بل إن الطاعات كلها إنما ترجع إلى مخالفة النفس، وهى غاية التعب.

ومن طمع فى رضى الله أعانه الله على إنكار المنكر، أما من طمع فى أن تكون قلوب الناس عليه طيبة، وألسنتهم بالثناء عليه مطلقة، فلن يتيسر له إنكار المنكر.

ولقد كان من عادة السلف الصالح التعرض للأخطار، والتصريح بالإنكار على الأمراء والسلاطين من غير مبالاة بهلاك المهجة، والتعرض لألوان العذاب، لعلمهم أن ذلك شهادة فى سبيل الله.

ولأن الظلمة إنما كانوا يسكنون القصور المغتصبة، أو المبنية بالأموال الحرام، فإن الدخول عليهم فيها هو حرام شرعًا؛ لأنه دخول فى دور مغتصبة بدون إذن ملاكها الحقيقيين، ومثال هذه الدور كمثال المساجد المبنية فى أرض مغصوبة، أو بمواد

مغصوبة، لا يجوز دخولها أصلًا، بل إن الأرض المغصوبة إذا جعلت شارعًا لم يجز الخطو فيه البتة.

ولأن شُعب الإيمان شاملة لكل مناحى الحياة الإنسانية والحيوانية، والطبيعية، وجب إنكار المنكر فى أى ميدان من ميادين هذه الحياة، فتحميل الدواب من الأحمال ما لا تطيقه منكر يجب منع الملاك عنه، وترك مياه المطر والأوحال فى الطرقات من غير كسح لها هو من المنكرات.. وكذلك إفساد الهواء بالروائح النتنة وتلويث المناخ بالنفايات الضارة، وإشغال الطرقات بما يضيّق على الناس، إلخ، إلخ.

وعلى العلماء الربانيين ـ ورثة الأنبياء ـ اعتزال الأمراء الظلمة، واعتقاد بغضهم على ظلمهم، وكراهية بقائهم، وعدم الثناء عليهم، والامتناع عن استخبار أحوالهم، أو التقرب إلى المتصلين بهم، أو التأسف على ما يفوت بسبب مفارقتهم، حتى لا يخطر أمرهم بالبال «فتحدث لهم العزلة القاتلة والمقاطعة التى تسقط اعتبارهم وتحاصر نفوذهم».

ذلك لأن على العلماء من الواجبات فى إنكار المنكر القدر الأكبر من المسئولية، ففساد الرعايا إنما يحدث بفساد الملوك، وفساد الملوك إنما يحدث بفساد العلماء، وفساد العلماء إنما يحدث باستيلاء المال والجاه، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على حسبة ومحاسبة الأراذل، فكيف على الملوك والأكابر؟!.

تلك إشارات ـ مجرد إشارات ـ إلى هذا الكنز التراثى الذى ازدانت به حضارتنا الإسلامية، التى قامت فيها «الأمة» بإنكار المنكر الذى غرقت فيه «الدولة»..

لقد انحرفت «الدولة» عن الشورى منذ طى صفحة الخلافة الراشدة ـ اللهم إلا ومضات رفعت عموم البلوى عن تاريخ هذه الدولة ـ.. لكن الأمة ظلت وفية لإسلامها، فأبدعت فى صناعة الحضارة ـ فى ظل استبداد الدولة.. وقاومت هذا الاستبداد ـ باليد والثورات ـ «وباللسان والأقلام» وبالقلوب التى اكفهرت وجوه أصحابها أمام منكرات الظلم والاستبداد..

ولأننا نقدم، بهذه الإشارات، بين يدى صفحات أبدعها حجة الإسلام أبو حامد الغزالى فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى كتابه الفذ «إحياء علوم الدين».. فإننا نختم هذا التقديم بسطور تحدد مقام هذا الكتاب الفذ بين كتب التراث الإسلامى..

لقد كان الشيخ محمد مصطفى المراغى [١٢٩٨ ـ ١٣٦٤هـ ـ ١٨٨١ ـ ١٩٤٥م] أنجب تلاميذ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م].. ولقد رشح الشيخ محمد عبده تلميذه المراغى ـ بعد عام من تخرجه فى الأزهر الشريف ـ ليعمل قاضيًا بالسودان، ولقد ذهب التلميذ إلى أستاذه يودعه عشية سفره، فسأله الأستاذ:

هل معك رفقاء السفر؟..

ـ فقال: نعم، بعض كتب آنس إليها وأستديم بها اتصالى بالعلم.

ـ فقال الأستاذ: أو معك كتاب «الإحياء»؟..

ـ فقال الشيخ المراغى: نعم..

ـ فقال الأستاذ الإمام: هذا الكتاب لا يجوز لمسلم أن يسافر سفرًا طويلًا دون أن يكون رفيقه.

ولقد علق الشيخ المراغى على هذا اللقاء وهذا الحديث، فقال ـ عن الغزالى وكتاب «الإحياء»: «إذا ذكرت أسماء العلماء اتجه التفكير إلى ما امتازوا به من العلم وشعب المعرفة».

فإذا ذكر ابن سينا [٣٧٠ ـ ٤٢٨هـ ٩٨٠ ـ ١٠٣٨م] والفارابى [٢٦٠ ـ ٣٣٩هـ ٨٧٤ ـ ٩٥٠م] خطر بالبال فيلسوف عظيم من فلاسفة الإسلام.

وإذا ذكر ابن عربى [٥٦٠ ـ ٦٣٨هـ ـ ١١٦٥ ـ ١٢٤٠م] خطر بالبال رجل صوفى له فى التصوف آراء لها خطرها، وإذا ذكر البخارى [١٩٤ ـ ٢٥٦هـ ٨١٠ ـ ٨٧٠م]

ومسلم [٢٠٦ ـ ٢٦٠هـ ـ ٨٢٠ ـ ٨٧٥م] وأحمد [١٦٤ ـ ٢٤١هـ ـ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م] خطر بالبال رجال لهم أقدارهم فى الحفظ والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال.

أما إذا ذكر الغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م] فقد تشعبت النواحى، ولم يخطر بالبال رجل واحد، بل خطر بالبال رجال متعددون، لكل واحد منهم قدرته وخطره، يخطر بالبال الغزالى الأصولى الحاذق الماهر، والغزالى الفقيه الحر، والغزالى المتكلم، إمام السنة وحامى حماها، والغزالى الاجتماعى الخبير بأحوال العالم وخفيات الضمائر ومكنونات القلوب، والغزالى الفيلسوف الذى ناهض الفلسفة وكشف عما فيها من زخرف وزيف، والغزالى المربى، والغزالى الصوفى الزاهد، وإن شئت فقل إنه يخطر بالبال رجل هو «دائرة معارف» عصره، ورجل متعطش إلى معرفة كل شىء، نهم إلى جميع فروع المعرفة».

تلك شهادة عالم فذ على مكانة حجة الإسلام أبو حامد الغزالى فى تراث الإسلام ـ مكانة «دائرة المعارف» والظاهرة الفكرية المستمرة والسارية فى عقول الأمة وقلوبها على امتداد القرون.

أما كتاب الغزالى «إحياء علوم الدين» الذى نقدم بين يدى صفحات منه ـ جسدت طرفًا من ملحمة مقاومة أمتنا للظلم والاستبداد والفساد فيكفى أن نذكِّر بما قاله عنه الإمام محمد عبده:

«إنه الزاد الفكرى الذى لا يجوز لمسلم أن يسافر سفرًا طويلًا دون أن يكون رفيقه فى السفر».

إننا أمام صفحة من أمجد صفحات تاريخنا الفكرى والحضارى نقدمها للعلماء والباحثين والقراء، إحياء لفريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فريضة المقاومة لظلم الولاة ولاستبداد المستبدين، ذلك أن تقديم هذه الصفحات فى واقعنا المعاصر هو واجب نحيى به فريضة كبرى من فرائض الإسلام. والله نسأل أن ينفع به، إنه سبحانه وتعالى خير مسئول وأكرم مجيب.

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

[١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م]

(١)

* فى قرية «محلة نصر» ـ محافظة «البحيرة» ـ ولد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م].. وفى القرية تلقى تعليمه الأولى، وحفظ القرآن الكريم.. ثم انتقل إلى «المعهد الأحمدى» ـ بمدينة «طنطا» ـ سنة ١٢٧٩هـ ١٨٦٢م حيث تلقى دروس التجويد للقرآن الكريم، وأولى الدروس فى التعليم الأزهرى.. وفى سنة ١٢٨٢هـ سنة ١٨٦٧م انتقل إلى الجامع الأزهر ـ بالقاهرة ـ لمواصلة الدراسة.. ولقد ساعدته لمسة صوفية على مقاومة النفور الذى أصابه من طرق التدريس الأزهرية فى ذلك الحين.

* وفى سنة ١٢٨٨ هـ سنة ١٨٧١م حدثت النقلة النوعية فى حياة الشيخ محمد عبده، عندما التقى بجمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م] فلازم حلقة درسه، وأصبح أنجب تلامذته، وخليفته فى السعى إلى تجديد الإسلام وإصلاح دنيا المسلمين بالإسلام.. ومنذ ذلك الحين تزامل فى فكره عقل الفيلسوف مع قلب الصوفى فى توازن جسد الوسطية الإسلامية الجامعة.

* ورغم اضطهاد شيوخ الاتجاه المحافظ من أهل التقليد بالأزهر للطالب محمد عبده ـ بسبب نزعته العقلية المجددة ـ استطاع ـ بفضل شيخ الأزهر الشيخ محمد المهدى العباسى [١٢٤٣ ـ ١٨٢٧ ـ ١٨٩٧م] ـ الحصول على العالمية ـ من الدرجة الثانية: ـ سنة ١٢٩٤هـ ١٨٧٧م.

* وفى العام التالى لتخرجه عين مدرسًا «بمدرسة دارالعلوم العليا»، فشرح لطلابها كتاب [المقدمة] للعلامة ابن خلدون [٧٣٢ ـ ٨٠٨هـ ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م]، ودرّس لهم «علم الاجتماع والعمران»..

* وشارك أستاذه الأفغانى فى العمل السياسى ـ «بالحزب الوطنى الحر» ـ ضد استبداد الخديوى إسماعيل [١٢٤٥ ـ ١٣١٢هـ ١٨٣٠ ـ ١٨٩٥] وضد النفوذ الاستعمارى الزاحف على البلاد.

* وبعد نفى الأفغانى من مصر سنة ١٢٩٦ هـ سنة ١٨٧٩م عُزل محمد عبده عن التدريس، وحددت إقامته بقرية «محلة نصر» إلى أن استصدر له «ناظر النظار ـ رئيس الوزراء» رياض باشا [١٢٤٩ ـ عفوًا من الخديو توفيق [١٢٦٨ ـ ١٣٠٩هـ ١٨٥٢ ـ ١٨٩٢م] وعينه محررًا ثالثًا بجريدة «الوقائع المصرية».. ثم أصبح رئيسًا لتحريرها.. ومديرًا للرقابة على المطبوعات.. ولقد قام بتحويل «الوقائع» من نشرة للإدارات الحكومية إلى صحيفة اشتملت على «قسم غير رسمى» تبارى فى تحريره نخبة من أهل الفكر والثقافة.

* وفى سنة ١٢٩٨هـ سنة ١٨٨١م أنشئ المجلس الأعلى للمعارف العمومية، وعين محمد عبده عضوًا فيه.

* وإبان تلك الفترة تميز نهج محمد عبد فى الإصلاح عن نهج أستاذه الأفغانى.. فالأفغانى كان يركز على الثورة والسياسة والدولة، بينما كان محمد عبده يدعو إلى تقديم التربية على السياسة، وإصلاح الأمة قبل الدولة، وإلى التدرج فى الإصلاح.. مع الاهتمام بإصلاح مناهج الفكر، والمؤسسات التعليمية التى تصنع عقل النخبة والصفوة.

* وعندما قامت الثورة العرابية ١٢٩٨هـ سنة ١٨٨١م، وأصبحت مصر مهددة بالاحتلال، انخرط محمد عبده فى الثورة العرابية، كأحد زعمائها.. وعندما هزمت أمام الاحتلال الإنجليزى سنة ١٢٩٩هـ سنة ١٨٨٢م سجنه الإنجليز ـ مع زعماء

الثورة ـ وحكموا عليه بالنفى خارج مصر ثلاث سنوات امتدت إلى ما يقرب من ست سنوات.

* وفى المنفى زامل محمد عبده أستاذه الأفغانى، وكان ساعده الأيمن فى تنظيم «العروة الوثقى»، وفى إصدار مجلة هذا التنظيم ـ «العروة الوثقى» ـ من باريس.. ولقد طوف طوال السنوات الست التى قضاها بالمنفى بكثير من دول الشرق والغرب ـ علنًا حينًا.. وسرًّا فى كثير من الأحايين ـ كما مارس التدريس ـ ببيروت ـ وبدأ تفسيره للقرآن الكريم.

* وعندما يئس محمد عبده من العمل السياسى ـ بعد توقف مجلة «العروة الوثقى» ـ سعى للعودة إلى مصر، فعاد إليها سنة ١٣٠٦هـ سنة ١٨٨٩م، كى يمارس الإصلاح وفق منهجه ـ لكن الخديو توفيق منعه من العمل بمهنته المحببة ـ التدريس ـ فعمل قاضيًا «ببنها» ثم «الزقازيق».. ثم مستشارًا بمحكمة الاستئناف سنة ١٣٠٨هـ سنة ١٨٩١م.. وفى يونيو سنة ١٨٩٩م تولى منصب مفتى الديار المصرية.. وعضوية مجلس شورى القوانين... وأصبح إمام الإصلاح الفكرى على نطاق العالم الإسلامى.. ولقد نقلت مجلة [المنار] ـ التى أنشأها تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا [١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م] أفكاره واجتهاداته وفتاواه ومعاركه الفكرية إلى ربوع العالم الإسلامى على امتداد أربعين عامًا.

* وإلى جانب اجتهاداته وإبداعاته الفكرية والإصلاحات التى طبقها فى مؤسسات التعليم والقضاء والعمل الاجتماعى، تكونت من حوله أهم المدارس الفكرية التى ظلت تنجب العلماء والمفكرين الذين قادوا الإصلاح والتجديد على نطاق العالم الإسلامى منذ عصره وحتى الآن.. كما مثلت أعماله الفكرية ـ التى جمعناها وحققناها ـ ديوان معالم مناهج الإحياء والتجديد فى عصرنا الحديث.

(٢)

فى سنة ١٣١٧هـ ١٩٠٠م كتب فرح أنطون [١٢٩١ ـ ١٣٤٠هـ ١٨٧٤ ـ ١٩٢٢م] ـ وهو من كتاب النصارى الشوام الذين تعلموا بمدارس الإرساليات

الفرنسية، ثم وفدوا إلى مصر.. كتب فى مجلة [الجامعة] التى كان يصدرها ـ دراسة تناول فيها فلسفة ابن رشد [٥٢٠ ـ ٥٩٥هـ ١١٢٦ـ١١٩٨م] فادعا «أنها فلسفة مادية، وأن مذهب صاحبها مذهب مادى قاعدته العلم».. وتناول فى هذه الدراسة ـ أيضًا ـ موقف كل من الإسلام والنصرانية من التسامح مع العلم والمدنية، فرأى أن المسيحية كانت أكثر تسامحًا لأنها فصلت السلطة الدينية عن السلطة المدنية.. وفى ذلك قال: «إن السلطة المدنية فى الإسلام مقرونة بحكم الشرع، لأن الحاكم العام هو حاكم وخليفة معًا، وبناء على ذلك فإن التسامح يكون فى هذه الطريقة أصعب منه فى الطريقة المسيحية التى فصلت بين السلطتين فصلًا بديعًا مهد للعالم سبيل الحضارة الحقيقية والتمدن الحقيقى.. ولذلك تمكن العلم والفلسفة من التغلب على الاضطهاد المسيحى، فنما غرسهما فى تربة أوروبا وأينع، وأثمر التمدن الحديث، ولكنهما لم يتمكنا من التغلب على الاضطهاد الإسلامى، وفى هذا دليل واقعى على أن النصرانية كانت أكثر تسامحًا من الإسلام.

* ولقد فجرت هذه الدراسة معركة فكرية كبرى وخصبة، كانت الإمامة فيها للشيخ محمد عبده.. الذى عرض لفلسفة ابن رشد وأثبت ـ بالعقل والنقل ـ أنها «فلسفة إلهية، وأن مذهب ابن رشد هو مذهب إلهى، قاعدته العلم، قائل بخلود النفس وسعادتها وشقائها وعذابها ونعيمها»[1].

* وبعد هذه الدراسة عن فلسفة ابن رشد، تناول الأستاذ الإمام دعوى فرح انطون تسامح النصرانية مع العلم والمدنية بالبحث والنقد والتفنيد ـ فى مقالات عدة ـ نشرتها مجلة [المنار] بدءًا من عدد جمادى الثانية سنة ١٣٣٠هـ سبتمبر ١٩٠٢م ـ ثم جمعها الشيخ رشيد رضا فى كتاب [الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية].. وهو الكتاب الذى يدهش قارئه ـ اليوم ـ بعد أكثر من قرن على كتابته ـ عندما يرى فيه معركة فكرية معاصرة وقائمة فى الوقاع الذى نعيشه الآن!..

(١) انظر [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص ٥١٥ ـ ٥٢٩ ـ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة دار الشروق ـ القاهرة سنة ١٩٩٣م.

* لقد تناول الأستاذ الإمام ـ فى هذا الكتاب ـ دراسة أصول النصرانية وأصول الإسلام، موضحًا الفوارق والتناقضات بينهما، فقدم دراسة من أعمق الدراسات التى كتبت فى مقارنة الأديان.. كما قدم فى هذا الكتاب دراسة عبقرية فى المقارنة بين الحضارة الأوروبية وبين حضارة الإسلام، عالجت قضية التمايز الحضارى، ونقضت دعاوى التغريب والمتغربين!..

* وعرض الأستاذ الإمام لمقام العقل فى الإسلام، فقال: «إن العقل من أجل القوى، بل هو قوة القوى الإنسانية وعمادها. والكون جميعه هو صحيفته التى ينظر فيها، وكتابه الذى يتلوه، وكل ما يقرأ فيه فهو هداية إلى الله وسبيل للوصول إليه.. وإن أول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلى، والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح»[1]..

وقارن بين موقف الإسلام من العقل، وحال هذا العقل فى النصرانية ولاهوتها الكنسى.

* وعرض لقضية التكفير، فقال: «لقد اشتهر بين المسلمين وعُرف من قواعد أحكام دينهم أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حمل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر.. وأن من استقصى جهده فى الوصول إلى الحق، ثم لم يصل إليه، ومات طالبًا غير واقف عند الظن، فهو ناج»[2].

وقارن ذلك بما حدث من محاكم التفتيش داخل مذاهب النصرانية الأوروبية.

* وعرض لطبيعة السلطة والدولة فى الإسلام، فقرر أنها مدنية، ترفض الثيوقراطية والعلمانية معًا. وبنص عبارته:

---

(١) المصدر السابق. جـ٣ ص ٣٠١.
(٢) المصدر السابق. جـ٣ ص ٣٠٢.

«فإن الإسلام لم يعرف تلك السلطة الدينية التى عرفتها أوروبا.. فالأمة هى التى تولى الحاكم، وهى صاحبة الحق فى السيطرة عليه، وهى تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها، فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه. ولا يجور لصحيح النظر أن يخلط الخليفة، عند المسلمين، بما يسميه الفرنج «ثيوكراتيك»، أى سلطان إلهى، فليس للخليفة ـ بل ولا للقاضى أو المفتى أو شيخ الإسلام ـ أدنى سلطة على العقائد وتحرير الأحكام، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهى سلطة مدنية، قدّرها الشرع الإسلامى، فليس فى الإسلام سلطة دينية بوجه من الوجوه، بل إن قلب السلطة الدينية، والإتيان عليها من الأساس، هو أصل من أجل أصول الإسلام»[(١)].

* وقطع الأستاذ الإمام الطريق على الذين ينطلقون من نفى الإسلام للثيوقراطية كى يعلمنوا الدولة الإسلامية، ويفصلوا قانونها وسياستها عن الدين، فقال: «إن الإسلام دين وشرع، فهو قد وضع حدودًا ورسم حقوقًا، ولا تكتمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود وتنفيذ حكم القاضى بالحق وصون نظام الجماعة. فالإسلام لم يدع مال قيصر لقيصر، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله، ويأخذ على يده فى عمله.. فكان الإسلام: كما لا للشخص، وأُلفة فى البيت، ونظامًا للملك امتازت به الأمم التى دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه»[(٢)].

* * *

* وبسبب من خطر هذا الكتاب ـ الذى عرض فيه الأستاذ الإمام لهذه القضايا المهمة ـ وغيرها كثير ـ تعرض هذا الكتاب للتزييف من قبل نفر من العلمانيين، الذين حاولوا تزييف موقف محمد عبده من علاقة الدين بالدولة.

فإبان المعركة الفكرية الكبرى التى أثارها كتاب الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ ـ ١٣٨٦ هـ ١٨٨٧ ـ ١٩٦٦م] [الإسلام وأصول الحكم] ـ سنة ١٩٢٥م ـ حاولت صحيفة [السياسة] أن تطوع فكر الإمام محمد عبده للعلمانية ولعلمنة الإسلام التى

---

(١) المصدر السابق. جـ٣ ص ٣٠٤ ـ ٣٠٩.

(٢) المصدر السابق. جـ٣ ص ٣٠٧.

دعا إليها كتاب على عبد الرازق ـ الذى وصف الإسلام بأنه «دين لا دولة، ورسالة لا حكم»[1].

* ثم تعرضت طبعات كتاب [الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية] للتزييف منذ ستينيات القرن العشرين:

١ ـ لقد زوروا عنوانه، فحذفوا منه كلمة [النصرانية] وجعلوه: [الإسلام مع العلم والمدنية]!

٢ ـ وتم حذف كل ما كتبه الإمام محمد عبده عن النصرانية وأصولها ـ وهو أزيد من ثلاثين صفحة!..

٣ ـ كما حذفوا المباحث التى استخلص فيها الأستاذ الإمام نتائج المقارنات بين أصول النصرانية وأصول الإسلام!..

٤ ـ وبعد هذا التزوير، بالحذف، ارتكبوا جريمة التزوير بالحشو والإضافة للكتاب ما ليس منه!.. فأدخلوا فيه بحث جمال الدين الأفغانى عن: «الإنسان عالم صناعى» ـ الذى سبق نشره فى مجلة «العروة الوثقى» ١٨٨٣م ـ والذى لا علاقة له بموضوع الكتاب!.. كما أضافوا إليه أبحاث «المسألة الإسلامية بين هانوتوا والإمام» ـ وهى ست مقالات كتبها الأستاذ الإمام فى مناسبة أخرى، ولا علاقة لها بموضوع الكتاب!..

* ولقد استمرت الطبعات المزورة لهذا الكتاب تتوالى ـ بل ويقدم لبعضها أساتذة جامعيون! ـ وتنشر إحداها الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٣م، ضمن سلسلة كتب «المواجهة والتنوير»!. استمر هذا التزوير لطبعات هذا الكتاب حتى بعد أن جمعتُ وحققتُ [الأعمال الكاملة] للأستاذ الإمام. والتى نشرت عدة مرات ـ فى بيروت سنة ١٩٧٢م.. والقاهرة ١٩٩٣م و٢٠٠٦ و٢٠١٠م..[2] ونشر فيها النص الأصلى للكتاب..

---

(١) صحيفة [السياسة] فى ٦ يوليو سنة ١٩٢٥م. وانظر فى ذلك كتابنا [معركة الإسلام وأصول الحكم] ص ٧١ ـ ٧٦ طبعة ـ دار الشروق ـ القاهرة سنة ١٩٨٩م.

(٢) انظر فى ذلك كتابنا [الإسلام بين التنوير والتزوير] ص ٢٦٤ ـ ٢٦٨ طبعة القاهرة ـ دار الشروق ـ ١٩٩٥م.

* هكذا، ولهذه الحقائق، تتجلى أهمية النص الأصلى لهذا الكتاب.. كتاب [الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية] للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده..

إنه عمل علمى بالغ الأهمية.. يعالج قضايا جوهرية لاتزال مثارة فى حياتنا الفكرية الراهنة.. حتى لكأنه قد كتب الآن ليفصل بين الحق والباطل فيما هو قائم بين دعاة الأصالة والتجديد وبين المتغربين الذين «ضُربت عقولهم فى مصانع التغريب»!

الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية
للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

[١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م]

من بين الآثار الفكرية للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] ـ والتى تقترب صفحاتها ـ فى [أعماله الكاملة] ـ من ثلاثة آلاف صفحة ـ تتميز ثلاثة آثار:

أولها تفسيره لما فسر من سور القرآن وآياته.. وذلك بسبب المنهج المتميز والممتاز الذى نهجه فى تفسير القرآن.. والذى أجاد وصفه أحد أئمة النهضة الإسلامية، الشيخ محمد البشير الإبراهيمى [١٣٠٦ ـ ١٣٨٥هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٦٥م] عندما قال عنه: «لقد كان تفسير الأستاذ الإمام للقرآن المنهاج المعجزة فى التفسير، المنبئ بظهور إمام المفسرين بلا منازع، فهو أبلغ من تكلم فى التفسير، بيانًا لهديه، وفهمًا لأسراره، وتوفيقًا بين آيات الله فى القرآن وبين آياته فى الأكوان. فبوجود هذا الإمام وُجد علم التفسير وتم.. إنه ليس تفسيرًا للقرآن، وإنما التفسير لمعجزات القرآن..»[1].

وثانى هذه الآثار الفكرية المتميزة: [رسالة التوحيد]، التى نهج الأستاذ الإمام فيها منهاجًا غير مسبوق فى تأليف المتكلمين القدماء فى عقائد الإسلام.. وذلك عندما صفى مباحث هذه العقائد من«شغب» المتكلمين القدماء، الذين دعاهم التعصب للفرق والمذاهب إلى التمترس حول خلافات وهمية، صنعتها المجادلات المذهبية.. حتى جاء الأستاذ الإمام فنحَّا هذا التعصب المذهبى جانبًا، فإذا بأغلب

(١) محمد البشير الإبراهيمى [آثار الإمام البشير الإبراهيمى] جـ ٢ ص ٢٥٢ جمع وتقديم: د. أحمد طالب الإبراهيمى. طبعة دار الغرب الإسلامى. بيروت ١٩٩٧م.

هذه الخلافات يذوب.. وتبدو الحقيقة الإسلامية الصلبة والناصعة التى تعلن عن وحدة الأمة الإسلامية فى الاعتقاد.

أما ثالث هذه الآثار الفكرية المتميزة للأستاذ الإمام فهو كتابه [الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية]، الذى كتبه ـ فى البداية ـ مقالات نشرها فى مجلة [المنار]، رد بها على المفكر المارونى اللبنانى «فرح أنطون» [١٨٧٤ ـ ١٩٢٢م] زعمه أن النصرانية كانت أكثر تسامحًا مع العلم والفلسفة، ولذلك نهضت أوروبا المسيحية.. بينما ضاق صدر الإسلام بالعلم والفلسفة، فكان التخلف والجمود اللذين أصابا حضارة الإسلام!..

وإذا كانت [رسالة التوحيد] قد قدمت عقائد الإسلام وأصول الدين.. فإن كتاب [الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية] قد قدم الإسلام الحضارى، أى إبداع الإسلام الدينى وإنجاز المسلمين الذين تدينوا بالإسلام فى ميادين العمران الدنيوى.. مع مقارنة حضارة الإسلام بالحضارة الأوروبية.. ومقارنة الإسلام بالنصرانية الأوروبية.. أى أن هذا الكتاب قد قدم «الجناح الحضارى» للإسلام، كما قدمت [رسالة التوحيد] «الجناح العقدى» فى الإسلام.. فكان هذان الكتابان «ديوان الإسلام»، كما أنزله الله سبحانه وتعالى.. وكما تفاعل مع الواقع الذى عاش فيه المسلمون، ومع إبداعات العقل المسلم، فأثمر وأبدع نموذجًا حضاريًّا متميزًا وغير مسبوق ولا ملحوق فى تاريخ الديانات والحضارات..

هكذا تفردت هذه الآثار الفكرية الثلاث، وتميزت، من بين الأعمال الفكرية التى أبدعها هذا العقل الإسلامى المتفرد والمتميز للأستاذ الإمام. ومن ثم كانت لها وعليها ردود الأفعال المتميزة من تيارات الفكر المختلفة فى عالم الإسلام.

وبسبب من تميز هذه الآثار الفكرية الثلاثة للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده: [التفسير] و[رسالة التوحيد] و[الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية] ـ كان احتفاء الصحوة الإسلامية الحديثة بها فى ثقافتها وفى التكوين لكوادرها وإطاراتها، وخصوصًا فى المراحل التى سبقت تأثر قطاعات من هذه الصحوة بفكر الجمود

والتقليد الذى قذفت به «الوهابية» إلى العالم الإسلامى، فى حقبة «السبى الخليجى»، الذى صنعه تأثير المال النفطى بثقافة عالم الإسلام!

لقد طبق الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده منهجه المتميز فى تفسير القرآن الكريم، عندما فسر ما فسر من سور القرآن وآياته ـ سور: الفاتحة.. والبقرة.. وآل عمران.. وحتى الآية ١٢٦ من سورة النساء.. مع جزء عم.. وآيات أخرى متفرقات..

ولقد كان الشيخ محمد رشيد رضا [١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م] يدون ما يمليه الأستاذ الإمام فى درس التفسير ـ الذى عقده بالجامع الأزهر الشريف ـ ثم ينشر هذه الأمالى فى مجلة [المنار]، التى حملت فكر الإمام ـ ومنه هذا التفسير غير المسبوق ـ إلى العالم الإسلامى، على امتداد أربعين عامًا، كانت فيها [المنار] المدرسة التى صنعت العقل الجديد للصحوة الإسلامية الحديثة..

وعندما توفى الأستاذ الإمام [١٣٢٣هـ ١٩٠٥م] أخذ الشيخ رشيد رضا فى إكمال هذا التفسير، بادئًا من حيث انتهى الأستاذ الإمام، فبلغ فى هذا التفسير إلى الجزء الثانى عشر من أجزاء القرآن الكريم.. ثم أردكته الوفاة [١٣٥٤هـ ١٩٣٥م].

وعندما تبلور التنظيم الجماهيرى للصحوة الإسلامية الحديثة، فى أواخر عشرينيات القرن العشرين، ظهر الاحتفاء بهذه الآثار الفكرية المتميزة للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى عملية التثقيف لإطارات هذه الصحوة وكوادرها.. فإمام هذه الحركة الشهيد حسن البنا [١٣٢٤ ـ ١٣٦٨هـ ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م] أصدر مجلة [المنار] عقب وفاة الشيخ رشيد رضا، قرابة خمس سنوات.. وواصل تفسير القرآن الكريم من حيث انتهى الشيخ رشيد رضا ـ الذى سبق له البدء فى التفسير من حيث انتهى الأستاذ الإمام..

ولقد حدثنى شيخنا محمد الغزالى [١٣٣٥ ـ ١٤١٦هـ ١٩١٧ ـ ١٩٩٦م] ـ عليه رحمة الله ـ فقال: لقد سألت الأستاذ البنا:

ـ لماذا لم تبدأ تفسير القرآن من أوله؟.. فأجاب:

ـ وهل أهدر ما بناه الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد؟!.

وهكذا كان احتفاء الصحوة الإسلامية الحديثة بهذا الأثر المتفرد والمتميز من الآثار الفكرية للأستاذ الإمام ـ تفسيره للقرآن.

أما الأثران الفكريان الآخران، الممثلان لجناحى «عقائد الإسلام» و«حضارة الإسلام» ـ [رسالة التوحيد] و[الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية] ـ فلقد كانا فى مقدمة المواد الفكرية التى قرر الأستاذ البنا تدريسها «لأسر» [الإخوان] منذ مطلع تبلور هذا التنظيم.. فكان ذلك برهانًا على احتفاء هذه الصحوة الإسلامية ـ فى مرحلتها الجماهيرية ـ بالآثار الفكرية المتميزة للأستاذ الإمام، الذى مثل ـ مع أستاذه جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م] ـ مرحلة الريادة والتأسيس لهذه اليقظة ـ فى حقبة النخبة والصفوة ـ التى نقلها حسن البنا إلى ساحة الجماهير، بعد عموم بلوى الاستعمار.

وبقدر ماكان احتفاء الصحوة الإسلامية الحديثة عظيمًا وكبيرًا بالآثار الفكرية للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.. كان الموقف المعادى والمضاد، الذى اتخذه العلمانيون والمتغربون من هذه الآثار..

ففى ظل السيطرة العلمانية على الإعلام والثقافة، ظلت الأعمال الفكرية للأستاذ الإمام غائبة.. ومبعثرة.. ومشوهة إلى حد كبير.. ولقد حاول التيار العلمانى الخروج عن منهاج الأستاذ الإمام فى «الإصلاح بالإسلام».. حتى لقد رأينا الدكتور طه حسين [١٣٠٦ ـ ١٣٩٣هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م] ـ فى مرحلة انبهاره بالغرب ـ يزعم أن العقل الشرقى عقل يونانى، لم يغير القرآن ولا الإسلام من طابعه اليونانى، كما لم يغير الإنجيل والنصرانية من يونانية العقل الأوروبي!.. وبنص عبارته: «فإن العقل الشرقى هو كالعقل الأوروبى، مرده فى التكوين والمقومات، إلى عناصر ثلاثة:

١ ـ حضارة اليونان، وما فيها من أدب وفلسفة وفن.

٢ ـ وحضارة الرومان، وما فيها من سياسة وفقه.

٣ ـ والمسيحية، وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان.

ولم يكن القرآن أكثر من دعوة للخير وحث على الإحسان.. جاء متممًا ومصدقًا لما فى الإنجيل.. وإذا كان الإسلام قد تقبل الحضارة اليونانية، فلم لا يتقبل الحضارة الأوروبية»؟![1].

فأين هذا الانقلاب العلمانى ـ فى «مرجعية النهضة والإصلاح» ـ مما كان يقوله الأستاذ الإمام من «الإصلاح بالإسلام».. والذى قال فيه: «إن سبيل الدين لمريد الإصلاح فى المسلمين سبيل لا مندوحة عنها.. لأن نفوسهم قد أُشربت الانقياد إلى الدين حتى صار طبعًا فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرًا غير صالح للتربة التى أودعه فيها. وإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شىء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدًا.. وإذا كان الدين كافلًا بتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم فى غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء فى إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟!.

إن الإسلام: دين وشرع، قد وضع حدودًا، ورسم حقوقًا، ولا تكتمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود وتنفيذ الأحكام.. والإسلام لم يدع ما لقيصر لقيصر، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ما له، ويأخذ على يده فى عمله.. فكان الإسلام، بذلك: كمالًا للشخص، وألفة فى البيت، ونظامًا للملك، امتازت به الأمم التى دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه.. فكان دين الفطرة، والمدرسة الأولى التى يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية»[2].

(١) د. طه حسين [مستقبل الثقافة فى مصر] جـ ١ ص ٢٩، ٢١، ٢٢ طبعة القاهرة ١٩٣٨م. و[من الشاطئ الآخر: طه حسين فى جديده الذى لم ينشر سابقًا] ص ٦٠ جمع وترجمة: عبد الرشيد الصادق محمودى. طبعة بيروت ١٩٩٠م.

(٢) محمد عبده [الأعمال الكاملة] جـ ٣ ص ١٠٩، ٣٢١، ٢٢٥، ٢٢٦. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت ١٩٧٢م.

بل لقد تجاوز التيار العلمانى «الخروج» على هذه المرجعية ـ الإصلاح بالإسلام ـ إلى حيث شنوا عليها الهجوم.. فكتب الدكتور طه حسين طاعنًا فى محمد عبده ومنهاجه فقال: «لا شك أن الشيخ محمد عبده قد هز العالم الإسلامى بأسره، وأيقظ العقل الشرقى، وعلم الشرقيين أن يحبوا حرية الفكر. ولا ريب أيضًا أنه أتاح لكثير من المسلمين أن يتطلعوا بأمل راسخ إلى يوم يتحقق فيه التوفيق بين العلم والدين، بين التقاليد الشرقية والحضارة الغربية.. ولكن العالم الإسلامى قد أصابه التغير منذ ذلك العهد.. ولم يعد محمد عبده مواكبًا للعصر.. لقد صارت كل أفكاره بشأن الدين والعلم بالية.. ولقد صار المتمسكون بآرائه محافظين، بل ويدرجون أحيانًا بين المتخلفين»(١).

وهكذا انقلبت العلمانية على المشروع الإصلاحى للأستاذ الإمام.. مشروع «الإصلاح بالإسلام»!

ثم كانت ذروة الجناية التى ارتكبها العلمانيون ضد الآثار الفكرية للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، عندما أقدموا على التزوير والتزييف لكتابه المتميز [الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية]..

نعم.. لقد بدأ هذا التزوير لهذا الكتاب الفريد بالطبعة التى أصدرتها «دار الهلال» ـ فى ستينيات القرن العشرين ـ وهى الطبعة التى ظلت منتشرة.. ويعاد طبعها على امتداد عقود وعقود!.. رغم تنبيهنا على هذا التزوير والتزييف عندما جمعنا وحققنا ودرسنا ونشرنا [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] سنة ١٩٧٢م!..

لقد قام العلمانيون بتزوير عنوان الكتاب ـ الذى كتبه الأستاذ فى البداية مقالات ـ بمجلة [المنار] ـ ردًا على «فرح أنطون» [١٨٧٤ ـ ١٩٢٢م] فى دعواه أن النصرانية أكثر تسامحًا مع العلم والعلماء من الإسلام!.. وبعد أن نشرت هذه المقالات ـ فى [المنار] ـ جمعها الشيخ رشيد رضا، وطبعها فى كتاب، عنوانه: [الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية].. ولقد استأذن الشيخ رشيد الأستاذ الإمام فى اختيار هذا العنوان،

(١) د. طه حسين [من الشاطئ الآخر] ص ٣٦، ٣٧، ٦٢.

فوافق عليه.. وبنص عبارة الشيخ رشيد ـ فى تأريخه للأستاذ الإمام: [الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية]: وهو مقالات كتبها ـ [الأستاذ الإمام] ـ لمجلة المنار ـ ثم جردناها منها وطبعناها على حدتها، وسميناها بهذا بإذنه، فجاءت كتابًا مستقلًا، أعيد طبعه مرارًا..»[1].

ولقد أعيد طبع هذا الكتاب مرتين، بنفس العنوان، فى حياة الأستاذ الإمام، الأولى فى السنة الخامسة من تاريخ صدور [المنار]، والثانية سنة ١٣٢٣هـ سنة ١٩٠٥م ـ سنة وفاة الأستاذ الإمام ـ ثم تكررت طباعته بذات العنوان..

وإذا كان الأستاذ الإمام قد كتب هذا الكتاب ردًّا على قول فرح أنطون: «إن العلم والفسفة قد تمكنا إلى الآن من التغلب على الاضطهاد المسيحى، ولذلك نما غرسهما فى تربة أوروبا وأينع، وأثمر التمدن الحديث، ولكنهما لم يتمكنا من التغلب على الاضطهاد الإسلامى.. وفى هذا دليل واقعى على أن النصرانية كانت أكثر تسامحًا..»[2].

فإن التزوير العلمانى لعنوان الكتاب قد جعله: [الإسلام بين العلم والمدنية].. فحذف كلمة «النصرانية»، لتيجاوز تزوير «العنوان» إلى تزوير «رسالة الكتاب»!.

نعم.. لقد حدث ذلك بالفعل، عندما قام العلمانيون ـ بعد تزوير «العنوان» ـ بتزوير «المحتوى»، وذلك عندما حذفوا كل ما كتبه الأستاذ الإمام عن النصرانية، فى معرض مقارنته بين أصولها وبين أصول الإسلام، وتأثير ذلك على موقف الديانتين من العلم والمدنية!.. لقد حذفوا أكثر من ثلاثين صفحة[3] فيها هذه العناوين وما كتب تحتها:

«الجواب الإجمالى للأستاذ الإمام على دعوى فرح أنطون».

«جواب تفصيلى».. وفيه: «نفى القتال بين المسلمين لأجل الاعتقاد».

---

(١) رشيد رضا [تاريخ الأستاذ الإمام] جـ ص ٧٨٧. طبعة القاهرة ١٩٣١م.

(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] حـ٣ ص ٢٤٨.

(٣) المصدر السابق. حـ٣ ص ٢٤٧ ـ ٢٧٨.

و«تساهل المسلمين مع أهل العلم والنظر من كل ملة».

و«طائفة من الحكماء والعلماء الذين حظوا عند الخلفاء».

وهى مباحث أساسية فى موضوع الكتاب.. وحذفها هو حذف لتميز الحضارة الإسلامية فى الموقف من العلم والمدنية.. الذى جاء ثمرة لتميز موقف الإسلام فى هذا الميدان!..

وكما حذف العلمانيون ـ من الطبعة المزورة لكتاب [الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية] ـ مميزات الإسلام فى الموقف من العلم والمدنية.. وثمرات هذا التميز فى البناء الحضارى للإسلام والمسلمين.. ذهبوا بعيدًا على طريق التزوير ـ لهذا الكتاب المتميز فى الآثار الفكرية للشيخ محمد عبده ـ فحذفوا كل ما كتبه الأستاذ الإمام عن أصول النصرانية، ليخرجوا بهذا الكتاب عن صلب رسالته ـ المقارنة بين الإسلام والنصرانية فى الموقف من العلم والمدنية ـ !. وهو من أنفس وأعمق ما كتب فى هذا الميدان!..

نعم.. لقد حذفوا ما كتبه الأستاذ الإمام عن الأصول الستة للنصرانية، والتى قدم لها ببحث عن:

«طبيعة الدين المسيحى».

و«تمهيد» لهذه الأصول الستة.. ثم توالت عناوينها:

«الأصل الأول للنصرانية: الخوارق».

و«الأصل الثانى للنصرانية: سلطة الرؤساء».

و«الأصل الثالث للنصرانية: ترك الدنيا».

و«الأصل الرابع للنصرانية: الإيمان بغير المعقول».

و«الأصل الخامس للنصرانية: أن الكتب المقدسة حاوية لكل ما يحتاج إليه البشر فى المعاش والمعاد».

و«الأصل السادس للنصرانية: التفريق بين المسحيين وغيرهم حتى الأقربين».

ثم حذف العلمانيون المباحث التى استخلص فيها الأستاذ الإمام دلالات هذه الأصول على موقف النصرانية من العلم والمدنية.. وهى المباحث التى ذكرها تحت عناوين:

١ ـ «نتائج هذه الأصول وآثارها».

٢ ـ «مقاومة النصرانية للعلم».

٣ ـ «مراقبة المطبوعات ومحكمة التفتيش».

٤ ـ «اضطهاد المسيحية للمسلمين واليهود والعلماء عامة».

٥ ـ «مقاومة السلطة المدنية وحرية الاعتقاد».

٦ ـ «مقاومة الجمعيات العلمية والكتب».

٧ ـ «البروتستانت والإصلاح».

٨ ـ «الفصل بين السلطتين فى المسيحية».

٩ ـ «اعتقاد المسلمين فى المسيح والمسيحية»..

كل هذه المباحث قد حذفتها الطبعات المزورة التى أصدرها العلمانيون لكتاب الأستاذ الإمام [الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية].. وذلك توسلًا إلى إدراج الأستاذ الإمام فى عداد العلمانيين والتنويريين ـ بالمعنى الغربى والوضعى واللادينى ـ فارتكبوا بذلك «مذبحة فكرية» قل نظيرها فى ميدان تزوير الكتب ومسخ المؤلفات!..

وبعد هذا التزوير ـ بالحذف والبتر ـ للمباحث المعبرة عن رسالة الكتاب: المقارنة بين الإسلام والنصرانية فى الموقف من العلم والمدنية ـ اقترفت هذه الطبعات المزورة تزويرًا آخر بالحشو والإضافة.. فأدخت فى هذا الكتاب ما لا علاقة له به!.. فلقد حشروا فى هذه الطبعات المزورة مباحث لا علاقة لها بموضوع الكتاب..

وذلك مثل: بحث «الإنسان عالم صناعى» وهو من مقالات جمال الدين الأفغانى فى مجلة [العروة الوثقى]، نشر سنة ١٨٨٣م.. أى قبل تأليف كتاب الإسلام والنصرانية بعشرين عامًا، ولا علاقة له بموضوع الكتاب!.. وأبحاث: «المسألة الإسلامية بين هانوتو والإمام» وهى ست مقالات كتبها الإمام سنة ١٩٠٠م، ردًا على السياسى الفرنسى «هانوتو» [١٨٥٣ ـ ١٩٤٤م] وليس على فرح أنطون.. ونشرها فى صحيفة [المؤيد]، وليس فى [المنار]!.

هكذا بلغ الخلط والتخليط والتزوير العلمانى لكتاب [الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية].. وعلى رؤوس الأشهاد!

لقد أراد المزورون لكتاب محمد عبده عن [الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية] ـ بهذا التزوير ـ التعمية على ما كتبه الأستاذ الإمام عن «أصول الإسلام».. وما أنتجت هذه الأصول الإسلامية المتميزة من نموذج حضارى متميز، ومن علاقة متميزة بين الدين والدولة ـ أفاض الإمام فى الحديث عنها فى هذا الكتاب.

كما أرادوا التعمية على ما كتبه الأستاذ عن «أصول النصرانية»، وما صنعته هذه الأصول من اضطهاد للعلم والعلماء، ومن رجعية وتخلف وجمود دخلت بالحضارة الأوربية عصورها المظلمة، التى لم يخرجها منها سوى حضارة الإسلام.. الإسلام الذى صنع الإصلاح الدينى الأوربى، وفتح به باب أوربا إلى النهضة الحضارية الحديثة.

وإذا كان هذا الكتاب ـ [الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية] ـ قد جاء آية من آيات الفكر المقارن بين الإسلام والنصرانية.. والمقارن بين حضارة الإسلام والحضارة الأوروبية.. وكذلك بين تاريخنا الإسلامى وتاريخ أوروبا النصرانية.. فلقد كانت للأستاذ الإمام ـ فى آثاره الفكرية الأخرى ـ نظرات عبقرية ونافذة وموضوعية فى تقويم المعتقدات الدينية لغير المسلمين..

فهو القائل: «إن اليهود..قد اكتفوا بجعل الدين رابطة جنسية، ولم يجعلوه هداية روحية، لذلك كانوا يتصرفون فيه باختلاف المذاهب والآراء، ويحرفون كلمه عن

مواضعه بحسب الأهواء»[1].. أى أنهم فرغوا اليهودية الحقة من جوهرها ـ من الدين! ـ وذلك عندما حولوها إلى عصبية عنصرية، ومجرد «تراث تاريخى»!

أما النصرانية ـ برأى الأستاذ الإمام ـ فلقد تحولت ـ فى صورتها الرومانية ـ إلى وثنية، حاربت التوحيد الذى جاء به عيسى عليه السلام.. ثم فرض الرومان البيزنطيون هذه الصورة الوثنية على الكنائس الكبرى، بواسطة قرارات المجامع المسكونية التى فرضت هيمنتها على كنائس الشرق بالاضطهاد والترهيب والترغيب!..

وبعبارة الإمام محمد عبده: «فإن النصرانية قد انقلبت إلى الوثنية من عهد «قسطنطين» [٢٧٤ ـ ٣٣٧م]، بعد المسيح بثلاثة قرون. فقسطنطين كان ملكًا وثنيًّا، وادعى التدين بالنصرانية سياسة لأجل الاستعانة بمنتحليها على خصمه ـ [ليكتيوس].. ونجح فى ذلك... »[2].. ثم إن قصص العهدين العتيق والجديد، التى تسمى مجموعها [الكتاب المقدس] ليست وحيًا من الله.. وليس لها أسانيد متصلة متواترة. ولقد أثبت القرآن الكريم أن الله تعالى أعطى موسى عليه السلام التوراة، وهى الشريعة، وأن أتباعه حفظوا منها نصيبًا، ونسوا نصيبًا، وأنهم حرفوا النصيب الذين أُوتوه، وأنه أعطى عيسى عليه السلام الإنجيل، وهو مواعظ وبشارة، وقال فى أتباعه مثل ما قال فى اليهود: ﴿فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ﴾ ـ المائدة: [١٤ـ...][3].

ومع هذا النقد الذى وجهه الأستاذ الإمام لما أصاب اليهودية والنصرانية من تحولات وتحريفات أخرجتهما عن أصولهما.. فإن الرجل قد ظل وفيًا لعدل الإسلام مع أهل الكتاب فى شئون الدولة والسياسة والاجتماع والمعاملات والحقوق.. وذلك أن رفض عقائد دين من الأديان ـ وكل متدين بدين هو رافض لعقائد غيره من الأديان ـ لا يعنى الجور على أهل هذا الدين.. وتلك هى سنة الإسلام التى سنها رسول الله ﷺ.. والتى طبقها المسلمون ـ فى التعامل مع غير المسلمين ـ على امتداد تاريخ حضارة الإسلام.

---

(١) المصدر السابق. جـ ٤ ص ٢١٤.

(٢) المصدر السابق. جـ ٣ ص ٥٣٧.

(٣) المصدر السابق. جـ ٤ ص ٥٠٧، ٧٠٦.

لقد فضح الإسلام ـ منذ لقائه الأول باليهودية واليهود ـ الانحرافات العقدية والتحريفات التى أوقعها أحبار اليهود بتوراة موسى عليه السلام.. ولم يمنع هذا الموقف الواضح والصريح والحاسم رسول الإسلام ﷺ ودولته وأمته من فتح الأبواب الواسعة أمام اليهود للتعايش مع المسلمين فى دولة الإسلام ومجتمعه ـ أمة واحدة ورعية متحدة ـ فنص دستور دولة المدينة ـ الذى وضعه رسول الله ﷺ عام تأسيس الدولة [١ هـ ٦٢٢م] على أن «يهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. ومن تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ـ [الدستور] ـ غير مظلومين ولا مُتناصر عليهم.. ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.. على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم..»[(١)].

فكامل العدل والإنصاف فى الحقوق والواجبات لمن نرفض عقائدهم ـ كما يرفضون عقائدنا ـ وحساب العقائد لله ـ سبحانه وتعالى ـ وحده، يوم الدين..

وهذه السنة التى سنها الإسلام وطبقها مع اليهود، كانت هى التى طبقها رسول الله ﷺ مع النصارى، منذ اللقاء الأول الذى جاءه فيه وفد نصارى نجران سنة ١٠هـ ٦٣١م.. ففى هذا اللقاء حدثت المباهلة، أى استدعاء لعنة الله على الذين بدلوا شريعة عيسى، عليه السلام، ونقلوه من عبد الله ورسوله إلى حيث ألهوه وعبدوه من دون الله!..

لكن هذه المباهلة لم تحجب عدل الإسلام مع النصارى المخالفين فى الاعتقاد.. فلقد فتح رسول الله ﷺ لنصارى نجران هؤلاء ـ [كما يروى ابن القيم فى [زاد المعاد)] ـ أبواب مسجد النبوة فصلوا فيه صلاة عيد الفصح، مولين وجوههم إلى المشرق![(٢)]. ثم كتب لهم ـ ولكل من يتدين بالنصرانية ـ عهدًا لا تزال نصوصه متفردة،

---

(١) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١٧ ـ ٢١. جمع وتحقيق: د. محمد حيمد الله الحيدر آبادى. طبعة القاهرة ١٩٥٦م.

(٢) ابن القيم [زاد المعاد من هدى خير العباد] جـ٣ ص ٥٤٩، ٥٥٠. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط. طبعة مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

غير مسبوقة ولا ملحوقة، بين عهود حقوق الإسنان ومواثيقها.. ويكفى أن نقرأ فيه: «لنجران وحاشيتها، وسائر من ينتحل دين النصرانية فى أقطار الأرض جوار الله وذمة محمد رسول الله، على أموالهم وأنفسهم وملتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم.. أن أحمى جانبهم، وأذب عنهم وعن كنائسهم وبيوت صلواتهم ومواضع الرهبان ومواطن السياح.. وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا مما أحفظ به نفسى وخاصتى وأهل الإسلام من ملتى.. لأنى أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم.. حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم..»(١).

نعم.. تلك هى سنة الإسلام فى العدل مع الآخرين والمخالفين فى الاعتقاد الدينى:

ـ الرفض للانحرافات والتحريفات العقدية التى أصابت تلك الديانات.. وترك حسابها إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ يوم الدين.

ـ والعدل والقسط والبر مع المتدينين بهذه الديانات، فى الدولة والسياسة والاجتماع والمعاملات..

وعلى طريق هذه السنة سارت الدولة الإسلامية والأمة الإسلامية عبر التاريخ.. فحررت الفتوحات الإسلامية أوطان النصرانية الشرقية من القهر الدينى والحضارى الرومانى، وتركت هؤلاء النصارى أحرارًا فى التدين بالعقائد التى رفضها ويرفضها الإسلام!.. وعلى امتداد تاريخ الإسلام لم يحدث إكراه على الدخول فى الإسلام.. وإنما دخل الناس فى الإسلام بالأسوة والجدال بالتى هى أحسن، وذلك وفقًا للمنهاج الذى سنه القرآن الكريم.

وفى موقف الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده من النصارى فى مصر، نجد العدل الذى سنه الإسلام فى التعامل مع غير المسلمين: الرفض للانحرافات العقدية ـ

(١) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١١١ وما بعدها.

ونقد هذه الانحرافات.. مع الدعوة للعدل معهم فى السياسة والدولة والاجتماع والمعاملات..

ولقد نبه الأستاذ الإمام إلى حقيقة تاريخية مهمة ـ يجهلها أو يتجاهلها المثقفون العلمانيون ـ وهى وقوع قطاعات من النصارى فى شباك غواية الاستعمار الغربى لبلادنا منذ حقبة الحروب الصليبية [٤٨٩ ـ ٦٩٠هـ ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م].. فكتب يقول: «إن الحروب الصليبية، وبالأخص هجوم الصليبيين على مصر، هو الذى جعل القبط موضع الاضطهاد، بسبب أنهم أعلنوا هواهم فى جانب الصليبيين»[1]!.

ومع ذلك، دعا الأستاذ الإمام إلى عدم التعميم والإطلاق فى النظرة الإسلامية إلى هؤلاء الأقباط.. فالسنة الإسلامية، التى قررهاالعدل الإلهى، قد أعلنها القرآن الكريم فى آيات محكمات: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ ـ آل عمران: ١١٣ ـ ١١٥ ـ ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]..

ولذلك، كتب الأستاذ الإمام ـ فى ثمانينات القرن التاسع عشر ـ فى ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٠٥ هـ سنة ١٨٨٨ م ـ إبان الجدل الذى دار حول تصرفات بطرس غالى باشا [١٨٤٦ ـ ١٩١٠م] فى وزارة الحقانية ـ [العدل] ـ يقول: «إن التحامل على شخص بعينه لا ينبغى أن يتخذ ذريعة للطعن فى طائفة أو أمة أو ملة، فإن ذلك اعتداء على غير معتدٍ، ومحاربة لغير محارب، أو كما يقال: جهاد فى غير عدو، وهو ما ضرره أكثر من نفعه، إن كان له نفع.. فليس من اللائق بأصحاب الجرائد أن يعمدوا إلى إحدى الطوائف المتوطنة فى أرض واحدة فيشملوها بشىء من الطعن، أو ينسبوها إلى شائن من العمل، تعللًا بأن رجلًا أو رجالًا منها قد استهدفوا لذلك، فإنه مما يرسل العداوات إلى عمائق القلوب، ويدلى بالضغائن إلى بواطن الأفئدة، فإذا تنافرت

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ١ ص ٧٠٥.

الطوائف تشاغلت كل منها بما يحط شأن الأخرى، فكانت كل مساعيهم ضررًا على أوطانهم.. إن طائفة الأقباط فى مصر قد أظهرت بحسن سيرها مع المسلمين من مواطنيها ما أهلها لوجوب المحافظة على وصية النبى ﷺ فقد عهد إلى أصحابه إذا فتحوا مصر أن يستوصوا بقبطها خيرًا، وقد كان حسن حال الأقباط مظهرًا لصدق نبأه عليه الصلاة والسلام.

وأما ما لا تخلو منه طائفة من وجود أشخاص ضعاف العقول أو ميالين إلى الشر، فعلى الناقدين أن يقصروا نقدهم على حال أولئك الأشخاص، ويستعينوا ببقية الطائفة وغيرهم من مواطنيهم على دفع شرهم، أو تحويلهم عن القبيح من أعمالهم، ويجب أن يكون النقد خاصًّا بالعمل الذى ظهر فيه الخلل، لا يتعدى إلى أوصاف خاصة لا تفيد فى البحث.

نعم.. إن كانت الطائفة من قوم أجانب على البلاد، ومتغلبين عليها بقوة قاهرة أو حيلة غادرة، وكانت أعمال آحادها مبنية على أصول سنّها المتغلبون، فيكون عمل الواحد كأنه صادر عن الجملة، كما فى أعمال الإنجليز فى مصر، جاز للنقاد أن يأخذ الجماعة بإثم الواحد منهم، ويستصرخ أبناء الوطن جميعًا لكشفهم عن بلاده، واستخلاص الحق منهم لأربابه..»[(١)].

هكذا تألق إبداع الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ـ فى آثاره الفكرية المتميزة ـ عندما تحدث عن موقف الإسلام والمسلمين من أصحاب العقائد المخالفة للإسلام.

وهكذا اختلف موقف الصحوة الإسلامية من هذه الآثار الفكرية عن موقف العلمانية والتغريب..

وهكذا تجسد الموقف الإسلامى العادل والمتوازن من غير المسلمين:

* الرفض للانحرافات والتحريفات والانقلابات التى أخرجت عقائدهم عن أصولها النقية الأولى.. مع ترك الحساب على ذلك لله ـ سبحانه وتعالى ـ وحده..

(١) المصدر السابق. جـ ١ ص ٦٥٣، ٦٥٤.

* والعدل معهم فى شئون الدنيا: دولة.. وسياسة.. واجتماعًا... ومعاملات.

فرفض العقائد لا ينفى البر والقسط مع المخالفين فى الاعتقاد، طالما كان ولاؤهم الكامل وانتماؤهم التام للدولة والأمة والحضارة التى غدوا جزءًا منها..

وصدق الله العظيم: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٧ ـ ٩] ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]....[١].

(١) انظر ٥ بكتاب [الإسلام والنصرانية، مع العلم والمدنية] طبعة مكتبة النافذة. القاهرة سنة ٢٠٠٦م.

مقال فى السنن الإلهية

قبل أكثر من مائة عام، وقف الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م]. وهو يفسر القرآن الكريم ـ وقفات غير مسبوقة أمام الآيات القرآنية التى تتحدث عن سنن الله الحاكمة لعالم الكون المادى.. ولعالم الاجتماع الإنسانى.. وأفاض فى الحديث عن هذه السنن الحاكمة لحركة الكون.. وسير التاريخ.. وقيام الحضارات وسقوطها.. وأسباب التقدم والتخلف فى الأمم والمجتمعات.. وتداول الازدهار والانحطاط بين الناس..

ولقد تمنى الإمام محمد عبده ـ يومئذ ـ أن ينشئ المسلمون ـ انطلاقًا من القرآن الكريم ـ علمًا إسلاميًا هو «علم السنن» أو «علم الاجتماع الدينى» كما استخرجوا ـ من القرآن أيضًا ـ كل العلوم الشرعية فى حضارة الإسلام.

ولقد أشار الأستاذ الإمام ـ وهو يتحدث عن حاكمية هذه السنن الربانية فى الكون والاجتماع ـ إلى حقيقة فلسفية وعلمية وعقدية بالغة الأهمية، وهى أن حاكمية هذه السنن ـ التى لا تبديل لها ولا تحويل ـ لا تعنى الجبرية التى تجرد الإنسان من حريته واختياره، وتسخيره لقوانين هذه السنن.. وإنما تعنى: أن وعى الإنسان بقوانين هذه السنن وقواعد حركتها هو الذى يجعل الإنسان قادرًا عل تسخيرها فى الاتجاه الذى يريد.. ذلك أن كل ما فى هذا الكون ـ بما فى ذلك السنن والقوانين ـ هو مُسخَّر من الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ للإنسان الذى استخلفه الله لحمل أمانة عمارة هذه الأرض وفق الشرائع والقوانين التى وضعها الله..

فاكتشاف السنن، والوعى بقوانين حركتها، هو الذى يحقق سيطرة الإنسان عليها، ويجعله قادرًا على مغالبتها وتسخيرها فى أداء الأمانة التى استخلفه الله للنهوض بها.. بينما الغفلة، غفلة هذا الإنسان عن هذه السنن وغيبة وعيه عن قوانين حركتها هو الذى يجعله ضحية لهذه القوانين التى لا تبديل لها ولا تحويل حتى ولو حسنت نوايا هذا الإنسان، وعاش غارقًا فى بحار الأمنيات والأحلام والأدعية والتوسلات!.. وصدق الله العظيم: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣].

* * *

وغير التميز بالريادة فى الوعى بالأصول القرآنية لهذا العلم ـ علم السنن الإلهية.. والاجتماع الدينى تميّز الأستاذ الإمام بالإفاضة فى الحديث عن هذه السنن الإلهية وهو يفسر الآيات القرآنية التى أشارت إليها.. حتى لنستطيع أن «نؤلف» من وقفاته فى هذا المقام «مقالًا فى السنن الإلهية» لا نجد له نظيرًا عند غيره من العباقرة الذين تصدوا لتفسير القرآن الكريم.. وكيف لا.. وقد وصف الإمام محمد البشير الإبراهيمى [١٣٠٦ ـ ١٣٨٥هـ ـ ١٨٨٩ ـ ١٩٦٥م] تفسير محمد عبده للقرآن بأنه «المنهاج المعجزة».. والتفسير لمعجزات القرآن.. المنبئ بظهور إمام المفسرين بلا منازع.. الذى كان أبلغ من تكلم فى التفسير بيانًا لهدى القرآن، وفهمًا لأسراره، وتوفيقًا بين آيات الله فى القرآن وبين آياته فى الأكوان.. فكان ـ هذا التفسير ـ فيضًا من إلهام الله أجراه على قلب ذلك الإمام وعلى لسانه، بما لم تنطو عليه حنايا عالم ولا صحائف كتاب.. لقد جلا بدروسه فى تفسير كتاب الله عن حقائقه التى حام حولها من سبقه ولم يقع عليها.. فكان آية على أن القرآن لا يُفَسَّر إلا بلسانين: لسان العرب ولسان الزمان»[1].

* * *

(١) [آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمى] جـ١ ص ٣٢٧، ٣٤٣ جـ٢ ص ٢٥٢. جمع وتقديم: د. أحمد طالب الإبراهيمى. طبعة بيروت ـ دار الغرب الإسلامى ١٩٩٧م.

نعم.. نستطيع أن «نؤلف» مقالًا مختارًا فى علم السنن الإلهية، من الصفحات العديدة التى أفردها الأستاذ الإمام لهذا المبحث، الذى تفرد به من بين العباقرة الذين تميزوا فى تفسير القرآن الكريم..

لقد قال الأستاذ الإمام ـ وهو يفسر قول الله ـ سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]: «إن إرشاد الله إيانًا إلى أن له فى خلقه سننًا، يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علمًا من العلوم المدونة، لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة فى مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله فى خلقه، كما فعلوا فى غير هذا العلم من العلوم والفنون التى أرشد إليها القرآن بالإجمال، وبينها العلماء بالتفصيل، عملًا بإرشاده، كالتوحيد، والأصول، والفقه.

والعلم بسنن الله ـ تعالى ـ من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليه فى مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم إذ أمرنا أن نسير فى الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها.

ولا يُحتج علينا بعدم تدوين الصحابة لها، فإن الصحابة لم يدونوا غير هذا العلم من العلوم الشرعية التى وضعت لها الأصول والقواعد، وفرعت منها الفروع والمسائل. وإننى لا أشك فى كون الصحابة كانوا مهتدين بهذه السنن وعالمين بمراد الله من وراء ذكرها. يعنى أنهم بما لهم من معرفة أحوال القبائل العربية والشعوب القريبة منهم، ومن التجارب والأخبار فى الحرب وغيرها، وبما منحوا من الذكاء والحذق وقوة الاستنباط كانوا يفهمون المراد من سنن الله ـ تعالى، ويهتدون بها فى حروبهم وفتوحاتهم وسياستهم للأمم التى استولوا عليها. وما كانوا عليه من العلم بالتجربة والعمل أنفع من العلم النظرى المحض. وكذلك كانت علومهم كلها.

ولما اختلفت حالة العصر اختلافًا احتاجت معه الأمة إلى تدوين علم الأحكام وعلم العقائد وغيرهما، كانت محتاجة أيضًا إلى تدوين هذا العلم، ولك أن تسميه

علم السنن الإلهية، أو علم الاجتماع، أو علم السياسة الدينية. سمّ بما شئت، فلا حرج فى التسمية.

ومعنى الجملة ـ [الآية]: انظروا إلى من تقدمكم من الصالحين والمكذبين، فإذا أنتم سلكتم سبيل الله فعاقبتكم كعاقبتهم، وإن سلكتم سبيل المكذبين فعاقبتكم كعاقبتهم. وفى هذا تذكير لمن خالف أمر النبى ﷺ ـ فى أُحد. ففى الآية مجارى أمن ومجارى خوف. فهو على بشارته لهم فيها بالنصر وهلاك عدوهم، ينذرهم عاقبة الميل عن سننه، ويبين لهم أنهم إذا ساروا فى طريق الضالين من قبلهم فإنهم ينتهون إلى مثل ما انتهوا إليه، فالآية خبر وتشريع، وفى طيها وعد ووعيد. ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]: أى أن المصارعة بين الحق والباطل قد وقعت من الأمم الماضية، وكان أهل الحق يغلبون أهل الباطل ويُنصرون عليهم بالصبر والتقوى، وكان ذلك يجرى بأسباب مطردة، وعلى طرائق مستقيمة، يُعلم منها أن صاحب الحق إذا حافظ عليه يُنصر ويرث الأرض، وأن من ينحرف عنه ويعيث فى الأرض فسادًا يُخذل وتكون عاقبته الدمار. فسيروا فى الأرض واستقرئوا ما حل بالأمم ليحصل لكم العلم الصحيح التفصيلى بذلك، وهو الذى يحصل به اليقين ويترتب عليه العمل.

والسير فى الأرض، والبحث عن أحوال الماضين، وتعرف ما حل بهم هو الذى يوصل إلى معرفة تلك السنن والاعتبار بها كما ينبغى.

نعم، إن النظر فى التاريخ الذى يشرح ما عرفه الذين ساروا فى الأرض ورأوا آثار الذين خلوا، يعطى الإنسان من المعرفة ما يهديه إلى تلك السنن، ويفيده عظة واعتبارًا، ولكن دون اعتبار الذى يسير فى الأرض بنفسه، ويرى الآثار بعينه، ولذلك أمر بالسير والنظر.

ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

كأنه يقول: إن كل إنسان له عقل يعتبر به فهو يفهم أن السير فى الأرض يدله على تلك السنن، ولكن المؤمن المتقى أجدر بفهمها؛ لأن كتابه أرشده إليها، وأجدر كذلك بالاهتداء والاتعاظ بها..

إن لسير الناس فى الحياة سننًا يؤدى بعضها إلى الخير والسعادة وبعضها إلى الهلاك والشقاء، وإن من يتبع تلك السنن فلا بد أن ينتهى إلى غايتها، سواء أكان مؤمنًا أو كافرًا، كما قال سيدنا على: «إن هؤلاء قد انتصروا باجتماعهم على باطلهم، وخُذلتم بتفرقكم عن حقكم..».

* ومن هذه السنن: أن اجتماع الناس وتواصلهم وتعاونهم على طلب مصلحة من مصالحهم يكون، مع الثبات، من أسباب نجاحهم ووصولهم إلى مقصدهم، سواء كان ما اجتمعوا عليه حقًّا أم باطلًا، وإنما يصلون إلى مقصدهم بشىء من الحق والخير، ويكون ما عندهم من الباطل قد ثبت باستناده إلى ما معهم من الحق، وهو فضيلة الاجتماع والتعاون والثبات. فالفضائل لها عماد من الحق، فإذا قام رجل بدعوى باطلة، ولكن رأى جمهور من الناس أنه محق يدعو إلى شىء نافع، وأنه يجب نصره، فاجتمعوا عليه ونصروه، وثبتوا على ذلك، فإنهم ينجحون معه بهذه الصفات. ولكن الغالب أن الباطل لا يدوم، بل لا يستمر زمنًا طويلًا؛ لأنه ليس له فى الواقع مايؤيده، بل له ما يقاومه، فيكون صاحبه دائمًا متزلزلًا، فإذا جاء الحق ووجد أنصارًا يجرون على سنة الاجتماع فى التعاون والتناصر ويؤيدون الداعى إليه بالثبات والتعاون، فإنه لا يلبث أن يدفع الباطل، وتكون العاقبة لأهله، فإن شابت حقهم شائبة من الباطل أو انحرفوا عن سنن الله فى تأييده، فإن العاقبة تنذرهم بسوء المصير.

فالقرآن يهدينا فى مسائل الحرب والتنازع مع غيرنا إلى أن نعرف أنفسنا وكنه استعدادنا لنكون على بصيرة من حقنا ومن السير على سنن الله فى طلبه وفى حفظه، وأن نعرف كذلك حال خصمنا، ونضع الميزان بيننا وبينه، وإلا كنا غير مهتدين ولا متعظين.

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

كأنه يقول: انظروا فى سنن من قبلكم تجدوا أنه ما اجتمع قوم على حق، وأحكموا أمرهم وأخذوا أهبتهم وأعدوا لكل أمر عدته، ولم يظلموا أنفسهم فى العمل لنصرته، إلا وظفروا بما طلبوا، وعوضوا مما خسروا، فحولوا وجوهكم عن جهة ما خسرتم، وولوها جهة ما يستقبلكم وانهضوا به بالعزيمة والحزم، ومع التوكل على الله ـ عز وجل..

والحزن إنما يكون على فقد ما لا عوض منه، وإن لكم خير عوض مما فقدتم، وأنتم الأعلون برجحانكم عليهم فى مجموع الوقعتين ـ بدر وأُحد ـ إذ الذين قتلوا منهم أكثر من الذين قتلوا منكم، على كثرتهم وقلتكم..

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]: هذه قاعدة كقاعدة ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، أى هذه سنة من تلك السنن، وهى ظاهرة بين الناس، بصرف النظر عن المحقين والمبطلين.

والمداولة فى الواقع تكون مبنية على أعمال الناس، فلا تكون الدولة لفريق دون آخر جزافًا، وإنما تكون لمن عرف أسبابها ورعاها حق رعايتها. أى إذا علمتم أن ذلك سنة فعليكم ألا تهنوا ولا تضعفوا بما أصابكم؛ لأنكم تعلمون أن الدولة تدول.

والعبارة تؤمى إلى شىء مطوى كان معلومًا لهم، وهو أن لكلٍّ دولة، فكأنه قال: إذا كانت المداولة منوطة بالأعمال التى تفضى إليها، فعليكم أن تقوموا بهذه الأعمال وتحكموها أتم إحكام..

وإن العلم إذا لم يصدقه العمل لا يعتد به.. وإن المسلم ما خلق ليلهو ويلعب، ولا ليكسل ويتواكل، ولا لينال الظفر والسيادة بخوارق العادات، وتبديل سنن الله فى المخلوقات، بل خُلق ليكون أكثر الناس جدًّا فى العمل، وأشدهم محافظة على النواميس والسنن[1].....

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٥ ص ٩٩ ـ ١٠٥. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ ١٩٧٢م.

❋ السنن الكونية.. والاجتماعية

«لقد كشف الإسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير «العالم»، والكون الصغير «الإنسان»، فقرر أن آيات الله الكبرى فى صنع العالم إنما يجرى أمرها على السنن الإلهية التى قدرها الله فى علمه الأزلى، لا يغيرها شىء من الطوارئ الجزئية، غير أنه لا يجوز أن يُغفل شأن الله فيها، بل ينبغى أن يحيى ذكره عند رؤيتها، فقد جاء على لسان النبى ﷺ «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يُخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله». وفيه تصريح بأن جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد، لا يقضى فيه إلا العناية الأزلية على السنن التى أقامته عليها.

ثم أماط اللثام عن حال الإنسان فى النعم التى يتمتع بها الأشخاص أو الأمم، والمصائب التى يرزؤن بها، ففصل بين الأمرين فصلًا لا مجال معه للخلط بينهما، فأما النعم التى يمتع الله بها بعض الأشخاص فى هذه الحياة، والرزايا التى يُرزأ بها فى نفسه فكثير منها ـ كالثروة والجاه والقوة والبنين أو الفقر والضعة والضعف والفقد ـ قد لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص فى سيرته من استقامة وعوج، أو طاعة وعصيان، وكثيرًا ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة، أو الفجرة الفسقة، وترك لهم متاع الحياة الدنيا، وكثيرًا ما امتحن الله الصالحين من عباده، وأثنى عليهم فى الاستسلام لحكمه، وهم الذين إذا أصابتهم مصيبة عبروا عن إخلاصهم فى التسليم بقولهم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] فلا غضبُ زيد ولا رضى عمرو، ولا إخلاص سريرة ولا فساد عمل مما يكون له دخل فى هذه الرزايا ولا تلك النعم الخاصة، اللهم إلا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبَّب بالسبب على جارى العادة، كارتباط الفقر بالإسراف، والذل بالجبن، وضياع السلطان بالظلم، وكارتباط الثروة بحسن التدبير فى الأغلب، والمكانة عند الناس بالسعى فى مصالحهم على الأكثر، وما يشبه ذلك مما هو مبين فى علم آخر.

أما شأن الأمم فليس على ذلك. فإن الروح الذى أودعه الله جميع شرائعه الإلهية، من تصحيح الفكر، وتسديد النظر، وتأديب الأهواء، وتحديد مطامع الشهوات،

والدخول إلى كل أمر من بابه، وطلب كل رغيبة من أسبابها، وحفظ الأمانة، واستشعار الأخوة، والتعاون على البر، والتناصح فى الخير والشر، وغير ذلك من أصول الفضائل، ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ومشرق سعادتها فى هذه الدنيا قبل الآخرة ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٤٥]. ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦] أمرناهم بالحق ففسقوا عنه إلى الباطل.. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]. وما أجل ما قاله العباس ابن عبد المطلب فى استسقائه: «الهم إنه لم ينزل بلاد إلا بذنب، ولم يُرفع إلا بتوبة».

على هذه السنن جرى سلف الأمة، فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية، ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة، كان غيره يظن أنه يزلزل الأرض بدعائه، ويشق الفلك ببكائه، وهو ولع بأهوائه، ماض فى غلوائه، وما كان يغنى عنه ظنه من الحق شيئًا..[1]

*** سنن الله فى الغنى والفقر بين الأفراد والأمم**

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢].

إن الرزق بغير حساب ولا سعى فى الدنيا إنما يصح بالنسبة إلى الأفراد، فإنك ترى كثيرًا من الأبرار وكثيرًا من الفجار أغنياء موسرين متمتعين بسعة الرزق، وكثيرًا من الفريقين فقراء معسرين، والمتقى يكون دائمًا أحسن حالًا وأكثر احتمالًا ومحلًا لعناية الله تعالى به فلا يؤلمه الفقر كما يؤلم الفاجر، فهو يجد بالتقوى مخرجًا من كل ضيق ويجد من عناية الله رزقًا غير محتسب.

وأما الأمم فأمرها على غير هذا، فإن الأمة التى ترونها فقيرة ذليلة معدومة مهينة لا يمكن أن تكون متقية لأسباب نقم الله وسخطه بالجرى على سنته الحكيمة وشريعته

(١) المصدر السابق. ج٣ ص ٤٥٤، ٤٥٣.

العادلة، ولم يكن من سنة الله ـ تعالى ـ أن يرزق الأمة العزة والثروة والقوة والسلطة من حيث لا تحتسب ولا تقدر، ولا تعمل ولاتدبر، بل يعطيها بعملها ويسلبها بزللها..

*** سنن التدافع بين الحق والباطل**

وهذا شأن الباطل، لا يثبت أمام الحق، فإن أحكام الباطل مؤقتة لا ثبات لها فى ذاتها، وإنما بقاؤنا فى نوم الحق عنها، وحكم الحق هو الثابت بذاته، فلا يُغلب أنصاره ما داموا معتصمين به، مجتمعين عليه..(١).

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٦]... إن الله ـ تعالى ـ لم يكفل للمسلمين الحفظ والنصر والسيادة لأنهم مسلمون، وإنما يكلفهم الجرى على سننه تعالى كغيرهم، فلا بد لهم من الاستعداد للمدافعة دائمًا، وذلك يقتضى بذل المال والنفس.. وإن الرسول ـ ﷺ ـ لا ينفع أمة قد خالفت السنن والطبائع. فلا تغتروا بوجودكم معه، مع المخالفة لله وله، فهو لا يحميكم مما تقتضيه سنن الله فيكم(٢)..

*** سنن الله فى إحياء الأمم وإماتتها**

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٣، ٢٤٤].

... والكلام فى القوم، لا فى أفراد لهم خصوصية؛ لأن المراد بيان سنته ـ تعالى ـ فى الأمم التى تجبن فلا تدفع العادين عليها. ومعنى حياة الأمم وموتها فى عرف الناس جميعهم معروف. فمعنى موت أولئك القوم هو أن العدو نكَّل بهم فأفنى قوتهم، وأزال استقلال أمتهم، حتى صارت لا تعد أمة، بأن تفرق شملها، وذهبت جامعتها، فكل من بقى من أفرادها خاضعون للغالبين ضائعون فيهم، مدغمون فى

(١) المصدر السابق. جـ٤ ص ٤٢١، ٥٤٢.
(٢) المصدر السابق. جـ ٥ ص ١٣٠، ١٤٧.

غمارهم، لا وجود لهم فى أنفسهم، وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم، ومعنى حياتهم هو عود الاستقلال إليهم.

وذلك أن من رحمة الله ـ تعالى ـ فى البلاء يصيب الناس أنه يكون تأديبًا لهم، ومطهرًا لنفوسهم مما عرض لها من دنس الأخلاق الذميمة. أشعر الله أولئك القوم بسوء عاقبة الجبن والخوف والفشل والتخاذل بما أذاقهم من مرارتها فجمعوا كلمتهم، ووثقوا رابطتهم، حتى عادت لهم وحدتهم قوية فاعتزوا وكثروا إلى أن خرجوا من ذل العبودية التى كانوا فيها إلى عز الاستقلال، فهذا معنى حياة الأمم وموتها. يموت قوم منهم باحتمال الظلم، ويذل آخرون حتى كأنهم أموات، إذ لا تصدر عنهم أعمال الأمم الحية، من حفظ سياج الوحدة، وحماية البيضة، بتكافل أفراد الأمة ومنعتهم، فيعتبر الباقون فينهضون إلى تدارك ما فات، والاستعداد لما هو آت، ويتعلمون من فعل عدوهم بهم كيف يدفعونه عنهم. قال عليّ كرم الله وجهه: «إن بقية السيف هى الباقية».. أى التى يحيا بها أولئك الميتون. فالموت والإحياء واقعان على القوم فى مجموعهم... والحكمة فى هذا الخطاب تقرير معنى وحدة الأمة وتكافلها، وتأثير سيرة بعضها فى بعض حتى كأنها شخص واحد، وكل جماعة منها كعضو منه..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٤٣]. كافة بما جعل فى موتهم من الحياة، إذ جعل المصائب والعظائم محيية للهمم والعزائم، كما جعل الهلع والجبن وغيرهما من الأخلاق التى أفسدها الترف والسرف من أسباب ضعف الأمم، وجعل ضعف أمة مغريًا لأمة قوية بالوثبان عليها، والاعتداء على استقلالها، وجعل الاعتداء منبهًا للقوى الكامنة فى المعتدى عليه، وملجئًا له إلى استعمال مواهب الله فيما وهبت لأجله، حتى تحيا الأمم حياة عزيزة، ويظهر فضل الله ـ تعالى ـ فيها.

والمراد بالفضل هنا الفضل العام، وهو أنه ـ تعالى ـ جعل إماتة الناس بما يسلط على الأمة من الأعداء ينكلون بها بمثابة هدم البناء القديم المتداعى، والضرورة قاضية ببناء، فلا جرم تنبعث الهمة إلى هذا البناء الجديد فيكون حياة جديدة للأمة.

تفسد الأخلاق بالأمم فتسوء الأعمال، فيسلط الله على فاسدى الأخلاق النكبات ليتأدب الباقى منهم، فيجتهدوا فى إزالة الفساد وإدالة الصلاح، ويكون ما هلك من

الأمة بمثابة العضو الفاسد المصاب «بالغنغرينا» يبتره الطبيب ليسلم الجسد كله، ومن لا يقبل هذا التأديب الإلهى فإن عدل الله فى الأرض يمحقه منها ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠]...

فهذه سنة من سنن الاجتماع، بينّها القرآن، وكان الناس فى غفلة عنها، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣] أى لا يقومون بحقوق النعمة، ولا يستفيدون من بيان هذه السنة، أى هذا شأن أكثر الناس فى غفلتهم وجهلهم بحكمة ربهم، فلا تكونوا كذلك أيها المؤمنون، بل اعتبروا بما نزل عليكم وتأدبوا به لتستفيدوا من كل حوادث الكون، حتى مما ينزل بكم من البلاء إذا وقع منكم تفريط فى بعض الشئون، واعلموا أن الجبن عن مدافعة الأعداء، وتسليم الديار بالهزيمة والفرار، هو الموت المحفوف بالخزى والعار، وأن الحياة العزيزة الطيبة هى الحياة الملّية المحفوظة من عدوان المعتدين، فلا تقصروا فى حماية جامعتكم فى الملة والدين[1]..

*** من سنن الاجتماع البشرى: الإملاء للكافرين**

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٧].

... وقد يعرض لبعض الأفكار وهْمٌ فى هذا المقام ويجول فيها صورة ما يتمتعون به من اللذات والقوة وإمكان نيلهم من المومنين إذا أذنبوا ـ كما نالوا منهم يوم أُحد بذنبهم وتقصيرهم ـ فيقول الواهم: آمنا وصدقنا أن هؤلاء سيعذبون فى الآخرة ولا يكون لهم نصيب من نعيمها، ولكن أليسوا الآن متمتعين بالدنيا؟ أليس لهم فيها من القوة ما يمكنهم من الاعتداء علينا؟؟

وقد كشف هذا الوهم قوله ـ تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨] ـ فبيّن لنا سنة حكيمة

(١) المصدر السابق. جـ٤ ص ٦٩٦، ٦٩٥، ٦٩٢.

من سننه فى الاجتماع البشرى، وهى أن الإنسان يبلغ الخير بعمله الحسن، ويقع فى الضير بتقصيره فى العمل الصالح وتشميره فى عمل السيئات، والعبرة بالخواتيم، فكأنه قال: إن هذا الإملاء للكافرين ليس عناية من الله بهم، وإنما هو جرى على سنته فى الخلق، وهى أن يكون ما يصيب الإنسان من خير وشر هو ثمرة عمله.

ومن مقتضى هذه السنة العادلة أن يكون الإملاء للكافر علة لغروره، وسببًا لاسترساله فى فجوره، فيوقعه ذلك فى الإثم الذى يترتب عليه العذاب المهين[1]..

*** سنة التبديل والتغيير**

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١].

... والآية عبرة للمخاطبين بالقرآن من المؤمنين به، لا حكاية تاريخية عن بنى إسرائيل. ولكن، هل يعتبر بها المنتسبون إلى القرآن؟! وهل يفهمون منها أن ملكهم الذى يتقلص ظله عن رءوسهم عامًا بعد عام، وعزهم الذى تتخطفه منهم حوادث الأيام ما بدلهما الله ـ تعالى ـ إلا بعد ما بدلوا نعمته عليهم فى قوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

كلا! إنهم لم يفهموا هذا ولو تغنوا وترنموا بهذه الآيات فى كل مأتم وكل موسم، وإن رؤساءهم لا يمقتون أحدًا مقتهم لمن يذكّرهم به، وإن أكثر عامتهم تبع لهؤلاء الرؤساء كما كان بنو إسرائيل على عهد نزول القرآن، وإنا لنعلم أن السكاتين منهم عن جميع ما مُنى به المسلمون من البدع والخرافات والفسوق والعصيان يتفقون مع المدافعين عن الفاسقين والمبتدعين على إيذاء الواعظين الناصحين، باسم المدافعة عن الدين..[2]..

---

(١) المصدر السابق. جـ٥ ص ١٣٨.

(٢) المصدر السابق. جـ٤ ص ٥٣٨.

*** السنن الجارية.. والسنن الخارقة**

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٨، ٣٩].

... إن زكريا لما رأى ما رآه من نعمة الله على مريم فى كمال إيمانها وحسن حالها، ولا سيما اختراق شعاع بصيرتها لحجب الأسباب، ورؤيتها أن المسخِّر لها يرزق من يشاء بغير حساب، أُخذ عن نفسه، وغاب من حسّه، وانصرف عن العالم وما فيه، واستغرق قلبه فى ملاحظة فضل الله ورحمته، فنطق بهذا الدعاء فى حال غيبته. وإنما يكون الدعاء جديرًا بأن يُستجاب إذا جرى به اللسان بتلقين القلب فى حال استغراقه فى الشعور بكمال الرب. ولما عاد من سفره فى عالم الوحدة إلى عالم الأسباب ومقام التفرقة، وقد أذن بسماع ندائه، واستجابة دعائه، سأل ربه عن كيفية تلك الاستجابة، وهى على غير السنة الكونية، فأجابه بما أجابه، وذلك قوله عز وجل: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [آل عمران: ٣٩](١)..

... إن فلق البحر كان من معجزات موسى، وقد قلنا فى [رسالة التوحيد] إن الخوارق الجائزة عقلًا، أى التى ليس فيها اجتماع النقيضين ولا ارتفاعهما، لا مانع من وقوعها بقدرة الله ـ تعالى ـ على نبى من الأنبياء، ويجب أن نؤمن بها على ظاهرها.

ولا يمنعنا هذا الإيمان من الاهتداء بسنن الله ـ تعالى ـ فى الخلق، واعتقاد أنها لا تتبدل ولا تتحول، كما قال الله ـ تعالى ـ فى كتابه الذى ختم به الوحى على لسان نبيه الذى ختم به النبيين، فانتهى بذلك زمن المعجزات، ودخل الإنسان بدين الإسلام فى سن الرشد، فلم تعد مدهشات الخوارق هى الجاذبة له إلى الإيمان وتقويم ما يعرض للفطرة من الميل عن الاعتدال فى الفكر والأخلاق والأعمال كما كان فى سن الطفولة النوعية، بل أرشده ـ تعالى ـ بالوحى الأخير ـ القرآن ـ إلى استعمال عقله

---

(١) المصدر السابق. جـ٥ ص ٣١.

وتحصيل الإيمان بالله وبالوحى، ثم جعل له كل إرشادات الوحى مبينة معللة مدللة حتى فى مقام الأدب ـ كما أوضحنا ذلك فى [رسالة التوحيد].

فإيماننا بما أيد الله ـ تعالى ـ به الأنبياء من الآيات لجذب قلوب أقوامهم الذين لم ترتق عقولهم إلى البرهان، لا ينافى كون ديننا هو دين العقل والفطرة، وكونه حتّم علينا الإيمان بما يشهد له العيان، من أن سننه ـ تعالى ـ فى الخلق لا تبديل لها ولا تحويل.

وزعم الذين لا يحبون المعجزات من المتهورين أن عبور بنى إسرائيل البحر كان إبّان الجزر، فإن فى البحر الأحمر زقاقًا إذا كان الجزر الذى عهد هناك شديدًا تيسر للإنسان أن يعبر ماشيًا، ولما اتبعهم فرعون بجنوده ورآهم قد عبروا البحر تأثرهم، وكان المد تفيض ثوائبه ـ وهى المياه التى تجرى عقيب الجزر ـ فلما نجا بنو إسرائيل كان المد قد غطى وعلا حتى أغرق المصريين.

تحقق إنعام الله على بنى إسرائيل يتم بهذا التوفيق لهم والخذلان لعدوهم، ولا ينافى الامتنان به عليهم كونه ليس آية لموسى عليه السلام، فإن نعم الله بغير طريق المعجزات أعم وأكثر.

كذا قالوا ـ [المتهورون.. المنكرون للمعجزات].

ولكن، يدل على كونه آية له ـ [لموسى] وصف كل فرق بأنه كالطود العظيم. وإذا تيسر تأويل كل آيات القصة من القرآن فإنه يتعسر تأويل قوله تعالى ـ فى سورة الشعراء ـ ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣].

وهو الموافق لما فى التوراة..(١)

* * *

(١) المصدر السابق. جـ٤ ص ١٨٣، ١٨٤.

﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴾ [النساء: ١٢٣].

وإذا طبقنا المسألة على سنة الله التى لا تبديل لها ولا تحويل، علمنا أن مصائب الدنيا تكون جزاء على ما يقصر فيه الناس من السير على سنن الفطرة وطلب الأشياء من أسبابها، واتقاء المضرات باجتناب عللها ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ [الشورى: ٣٠][1].

.. إن القول بنفى الرابطة بين الأسباب والمسببات جدير بأهل دين ورد فى كتابه ـ [الإنجيل]: إن الإيمان وحده كاف فى أن يكون للمؤمن أن يقول للجبل: تحوّل عن مكانك، فيتحول الجبل!.. يليق بأهل دين تُعد الصلاة وحدها، إذا أخلص المصلى فيها، كافية فى إقداره على تغيير سير الكواكب وقلب نظام العالم العنصري!..

وليس هذا الدين هو الإسلام.

دين الإسلام هو الذى جاء فى كتابة: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ ﴾ [التوبة: ١٠٥] ـ ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ [الأحزاب: ٦٢] وأمثالها.

وليس من الممكن لمسلم أن يذهب إلى ارتفاع ما بين حوادث الكون من الترتيب فى السببية المسببية إلا إذا كفر بدينه قبل أن يكفر بعقله!..»[2].

* * *

هكذا تحدث الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده عن علم السنن الإلهية ـ علم الاجتماع الإسلامى.. والسياسة الدينية.. فكان أول داعية لتأسيس هذا العلم، الذى ما زال ينتظر الاجتهادات والإبداعات، التى تحقق أمنية الأستاذ الإمام، التى تمناها قبل أكثر من من قرن من الزمان! ولما كان هذا الكتاب الذى نقدم بين يديه ـ [مفهوم

---

(١) المصدر السابق. جـ٥ ص ٢٧٨.

(٢) المصدر السابق. جـ٣ ص ٥٠٢.

السنن الربانية] للدكتور رمضان خميس زكى هو ـ فى حدود ما نعلم ـ من أوفى الدراسات التى عرضت لهذا المبحث.. ومن أدق هذه الدراسات.. حتى إنه لينبئ بميلاد كاتب واعد، وباحث يشق طريقه بجدارة ملحوظة ومتميزة فى حياتنا الفكرية والعلمية.. فلقد آثرنا أن يكون التقديم لهذا الكتاب ـ عن [مفهوم السنن الربانية] ـ ذلك المقال الذى اخترنا فقراته، وألفنا بينها، من إبداعات الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.. المؤسس الحقيقى لهذا العلم الإسلامى فى تراثنا الحديث..

الأقليات غير المسلمة فى العالم الإسلامى

الموقف الإسلامى من الأقليات

لقد مثل الإسلام منذ ظهوره (ثورة إصلاحية.. وإصلاحًا ثورًا) على المفاهيم السائدة التى حكمت علاقات الشعوب والأجناس والأديان فى ذلك التاريخ..

ـ فالرومان كانوا يحتكرون (السيادة.. والشرف) للجنس الروماني! ويرون فى كل الآخرين والأغيار «برابرة» لا يستحقون حتى أن يطبق عليهم القانون الرومانى.. ولا حق لهم فى التدين بغير دين السادة الرومان.. وثنيًا كان هذا الدين أو نصرانيًّا ملكانيًا.. ولقد صبوا جام اضطهادهم فى حقبة الوثنية على اليهود وعلى النصارى، وفى حقبة تنصرهم الملكانى على النصرانية الشرقية اليعقوبية ـ فى مصر والشام.

ـ واليهودية التلمودية قد تحولت إلى (إثنية ـ عنصرية) بل و(وثنية) جعلت الله سبحانه وتعالى إله بنى إسرائيل وحدهم، وللشعوب الأخرى آلهتها، وذلك بدلًا من الإيمان بأنه سبحانه وتعالى هو إله العالمين.. ولقد صبوا جام اضطهادهم على المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وعلى حوارييه والذين آمنوا به واتبعوه..

ـ والنصرانية: هى الأخرى ـ بادلت الآخرين إنكارًا بإنكار، واضطهادًا باضطهاد.. فمبجرد أن أفاقت ـ مصر مثلًا ـ من الاضطهاد الوثنى الرومانى، وفور تدين الدولة الرومانية بالنصرانية، على عهد الإمبراطور «قسطنطين» [٢٧٤: ٣٣٧م] صبت هذه النصرانية جام اضطهادها على الوثنية المصرية فدمرت معابدها، وأحرقت مكتباتها وسحلت وقتلت ومزقت وأحرقت فلاسفتها.. وسجل التاريخ كيف قاد بطريرك

الكنيسة المصرية (تيوفيلوس) [٣٨٥ ـ ٤١٢م] (حملة اضطهاد عنيفة ضد الوثنيين واتجه للقضاء على مدرسة الإسكندرية، وتدمير مكتبتها وإشعال النار فيها..

وطالت هذه الإبادة مكتبات المعابد.. وتم السحل والتمزيق والحرق لفيلسوفة الأفلاطونية الحديثة وعالمة الفلك والرياضيات (إناتيه) [٣٧٠ـ٤١٥م] وذلك فضلًا عن تحطيم التماثيل.. والعبث بآثار..)[١].

وكل الشرائع الدينية التى توالت على امتداد علاقة السماء بالأرض هى تنوع فى إطار الدين الإلهى الواحد ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[٢]. ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[٣].

والإيمان الإسلامى شامل للإيمان بأصول الدين الإلهى الواحد وبكل الرسل والأنبياء ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[٤]. فجميع هؤلاء الرسل والأنبياء إنما يمثلون تنوع الشرائع الإلهية فى إطار الدين الإلهى الواحد. (الأنبياء إخوة من علات، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد)[٥].

والقرآن الكريم مصدق لما بين يديه من الكتب والصحف والألواح التى نزل بها وحى السماء على سائر الرسل والأنبياء: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[٦]

(١) يوحنا النقيوس [تاريخ مصر ليوحنا النقيوس] ص ١٢٢، ١٢٥ ـ ١٣٠]. ترجمة ودراسة وتعليق د. عمر صابر عبد الجليل. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م، صبرى أبو الخير سليم «تاريخ مصر فى العصر البيزنطى» ص ٤٠، ٤١، ٤٩، ١٢٦، ١٦٧، ١٦٨ طبعة القاهرة ٢٠٠٠م.

(٢) الشورى: ١٣.

(٣) المائدة: ٤٨.

(٤) البقرة: ٢٨٥.

(٥) رواه البخارى ومسلم وأبو داود.

(٦) الأنعام: ٩٢.

ورغم التحريف الذى أصاب بعض هذه الكتب السابقة والنسيان الذى أصاب بعضها.. ذهب القرآن فى الدقة والإنصاف ـ إلى تقرير:

أن هذا التحريف والنسيان لم يكونا عامين.. ففى هذه الكتب ـ وخصوصًا التوراة والإنجيل ـ هدى ونور. ومطلوب من أهلها تحكيمها والحكم بما صح فيها ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾(1). ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾(2).

وحتى فى الشرائع المتمايزة بتمايز الأمم والرسالات والحقب التاريخية. لم يعمم الإسلام النسخ على جميع هذه الشرائع السابقة، وإنما قرر (أن شريعة من قبلنا شريعة لنا ما لم تنسخ) بتطور الواقع الذى تجاوزها.

وكما لم يعمم الإسلام أحكام التحريف على كل الكتب، ولا أحكام النسخ على جميع أحكام تلك الشرائع. لم يعمم الأحكام على سائر أهل هذه الكتب والشرائع وإنما ميز بين الصادقين فى تدينهم بها وبين غير الصادقين. فهم. ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾(3).

ولم يقف ذلك عند أحكام الدنيا ومعاملاتها، بل قرر الإسلام ـ فى أمر النجاة فى يوم الدين ـ إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا. و﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾(4). وأن الذين آمنوا بالتوحيد فى الألوهية والربوبية، وبالغيب واليوم الآخر والحساب والجزاء، وعملوا صالحًا وفق أية شريعة من الشرائع الإلهية السابقة لن توصد أمامهم أبواب النجاة فى الآخرة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(5).

---

(1) المائدة: ٤٣.

(2) المائدة: ٤٧.

(3) آل عمران: ١١٣.

(4) الزلزلة: ٧ـ٨.

(5) البقرة: ٦٢.

نعم.. جاء الإسلام فأحدث هذه (الثورة الإصلاحية.. والإصلاح الثورى) فى العلاقة بالآخرين، وبلغ فى العمق والسمو الحد الذى سلك فيه (الآخر) فى جامع (الذات) وذلك عندما سلكت أمم الشرائع الأخرى فى (ذات الدين الإلهى الواحد).

ولأن الإسلام دين ودولة. وشريعة ومجتمع.. ودنيا وآخرة، وفرد وأسرة وجماعة وأمة. وأغلب فرائضه وتكاليفه الاجتماعية لا تتحقق إلا فى إطار وطن ودولة ونظام واجتماع، وحتى تكاليفه الفردية يزداد ثوابها وتتعاظم تأثيراتها الاجتماعية عندما تؤدى فى جماعة.. فرهبانيته جهاد اجتماعى، وليست عزلة تدير الظهر للدنيا فى شعب من الشعاب أو مغارة من المغارات، ولأن للإسلام هذا التميز الذى تفردت به شريعته بين شرائع السماء، فإن مبادئ «الإصلاح الثورى» التى جاء بها فى العلاقة (بالآخر) لم تقف عند حدود [الوصايا ـ والفلسفات ـ والفكر النظرى] وإنما وضعها فى مواد فى دستور دولته الأولى ـ دولة النبوة والخلافة الراشدة ـ وصياغات دستورية فى المواثيق والمعاهدات والعهود التى عقدتها الدولة الإسلامية مع «الآخرين» الذين قامت بينهم وبين دولة الإسلام علاقات ومصالح وارتباطات ثم تجسد كل ذلك فى الواقع والحضارة والتاريخ.

ففى دستور دولة المدينة [الصحيفة ـ الكتاب] الذى وضعه رسول الله ﷺ عند قيام هذه الدولة عقب الهجرة، لينظم الحقوق والواجبات بين مكونات الأمة فى الوطن نص هذا الدستور على أن القطاعات العربية المتهودة من قبائل المدينة، ومن لحق بهم وعاهدوه، قد أصبحوا جزءًا أصيلًا فى الأمة والرعية المتحدة لهذه الدولة الإسلامية. فنص هذا الدستور على أن: اليهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وأن بطانة يهود ومواليهم كأنفسهم. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على

من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر المحض من أهل هذه الصحيفة، دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه[1].

وهكذا تجسد التحام (الآخر اليهودى) فى الأمة الواحدة والرعية المتحدة للدولة، فى ظل المرجعية الإسلامية، ومن خلال شريعتها التى نص عليها هذا الدستور عندما قال: (.. وإنه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله)[2].

كذلك تجسد هذا الالتحام «بالآخر» وتحققت هذه المساواة وإياه فى العلاقة التى أدخلت النصارى ـ نصارى نجران ـ وكل المتدينين بالنصرانية فى صلب الأمة الواحدة، وفى رعية الدولة المتحدة، فنص ميثاق العهد الذى كتبه رسول الله ﷺ لنصارى نجران على مجموعة من المبادئ الدستورية التى وضعت مبادئ وفلسفات علاقة الإسلام بالآخر فى الممارسة والتطبيق. فجاء فى هذا الميثاق: [.. ولنجران وحاشيتها، ولأهل ملتها، ولجميع من ينتحل دعوة النصرانية جوار الله وذمة محمد رسول الله على أموالهم وأنفسهم، وملتهم، وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتهم وتبعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير.. أن أحمى جانبهم، وأذب عنهم وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان، ومواطن السياح، حيث كانوا من بر أو بحر شرقًا وغربًا، وبما أحفظ به نفسى وخاصتى وأهل الإسلام ملتى].

ولم يقف هذا لميثاق فقط، عند ضمان حرية الاختلاف فى المعتقد الدينى، وحرية إقامة هذا المعتقد المخالف للإسلام.. وإنما نص على احترام «الوجود المؤسسى» لهذا التنوع والاختلاف.. [فلا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته].

(١) د. محمد حميد الله الحيدر آبادى جمع وتحقيق ـ [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١٧ ـ ١٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

(٢) المصدر السابق: ٢٠.

ولأن «الجزية» هى «بدل جندية» لا تؤخذ إلا من القادرين ماليًا، الذى يستطيعون حمل السلاح وأداء ضريبة القتال دفاعًا عن الوطن، وليست «بدلًا من الإيمان بالإسلام»، وإلا لفرضت على الرهبان ورجال الدين.. وبدليل أن الذين اختاروا أداء ضريبة الجندية فى صفوف المسلمين ضد الفرس والروم، وهم على دياناتهم غير الإسلامية فى «الشام والعراق.. ومصر» لم تفرض عليهم الجزية، وإنما اقتسموا مع المسلمين الغنائم على قدم المساواة. لأن هذا هو موقع «الجزية» فى علاقة الدولة الإسلامية بالآخرين، جاء فى ميثاق نصارى «نجران»: «ولا يُحشرون ـ [أى لا يكلفون التعبئة العامة للقتال] ولا يُكلف أحد من أهل الذمة منهم الخروج مع المسلمين إلى عدوهم، لملاقاة الحروب ومكاشفة الأقران؛ فإنه ليس على أهل الذمة مباشرة القتال، وإنما أعطوا الذمة على أن لا يُكلفوا ذلك وأن يكون المسلمون ذُبابًا عنهم وجوارًا دونهم، ولا يكرهوا على تجهيز أحد من المسلمين إلى الحرب التى يلقون فيها عدوهم بقوة سلاح أو خيل، إلا أن يتبرعوا من تلقاء أنفسهم، فيكون من فعل ذلك منهم وتبرع به حُمد عليه، وعُرف له وكوفئ به».

كما نص هذا الميثاق على أن العدل فى القضاء والمساواة فى تحمل الأعباء المالية إنما هو فريضة إلهية شاملة لكل الأمة. على اختلاف معتقداتهم الدينية [فلا خراج ولا جزية إلا على من يكون فى يده ميراث الأرض ممن يجب عليه فيه للسلطان حق، فيؤدى ذلك على ما يؤديه مثله، لا يجار عليه، ولا يُحمل منه إلا قدر طاقته وقوته على عمل الأرض وعمارتها وإقبال ثمرتها. ولا يكلف شططا ولا يتجاوز به حد أصحاب الخراج من نظرائه.. ولا يدخل من بنائهم فى شىء من أبنية المساجد ولا منازل المسلمين.. ومن سأل منهم حقًّا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين].

أما الحرية الدينية، والحق فى المغايرة للإسلام، فلقد قدستها هذا الإسلام عندما نفى وجود الدين والتدين مع وجود الإكرام: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾(1) ولذلك نص هذا الميثاق على أنه [لا يجبر أحد ممن كان على ملة النصرانية على الإسلام ﴿ولا

(1) البقرة: ٢٥٦.

تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن﴾ فيخفض لهم جناح الرحمة، ويُكف عنهم أذى المكروه حيث كانوا وأين كانوا من البلاد].

وإمعانًا من الإسلام فى توفير عوامل التلاحم للأمة الواحدة، التى جعل الإسلام وحدتها فريضة نص عليها القرآن الكريم ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[1]. فلقد حققت التطبيقات الإسلامية فى الواقع الاجتماعى عددًا من الإنجازات التى سلكت الجميع فى الأمة الواحدة. فالموالى الذين كانوا أرقاء ثم حررهم الإسلام، دمجهم النظام الإسلامى فى قبائلهم التى كانوا أرقاء فيها، ولحمهم فيها بلحمة «الولاء» الذى جعله كالنسب سواء، بسواء يكسب هؤلاء الموالى شرف هذه القبائل وحسبها ونسبها. ونصت سنة رسول الله ﷺ على أن «مولى القوم منهم»[2] وعلى أن «الولاء لحمة كلحمة النسب» ـ رواه الدارمى وأبو داود ـ حتى لقد أصبح بلال الحبشى «سيدا» يقول عنه عمر بن الخطاب، وعن أبى بكر ـ الذى اشتراه وأعتقه: [سيدنا أعتق سيدنا]. وحتى لقد تمنى عمر أن يكون أحد الموالى «سالم مولى أبى حذيفة» توفى [١٢هـ، ٦٣٣م] حيًّا ليجعله خليفة على المسلمين!

والقبائل والعشائر، التى اندمج فيها الموالى، قد تحولت إلى لبنات فى بناء الأمة الواحدة.

كذلك سلكت التطبيقات الإسلامية باب المصاهرة والزواج بين المسلمين وبين الكتابيات المحصنات لتحقيق أعلى درجات التلاحم بين غير المسلمين وبين المسلمين فى بناء الأمة الواحدة.. فزواج المسلم من الكتابية يدخل ذويها من غير المسلمين فى دائرة «أولى الأرحام» عند المسلمين، وتلك قمة التلاحم والاندماج.. وعنها يقول الإمام محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م]: أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية، نصرانية أو يهودية، وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها، والقيام بفروض عبادتها، والذهاب إلى كنيستها أو بيعتها، وهى منه بمنزلة البعض من الكل، وألزم له من الظل، وصاحبته فى

(١) الأنبياء: ٩٢.

(٢) رواه البخارى.

العز والذل، والترحال والحل، بهجة قلبه، وريحانة نفسه، وأميرة بيته، وأم بناته وبنيه، تتصرف فيهم كما تتصرف فيه، ولم يفرق الدين فى الحقوق الزوجية بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية، ولم تخرج الزوجة الكتابية باختلافها فى العقيدة مع زوجها، من حكم قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1]. فلها حظها من المودة ونصيبها من الرحمة وهى كما هى، وهو يسكن إليها كما تسكن إليه، وهو لباس لها كما أنها لباس له، أين أنت من صلة المصاهرة التى تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة، وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة على ما عهد فى طبيعة البشر؟ وما أجلى ما يظهر من ذلك بين الأولاد وأخوالهم وذوى القربى لوالدتهم، يغيب عنك ما يستحكم من روابط الألفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح الذى لم يعهد عنه فيمن سبق ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقين عليه؟][2].

لذلك وحتى يكون هذا الزواج سبيلًا لهذا التلاحم، حرص عهد رسول الله ﷺ مع نصارى «نجران» على أن يتوفر لهذا الزواج عنصر الرضا والقبول، فالمرأة لا بد فى زواجها من «ولى» وأولياء الكتابية كتابيون، فلابد أن يكون هذا الزواج عن محبة ورضا وقبول واختيار.. وعن هذا المبدأ الإسلامى جاء فى هذا الميثاق: [ولا يُحملوا من النكاح «الزواج» شططًا لا يريدونه، ولا يكره أهل البنت على تزويج المسلمين، ولا يضاروا فى ذلك إن منعوا خاطبًا وأوبوا تزويجًا لأن ذلك لا يكون إلا بطيبة قلوبهم، ومسامحة أهوائهم، إن أحبوا ورضوا به].

ولأن هذا التلاحم، بواسطة المصاهرة، لا يتحقق إلا فى ظل الاعتراف الإسلامى «بالآخر الدينى» وبحق هذا الآخر فى المغايرة الدينية، وهو ما تميز به الإسلام عن كل الآخرين، وبسببه جاز زواج المسلم من «الأخرى» لأنه يعترف بدينها ومكلف باحترام عقيدتها وتدينها، على عكس موقف الآخرين من الإسلام، ومن عقيدة المسلمة؛ لهذا

---

(١) الروم: ٢١.

(٢) محمد عبده «الأعمال الكاملة» ج٣ ص ٣١٢ ـ دراسة وتحقيق د. محمد عمارة، طبعة القاهرة ١٩٩٣م.

التميز الإسلامى كان زواج المسلم من الكتابية بابًا للتلاحم ولإدخال غير المسلمين فى دائرة «أولى الأرحام»، ولم يكن هذا الزواج سببًا من أسباب الشقاق الاجتماعى فنص العهد مع نصارى «نجران» على أنه [إذا صارت النصرانية عند المسلم «زوجة» فعليه أن يرضى بنصرانيتها، ولا يمنعها ذلك، فمن خالف ذلك وأكرهها على شىء من أمر دينها فقد خالف عهد الله وعصى ميثاق رسول الله، وهو عند الله من الكاذبين].

وإذا كانت تطبيقات الدولة الإسلامية لهذه المبادئ الإسلامية، قد بلغت وحققت قبل أربعة عشر قرنًا الحد الذى يدهش له الكثيرون فى عصرنا الحاضر، من مثل تحرير جيش الفتح الإسلامى لمصر كنائس نصارى مصر من الاحتلال والاغتصاب الرومانى، لا ليحولها إلى مساجد للمسلمين، وإنما ليردها للنصارى اليعاقبة يتعبدون فيها.. فإن عهد رسول الله ﷺ مع نصارى (نجران) قد بلغ الذروة فى تعامل الدولة الإسلامية مع دور العبادة هذه إلى الحد الذى نص فيه على مساعدة الدولة الإسلامية لغير المسلمين فى بناء دور عباداتهم هو جزء من واجبات هذه الدولة.. فليست الواجبات فقط هى السماح ببناء دور العبادة، وإنما هى أيضًا الإعانة على بنائها، ولأن غير المسلمين هم جزء أصيل فى الأمة الواحدة، والرعية المتحدة لهذه الدولة، فإن واجباتها حيال دور عبادتهم هى ذاتها الواجبات حيال مساجد المسلمين، فجاء فى هذا الميثاق مع نصارى «نجران» [.. ولهم إن احتاجوا فى مرمة بيَعهم وصوامعهم أو شىء من مصالح أمور دينهم إلى رفد ـ (مساعدة) وتقوية لهم على مرمتها، أن يرفدوا على ذلك ويعاونوا، ولا يكون ذلك دينًا عليهم بل تقوية لهم على مصلحة دينهم ووفاء بعهد رسول الله).

ثم يتوج هذا المياثق بنود هذه الحقوق بالنص على كامل المساواة بين المختلفين فى الدين والمتحدين فى الأمة الواحدة، والملتحمين فى الرعية المتحدة للدولة الإسلامية بقول رسول الله ﷺ: [لأنى أعطيتهم عهد الله أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم.. حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم].

ولأن وحدة الأمة لا تتحقق إلا بولاء كل أبنائها لها وانتمائهم جميعًا لدولتها ولمقومات هويتها وأمنها الوطنى والقومى والحضارى، اشترط هذا العهد على نصارى «نجران» أن يكون الولاء خالصًا والانتماء كاملًا لهذه الأمة الواحدة ولهذه الدولة الإسلامية. فالولاء كل الولاء لها وحدها، والبراء ـ كل البراء ـ من جميع أعدائها.. ولذلك، جاء فى هذا الميثاق: «واشترط عليهم أمورًا يجب عليهم فى دينهم التمسك بها والوفاء بما عاهدهم عليه، منها ألا يكون أحد منهم عينًا ولا رقيبًا لأحد من أهل الحرب على أحد من المسلمين فى سره وعلانيته، ولايأوى منازلهم عدو للمسلمين، يريدون به أخذ الفرصة وانتهاز الوثبة، ولا ينزلوا أوطانهم ولا ضياعهم ولا فى شىء من مساكن عباداتهم ولا غيرهم من أهل الملة ولا يرفدوا ـ (يساعدوا) ـ أحدًا من أهل الحرب على المسلمين بتقوية لهم بسلاح ولا خيل ولا رجال ولا غيرهم، ولا يصانعوهم.. وإن احتيج إلى إخفاء أحد من المسلمين عندهم، وعند منازلهم، ومواطن عباداتهم، أن يؤووهم ويرفدوهم ويواسوهم فيما يعيشون به ما كانوا مجتمعين، وأن يكتموا عليهم ولا يظهروا العدو على عوراتهم، ولا يخلوا شيئًا من الواجب عليهم».

ويزيد من سمو هذا الإنجاز الإسلامى تعميم التطبيقات الإسلامية لهذا المنهاج وهذه المبادئ على الديانات الوضعية أيضًا فلم يقف المسلمون بهذه الثورة الإصلاحية فى العلاقة بالآخر عند اليهود ـ أهل التوراة، أو النصارى ـ أهل الإنجيل ـ فقط، وإنما عمموها لتشمل «المجوس» و«الهندوس» و«البوذيين»، وعندما فتح المسلمون فارس وأهلها مجوس يعبدون النار، ويقولون بإلهين أحدهما للخير والنور وثانيهما للشر والظلمة ـ عرض أمير المؤمنين عمر بن الخطاب [٤٠ هـ ـ ٢٣ هـ/ ٥٨٤ ـ ٦٤٤م] رضى الله عنه هذا الأمر الواقع المستجد على مجلس الشورى فى مسجد المدينة، وقال: «كيف أصنع بالمجوس»؟

فوثب عبد الرحمن بن عوف [٤٤ق هـ/ ٣٢ هـ، ٥٨٠ ـ ٦٥٢م] رضى الله عنه فقال: أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال: [سنوا فيهم سنة أهل الكتاب][١] فطبقت الخلافة الراشدة هذه السنة النبوية وساد هذا التطبيق على امتداد تاريخ الإسلام فى بلاد

(١) البلاذرى [فتوح البلدان] ص ٣٢٧. تحقيق: د. صلاح الدين المنجد. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

الديانات الوضعية من فارس إلى الهند إلى الصين، حتى لقد تمتع أهل هذه الديانات لا بحرية الاعتقاد فقط، وإنما أيضًا بحرية مناظرة علماء الإسلام فى مجالس الخلفاء، إبان مجد وقوة وعظمة الخلافة الإسلامية، ولقد أورد (السير توماس أرنولد) [١٨٦٤ ـ ١٩٣٠م] ـ بإعجاب ـ كيف أن زعيم المانوية «المجوس» فى فارس «يزدانبخت» قد أتى بغداد، وناظر المتكلمين المسلمين فى حضرة الخليفة «المأمون» [١٧٠ ـ ٢١٨هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٣٣م] فلما أفحمه علماء الإسلام تاق «المأمون» إلى أن يسلم «يزدانبخت» ففاتحه فى ذلك، لكنه رفض فى أدب وقال للخليفة: «نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة، وقولك مقبول، ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذهبهم» فتركه المأمون وشأنه.. بل وطلب حمايته من العامة حتى يبلغ مأمنه بين أتباعه وأنصار مذهبه من المجوس، هكذا بلغ الإسلام القمة عندما لم يكتف بالوصايا والمنظومة الفكرية والفلسفية، التى تعترف بالآخر الذى لا يعترف بالإسلام، وإنما تجاوز «الفكر» إلى الممارسة والتطبيق فى الدولة.. والأمة والاجتماع، وعندما تجاوز «الاعتراف بالآخر» إلى حيث دمج هذا «الآخر» فى «الذات» مع الحرص على التعددية الدينية التى سلكها فى إطار «وحدة الدين» الإلهى الواحد.. لا باعتبارها مجرد حق من حقوق الضمير الإنسانى، وإنما باعتبارها سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل.. فحقق الإسلام بهذا (الإصلاح الثورى) مستوى غير مسبوق فى التاريخ الإنسانى، إما على المستوى الفكرى أو فى الممارسة والتطبيق.

وإذ كانت سنة من سنن الله، فى الاجتماع الإنسانى، أن يكون هناك ـ دائمًا وأبدًا ـ فارق بين «الواقع» وبين «المثال» وأن يظل «المثال» ـ دائمًا وأبدًا ـ عصيا على كمال التحقق فى «الواقع» المعيش.. فإن ممارسات الدولة الإسلامية والمجتمعات الإسلامية لم تكن دائمًا على مستوى هذا «المثال» الإسلامى فى العلاقة مع «الآخر» الدينى.. كما أن «الآخر» الدينى لم يكن ـ دائمًا وأبدًا ـ على مستوى هذا «المثال» الذى نصت عليه العهود والمواثيق، أو لنقل: لم يكن كل المسلمين ولا كل الحكام على مستوى هذا «المثال». ولم يكن كل غير المسلمين على مستوى هذا «المثال»، لكن، ومع ذلك ظلت هناك ثوابت حكمت علاقة المسلمين بغير المسلمين فى الدولة الإسلامية، والمجتمعات الإسلامية عبر تاريخ الإسلام.

فلم يعرف هذا التاريخ الإسلامى إكراهًا فى الدين، فلقد دخل الشرق ـ بالفتوحات الإسلامية ـ فى الدولة الإسلامية خلال سنوات قياسية فى تاريخ الفتوحات، إذ فتح المسلمون فى ثمانين عامًا أوسع مما فتح الرومان فى ثمانية قرون. ولقد كانت هذه الفتوحات الإسلامية تحريرًا للشرق ـ الإنسان والأرض ـ من القهر الدينى والحضارى الذى مارسه الرومان والفرس ضد شعوب الشرق على امتداد عشرة قرون ـ من الإسكندر الأكبر [٣٥٦ ـ ٣٢٤ق.م] فى القرن الرابع قبل الميلاد إلى الفتوحات الإسلامية، فى القرن السابع للميلاد ـ فترك الناس وما يدينون دونما إكراه، بل وفى أحيان كثيرة دونما ترغيب، عندما كان بعض الولاة أحرص على الجزية منهم على إسلام غير المسلمين، حتى إن أقليات اليوم الدينية ـ وخصوصًا النصرانية ـ قد ظلت أغلبيات غير مسلمة فى الدولة الإسلامية لعدة قرون..

وإذا أخذنا مصر نموذجًا ـ وهى التى ضربت المثل الأروع فى الاستمساك بنصرانيتها على امتداد ستة قرون من الاضطهادات الرومانية التى ضُربت بها الأمثال ـ فإننا نجد أن تحول أغلبية أهلها إلى الإسلام قد استغرق عقودًا طويلة.. فلقد كان تعداد سكانها، من النصارى واليهود، عند الفتح الإسلامى لها [سنة ٢٠هـ/ ٦٤١م] ٢,٥٠٠,٠٠٠ نسمة.. وحتى نهاية خلافة «معاوية بن أبى سفيان» [٢٠ق هـ ـ ٦٠ هـ/ ٦٠٣ ـ ٦٨٠م] أى بعد نحو نصف قرن من الفتح الإسلامى كان قرابة نصف المصريين لا يزالون على نصرانيتهم.. فكان تعداد غير المسلمين فى نهاية عهد معاوية ١,٠٤٠,٠٠٠ نسمة، وفى نهاية عهد هارون الرشيد [١٤٩ ـ ١٩٣هـ/ ٧٦٦ـ ٨٠٩م] أى بعد مرور قرنين من الزمان على تاريخ الفتح كان تعداد غير المسلمين بمصر ٦٥٠,٠٠٠ نسمة أى نحو ربع السكان البالغ عددهم يومئذ ٢,٦٧١,٠٠٠ وحتى القرن التاسع الميلادى أى بعد قرنين ونصف من الفتح الإسلامى لمصر ـ اكانت نسبة غير المسلمين فى سكانها ٢٠٪ من هؤلاء السكان[١].

(١) فيليب فارج، يوسف كرباج [المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى] ص ٤٦، ٤٧ ـ ٢٥ ترجمة: بشير السباعى. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م ولقد كان انتشار الإسلام خارج مصر أبطأ. ولو أخذنا مصر وسوريا وفارس معًا، فسنجد أن انتشار الإسلام فيها بعد قرن من الفتح لم يتجاوز ١٠٪ من السكان.

الأمر الذى يقدم الحقائق المادية ـ بالأرقام ـ لهذه الخلاصة التى كتبها المستشرق الإنجليزى الحجة، والشديد التدين بالنصرانية ـ «سير توماس أرنولد». والتى قال فيها: [إنه من الحق أن نقول: إن غير المسلمين قد نعموا ـ بوجه الإجمال ـ فى ظل الحكم الإسلامى بدرجة من التسامح لا نجد لها معادلة فى أوروبا قبل الأزمنة الحديثة، وإن دوام الطوائف المسيحية فى وسط إسلامى يدل على أن الاضطهادات التى قاست منها بين الحين والآخر على أيدى المتزمتين والمتعصبين كانت من صنع الظروف المحلية، أكثر مما كانت عاقبة مبادئ التعصب وعدم التسامح[١].

فلم يكن هناك إكراه على التحول إلى الإسلام. بل لم تكن للإسلام عبر تاريخه «مؤسسة تبشيرية» تنظم وتتابع نشر هذا الدين.

وأكثر من ذلك فلقد كتب علماء وباحثون من النصارى الغربيين عن تحولات الأغلبيات النصرانية الشرقية إلى الإسلام، فأرجعوا هذه التحولات إلى اختلافات الكنائس النصرانية حول طبيعة المسيح ـ عليه السلام، تلك الاختلافات التى حولت العقيدة النصرانية إلى أسرار وألغاز جعلتها مستعصية على فهم الجمهور، فلما أشرقت شمس التوحيد الإسلامى على هذا النحو البسيط والفطرى، تحولت أغلبيات نصارى الشرق إلى هذا التوحيد عن رغبة، وللإشباع الروحى، ولخلو الإسلام من سلطة الكهنوت التى تحتكر مفاتيح التوبة والخلاص. تحولت هذه الأغلبيات لذلك نحو الإسلام دونما إكراه، بل ولا حتى ترغيب، وكتب عن هذه الحقيقة علماء نصارى ـ منهم «كيتانى Ceatanin» ـ [١٨٦٩ ـ ١٩٢٦م] الذى يقول: [إن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كانت نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التى جلبتها الروح الهلينية إلى اللاهوت المسيحى. أما الشرق الذى عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة، فلقد كانت الثقافة الهيلينية وبالًا عليه من الوجهة الدينية. لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة مليئة بالشكوك والشبهات، فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس، بل زعزعة أصول العقيدة الدينية ذاتها. فلما أهلت آخر الأمر أنباء الوحى الجديد فجأة

(١) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٧٢٩، ٧٣٠.

من الصحراء لم تعد تلك المسيحية الشرقية التى اختلطت بالغش والزيف، وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية وتزعزعت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب، لم تعد المسيحية بعد ذلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذى بَدَّد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة، وقدم مزايا جليلة، إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التى لا تقبل الجدل. وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى فى أحضان نبى العرب].

لقد أقبل الناس على الإسلام، الذى رأوه ـ كما يقول «مونتيه» [١٨٥٦ ـ ١٩٢٧م] [عقلانى الجوهر] بأوسع معانى هذه الكلمة] وأقبلوا عليه [دون أى محاولة للإرغام أو الاضطهاد] كما يقول «أرنولد»[(١)].

والثابت الثالث من ثوابت علاقة الإسلام بغير المسلمين فى الدولة الإسلامية والمجتمعات الإسلامية، هو استمرار غير المسلمين قابضين على عصب دواوين وإدارات الدولة الإسلامية، قبل تعريب لغة تلك الدواوين وبعد تعريبها [٨٧هـ/ ٧٠٥م] وهذه الحقيقة جعلت المستشرق الألمانى الحجة «آدم متز» [١٨٦٩ ـ ١٩١٧م] يكتب فيقول: «لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام»[(٢)].

ومن يراجع كتاب «الإشارة إلى من نال الوزارة» لابن الصيرفى يرى حجم السيطرة غير المسلمة على مناصب الوزارة والإدارة عبر تلك القرون..[(٣)].

أما التوترات الطائفية التى شهدتها المجتمعات الإسلامية، والتى ألحقت قدرًا من الضيق والتميز والأذى بالأقليات غير الإسلامية. فقد كانت عارضة.. وعابرة وكانت أغلب أسبابها وافدة على الموقف الإسلامى الثابت والأصيل، ومفروضة على المنهاج الطبيعى للتطبيقات الإسلامية لهذا المنهاج.. وبعبارة «سير توماس

(١) المرجع السابق، ص ٨٩، ٩٠، ٩٨، ٩٩، ٤٥٥.

(٢) آدم متز [الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى] ج١ ص ١٠٥، ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة. طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م.

(٣) أبو القاسم بن منجب ـ الشهير بابن الصيرفى [الإشارة إلى من نال الوزارة] تحقيق: عبد الله مخلص. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٤م.

أرنولد» فلقد كان مرد هذه الاضطهادات إلى «ظروف محلية» أكثر مما كانت ثمرة لمبادئ التعصب وعدم التسامح..[1].

أما هذه الأسباب الطارئة على الإسلام، والمفروضة على منهاج المسلمين فى معاملة الآخر الدينى فلقد فصلها وحصرها باحث ومؤرخ نصرانى لبنانى هو الدكتور «جورج قرم» عندما قال: [إن فترات التوتر والاضطهاد لغير المسلمين فى الحضارة الإسلامية كانت قصيرة وكان يحكمها ثلاثة عوامل:

العامل الأول: هو مزاج الخلفاء الشخصى، فأخطر اضطهادين تعرض لهما الذميون وقعا فى عهد المتوكل [٢٠٦ - ٢٤٧هـ/ ٨٢١ - ٨٦١م] الخليفة الميال بطبعه إلى التعصب والقسوة. وفى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله [٣٧٥ - ٤١١هـ/ ٩٨٥ - ١٠٢١م] الذى غالى فى التصرف معهم بشدة «وكلا هذين الحاكمين عمَّ اضطهادهما المسلمين وغير المسلمين!!».

العامل الثانى: هو تردى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لسواد المسلمين. والظلم الذى يمارسه بعض الذميين المعتلين لمناصب إدارية عالية، فلا يعسر أن ندرك صلتها المباشرة بالاضطهادات التى وقعت فى عدد من الأمصار.

العامل الثالث: هو مرتبط بفترات التدخل الأجنبى فى البلدان الإسلامية، وقيامَّ الحكام الأجانب بإغراء واستدراج الأقليات الدينية غير المسلمة إلى التعاون معهم ضد الأغلبية المسلمة.

إن الحكام الأجانب بمن فيهم الإنجليز - لم يحجموا عن استخدام الأقلية القبطية فى أغلب الأحيان ليحكموا الشعب ويستنزفوه بالضرائب، وهذه ظاهرة نلاحظها فى سوريا أيضًا حيث أظهرت أبحاث «جب» و«بولياك» كيف أن هيمنة أبناء الأقليات فى المجال الاقتصادى أدت إلى إثارة قلاقل دينية خطيرة بين النصارى والمسلمين فى دمشق سنة ١٨٦٠م، وبين الموارنة والدروز فى جبال لبنان سنة ١٨٤٠م و١٨٦٠م،

(١) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٧٢٩، ٧٣٠.

ونهاية الحملات الصليبية قد أعقبتها فى أماكن عديدة أعمال ثأر وانتقام ضد الأقليات المسيحية، ولا سيما الأرمن الذين تعاونوا مع الغازى.

بل إنه كثيرًا ما كان موقف أبناء الأقليات أنفسهم من الحكم الإسلامى حتى عندما كان يعاملهم بأكبر قدر من التسامح ـ سببًا فى نشوب قلاقل طائفية، فعلاوة على غلو الموظفين الذميين فى الابتزاز، وفى مراعاتهم وتحيزهم إلى حد الصفاقة أحيانًا لأبناء دينهم، كان يندر أن تصدر من المسلمين استفزازات طائفية بكل معنى الكلمة[(1)]..

وإذا شئنا الإشارة إلى وقائع من التاريخ الوسيط والحديث تؤكد صدق هذا التحليل الذى قدمه الدكتور «جورج قرم» لأسباب التوترات الطائفية العارضة وخصوصًا بسبب الغوايات الاستعمارية لبعض أبناء الأقليات الدينية، فإن هناك واقعة دالة إبان الغزوة التترية، عندما استقوى نصارى دمشق بالقائد التتارى «كتبغا» وكان نصرانيًّا نسطوريًا ـ فانحازوا إلى الغزاة ضد المسلمين وتحولوا إلى أداة إذلال واضطهاد للمسلمين فى ظل الاحتلال التترى. ولقد تحدث مؤرخ العصر المقريزى [٧٦٦ت ٨٤٥هـ ـ ١٣٦٥ ـ ١٤٤١م] عن هذا الاستعلاء والاستقواء النصرانى بالتتار، فقال «لقد استطال النصارى بدمشق على المسلمين، واحضروا فرمانًا من «هولاكو» بالاعتناء بأمرهم وإقامة دينهم، فتظاهروا بالخمر فى نهار رمضان، ورشوه على ثياب المسلمين فى الطرقات، وصبوه على أبواب المساجد، وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب عليهم، وأهانوا من امتنع من القيام للصليب، وصاروا يمرون به فى الشوارع إلى كنيسة مريم ويقفون به ويخطبون فى الثناء على دينهم، وقالوا جهرًا (ظهر الدين الصحيح، دين المسيح) وخربوا مساجد ومآذن كانت بجوار كنائسهم، فقلق المسلمون من ذلك، وشكوا أمرهم لنائب (هولاكو) وهو كتبغا فأهانهم وضرب بعضهم، وعظم قدر قساوس النصارى ونزل إلى كنائسهم وأقام شعائرهم».

وأمام هذه الخيانة، والاحتماء بالعدو الغازى. واضطهاد الأقلية للأغلبية ما كان من السلطان «قطز» [٦٥٨هـ ١٢٦٠م] إلا أن أوقع بنصارى دمشق، وترك الناس

(١) جورج قرم [تعدد الأديان ونظم الحكم: دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة] ص ٢١١ ـ ٢٢٤ طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م، والنص فى [الملل والنحل والأعراق] ص ٧٢٩، ٧٣٠].

«فخربوا دورهم ونهبوها[1]» عقب الانتصار على التتار فى «عين جالوت» [٦٥٨هـ ـ ١٢٦٠م].

ولقد تكرر مشهد الغواية والخيانة فى مطلع العصر الحديث، عندما جاء بونابرت [١٧٦٩ ـ ١٨٢١م] على رأس الحملة الفرنسية لغزو مصر [١٢١٣هـ، ١٧٩٨م] وألقى حبال الغواية لأبناء الأقليات الدينية، ووقع فى هذه الحبال نفر من أقباط مصر ـ خانوا أمتهم وطائفتهم وكنيستهم، قادهم «المعلم يعقوب حنا» [١٧٤٥ ـ ١٨٠١م] وكونوا فيلقًا قبطيًا تزيّا بزيِّ الجيش الفرنسى، وحارب المصريين وأذلهم لحساب الفرنسيين، ولقد تحدث مؤرخ العصر الجبرتى [١١٦٧ ٠ ١٢٣٧هـ ـ ١٧٥٤ ـ ١٨٢٢م] عن صنيع «بونابرت» مع هذه القلة الخائنة، عندما جعل لهم نصف عضوية «ديوان المشورة» والسلطة الفعلية فى الجهاز المالى والإدارى.. وبعبارة «الجبرتى»، فلقد فوض الجنرال كليبر [١٧٥٣ ـ ١٨٠٠م] للجنرال يعقوب أن يفعل بالمسلمين ما شاء حتى تطاول النصارى ـ من القبط ونصارى الشوام ـ على المسلمين بالسب والضرب، ونالوا منهم أغراضهم وأظهروا حقدهم، ولم يبقوا للصلح مكانًا!! وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين!![2].

فكان السقوط فى شراك الغواية الاستعمارية من أكثر أسباب التوتر الطائفى تأثيرًا، فى الفترات العارضة التى شابت فيها هذه التوترات تلك الوحدة التى حققها الإسلام مع الآخر الدينى فى الأمة.. والدولة.. ومقومات الهوية الوطنية والحضارية على امتداد تاريخ الإسلام..

الواقع المعاصر للأقليات.. والتحديات المحيطة بها:

لقد تعمدنا فى هذه الدراسة أن يكون الرجوع دائمًا إلى المصادر المتخصصة، والمعتمدة، والتى كتبها علماء وباحثون مشهود لهم بالأمانة والموضوعية ورسوخ

---

(١) المقريزى [كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك] ج١ ث ص٢ ٤٢٥، ٤٣٢. تحقيق: د. محمد مصطفى زيادة. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

(٢) الجبرتى [عجائب الآثار فى التراجم والأخبار] ج٥ ص ١٣٦. تحقيق: حسن محمد جوهر، عمر الدسوقى، السيد إبراهيم سالم، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م.

القدم فى تخصصهم. وتعمدنا كذلك، عندما نكون بإزاء قضية خلافية يدور حولها جدل كثير وكبير أن تكون المصادر التى نحتكم إليها قد كتبها علماء وباحثون غير مسلمين!

صنعنا ذلك ونحن نبحث مكانة ونفوذ وموقع غير المسلمين فى الحضارة والتاريخ والدول والمجتمعات الإسلامية. وكذلك عند بحث أسباب التوترات الطائفية التى مرت بها الأقليات غير المسلمة فى بعض فترات التاريخ الإسلامى، ببعض المجتمعات الإسلامية.

ونصنع ذلك الآن، ونحن نريد حسم قضية يثور حولها جدل كبير وتشكيك كثير وهى قضية عدد الأقليات غير المسلمة فى أقطار الوطن العربى خاصة، ودول العالم الإسلامى بوجه عام.

أما المصادر المتخصصة فى «السكان ـ الديموجرافيا»، والتى كتبها علماء وباحثون غير مسلمين، والتى اعتمدنا عليها فى حسم هذه القضية المثيرة للجدل فهى:

١ ـ [أطلس معلومات العالم العربى] الذى كتبه اللبنانى المسيحى «رفيق البستانى» والفرنسى المسيحى «فيليب فارج» والمطبوع سنة ١٩٩٤م.

٢ ـ وكتاب [المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى] والذى كتبه عالمان متخصصان فى الأبحاث والدراسات «الديمجرافية»، هما «فيليب فارج» و«يوسف كرباج».. والمطبوعة ترجمته العربية سنة ١٩٩٤م وكلا المصدرين تتابع إحصاءاتهما الواقع «السكانى الديمجرافى» حتى سنوات الطبع. أى ما يقرب من منتصف تسعينيات القرن العشرين.

ومن خلال هذه المصادر العلمية المتخصصة فإن:

١ ـ تعداد النصارى العرب فى كل أقطار الوطن العربى، بمذاهبهم وطوائفهم وكنائسهم المختلفة هو ٧,٠٠٠,٠٠٠ نسمة. وإن متوسط نسبة النصارى فى سكان الشرق الأوسط ـ العرب وتركيا، هو ٣,٨٪.

٢ ـ وتعداد اليهود فى أقطار الوطن العربى هو ١٣,٠٠٠ نسمة ـ فى بعض الإحصاءات ـ و٢٠,٠٠٠ نسمة فى إحصاءات أخرى ـ ولعل السبب فى الاختلاف هو الهجرات المتحركة لهذه الأقليات اليهودية نحو إسرائيل.

٢ ـ أما الأقليات الأرواحية (الوثنية)، فى جنوب السودان فإن تعدادها هو ٥,٨٠٠,٠٠٠ نسمة.

٣ ـ ولما كان الجدل الأكثر فى إحصاء أعداد غير المسلمين، إنما يدور حول عدد الأقباط النصارى فى مصر والذين يمثلون أكبر الأقليات النصرانية فى الواقع العربى، فلقد اهتمت هذه المصادر المختصة بالوقوف عندها، وحسم قضية تعدادها. ولقد جاء فى [أطلس معلومات العالم العربى] ـ ص ٣٢) ـ تحت عنوان [أقباط مصر] ما يلى:

«كم عددهم؟ كم عدد أكبر طائفة مسيحية فى الشرق؟ هل يبلغ أكثر قليلًا من ثلاثة ملايين، كما يمكن استنتاجه من آخر تعداد للسكان؟ أم هل يرتفع عددهم إلى ٥ أو ٦ أو حتى ٧ ملايين، كما تؤكد بعض الهيئات القبطية؟.

إن التفاوت فى التقدير أمر غريب فى بلد تتوفر فيه الإحصاءات بغزارة؛ فمصر على عكس بعض بلدان المنطقة لا تبخل بالمعلومات عن سكانها، إذ تجرى التعداد بصفة منتظمة منذ سنة ١٨٨٢م ـ [أى فى ظل الاحتلال الإنجليزى، وغلبة الموظفين الأقباط فى إدارات الإحصاء] ـ وجاء [التعداد] ـ بحصيلة لا بأس بها من المعلومات، وهى حصيلة قابلة للتحقق منها، وللمطابقة بينها وبين غيرها.

ومع هذا فإن الجدل حول هذا الموضوع ما زال قائمًا، فالطائفة القبطية تقول: إن تقرير عدد الأقباط بنسبة ٦٪ من عدد السكان الكلى، كما تشير إلى ذلك الإحصاءات الرسمية، فيه تقليل من عددهم. ولكننا نلاحظ أن التعدادات التى أجريت فى عهد الاستعمار، تؤكد هذه الأرقام الرسمية، ونلاحظ تناقصًا طفيفًا فى نسبة عدد الأقباط/ كما يتبين من التعدادات المتتالية:

إذ كانت نسبة الأقباط أعلى قليلًا من ٨٪ من العدد الكلى للسكان فى مصر، فيما بين عامى ١٩٠٧، ١٩٣٧م ثم هبطت إلى ٧,٩٪ فى تعداد ١٩٤٧م، وإلى ٧,٣٪ فى سنة ١٩٦٠م ـ [بعد جلاء القوات الأجنبية وعدد كبير من الذين أصابتهم قوانين الإصلاح الزراعى وتمصير الشركات]، ٥,٩٪ فى سنة ١٩٨٦م. وليس هناك أى استثناء فى هذا المنحنى الهابط بانتظام، مما يوحى بأنه ليس هناك افتعال فى هذه الظاهرة.

إن أقباط مصر شأنهم فى ذلك شأن مسيحى الشرق الآخرين، سبقوا المسلمين إلى تخفيض عدد المواليد، ولذلك فقد هبطت نسبة عدد الأقباط بالنسبة للعدد الكلى من ٧,٣٪ فى سنة ١٩٦٠م إلى ٥,٩٪ فى عام ١٩٨٦م».

بهذا المنطق العلمى وبالحقائق الإحصائية تناولت هذه المصادر ـ التى كتبها متخصصون غير مسلمين ـ حسم هذه القضايا التى يدور حولها الجدل، وتثار بصددها الشكوك.

٥ ـ وهذه الأقليات النصرانية العربية ـ ٧,٠٠٠,٠٠٠ نسمة ـ موزعة على عشر طوائف رئيسية.. يوضحها هذا الجدول:

رقم	الطائفة	عددها	ملاحظات
١	الأقباط الأرثوذكس	٣,٠٠٠,٠٠٠	
٢	الروم الأرثوذكس	٨٠٠,٠٠٠	
٣	الأرمن الكرجيون	٣٠٠,٠٠٠	
٤	اليعقوبيون (سوريا)	١٧٠,٠٠٠	
٥	النسطوريون	٥٠,٠٠٠	
٦	الكلدوان	٥٠٠,٠٠٠	
٧	السريان الكاثوليك	١٥٠,٠٠٠	
٨	الأقباط الكاثوليك	١٠٠,٠٠٠	
٩	الأرمن الكاثوليك	٧٥,٠٠٠	
١٠	الروم الكاثوليك	٤٠٠,٠٠٠	

٦ ـ أما النسبة المئوية لهؤلاء النصارى العرب مقارنة بمواطنيهم المسلمين، فى الأقطار العربية.. فيوضحها الجدول الآتى:

رقم	الدولة	نسبة المسلمين	نسبة ا النصارى	ملاحظات
١	الأردن	٩٥,٨٪	٤,٢٪	
٢	الإمارات العربية	١٠٠٪		
٣	البحرين	١٠٠٪		
٤	تونس	٩٩٪	١٪	
٥	الجزائر	٩٨٪	٢٪	
٦	جيبوتى	١٠٠٪		
٧	المملكة العربية السعودية	٩٩,٥٪	٠,٥٪	
٨	السودان	٧٢٪	٤٪	٢٤٪ وثنيون
٩	سوريا	٩٣,٦٪	٦,٤٪	
١٠	الصومال	٩٩٪	١٪	
١١	العراق	٩٨,٦٪	١,٤٪	
١٢	عمان	١٠٠٪		
١٣	فلسطين	٩٦,٢٪	٣,٨٪	
١٤	قطر	١٠٠٪		
١٥	الكويت	١٠٠٪		
١٦	لبنان	٥٦,٢٪	٤٣,٨٪	
١٧	ليبيا	٩٨٪	٢٪	
١٨	مصر	٩٤,٣٪	٥,٧٪	
١٩	المغرب	٩٨٪	٢٪	
٢٠	موريتانيا	٩٩٪	١٪	
٢١	اليمن	٩٩٪	١٪	

٧ـ أما نسبة غير المسلمين فى أقطار منظمة التعاون الإسلامى فيوضحها الجدول الآتى:

رقم	الدولة	نسبة المسلمين	نسبة غير المسلمين	ملاحظات
١	أفغانستان	٪٩٩	٪١	
٢	أندونيسيا	٪٩٠	٪١٠	
٣	إيران	٪٩٨	٪٢	
٤	باكستان	٪٩٧	٪٣	
٥	بروناى			
٦	بنجلاديش	٪٨٠	٪٢٠	
٧	تركيا	٪٩٩,٢	٪٠,٢	
٨	المالديف			
٩	ماليزيا			
١٠	أوغندا	٪١٥	٪٨٥	
١١	بنين	٪٤٧	٪٥٣	
١٢	بوركينافاسو	٪٤٠	٪٦٠	
١٣	تشاد	٪٤٥	٪٥٥	
١٤	الجابون	٪١٦	٪٨٤	
١٥	جامبيا	٪٨٥	٪١٥	
١٦	جزر القمر	٪٩٩	٪١	
١٧	السنغال	٪٩٠	٪١٠	
١٨	سيراليون	٪٣٩	٪٦١	
١٩	غينيا	٪٦٩	٪٣١	
٢٠	غينيا بيساو	٪٣٠	٪٧٠	منهم ٥٪ مسيحيون
٢١	الكاميرون	٪٢٠	٪٨٠	
٢٢	مالى	٪٩٠	٪١٠	
٢٣	النيجر	٪٩٧	٪٣	
٢٤	نيجيريا	٪٤٨	٪٥٢	

أما توزيع الأقليات اليهودية فى أقطار العالم العربى فيوضحها الجدول التالى:

رقم	الدولة	عدد اليهود	ملاحظات
١	سوريا	.٨٠٠	
٢	لبنان	.٦٠٠	
٣	العراق	.٩٠٠	
٤	اليمن	١,٠٠٠	
٥	مصر	.٥٠٠	
٦	ليبيا	٠,٢٠٠	
٧	تونس	٢,١٠٠	
٨	الجزائر	٢,١٠٠	
٩	المغرب	٧,٨٠٠	

هذا عن التعداد المعاصر للأقليات غير المسلمة فى الوطن العربى وبقية دول منظمة التعاون الإسلامى..

أما عن التحديات التى تواجه هذه الأقليات فى واقعنا الراهن.. فإنها ـ فى الحقيقة هى التحديات التى تواجه الأمة، فقوى الهيمنة الغربية تريد أن تجعل من هذه الأقليات «أوراق ضغط» و«ثغرات اختراق وتدخل» لإعاقة تقدم الأمة ـ ونهوضها وانعتاقها وانبعاثها الحضارى.. إنها التحديات التى تعيد، مرة أخرى، قصة «الغواية الاستعمارية»، ومشروعات «الحماية» التى حاولتها قوى الغزو والاستعمار مع هذه الأقليات تاريخيًا، تحاولها الآن قوى الهيمنة الغربية، وفى المقدمة منها «العولمة

الأمريكية» وذلك من خلال المخططات الاستعمارية المعلنة لتفتيت الأمة ـ أكثر مما هى مفتتة ـ وتحويل كياناتها القطرية إلى «كيانات ورقية وفسيفسائية» بواسطة الأقليات الدينية والمذهبية والقومية.

هناك حقيقة يلمسها الدارس لمراحل وألوان هذه المخططات الاستعمارية الحديثة والمعاصرة للعب بأوراق الأقليات فى وطن العروبة وعالم الإسلام، هى وجود الأصابع الصهيونية فى كل هذه المخططات والمحاولات.

فمنذ بدايات الغزوة الغربية الاستعمارية الحديثة للوطن العربى، قلب العالم الإسلامى، بواسطة حملة «بونابرت» [١٧٦٩ ـ ١٨٢١م] على مصر [١٢١٣هـ ١٧٩٨م] كان الإعلان عن مخطط للعمل على استخدام الأقليات فى مشروع الهيمنة الاستعمارية على بلادنا، وذلك عندما أعلن «بونابرت» ـ وهو فى الطريق البحرى من «مرسيليا» إلى «الإسكندرية» عزمه على تجنيد عشرين ألفًا من أبناء الأقليات غير المسلمة، ليكونوا مواطئ أقدام وثغرات اختراق تعينه على بناء إمبراطوريته الاستعمارية الشرقية. وأثناء حصاره لمدينة «عكا» الفلسطينية سنة ١٧٩٩م ـ فى الذكرى السبعمائة لاحتلال الصليبيين للقدس سنة ١٠٩٧م!! ـ أصدر «بونابرت» نداءه إلى الأقليات اليهودية فى العالم كى تتحالف معه لتحقيق هذا الغرض الاستعمارى، مقابل أن يساعدها على احتلال فلسطين[١].

ومنذ ذلك التاريخ اتخذت قطاعات من هذه الأقليات اليهودية أكثر القرارات اللاأخلاقية، وذلك عندما وظفت نفسها فى خدمة الحضارة الغربية التى اضطهدت اليهود طوال تاريخهم ضد الحضارة الإسلامية التى آوتهم وأكرمتهم طوال تاريخها!! فبدأت «الشراكة» بين الصهيونية وبين الاستعمار الغربى منذ ذلك التاريخ.. الصهيونية تحلم بالخلاص من اضطهاد الغرب لليهود على حساب العرب والمسلمين!. والغرب الاستعمارى يريد تحقيق «حزمة» من الأهداف. فهو يريد الخلاص من اليهود، الذى كان ينظر إليهم باعتبارهم سرطانات فى جسم حضارته المسيحية، وذلك بقذفهم إلى

(١) محمد حسنين هيكل [المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل: الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية] ـ الكتاب الأول ص ٣١، ٣٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٦م.

قلب الوطن العربى، يقيم بواسطتهم قاعدة لحضارته، وآلة حربية ضد أحلام العرب فى التقدم والنهوض. والبروتستانتية الغربية قد رأت فى هذا المشروع «الصهيونى الاستعمارى» تحققًا لنبوءة أسطورية تتحدث عن عودة المسيح عليه السلام، ثانية ليحكم العالم ألف سنة سعيدة، عندما يحشر اليهود فى فلسطين، ويقيمون «الهيكل الثالث» على أنقاض المسجد الأقصى، وتحدث معركة «هرمجدون» التى يباد فيها المسلمون[١]!!.

وعندما هزم المصريون حملة «بونابرت» وتبددت أحلامه وأصبحت القيادة ـ فى المشروع الاستعمارى الغربى ـ لإنجلترا نقل الصهاينة «قبلتهم.. وشراكتهم» إلى الاستعمار الإنجليزى، وتولت إنجلترا رعاية هذه «الشراكة» وتوظيف الأقليات اليهودية ضد العرب والمسلمين..

وفى مواجهة مشروع «مصر ـ محمد على باشا [١١٨٤ ـ ١٢٦٥هـ ١٧٧١ ـ ١٨٤٩م] لتجديد شباب الشرق، وإنقاذه من الضعف العثمانى للحيلولة دون نجاح مخططات الاستعمار الغربى سعت إنجلترا إلى الدولة العثمانية كى تسمح بزرع اليهود فى فلسطين لإعاقة المشروع النهضوى لمحمد على باشا، وطلب «بلمسرتون» [١٧٨٤ ـ ١٨٦٥] وزير خارجية إنجلترا سنة ١٨٤٠م من سفيره فى «الأستانة» أن يقنع السلطان العثمانى بالسماح بهجرة اليهود إلى فلسطين «حتى يكونوا حجر عثرة أمام محمد على باشا ونواياه والأغراض التى قد تخطر بباله أو بال من يخلفه»[٢]!.

ولم تخرج فرنسا الاستعمارية من الساحة نهائيًا ـ بهزيمة نابليون ـ فهى قد تولت تحويل الأقلية المارونية فى لبنان ـ بواسطة التغريب الثقافى ومدارس الإرساليات التبشيرية ـ إلى ثغرات اختراق، لتحويل قبلة هذه الأقلية ـ وغيرها ـ إلى الغرب بدلًا

(١) جريس هالسل [النبوءة والسياسة] ترجمة: محمد السماك. طبعة ليبيا ١٩٩٠م. و[يد الله]: ترجمة محمد السماك طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

(٢) د. محمد عمارة [إسرائيل: هل هى سامية؟] ص ١٢٤. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م.

من الشرق والعروبة وحضارة الإسلام.. وذلك وصولًا إلى «جعل البربرية العربية ـ [كما قالوا] تنحنى لا إراديًّا أمام الحضارة المسيحية لأوروبا»(1)..

كما تولت فرنسا ـ فى المغرب العربى اللعب بورقة الأقليات الأمازيغية لإلحاق عاداتها وأعرافها بالقانون الوضعى الفرنسى، بدلًا من الشريعة الإسلامية، وإلحاقها ـ لغويًّا وثقافيًّا ـ بالفرنسية والفرنكفونية، بدلًا من هويتها الحضارية العربية الإسلامية..

ولقد كانت «الشراكة» الاستعمارية الصهيونية والأصابع اليهودية حاضرة وفاعلة، دائمًا وأبدًا فى كل هذه المراحل لتنفيذ هذا المخطط الاستعمارى للعب بأوراق الأقليات فى بلادنا العربية والإسلامية.. ولقد زاد من وضوح الدور الصهيونى فى هذا المخطط وهذه التحديات منذ أن تجسد الحلم الصهيونى فى الكيان الإسرائيلى سنة ١٩٤٨م، فرأينا الكتابات الصهيونية تضع مخططات تفتيت الشرق العربى والإسلامى بواسطة الأقليات الدينية والمذهبية والقومية، باعتبار هذا التفتيت هوالتعميم لمشروع الأقلية اليهودية فى إقامة كيانها السياسى الخاص.. وباعتبار أن هذا التفتيت هو الضمان لأمن الكيان الصهيونى الذى لا نماء له ولا مستقبل فى ظل الوحدة العربية والجامعة العربية والجامعة الإسلامية.. لقد تصاعد إغراء الأقليات باختيار الطريق الصهيونى: عض اليد العربية الإسلامية، والتوجه غربًا، ضد العروبة والإسلام، وربط مستقبل هذه الأقليات بالهيمنة الاستعمارية الغربية بدلًا من المشروع النهضوى للعرب والمسلمين!..

ومنذ أكثر من نصف قرن، وبالتواكب مع إقامة الكيان الصهيونى على أرض فلسطين ـ قاعدة عنصرية استعمارية غربية لإعاقة تقدم أمتنا ووحدتها ـ أعلن المستشرق الصهيونى «برنارد لويس Bernard Lwis» مخطط التفتيت للأمة الإسلامية بواسطة الأقليات.. والذى نشرته مجلة وزارة الدفاع الأمريكية ـ البنتاجون ـ Executive In-telligence research Project وفيه يدعو إلى إضافة أكثر من ثلاثين كيانًا انفصاليًا،

(1) د. محمد عمارة [هل الإسلام هو الحل.. لماذا وكيف؟] ص ٢٢ ـ من مراسلات القناصل ـ محفوظات أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية ـ لسنوات ١٨٤٠ ـ ١٨٤٢ ـ ١٨٩٧ ـ ١٨٤٨ ـ ١٨٩٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م.

على أساس دينى ومذهبى وعرقى (إثنى) تضاف إلى التجزئة التى أحدثتها اتفاقية «سايكس ـ بيكو» سنة ١٩١٦م.. وبنص عبارات هذا المستشرق الصهيونى: «فإن الصورة الجغرافية الحالية للمنطقة لا تعكس حقيقة الصراع، فما هو على السطح يتناقض مع ما هو فى العمق.. على السطح كيانات سياسية لدول مستقلة، ولكن فى العمق هناك أقليات لا تعتبر نفسها ممثلة فى هذه الدول بل ولا تعتبر أن هذه الدول تعبر عن الحد الأدنى من تطلعاتها الخاصة»!

وبعد أن تحدث عن تفاصيل مخطط تفتيت العالم الإسلامى ـ من باكستان إلى المغرب ـ على أسس دينية ومذهبية وعرقية، خلص إلى الهدف الصهيونى من وراء هذا التفتيت، فقال: «ويرى الإسرائيليون أن جميع هذه الكيانات لن تكون فقط غير قادرة على أن تتحد، بل سوف تشلها خلافات لا انتهاء لها.. ونظرًا لأن كل كيان من هذه الكيانات سيكون أضعف من إسرائيل، فإن هذه ستضمن تفوقها لمدة نصف قرن على الأقل»(١)!

فالمطلوب هو استخدام الأقليات لتفتيت العالم الإسلامى إلى كيانات ضعيفة، لضمان الأمن والتفوق للكيان الصهيونى الموظف فى خدمة المشروع الامبريالى الغربى الكبير!..

ولقد تحول هذا التخطيط «الاستعمارى الصهيونى» إلى الممارسة والتطبيق على أيدى «ديفيد بن جوريون» [١٨٨٦ ـ ١٩٧٣م] و«موشى شاريت»[١٨٩٤ ـ ١٩٦٥م] و«موشى ديان» فى حقبة خمسينيات القرن العشرين، ابتداء بالأقلية المارونية فى لبنان، وطموحًا إلى تعميمه خارج لبنان.. وكتب «شاريت ـ فى مذكراته ـ عن المقاصد من وراء اللعب بأوراق الأقليات فى بلادنا، يقول إنها:

أولًا: تثبيت وتقوية الميول الانعزالية للأقليات فى العالم العربى..

---

(١) محمد السماك [الأقليات بين العروبة والإسلام] ص ١٣١، ١٣٣، ١٤٣. طبعة بيروت سنة ١٩٩٠م.

ثانيًا: إذكاء النار فى مشاعر الأقليات المسيحية فى المنطقة وتوجيهها نحو المطالبة بالاستقلال والتحرر من الاضطهاد الإسلامي!!. فمجرد تحريك الأقليات هو عمل إيجابى لما قد ينتج عنه من آثار تدميرية على المجتمع المستقر[1]»!

وفى مرحلة ثمانينيات القرن العشرين، ورغم الحديث عن «السلام والتسوية.. وتطبيع العلاقات» بعد المعاهدة المصرية ـ الإسرائيلية سنة ١٩٧٩م.. نجد أن هذا المخطط التفتيتى لعالمنا الإسلامى بواسطة الأقليات، هو من «الثوابت» الاستعمارية الصهيونية» التى لا تتأثر «بالمتغيرات» حتى لو سميت هذه المتغيرات بالسلام.. وتطبيع العلاقات»!.

ففى المحاضرة التى ألقاها «اريبل شارون» ـ وكان يومئذ وزيرًا للدفاع ـ فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩٨١م ـ والتى نشرتها مجلة «معاريف» نراه يقول: «إن إسرائيل تصل بمجالها الحيوى إلى أطراف الاتحاد السوفييتى شمالًا، والصين شرقًا، وإفريقيا الوسطى جنوبًا، والمغرب العربى غربًا.. وهذا المجال الحيوى عبارة عن مجموعات قومية وإثنية ومذهبية متناحرة».

ثم يواصل «شارون» الحديث عن مشروعات تفتيت العالم الإسلامى، بواسطة الأقليات ـ على النحو الذى سبقه إليه «برنارد لويس» ـ حتى يكون هذا العالم الإسلامى «مجالًا حيويًا لإسرائيل»[2]..

وفى ذات الحقبة ـ ثمانينيات القرن العشرين ـ تصوغ «المنظمة الصهيونية العالمية» هذا المشروع التفتيتى تحت عنوان: «استراتيجية إسرائيل فى الثمانينيات» وتنشره فى مجلتها الفصلية «كيفونيم Kivunim [الاتجاهات] ـ فى عدد ١٤ فبراير سنة ١٩٨٢م.. وفى ثنايا هذا المخطط الاستراتيجى تتحدث عن النجاحات التى حققتها إسرائيل فى لبنان ـ إبان الحرب الأهلية اللبنانية [١٩٧٥ ـ ١٩٨٩م] بواسطة قطاع من الأقلية المارونية السياسية ـ باعتباره النموذج الواجب التعميم مع كل الأقليات.. فتقول

---

(١) المرجع السابق. ص ١٤٢، ١٤٣.

(٢) المرجع السابق ص ١٤٣، ١٣٢.

«المنظمة الصهيونية العالمية»: «إن تفتت لبنان بصورة مطلقة إلى خمس مقاطعات إقليمية هو سابقة للعالم العربى بأسره بما فى ذلك مصر وسوريا والعراق وشبه الجزيرة العربية.. إن دولًا مثل ليبيا والسودان والدول الأبعد منها ـ [فى المغرب] ـ لن تبقى على صورتها الحالية. بل ستقتفى أثر مصر فى انهيارها وتفتتها، فمتى تفتتت مصر تفتت الباقون ـ [!!!].

إن رؤية دولة قبطية مسيحية فى صعيد مصر، إلى جانب عدد من الدول ذات سلطة أقلية ـ مصرية، لا سلطة مركزية كما هو الوضع الآن، هو مفتاح هذا التطور التاريخى الذى أخرته معاهدة السلام، لكنه لا يبدو مستبعدًا فى المدى الطويل.

وإن تفتت سوريا والعراق لاحقًا إلى مناطق ذات خصوصية إثنية ودينية على غرار لبنان هو هدف من الدرجة الأولى بالنسبة لإسرائيل.. ولأن العراق أقوى من سوريا، وقوته تشكل فى المدى القصير خطرًا على إسرائيل أكثر من أى خطر، فهو المرشح المضمون لتحقيق أهداف إسرائيل فى التفتيت، فتفتيت العراق هو أكثر أهمية من تفتيت سوريا..

وشبه الجزيرة العربية بأسرها، مرشح طبيعى للانهيار، وأكثر اقترابًا منه، بفعل ضغط داخلى وخارجى، وهذا أمر غير مستبعد فى معظمه، خصوصًا فى السعودية..

والأردن هدف استراتيجى فى المدى القصير.. فليس هناك أى إمكان بأن يبقى الأردن قائمًا على صورته وبنيته الحاليتين فى المدى الطويل. وينبغى أن تؤدى سياسة إسرائيل ـ حربًا أو سلمًا ـ إلى تصفية الأردن بنظامه الحالى..».

ثم تخلص هذه «الاستراتيجية» ـ بعد التفصيل لمخطط التفتيت للعالم الإسلامى بواسطة الأقليات ـ إلى أن هذا هو «ضمان الأمن والسلام فى المنطقة بأسرها فى المدى الطويل.. ففى العصر النووى لا يمكن ضمان بقاء إسرائيل إلا بمثل هذا التفكيك، ويجب من الآن فصاعدًا بعثرة السكان، فهذا دافع استراتيجى، وإذا لم يحدث ذلك، فليس باستطاعتنا البقاء مهما كانت الحدود»[١].

(١) المرجع السابق ص ١٤٤، ١٤٠.

وفى حقبة التسعينيات ـ من القرن العشرين ـ تعود المؤسسات الصهيونية للتأكيد على «ثبات ثوابت هذه الاستراتيجية».. فيدعو «مركز بارايلان للأبحاث الاستراتيجية» ـ التابع لجامع بارايلان الإسرائيلية ـ إلى ندوة عقدت فى ٢٠ مايو سنة ١٩٩٢م، وشاركت فيها وزارة الخارجية الإسرائيلية بواسطة «مركز الأبحاث السياسية» التابع لها، وأسهم فيها باحثون من «مركز ديان» التابع لجامعة «تل أبيب» وذلك حول «الموقف الإسرائيلى من الجماعات الإثنية والطائفية فى منطقة الشرق الأوسط».. وقد ناقشت هذه الندوة أحد عشر بحثًا، دارت جميعها حول «تأييد إسرائيل للنزعات الانفصالية للجماعات العرقية والإثنية والاعتبارات الكامنة وراءه» ـ وهذا هو عنوان أحد أبحاث هذه الندوة!!.

وقد خلصت أبحاث ومقررات هذه الندوة إلى أن هذه الأقليات.. هى شريكة لإسرائيل فى المصير، ولا بد من أن تقف مع إسرائيل فى مواجهة ضغط الإسلام والقومية العربية، أو تبدى استعدادًا لمحاربتهما أو مقاومتهما، وهى حليف وقوة لإسرائيل لتنفيذ سياسة الاستيطان والدولة التى ما زالت فى مرحلة التكوين[(١)]»!

ولقد تزامن مع اشتعال الحرب الطائفية فى لبنان ـ فى سبعينيات القرن العشرين ـ غواية عدد من الشباب القبطى المصرى بالاشتراك مع المارونية السياسية فى هذه الحرب!. واجتذبت الأصابع الصهيونية فى أمريكا قطاعًا من أقباط المهجر ـ وخصوصًا فى أمريكا وكندا وإستراليا ـ لتكوين «الهيئات القبطية» الداعية إلى ما تسميه «تحرير مصر القبطية من استعمار العروبة والإسلام»!!.

حتى أفضت هذه الأنشطة الطائفية، المواكبة لهيمنة العولمة الأمريكية والمدفوعة والمدعومة من «اللوبى الصهيونى» ومنظمات وكنائس «التحالف المسيحى» و«المسيحية الصهيونية».. أفضت إلى إصدار «الكونجرس الأمريكى» فى أكتوبر سنة ١٩٩٩م، لقانون الحريات الدينية الدولية» الذى فرض الحماية الأمريكية على

---

(١) [ندوة الموقف الإسرائيلى من الجماعات الإثنية والطائفية فى العالم العربى] ص ٦ ـ ١٠، ٢٧٠. ترجمة: الدار العربية للدراسات والنشر. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م.

الأقليات الدينية ـ وخصوصًا فى العالم الإسلامى وقنن لآليات إيقاع العقوبات الأمريكية على الدول التى لا ترضى عنها أمريكا فى هذا المجال!..

وليس صدفة أن صدور هذا القانون قد جاء ثمرة لحملة إعلامية بدأها محام يهودى هو «مايكل هورو فيتز» Michael Horowz فى ٥ يوليو سنة ١٩٩٥م، ثم تلقفت الخيط المؤسسات والكنائس «المسيحية الصهيونية» و«التحالف المسيحى» و«المحافظون الجدد» لتفضى هذه الحملة ـ الموجهة بالأساس إلى العالم الإسلامى ـ إلى قانون «الحماية والعقاب» ـ كما أسماه بحق الكاتب «سمير مرقص»[١]..

وليس صدفة كذلك أن تجد هذه المخططات «مراكز أبحاث ممولة من أمريكا والغرب، تركز على اللعب بورقة الأقليات فى بلادنا.. وتدعو إلى تطبيق ذات المخطط الذى دعا إليه «برنارد لويس» و«بن جوريون» و«موشى شاريت» و«موشى ديان» و«اريبل شارون» و«المنظمة الصهيونية العالمية».. مخطط تفتيت العالم الإسلامى إلى كيانات سياسية ـ نعم سياسية ـ على أساس الدين والعرق والمذهب.. أى تحويل التنوع من نعمة ومصدر قوة إلى نقمة وتشرذم وتفتيت.. وتحويل الأقليات من لبنات فى بناء الأمة والأمن الوطنى والقومى والحضارى إلى ثغرات اختراق، وأسباب للانهيار والدمار.. فيكتب رئيس أحد أهم هذه المراكز البحثية يقول بالنص: «إن المجتمعات التى تتسم بالتعددية الإثنية فى الوقت الحالى ينبغى أن تكون متعددة من الناحية السياسية أيضًا»[٢].

ومع هذه الغواية الأجنبية التى استجابت لها ووقعت فى شباكها جمعيات وجماعات طائفية تعيش فى المهاجر، متعاونة مع الصهيونية وقوى الهيمنة الإمبريالية.. وقلة قليلة من غلاة العلمانيين والطائفيين فى الداخل، يستخدم المخطط الغربى وخصوصًا الأمريكى السلاح الاقتصادى فى إذكاء الصراع الطائفى فبواسطة المعونات الأمريكية الموجهة إلى القطاع الخاص، وتوكيلات الاستيراد والتصدير،

---

(١) سمير مرقص [الحماية والعقاب: الغرب والمسألة الدينية فى الشرق الأوسط] ص ٨١ ـ ١٥٦. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

(٢) د. سعد الدين إبراهيم: [التعددية الإثنية فى الوطن العربى] ص ٢٢. طبعة القاهرة.

والمعونات الموجهة للمشروعات التنموية الصغيرة يتم التمييز الطائفى، لإيجاد واقع اجتماعى يمزقه «ثراء الأقلية» و«حرمان الأغلبية»!، لا حُبًّا فى سواد عيون الأقلية، وإنما لتأجيج الصراع الطبقى ذى الطابع الطائفى، تكرارًا للتجربة التى سبق وصنعها الاستعمار، وأتت ثمراتها ـ فى لبنان ـ إغناء الأقلية المارونية وإفقار الأكثرية المسلمة وخصوصًا الشيعة منها: ـ الأمر الذى أحدث ـ فى لبنان ـ ويحدث الآن تراجعًا للسماحة والتسامح، و«فرزًا طائفيًا» على نحو غير معهود.. كما يخلق ضيقًا بالآخر، وتضييقًا على بعض حقوقه الطبيعية والمشروعة، كالحال مثلًا فى موقف العامة والجمهور من بناء دور العبادة فى بعض البلاد، بينما النهج الإسلامى يفتح الطريق أمام الحريات فى هذه الميادين، حتى ليحض الدولة على إعانة غير المسلمين فى بنائها..

وإذا كان هذا «التميز الاقتصادى» مما يعترف به العقلاء، حتى ليقول «الأنبا موسى» ـ أسقف الشباب فى الكنيسة الأرثوذكسية المصرية ـ وهو من عقلاء وحكماء هذه الكنيسة..! «إن الأقباط جزء مهم من نسيج الحياة المصرية.. فهم أطباء وصيادلة ومهندسون، وغيرها من المهن، ونسبتهم فى رجال الأعمال مرتفعة أكثر من نسبتهم العددية فى مصر[١]..» فإن هذه الفوارق الاقتصادية والاجتماعية المستفزة تشير إليها أرقام وإحصاءات رصدتها مصادر علماينة تقول: إن الأقلية النصرانية فى مصر ـ والتى تقل نسبتها فى السكان عن ٦٪.. والتى كان يصفها الشيخ محمد الغزالى [١٣٣٥ ـ ١٤١٦هـ، ١٩١٧ ـ ١٩٩٦م] عليه رحمة الله بأنها «أسعد أقلية فى العالم» ـ تملك من ثروة مصر ما بين ٣٥٪ و ٤٠٪! فهى تملك وتمثل:

* ٢٢,٥٪ من الشركات التى تأسست ما بين سنة ١٩٧٤ وسنة ١٩٩٥م ـ سنوات الانفتاح والمعونات الأمريكية!..

* و ٢٠٪ من شركات المقاولات فى مصر..

* و ٥٠٪ من المكاتب الاستشارية..

* و ٦٠٪ من الصيدليات..

---

(١) [الملل والنحل والأعراق] ص ٥٢٩ ـ ٥٣٤.

* و٤٥٪ من العيادات الطبية الخاصة..

* و ٣٥٪ من عضوية غرفة التجارة الأمريكية، وغرفة التجارة الألمانية.

* و٦٠٪ من عضوية غرفة التجارة الفرنسية (منتدى رجال الأعمال المصريين والفرنسيين).

* و ٢٠٪ من رجال الأعمال المصريين.

* و ٢٠٪ من وظائف المديرين بقطاعات النشاط الاقتصادى بمصر..

* وأكثر من ٢٠٪ من المستثمرين بمدينتى السادات والعاشر من رمضان.

* ٩, ١٥٪ من وظائف وزارة المالية المصرية..

* و ٣٥٪ من المهن الممتازة والمتميزة ـ الصيادلة.. والأطباء.. والمهندسين.. والبيطريين.. والمحامين[1]..

وذلك فضلا عن أن هذه الأقلية نادرًا ما يعانى أحد منها من المشكلات التى تطحن الأغلبية سواء ـ البطالة.. والأمية.. وأزمات الزواج.. والإسكان.. إلخ..

ومع كل ذلك تصدر القوانين الأمريكية لحماية «أسعد أقلية فى العالم»!. ويأتى أعضاء الكونجرس الأمريكى والدبلوماسيون الأمريكيون والغربيون «ليفتشوا» عن أحوالهم، ويرفعوا التقارير التى تتحدث عن «اضطهادهم»!!. وتطلب توقيع العقوبات على مصر وشعبها، وفق القانون الأمريكى قانون «الحماية والعقاب»!. وتصدر «الهيئات القبطية» فى المهجر الكتب والنشرات داعية إلى تحرير هذه الأقلية من العروبة والإسلام!..

---

(١) مجموعة تقارير «روز اليوسف» و«اتحاد المهن الطبية» و«اتحاد المقاولين» و«مجلة المختار الإسلام» عدد ١٥ ربيع الأول ـ يوليو سنة ١٩٩٨م ـ و: جمال بدوى (الفتنة الطائفية] ص ١١٦. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢ـ وهو ينقل عن: د. سميرة بحر (الأقباط فى الحياة السياسية المصرية].

هذا هو «الفعل الاستعمارى» فى المسألة الطائفية.. وتلك هى «ردود الأفعال» على هذه التحديات فى تطبيقاتها على الأقلية القبطية فى مصر.. وهى أكبر الأقليات النصرانية العربية عددًا ـ وأهم الأوراق التى يحاول الغرب اللعب بها!..

وإذا كنا نحذر من «الفعل الاستعمارى» و«النزعة الطائفية الانعزالية» التى تعمل على إحياء اللغة القبطية ـ كما أحيت الصهيونية العبرية ـ كى تحل محل اللغة العربية، التى هى اللغة الوطنية والقومية والحضارية للأمة كلها، على اختلاف أديانها!.. فإننا ندعو إلى أن تتحمل الأغلبية مسئولياتها الكبرى فى مواجهة هذه التحديات، وفى قطع الطريق على مخططاتها.. وذلك عن طريق:

١ ـ حل المشكلات الحقيقية التى تعانى منها الأقليات، باعتبارها جزءًا من الأمة وباعتبار مشكلاتها جزءًا من مشكلات الأمة..

٢ ـ إدارة حوار داخلى بين «الحكماء» لتحديد وتمييز «المظالم» الحقيقية من «الأحاسيس الزائفة أو المتضخمة بالظلم»! وحوارهم هو السبيل لقطع الطريق على القلة العميلة والمعادية، التى صنعها ويغذيها الاستعماريون والصهاينة.. وقطع الطريق على الغلو الدينى عند مختلف الأطراف..

٣ ـ وإعمال المنهاج الإسلامى فى «مداواة الجراح» بدلًا من «توسيع هذه الجراح».. فمن الخطأ والخطيئة الاكتفاء «بردود الأفعال» وخصوصًا تلك التى تصدرعن العامة والجماهير.. فالتحصين ضد الغوايات، وإقالة العثرات هو الأولى بالاتباع، وليس تصيد الأخطاء..

وعلينا أن نتذكر ما صنعته الأمة ـ قبل قرنين من الزمان ـ عندما نجحت غواية الحملة الفرنسية على مصر فى اجتذاب «المعلم يعقوب حنا» و«الفيلق القبطى» الذى قاده.. فسقطوا فى حظيرة الخيانة لأمتهم وطائفتهم وكنيستهم.. فلقد صدر العفو ـ بعد هزيمة هذه الحملة سنة ١٨٠١م ـ عن الذين استجابوا لهذه الغواية، وصدرت «الفرمانات السلطانية» التى أعلنت هذا العفو، والتى تحذر من الانتقام.. ولقد تحدث «الجبرتى» عن هذا المنهاج فى مداواة جراح تلك الغواية، فقال: «لقد نودى بأن لا

أحد يتعرض بالأذية لنصرانى ولا يهودى، سواء أكان قبطيًا أم روميًا أم شاميًّا، فإنهم من رعايا السلطان، والماضى لا يعاد.. وكتبت فرمانات وأرسلت إلى البلاد ـ [فى الأقاليم] ـ مضمونها: الكف عن أذية النصارى واليهود وأهل الذمة، وعدم التعرض لهم، وفى ضمنها ـ [أى الفرمانات] ـ آيات قرآنية وأحاديث نبوية، والاعتذار عنهم بأن الحامل على تداخلهم مع الفرنساوية: صيانة أعراضهم وأموالهم.. كما قرئت فرمانات.. فيها: التنويه بذكر أعيان الكتبة الأقباط والوصية بهم»[1]..

فالأقليات جزء أصيل من نسيج الأمة، لهم كل ما للأمة من الحقوق، وعليهم جميع ما عليها من الواجبات.. ومسئولية الأغلبية فى صد الغوايات، ومعالجة جراحاتها أكبر بكثير من مسئولية الأقليات..

هكذا بدأ.. واستمر.. ويتم اللعب بأوراق الأقليات الدينية.. والقومية ـ غير المسلمة وأيضًا المسلمة فى وطن العروبة وعالم الإسلام.. وهكذا يجب الوعى بمخاطر هذه التحديات التى تواجه وحدة الأمة وتقدمها[2]..

---

(١) [عجائب الآثار فى التراجم والأخبار] ج٥ ص ٢٩٢، ٢٩٩، ٣٠٤.

(٢) انظره بكتاب [حقيقة الإسلام فى عالم متغير] طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة سنة ١٤٢٣هـ سنة ٢٠٠٢م.

عبد الرحمن الكواكبى

[١٢٧٠ ـ ١٣٢٠ هـ ـ ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢م]

هو عبد الرحمن بن أحمد بهائى بن محمد بن مسعود الكواكبى [١٢٧٠ ـ ١٣٢٠هـ = ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢م].. واحد من أبرز المجددين والمصلحين الإسلاميين فى عصرنا الحديث.

ولد فى حلب، من أرض الشام، فى أسرة «شريفة» النسب، ذات نفوذ علمى وإدارى، كانت تتوارث «نقابة الأشراف» فى حلب الشهباء.

وفى تكوينه العلمى، درس علوم العربية، الموروثة والحديثة، والعلوم الإسلامية، وأجاد ـ مع العربية ـ التركية والفارسية.

وكانت حلب، يومئذ، ولاية عثمانية.. وكانت الدولة العثمانية تعيش عصر تراجعها الحضارى والعسكرى والسياسى.. الأمر الذى ضيق فيها مساحة الحرية إلى حد كبير.. فنشأ الكواكبى وقد نذر نفسه للجهاد ضد الحكم العثمانى، يعمل على تحرير العرب منه، ويبشر بإعادة الخلافة الإسلامية إلى الأمة العربية من جديد!

اشتغل بالصحافة وهو فى الثانية والعشرين من عمره، ثم أصدر بعد عامين صحيفة [الشهباء] أولى الصحف العربية بحلب، وبعد إغلاقها من قبل الأتراك العثمانيين أصدر صحيفة [الاعتدال]، فلاقت نفس المصير!

ولقد شغل الكواكبى عددًا من المناصب الإدارية والاقتصادية المهمة فى ولاية حلب، واحترف التجارة فترة من الزمن، كما كان مرجعًا للمحاماة فى القانون!.. وعمل «عرضحالجيًّا»، يحرر ظلامات وشكايات المظلومين ضد الأتراك؟!

ولقد تصاعد عداء العثمانيين له ولنشاطه، فأدخلوه السجن، متهمًا بمحاولة اغتيال الوالى التركى، وحُكم عليه بالإعدام من القضاء التركى بحلب، ثم برأته محكمة «بيروت».

ولما ضاقت به دنيا حلب، وأُغلقت أمامه سبل الإصلاح بها، هاجر سرًّا إلى مصر [١٣١٧هـ ـ ١٨٩٩م]، وفى القاهرة نشر فصول كتابه المتميز [طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد]، نشرها فى صحيفة [المؤيد] دون توقيع.. وفيها طبع كتابه [أم القرى] ـ وهو مذكرات اجتماعات جمعية «أم القرى» السرية، التى ضمت ممثلين للولايات العربية العثمانية، وللمسلمين فى مختلف بلاد الإسلام، وخارج بلاد الإسلام.. عندما اجتمعوا، سرًّا، بمكة المكرمة، فتدارسوا أسباب تخلف المسلمين، والسبيل إلى نهضتهم.. نشر الكواكبى هذا الكتاب بمصر.. ونشر كذلك كتابه [طبائع الاستبداد].. وبدلًا من أن يضع اسمه على غلافيهما، ذكر أن المؤلف هو «الرحالك»!. وذلك مخافة انتقام السلطان العثمانى عبد الحميد [١٢٥٨ ـ ١٣٣٦ هـ = ١٨٤٢ ـ ١٩١٨م].

ومن مصر ـ حيث استقر الكواكبى، وأجرت عليه حكومة الخديو عباس حلمى الثانى [١٢٩١ ـ ١٣٦٣هـ = ١٨٧٤ ـ ١٩٤٤م] راتبًا منتظمًا ـ قام برحلات ساح فيها بعدد من البلاد الإسلامية والأفريقية.

وعندما وافته المنية فى [٧ ربيع الأول سنة ١٣٢٠ هـ = ١٤ يونيو سنة ١٩٠٢م] صادر رجال السلطان عبد الحميد أوراقه الخاصة، وأصول كتب كان قد كتبها ولم تنشر.. وراجت شائعات تقول إنه مات مسمومًا.. ودفن بالقاهرة.. وعلى قبره كتبت كلمة «الشهيد»!. وأبيات شعر لحافظ إبراهيم [١٢٨٧ ـ ١٣٥١هـ = ١٨٧١ ـ ١٩٣٢م] يقول فيها:

هنا رجل الدنيا هنا مهبط التقى   هنا خير مظلوم هنا خير كاتبِ

قفوا واقــرأوا أم الكتاب وسلموا   عليه فهذا القبر قبر الكواكبى

* * *

وكانت القضية الكبرى التى شغلت الكواكبى هى استقصاء أسباب تخلف المسلمين، وبلورة دليل العمل لنهضتهم.. وفى هذا الإطار جاءت الأفكار والقضايا التى عرض لها، والتى أودعها كتابيه الفريدين: [أم القرى] و[طبائع الاستبداد]..

* ولقد احتلت الحرية ـ كنقيض للاستبداد ـ مكانًا محوريًّا فى مشروعه الإصلاحى؛ لأنه رأى فى الاستبداد القيد الذى أعجز كل طاقات الأمة وملكاتها عن الحركة والنهوض.

فالاستبداد مفسد للدين، الذى هو الطاقة المحركة لجمهور الأمة.. وهو مفسد له فى جانب الأخلاق ـ الذى هو أخطر جوانبه ـ حتى ليكاد يحوله إلى مجرد عبادات وشعائر لا تقلق بال المستبدين!

والاستبداد مفسد للتربية.. باستبعاده السياسة وشئون الاجتماع البشرى من نطاق العلوم التى يربى الناشئة عليها!

وهو مفسد للعلوم.. عندما يستبعد علوم الحياة، التى تفتق ملكات الإبداع والنقد والمقاومة من إطار العلوم التى تسمح النظم المستبدة بدراستها.. «ففرائص المستبد ترتعد من علوم الحياة، مثل: الحكمة النظرية، والفلسفة العقلية، وحقوق الأمم، وسياسة المدنية، والتاريخ المفصل، والخطابة الأدبية.. إنه يخاف من العلوم التى توسع العقول، وتعرّف الإنسان ما هو الإنسان، وما هى حقوقه، وهل هو مغبون، وكيف الطلب، وكيف النوال، وكيف الحفظ؟!.».

وعلى حين ـ كما يقول الكواكبى «يسعى العلماء فى نشر العلم، فإن المستبد يجتهد فى إطفاء نوره»! والاستبداد مفسد للاقتصاد؛ لأنه يحول ثروة الأمة، التى هى عطاء الله وفيضه فى الطبيعة، من دائرة «اشتراك الأمة فيها» إلى حيث تصبح احتكارًا لقلة من الأغنياء، يصبحون أعوانًا للمستبد.. إذ «الأغنياء ربائط المستبد، يذلهم فيئنون، ويستدرهم فيحنون؛ ولهذا يرسخ الذل فى الأمم التى يكثر أغنياؤها..»!

ولذلك جاءت دراسة الكواكبى عن الاستبداد فريدة فى بابها.. وأصبح كتاب [طبائع الاستبداد] وحيدًا فى موضوعه.. وشغلت هذه القضية مكان المحور فى

مشروعه الإصلاحى.. ومن كلماته الجامعة فى الحرية والاستبداد: «إن الهرب من الموت موت، وطلب الموت حياة!.. وإن الخوف من التعب تعب، والإقدام على التعب راحة!.. والحرية هى شجرة الخلد، وسقياها قطرات من الدم المسفوح.. والأسارة ـ [العبودية] ـ هى شجرة الزقوم، وسقياها أنهر من دم المخاليق المخانيق!.. والاستبداد لو كان رجلًا وأراد أن ينتسب لقال: أنا الشر، وأبى الظلم، وأمى الإساءة، وأخى الغدر، وأختى المسكنة، وعمى الضر، وخالى الذل، وابنى الفقر، وبنتى البطالة، وعشيرتى الجهالة، ووطنى الخراب، أما دينى وشرفى وحياتى: فالمال، المال، المال!..».

فالحرية أم الفضائل جميعًا.. والاستبداد رأس الرذائل بإطلاق!.

* وفى تشخيص الكواكبى لأسباب تخلف المسلمين ـ الذى سماه «الفتور» الذى يحول بين الأمة وبين الحركة والنهضة.. رصد ـ وخصوصًا فى كتابه [أم القرى] ـ كل الأمراض التى أصابت الحضارة الإسلامية، الخطير منها والصغير.. وسلط الضوء على الأسباب الأساسية للتخلف.. من مثل:

١ ـ عقيدة الجبر والزهد، المفضية إلى لون من التصوف المعطل لطاقات الناس.. فالطرق الصوفية ـ وليس التصوف المهذب للنفس والمزكى لها ـ قد اجتذبت جماهير غفيرة، أدارت ظهرها لأسباب التقدم وسننه وقوانينه، وأخلدت إلى التواكل واستنامت للبدع والخرافات.

٢ ـ وانعدام التنظيمات والجمعيات، التى تؤلف بين طاقات الناس، وتضمن للأفكار، بالشورى، حصافة أكبر وحصانة تفوق الآراء المفردة.. كما تضمن للمشروعات الكبرى الدوام الذى يتجاوز عمر الأفراد وهمم الأفراد.. وبعبارة الكواكبى «فإن الجمعيات القانونية المنتظمة يتسنى لها الثبات على مشروعها عمرًا طويلًا يفى بما لا يفى به عمر الواحد الفرد، وتأتى بأعمالها كلها بعزائم صادقة لا يفسدها التردد. وهذا هو سر ما ورد فى الأثر من أن يد الله مع الجماعة!..».

وهو بذلك قد نبه على أهمية وضرورة التنظيمات السياسية والأحزاب والجمعيات كأدوات للنهضة، وأوعية لتجميع وترشيد طاقات الأمة الإسلامية.

٣ ـ والإغراق فى الشهوات الحسية، على النحو الذى لا يميز بين رسالة الإنسان وغرائز الحيوان فى هذه الحياة!.

٤ ـ واختلال التوازن بين شئون الدنيا وشئون الآخرة فى حياة عامة المسلمين، على النحو الذى جعل «من دأب الشرقيين ألا يفكروا فى مستقبل قريب، كأن أكبرهمهم منصرف إلى ما بعد الموت فقط!» على حين أن الإسلام قد جعل الدنيا عنوانًا للآخرة.. ونبه على أن اختلال التوازن بينهما لا بد وأن يفضى إلى خسران الصفقتين معًا!.

لقد نبه الكواكبى على كثير من أمراض الفكر والسلوك المتوطنة فى حياة العامة والخاصة.. وسلط كل الأضواء على أمراض الإدارة العثمانية.. أمراض الظلم الاجتماعى.. والاستبداد بالحكم.. والتحلل الإدارى.. والفقر الحضارى.. وتقليد الأجنبى.. والاحتقار للعرب.. وجاهر بضرورة تحرير الأمة العربية من نير العثمانيين، وإعادة الخلافة عربية، وتجديد حياة المسلمين بتجديد الفكر الإسلامى الحديث الذى لا بد وأن يستجيب لمشكلات العصر الذى يعيشون فيه.

ومن كلماته الجامعة فى أسباب فتور الأمة الإسلامية، تلك التى تقول: «من أسباب فتور المسلمين:

تحول نوع السياسة الإسلامية، فلقد كانت نيابية اشتراكية أى «ديمقراطية» تمامًا، فصارت، بعد الراشدين، ملكية مقيدة، ثم صارت أشبه بالمطلقة..

ولقد أثبت الحكماء أن المنشأ الأصلى لشقاء الإنسان هو وجود السلطة القانونية منحلَّة، ولو قليلًا؛ لفسادها، أو لغلبة سلطة شخصية أو أشخاصية عليها.

ومن أعظم أسباب فخر أمتنا: أن شريعتنا مبنية على أن فى أموال الأغنياء حقًّا معلومًا للبائس والمحروم، لكن حكوماتنا قد قلبت الموضوع، فصارت تجبى الأموال من الفقراء والمساكين وتبذلها للأغنياء، وتحابى بها المسرفين والسفهاء»!

لقد دعا إلى حكومة شورية خاضعة لرقابة الأمة، «فالحكومة من أى نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التى لا تسامح فيها..».

وحاول الكواكبى تأليف الجمعيات التى تعمل فى سبيل تطبيق المشروع الإصلاحى الذى بشر به؛ لأنه لم يكن من أنصار الثورات العفوية والتمردات غير المدروسة.. وإنما أكد على «أنه يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ما يُستبدل به الاستبداد!..»[١].

* * *

(١) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى] دراسة وتحقيق: دكتور محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٥م. وطبعة دار الشروق القاهرة. و[عبد الرحمن الكواكبى: شهيد الحرية ومجدد الإسلام] للدكتور محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م. و[عبد الرحمن الكواكبى: هل كان علمانيًّا؟] طبعة نهضة مصر. القاهرة.

طبائع الاستبداد
ومصارع الاستعباد للكواكبى

[١٢٧٠ ـ ١٣٢٠ هـ ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢م]

الاستبداد هو: الانفراد بالسلطة والسلطان، فى أى ميدان من ميادين السلطة والسلطان.. فى الأسرة.. أو الديوان.. أو الدولة والحكومة.. أو فى المال والثروة.. أو فى اتخاذ القرار.. أو فى تنفيذ هذا القرار..

ولأن القرآن الكريم قد سن للناس ـ فى اجتماعهم الإنسانى ـ سننًا وقوانين لا تبديل لها ولا تحويل.. سننًا حاكمة للتقدم وللتخلف.. للعدل والجور.. للنهوض والانحطاط.. فلقد تحدثت آيات القرآن الكريم عن أن الانفراد بالسلطة والسلطان، والعدول عن المشاركة والاشتراك، هو السبيل المفضى إلى الطغيان.. قطع بذلك القرآن الكريم، وأكّده بأدوات التوكيد عندما قال سبحانه وتعالى:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

ولقد ضرب القرآن الكريم الأمثال على صدق هذه السنة، وعموم هذا القانون، وعلى الآثار الكارثية لسيادة هذا الاستبداد فى حياة الأمم والشعوب والحضارات، ليدرك الناس أن النعمة كلها فى الشورى والمشاركة والاشتراك، وأن النقمة جميعها فى الاستئثار والاستبداد والطغيان.

* ففرعون، الذى اعتبر حكم مصر وخيراتها له هو، وليس لشعبها، فقال:

﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ﴾ [الزخرف: ٥١].

قد قادته هذه الأثرة وهذا الاستبداد إلى الظلم والطغيان، الذى جعله يدّعى الألوهية.. ومن ثم يحتكر صناعة القرار:

﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

ولقد كانت الكارثة هى عاقبة هذا الاستبداد الفرعونى.. تلك الكارثة التى لم تقف عند فرعون وحده، وإنما شملت ملأه والنخبة التى رضيت بهذا الاستبداد، وختنعت له، وشاركت فيه، وربطت مصيرها بمصيره، ومن ثم لم تنتفض عليه، كما صنع موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ والسحرة الذين آمنوا برب هارون وموسى، ولم ترهبهم آلات التعذيب التى اصطنعها هذا الاستبداد.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ
ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ
خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ
لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى
هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ
وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ
﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ
عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٠ ـ ٧٦].

ولأن العواقب الكارثية للاستبداد لا تقف فقط عند المستبد، وإنما تشمل الذين رضوا أو خنعوا لهذا الاستبداد ـ وذلك انطلاقًا من السنة القرآنية:

﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

كانت عواقب الاستبداد الفرعونى شاملة للجميع..

وحتى يعتبر الناس بهذه العواقب الكارثية للاستبداد، شاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجعل من «بدن» فرعون ـ بعد غرقه ـ آية وعبرة باقية، ليعتبر بها حتى الذين لم يشاهدوا بعيونهم عواقب هذا الاستبداد:

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ [يونس: ٩٢].

* وفى مدرسة النبوة، التى صنع فيها الرسول ﷺ على عينه الجيل الفريد الذى أقام الدين وأسس الدولة على الشورى والمشاركة، كان درس الاستبداد الفرعونى حاضرًا فى دراسة فلسفة التاريخ..

يشهد على ذلك الحوار الذى دار بين الصحابى «حاطب بن أبى بلتعة» (٣٥ ق.هـ ـ ٣٠ هـ ـ ٥٨٦ ـ ٦٥٠م) ـ الذى حمل رسالة رسول الله ﷺ إلى «المقوقس» والشعب المصرى.. فلقد ذكّر حاطب المقوقس بالاستبداد الفرعونى، وبعاقبة هذا الاستبداد، كى لا يسلك ذات الطريق، فيلقى ذات المصير، فقال ملخصًا آفة الاستبداد وعاقبته فى كلمات جامعة:

ـ «إنه قد كان قبلك رجل زعم أنه الرب الأعلى، فانتقم الله به ثم انتقم منه. فاعتبر بغيرك، ولا يُعْتَبَر بك»!

* وفى مقابلة هذا النموذج الكارثى للاستبداد الفرعونى، ضرب القرآن الكريم مثلًا للمشاركة والشورى والاشتراك والحكم بواسطة المؤسسات الشورية، ذلك الذى مارسته ملكة سبأ (بلقيس) عندما احتكمت ـ فى اتخاذ القرار ـ إلى المؤسسة الشورية، ولم يغرّها التفويض الذى منحته إياها هذه المؤسسة:

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ [النمل: ٣٢].

* وكما كانت العاقبة الكارثية للاستبداد الفرعونى بالرأى والقرار والتنفيذ.. كان الخسف عاقبة الاستبداد القارونى بالمال والثروة والسلطان المتولد عن احتكار الثراء:

﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ
بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ
ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ
ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ
ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ
مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ
خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ
فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ
تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ
أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا
يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٨٣].

* * *

وإذا كان القرآن الكريم قد أفسح ـ فى سوره ـ مكانًا واسعًا للقصص التاريخى، لنتلعم منه العبر والعظات وفلسفة السنن الإلهية الحاكمة للاجتماع الإنسانى عبر هذا التاريخ فإننا لا نغالى إذا قلنا:

* إن لعنة الاستبداد قد مثلت «أم الكبائر» على امتداد صفحات تاريخ الأمم والشعوب والحضارات..

* وإن مجابهة هذه اللعنة رهن بالوعى بالعواقب الكارثية لهذا الاستبداد..

وأن نقول ـ أيضًا ـ:

* إن كتاب «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» الذى جادت به عبقرية الإمام الشهيد عبد الرحمن الكواكبى [١٢٧٠ ـ ١٣٢٠ هـ، ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢م] هو أفضل ما يمكن أن تستنير به العقول والقلوب، إذا أردنا ـ حقًّا ـ محاربة الاستبداد، والنجاة من

العواقب الكارثية لهذا الداء الوبيل.. إنه كتاب فريد، لا نظير له فى تراثنا القديم أو الحديث..

* * *

* بل إننا لا نغالى إذا قلنا إن كتاب الكواكبى [طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد] ـ الذى كتب قبل ما يقرب من قرن وربع القرن ـ هو كتاب الساعة!!.

فعند ما نقرأ فى [تقرير اليونسكو] عن سنة ٢٠١٦م «إن ١٪ من سكان العالم يمتلكون نصف ثروات العالم.. وأن ٦٢ ملياردير يملتكون ثروة تعادل ما يمتلكه ٣,٥ مليار من سكان العالم ـ أى نصف البشرية ـ.. وعندما يذاع أثناء انعقاد قمة الدول العشرين ـ فى يوليو سنة ٢٠١٧م ـ أن ثمانية أشخاص يمتلكون ما يساوى نصف البشرية..

وعندما تنشر [منظمة أوكسفام] أن ٢٠٪ من دول العالم ـ هم سكان الشمال ـ يستحوذن على ٨٥ ٪ من مدخرات العالم وخيراته.. نتذكر أعظم وأعمق ما كتب ـ فى الفكر الإنسانى عن الاستبداد.. كتاب المجدد المجاهد الشهيد عبد الرحمن الكواكبى [١٢٧٠ ـ ١٣٢٠ هـ ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢م] [طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد] الذى حلل فيه منابع ومصادر الاستبداد.. ومظاهره.. ومخاطره.. وطرق مقاومته والخلاص من شروره..

ففى هذا الكتاب الفذ تحدث الكواكبى عن الاستبداد المالى ـ استبداد القلة بمعظم الثروة ـ فقال ـ ضمن ما قال: «إن أهل السياسة والأديان ومن يلتحق بهم، وعددهم لا يبلغ الخمسة فى المائة، يتمتعون بنصف ما يتجمد من دم البشر أو زيادة، ينفقون ذلك فى الرفه والإسراف. مثال ذلك، أنهم يزينون الشوارع بملايين من المصابيح لمرورهم فيها أحيانًا متراوحين بين الملاهى والمواخير، ولا يفكرون فى ملايين الفقراء يعيشون فى بيوتهم فى ظلام.

ثم أهل الصنائع النفسية والكمالية والتجار الشرهون والمحتكرون وأمثال هذه الطبقة، ويقدرون كذلك بخمسة فى المائة، يعيش أحدهم بمثل ما يعيش به العشرات

أو المئات أو الألوف من الصناع والزراع. وجرثومة هذه القسمة المتفاوتة المتباعدة الظالمة هى الاستبداد لا غيره.

وهناك أصناف من الناس لا يعملون إلا قليلًا، إنما يعيشون بالحيلة، كالسماسرة والمشعوذين باسم الأدب أو الدين، وهؤلاء يقدرون بخمسة عشر فى المائة أو يزيدون على أولئك..

ومن طبائع الاستبداد أن الأغنياء أعداؤه فكرًا وأوتاده عملًا، فهم ربائط المستبد، يذلهم فيئنون، ويستدرهم فيحنون، ولهذا يرسخ الذل فى الأمم التى يكثر أغنياؤها..

وإن الأكابر حريصون على أن يبقى الاستبداد مطلقًا لتبقى أيديهم مطلقة فى الأموال..».

* وكما تستند «الفرعونية السياسية» إلى «القارونية المالية».. فإنها تستند ـ كذلك ـ إلى قوة الجند والجندية.. وفى الحديث عن دور العسكر والعسكرة والجند والجندية أبدع الكواكبى فى تشخيص هذا الداء العضال.. فكتب يقول: «أما الجندية، فإنها تفسد أخلاق الأمة، حيث تعلمها الشراسة والطاعة العمياء والاتكال، وتميت النشاط وفكرة الاستقلال.. وإذا كان الشيطان هو مخترع الجندية، فقد انتقم من آدم فى أولاده أعظم ما يمكنه أن ينتقم»!

* وعلى حين ظن البعض ـ ولا يزالون يظنون ـ أن الاستبداد مركوز فقط فى السلطة السياسية.. نبه الكواكبى على القوى العديدة الداعمة للاستبداد السياسى ومنها: قوة الإرهاب بالعظمة.. وقوة الجند.. وقوة المال.. وقوة الألفة على القسوة.. وقوة رجال الدين.. وقوة أهل الثروات.. وقوة الأنصار من الأجانب..

* وقبل أن يكتب «لينين» [١٨٧٠ ـ ١٩٢٤م] كتابه [الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية].. تحدث الكواكبى عن دور الرأسمالية الربوية فى الاستعمار، وذلك عندما «تُقوّى الاستبداد الخارجى، فتسهل للأمم التى تغنى بغناء أفرادها التعدى على حرية واستقلال الأمم الضعيفة.. ولذلك يجب تحريم الربا تحريمًا مغلظًا».

* وإذا كان البعض قد اكتفى ـ فى مقاومة الاستبداد ـ بتغيير رأس السلطة المستبدة.. فإن الكواكبى قد سمى ذلك «حماقة» عندما قال: «إن الثورة الحمقاء تكتفى بقطع شجرة الاستبداد، ولا تقتلع جذورها، فلا تلبث أن تنبت وتنمو وتعود أقوى مما كانت أولًا»!.

* إنه كتاب الساعة.. ولكن الكثيرين لا يفقهون!؟

الإعلان الإسلامى لحقوق الإنسان

فى ١٨ من صفر سنة (١٣٦٩هـ) ١٠ ديسمبر سنة (١٩٤٨م) أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة «الإعلان العالمى لحقوق الإنسان»، ذلك الذى جسَّد وقنَّن ثمرات جهود ونضالات إنسانية كثيرة، فى حقول الفكر وميادين المعاناة، على درب سعى الإنسان لتقنين ما له من حقوق فى مواجهة قوى الاستبداد والاستغلال..

وإذا كانت هناك شواهد عديدة على أن فلسفة مبادئ هذا «الإعلان» قد جاءت امتدادًا لفلسفة فكرية الحضارة الغربية ـ أولًا وبالدرجة الأولى ـ فى حقوق الإنسان.. فإن هناك شواهد أكثر وأكثر على أن التطبيق لمبادئ هذا «الإعلان» قد ظل حتى الآن ـ فى كثير من الحالات ـ وقفا على الإنسان الغربى قبل سواه، وأكثر من سواه، إن لم يكن دون سواه؟!

وإذا كان المقام مقام المقارنة بين عطاء الإسلام فى هذا الميدان وعطاء هذا «الإعلان» فإن هناك ما هو أهم من الفارق الزمنى والعراقة التاريخية التى جعلت عطاء الإسلام فى ميدان حقوق الإنسان سابقًا على هذا الإعلان بما يقرب من أربعة عشر قرنًا من الزمان.. هناك تميز فلسفة الإسلام إزاء حقوق الإنسان عن فلسفة الحضارة الغربية التى جسدها وقننها هذا الإعلان.. فالفوارق بين النظرة الإسلامية والنظرة الغربية لحقوق الإنسان ليست فقط زمنية.. ولا كمية.. وإنما هى أيضًا وبالدرجة الأولى «نوعية» و«كيفية».. وتلك هى المهمة التى تطمح للبرهنة عليها، والتمثيل لها، هذه الصفحات..

واجبات.. وليست مجرد حقوق

إن هذا الذى عرفته فكرية الحضارة الغربية، حديثًا فى باب «حقوق» الإنسان، قد عرفته الحضارة الإسلامية ـ بل ومارسته ـ قديمًا، لا كمجرد «حقوق» للإنسان، وإنما «كفرائض إلهية وتكاليف وواجبات شرعية»، لا يجوز لصاحبها ـ الإنسان ـ أن يتنازل عنها أو يفرط فيها، حتى بمحض اختياره إن هو أراد!

وتلك زاوية لرؤية القضية، ودرجة فى تناولها، لاشك أنها إضافة «نوعية» و«كيفية» تزيد هذا الفكر غنى وأصالة وعمقًا، وتوفر له المزيد من الفعالية وقوة التأثير.

لقد أجملت الشريعة الإسلامية هذه الحقيقة عندما جعلت الحفاظ على «النفس» و«الدين» و«العقل» و«العرض» و«المال» ـ وهى جماع السياج الحافظ والمحقق لحقوق الإنسان ـ عندما جعلتها فرائض إلهية وتكاليف شرعية، وليست مجرد «حقوق» يجوز التنازل عنها، حتى بالاختيار.. بل لقد جعلتها «فرائض كفائية» ـ اجتماعية ـ وهى آكد فى نظر الشريعة من «فرائض العين» ـ الفردية ـ فتخلف فرض الكفاية تأثم به الأمة، بينما الإثم بتخلف فرض العين خاص بالذات الفردية!

فالحفاظ على «الحياة» ـ بنظر فكرية الحضارة الغربية ـ هو «حق» من حقوق الإنسان.. لكن لصاحب هذا «الحق» حرية التنازل عنه بالاختيار.. ولذلك لا تجرِّم هذه الحضارة من يتنازل عن حقه فى الحياة بالانتحار.. أما النظرة الإسلامية فإنها ترى فى الحفاظ على الحياة فريضة إلهية وواجبًا شرعيًا، لا يجوز حتى لصاحبها، أن يفرط فيها.. بل لقد أوجبت عليه القتال حتى النصر أو الشهادة دفاعًا عن مقومات هذه الحياة، كما حرمت عليه القنوط الذى يقوده إلى الانتحار، الذى رأته جريمة يأثم مرتكبها إثمًا كبيرًا.

و«العلم».. فى فكرية الحضارة الإسلامية، ليس مجرد «حق» من حقوق الإنسان.. بل هو ـ كالنظر والتفكر ـ فريضة إلهية وتكليف شرعى واجب، يأثم الإنسان إن هو فرط فيه.. ولا يجوز له التنازل عنه بحال من الأحوال.. بل إن التفقه والتخصص والبراعة فى مختلف العلوم والمعارف تزيد فى الدرجة توكيدًا وفى مراتب الفريضة علوًّا، إلى الحد الذى جعلها الإسلام «فريضة كفاية».. أى فريضة اجتماعية أشد توكيدًا من الفرائض «العينية ـ الفردية».

﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

و«المشاركة فى الشئون العامة» ـ سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية.. إلخ ـ أى الإسهام الإيجابى ـ قدر الطاقة ـ فى إقامة الاجتماع الإنسانى والعمران البشرى الراشد.. فى النظرة الإسلامية، ليس مجرد «حق» من حقوق الإنسان.. وإنما هى فريضة واجبة، لأنها جزء من إقامة فريضة «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

التى تتحقق بإقامتها خيرية الأمة: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وتنتفى عنها اللعنة: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

بل إن التفريط فى هذا الواجب إنما يفتح على المفرِّط باب الخروج من جماعة الأمة ـ والعياذ بالله!.. فمن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم!

فالمشاركة الإيجابية فى الشئون العامة ليست مجرد «حق».. ولذلك، فإن «السلبية»، فى النظرة الإسلامية، ليست حقًّا من حقوق الإنسان، حتى وإن اختارها دون إكراه؟!

و«الحرية».. رأتها وتراها حضارتنا الإسلامية فريضة إلهية وواجبًا شرعيًا، هى الأخرى؛ لأنها مساوية «للحياة».. ولقد أدرك علماؤنا السر فى جعل «تحرير الرقبة» كفارة عن «القتل الخطأ».. فنبهوا على ما فى الرق والعبودية من معنى «الموت»، وما فى العتق والحرية من معنى «الحياة»!. فمن أخرج من الحياة نفسًا، بقتلها خطأ، فعليه أن يُدْخِل فى الحياة نفسًا أخرى، بتحريرها من موت الاسترقاق.. وفى تفسير

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ۚ﴾ [النساء: ٩٢].

يقول علماؤنا

«إنه (أى القاتل) ـ لما أخرج نفسًا من جملة الأحياء، لزمه أن يدخل نفسًا مثلها فى جملة الأحرار؛ لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها، من قبل أن الرقيق ملحق بالأموات، إذ الرق أثر من آثار الكفر، والكفر موت حكمًا: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢][(١)].

وليس ذلك بغريب على حضارة دين ذهب قرآنه الكريم إلى أن جعل هذا الواجب ـ «الحرية» ـ جماع رسالة خاتم الرسل والأنبياء ﷺ.. فغايات الرسالة ـ فى الجانب الإنسانى ـ صياغة الإنسان: المشارك فى شئون أمته.. والمراعى للحلال والحرام فى علاقاته بالأشياء.. والمتحرر من القيود والأغلال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

و«العدل».. فى النظرة الإسلامية فريضة.. وليس مجرد «حق».. وهو يعنى تحقيق التوازن والوسطية، التى تحقق التكامل بين الإنسان وبين الجماعة ـ كعضو حى فى جسد حى ـ والإسلام لا يقف بهذا العدل عند الجانب القانونى وحده، وإنما يعممه فى كل الميادين.. ومنها ميدان الثروات والأموال ـ العدل الاجتماعى ـ فالملكية الحقيقة ـ ملكية الرقبة ـ فى الثروات والأموال إنما هى لله ـ سبحانه وتعالى ـ وللإنسان فى المال ملكية الاستخلاف عن المالك الحقيقى.. ملكية مجازية، هى الحيازة المحققة للوظيفة الاجتماعية للمال، مضبوطة بضوابط الشريعة، التى هى بنود عقد وعهد

---

(١) النسفى (مدارك التنزيل) (١/ ١٨٩) ـ طبعة القاهرة ـ سنة (١٣٤٤هـ).

استخلاف الله للإنسان فى هذه الأموال والثروات: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الحديد: ٧].

وإذا كان المسلم يستعيذ بالله من الفقر والكفر؛ لأنهما صنوان! فإنه منهى عن الاستبداد بالمال والانفراد بثمراته، لأن ذلك هو الطريق إلى الطغيان: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦، ٧].

هكذا تتجلى مذهبية الوسطية الإسلامية فى ملكية الأموال والثروات.

وإذا كان القرآن الكريم يحدد نطاق الإنفاق عندما يقول: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٩].

فإن الرسول الكريم ﷺ هو القائل: «من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له». قال: (الراوى الصحابى أبو سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه): فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد فى فضل[(١)].. وهو القائل فى التكافل ـ المحقق للتوازن ـ العدل ـ كمعيار للدخول أو الخروج فى ذمة الله ورسوله: «من احتكر طعامًا أربعين ليلة فقد برئ من الله تعالى وبرئ الله تعالى منه، وأيما أهل عَرْصَة[(٢)] أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله تعالى»[(٣)].. وعلى هذا الدرب سارت تطبيقات الحضارة الإسلامية.. فوجدنا الراشد الثانى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يُقْسم: «والذى نفسى بيده! ما من أحد إلا له فى هذا المال حق، أُعطيه أو مُنعه، وما أحد أحق به من أحد، وما أنا فيه إلا كأحدهم.. فالرجل وبلاؤه.. والرجل وقدمه.. والرجل وغناؤه.. والرجل وحاجته.. هو مالهم يأخذونه. ليس هو لعمر ولا لآل عمر»[(٤)].. ووجدنا الراشد الرابع على ابن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ يقول: «إن الله فرض فى أموال الأغنياء أقوات

(١) رواه مسلم وأبو داود والإمام أحمد.

(٢) العَرْصَة: المحلة والناحية والحى.

(٣) رواه الإمام أحمد.

(٤) (طبقات ابن سعد) [٢/ ق ١/ ٢١٥، ٢١٦، ٢١٩] ـ طبعة دار التحرير ـ القاهرة.

الفقراء، فما جاع فقير إلا بما مُتِّع به غنى!.. إن الغنى فى الغُربة وطن، والفقر فى الوطن غُربة.. وإن المقل غريب فى بلدته! أنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية، لا فضل فيه لأحد على أحد!...»[١].. ووجدنا الراشد الخامس عمر ابن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ الذى أعاد إقامة ميزان العدل، بعد أن اختل ـ يعلن فى الناس أن «المال نهر أعظم.. والناس ـ شِرْبُهم[٢] فيه سواء!)[٣].. فالعدل فريضة.. وليس مجرد حق من الحقوق.. وفى سبيلها يجب الجهاد حتى النصر أو الشهادة.. وفى ذلك يقول ابن حزم الأندلسى [٣٨٤ ـ ٤٥٦هـ/ ٩٩٤ ـ ١٠٦٤م]: «وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم، ولا فيىء سائر أموال المسلمين بهم، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لابد منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة.. ولا يحل لمسلم اضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعامًا فيه فضل عن صاحبه لمسلم أو لذمى.. وله أن يقاتل عن ذلك، فإن قُتل فعلى قاتله القَوَد، وإن قُتل المانع فإلى لعنة الله، لأنه منع حقًّا، وهو طائفة باغية، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

ومانع الحق باغٍ على أخيه الذى له الحق. وبهذا قاتل أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ مانعى الزكاة..»[٤].

إنها فلسفة متميزة للإسلام وحضارته فى هذا الميدان.. فالأمر ليس مجرد «حقوق» للإنسان.. وإنما هى فرائض إلهية، وتكاليف شرعية.. لأن الغاية من خلق الإنسان، وهى عبادته لله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

(١) (نهج البلاغة) [ص ٣٦٦، ٣٧٣، ٤٠٨] ـ طبعة دار الشعب ـ القاهرة و(شرح نهج البلاغة) (٧/ ٣٧) ـ طبعة القاهرة.

(٢) الشرب: النصيب من الماء.

(٣) (كتاب الأغانى) [٩/ ٣٣٧٥] ـ طبعة دار الشعب ـ القاهرة.

(٤) ابن حزم (المحلى) [٢/ ٥٩] ـ طبعة القاهرة.

لا تتحقق فى صورتها المثلى إلا بإقامة الدين، ولا سبيل إلى ذلك إلا بصلاح الدنيا.. فصلاح دنيا الإنسان واجب دينى، يتوقف عليه تحقيق واجب إقامة الدين، الذى هو الهدف من خلق الإنسان، وخلافته عن الله.. وبعبارة الإمام الغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ/ ١٠٥٨ ـ ١١١١م]: «فإن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا.. فنظام الدين بالمعرفة والعبادة، لا يُتوصل إليهما إلا بصحة البدن، وبقاء الحياة، وسلامة قدر الحاجات، من الكسوة والمسكن والأقوات والأمن. فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية، وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقًا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة وطلب قوته من وجوه الغَلَبة، متى يتفرغ للعلم والعمل، وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة؟.. فإذن بان إن نظام الدنيا ـ أعنى مقادير الحاجة ـ شرط لنظام الدين[1].

فكل مقومات صلاح دنيا الإنسان ـ المعبر عنها بحقوق الإنسان ـ هى ـ بنظر الإسلام ـ فرائض وضرورات، وليست مجرد «حقوق» يجوز التنازل عنها، حتى لو كان هذا التنازل طواعية واختيارًا.. وسبحان الله العظيم الذى علمنا أن عبادتنا إياه إنما هى الشكر على ما أفاضه علينا من مقومات الأمن ـ المادى والمعنوى ـ فى هذه الحياة: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣، ٤].

ومطلق الإنسان.. وليس امتيازًا الإنسان على إنسان

وإذا كانت هذه الإشارات كافية فى تقرير تميز فلسة الإسلام وحضارته فى قضية «الحقوق».. حقوق الإنسان.. فإن للإسلام وحضارته تميزًا آخر فى «إنسان» هذه الحقوق!

فتطبيقات الحضارة الغربية فى ميدان حقوق الإنسان شاهدة على أن الإنسان الذى استحق أن تُكْفَل له هذه الحقوق إنما هو الإنسان الأبيض قبل سواه وأكثر من سواه، وفى أحيان كثيرة دون سواه؟!

(١) (الاقتصاد فى الاعتقاد) [ص ١٣٥].

فإنسان الحقبة اليونانية، صاحب الحقوق، كان القلة الحرة ـ السادة ـ المشتغلة بالعمل الذهنى.. وإنسان الغرب الحديث والمعاصر، صاحب الحقوق، كاد أن يكون الإنسان الغربى دون سواه.

وإذا كان الواقع الصارخ من حولنا يغنى عن ضرب الأمثال.. فإننا نتخير مثالين شاهدين على هذا التميز.

لقد عشنا حينًا من الدهر ـ وكثمرة من ثمرات الغفلة والغزو الفكرى ـ نلقن أبناءنا فى المدارس والجامعات، أن من أسباب نهضاتنا وثوراتنا الحديثة ما أشاعته مبادئ الرئيس الأمريكى ويلسون Wilson (توماس وودرو) [١٨٥٦ ـ ١٩٢٤م] ـ الذى حكم الولايات المتحدة الأمريكية ما بين سنة [١٩١٣ و١٩٢١م] ـ ما أشاعته مبادئه الأربعة عشر من انتعاش لحقوق الإنسان، وخصوصًا فى مجال حقه فى «تقرير المصير» عقب الحرب الاستعمارية العالمية الأولى.

لكننا عندما نتأمل هذه المبادئ، لا يصعب علينا أن نكتشف فيها عنصرية الرجل الأبيض وتمييزه بين أبناء حضارته الغربية وغيرهم فى «حق تقرير المصير»!

(أ) فهذه المبادئ التى خدعونا فقالوا: إنها إعلان لحق الشعوب ـ كل الشعوب ـ فى تقرير المصير ـ كانت ـ فى حقيقتها ـ مبادئ التقنين لزحف القوى الغربية على مقدرات الشعوب الضعيفة.. وذلك عندما يدعو المبدأ الثالث منها إلى «إزالة الحواجز الاقتصادية بين الشعوب بقدر الإمكان». فى ظروف انعدم فيها تكافؤ الفرص ومقومات المنافسة الاقتصادية المتكافئة بين شعوب أمتنا والأمم المماثلة وبين شعوب الحضارة الغربية فى ذلك التاريخ.

(ب) وهى مبادئ التمييز العنصرى بين الشعوب فى «حق تقرير المصير»، عندما تذكر هذا الحق صراحة وتعترف به بالنسبة للشعوب الأوروبية البيضاء، فينص المبدأ التاسع على «تعديل حدود إيطاليا بما يتفق مع توزيع القوميات الإيطالية».. وينص المبدأ العاشر على «تقسيم النمسا والمجر تقسيمًا يتفق مع توزيع قوميات الإمبراطورية».. وينص المبدأ الحادى عشر على «تعديل الحدود فى شبه جزيرة البلقان بما يتفق مع الأوضاع

التاريخية وتوزيع القوميات».. فيقرر هذا الإعلان للقوميات الأوروبية حقوق أهلها فى تقرير المصير وفق سماتها وقسماتها ومكوناتها القومية، وأوضاعها التاريخية.

فإذا ما جاءت هذه المبادئ إلى الملونين، وإلى أوطان شعوب الأمة الإسلامية على وجه الخصوص اختفى منها تعبير «تقرير المصير» ورأينا المبدأ الثالث عشر يقرر تصفية.. الخلافة والسلطنة العثمانية، دون أن يذكر لشعوب هذه الخلافة أى حق فى تقرير المصير.. فينص هذا «المبدأ» على «قصر حكم الأتراك على رعايا جنسهم، وتقرير حرية الملاحة فى مضيق الدردنيل»!. وذلك لأن إعلان هذه «المبادئ» قد تم فى ذات الوقت الذى كان فيه الغرب يمهد الطريق لتقسيم تركة «دولة الرجل المريض» بين قواه الاستعمارية.. فكان أن اعترفت هذه «المبادئ» للرجل الأبيض ـ كشعوب أوروبية ـ بحقها فى تقرير مصيرها بنفسها.. واعترفت كذلك للرجل الأبيض ـ كمستعمر غربى ـ «بحقه» فى تقرير مصائر شعوبنا الإسلامية نحن، رغمًا عنا، وفى عيبة منَّا!! فقصروا حكم الأتراك على جنسهم التركى.. واقتسموا المشرق العربى وفق معاهدة «سيكس بيكو» السرية، التى عقدوها سنة ١٩١٦م وقررت الحركة الصهيونية التى هى نبت غربى، وشريك فى المشروع الغربى ـ مصير فلسطين، من خارجها، ورغمًا عن شعبها، وذلك وفق وعد بلفور [١٨٤٨ ـ ١٩٣٠م] الذى أعلن فى ٢ نوفمبر سنة [١٩١٧م].. والذى وافق عليه الرئيس الأمريكى ـ صاحب «المبادئ» ـ ويلسون قبل إعلانه!! ثم وافقت عليه فرنسا وإيطاليا.. ثم وضعوه فى الممارسة والتطبيق بواسطة الانتداب البريطانى، الذى باركته «عصبة الأمم» التى أقاموها سنة [١٩٢٠م]!. وهى العصبة التى قالوا إن ميثاقها قد مثل أول تقنين معاصر لحقوق الإنسان!

هذا هو موقف الغرب من مبدأ «حق الشعوب فى تقرير مصيرها»، وتلك هى المكاييل المختلفة ـ بل والمتناقضة والمتعارضة ـ التى يكيل بها فى هذا الموضوع.. وهو لا يزال على موقفه هذا حتى الآن.. فكل صهيونى ـ من أى جنس ووطن ولغة وقومية ـ من «حقه»، وفق القانون الصهيونى، الذى تنفذه حراب الغرب، أن يقرر الاستيطان بفلسطين، فيقرر مصيرها ككيان للاستيطان الصهيونى.. فى الوقت الذى

يقف فيه الغرب، حتى اليوم، موقف العداء من حق الشعب الفلسطينى فى تقرير المصير!

* * *

وفى الوقت الذى كان فيه الغرب يقيم الدنيا، بل ويشن الحروب، بدعوى «تحرير الرقيق» حتى ولو كان هذا الرقيق خادمًا فى منزل ـ كان يسترق ـ بغزوته الاستعمارية الحديثة ـ الأمم والشعوب والقارات.. يسترق إنسانها، ويدمر ويمسخ وينسخ مواريثها وهويتها الحضارية.. بل ويقتلع بعضها اقتلاعًا ليحل محلها أبناؤه البيض بالاستعمار الاستيطانى!

* * *

حدث ذلك.. ولا يزال يحدث، فى الوقت الذى اتخذ فيه الإسلام، منذ نزل قرآنه وبُعث رسوله ﷺ، وقامت دولته، وتبلورت حضارته.. اتخذ فيه الموقف الواضح والحاكم الرافض للتميز بين بنى الإنسان.

فالإسلام يقرر أن التكريم الإلهى إنما هو للإنسان، مطلق الإنسان.. أى لبنى آدم أجمعين، على اختلاف الألوان والعقائد والحضارات والشعوب والقبائل والأعراق: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وبعد هذا التكريم العام تكون التقوى معيار التفاضل بين المكرَّمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

والحرية، التى هى فريضة إلهية وتكليف شرعى، ليست امتيازًا خاصًا، بل هى لكل الناس.. والراشد الثانى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عندما قال كلمته الحكيمة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!».. قالها ومقام الحديث عن إنسان نصرانى ـ قبطى ـ وإبَّان الفتح الذى يقتضى، ضمن ما يقتضى، تمييزًا ـ لدواعى

الأمن ـ بين الفاتحين وبين أهل البلاد المفتوحة، الذين لم يندمجوا بعد فى أمة الفتح، بالمعنى القومى فضلًا عن المعنى الدينى..

والعدل، الذى أراده الله فريضة إنسانية، وليس مجرد «حق» من حقوق الإنسان.. قد جعله الإسلام لمطلق الإنسان.. مسلمًا كان أو غير مسلم.. بل صديقًا كان أو عدوًا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

هكذا تميز الإسلام فى «فلسفة» الحقوق المقررة للإنسان.

وهكذا تميز أيضًا فى «آفاق» الإنسانية، التى جعل لها هذه «الحقوق» فرائض إلهية وتكاليف شرعية، تأثم جميعًا إذا هى نكصت أو تخاذلت عن الجهاد فى سبيل تحقيق هذه الواجبات فى كل مناحى حياة الإنسان.. كل إنسان.

* * *

تلك هى فلسفة الإسلام فى حقوق الإنسان.. نقدم بها بين يدى هذه الوثائق.. وذلك إنصافًا لتاريخنا الحضارى، المفترى عليه.. وخدمة للمجاهدين فى سبيل حقوق الإنسان فى الواقع الذى نعيش فيه.

سائلين المولى ـ سبحانه وتعالى ـ أن ينفع بهذا العمل.. وأن يتقبله خالصًا لوجهه الكريم.. إنه خير مسئول وأكرم مجيب(١).

(١) انظر طبعتنا لهذه الوثائق ـ هدية مجلة [الأزهر] عدد ربيع الآخر سنة ١٤٣٤هـ.

كتاب قاموس المصطلحات
الاقتصادية فى الحضارة الإسلامية
(الرسالة الحضارية للمصطلحات)

من العبارات الشائعة على ألسنة المثقفين وفى كتابات المفكرين والعلماء، عبارة: «إنه لا مشاحَّة فى الألفاظ والمصطلحات».

تتردد هذه العبارة على الألسنة وفى الكتابات بمعنى: أنه لا حرج على أى باحث أو كاتب أو عالم فى أن يستخدم المصطلح؛ أى مصطلح، وبصرف النظر عن البيئة الحضارية أو الإطار الفكرى أو الملابسات المعرفية أو الفلسفية والعقدية التى ولد ونشأ وشاع فيها.. فالمصطلحات والألفاظ ذات الدلالة الاصطلاحية هى ميراث لكل الحضارات، ولجميع ألوان المعرفة، ولكل بنى الإنسان..

وهذه العبارة ـ فى تقديرنا ـ صادقة تمامًا.. لكنها ـ أيضًا ـ تحتاج إلى ضبط لمفهومها، حتى لا يشيع منها الخلط، بل والخداع، كما هو حادث لها ومنها الآن لدى عديد من دوائر الفكر التى ترددها، دون ضبط وتحديد لما يوحى به ظاهرها من مضمون.

فنحن إذا نظرنا إلى أى مصطلح من المصطلحات باعتباره «وعاء» يوضع فيه «مضمون» من المضامين، وبحسبانه «أداة» تحمل «رسالة: المعنى»، فسنجد صلاح وصلاحية الكثير من المصطلحات والألفاظ الاصطلاحية لأداء دور «الأوعية» و«الأدوات» على امتداد الحضارات المختلفة، والأنساق الفكرية المتعددة، والعقائد والمذهبيات المتميزة.. وهنا، سنكون حقًّا وصدقًا أمام المعنى الدقيق والصادق لهذه العبارة ـ عبارة: «إنه لا مشاحة فى الألفاظ والمصطلحات».

أما إذا نحن نظرنا إلى هذه الألفاظ والمصطلحات من زاوية «المضامين»

التى توضع فى أوعيتها، ومن حيث «الرسائل الفكرية» التى حملتها «الأدوات: المصطلحات» فسنكون بحاجة، وحاجة ماسة وشديدة، إلى ضبط معنى هذه العبارة، وتقييد إطلاقها، وتحديد نطاق الصلاح والصلاحية التى يشيع عمومها من عموم ما تحمل من ألفاظ.

هنا، سنجد أنفسنا، عند الفحص والتدقيق، وفى كثيرًا جدًّا من الحالات، وبإزاء العديد من المصطلحات، أمام «أوعية» عامة، و«أدوات» مشتركة بين الحضارات والأنساق الفكرية والعقدية والمذهبية، وفى ذات الوقت، أمام «مضامين» خاصة، و«رسائل» متميزة، تختلف فيها، وتتميز بها هذه «الأوعية» العامة و«الأدوات» المشتركة، لدى أهل كل حضارة من الحضارات المتميزة، وعند كل نسق أو مذهب أو عقيدة من الأنساق الفكرية والمذاهب الاجتماعية والعقائد الدينية، وخصوصًا منها تلك التى امتلكت وتمتلك من السمات الخاصة والقسمات المميزة، ما جعلها ويجعلها ذات مذهبية خاصة وطابع خاص..

* * *

وليس كضرب الأمثال سبيلًا لجلاء هذا المعنى، وتأكيد صدق هذا المفهوم..

فمن المصطلحات الشائعة فى ميدان «التشريع» القانونى مثلًا، مصطلح: «الشارع» يوصف به من «يشرع» القانون، فردًا كان أو جماعة ـ مؤسسة ـ فواضع القانون: «شارع» و«مشرع» له.. والمجالس النيابية، التى تمثل سلطان الأمة فى «تشريع» القوانين، هى «هيئات تشريعية» «تشرع» القوانين.

«فالشارع» ـ هنا ـ و«مصدر التشريع» و«واضع الشريعة»: هو إنسان، فردًا كان أو هيئة تشريعية..

هذا هو حال مصطلح «الشارع» و«التشريع» و«الشريعة» فى ميدان «القانون».. فهل ـ حقًّا ـ «لا مشاحة» فى هذا المصطلح الشائع، وفيما يحمل «وعاؤه» من «مضمون»؟

إن الإجابة عن هذا السؤال لن تكون واحدة لدى أبناء كل الحضارات الإنسانية، وفى إطار كل الأنساق الفكرية، ومن قِبل كل المعتقدين بمختلف المذاهب

والمعتقدات.. ومن ثم فإن هناك «مشاحة» أكيدة فى هذا المصطلح.. مشاحة تامة فى مضمونه، ومشاحة كبيرة فيه كوعاء صالح، وكأداة دقيقة وصالحة لحمل الرسالة والمضمون.

إن ابن الحضارة الغربية، الذى لا يؤمن بوجود شريعة إلهية تنظم الجانب المدنى والاجتماعى والاقتصادى والسياسى للدولة والاجتماع البشرى والعمران الإنسانى، يؤمن بأن الإنسان ـ فردًا كان أو طبقة أو أمة ـ هو المصدر الأول والأخير للشريعة والتشريع.. فالإنسان هو «الشارع» ـ سواء أكان ذلك فى إطار أصول الشريعة ـ قواعد ومبادئ القانون الطبيعى، كما تسمى فى الحضارة الغربية ـ أم فى إطار فروع الشريعة ـ القانون.

فهذا المصطلح ـ «الشارع» ـ بهذا المعنى طبيعى وصادق فى هذا الإطار؛ إطار الحضارة التى لا تؤمن بوجود «شارع» غير هذا الإنسان، وخارج هذا «الواقع المادى»، سواء أكان السبب فى ذلك هو الطابع المادى الإلحادى لهذه الحضارة، أم المنحى والتوجه العلمانى الذى يرفض تحكيم «الإلهى» فى شئون «الدولة والاجتماع والعمران»..

ولما كان هذا الموقف، هو «شأن غربى» وسمة من سمات الحضار الغربية، وقسمة من قسمات طابعها المادى ومذهبها العلمانى، فإنه ليس من المشترك الإنسانى العام.. حتى يصبح مصطلحها فيه ومضمون هذا المصطلح مما «لا مشاح فيه» فى أية حضارة من الحضارات.

ففى الحضارة الإسلامية، التى مثلت العقيدة الإسلامية، وتمثل أيديولوجيتها ومذهبية أمتها منذ أن أصبحت الروح السارية فى كل علوم تمدنها المدنى وإبداعها الإنسانى فى الحضارة ـ بما فيه من سياسة واجتماع واقتصاد ودولة وعمران ـ فى هذه الحضارة الإسلامية، يدل مصطلح «الشارع» على واضع أصول الشريعة، ويختص به.. وهذه الأصول ليست إبداعًا إنسانيًّا ـ كالقانون الطبيعى فى الحضارة الغربية ـ وإنما هى «وضع إلهى» نزل به الوحى، دينًا يتدين به إنسان هذه الحضارة... ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

ولما كانت هذه الشريعة الإلهية، هى خاتمة الشرائع الإلهية لبنى الإنسان، فلقد وقف «شارعها» ـ الله، سبحانه وتعالى ـ فيها وبها عند الأصول والمبادئ والقواعد، التى حددت النهج فيما هو متغير ومتطور من شئون الدنيا، مع التفصيل لما هو دينى، أو ما هو من الثوابت الدنيوية التى لا يلحقها تطور أو تغيير.. «فالشارع» للشريعة هو الله.. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨].. ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

ومن ثم فإن إنسان هذه الحضارة الإسلامية لا يستطيع ـ وهو مؤمن بدينه ـ أن يعطى سلطة التشريع ووصف «الشارع» لغير الله... أما إبداع هذا الإنسان المسلم فى القانون الإسلامى، وسَنُّ القوانين التى تُفَرَّعُ عن أصول الشريعة، وتواكب المستحدثات والمتغيرات وتستجيب لكل ما لم تعرض له النصوص والحدود والأصول الإلهية.. أما كل هذا الإبداع القانونى الإسلامى فهو «الفقه».. فقه المعاملات.. ومن هنا كان تميز «الفقه» عن «الشريعة» فى الحضارة الإسلامية، وكان الله هو «الشارع» لا الإنسان، وكان الإنسان هو «الفقيه»، وليس الله!

هنا، نجد أنفسنا أمام نموذج من نماذج «المشاحة فى الألفاظ والمصطلحات»، ليس فى «المضمون» فقط ولا «الرسالة» فحسب، بل وفى «اللفظ والوعاء والأداة» أيضًا!

* ومثال ثان، يجلى ويدعم هذا المعنى الذى نؤمن به.. نجده إذا نحن وقفنا ـ فى المصطلحات الاقتصادية ـ أمام مصطلح «الزَّارع»..

فإنسان الحضارة الغربية، الذى لا يُرجع المسَبَّبَات المادية إلا إلى أسبابها المادية ـ سواء لماديته، أو إلحاده أو لمناهجه الوضعية ـ لا يرى فى «الزَّرْع» إلا الأسباب المادية والعوامل الطبيعية والمؤثرات الإنسانية.. ومن ثم فالإنسان عنده هو «الزَّارع» ولا «زارع» غير هذا الإنسان!

أما إنسان الحضارة الإسلامية، الذى سرت عقيدته الدينية روحًا شائعة فى كل علوم حضارته، فإنه وإن آمن بوجود الأسباب المادية، التى هى طاقات فاعلة فى مُسَبَّبَاتِها، إلا أنه يؤمن بأن هذه الأسباب المادية الفاعلة، إنما هى ـ بدورها ـ مخلوقة

لُمسَبِّب الأسباب وخالقها ـ الله سبحانه وتعالى ـ القادر على إيقاف فعلها، وعلى استبدالها بأسباب غيرها، إن هو شاء ذلك وأراد.. وهو ـ هذا الإنسان المسلم ـ يؤمن أيضًا بأن للفعل الإنسانى آفاقًا محدودة بحدود صلاحياته وقدراته كخليفة عن الله سبحانه وتعالى فى عمارة الأرض، وأن الفاعل فيما وراء هذه الآفاق ـ آفاق الخلافة ـ هو المُسْتخلِف، سيد هذا الوجود، ومبدعه، وراعيه..

ومن ثم فإن للإنسان فى «الزَّرع» عملًا وفعلًا وإبداعًا، لكنه لا يتعدى هذا النطاق فيجور على ما هو فعل الله فى هذا الميدان.. ففى «الزَّرْع»، هناك أفعال إنسانية من مثل «الحرْث» و«البَذْر» وتهيئة التربة وسقيها وتسميدها.. إلى آخر الأفعال الإنسانية، التى هى فعل الإنسان وإبداعه فيما هو مقدور له.. والتى ـ للتعبير عنها ـ اصطلحت العربية على وصف هذا الإنسان بـ«الزَّرَّاع».. أما أفعال من مثل إنبات البذرة، وتنميتها ورعايتها، أى الفعل والمسببات الراجعة لكل الأسباب التى هى من خلق الله، والتى ليست من مقدورات الإنسان، فهى التى اصطلحت العربية على وصف فاعلها ـ الله سبحانه وتعالى ـ بأنه: «الزَّارع»!. فالزارع ـ فى اصطلاح حضارتنا ـ هو الله، أما الإنسان فهو: الزَّرَّاع..

ولذلك وجدنا حقيقة الزَّرْع، بمعنى الإنبات والإنماء، هى لله، سبحانه وتعالى، بينما البذر والحرث والسقى ـ وكل الأسباب الإنسانية ـ منسوبة إلى صانعها: الإنسان.. فهو فى «الزرع» فاعل، لكنه ـ بحكم إيمانه، وحضارته المؤمنة ـ ليس الفاعل الوحيد!.. ومن هنا يأتى معنى الآية القرآنية التى تقول: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤].

فهنا ـ مرة أخرى ـ يثمر الطابع المؤمن للحضارة المؤمنة موقفًا متميزًا، يؤدى إلى «المشاحة فى الألفاظ والمصطلحات»!

* ومثال ثالث على إمكانية ـ بل ووجوب «المشاحة» فى الكثير من «الألفاظ والمصطلحات»، نجده إذا نحن وقفنا أمام مصطلح «الآبِق» و«الإبَاق» فى عالم الرقيق ـ أيام شيوع هذا النظام فى التاريخ الحضارى.

ففى الحضارة الغربية، المؤسسة على أصولها وتراثها الإغريقى، والتى فصلت

ـ فى هذه الأصول وذلك التراث ـ بين العمل الذهنى للأحرار وبين العمل اليدوى للعبيد، فخصت الأول بكل الشرف، وجردت الثانى من أى شرف، واختصت الأحرار بكل الحقوق، وضنَّت على العبيد بأية حقوق.. فى تلك الحضارة نجد العبد «الآبق»: هو مطلق الفارّ والهارب من الخضوع لسيده، أيًّا كان السبب فى هذا «الإباق».

أما فى الحضارة الإسلامية، حيث كان الهدف المُبْتَغَى: هو التحرير التدريجى للرقيق، بتضييق وإلغاء العديد من الروافد والمصادر التى تمد نهر الرق بالأرقاد الجدد ـ كالحروب غير المشروعة، والإغارة العدوانية، والربا، والقروض غير الحسنة.. إلخ.. ـ وبتوسيع مصب التحرير لنهر الرقيق ـ بالترغيب فيه، وبجعله مصرفًا من مصارف الزكاة، وبالكفارات، وبجعل الاسترقاق عبئًا ماديًّا على مالك الرقيق، بالحقوق التى شرعها الإسلام التى ضبطت الاسترقاق فى المرحلة الانتقالية ـ بالضوابط الدينية ـ نجد «الآبق» ـ فى مصطلحها ـ ليس مطلق العبد الفار والهارب من الخضوع لسيده، وإنما ـ الإباق ـ هو الفرار الذى لا يكون الظلم أو تكليف ما لا يُطَاق سببًا فيه. فهناك فرار مشروع ـ أو على الأقل لا يبلغ مبلغ «الإباق» ـ هو الذى يكون الظلم وتكليف ما لا يطاق سببًا فيه؛ ومن ثم فهو ليس بإباق، وليس على فاعله عقوبة «الآبق» بنظر الإسلام؛ إذ كان هروبه واستخفاؤه «لخوف من سيده، أو لكَدِّ عمل»!. فانعدام الأمن والعمل الشاق، ظلم للرقيق، يبرر له «المقاومة» بالهروب؟!

* ومثال رابع على إمكانية «المشاحة فى الألفاظ والمصطلحات» نجده إذا نحن وقفنا أمام مصطلح «الإقطاع»!

ففى الحضارة الغربية، حيث فلسفتها المالية تجعل الملكية المطلقة ـ الملكية الحقيقية ـ ملكية الرقبة ـ فى الثروات والأموال ـ للإنسان ـ فردًا كان فى النموذج الليبرالى، أو طبقة الأجراء ـ فى النموذج الشمولى الماركسى، نجد «الإقطاع» ـ كمصطلح ـ إنما يعنى: الملكية الكاملة للسادة الإقطاعيين لوسائل الإنتاج ـ الأرض الزراعية ـ مع الملكية المقيدة للعاملين فيها ـ الأقنان.

أما فى الحضارة الإسلامية، حيث صاغت الوسطية الإسلامية مذهبًا اقتصاديًّا وسطيًّا متميزًا، جعل الملكية المطلقة الحقيقية ـ ملكية الرقبة ـ فى الأموال والثروات

لله سبحانه وتعالى، مع تقرير حقوق الملكية المقيدة ـ ملكية المنفعة المجازية ـ أى ملكية الوظيفة الاجتماعية للمال، مع تقرير هذه الحقوق للإنسان الحائز للمال، باعتباره مُسْتَخْلَفًا فى حيازته واستثماره والانتفاع به عن الله سبحانه وتعالى، من حيث صفته كإنسان مُسْتَخْلَف ـ مطلق الإنسان المُسْتَخْلَف ـ وليس بصفته كفرد أو كطبقة.

فى هذا النموذج الحضارى، ذى الفلسفة المالية المتميزة، نجد لمصطلح «الإقطاع» مضمونًا متميزًا: فهو تمليك «للمنفعة» لا «للرقبة»، ولقد كان ـ فى التطبيقات الإسلامية ـ وسيلة لإحياء الأرض الموات، وللانتفاع بها، مع بقاء ملكية الرقبة ـ الملكية الحقيقية ـ فى الأرض لله سبحانه وتعالى، أى للإنسان، الأمة، الناس، المستخلفين عن الله، فى الأرض وفى كل الثروات والأموال..

فنحن ـ هنا ـ بإزاء مصطلح «لا مشاحة فى لفظة»، لكن «المشاحة واردة فى المضمون» على نحو أكيد!

* ومثال خامس، على هذا الذى نقول، نجده إذا نحن وقفنا أمام مصطلح «الاحتكار».

ففى الحضارة الغربية، بتياراتها الاجتماعية المختلفة، وحتى عند الذين يدركون المساوئ الاجتماعية لسيطرة الاحتكارات على النظام الاقتصادى لمجتمع من المجتمعات.. نجد النظرة إلى «الاحتكار» هى النظرة إلى مرحلة حتمية من المراحل التى لا بد وأن يمر بها المجتمع على درب تطور الامتلاك لأدوات الإنتاج.. فالاحتكار ـ فى هذه النظرة الغربية ـ هو نبت طبيعى، حتمى... حتى وإن رآه البعض ضارًّا..!

أما فى المذهبية الاقتصادية الإسلامية، التى حكمت وتحكم حيازة الإنسان للمال ببنود عقد وعهد استخلاف الله ـ المالك الحقيقى للمال ـ للإنسان فى هذا المال.. فإن الاحتكار ممنوع ومرفوض، من الأصل والأساس. ومحال أن يتسق وجوده ـ فضلًا عن سيادته ـ مع مذهبية الإسلام فى الأموال.. فـ«**من احتكر للمسلمين طعامًا ضربه**

الله بفقر وإفلاس»[١] ـ كما يقول الحديث النبوى الشريف ـ وذلك وعيد للمجتمع والحضارة التى تبيح الاحتكار الذى يقودها إلى فقر الأمة وإفلاس نظامها وعجزه عن تحقيق الغاية من تحضر الإنسان!

وهذا الاحتكار، الذى يقتل الأمة، عندما يغتال العدل فى حياتها الاقتصادية والاجتماعية، هو الذى يتحدث الرسول ﷺ عن أهله فيقول: «**يُحْشَر الحكَّارون وقتلة النفس فى درجة واحدة**».. كما يقطع بأنه «**لا يحتكر إلا خاطئ**»[٢]!

فالمشاحة هنا ـ فى «الاحتكار» ـ قائم بين العربية ـ لسان الإسلام ـ وبين الحضارة الغربية، فى «مشروعية» النظام الذى يعبر عنه مصطلح «الاحتكار».. بل وفى معناه، وفى آفاق هذا المعنى؛ لأن الحضارة الغربية تقصر «الاحتكار» على مرحلة من مراحل النمو والتركز لملكية أدوات الإنتاج ووسائله ـ أو المصالح التجارية والمصرفية ـ فى أيدى قلة قليلة من الملاك[٣].. أما فى المذهبية الاقتصادية الإسلامية، فإن التحريم يشمل أبسط ألوان الاحتكار.. فجمع الطعام، انتظارًا لغلاء سعره، مدة من الزمن هو احتكار محرم فى عرف الإسلام.. وكما يقول الحديث النبوى الشريف: «**بئس العبد المحتكر، إن أرخص الله الأسعار حزن، وإن أغلاها فرح، إن سمع برخص ساءه، وإن سمع بغلاء فرح**»؛ ذلك أن «**الجالب مرزوق والمحتكر ملعون**»[٤]!. كما قال عليه الصلاة والسلام.

* ومثال سادس ـ شائع ـ وجيد البرهنة على هذا المعنى الذى نلح على تجليته وتأكيده، نطالعه إذا نحن وقفنا أمام مصلح «اليسار»..

فمن الناس من ينطلق من مقولة: «إنه لا مشاحة فى الألفاظ والمصطلحات» إلى الدعوة لاستخدام هذا المصطلح ـ مصطلح «اليسار» ـ فى الدلالة على التيار

(١) رواه ابن ماجه والإمام أحمد.

(٢) رواه مسلم والدارمى وابن ماجه والإمام أحمد.

(٣) تتخذ الاحتكارات فى تلك المرحلة عدة أشكال منها «الترست» Imust ـ الأفقى أو الرأسى ـ والذى يتخذ عادة صورة الشركات القابضة، أو المتعددة الجنسية، ومنها «الكارتل» Cartel القائم على التنسيق والتخطيط ـ لا الاندماج ـ بين المؤسسات المحتكرة.

(٤) رواه ابن ماجه والدارمى.

الاجتماعى الداعى إلى استخدام «الصراع الطبقى« أداة لتسويد طبقة الأُجراء على طبقة الملاك؛ تمهيدًا لإلغاء التمايز الطبقى، وإقامة المجتمع اللاطبقى، الذى تُلْغَى فيه سائر ألوان الملكية الخاصة..

من الناس من يدعو إلى استخدام هذا المصطلح ـ ذى النشأة الغربية، والمضمون الغربى ـ بدعوى «أنه لا مشاحة فى الألفاظ والمصطلحات»! ومنهم من يحاول «أسلمته» و«أسلمة مضمونه»، عندما يدعوه «اليسار الإسلامى»!

أما نحن، فإننا نرى أن «المشاحة» واردة وقائمة، بل وواجبة تجاه هذا المصطلح ـ مصطلح «اليسار» ـ سواء فى اللفظ أو فى المضمون، وعلى النحو الذى ينفى إمكانية استخدامه فى محيط الفكر الاجتماعى للإسلام..

فـ«اليسار» فى العربية ـ لغة أمتنا وتراثنا وديننا وحضارتنا، وأداة إبداعنا ـ إنما يعنى اليُسْر ـ المقابل للعُسْر ـ والغنى ـ المقابل للفقر والإعسار ـ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].. ومن ثم فإن «أهل اليسار» والاتجاه الفكرى والاجتماعى لأهل اليسار ـ فى اصطلاح العربية ـ هم أهل الغنى ـ لا الفقر ـ واتجاه اليُسْر ـ لا البؤس ـ فكيف نقسر لغتنا على أن يقبل جسمها الاصطلاحى هذا الضد الغريب، الذى يبلغ فى الإغراب درجة النقيض؟!

إن بعض علمائنا وأئمة عصرنا مثل الإمام عبد الحميد بن باديس [١٣٠٥ ـ ١٣٥٩هـ، ١٨٨٧ ـ ١٩٤٠م] كان يدعو الله فيقول: «اللهم اجعلنى فى الدنيا من أهل اليسار، وفى الآخرة من أهل اليمين»؛ فاليسار هو: غنى الدنيا.. كما أن أهل اليمين هم أهل السعادة، الذين أقاموا العدل فى الدنيا، فاستحقوا أن يتناولوا كتاب أعمالهم العادلة باليمين فى يوم الدين.. ذلك هو منطق العربية الحاكم، والذى لا سبيل إلى الفكاك منه، بدعوى التعميم لعبارة: «إنه لا مشاحة فى الألفاظ والمصطلحات»..

ثم.. إن للمذهبية الإسلامية فى الفكر الاقتصادى قسمات متميزة لا تنكر التمايز الاجتماعى فى الأمة إلى طبقات متميزة، لكنها تشترط تأسيس التمايز على الأسباب

والعوامل المشروعة، وتحديد آفاق لهذا التمايز تحول بينه وبيه بلوغ درجة «الاستغناء» الذى يؤدى إلى الاستبداد النابع من سلطان الانفراد بسلطة المال.. فترى هذه المذهبية الاقتصادية الإسلامية فى التعديدة الطبقية: الأمر الطبيعى، وتدعو إلى إبقاء العلاقة بين الطبقات محكومة بإطار العدل ـ أى «التوازن» الاجتماعى وليست «المساواة» ـ وذلك حتى تكون علاقاتها هى علاقة التساند والتآزر والارتفاق كحال أعضاء الجسد الواحد، فى تميزها وفى تكافلها وتساندها، فإذا ما اختل التوازن الاجتماعى، وحل الظلم الاجتماعى محل العدل الاجتماعى، فإن السبيل الإسلامى لعلاج هذا الخلل الطارئ، ليس هو «الصراع الطبقى»، الذى يستهدف فيه ومنه طرف ـ طبقة ـ إلغاء الطرف الآخر ـ الطبقة النقيض ـ بصرعه بالصراع؛ لينفرد بالثروة والسلطة فى مجتمع لا طبقى.. ليس هذا هو السبيل الإسلامى، وإنما السبيل هو «الدفع الاجتماعى»، الذى يعيد حراك وتحريك المواقع الطبقية وامتيازات الطبقات من درجة الظلم ـ الذى يختل فيه التوازن ـ إلى درجة العدل، الذى هو التجسيد للتوازن الاجتماعى بين الطبقات؛ وذلك لتظل التعددية قائمة، وليظل التمايز قائمًا، وليظل العدل، الوسط، التوازن هو الرابط الجامع بين الفرقاء المتميزين فى النموذج الاقتصادى والاجتماعى لمذهبية الإسلام فى هذا الميدان..

فـ«الصراع» ـ فى المصطلح القرآنى ـ يعنى أن يصارع طرف الطرف الآخر، بهدف أن يصرعه، فيفنيه: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].. أما «الدفع»، فهو التحريك لمواقع الأطراف المختلفة من درجة إلى أخرى، تصحيحًا للعلاقة بين أطراف متعددة، وليس بهدف إفناء طرف لآخر كى ينفرد بالميدان والإمكانات: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].. فالهدف من وراء «الدفع» هنا ليس «صرع» العدو وإفناءه، وإنما تحريك موقعه من «درجة العداوة» إلى «درجة الولى الحميم».

فقانون الحركة الاجتماعية، فى المذهبية الاقتصادية الإسلامية هو «الدفع الاجتماعى» وليس «الصراع الطبقى»: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ

صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠].

ففى المضامين أيضًا، «ترفض» ـ وليس فقط «تتميز» ـ المذهبية الاقتصادية الإسلامية «ترفض» ذلك المحتوى الاجتماعى الذى وضعته المذهبية الغربية فى «وعاء» مصطلح «اليسار» ومصطلح «الصراع» الأمر الذى حتم «المشاحة» فى هذين المصطلحين، إن فى الدلالة اللغوية، أو المضمون الاجتماعى على حد سواء..

* * *

وإذا كانت هذه الأمثلة ـ وهى مجرد أمثلة، بل إنها قطرة من بحر لُجِّىٍّ ـ كافية للبرهنة على مشروعية ـ بل ووجوب ـ «المشاحة» فى كثير من المصطلحات والألفاظ، عندما تتميز أو تتباين المذاهب الاعتقادية، والأنساق المعرفية، والطبائع الحضارية.. فإن هذه الحقيقة تقودنا إلى إشارات لا بد منها ـ فى هذا المقام ـ للرسالة الحضارية لهذا القاموس الذى نقدم بين يديه هذا الحديث..

إن عاقلًا من العقلاء لا ينكر الآثار والبصمات التى أحدثتها المؤثرات الفكرية الغربية فى عقل أمتنا ـ على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام ـ خلال القرنين الماضيين، اللذين هما عمر الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة، والهيمنة الحضارية الغربية على بلادنا وأمتنا وما ماثلهما من البلاد والأمم التى طالتها هذه الغزوة وهذه الهيمنة الحضارية..

وإن عاقلًا من العقلاء لا ينكر أن «القاموس» ـ فى أى فن من الفنون أو علم من العلوم ـ قد غدا فى واقعنا الفكرى أداة شديدة الفعل والتأثير فى تلوين الفكر والمذهب والرؤية والهوية، ومن ثم تلوين الاتجاه الحضارى لمن يستخدم هذا القاموس بالفلسفة الحضارية لواضعيه ومنشئيه..

فالباحث والقارئ، الذى يريد معرفة مضمون مصطلح من المصطلحات، فيمد يده إلى القاموس، باحثًا عن هذا المضمون، إنما يزرع فى عقله ووجدانه بذرة فكرية تنمو، فتلون مساحة من عقله ووجدانه بالصبغة الحضارية التى حكمت لون ومذهب مضامين مصطلحات هذا القاموس..

فإذا كان هذا القاموس ـ كأغلب قواميس العلوم والفنون فى ثقافتنا المعاصرة ـ هى بضاعة غربية، ترجمت وعربت، أدركنا دور القاموس ـ فى مكتبتنا المعاصرة ـ دوره فى احتلال العقل العربى والمسلم، وفى تلوينه بلون الحضارة الغربية، وإسهامه فى «تغريب» هذا العقل، وخاصة فى ميدان العلوم الإنسانية، التى تتمايز فيها الحضارات، ومن ثم تتمايز فيها مضامين الكثير من مصطلحات هذه العلوم والفنون على النحو الذى ضربنا عليه بعض الأمثال..

إن الباحث فى الميدان الاقتصادى ـ وكذلك القارئ فى هذا الميدان ـ والذى لا يجد لديه سوى قاموس «غربى» قد «ترجم إلى العربية»، لا بد وأن يرى كل قضايا هذا العلم الاقتصادى، وتطبيقاته، بعيون المذهبية الاقتصادية الغربية، التى تتميز عنها المذهبية الإسلامية فى المنطلقات والمعايير والغايات على نحو كبير وأكيد.

وكذلك، فإن هذا الباحث، وهذا القارئ، لن يستطيع فهم تراثنا الاقتصادى ـ النظرى منه ـ كما صيغ فى كتب الأموال والخراج والكسب والتجارة والأسواق والحسبة.. إلخ.. إلخ، أو التطبيقى منه، كما عرفته المسيرة الحضارية لأمتنا.. لن يستطيع هذا الباحث وهذا القارئ فهم تراثنا هذا بواسطة القاموس ذى المنطلقات والمفاهيم الغربية بحال من الأحوال.. فإنزال المفاهيم الغربية على المصطلحات الاقتصادية الإسلامية هو لون من «خداع الرؤية»! يستوى فى «الجهل بالحقيقة» مع «انعدام الرؤية» على نحو كلى، من حيث الإفضاء إلى عزل العقل الاقتصادى عن تراثه الحضارى فى هذا الميدان..

وهنا تبرز الرسالة الفكرية والمهمة الحضارية لهذا القاموس الذى نقدمه إلى العلماء والباحثين والقراء..

* فهو الأداة الطبيعية لرؤية وفهم وتفسير تراث أمتنا فى الاقتصاد، إن فى الفكر النظرى منه، أو فى التطبيقات التى مثلت واقع الأمة وتجربتها بهذا الميدان؛ ففيه المعانى المنضبطة لمصطلحات «الفكر» الاقتصادى.. و«لواقع الحياة» الاقتصادية..

* وهو السبيل إلى وضع لبنة فى صرح الاستقلال الحضارى لأمتنا، عندما يضع وييسر للعقل العربى والمسلم سبل إدراك ما لحضارتنا من «خصوصية» فى المعانى

والمضامين والمفاهيم فى حقل الاقتصاد، فيسهم بذلك فى تحرير العقل الاقتصادى من إسار التبعية وأسر التغريب...

* وهو خطوة على طريق طويل.. خطوة تنتظر الإغناء والإثراء فى طبعات قادمة إن شاء الله..

كما تنتظر من يرفدها بأخ ينظر بمنظار حضارتنا، ويسترشد بفلسفتها، ويلتزم بخصوصيتها فى إنشاء قاموس للمصطلحات الاقتصادية الإسلامية المعاصرة، التى استجدت موضوعاتها على تراثنا العربى الإسلامى فى الاقتصاد.

* * *

وإذا كنا نؤثر ـ فى هذا التقديم ـ أن لا نتحدث بالتفصيل عن الجهود المضنية التى بذلناها فى الجمع والتصنيف والإعداد والصياغة لمصطلحات هذا القاموس.. تاركين إدراك مدى ومبلغ هذا الجهد للباحثين والعلماء وأهل الاختصاص من القراء.. فيكفى أن نقول: إن إنشاء هذا القاموس قد استلزم الرجوع إلى مصادر ومراجع تراثية ـ مخطوطة ومطبوعة ـ لو كتبنا لها ثبتًا، لبلغت صفحاته نصف صفحات هذا القاموس.. إنه جهد نرجو المثوبة عليه من الله سبحانه وتعالى.. فهو وحده مالك الأمر، وقبلة الدعاء، ومالك الجزاء، وولى السداد والتوفيق.

لكن التنويه بعمل رائد ـ وإن كان محدود الحجم والمستوى ـ فى هذا الميدان، هو فريضة من فرائض الأمانة العلمية، نبرزها فى هذا المقام.. فللمرحوم الأستاذ الدكتور أحمد الشرباصى فى هذا الميدان جهد قدمه إلى المكتبة العربية تحت عنوان: [المعجم الاقتصادى الإسلامى][1]، وهو ـ كما أشرت ـ عمل محدود الحجم والمستوى، لكن له ولصاحبه ـ عليه رحمة الله ـ فضل الريادة فى هذا الميدان.

* * *

بقيت كلمة نختم بها هذا التقديم، تتعلق بتقليد عربى إسلامى تميزت به المعاجم والقواميس وكشافات اصطلاحات الفنون فى حضارتنا العربية الإسلامية.. وهو

(١) انظره فى طبعة دار الجيل، بيروت، سنة [١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م].

تقليد الاستشهاد بالقرآن الكريم كلما أمكن ذلك، فى التعريف بكل مصطلح من المصطلحات.. لقد التزمنا هذا التقليد.. وأحيينا هذه السنة الحسنة، فبرز القرآن الكريم، ككتاب العربية الأول فى هذا القاموس.. بروزه ككتاب الدين والدنيا لهذه الأمة ولحضارتها.. بل وللإنسانية جمعاء فى كل الميادين.. إنها سنة نأمل أن يكون فى إحيائها، التنبيه على خبث المقاصد وسيئ النوايا التى دعت القائمين على أحد القواميس اللغوية المعاصرة إلى إهمال هذا التقليد العربى، والسنة الحضارية.. فليس أضر على حاضر هذه الأمة ومستقبلها من عزلها عن ذاتها الحضارية، بقطع صلاتها بتراثها الحضارى، الذى ينهض فيه القرآن الكريم بدور المحور الأول، والمكون الأعظم، والصبغة الإلهية التى تعهد الله بحفظها لتحفظ الوجود المتميز لهذه الأمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها..

إن قطع صلات هذه الأمة عن ثوابتها الحضارية، وعن المنابع الجوهرية والنقية فى تراثها الدينى والحضارى، هو المقدمة الضرورية والطبيعية لإلحاقها ـ على درب التبعية والاستلاب الحضارى ـ بموكب «الأرقاء الحضاريين»! الذين تفرض عليهم الحضارة الغربية ـ ذات الطابع العنصرى الاستعلائى، والنزعة المادية الإلحادية ـ هذا اللون الجديد من الهيمنة والاسترقاق الحديث..

إذا كانت هذه التبعية الحضارية هى آفة تصيب العقل بالفقر فى الإبداع؛ لاعتماده على الغير.. فإن هذه الآفة ذاتها هى من ثمرات الجمود والانغلاق.. فالذين يكتفون بما لدى الغير، مثلهم كمثل الذين يكتفون بذواتهم، رافضين كل ما لدى الغير، فى أنهم جميعًا إنما يقودون ذواتهم إلى الذبول والموت..

وإذا كان طوق النجاة لهذه الأمة، هو فى إدراكها لحقيقة هويتها الحضارية، وفى تفاعلها مع الآخرين، من موقع الراشد المستقل، الذى يميز بين «الخصوصيات الحضارية» فيستمسك بها، وبين «المشترك الإنسانى العام»، فيطلبه؛ ليبرع فيه، ويضيف إليه، فإننا نأمل أن يكون هذا الجهد العلمى الذى نقدمه اليوم إلى العلماء والباحثين والقراء، لبنة فى هذا الجهد المطلوب لاستقامة خطو هذه الأمة على طريق

النهضة بالإسلام، تجديدًا لدنياها، ولعلوم دينها وحضارتها، وتنويرًا لعقلها، وإثراءً لوجدانها بهذا الدين الذى اصطفاها الله لتحمل رسالته إلى البشرية جمعاء.

ذلك هو الرجاء من وراء هذا العمل.. والله نسأل تحقيقه.. إنه نعم المجيب.. وولى السداد والتوفيق[١].

(١) انظر [قاموس المصطلحات الاقتصادية فى الحضارة الإسلامية] طبعة دار السلام. القاهرة.

عبد الله النديم

[١٢٦١ ـ ١٣١٣هـ ـ ١٨٤٥ ـ ١٨٩٦م]

كلمات

(وما خُلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب. وما اختار الله ـ تعالى ـ للمصائب إلا الرجال، ولا يثبت لانهمار الغيوث إلا الجبال.

والعاقل يتلذذ بما يراه فى فصول تاريخه من العظم والجلالة، وإن كان المبدأ صعوبة وكدرًا فى أعين الواقفين عند الظواهر.

والشدة إن صوتت بجلجلها، وحلت بكلكلها، ماذا عسى أن يكون، مما تتخيله الظنون؟

أليس الأمر يرجع إلى موت وحياة؟ وهذان لا يملكهما إلا الله، وقد فرغ من تقدير الأشياء قبل خلق المسببات والأسباب.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢](١).

تعريف فى سطور

النديم.. هو:

* عبد الله بن مصباح بن إبراهيم الإدريسى الحَسَنِى [١٢٦١ ـ ١٣١٣هـ ـ ١٨٤٥ ـ ١٨٩٦م].

---

(١) عبد الله النديم. مجلة (الأستاذ) العدد الرابع عشر ص ٣١٨ والثانى والأربعون ص ١٠٣٢. طبعة مصورة عن الأصل. القاهرة. دار كتبخانة للنشر والتوزيع سنة ١٩٨٤م.

* كاتب وشاعر وخطيب، وسياسى مناضل، وعالم فى كثير من العلوم الإسلامية، وراسخ القدم فى علوم العربية الفصحى، ومبرز فى النظم والكتابة باللهجة العامية.

* ولد بالإسكندرية، وحصَّل ما حصل من الثقافة والعلوم بالجهد الذاتى والمناهج غير النظامية.

* احترف بعض المهن، وشغل عددًا من الوظائف الصغيرة والثانوية.

* أنشأ (الجمعية الخيرية الإسلامية) ـ فى الإسكندرية ـ للرعاية الاجتماعية، ولتعليم أبناء الفقراء.

* تفتحت مواهبه ـ ككاتب ـ فى صحافة تيار الإحياء والتجديد، الذى قادة جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م]، فكتب فى صحف (المحروسة) و(العصر الجديد).

* شارك فى قيادة الثورة العرابية [١٢٩٨ ـ ١٢٩٩هـ ـ ١٨٨١ ـ ١٨٨٢م] وكان أبرز خطبائها المهيجين وألمع كتابها الثوريين. وأصدر إبَّان الثورة صحيفة (التنكيت والتبكيت) ـ رجب سنة ١٢٩٨ هـ ـ ٦ يونية سنة ١٨٨١م ـ و(الطائف) ـ التى حلت محل (التنكيت والتبكيت) ـ ومثلت لسان حال الثورة.

* بعد هزيمة الثورة، أمام التدخل العسكرى للاستعمار الإنجليزى، واحتلال مصر، طاردت السلطة الاستعمارية عبد الله النديم، فاختفى ـ فى ذى القعدة سنة ١٢٩٩هـ سبتمبر سنة ١٨٨٢م ـ عشر سنوات، كانت ملحمة من ملاحم الصمود والمعاناة.. وفيها ألَّف عشرين كتابًا، تشهد موضوعاتها ـ بل وعناوينها ـ على عمق تكوينه العلمى فى علوم الإسلام والعربية، وعلى قدمه الراسخة فى مدرسة الإحياء والتجديد.

* وبعد القبض عليه ـ نتيجة وشاية ـ فى صفر سنة ١٣٠٩هـ سبتمبر ١٨٩١م ـ حُبس أيامًا، ثم نفى من مصر فأقام بفلسطين، حتى عَفا عنه الخديو عباس حلمى الثانى [١٢٩١ ـ ١٣٦١هـ ـ ١٨٧٤ ـ ١٩٤٤م] فعاد إلى مصر سنة [١٣١٠هـ ـ ١٨٩٢م]، وأصد مجلة (الأستاذ) ـ [١٣١٠هـ ـ ١٨٩٣م].

* وبسبب مقالاته فى (الأستاذ) نفاه الإنجليز ثانية، فذهب إلى فلسطين، ثم إلى الأستانة، فعمل فيها، وصحب أستاذه جمال الدين الأفغانى، حتى وافاه الأجل، ودفن هناك.

* له من الآثار الفكرية والأدبية ـ غير الصحف التى أصدرها وحررها ـ كتب: (كان ويكون) و(كتاب الاحتفا فى الاختفا) و(السانحة فى علوم الفاتحة) و(الآلام واللذات فى اتصال الروح بالذات) و(صَرْف الوضمَة[1] عن صِرْف[2] العصمة) و(وفد البدعى على باب الشفيع) و(خلاصة ما كان فى ليس فى الإمكان أبدع مما كان) و(الفرائد) و(طهارة القلوب والأفواه شرح لا إله إلا الله) و(حلة الأنوار لمادح المختار) و(سيف الموحد فى نحر الملحد) و(ترصيع الماس فى خير الناس) و(مأتم البُكىّ على آل النبى) و(وطنية الشرق) و(النحلة فى الرحلة) و(السكر النبات فى تربية البنين والبنات) و(نحن وأنتم) و(إنقاذ البليد من ورطة التقليد) و(الدر النفيس فى تاريخ بنى إدريس) و(نيل الأرب فى أخبار العرب).

كذلك، له ديوانان لأشعاره.. وروايتان تمثيليتان عنوانهما (العرب) و(الوطن).

---

(١) الوَضْمَة ـ بفتح الواو وسكون الضاد ـ الجماعة من الناس.
(٢) الصِّرْف ـ بكسر الصاد وسكون الراء ـ الخالص من الشىء.

بم تقدم الأوربيون وتأخرنا
والخلق واحد؟!
للنديم
[١٢٦١ ـ ١٣١٣هـ ـ ١٨٤٥ ـ ١٨٩٦م]

كل الذين اقتربوا من سيرة عبد الله النديم وفكره وجهاده يجدون أنفسهم أمام نموذج متفرد فى كثير من الصفات، والكفاءات، والعطاءات:

* فهو شاعر شعبى عملاق.

* وهو محاور ـ بالشعر والنثر ـ على البديهة ـ وأمام الجماهير ـ لم يهزم فى يوم من الأيام.

* ومدافع عن اللغة العربية الفصحى، بوعى حضارى أصولى ومعاصر ومستقبلى، رفع شعار: (التفريط فى اللغة إضاعة للذات).

* وهو خطيب مفوه، عشقته الجماهير والنخبة ـ وخصوصًا إبان الثورة العرابية ـ على نحو منقطع النظير. حتى إنه عندما كان يتولى تقديم خطباء المهرجانات الشعبية كان يقدم كل خطيب بخطبة، ويودع كل خطيب بخطبة، والجماهير لا تمل سماعه أبدًا، وهو فى ذلك لا يكرر نفسه أبدًا!

* وهو ملحمة من ملاحم النضال الوطنى ضد الاستعمار، فى القرن الذى شهد ذروة الزحف الاستعمارى الغربى على بلاد الشرق والإسلام. ولقد مثلت سنوات اختفائه من سلطات الاحتلال أسطورة تنتظر من يقدمها رواية عظيمة وفيلمًا عالميًّا!

* وهو صحفى، ارتاد ميدان الصحافة الثورية فى الشرق، حتى لقد كان يصدر صحيفته ـ إبان الثورة العرابية ـ من ميادين القتال ضد الغزاة الإنجليز. وكأنها منشور ثورى يجيّش الوطنية والمواطنين ضد الاحتلال.

* وهو واحد من أعلام مدرسة الإحياء والتجديد، الذين تتلمذوا على يدى جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده، والذين سعوا إلى تجديد الفكر الإسلامى لتتجدد به حياة المسلمين.

* وهو قمة شامخة من قمم الوعى العميق بضرورة تنمية الانتماء ـ انتماء شعوب الشرق ـ إلى الوطنية، والقومية ـ الجنسية ـ والرابطة الشرقية وحضارة الإسلام.

نعم، لقد كان النديم كل ذلك، وأكثر من ذلك، فحياته وفكره وجهاده (ديوان) ينتظر من يحوله إلى نموذج تتعلم منه الأجيال.

* وفوق كل هذا الذى أشرنا إليه، فإن القارئ لدراسة النديم التى كتبها عن سنن التقدم والتخلف، والتى أجاب بها عن سؤال: (بم تقدم الأوروبيون وتأخرنا.. والخلق واحد؟) سيكتشف فى النديم أبعادًا جديدة فوق التى أشرنا إليها، سيكتشف فيه فيلسوفًا فى فقه الحضارات، وفى السياسات الدولية، وفى الوعى بالتاريخ، وصناعة التاريخ، كما سيكتشف فيه الرائد الذى ارتاد ميدان الإجابة على ذلك السؤال الذى أرق عقول الشرقيين وضمائرهم عندما رأوا تراجع الدولة العثمانية ـ الدولة الإسلامية الجامعة واجتياح الإمبريالية الغربية لأقطار الشرق الإسلامى، وغواية النموذج الحضارى الغربى لقطاع من النخبة والصفوة فى بلاد الإسلام، وتشكيك كثير من المستشرقين فى صلاحية الإسلام كى يكون نموذجًا للتقدم والنهوض.

فى ذلك المناخ، وهذه الملابسات، تقدم النديم وارتاد ميادين الإجابة ـ العلمية الموضوعية العميقة ـ على سؤال العصر ـ وذلك قبل أمير البيان شكيب أرسلان [١٢٨٦ ـ ١٣٦٦ هـ ـ ١٨٦٩ ـ ١٩٤٦م] بأربعين عامًا، وذلك ليدعو النديم أمته إلى اكتشاف حقائق وسنن التقدم والتأخر، والنهوض والتراجع، والفوز والخسران، فاتحًا بذلك أبواب الأمل أمام شعوب الشرق فى الانعتاق من أغلال المأزق الحضارى الذى صنعه (التخلف الذاتى الموروث) وسعت إلى تكريسه الهيمنة الغربية على بلاد الإسلام.

* لقد رصد النديم ـ فى هذه الدراسة ـ أسبابًا أصلية أربعة بها تقدمت الدول الأوروبية فى عصر نهضتها الحديثة:

أولها: توحيد اللغة فى الدولة؛ لأن اللغة من أهم العوامل فى توحيد الجنس والقومية، وبعث الحمية بين الذين يتشاركون فيها، كما أنها سبيل للمغايرة التى تمثل حاجزًا أمام اختراق الغير لحماها، والسبيل ـ كذلك ـ لجمع الشمل لاسترداد الوطن والهوية إن عدا عليهما الأعداء، وذلك فضلًا عن أنها وعاء الثقافة التى تمثل قسمات الانتماء.

وثانيهما: توحيد السلطة الحاكمة للشعب والقوم؛ لأن تفتت السلطة والدولة إنما يفتح الأبواب ـ وإن بالتدريج ـ إلى إضعاف السمات والقسمات الجامعة للجنس والقوم، ومن ثم يفتح الثغرات لعوامل التخلف والتراجع والانحطاط.

وثالثها: توحيد الجامعة الدينية؛ ولتحقيق ذلك ـ فى التاريخ الأوروبى الحديث ـ رفع شعار: (دين واحد للدولة الواحدة)، وخاض الملوك والأمراء الأوروبيون حروبًا دينية أبيد فيها ٤٠٪ من شعوب وسط أوروبا، وذلك لتحقيق الوحدة والانسجام الدينى فى كل دولة من الدول القومية الأوربية.

ورابعها: تلك المعاهدات التى عقدتها الدول الأوربية ـ بعد استكمال عوامل تقدمها ـ وذلك لضبط تناقضاتها القومية، ولتوجيه طاقاتها نحو استعمار بلاد الجنوب، ونهب ثرواتها، وإلحاقها بالمركز الحضارى الغربى، على أمل اجتثاث الإسلام ـ الهوية الشرقية الكبرى المغايرة للغرب ـ فى نهاية المطاف.

* لقد رصد النديم ـ فى دراسته هذه ـ الأسباب الموضوعية الأصلية الأربعة، التى أثمرت تقدم الأوروبيين، والتى افتقدها الشرق والشرقيون فى حقبة عزلتهم وتراجعهم الحضارى، حتى لقد صارت أسباب التقدم الأوروبى هذه لغزًا لدى كثير من الشرقيين.

وإلى جوار هذه الأسباب الأصلية الأربعة، التى أثمرت التقدم الأوروبى، رصد النديم أسبابًا فرعية ستة، دعمت هذا التقدم، وعمقت جذوره، وأطالت من عمره، وساعدته على مواجهة الطوارئ والعاديات. وهذه الأسباب الفرعية الستة وهى:

١ ـ إطلاق حرية الفكر والكتابة؛ لتربية الأمم وتهذيبها.

٢ ـ تجميع رؤوس الأموال فى مؤسسات وشركات مساهمة، وحماية الاقتصاديات الوطنية فى مواجهة المنافسة الخارجية.

٣ ـ تشجيع التنافس والابتكارات والاختراعات فى علوم التمدن المدنى؛ لتطوير الواقع المعيشى.

٤ ـ تعميم التعليم وتوحيده، وجعله إجباريًّا، وجعله تعليمًا وطنيًّا، يحافظ على الهوية القومية والحضارية.

٥ ـ إقامة مجالس الوزراء، ومؤسسات الشورى فى كل دولة من الدول؛ لمنع الاستبداد بالسلطة والطغيان.

٦ ـ إقامة المؤسسات لأهل الفكر والعلم والثقافة، التى تمثل عقل الأمة، والتى تجمع الطاقات الفكرية، وتديم عطاء الفكر فى البلاد، والتى توازن سلطات الدولة وسطوة الحكام.

* تلك هى الأسباب الأصلية والفرعية التى رصدها العقل الفلسفى للنديم، كأسباب للتقدم الأوروبى والتى صاغها وقدمها ـ فى دراسته هذه ـ ليقول لقومه: إن للتقدم سننًا وقوانين أبوابها مفتوحة أمام كل بنى الإنسان، وما على الذين يريدون الانعتاق من أغلال (التخلف الموروث) ومن (الهيمنة الغربية) التى تحرس هذا التخلف الموروث إلا أن يأخذوا بالأسباب.. لا بالأوهام، أو الوقوف عند مجرد الأمانى: ﴿ **لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا** ﴾ [النساء: ١٢٣].

وبذلك نبه النديم شعوب الشرق على الخطأ الذى وقعوا فيه عندما تنكبوا طريق التقدم، وساروا على عكس اتجاهه ولم يأخذوا بأسبابه، وسقطوا فى وهم: أن كلًّا من التقدم الأوروبى والتخلف الشرقى إنما هما ضربة لازبٍ ليس منهما فكاك!

* وخلال هذه الدراسة الحضارية العميقة، فنَّد النديم المزاعم الاستشراقية التى ادَّعت أن الإسلام هو السبب فى تخلف المسلمين، فهذا الإسلام هو الذى مثل السبب الأول فى نهضة الشرق وأهله، حتى جعلهم (العالم الأول) على ظهر هذه

الأرض لأكثر من عشرة قرون. (فالدين الإسلامى والأديان الشرقية لم تكن السبب فى التأخر ـ كما يزعم كثير من الطائرين حول دهاة أوروبا ـ بل إن الدين الإسلامى كان السبب الوحيد فى المدنية وتوسيع العمران أيام كان الناس عاملين بأحكامه).

* وكذلك رد النديم مزاعم الذين قالوا إن المناخ فى البلاد الشرقية هو السبب فى كسل الشرقيين وقعودهم عن التقدم والنهوض، (ذلك أن هذا الجو هو الذى كان فيه المتقدمون من المصريين والفينيقيين والفرس والهنود والعرب والترك، وقد تحققنا أن التأخر إنما جاء من تعميم الجهالة بإغضاء الملوك عن وسائل التعليم، والتضييق على أرباب الأقلام والأفكار، وبُعد الأغنياء عن الجمعيات، وتقاعدهم عن ضروب التجارة والصناعة والزراعة، ورضاهم بالبقاء تحت أسر الشهوات، فإذا أطلق الملوك حرية الأفكار والمطبوعات تحت المراقبة، وبذل الأغنياء الذهب فى حياة الصنعة وتعميم المعارف فى المدن والقرى ومساعدة العلماء على الرحلة خلف حياة العلم، واجتمعت كلمة الملوك والوزراء والأمم على السعى خلف التقدم، أمكنهم أن يوقفوا تيار أوروبا شيئًا فشيئًا حتى يضارعوها قوة وعلمًا..).

* وفى حديث النديم عن المعاهدات الدولية التى ضبطت بها الدول الأوروبية تناقضاتها وخلافاتها ـ فيما قبل الحروب الاستعمارية العالمية ـ وفى حقبة المد الاستعمارى الأوروبى على الشرق، تحدث عن اجتماع الدول الأوروبية على استثمار وحدتها فى غزو الشرق، فقال: (لقد اجتمعت كلمة ملوك أوروبا على حفظ الوحدة الأوروبية من مس الشرق لها مهما تقلبت المسائل الدولية بين أيديهم، وعلى توجيه الهمم إلى الشرق فتحًا واستعمارًا..).

* وإذا كانت الثقافة الإسلامية قد تحدثت عن آية المنافقين؛ فلقد تحدث النديم عن آيات النفاق الأوروبى فى تعامله مع مصر والشرق، فقال: (إنه ما من مصرى إلا وهو يعلم أن أوروبا لا تصدق فى قول، ولا تفى بوعد، ولا تحب شرقيًّا، ولا تسعى فى خير مصرى، وإنما هى ملاعب سياسية يقدمونها بين أعين الجهلاء الذين لا خبرة لهم بدهاء الدول ومطامعها، يستميلونهم بها استمالة الطفل بقطعة حلوى أو ثوب منقوش)!

* وبعد أن أكد النديم على أن وحدة الدين، واللغة، والسلطة كانت فى مقدمة أسباب التقدم الأوروبى، تحدث عن اجتماع كلمة الدول الاستعمارية الأوروبية على حرمان الشرق من أسباب التقدم هذه وذلك لتكريس تخلفه، وإبقائه تحت الهيمنة الأوروبية، فقال: (.. ولعلم الأوروبيون أن وحده الدين إذا انضمت إلى وحدتى اللغة والسلطة قامت المملكة على أساس متين، اهتموا بنقل الأمم الشرقية بطريق التدرج، فلم تقهر فرنسا أهل الجزائر وتونس على ترك دينهم، كما فعلت إسبانيا مع مسلميها عند تغلبها عليهم؛ حيث ألجأتهم إلى التنصر أو الخروج من البلاد، وكذلك إنجلترا لم تكره مسلمى الهند، ولا روسيا قهرت مسلمى طرغستان والتركمان وغيرهم ممن هم فى حوزتها، وإنما التزمت كل دولة أن تعمم لغتها فيهم، وأن تفتح المدارس لتعليم الأبناء على أخلاق الأمة الحاكمة، وتمنع تعلم الدين إلا مبادئ قليلة جدًّا تموه بها على ضعفاء الإدراك؛ ليخرج المتعلمون فارغين من الدين، فيسهل نقلهم لأى دين بعد، فإن تعرضت أمة شرقية لذكر دينها ولم تكن محكومة بأمة أوروبية، نودى عليها بالتوحش والخشونة والهمجية، وقيل إن هذا تعصب دينى، مع أن التعصب الدينى لا يوجد إلا فى صنع أوروبا، ولكن القوة تقول للضعف ما تشاء! لقد عملت الدول الأوروبية على إعدام اللغات الوطنية للشرقيين؛ وذلك حتى يموت بموتها الدين وحمية الجنس والغيرة الوطنية. كما حجرت على المدارس تعليم بعض العلوم الشرعية، وألزمتهم بتعلم لغتها، والأخذ بالطبيعيات والرياضيات حتى لا يشم الأبناء رائحة الدين؛ لئلا يعلموا أنهم يغايرون الأوروبيين دينًا فيثورون عليهم. كما عمدوا إلى نشر ما يصادر الأديان، ويوقع الشرقيين فى الشك والتردد حيال العقائد الدينية، ثم تدرجوا لإماتة اللغة الوطنية، وذلك بفرض المكافآت لمن ينبغ فى الإنجليزية لننسى لغة القرآن فيُنسى بها الدين الواقف عقبة أمام أوروبا ـ كما يصرحون بذلك فى مجالسهم وأندية شوراهم!).

* كذلك كشف النديم الغطاء عن الخداع الأوروبى الذى يدعى احترامه لأديان الشرق، فتحدث عن ارتباط التنصير الكنسى بالاستعمار (فلقد أحكمت أوروبا التأليف بين القوتين الدينية والملكية (السياسية) فجعلت الأولى سفير وداد والثانية فارس جلاد! فخرج الأوروبيون من بلادهم إلى الشرق محمولين على قوتى الدين والملك).

* وحتى يتأبد الاستعمار، وتتأبد التبعية الشرقية للمركز الحضارى الغربى، سعى المستعمرون لطمس عناصر الهوية الحضارية الإسلامية، التى تحفظ مغايرة الشرقيين للغربيين، فامتد الغزو الفكرى إلى الميادين القانونية والاجتماعية للشرقيين. فبعد الغزو بالقوة الخشنة يأتى الغزو بالفكر والقوة الناعمة. (ذلك أن دولة من دول أوروبا لم تدخل بلدًا شرقيًّا باسم الاستيلاء، وإنما تدخل باسم الإصلاح وبث المدنية، وتنادى أول دخولها أنها لا تتعرض للدين ولا العوائد، ثم تأخذ فى تغيير الاثنين شيئًا فشيئًا، فلا تقدم على العمل، بل تفعل الشىء على قبول التجربة، فإن نفذ فقد مضى، وإن عورضت فيه التزمت التأويل، كما تفعل فرنسا فى الجزائر وتونس؛ حيث سنت لهم قانونًا فيه بعض مواد تخالف الشرع الإسلامى، بل تنسخ مقابلها من أحكامه، ونشرته فى البلاد، واتخذت لتنفيذه قضاة ترضاهم، ولما لم تجد معارضًا أخذت تحوّل كثيرًا من مواده إلى مواد ينكرها الإسلام؛ توسيعًا لمناطق النسخ الدينى، ولم نلبث أن جاريناها وأخذنا بقانون يشبهه وإن لم يكن هو هو، ولم ينتطح فى إصلاح مواده المخالفة عنزان)!

* ويكشف النديم عن دور العامل الدينى فيما كان يسمَّى آنذاك (بالمسألة الشرقية) والموقف الأوروبى من الدولة العثمانية ـ دولة الخلافة الجامعة ـ التى مثلت سياجًا إسلاميًّا لحماية الشرق من الغزو الأوروبى عدة قرون. فلقد مثَّل الدين عاملًا أساسيًّا فى عداء الأوروبيين لهذه الدولة العثمانية، (ذلك أنه لو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصغيرة التى هى جزء منها فى الحقيقة، ولكن المغايرة الدينية، وسعى أوربا فى تلاشى الدين الإسلامى أوجب هذا التحامل الذى أخرج كثيرًا من ممالك الدولة بالاستقلال أو الابتلاع. وإننا نرى كثيرًا من المغفلين الذين حنكتهم قوابلهم باسم أوروبا يذمون الدولة العلية ويرمونها بالعجز وعدم التبصير وسوء الإدارة وقسوة الحكام، ولو أنصفوها لقالوا إنها أعظم الدول ثباتًا، وأحسنها تبصرًا، وأقواها عزيمة، فإنها فى نقطة ينصب إليها تيار أوروبا العدوانى؛ لأنها دولة واحدة إسلامية بين ثمانى عشرة دولة مسيحية، غير دول أمريكا، وتحت رعايتها جميع الطوائف والأجناس والأديان، وكثير من اللغات، والفتن متواصلة من رجال أوروبا إلى من يماثلهم مذهبًا أو يقرب منهم جنسًا).

* وانطلاقًا من هذا البعد الدينى للهيمنة الأوروبية على الشرق ـ الذى تتدين أغلبيته بالعقيدة الإسلامية، وتنتمى كل شعوبه إلى الحضارة الإسلامية ـ سعى الأوروبيون إلى إحلال الكنائس محل المساجد فى الأحياء التى بنوها والمجتمعات التى سكنوها، (فما ترى جماعة من الأوروبيين سكنوا جهة فى مصر وإسكندرية أو الشام إلا وبنوا فى كل حارة كنيسة. فهذه جهات الفجالة وشبرا والإسماعيلية والمطرية بها كثير من الكنائس، وما بنى فيها مسجد لمسلم، كأن المسلمين الساكنين بها ليسوا من هذه الأمة)! فالمقاصد العليا ـ على الجبهة الدينية ـ هى (النسخ الدينى وتلاشى الإسلام) ـ كما يقول النديم!

* ولأن الهدف الأول للإمبريالية هو النهب الاقتصادى لثروات الشرق وخيراته؛ فلقد كان الغزو الاقتصادى الأوروبى للدولة العثمانية الطريق لاحتواء الشرق، ولذلك، وجه النديم اللوم الشديد للدولة العثمانية التى منحت الشركات الأوروبية (امتيازات المرافق الأساسية فى بلادها. لقد أعطت السكك الحديدية التزامًا للأوروبيين بواسطة أناس يزعمون أنهم من رعيتها ظاهرًا، وهم فرنساويون أو إنجليز باطنًا، مع أن السكك الحديدية بالنسبة إلى المملكة كالشرايين بالنسبة إلى جسم الإنسان).

وهكذا تداخل العامل الدينى ـ الجامع بين بعض الأقليات وبين المستعمرين ـ مع السعى الاستعمارى للسيطرة على الاقتصاد.

* ولقد أفاض النديم فى الحديث عن النهب الاستعمارى للاقتصاد المصرى، فالجاليات الأجنبية التى زحفت على البلاد، فى ظل النفوذ الأجنبى وتحت ضغط الاستعمار، وفيهم المرابون والمحتكرون، وإن اختلفت جنسياتهم، وتعددت مقاصدهم إلا أنهم (قد اتحدت وجهتهم فى التماس الرزق أو التدرج إلى تملك ما بيد المصريين من عقار ومزارع، واتخذت المغالبة على سلب حقوق المصرى وسائل لمقاصدها، فالتاجر التزم الغش والخيانة والكذب والخداع تحايلًا على رواج تجارته الرديئة، والمرابى اتخذ الخيانة والغدر والتزوير طريقة لنزع ما بيد المصرى من أثاث وعقار، فابتدأ أمره بدراهم معدودة وانتهى بتحايله إلى قناطير منضودة، وقد التزم طرق الحيلة، فهو وطنى ما لان معه حاكم وطنى وساعده على نهب الفلاح وتفليسه، وأجنبى

إن ظهر غشه وغدره يحتال لسلب الفلاح بالمحاكم الأجنبية التى لا يدرى الفلاح شيئًا من أصولها، والمستخدم فى الحكومة تعصب لجنسه فاجتهد فى إبعاد المصريين عن الوظائف الأميرية ووضع وطنيّه مكانه حتى أقفل بيوتًا كثيرة وأفقر أغنياء بقطع مواد الثروة عنهم، ثم تحيز كل جنس من النزلاء فى نقطة سكنًا واستيطانًا ليبعد عن المصرى ويستقل مع جنسيته بخصائص المجامع التجارية والأدبية والأفكار الإدارية والدولية، واتخذ كل فريق مُجَمَّع لهو أو أنس خادمه وصاحبه ومديره من جنسيته حتى لا ينتفع المصرى بشىء من الغرباء. ثم اجتمعت كلمة النزلاء على ذم المصرى وتقبيح أعماله وأقواله وإظهار خفاياه إلى من يهمهم الإطلاع على عوراته التى يرونها بابًا للدخول فى بلاده أو سلب ما بيده، وهذه الأعمال كانت سببًا فى غرس الضغائن بين المصرى وبعض نزلاء بلاده، إذ لا يتصور أن إنسانًا يتغلب على قوت إنسان ومظهره وأثاثه وعقاره، ثم يرى أنه بعد ذلك يحبه أو يحمده، فإن رأى منه ميلًا أو محبة فإن ذلك نفاق يدارى به بعضهم بعضًا، ويتقى به كل منهم شر الآخر، ولهذا ترى النزلاء لخوفهم على ما بأيديهم من التجارة والأعمال يظهرون التجنس بغير الجنسية الشرقية، ويعدون أنفسهم من الغربيين ليشتركوا معهم فيما يسمحون لهم به من الأعمال.

هكذا خدع الأوربيون الشرقيين، ولعبوا بأفكار رجالهم، وخاتلوا عظماءهم، مقبحين لما هم عليه من دين وسير ومعيشة وانتماء وصناعة وتجارة وزراعة، معلنين أن الغرب محل التشريع ومنبع العلم ومرجع الفضائل، لا حياة لأمم إلا بما تأخذه عنه، ولا مجد لمن لم ينتم إليه، ولا فضل لمن لم يتعلم فيه، ولا شرف لمن لم يتكلم بلسانه، ويتعبد بعبادته، ويتقيد بعاداته..

وهكذا تمكنت أوروبا من إدخال مصنوعها فى الشرق، لتحول الثروة إليها، فأماتت ما كان يصنعه الشرقيون، حتى أصبح الشرقيون أجراء يزرعون ويحصدون ويصنعون ليروجوا تجارة أوروبا ويعظموا ثروتها ويؤيدوا قوتها!..).

* ولقد ميز النديم بين ما فى أوروبا من إنجازات حضارية ـ فى العلم، والصناعة، ونظم الحكم ـ وبين ما عندهم من سلبيات وثغرات، فدعا إلى توجيه النقد للذين يقلدون أوروبا فى السلبيات دون الإيجابيات، (إذ ليس من التهذيب أن نذم أوروبا

ونقبح أعمال أهلها وعوائدهم، فإن لكل أمة خصائص ألفتها وعادات لزمتها، وإنما نذم الذين أرادوا تقليد أوروبا فأخذوا بما عليه الغوغاء من التهالك فى الخمر والقمار والفسوق، وتركوا ما عليه أرباب الأفكار ورجال المعارف من خدمة الأمة والبلاد بما فيه الصلاح والعمارية).

* ولأن الاستعمار الأوروبى، إمعانًا منه فى المكر والخداع، أراد إلباس (قبضته الغربية) (قفازًا شرقيًّا) ليوقع الشرقيين فى شراكه وحبائله، فلقد عمد إلى غواية قطاعات من المثقفين الشرقيين الذين صنع عقولهم وفق مناهجه والذين علمهم فى مدارس إرسالياته، والذين استأجرهم ضد بنى جلدتهم؛ ليكونوا أبواقًا يسوغون لمقاصده ونظرياته، وامتدادات سرطانية بين شعوب الشرق ومنظومات قيمها وقسمات هويتها الحضارية؛ لهذه الحقيقة ـ التى برزت فى عصر النديم، والتى لا تزال بارزة حتى الآن ـ خاض النديم طوال حياته معركة شرسة ضد هؤلاء (المتغربين المتأوربين العملاء الأجراء)، (فشر الرجال من ينفق حياته فى إفساد أهل بلاده وإغراء الغير بهم طمعًا فى ذهب يموت ويتركه فيفنى ويبقى ذكره القبيح خالدًا فى بطون أوراقه. ومن لنا بتوحيد وجهتنا معاشر الشرقيين وقد نبتت لحوم الأجساد فى خدمة الأجنبى، فانفعلت لها الأرواح الحاملة لقواها، فكلما حولتها عن وجهتها الغربية دارت إليها، فهى قبلة مصادرها التى وقفت فى محرابها وقوف القانت الواعظ!، ولا يلام أجنبى نزح عن بلاده ليخدمها فى الشرق. ولكن العجب من شرقى يخدم غربيًّا بسلب حقوق إخوانه، وإضاعة شرف أوطانه، والحط من ملوكه وأمرائه، فالأجنبى المحض خير للشرقيين من هذا المحتال! لقد كذب كل من يقول إن الاستظلال بظل الغير حياة للوطنية والمدنية. إن الذين استمالتهم أوروبا فانتموا إليها هم أجانب منا وإن تكلموا بلغتنا وسكنوا وطننا، بل وإن دانوا بديننا، لأنهم لا يقدرون على السعى فى مصالح الشرق، ولا ينطقون بكلمة فيها خير لأهله، فإنهم مقيدون بتعاليم الدول المنحازين إليها قياما بحق نعمتها عليهم).

* هكذا تحدث النديم حديث (فيلسوف الحضارة والتاريخ والنظم السياسية) عندما أجاب على سؤال العصر: (بم تقدم الأوربيون وتأخرنا، والخلق واحد؟!).

* * *

ويزيد من قيمة هذه الدراسة التى كتبها النديم ونشرها فى تسعينيات القرن التاسع عشر، أنه قد فضح فيها مخططات الاستعمار وهو يعيش فى قفص الاحتلال الإنجليزى لمصر، وتحت أعين العملاء والأُجراء الذين استحوذ عليهم الشيطان الاستعمارى ليكونوا أبواقه وأركان إدارته الاستعمارية فى بلادنا.

كما يزيد من قيمة هذه الدراسة الرائدة، مقارنتها بنظيرتها التى كتبها أمير البيان شكيب أرسلان تحت عنوان: (لماذا تأخر المسلمون.. ولماذا تقدم غيرهم؟) بعد دراسة النديم بنحو أربعين عامًا، والتى قدم لها الإمام محمد رشيد رضا [١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ، ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م] ونشرتها مجلة (المنار)، وطبعت بمطبعة المنار ١٩٣٠م؛ ذلك أن شكيب أرسلان ـ وهو أحد أئمة العصر علمًا وبيانًا ـ قد أجاب على سؤال العصر إجابة سريعة، بينما تميزت دراسة النديم بهذا العمق والشمول، الذى جعلها نصًّا من نصوص فلسفة الحضارة والوعى بالتاريخ وفقه الواقع والتبحر فى السياسات الدولية، الأمر الذى يزكى تقديمها للباحثين والقراء، وتسليط الأضواء التى تزيح عنها غبار النسيان.

* * *

ويبقى ـ فى نهاية هذه الدراسة ـ التساؤل عن مصير هذا التقدم الأوروبى، الذى تحدث عنه النديم، وشكيب أرسلان. هل لا يزال هذا التقدم الأوروبى قائمًا؟، أم أن الحضارة الأوروبية قد شاخت، ودخلت فى مآزق بنيوية، يبدو أنها ستأخذ بناصيتها نحو الغروب؟!

* لقد أفرزت الحضارة الأوروبية ـ بعد عصر النديم ـ الفلسفات والنظم الفاشية والنازية والماركسية، التى أفلست، وسقطت، بعد أن كلفت الإنسانية من أمرها عسرًا شديدًا.

* وأفرزت هذه الحضارة الأوروبية الفلسفة الوضعية اللا دينية، التى همشت المسيحية، وأحلت محلها التنوير والحداثة كدين طبيعى، ثم أفلس هذا التنوير وهذه الحداثة فأفضيا إلى التفكيكية والعدمية واللا إدارية التى بشرت بها ما بعد الحداثة، فأصبح الغرب ـ وخصوصًا أوروبا ـ فراغًا دينيًّا، يتمدد فيه الإسلام، وغيره من عقائد

الديانات الوضعية. أى أن عامل (توحيد الجامعة الدينية) الذى مثل أحد ركائز التقدم الأوروبى فى عصر النديم قد انهار تمامًا، حتى لقد كتب بابا الفاتيكان (بنديكتوس السادس عشر): أنه يخشى انقراض المسيحية من أوروبا، وأن تصبح أوروبا جزءًا من دار الإسلام فى القرن الواحد والعشرين)!

وشاعت فى أوروبا ظاهرة إغلاق الكنائس، وبيعها مطاعم وملاهى وعلب ليل، مع انتشار المساجد فى ربوعها! وها هى فرنسا - التى أعلن قادتها فى الجزائر سنة ١٩٣٠م - وهم يحتفلون بمرور قرن على احتلالهم للجزائر - أعلنوا أن عهد الهلال قد ولى، وأقبل عهد الصليب، وأن الجزائر ستكون مهدًا لحضارة روحها الإنجيل. وأنهم إنما يحتفلون بتشييع جنازة الإسلام فى الجزائر!

ها هى فرنسا - أكبر بلاد الكاثوليكية - التى أعلنت ذلك سنة ١٩٣٠م، لا يذهب إلى قداس كنائسها إلا أقل من ٥٪ من السكان، بينما يصلى الجمعة فى مدنها وقراها من المسلمين أكثر من ضعف الذين يذهبون إلى القداس! وها هى إنجلترا الإنجليكانية - التى ترأس ملكتها كنيستها - تتدنى نسبة من يعدون أنفسهم مسيحيين إلى ٥٩٪ من السكان - بعد أن كانت ٧١,٧٪ قبل عشر سنوات! وترتفع نسبة الملحدين بين سكانها إلى ٢٥٪ بعد أن كانت نسبتهم ١٤,٨٪ من السكان قبل عشر سنوات! ولا يحضر القداس الأسبوعى فى إنجلترا سوى مليون فقط. و١٠٪ من كنائسها قد صنفت (زائدة عن الحاجة)، ومعروضة للبيع!، وبسبب انهيار الأسرة، فإن نسبة مواليد المسلمين الإنجليز - وهم ٥٪ من السكان - تتزايد بشكل ملحوظ، حتى إن اسم (محمد) قد سبق اسم (جورج) فى مواليد سنة ٢٠٠٦م، واسم (جاك) و(هارى) فى مواليد سنة ٢٠٠٩م! ولقد أعلن الكرادلة هناك: (أن المسيحية أوشكت على الانحسار فى بريطانيا، وأن الدين لم يعد مؤثرًا فى حياة الناس)!

إذًا، فركيزة (وحدة الجامعة الدينية) التى مثلت أحد أهم عوامل التقدم الأوروبى - الذى تحدث عنه النديم وأرسلان - قد انهار، ولم يعد جائزًا أن نتحدث الآن عن (تقدم أوروبى) فى الواقع الذى نعيش نحن فيه!

وإذا كانت الفاشية والنازية والماركسية قد سقطت سقوطها المدوى والشهير؛ فإن

ليبرالية الرأسمالية الغربية المتوحشة قد دخلت ـ هى الأخرى ـ نفقًا مظلمًا لن تخرج منه سالمة بأى حال من الأحوال.

وبمناسبة هذه الأزمة المالية لهذه الليبرالية، كتبت المجلة الفرنسية ـ الفصلية ـ (التحديات Challanges) ـ إبان زيارة البابا لفرنسا ٢٠٠٨م ـ فقالت: (إنه فى حين يمر العالم بأزمة مالية تجتاح جميع معالم النمو فى طريقها، يجب علينا قراءة القرآن بدل نصوص البابوية، ولو طبق رجال البنوك الطامعون بالمردود على الأموال الخاصة ـ ولو قليلًا ـ الشريعة الإسلامية، ومبدأها المقدس: (المال لا ينتج المال) فإننا لم نكن لنصل إلى ما وصلنا إليه)![1].

إذًا، مع انهيار ركيزة (وحدة الجامعة الدينية)، التى قام عليها التقدم الأوروبى ـ فى عصر النديم ـ لم نعد أمام (تقدم أوروبى)، وإنما أمام غروب لهذا النموذج الحضارى، الذى أصبح وكأنه سليمان ـ عليه السلام ـ الذى توفاه الله، بينما عصاه هى التى تحفظ عليه صورة الأحياء!

وأمام هذه الحقيقة ـ التى لم يشهدها عصر النديم وأرسلان ـ يتفرد الإسلام خيارًا حضاريًّا، تظهر حلوله على الدين كله، ولو كره الكافرون!

فقط، على المسلمين أن يفقهوا الأسباب الإسلامية التى تقدموا بواسطتها قبل أربعة عشر قرنًا؛ ليصلحوا بها حاضرهم ومستقبلهم، كما صلح بها ماضيهم. ويومئذ ستكتب الدراسات التى ستجيب على سؤال العصر ـ عصرنا نحن: ـ بم تقدم المسلمون وتأخر الغرب.. والخلق واحد؟!

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ

(١) انظر فى هذه الحقائق وما ماثلها كتابنا (الغرب والإسلام: تاريخ من الغزو والتزييف وغواية الأقليات) طبعة مكتبة وهبة ـ القاهرة سنة ١٤٣٢هـ، سنة ٢٠١١م. وصحيفة (الأهرام) عدد ١٠ رجب سنة ١٤٣٤هـ، ٢٠ مايو سنة ٢٠١٣م، وكتابنا (الحل الإسلامى لأزمة الرأسمالية العالمية) ص ٤٥، ٤٦ طبعة دار السلام ـ القاهرة سنة ١٤٣٠هـ، سنة ٢٠٠٩م. وكتابنا [ظاهرة الإسلاموفوبيا: الجذور التاريخية والنهايات المنتظرة] طبعة دار البشير ـ القاهرة سنة ١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م.

يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١]، ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٥ ـ ٧].

وصدق رسول الله ـ ﷺ ـ إذ يقول: (لا يلبث الجور بعدى إلا قليلًا حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شىء ذهب من العدل مثله، حتى يولد فى الجور من لا يعرف غيره. ثم يأتى الله تبارك وتعالى بالعدل، فكلما جاء من العدل شىء ذهب من الجور مثله، حتى يولد فى العدل من لا يعرف غيره) ـ رواه الإمام أحمد.

ورحم الله الشيخ حسن البنا [١٣٢٤ ـ ١٣٦٨هـ، ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م] الذى تنبأ بعودة الإسلام إلى عرش القيادة للحضارة، فقال: (لقد كانت قيادة الدنيا، فى وقت ما، شرقية بحتة، ثم صارت بعد ظهور اليونان والرومان غربية، ثم نقلتها النبوات إلى الشرق مرة ثانية، ثم غفا الشرق غفوته الكبرى، ونهض الغرب نهضته الحديثة، فورث الغرب القيادة العالمية. وها هو ذا الغرب يظلم ويجور ويطغى، ويحار ويتخبط، فلم تبق إلا أن تمتد يد (شرقية) قوية يظللها لواء الله، وتخفق على رأسها راية القرآن، ويمدها جند الإيمان القوى المتين، فإذا الدنيا مسلمة هانئة، وإذا بالعوالم كلها هاتفة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾(١) [الأعراف: ٤٣].

إنها نهضة الشرق ـ بالإسلام ـ التى تلوح بشائرها فى الأفق، والتى حلم بها النديم وأرسلان. وكل أعلام اليقظة الإسلامية الحديثة والمعاصرة، والتى ضرب الغرب مشاريعها ـ منذ محمد على باشا [١١٨٤ ـ ١٢٦٥هـ، ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩م] وعرابى [١٢٥ ـ ١٣٢٩هـ، ١٨٤١ ـ ١٩١١م]، وسعد زغلول [١٢٣٣ـ ١٣٤٦هـ، ١٨٥٧ ـ ١٩٢٧م]، وجمال عبد الناصر [١٣٣٦ ـ ١٣٩٠هـ، ١٩١٨ ـ ١٩٧٠م] والتى يبدو نجاحها مؤكدًا ـ إن شال الله ـ بعد أن دخل الغرب فى مأزقه الحضارى الخانق لأول مرة منذ العصر الحديث. وبعد أن سقطت ـ فى بلادنا ـ أوهام التقدم وفق نماذج الحداثة الغربية.

(١) (مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا) ـ رسالة (نحو النور) ص ٦٠ طبعة دار الشهاب ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.

وصدق الله العظيم: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٤].

نعم. (وترجون من الله ما لا يرجون). وعلى الله قصد السبيل. وما النصر إلا من عند الله.

بطاقة حياة
الشيخ عبد العزيز جاويش

[١٢٩٣ ـ ١٣٤٧ هـ ـ ١٨٧٦ ـ ١٩٢٩م]

* هو عبد العزيز بن خليل بن حسن بن جاويش.

* ولد بالإسكندرية فى [١٢ شوال سنة ١٢٩٣هـ ـ ٣١ أكتوبر سنة ١٨٧٦م] لأسرة تعمل بالتجارة.. نزحت من بنغازى ـ بليبيا ـ إلى الإسكندرية.. فاستوطنتها.

* ولقد اختصت الأسرة ابنها عبد العزيز بسلوك طريق التعليم الدينى ـ حيث كان باقى إخوته يحترفون التجارة.. فبعد مرحلة التعليم بمسجد الشيخ إبراهيم باشا، سافر إلى القاهرة للمجاورة بالأزهر الشريف سنة [١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م].

* ولقد سلك جاويش ـ فى الدراسة والفكر ـ طريق التجديد والمجددين.. مع الانخراط فى العمل السياسى ـ الوطنى والإسلامى.. والجهاد الفكرى والعلمى.. والإصلاح التربوى والاجتماعى.

ففى الدراسة، جمع بين الأزهر ـ الذى درس فيه لمدة عامين. وبين دار العلوم ـ التى تخرج فيها سنة [١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م].

* وبعد العمل بالتدريس ـ فى مدرسة الزراعة ـ لمدة قصيرة.. ابتُعث الشيخ جاويش ـ لتفوقه فى درجات التخرج من دار العلوم ـ إلى إنجلترا، فدرس فيها ثلاث سنوات بجامعة «برودود».. ليعود منها سنة [١٣١٩هـ ـ ١٩٠١م] مفتشًا للكتاتيب بوزارة المعارف المصرية.

* وبعد عام من العمل فى التربية والتعليم ـ بوزارة المعارف عاد الشيخ جاويش

إلى لندن ليعمل مدرسًا للغة العربية بجامعة «أكسفورد» سنة [١٣٢٠هـ ـ ١٩٠٢م]، وذلك بتوصية من المستشرق الإنجليزى «مرجليوث» [١٨٥٨ ـ ١٩٤٠م].. وهناك قضى خمس سنوات، توثقت فيها علاقاته بطلاب العالم الإسلامى.. وزادت فيها خبرته بالسياسة الاستعمارية إزاء الدولة العثمانية والشرق الإسلامى، وما اشتهر يومئذ «بالمسألة الشرقية».. كما اطلع على الفكر الاستشراقى، وعلى مطاعن بعض المستشرقين ضد الإسلام وأمته وحضارته.

ولقد حضر جاويش ـ إبان هذه الفترة ـ مؤتمر المستشرقين بالجزائر سنة [١٣٢٣هـ ـ ١٩٠٥م].. ودافع عن اللغة العربية الفصحى وعن القرآن الكريم ضد مطاعن بعض المستشرقين الألمان، الأمر الذى لفت إليه ـ وإلى منطقه وبلاغته ـ أنظار الكثيرين من حضور المؤتمر، ومنهم الزعيم الوطنى الإسلامى محمد بك فريد [١٢٨٤ ـ ١٣٣٨هـ ـ ١٨٦٨ ـ ١٩١٩م]، الذى حدَّث الزعيم الوطنى مصطفى كامل باشا [١٢٩١ ـ ١٣٢٦هـ ـ ١٨٧٤ ـ ١٩٠٨م] عن مواهب الشيخ جاويش.. فبدأت الصلات تتوثق بينه وبين تيار الوطنية والجامعة الإسلامية منذ ذلك التاريخ.

* وبعد عودة الشيخ جاويش من أكسفورد [١٣٢٤هـ ـ ١٩٠٦م] عمل مفتشًا بوزارة المعارف.. فلما توفى مصطفى كامل باشا ـ فى [محرم سنة ١٣٢٦هـ ـ فبراير سنة ١٩٠٨م] ـ استقال الشيخ جاويش من وزارة المعارف ـ أواخر إبريل من ذات العام ـ ليحل محل مصطفى كامل فى رئاسة تحرير صحيفة (اللواء) ـ لسان حال الحزب الوطنى المصرى.

* وفى خِضَمّ العمل السياسى ـ الوطنى والإسلامى ـ خاض الشيخ جاويش عشرات المعارك الفكرية ضد الاستعمار.. والاستبداد.. وضد النزعات الطائفية التى عمل الاستعمار على توظيفها ضد الإسلام وحركة التحرر الوطنى.. كما خاض العديد من المعارك الفكرية ضد الجمود والتقليد ـ من جانب ـ وضد مطاعن الاستشراق والزندقة ـ من جانب آخر ـ وفى سبيل التجديد الفكرى والإصلاح الدينى.

وبسبب هذه المعارك دخل السجن عدة مرات، إحداها سنة [١٣٢٧هـ ـ ١٩٠٩م] بسبب مقال له فى ذكرى مذبحة «دنشواى».. وثانيها فى العام التالى، بسبب تقديمه لديوان «وطنيتى» للشيخ على الغاياتى [١٣٠٢ ـ ١٣٧٥هـ ـ ١٨٨٥ ـ ١٩٥٦م] الذى قدَّم له ـ أيضًا ـ وحوكم بسببه الزعيم محمد بك فريد.. ثم سُجن مرة ثالثة ـ من [٩ سبتمبر إلى ١٧ أكتوبر ١٩١٢م] ـ عندما سلمته الحكومة التركية إلى سلطات الاحتلال الإنجليزى لمصر، ومرة رابعة سنة [١٣٤٣هـ ـ ١٩٢٤م].

* وكان الشيخ جاويش ـ فى خضم العمل الإسلامى ـ أحد الزعماء الذين دعموا الجهاد الليبى سنة [١٣٢٩هـ ـ ١٩١١م] ضد الغزو الفاشى الإيطالى ـ بالمال والسلاح ـ الأمر الذى جعل سلطات الاحتلال الإنجليزى بمصر تضيِّق عليه الخناق، وتتجه إلى سجنه من جديد.. فهاجر من مصر ـ فى ربيع الأول سنة (١٣٣٠هـ) فبراير سنة (١٩١٢م) ـ إلى الآستانة ـ عاصمة الخلافة العثمانية ـ ليواصل هناك نشاطه السياسى والصحفى والفكرى من خلال الصحف والمجلات التى أصدرها هناك «الهلال العثماني» و«الهداية» و«العالم الإسلامى».. كما أسس هناك «جمعية خدام الكعبة» لمتابعة سياسات العالم الإسلامى.

* ووضع الأساس لجامعة المدينة المنورة فى (ربيع الأول ١٣٣٢هـ ـ فبراير ١٩١٤م).

* وعندما انهزمت تركيا فى الحرب العالمية الأولى، فر الشيخ جاويش إلى ألمانيا، حيث عاش هناك حياة قاسية.. ثم عاد إلى تركيا لمناصرة ثورتها ضد الزحف اليونانى عليها.. ثم اختلف مع مصطفى كمال باشا ـ أتاتورك ـ [١٢٩٨ ـ ١٣٥٧هـ ـ ١٨٨١ ـ ١٩٣٨م] عندما اتجه إلى إلغاء الخلافة، وعلمنة الدولة والمجتمع، وسلخ تركيا عن تاريخها ومحيطها وهويتها.

* وأمام انسداد طرق الجهاد فى الساحة العثمانية، بعد إسقاط الخلافة، وانفراط عقدها.. عاد الشيخ جاويش ـ سرًّا ـ إلى مصر سنة [١٣٤٢ هـ ـ ١٩٢٣م] مجددًا العهد على مواصلة الجهاد فى وادى النيل.. فعمل بالصحافة.. ورشح نفسه فى الانتخابات البرلمانية [١٣٤١هـ ـ ١٩٢٣م].. ثم عمل مديرًا للتعليم الأولى.. وشارك فى تأسيس

«جمعية الشبان المسلمين» سنة [١٣٤٦هـ ـ ١٩٢٧م].. وانتُخب وكيلًا لها.. كما أسهم فى العمل النقابى.

* * *

* أما فى الميدان الفكرى، فلقد كان الشيخ جاويش أحد أعلام علماء مدرسة الإحياء والتجديد، التى ارتاد ميدانها جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م].. والتى أبدع معالم مشروعها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م].. فلقد حضر جاويش دروس الأستاذ الإمام لتفسير القرآن الكريم ـ بالرواق العباسى.. بالجامع الأزهر الشريف ـ كما حضر ندوة الأستاذ الإمام بمنزله ـ بضاحية عين شمس ـ وسار على منهاجه فى الاجتهاد والتجديد، كواحد من أنجب تلامذة الأستاذ الإمام ـ الذى كان يلقبه جاويش «بالحكيم».. وتميَّز جاويش ـ بين أعلام علماء الاجتهاد والتجديد ـ بجمعه بين «التجديد الفكرى» ـ الذى تخصص فيه الشيخ محمد عبده ـ وبين العمل السياسى الإسلامى ـ الذى قاد نشاطه الزعيم الوطنى الإسلامى مصطفى كامل باشا وحزبه الوطنى.. فكان عَلَمًا من أعلام تيار الجامعة الإسلامية ـ فى الفكر.. والسياسة.. والصحافة.. والتربية.. والخطابة.. والجهاد فى معارك الشعوب الإسلامية فى ذلك التاريخ.. وبرئ ـ بذلك ـ من الفصام النَّكِد الذى وقع بين هذين الفصيلين من فصائل اليقظة الإسلامية الحديثة.

* وغير المقالات ـ السياسية والتربوية ـ فى الصحف التى كتب فيها الشيخ عبد العزيز جاويش ـ مثل «اللواء» و«القلم» و«الشعب» و«الأخبار» و«الهلال العثمانى» و«الهداية» و«العالم الإسلامى» وغيرها ـ خلَّف لنا الشيخ جاويش كتبًا ستة، هى:

١ ـ (الإسلام دين الفطرة) وهو من أبدع ما كُتب فى تقديم حقائق الإسلام للعقل الحديث والمعاصر.

٢ ـ (إجابتى على الكنيسة الإنجليكية) ـ الذى ألفه فى لندن.

٣ ـ (خواطر فى التربية والسياسة وأبحاث عن المرأة المصرية والشئون العامة) ـ

وهو جمع لمقالاته حول هذه القضايا فى صحيفة (اللواء) سنتى [١٣٢٦هـ ـ ١٩٠٨م، و١٣٢٧هـ ـ ١٩٠٩م].

٤ ـ (غُنية المؤدبين فى الطرق الحديثة للتربية والتعليم).

٥ ـ (مرشد المترجم).

٦ ـ (أثر القرآن فى تحرير الفكر البشرى).

* وبعد حياة حافلة بكل هذه الألوان من الجهاد الفكرى.. والوطنى.. والإسلامى.. صعدت روح الشيخ عبد العزيز جاويش إلى بارئها فى فجر يوم الجمعة (١٤ شعبان سنة ١٣٤٧هـ ـ ٢٥ يناير سنة ١٩٢٩م) مخلفًا ذكريات جهادية.. وصفحات نضالية.. وإسهامات فكرية خالدة لا تموت[1].

* * *

(١) انظر فى ترجمة حياته: خير الدين الزركلى، الأعلام، طبعة بيروت الثالثة، وتقديم الأستاذ فتحى رضوان، لكتاب: الإسلام دين الفطرة، طبعة الزهراء، القاهرة سنة (١٩٨٧م).. ومجدى سعيد، مقدمة كتاب: الإسلام دين الفطرة، طبعة مكتبة الإسكندرية.

أثر القرآن فى تحرير الفكر البشرى
للشيخ عبد العزيز جاويش
[١٢٩٣ ـ ١٣٤٧هـ ـ ١٨٧٦ ـ ١٩٢٩م]

على مر تاريخ الإسلام، كانت الخلافة الإسلامية «الرمزَ» و«الوعاءَ» لوحدة الأمة.. وتكامُل أقطار دار الإسلام.. وإقامة الشريعة الإسلامية.

ولقد ظل هذا «الرمز» وهذا «الوعاء» قائمًا ودائمًا.. يقْوَى حينًا.. ويَضعُف حينًا.. لكنه ظل قائمًا ودائمًا، تتوجه إليه الأمة بالتجديد والإحياء.

وعندما تحالف الصليبيون والشيعة والتتار على تدمير الخلافة العباسية ـ ببغداد سنة [٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م] ـ نقل المماليك هذا «الرمز» وهذا «الوعاء» إلى القاهرة فظلت قلوب المسلمين متعلقة به دائمًا وأبدًا.

لكنَّ سنة [١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٤م] قد شهدت الزلزال الذى حطم هذا الوعاء وأسقط هذا الرمز ـ على يد كمال أتاتورك [١٢٩٨ ـ ١٣٥٧هـ ـ ١٨٨١ ـ ١٩٣٨م] لأول مرة فى تاريخ الإسلام، ويومئذ صوَّر أمير شعراء العربية والإسلام أحمد شوقى [١٢٨٥ ـ ١٣٥١هـ ـ ١٨٦٨ ـ ١٩٣٢م] هذا الحدث الجلل فقال:

ضَـجَّـتْ عـلـيـكِ مـآذنٌ ومنابر ... وبـكـتْ عليكِ ممـالـكٌ ونـواحِ
الـهـنـدُ والـهـةٌ، ومـصـرُ حزينةٌ ... تبكى عليكِ بـمَـدْمَـعٍ سَـحَّـاحِ
والـشـامُ تـسـأَلُ والـعـراقُ وفـارسٌ ... أَمَـحَـا من الأرض الخلافةَ ماحِ؟
وأتـت لـكِ الجُمعُ الجلائلُ مأتمًا ... فـقـعـدنْ فيـه مـقـاعـدَ الأنـواحِ
يـا لـلـرجـالِ، لـحـرةٍ مـوءودةٍ ... قُـتـلـتْ بغير جـريـرةٍ وجُـنـاحِ

نـزعـوا عـن الأعـنـاقِ خيـرَ قـلادةٍ ... ونضوا عن الأعـطـافِ خيرَ وشـاحِ
حَـسَـبٌ أتـى طـولُ الليالى دونَـه ... قـد طـاح بـيـن عـشـيـةٍ وصـبـاحِ
وعـلاقـةٌ فُـصِـمَـتْ عـرى أسبابُها ... كـانـت أبـرَّ عـلائـقِ الأرواحِ
جمعتْ على البر الحضور وربما ... جـمـعـتْ عليه سـرائـر الـنُّـزَّاحِ
نظمتْ صفوفَ المسلمين وخطوَهم ... فـى كـل خـطـوة جمعة ورواحِ
بكتِ الـصـلاةُ، وتلك فتنةُ عابثٍ ... بـالـشـرع عربيد الـقـضـاء وقـاحِ
مَـنْ قـائـلٌ للمسلمين مقالةً ... لـم يوحها غير النصيحةِ واحِ
عـهـدُ الـخـلافـةِ فـىَّ أول ذائـدٍ ... عـن حـوضـهـا بـبـراعـة نـضَّـاحِ
حـبٌّ لـذات الـلـه كـان ولـم يـزلْ ... وهـوًى لـذاتِ الـحـقِّ والإصـلاحِ
فَـلَـتَـسْـمَـعُـنَّ بـكـلِّ أرضٍ داعـيًا ... يدعو إلـى «الـكـذاب» أو لسجاحِ
ولـتـشـهـدُنَّ بـكـل أرضٍ فتنةً ... فيها يـبـاع الـديـنُ بَـيْـعَ سَـمَـاحِ
يُفْتَى على ذهـبِ المعزِّ وسيفِه ... وهوى النفوسِ وحقدِها الملحاحِ

* * *

وعندما سقط شعار الخلافة الإسلامية، وتمزَّق شمل الأمة بالقطرية المغالية، انفتحت الأبواب أمام الغرب والتغريب «بالفتن الفكرية، التى يباع فيها الدين بيع سماح!» لإهالة التراب على تاريخ هذا الرمز وهذا الوعاء.. بل وطال الهجوم التغريبى عددًا من ثوابت الإسلام!

* ففى العام التالى لإسقاط الخلافة، صدر كتاب (الإسلام وأصول الحكم) ـ الذى حمل اسم القاضى الشرعى الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ ـ ١٣٨٦هـ ـ ١٨٨٧ ـ ١٩٦٦م].

ـ والذى شارك فى تأليفه الدكتور طه حسين [١٣٠٦ ـ ١٣٩٣هـ ـ ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م] ـ ليدعى علمنة الإسلام، وتجريده من السياسة والدولة والحكومة والشريعة

والقانون، معلنًا: «يا بعد ما بين السياسة والدين»! وليقدم للخلافة الإسلامية صورة شائهة ـ صورة الكهانة القائمة على القهر والاستبداد ـ حتى على عهد الخلفاء الراشدين!

* وفى العام التالى لصدور كتاب (الإسلام وأصول الحكم) نشر الدكتور طه حسين كتابه (فى الشعر الجاهلى) الذى شكك فيه بالصدق التاريخى لعدد من قصص القرآن الكريم، وبعض العقائد الواردة فيه.. من مثل علاقة الإسلام بالحنيفية والحنفاء.. وصلته بملة أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام، والرحلة الحجازية لأبى الأنبياء، وإقامته ـ وابنه إسماعيل عليه السلام قواعد البيت الحرام.

* وأمام هذه الأفكار الصادمة، التى طُرحت فى الساحة الفكرية حاملةً دعَاوَى لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الإسلام، حدث الاستنفار للعقل المسلم.. فصدرت عشرات الكتب التى فنَّدت هذه الدعاوى.. وتحركت النخبة المسلمة فأقامت (جمعية الشبان المسلمين) سنة (١٩٢٧م).. ودخلت الجماهير إلى الميدان، فقامت «جماعة الإخوان المسلمين» سنة (١٩٢٨م).

* وكان الشيخ المجاهد العلامة عبد العزيز جاويش [١٢٩٣ ـ ١٣٤٧هـ ـ ١٨٧٦ ـ ١٩٢٩م] فى طليعة الذين أسهموا فى هذا الجهاد الفكرى.. بل لقد تجاوز نطاق «الرد» على هذه الدعاوى إلى ميدان «الهجوم» فألقى هذه المحاضرات ـ التى نقدم بين يديها ـ والتى تقول لخصوم الإسلام والقرآن الكريم:

ـ إن هذا الذكر الحكيم هو الذى حرر الفكر البشرى من القيود، ووضع عن الحضارة الغربية ـ التى تنتسبون إليها ـ الإصر والأغلال.

ففى هذه المحاضرات يتحدث هذا العلامة المجاهد «للمفتونين، الذين يتظاهرون على النيل من هذا الأدب القدسى، والعيب فى تلك البلاغة الربانية».. ويدير الحوار المنطقى والعقلانى حول العديد من الأفكار.

ـ فبعد أن عرض لحال الفكر وتطوره فى الحياة الإغريقية والرومانية.. تحدث عن «دور المسيحية الرومانية فى اضطهاد حرية الفكر.. ودور الأندلس، وابن رشد [٥٢٠

ـ ٥٩٥هـ ـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨م] ـ الذى أحيا فلسفة أرسطو [٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م] ـ فى بث حرية الفكر فى أوروبا المسيحية.. ودور فيلسوف الكاثوليكية وقديسها توما الإكوينى [١٢٢٥ ـ ١٢٧٤م] فى مقاومة هذه الحرية!..».

ـ وكيف أخذ الأوروبيون علم العرب المسلمين دون ذكر المصادر التى أخذوا عنها!.. وكيف كانت مجاورةُ أهل أوروبا لأهل القرآن ـ الذى حرر العقول، وأقام صروح العلوم، وزيَّن الدنيا بجميل الفنون ـ هى التى فتَّقت بصائرهم وكشفت عن حديد أبصارهم أغشية الجهالة التى حجبتهم عن أنوار الهداية أدهارًا طويلة. ولو أن هؤلاء الأوروبيين وقفوا من العقل الإنسانى موقف أهل القرآن من كل وجه لما تأخرت نهضتهم الفكرية الصادقة عن ذلك الوقت الذى اتصلوا فيه بالمدنية العربية وحرية الفكر الإسلامية، ولكن كان لسلطان رجال الدين فى تلك العصور واسترقاقهم لعقل الدنيا المسيحية خلالها ما قاوم تقدمهما وأضعف تأثيرهما.

ـ بل لقد مارس الإصلاحُ الدينىُّ البروتستانتى ـ على يد زعيمه مارتن لوثر [١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م] الاضطهادَ الفكرىَّ، بإجبار الشعب على اعتناق هذا المذهب دون سواه.

* وكيف أننا لا نزال نرى فى بعض ممالك أوروبا، بل وفى أمريكا الجديدة أقوامًا لا ينفكُّون ينصرون القديم، ويفضِّلون الجمود على ما كان عليه الأوَّلون، ولو عارض المشهودات العينية وناقض الحجج المنطقية.

ـ «لقد فرض الإسلامُ ـ منذ أشرق نور القرآن على القلوب، وتجلت تعاليمه الفطرية على العالم الإنسانى ـ التفكيرَ، وقبَّح التقليد، ورفع الحجر عن العقول».

ـ «لقد جاء القرآن بدين الفطرة ليحرر بأوامره القدسية النفوس المغلولة، وينجِّى من معاشر الجهالة العقول الضالة».

ـ «إن القرآن لم يذر وسيلة موصلة إلى إنعاش العقل وتحرير الفكر إلا تذرَّع بها، فهو إذا تحاكم فإلى العقل، وإذا حاجَّ فيحكِّم العقل، وإذا سخط فعلى معطلى العقل، وإذا رضى فعن أولى العقل».

ـ لقد جادل القرآن من جادل من أرباب الملل والنِّحَل الماديين والدهريين، فما قارعهم إلا بالبرهان، ولا دعاهم إلا إلى البحث والنظر.. من ذلك قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ـ «إن القرآن، ومن ورائه علماء الكلام وأصول الدين، كلهم يجمعون على ضرورة طلب عقيدة الإيمان بوجود الله عن طريق النظر والاستدلال».

ـ ولقد أجمع العلماء على قاعدة: أنه يجب أن يؤوَّل إلى حكم العقل من الشرعيات ما ظاهره يخالف العقل».

ـ «إن الله سبحانه وتعالى أبى أن يؤيد هذا الدين إلا بالمعجزة التى لا تنافر فطرته ولا يقوى معارض على معارضتها، تلك هى القرآن الكريم نفسه.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

ـ.. فالإسلام، فيما يصوره القرآن الحكيم قد امتاز عن غيره من الأديان الأخرى بأنه دين اليقين والنظر لا دين خوارق العادات وما وراء العقل من الآيات: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٨، ١١٩].

ـ لقد جاء القرآن لمن يعقلون ويفقهون أن الله لا يرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين، وأن معيار صحة رسالات الرسل صحة ما يأتون به من البلاغ السماوى، وضمان ذلك لسعادة الإنسان فى حياتيه الدنيا والأخرى».

ـ «فالإسلام، الذى هو دين الفطرة، ومجمع الكمالات القدسية، والآداب الإلهية ليس بذلك الذى يُتَذَرَّع إليه بالقسوة والغلظة، ويروَّج فى العالم بالسيوف والنيران.. فالعقائد لا تتكون فى نفوس العقلاء بالقوة والقهر، ولا تُلتمس إلا بالبرهان العقلى والخطابة والشعر والتقليد».

ـ «ونحن على ثقة أنه لو درس شيوخ المسلمين العلوم الكونية وعرفوا أسرار سنة الله فى خليقته لما كثرت الملاحدة وفشت المناكير».

ـ «لقد اعتبر القرآن التفكُّر فى ملكوت الله من كبريات العبادات يُزْدَلف بها إلى الله.. وقال الرسول ﷺ: «**تفكر ساعة خير من قيام ليلة**»[1]. ولقد علم المسلمون أن من أعظم العبادات قراءة كل ما يعين الإنسان على معرفة حِكَم الله فى خلائقه وإدراك البدائع من صنعته، ككتب الطب والتشريح وعلم الحياة وعلم وظائف الأعضاء وعلم النفس وأشباهها».

ـ «إن الذين يصوِّرون علاقة العلم والدين حربًا قائمة دائمة هم تلاميذ آثار الغربيين ممن يطيرون لكل هيعة ويُفتنون بكل بدعة، ولو كُبلت عقولهم بأغلال التقليد واحتُبست أفهامهم عن التدبر والتفكير.. لقد أبوا إلا أن يجمدوا على الثقة بالمباحث الغربية دون سبر لأغوارها ولا تفكُّر فى مبلغها من الصدق، وما يتبع أكثرهم فى ذلك إلا الظن وما تهوى الأنفس.. ولو كان لهؤلاء علمٌ بأصول القرآن ووقوفٌ على ما مكَّن للعقل والوجدان والقول من قواعد الحرية الصادقة فى سائر شعب الحياة لما زلت لهم قدم فى مزالق التقليد، ولفقهوا جلال ذلك الكتاب الذى يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].. والذى يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]».

نعم.. حول هذه المحاور والأفكار والحقائق، أُلقيت هذه المحاضرات ـ التى نقدم بين يديها.. بمدرسة دار العلوم العليا ـ التى قامت على طباعتها وإذاعتها بين القراء.. وفيها ـ وفى صاحبها ـ قال الأديب الشيخ عبد العزيز البشرى [١٣٠٣ ـ ١٣٦٢هـ ـ ١٨٨٦ ـ ١٩٤٣م] واصفًا صاحبها «بسعة العلم، وشدة العقل، وقوة الفهم، وصفاء النفس، ومتانة الإيمان».

وأضاف:

«كان ذلك شأن هذا الرجل من يوم نجم فى هذه الحياة: جهاد موصول لا هوادة

---

(١) الجامع الكبير للسيوطى.

فيه ولا هدنة، وسَعْى حثيث إلى تلك الغاية، من حيث ينفرج له وجه الطريق؛ فإذا ملك عليه هذا القطر وثب إلى طلبها من قطر غيره، وهكذا لا يكلُّ ولا يملُّ ولا يسأم ولا يزهد، وكذلك يطبع الله لهداية خلقه رجالًا، على أنهم لا مأرب لهم فى هذه الدنيا إلا أنهم مزدحمو الشعور بأنهم مسئولون عما يعتريها من مكاره، وأولئك وإن قلُّوا عددًا إلا أنهم كل شىء فى هذا العالم.

لقد عاش الأستاذ جاويش بكْ قوةً عاملةً للدين والعلم والأخلاق، ولا أحسبه عاش لنفسه يومًا واحدًا، ولا انقبض عن العمل لأولئك يومًا واحدًا، فإذا نحن دعونا الله ـ تعالى ـ أن يبسط فى عمره ويسبغ عليه الصحة فقد دعونا لأنفسنا وديننا بدوام العافية».

* * *

تلك إشارات لمكانة هذه المحاضرات ـ التى أُلقيت قبل نحو قرن من الزمان ـ سنة (١٩٢٨م) والتى نقدمها لأبناء القرن الخامس عشر الهجرى ـ الواحد والعشرين الميلادى ـ بعد أن ترجمنا للأعلام الذين ورد ذكرهم فيها ـ وذلك إحياء لهذا الفكر الخلاق الذى جادت به قريحة واحد من أعلام علماء الإحياء والتجديد فى عصرنا الحديث.. سائلين الله سبحانه وتعالى أن ينفع به.. إنه خير مسؤول وأكر مجيب[1].

(١) كتاب [أثر القرآن فى تحرير الفكر البشرى] طبعة دار السلام، القاهرة سنة ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.

الشيخ الأكبر محمد الخضر حسين
بطاقة حياة الشيخ محمد الخضر حسين
[١٢٩٣ - ١٣٧٧هـ ١٨٧٦ - ١٩٥٨م]

ليست هذه بالترجمة المستفيضة لحياة الشيخ الفاضل محمد الخضر حسين.. وإنما هى «بطاقة» تجتهد لتكثف هذه الحياة الخصبة فى سطور..

* فمن أسرة جزائرية «شريفة»، يرتفع نسبها إلى الأمراء الأدارسة، بالمغرب، جاء والده.. ومن أسرة تونسية، اشتهرت بالعلم والفضل والتقوى - هى أسرة عزوز - جاءت والدته..

* وفى مدينة «نفطة»، من أعمال «الجريد»، بجنوب القطر التونسى، ولد شيخنا فى ٢٧ رجب سنة ١٢٩٣ هـ ١٦ أغسطس سنة ١٨٧٦م.. وفى «نفطة» كانت نشأته الأولى، التى تأثر فيها بأبيه، وبخاله السيد محمد المكى بن عزوز، الذى كان من كبار العلماء، وموضع احترام رجالات الدولة العثمانية يومئذ، والذى قضى الشطر الأخير من حياته فى الآستانة، تلبية لرغبة السلطان عبد الحميد الثانى [١٢٥٨ هـ - ١٣٣٦هـ/ ١٨٤٢م - ١٩١٨م].. وله مؤلفات علمية معروفة، وترجمة فى بعض كتب التاريخ..

وفى هذه النشأة الأولى، «بنفطة»، حفظ شيخنا القرآن الكريم، وألّم بجانب من الأدب، والعلوم العربية، والشرعية..

* وفى الثانية عشرة من عمره [سنة ١٣٠٥هـ سنة ١٨٨٨م] انتقل مع أسرته إلى تونس العاصمة.. وبعد عامين [سنة ١٣٠٧هـ سنة ١٨٨٩م] التحق «بجامع الزيتونة، المناظر»، فى تونس والمغرب، والجامع الأزهر الشريف.

وفى الزيتونة تقدم الفتى فى تحصيل العلم، وظهرت أمارات نبوغه فى علوم العربية وعلوم الشريعة، وتجلى ذوقه الأدبى، فى الإنشاء وفى التذوق، حتى لقد

طلبته الحكومة ليتولى بعض الخطط العلمية، قبل إتمام دراسته.. لكنه اعتذر عن عدم القبول لرغبة حكومة تونس الفرنسية!

* كانت رحلته الأولى، خارج تونس، إلى الشرق ـ ولما يزل طالبًا ـ فزار طرابلس الغرب، فى ليبيا، سنة ١٣١٧هـ سنة ١٨٩٩م، فأقام بها أيامًا، ثم عاد إلى تونس، فلازم جامع الزيتونة.

* وفى سنة ١٣٢١هـ سنة ١٩٠٣م نال شهادة العالمية، وأصبح من علماء الزيتونة.. وفى العام نفسه الذى تخرج فيه فى جامع الزيتونة أنشأ مجلة [السعادة العظمى]، التى كانت رائدة المجلات العلمية والأدبية فى بلاد الشمال الإفريقى يومئذ.. فلفت الأنظار إلى قلمه ولسانه.. فلقد كان خطيبًا ومحاضرًا إلى جانب كونه أديبًا وشاعرًا وكاتبًا..

* وفى سنة ١٣٢٤هـ سنة ١٩٠٥م تولى قضاء مدينة بنزرت ومنطقتها، إلى جانب التدريس والخطابة بجامعها الكبير..

* وفى ١٧ ربيع الآخر سنة ١٣٢٤هـ ٩ يونيو سنة ١٩٠٦م ألقى فى نادى قدماء خريجى المدرسة الصادقية محاضرة عن «الحرية فى الإسلام»، فكشف بها عن موقف فكرى ذى مغزى فى بلد يستبد بحكمه المستعمرون الفرنسيون؟!. ثم ما لبث أن استقال من قضاء بنزرت، وعاد إلى تونس العاصمة، مدرسًا بالمدرسة الصادقية، وكانت المدرسة الثانوية الوحيدة بتونس يومئذ.. وكان ذلك فى سنة ١٣٢٦ هـ سنة ١٩٠٨م.. وفى العام التالى لتدريسه بالصادقية [سنة ١٣٢٧هـ سنة ١٩٠٩م] تطوع للتدريس بجامع الزيتونة.. ثم أحيلت إليه مهمة تنظيم خزائن الكتب الخاصة بهذه الجامعة.. وتم تعيينه، رسميًّا، مدرسًا بجامع الزيتونة.

* وفى سنة ١٣٢٥هـ ١٩٠٧م اشترك فى تأسيس «الجمعية الزيتونية».. ثم كلف بالخطابة فى «الخلدونية»..

وفى ١١ شوال سنة ١٣٢٧هـ ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٠٩م ألقى محاضرة فى نادى الجمعية الخلدونية عن «حياة اللغة العربية»... وفى العام التالى (سنة ١٣٢٨هـ سنة

١٩١٠م] نظم قصيدة يدعو فيها علماء جامع الزيتونة إلى العناية بتنشئة جيل من الكتّاب والأدباء والدعاة..

فوضحت مقاصده من وراء الدعوة إلى إحياء قيم «الحرية» و«العروبة» وأدوات «الكتابة» و«الخطابة» فى وطن يخضع لاستعمار ينهب خيراته ويستبد بمقدراته ويمسخ هويته العربية الإسلامية؟!.

* ولما قامت الحرب الطرابلسية فى ٥ شوال سنة ١٣٢٩هـ ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١١م بين إيطاليا والدولة العثمانية، وزحفت الجيوش الإيطالية فاحتلت طرابلس وبنغازى، وقف الشيخ الخضر بقلمه ولسانه، ومن خلال مجلته [السعادة العظمى] يستفز الأمة لتقاوم الغزو الإيطالى، ويستنهض الدولة العثمانية استخلاص الحق من غاصبيه.. ومن بيانه فى ذلك قصيدة مطلعها:

ردوا على مجدنا الذكر الذى ذهبا

يكفى مضاجعنا نوم مضى حقبًا!

* ثم سافر إلى الجزائر زائرًا لأمهات مدنها، ومحاضرًا فيها.. وعاد إلى تونس يواصل دروسه بالزيتونة، ونشاطه فى المحاضرات والخطابة والكتابة فى الإصلاح الإسلامى والنهضة العربية وإذكاء الروح الوطنية..

* وفى هذه الفترة رفض رغبة الحكومة ضمه إلى سلك القضاء فى محكمة فرنسية؟!.

* وكان لا بد من الصدام بين سعى الشيخ المناضل وبين سلطات الاستعمار الفرنسى فى تونس، فوجهت هذه السلطات إليه فى سنة ١٣٢٩هـ سنة ١٩١١م تهمة «بث روح العداء للغرب، وبخاصة لسلطة الحماية الفرنسية فى تونس».. فلما استشعر الشيخ الخطر على حياته، غادر تونس إلى الآستانة، بحجة الرغبة فى زيارة خاله السيد محمد المكى بن عزوز، الذى كان يعيش هناك.. وكانت رحلته هذه إلى الآستانة، عبر مصر، فدمشق.. لكنه لم يلبث أن حن إلى وطنه تونس، فعاد إليه، عبر نابولى، فى إيطاليا، ونشر أخبار رحلته هذه.. وعينته الحكومة عضوًا بإحدى لجان التاريخ

التونسى.. لكن الجو الخانق الذى كان مفروضًا على تونس من سلطات الاحتلال الفرنسى دعاه إلى الهجرة ثانية، فقصد إلى دمشق.. وفى طريقه إليها مرَّ بالقاهرة فلبث فيها مدة وجيزة تعرف فيها إلى كوكبة من العلماء الأعلام المناضلين فى سبيل النهضة العربية والإحياء الإسلامى، منهم: الشيخ طاهر الجزائرى [١٢٦٨هـ-١٣٣٨هـ/ ١٨٥٢م-١٩٢٠م] والسيد محمد رشيد رضا [١٢٨٢ هـ-١٣٥٤هـ/ ١٨٦٥م-١٩٣٥م] والسيد محب الدين الخطيب [١٣٠٣هـ-١٣٨٩هـ-١٨٨٦م-١٩٦٩م] وأحمد تيمور باشا [١٢٨٨هـ-١٣٤٨هـ/ ١٨٧١م-١٩٣٠م].. وفى دمشق عين مدرسًا للغة العربية فى المدرسة السلطانية سنة ١٣٣٠هـ ١٩١٢م.. وخلال تلك الفترة سافر إلى القسطنطينية فوصلها يوم إعلان حرب البلقان «الروسية-العثمانية»- ذى القعدة سنة ١٣٣٠ هـ أكتوبر سنة ١٩١٢م. ثم عاد إلى دمشق، ومنها سافر، بسكة حديد الحجاز، إلى المدينة المنورة سنة ١٣٣١هـ سنة ١٩١٣م.. ثم عاد إلى دمشق..

ومن دمشق إلى الآستانة، ولقى وزير حربيتها أنور باشا [١٢٩٩هـ ١٣٤٠هـ/ ١٨٨٢م-١٩٢٢م] فاختاره محررًا عربيًّا بالوزارة.. ولقد أتيحت له الفرصة ليلمس عوامل الفساد التى تفتك بمقومات الدولة العثمانية، فسجل ذلك شعرًا فى قصيدته التى نظمها سنة ١٣٣٢ هـ سنة ١٩١٤م، والتى يقول فيها:

أدمى فؤادى أن أرى الـ ... أقلام ترسف فى القيود

فهجرت قومًا كنت فى ... أنظارهم بيت القصيد

وحسبت هذا الشرق لم ... يبرح على عهد الرشيد

فإذا المجال كأنه ... من ضيقه خلق الوليد!

* وفى سنة ١٣٣٣ هـ سنة ١٩١٥م أرسله أنور باشا إلى العاصمة الألمانية برلين فى مهمة رسمية، فمكث بها تسعة أشهر، اجتهد خلالها أن يتعلم اللغة الألمانية... وعندما تحدث إليه المدير الألمانى للقسم الشرقى بوزارة الخارجية الألمانية، خلال صحبته بقطار ضواحى برلين، عن قول ابن خلدون [٧٣٢هـ-٨٠٨هـ/ ١٣٣٢م-١٤٠٦م]:

إن العرب أبعد الناس عن السياسة.. رفض هذا التفسير العنصرى لكلام ابن خلدون، ودافع عن العرب.. ونظم أبياتًا قال فيها:

عذيرى من فتى أزرى بقومى ... وفى الأهواء ما يلد الهذاء

سلوا التاريخ عن حكم تملت ... رعاياه العدالة والإخاء

هو الفاروق لم يدرك مداه ... أمير هز فى الدنيا لواء

ومن برلين عاد إلى الآستانة.. وما لبث أن ضاقت به، فحن إلى دمشق، وعاد إليها..

* وفى دمشق اعتقله السفاح أحمد جمال باشا [١٢٨٩هـ - ١٣٤٠هـ / ١٨٧٢م - ١٩٢٢م] الحاكم العام فى سورية، فى رمضان سنة ١٣٣٤ هـ يوليو سنة ١٩١٦م، لعدة أشهر، حتى أنقذه من السجن تدخل وزير الحربية العثمانى أنور باشا.. فغادر دمشق، بعد الإفراج عنه، إلى الآستانة، فأوفده أنور باشا، ثانية، إلى برلين سنة ١٣٣٥هـ سنة ١٩١٧م، فالتقى فيها بزعماء الحركات الإسلامية، هناك، من مثل الشيخ عبد العزيز جاويش [١٢٩٣هـ - ١٣٤٧هـ / ١٨٧٦م - ١٩٢٩م] والدكتور عبد الحميد سعيد [١٢٩٩ هـ - ١٣٥٩هـ / ١٨٨٢م - ١٩٤٠م] والدكتور أحمد فؤاد [١٣٠٣ هـ - ١٣٥٠ هـ ١٨٨٦م - ١٩٣١م]، ثم عاد، بعد فترة طويلة، إلى الآستانة.. ومنها رجع إلى دمشق، وإلى التدريس فى المدرسة السلطانية بقية سنة ١٣٣٥هـ وسنة ١٣٣٦هـ - سنة ١٩١٧م وسنة ١٩١٨م - فشرح لنجباء الطلاب كتاب ابن هشام [٧٠٨هـ - ٧٦١هـ / ١٣٠٩م - ١٣٦٠م] «مغنى اللبيب» فى علم العربية.. وهو الشرح الذى كان الأساس لبحثه فى «القياس وشروطه ومواقفه وأحكامه».. وهو البحث الذى طوره، فيما بعد، كتابًا نال به عضوية «هيئة كبار العلماء» بالجامع الأزهر.. وطُبع سنة ١٣٥٣هـ سنة ١٩٣٤م.

وفى سنة ١٣٣٧هـ سنة ١٩١٨م سافر من دمشق إلى الآستانة، وكانت الحرب العالمية الأولى فى نهاياتها، ومنها توجه إلى ألمانيا للمرة الثالثة، فقضى بها سبعة أشهر.. وكانت نُذر الزوال للدولة العثمانية تطل فى الأفق.. فعاد من ألمانيا إلى دمشق مباشرة!..

* وصادفت عودته إلى دمشق إقامة الحكم العربى بقيادة فيصل بن الحسين [١٣٠٠هـ - ١٣٥٢هـ/ ١٨٨٣م - ١٩٣٣م] سنة ١٣٣٨هـ سنة ١٩١٩م.. لكن الاحتلال الفرنسى عاجل هذا الأمل العربى سنة ١٣٣٨هـ سنة ١٩٢٠م.. ففكر الشيخ، الذى هاجر من تونس المحتلة بالفرنسيين، فى العودة إليها بعد أن احتلوا دمشق أيضًا!..

لكنه رحل إلى القاهرة وألقى بها عصا ترحاله الذى استمر عشر سنوات، فاستوطن القاهرة سنة ١٣٣٩ هـ سنة ١٩٢١م.

* وفى القاهرة أعانه الاستقرار على الإنتاج العلمى المنظم، والنشاط الإصلاحى الدائم، فوضحت معالم نهجه فى التجديد والإصلاح، وتكونت من حوله حلقات الطلاب والمريدين، وأخذت تأثيرات علمه وإصلاحه تلفت إليه أنظار العلماء وطلاب الإصلاح..

ففى سنة ١٣٤٠هـ سنة ١٩٢٢م ألف رسالته «الخيال فى الشعر العربى».. واشتغل عدة سنوات فى التحقيق لكتب التراث بالقسم الأدبى فى دار الكتب المصرية.. وتجنس بالجنسية المصرية.. ثم تقدم إلى امتحان العالمية بالجامع الأزهر، فحصل عليها بجدارة، وأصبح واحدًا من علماء الأزهر الشريف..

* ولم يكن التجنس بالجنسية المصرية، ولا الانخراط فى «هيئة كبار العلماء»، والاشتغال بالبحث والتحقيق.. لم يكن فى ذلك ما يعوق الشيخ الخضر عن مواصلة النهوض بمسئولياته وواجباته كعالم مسلم ومجاهد عربى.. وأيضًا رعاية حقوق وطنه الأصلى تونس، وأشقائه الرازحين، بالمغرب، تحت نير الاستعمار الفرنسى.. فنهض الشيخ فى سنة ١٣٤٢هـ سنة ١٩٢٤م بتأسيس [جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية] لتكتيل وتحريك جهود أبنائها فى خدمة قضية تحرير هذه البلاد من الاستعمار.. ولقد كانت هذه الجمعية مكان اللقاء والتعاون بين أحرار تلك البلاد ومناضليها، فضمت عضويتها من المغرب: الفضيل الورتلانى [١٣٢٣هـ - ١٣٧٨هـ/ ١٩٠٦ - ١٩٥٩م] ومن الجزائر: البشير الإبراهيمى [١٣٠٦هـ - ١٣٨٥هـ/ ١٨٨٩م - ١٩٦٥م] ومن تونس: الحبيب بورقيبة [١٩٠٣م - ٢٠٠٠م].

* وفى سنة ١٣٤٤هـ سنة ١٩٢٥م بدأت معاركه الفكرية الكبرى بكتابه [نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم].. ولقد كان الشيخ صديقًا لأسرة عبد الرازق، يتردد على منزلهم، وبينه وبينهم علاقات المودة والاحترام.. وعندما قارب طبع كتاب الشيخ على عبد الرازق [الإسلام وأصول الحكم] على التمام، طلب آل عبد الرازق من الشيخ الخضر عناوين زعماء العالم الإسلامى ومفكريه ليهدوا إليهم الكتاب، فأتاهم بقائمة العناوين من صديقه محب الدين الخطيب.. فلما طبع كتاب [الإسلام وأصول الحكم] أهديت إليه نسخة منه، ففاجأته أفكار صاحبه.. فعكف على الرد عليه ونقضه، فطبع الرد فى نفس السنة، ونفدت طبعته خلال شهر واحد!..

وفى العام التالى [سنة ١٣٤٥هـ سنة ١٩٢٦م] ظهر كتاب [فى الشعر الجاهلى] للدكتور طه حسين [١٣٠٧ - ١٣٩٣هـ/ ١٨٨٩ - ١٩٧٣م]، فرد عليه الشيخ بكتابه [نقض كتاب فى العشر الجاهلى] فصنع معه ما صنع مع كتاب [الإسلام وأصول الحكم] عندما فنده فقرة فقرة وفكرة فكرة، مع أدب رفيع فى الحوار وبراعة فى الجدل كشف عن عقل متمكن ومتمرس فى ميدان البحث والمناظرة، يغترف صاحبه من معين من العلم لا يغيض.

لقد أدى الرجل بهذين الكتابين حق دين وأمة، ونهض بفرض كفائى وجب على الأمة جمعاء.. وكان، بحق، كما قال هو:

ناضلت عن حق يحاول ذو هوى　　تصويره للناس شيئًا منكرًا

* وفى سنة ١٣٤٦هـ سنة ١٩٢٧م اشترك مع صديقه العلَّامة أحمد تيمور باشا فى تأسيس [جمعية الشبان المسلمين] التى جاءت طليعة الجمعيات الإسلامية التى تكونت للتعريف بالإسلام، والزود عن حضارته، فى تلك الحقبة التى تميزت بزحف فكرة «التغريب» على وطن العروبة وعالم الإسلام.. ولقد رأس أول اجتماع تحضيرى لتأسيسها فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٢٧م..

كذلك نهض الشيخ الخضر بتأسيس [جمعية الهداية الإسلامية]، التى ضمت كوكبة من المثقفين ثقافة دينية ومدنية.. وأصدر لها مجلة [الهداية الإسلامية..].. وكون لها مكتبة عامة، جعل من مكتبته الخاصة نواة لها.. ولقد امتد نشاط هذه

الجمعية إلى الأقاليم، فقامت لها فروع فيها.. وكانت محاضراته المستمرة فيها ومقالاته فى المجلة جهدًا منتظمًا ومستمرًّا قدم من خلاله معالم دعواته للإحياء الإسلامى والنهضة العربية وتحرير ديار العروبة والإسلام.. ولقد جمعت مقالاته ومحاضراته هذه فى كتاب من ثلاثة أجزاء هو [رسائل الإصلاح]..

* وعندما أصدر الأزهر مجلته، التى بدأت باسم [نور الإسلام] فى سنة ١٣٤٩هـ سنة ١٩٣٠م عهد إلى الشيخ الخضر برئاسة تحريرها، فنهض بهذه المهمة من عددها الأول ـ [محرم سنة ١٣٤٩ هـ مايو سنة ١٩٣٠م] ـ حتى عدد ربيع الآخر سنة ١٣٥٢هـ يوليو سنة ١٩٣٣م.. عندما استقال من رئاسة تحريرها، رافضًا التعاون مع الأستاذ محمد فريد وجدى [١٢٩٥هـ ـ ١٣٧٣ هـ/ ١٨٧٨م ـ ١٩٥٤م] الذى عين ـ دون إذن الشيخ الخضر ـ مديرًا لتحرير المجلة.. وكان بينهما جدل فكرى يومئذ فى الصحف والمجلات.. ولم تفلح وساطة الشيخ الظواهرى [١٢٩٥هـ ـ ١٣٦٣هـ/ ١٨٧٨م ـ ١٩٤٤م] ـ شيخ الأزهر ـ فى إثنائه عن الاستقالة.. وكان معاشه يومئذ أقل من خمسة جنيهات؟!. لكن نشاطه تواصل فى التدريس بكلية أصول الدين.

* وعندما تكون «مجمع اللغة العربية» بالقاهرة فى سنة ١٣٥١هـ سنة ١٩٣٢م، من عشرين عضوًا عاملًا، كان الشيخ الخضر واحدًا من أقدم هؤلاء الأعضاء، ومن أكثرهم إنتاجًا.. فلقد شارك فى كثير من لجان المجمع العلمية، من مثل: لجنة اللهجات.. ولجنة الآداب والفنون الجميلة.. ولجنة دراسات معجم فيشر.. ولجنة الأعلام الجغرافية.. ولجنة الأصول.. ولجنة معجم ألفاظ القرآن الكريم.. ولجنة المساحة والعمارة.. ولجنة المعجم الوسيط.. الأمر الذى يعكس وزنه العلمى وثقله الفكرى وثقافته الموسوعية وجهده الدؤوب فى خدمة الفكر.. كذلك نشرت له مجلة المجمع العديد من الأبحاث، من مثل:

١ ـ «المجاز والنقل وأثرهما فى حياة اللغة العربية»..

٢ ـ «شرح قرارات المجمع والاحتجاج بها، وتكملة مادة لغوية ورد بعضها فى المعجمات ولم ترد بقيتها».

٣ ـ «الاستشهاد بالحديث فى اللغة».

٤ ـ «وصف جمع العقال بصيغة فُعَلاء».

٥ ـ «اسم المصدر فى المعجم».

٦ ـ طرق وضع المصطلحات الطبية وتوحيدها فى البلاد العربية».

٧ ـ «شعر البديع فى نظر الأدباء».

٨ ـ «من وثق من علماء العربية ومن طعن فيه».

ولم يقف نشاطه المجمعى عند مجمع القاهرة.. فلقد اختير عضوًا بالمجمع العلمى العربى بدمشق.

* وفى سنة ١٣٦٦هـ سنة ١٩٤٧م رأس تحرير مجلة [لواء الإسلام] وبدأ فيها تفسيره للقرآن الكريم..

* وفى سنة ١٣٧٠هـ سنة ١٩٥١م نال عضوية «هيئة كبار العلماء» برسالته [القياس فى اللغة العربية].

* وعندما قامت الثورة المصرية فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ كان منصب شيخ الأزهر شاغرًا.. فوقع اختيار الثورة وحكومتها على الشيخ الخضر إمامًا أكبر وشيخًا للإسلام ووجهًا مشرقًا لهذه الجامعة العريقة تطل من خلاله على عالم العروبة والإسلام.. فتوجه ثلاثة من الوزراء إلى منزل الشيخ، بشارع خيرت، فى يوم الثلاثاء ٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٧١هـ ـ ١٦ سبتمبر سنة ١٩٥٢م طالبين منه قبول مشيخة الأزهر.. فنهض بالأمانة ما وسعته الطاقة.. وعندما أحس بضغوط تحول بينه وبين تنفيذ ما يريد، أو تطلب منه تنفيذ مالا يرضى صمم على الاستقالة فى ٢ جمادى الأولى سنة ١٣٧٣هـ ـ ٧ يناير سنة ١٩٥٤م.. قائلًا كلمته الشهيرة: «يكفينى كوب لبن وكسرة خبز، وعلى الدنيا بعدهما العفاء»؟!. ولقد ألمح إلى ملابسات استقالته عندما قال: «إن الأزهر أمانة فى عنقى، أسلمها ـ حين أسلمها ـ موفورة كاملة، وإذا لم يتأت أن يحصل للأزهر مزيد من الازدهار على يديّ فلا أقل من ألا يحصل له نقص»!.

* ومنذ ذلك التاريخ تفرغ للبحث والكتابة والمحاضرة، حتى وافاه الأجل، فانتقل إلى جوار ربه مساء يوم الأحد ١٣ رجب سنة ١٣٧٧هـ-٣ فبراير سنة ١٩٥٨م.. فشيعه العلماء والفضلاء والعارفون لفضله وعلمه ونضاله، حتى لقد امتد موكب جنازته ما بين ميدان باب الخلق والجامع الأزهر الشريف؟!.

ولم يخلف الرجل وراءه من حطام الدنيا شيئًا، حتى لقد دفن - بناء على وصيته - بمدفن الأسرة التيمورية، مع صديقه العلَّامة أحمد باشا تيمور!... لكنه خلّف، غير النضال والأثر الطيب والذكر الحسن والقدوة الصالحة، كنوزًا من الفكر شاهدة على عقله المبدع والمجدد، وجهده الدؤوب، وعزمه الذى لم يعرف الوهن أو التقصير.. فغير خطبه ومحاضراته ومقالاته وأبحاثه التى لم تجمع.. خلف لنا هذه المؤلفات:

١ - [رسائل الإصلاح] - فى ثلاثة أجزاء.

٢ - [نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم].

٣ - [نقض كتاب فى الشعر الجاهلى].

٤ - [القياس فى اللغة العربية].

٥ - [الخيال فى الشعر العربى].

٦ - [آداب الحرب فى الإسلام].

٧ - [خواطر الحياة] - [ديوان شعر].

٨ - [تعليقات على كتاب [الموافقات] للشاطبى].

* * *

لقد كان، رحمه الله، عقلًا إسلاميًّا مجددًا.. ومناضلًا فى سبيل النهضة العربية والإحياء الإسلامى، يتحلى بخلق الأولياء والصديقين والشهداء...

* فهو فى تونس يواجه الاستبداد الاستعمارى والمسخ الحضارى بالدعوة إلى إحياء العربية لتكون سلاحًا فى معركة الأمة من أجل حريتها واستخلاص هويتها العربية الإسلامية.. ويستنهض الشعب بإبراز قيمة ومكانة «الحرية» فى الإسلام.. ويدفع الثمن هجرة من الربوع التى نشأ فيها!..

* وهو فى المشرق، بدمشق، يواجه تسلط السفاح أحمد جمال باشا، فيدفع الثمن سجنًا وتعذيبًا..

فلقد كان عداؤه للاستعمار الأجنبى وللاستبداد الداخلى شديدًا ودائمًا..

فلا كان من عيش أرى فيه أُمتى تساس بكفَّىْ غاشم وغريب!

* وهو فى مصر يتصدى لخطر الغزو الفكرى، ممثلًا فى تيار «التغريب»، فينقض كتابى على عبد الرازق وطه حسين..ويسهم، بالفكر، فى إنهاض العروبة وتجديد الإسلام.. ويسلك سبل التنظيم ـ الاجتماعى والفكرى والقومى والعلمى من خلال [جمعية الهداية الإسلامية] ومجلتها.. و[جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية].. و[جمعية الشبان المسلمين].. و[هيئة كبار العلماء].. و[المجامع اللغوية].. و[القسم الأدبى بدار الكتب المصرية].. ومجلات [نور الإسلام] و[لواء الإسلام].. إلخ.. إلخ.. ليجمع الأنصار حول فكره التجديدى، وليمهد السبل لهذا الفكر كى يوضع فى الممارسة والتطبيق.

لقد جمع إلى وعيه بتراث أمته وكنوزها الحضارية، وعيًا بالتحديات المعاصرة التى تحول بينها وبين النهضة والإحياء، فكان لسان «الأصالة»، المعبر عن المشكلات «المعاصرة» وضروراتها.. يذود عن «فكر الإسلام ومجد العروبة»، ويدعو إلى النهضة الحديثة المرتكزة على «المعارف» و«الصناعات»!.

أبناء هذا العصر، هل من نهضة تشفى غليلًا حره يتصعد؟!
هذى الصنائع ذللت أدواتها وسبيلها للعالمين ممهد
إن المعارف والصنائع عُدّة باب الترقى من سواها موصد!

ولقد أصاب صديقه العالم الفاضل محب الدين الخطيب، عندما وصفه فقال: هذا رجل آمن بالإسلام ودعوته، وأحب من صدر حياته أن يكون من الذين قال الله سبحانه فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠﴾[١]....[٢].

* * *

(١) سورة فصلت الآية ٣٠.

(٢) لقد جمعنا مادة هذه الصفحات عن حياة الشيخ الخضر من مقال صديقه محب الدين الخطيب. وعنوانه: [شيخ الأزهر السابق: السيد محمد الخضر حسين] مجلة [الأزهر] عدد شعبان سنة ١٣٧٧هـ. وكتاب [مشيخة الأزهر] لعلى عبد العظيم ج٢ ص ١٤٧ ـ ١٦٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩م.

نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم
للشيخ محمد الخضر حسين

[١٢٩٣ ـ ١٣٧٧هـ ـ ١٨٧٦ ـ ١٩٥٨م]

فى هذا الكتاب ـ [كتاب الشيخ الخضر] ـ نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم] ـ عمد المؤلف إلى نهج يغنى قارئه عن قراءة الكتاب الذى يرد عليه وينقضه.. فإذا لم يتيسر للقارئ الاطلاع على كتاب الشيخ على عبد الرازق، فإنه سيطلع عليه فى ثنايا كتاب الشيخ الخضر، حتى ليكاد الرجل لا يترك من كتاب [الإسلام وأصول الحكم] فقرة إلا أوردها ليناقض صاحبها ولينقدها وينقض فكرتها أو يبين رأيه فيها.. فهو يتتبع أبواب الكتاب، موضوع النقض، بابًا بعد باب، فيبدأ بتلخيص الباب.. ثم يأخذ فى إيراد الفقرة المعبرة عن الفكرة، فينقضها، وهكذا، إلى نهاية الباب.. ففيه معظم نصوص كتاب على عبد الرازق.. الأمر الذى يغنى القارئ عن كتاب على عبد الرازق..

وفى هذا الكتاب يتجلى الشيخ الخضر، فى أسلوبه واختيار ألفاظه: «عالمًا ـ أديبًا».. فهو ينتقى ألفاظه المعبرة بدقة شديدة عن المعنى المراد كما يصنع «الفلاسفة ـ العلماء».. وهو يتخير من هذه الألفاظ المحكمة ما هو جميل، ويصوغها فى أسلوب بالغ الرقى، كما يصنع الأدباء الذين برعوا فى تذوق العربية وفقهوا أسرار جمالها وأعانهم على ذلك علم غزير بعلومها.. حتى ليصلح أسلوب الرجل وبيانه لأن يكون نموذجًا للغة «العلماء ـ الأدباء»!.

وفى هذا الكتاب نرى الشيخ الخضر عالمًا بالمنطق وقضاياه ـ بالمعنى الفنى والاصطلاحى ـ بارعًا فى فن الجدل والمناظرة.. وإذا كان الشيخ على عبد الرازق قد

برع فى «المراوغات التشكيكية» التى مكنته من أن يضع فى كتابه متناقضات يستطيع أن يلجأ من إحداها إلى الأخرى، عند المناظرة، وفى أسلوب وبألفاظ قد تسعفه إذا هو شاء أن ينفى عن كتابه التناقض؟!ـ وهو الأمر الذى وضح جليًّا فى «مذكرة» دفاعه عن نفسه ودفعه لاتهامات «هيئة كبار العلماء»[١] ـ فإن براعة الشيخ الخضر فى فن الجدل وأدب المناظرة قد مكنته من تتبع «المراوغات التشكيكية» للشيخ عبد الرازق، فى صبر وأناة ورسوخ قدم، يحسده عليها أهل العلم وأساطين الجدل والمناظرة... وإن بدا الرجل، فى هذا الميدان، غير مألوف بالنسبة للقراء المتعجلين؟!.

كذلك، يتجلى الرجل، فى كتابه هذا «ناقدًا ـ محققًا ـ أمينًا».. فهو لا يقف فى نقد مصادر خصمه عندما استند إليه الخصم من نصوص واقتباسات، بل يعود إلى المصادر التى يقتبس منها الخصم، ليتحقق من أمانته فى النقل، وليرى هل انتزع النص من سياقه على نحو مخل باتساق الأفكار؟.. ولقد استطاع الرجل أن يمسك بتلابيب الشيخ على عبد الرازق فى بعض من هذه المواطن!...

وكمثال على هذا «النهج التحقيقى» فى نقد استخدام المصادر، تتبع الشيخ الخضر لمقولة الشيخ على عبد الرازق القائلة إن علماء الكلام الإسلاميين قد قرروا للخليفة والإمام سلطانًا إلهيًّا مطلقًا.. فلقد ذهب الشيخ الخضر إلى المصادر التى عزا إليها الشيخ على هذه المقولة، فكشف غياب الدقة عن الرجل فى هذا الادعاء ـ وهو يكشف لنا هذه الحقيقة، التى هى نموذج لهذا المنهج فى «النقد بالتحقيق» فيقول: «قال المؤلف ـ [على عبد الرازق] ـ عازيًا إلى [طوالع الأنوار][٢] وشرحه [مطالع الأنظار][٣]: «ولا غرو أن يكون له [الخليفة] ـ حق التصرف فى رقاب الناس وأموالهم وأبضاعهم[٤]». قطف المؤلف هذه الجملة من أصلها وأطلقها خالية من الروح التى تجعلها حكمة جليلة، فإن صاحب [الطوالع] إنما ألقاها فى نسق التعليل لأخذ العدالة شرطًا من شروط الإمامة، فقال: [الرابعة: أن يكون عدلًا، لأنه يتصرف فى

(١) انظرها فى كتابنا [معركة الإسلام وأصول الحكم] طبعة دار الشروق. القاهرة.

(٢) هو متن فى التوحيد. للإمام البيضاوى، ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد بن على.

(٣) لشمس الدين أبى الثناء محمود بن عبد الرحمن الأصفهانى.

(٤) الأبضاع: الفروج.

رقاب الناس وأموالهم وأبضاعهم]. وقال شارحه فى [المطالع]: [لو لم يكن - يعنى الإمام - عدلًا لم يؤمن تعديه، وصرف أموال الناس فى مشتهياته، وتضييع حقوق المسلمين]، فالمراد من التصرف فى الأموال والرقاب والأبضاع التصرف بحق، وهو التصرف بنحو القضاء، أو بعمل مشروع، كاستخلاص الأموال المفروضة، وحمل الناس على أمر الجندية، وولاية نكاح من لا ولى لها[1].

فهو، هنا، يحقق اقتباسات خصمه، ويكشف التجاوز الذى حدث فى الاستشهاد بسبب عزل العبارة المقتبسة، قسرًا، عن السياق الذى وردت فيه!..

ولقد كانت المعركة بين الشيخ على عبد الرازق وبين خصومه، فى نظر التيار «العلمانى»، على وجه الخصوص، قد اتخذت صورة الصراع بين «التجديد» وبين «الجمود والتقليد».. فصاحب [الإسلام وأصول الحكم] قد قدم نفسه كمجدد إسلامى، وتحدث عن كتابه كإسهام فى التجديد الدينى.. كما اشتملت جبهة خصومه على أصوات كثيرة مثقلة بنغمات «الجمود والتقليد».. لكن الشيخ الخضر حسين لم يكن من هؤلاء، ولا كان كتابه صوتًا من هذه الأصوات.. فلقد كان الرجل مجددًا إسلاميًّا راسخ القدم على درب تجديد الإسلام، يخاصم الجمود والتقليد، ويرى فيهما شذوذًا على نهج الإسلام الحق والمسلمين الحقيقيين.. وفى هذا الصدد يقول: «.. من أول ما عنى به الإسلام فى تشريعه أن أطلق العقول من وثاق التقليد، وفتح أمامها باب النظر حتى تعبر إلى قرارة اليقين على طريق الحجة والبرهان، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾[2]. وقال ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾[3] وقد جرى علماء الإسلام، ولا سيما السلف الصالح، على هذا النهج، فكانوا لا يتبعون ذا رأى على رأيه ولا يتقلدون حكمًا قبل أن يعلموا مستنده، وإذا عرفوا المستند عرضوه على قانون الأدلة السمعية ووزنوه بميزان النظر ليعلموا مبلغه من الصحة، فإذا ثبت على النقد وسلم من وجوه الطعن رفعوه على كاهل القبول وإلا نبذوه نبذ الحذاء المرقع، غير مبالين بمقام مدعيه وإن حاكى القمر رفعة وسناء!

(١) الباب الأول من الكتاب الأول [ص ١١ من طبعة الأصل].

(٢) سورة الإسراء الآية ٣٦.

(٣) سورة النجم الآية ٢٨.

ومن درس مسائل الخلاف من عهد الصحابة، ـ رضى الله عنهم، إلى العصر الذى ساد فيه القول بسد باب الاجتهاد، رأى الصحابة كيف يخالف بعضهم بعضًا ولا ينقاد صغيرهم إلى كبيرهم إلا بزمام الحجة، وسار على هذا الاستقلال وحرية الفكر التابعون فمَن بعدهم، ولا يكبر على أحد من المجتهدين أن يناظر أستاذه أو من كان أوفر منه علمًا وأوسع نظرًا فيقارع حجته بالحجة، حتى إذا لم تمتلئ نفسه بالثقة من أدلته اجتهد لنفسه وأقام بجانب مذهبه مذهبًا، ولتجدن من هؤلاء من يبلغه مذهب الصحابى فى قضية لم ينقعد عليها إجماع فيستأنف النظر فى دلائلها ولا يكون فى صدره حرج أن يخالف الصحابى أو يرجح مذهب تابعى على مذهبه»[١]..

وهذا الانحياز الإسلامى إلى التجديد قد ظل نهجًا لم يخل منه عصر.. وإن ذبل خلال مرحلة الانحطاط والجمود ـ المملوكية العثمانية ـ أما فى عصرنا، عصر اليقظة «فإن فى العالم الإسلامى علماء شبوا على حرية الفكر وإطلاق العقل من وثاق التقليد الأصم، فهم لا يكرهون لذوى الألباب أن يبحثوا حتى فى أصل العقائد (وجود الخالق)، وهم لا يستطيعون أن يحولوا بين المرء وما يعتقد من باطل، وليس فى أيديهم سوى مقابلة الآراء بما تستحقه من تسليم أو تفنيد»[٢].

هكذا حدد الشيخ الخضر موقعه فى هذه المعركة، وأبان عن هويته، فهو نصير للتجديد، وخصم للجمود والتقليد، ومن هذا الموقع يتقدم لنقض كتاب الشيخ على عبد الرازق «بمقابلة الآراء بما تستحقه من تسليم أو تفنيد»!

* * *

وإذا كان الرجل قد حدد موقعه وأبان عن هويته فى هذا الصراع الفكرى، فهو قد نفى عن على عبد الرازق سمة التجديد، وأعلن عن أن «التغريب» والافتتان بالغرب ومقولات كُتّابه ونظريات فلاسفته وتصورات مستشرقيه هو الذى جعل الشيخ على عبد الرازق ينظر إلى الإسلام ـ فى قضية الدولة السياسية ـ بالمنظار الذى نظرت به النهضة الأوروبية إلى المسيحية الكاثوليكية، فيرى الخلافة: استبدادًا وحكمًا بالحق

---

(١) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٣٨، ٣٩ من طبعة الأصل].
(٢) الباب الأول من الكتاب الثانى [ص ١٣٠، ١٣١ من طبعة الأصل].

الإلهى وكهانة تجعل الحاكم نائبًا عن الله، لا يُسْأل عما يفعل.. ويرى الإسلام: دينًا لا دولة، ورسالة روحية يباعد ما بينها وبين السياسة وتنظيم المجتمعات..

إنه تقليد الغرب، ذلك الذى جعل صاحب [الإسلام وأصول الحكم] يرى الإسلام مسيحية تطلب أن ندع ما لقيصر لقيصر وما لله لله!.. فهو «التغريب» إذا، وليس «التجديد»، المنطلق الذى رآه الشيخ الخضر مصدرًا لهذا الفكر الذى انفرد به الشيخ على عبد الرازق دون كل علماء الإسلام على امتداد تاريخ الإسلام!..

إنه يحدد «التغريب» ـ وتصور الإسلام ـ فى السياسة ـ مسيحية ـ كعلة أولى لهذا الفكر، فيقول: «يتساءل الناس أحيانًا عن الحال الذى لبس قلب المؤلف ـ [الشيخ على عبد الرازق] ـ حتى أصبح يقول على الله غير الحق: هل اقتحم هذه الخطيئة لقصور فى الفهم؟ أم لداعية افتتانه بملة أخرى؟. إذا صح للقارئ أن يتردد فى بعض المباحث السابقة، فإن هذا البحث ـ [الذى تصور فيه على عبد الرازق الإسلام «رسالة لا حكم ودين لا دولة»] ـ لا يبقى له ريبة فى أن المؤلف قد يقصد إلى قلب الحقائق، حيث لا يصح أن تنقلب فى نظره»[1]! فليس قصور الفهم هو علة هذه الأفكار..

وعندما يتحدث على عبد الرازق عن وجود تصورين للحاكم فى نظر علماء الإسلام ـ أحدهما ـ وهو مذهب الجمهور، فى رأيه ـ يرى الحاكم ذا سلطان إلهى مستبد.. يبصر الشيخ الخضر أثر التقليد لمذاهب الغربيين ـ لا مذاهب الإسلاميين ـ فى هذا الادعاء.. فيقول ـ فى تحفظ العلماء ودقتهم: والذى يؤخذ بطريق الاستنتاج أن المؤلف عرف أن للغربيين فى سلطة الملك مذهبين فابتغى أن يكون للمسلمين مثلهما، ولما لم يجد فى كلام أهل العلم عن الخلافة ما يوافق أو يقارب القول بأن سلطان الخليفة مستمد من سلطان الله تلمسه فى المدائح من الشعر أو النثر...»[2]؟!.

وعندما يستند الشيخ على عبد الرازق إلى آراء المستشرق «السير أرنولد» [١٨٦٤م ـ ١٩٣٠م] فى تقرير «أحكام شرعية» خاصة بالإمامة والخلافة، يبصر الشيخ الخضر أثر الافتتان بالغرب وتأثيرات الهيمنة التى تمارسها الحضارة الغربية

(١) الباب الثالث من الكتاب الثانى [ص ١٧٢ من طبعة الأصل].
(٢) الباب الأول من الكتاب الأول [ص ١٤ من طبعة الأصل].

على عقول البعض إلى الحد الذى جعلتهم يأخذون عنها، لا المباحث التاريخية والاجتماعية، بل وأحكام الشرع والدين؟!. فيقول: «... ولو أحالنا المؤلف - [على عبد الرازق] - على كتاب السير أرنولد - [الخلافة] - فى بحث تاريخى أو اجتماعى له مساس بالخلافة لأخذ منا الأسف على أن فاتنا الاطلاع عليه مأخذًا بليغًا، ولكنه أحالنا على كتاب السير أرنولد فى تحقيق حكم شرعى، فقلنا: لعله أراد خلط الجد بالهزل، أو إخراج أحكام الشريعة من دائرة الراسخين فى علومها!. يجب أن تكون قيمة الأحكام الشرعية فى نظر المؤلف فوق هذا التقدير، وما ينبغى له أن يخيل إلينا أنّا فى حاجة إلى الاقتداء بعقول الغربيين حتى فى أمور الدين من واجب وحرام. وإذا كان المؤلف يدرى أن للشريعة أصولًا ومقاصد لم يدرسهما السير أرنولد حق دراستهما، فإن إحالتنا على كتابه ليست سوى عثرة فى سبيل البحث تعترض السذج فتكبو بهم فى تردد وارتياب»(1)!

وعندما يتصور الشيخ على عبد الرازق، ويصور الرسول - ﷺ - مجرد «مبلغ» رسالة، لا حظ له ولا شأن «بالتنفيذ» لما تضمنته هذه الرسالة من تنظيم للمجتمعات وسياسة الناس.. ينبه الشيخ الخضر إلى تأثيرات صورة المسيح - عليه السلام - بنظر علمانية الحضارة الغربية، فى تلوين تلك الصورة المدعاة لنبى الإسلام.. «فالرأى الذى يقصده المؤلف - [على عبد الرازق] - حسبما تصرح به ألفاظه وما يسوق عليه من الشبه - هو أن النبى ﷺ - مُبلغ فقط، ولم يكن من وظيفته تنفيذ ما أوحى إليه بتبليغه، وأنه لم يأت بشريعة لها مساس بالقضاء وسياسة الدولة. وهو رأى لم ينسج على أصل شرعى ولم يقم على بحث علمى، ولكن الافتتان بزخرف الحياة الإفرنجية يخامر العقل، فإذا الخيال ينقّر بالقلم ما شاء أن ينقّر، ويقلب صور الحقائق إلى مالا يخطر على قلب أفاك أثيم»(2)!

وإذا كان اللاهوت المسيحى قد تصور المسيح منبت الصلة بالدولة والسياسة، يدعو إلى أن ندع ما لقيصر لقيصر وما لله لله.. فهو قد تصوره إلهًا أو ابنًا لله، له

---

(1) الباب الثانى من الكتاب الأول [ص ٢٩ من طبعة الأصل].
(2) الباب الثالث من الكتاب الثانى [ص ١٦٥ من طبعة الأصل].

خصائص الألوهية وصلاحياتها.. فإذا جاء الشيخ على الرازق وتحدث عن سلطان الرسول ـ ﷺ ـ على القلوب سلطانًا يجعل له «حق التصريف لكل قلب تصريفًا غير محدود»... رأينا الشيخ الخضر ينبه على أن الإسلام يرى الله سبحانه وتعالى هو المنفرد بتصريف القلوب.. وينقل رأى الحافظ ابن حجر العسقلانى [٧٧٣هـ ـ ٨٥٢هـ/ ١٣٧٢م ـ ١٤٤٩م] فى [فتح البارى] والذى يقول فيه: «إن الله تعالى تمدح بالانفراد بذلك ولا مشارك له فيه».. ورأى البيضاوى [٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م] الذى يقول فى تفسير آية ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ ﴾[(١)]: «إن فى نسبة تقليب القلوب إلى الله إشعارًا بأنه يتولى قلوب عباده ولا يكلها إلى أحد من خلقه»..ثم يحدد الشيخ الخضر مصدر هذا «الغلو» فيقول: «وإنك لتجد فى هذه الجمل من الغلو فى الوصف ما لم يذكره النبى ﷺ ـ عن نفسه، وإنما عُلّق بقلم المؤلف ـ [على عبد الرازق] ـ من أثر ديانة أخرى»[(٢)]!.

وفى الحديث عن موقف علماء الإسلام من الفلسفة يلمح الشيخ الخضر خطر النهج الذى يجعل أصحابه مقلدين «لكل ما يلفظ به الغربيون»[(٣)]...

ولم يكن الرجل داعية لإقامة الأسوار بين الحضارات، ولكنه كان نصيرًا للتفاعل الصحى الراشد، الذى يقوم بين حضارات مستقلة بما تتمايز به وتتميز من سمات وخصائص.. وعدوًا للافتتان بزخرف الحضارة الغربية.. وهو يتحدث عن هذا الموقف المتوازن عندما يعرض لموقف حضارتنا من الحضارة اليونانية، فيقول: «لقد عنى المسلمون من علوم اليونان بالفنون التى كانت معروفة لهم، أو كانت بضاعتهم فيها مزجاة[(٤)]. وكانوا يصرفون عنايتهم إلى هذه العلوم على قدر ما يرون لها من فائدة، وعلى حسب ما تمس إليه الحاجة، فأقبلوا على العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفة والمنطق بمجامع قلوبهم، وأعطوا جانبًا من عنايتهم إلى ما نقل لهم من سياسة أفلاطون وأرسطو، مع علمهم بأن أيديهم مملوءة بمبادئ السياسة الكافية فى

(١) سورة الأنعام الآية ١١٠.
(٢) الباب الثالث من الكتاب الثانى [ص ١٦٦ من طبعة الأصل].
(٣) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٥١ من طبعة الأصل].
(٤) أى رائجة.

تدبير مصالح الأمة وصيانة حقوقها على منهج الحرية السامية والعدالة الصادقة... ومن نظر فى تاريخ عظماء الإسلام ببصيرة لم تفتتن بزخرف المدنية الغربية رأى أن سيرتهم العملية وما يلفظون به من نوابغ الكلم ما يشهد له بأنهم أدركوا فى فن السياسة شأوًا بعيدًا ولم يكن حظهم منها أقل من حظ دارسى كتابى الجمهورية والسياسة»[1]!

لقد أبصر الشيخ الخضر أثر «التغريب» و«الافتتان بالحضارة الغربية» فى مجىء دعوى الشيخ على عبد الرازق جانحة عن مسار الفكر السياسى الإسلامى منذ تبلور هذا الفكر وحتى عصرنا الحديث.. ذلك أن من آفات هذا «التغريب»:

* تصور تطور كل المجتمعات على ذات الدرب وبذات المراحل وعلى نفس النحو الذى سلكه المجتمع الغربى فى التطور!

* وتصور كل المدارس الفكرية والمذاهب والمنظومات الفكرية فى ضوء مثيلاتها الغربية.. إلى الحد الذى نرى فيه ذاتنا وتاريخنا وواقعنا بمنظار الاستشراق!..

* * *

ولم يكن خلاف الشيخ الخضر مع هذا «النهج التغريبى مجرد استمساك بفضيلة الاستقلال الفكرى، وفرط أنفة من التبعية لقوم غير مسلمين، كما قد يفهم البعض خطأ وقصر نظر!.. وإنما كان وراء هذا الموقف ـ فضلًا عن أن فضيلة الاستقلال الفكرى هى السبيل الوحيد لرؤية الخصائص التى تمايز بين الحضارات، ومن ثم فإنها السبيل الوحيد لتحصيل الحقيقة وإدراك الصواب ـ كان وراء هذا الموقف المعادى لهذا «النهج التغريبى» موقف وطنى يدرك وظيفة هذا النهج التغريبى فى تكريس التبعية السياسية والعسكرية والاقتصادية المفروضة على وطن العروبة وعالم الإسلام من قبل أبناء الحضارة الغربية الغزاة المستعمرين.. فالتبعية الفكرية، هنا، تلعب دورًا فاعلًا وفعالًا فى تأييد وتأبيد الاستعمار الذى يحول بين المسلمين وبين الحرية والنهضة والتقدم إلى الأمام!..

(١) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٤٨ من طبعة الأصل].

لقد كان الخضر: «شيخًا ـ مجددًا ـ مناضلًا».. فهو عالم ملتزم بأصول الشريعة ومقاصدها.. وهو مجدد، جعله تجديده مهتمًّا بواقع المسلمين المعاصر، معنيًا بالحلول الكافلة للأمة تجاوز سلبيات الواقع الذى تعيش فيه. وهو مناضل يدرك دور الشريعة والتجديد فى التصدى لأعداء الأمة، الذين يفرضون عليها القهر والعبودية والتخلف، ويحولون بينها وبين الحرية والقوة والانطلاق...

* فهو فى تونس، قد ناهض الاستعمار، الذى اضطره إلى الهجرة من وطنه الأول إلى الشام.

* وهو فى الآستانة، يشارك فى العمل السياسى، ويضطلع بمهام فى السفارات الخارجية، تجعله على دراية بما يصنع الغرب وما يبيت لعالم الإسلام...

* وهو فى دمشق، يناضل الاستبداد، ويدخل السجن... ثم يضطره الاستعمار الفرنسى الذى هجّره من تونس ـ إلى الهجرة من دمشق إلى القاهرة...

* وفى القاهرة ـ وبصدد كتاب [الإسلام وأصول الحكم] ـ أبصر الرجل كم هى جليلة تلك الخدمة التى يقدمها للاستعمار كل من يدعو إلى تجريد الإسلام من طابعه ودوره السياسى، وتجريد الدولة، فى وطن المسلمين، من صبغتها الإسلامية، وتقديم الإسلام دينًا لا دولة، ورسالة روحية لا شرع فيها ولا سياسة... ذلك أن المسلمين، فى ظل الاستعمار، إذا اهتموا «بما لله»، «وتركوا ما لقيصر لقيصر»، كان المستفيد الأول من ذلك هو الأجنبى؛ لأن «قيصر» هنا هو الاستعمار!... «فعلمنة الإسلام» هى فى حقيقتها ـ وبصرف النظر عن النوايا ـ تشريع يمنع الحرج والإثم عن ضمير المسلم إن هو خضع لسلطان أجنبى أو سلطة غير إسلامية... ومن ثم فإن اشتراط «إسلامية الدولة» و«إسلامية القانون»، هو ـ فى الحقيقة ـ دعوة للمسلمين كى يثوروا فى سبيل حريتهم وتسويد شريعة الإسلام فى الوطن الذى يعيشون فيه!..

أبصر الشيخ الخضر هذه الحقيقة الجوهرية، ونبه إليها وهو يرد دعوى الشيخ عبد الرازق: «علمانية الإسلام»!

فهو عندما ينبه على تهافت أدلة الشيخ على عبد الرازق وحججه، يشبهها ـ ساخرًا ـ بوعود الدول الاستعمارية وعهودها؟!.. فيقول عنه: «إنه تشبث بأوهى من عهد دولة استعمارية[1]»؟!

وعندما يستدل على عبد الرازق على أن محمدًا ـ ﷺ ـ كان رسولًا مبلغًا، ولم يكن حاكمًا منفذًا، بأن «الرسالة» غير «الملك»، وبكلمة المسيح ـ عليه السلام: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، وبأن يوسف ـ عليه السلام ـ كان عاملًا فى دولة لا تدين بدينه.. ينبه الشيخ الخضر على مغايرة النهج الإسلامى لما سبقه من نهج فى هذا الأمر... ويشير إلى الخطر البادى من استغلال هذه الدعوى فى تكريس انفراد «القيصر» المعاصر، الاستعمار، بالسلطة والسلطان فى عالم الإسلام.. فيقول: «لم يرض محمد بن عبد الله ـ عليه السلام ـ أن يقيم تحت سلطان غير سلطان الله، ولم يرض لمعتنقى دينه الحنيف أن يستكينوا لسلطة غير إسلامية، وفَرْضُ الهجرة والجهاد على ما نقول شهيد.

وما ينبغى للمؤلف ـ [عبد الرازق] ـ أن يحشر فى غضون كتابه مثل هذه الكلمة ـ [أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله] ـ التى تقضى حاجة فى نفس المخالف المتغلب، وتبقى فى النفوس أثر الاستكانة إلى أى يد تقبض على زمامها»[2]؟!. إن «محمد بن عبد الله ـ صلوات الله عليه ـ لم يعترف بسلطة دار الندوة بمكة، وحاربها حتى خضد شوكتها واستأصل جرثومة فسادها، ولم يعترف بسلطة قيصر، وأخذ يعد ما استطاع من قوة ليدفع شره ويقوض دعائم ملكه..»[3]؟!.

كذلك، فإن الادعاء بأن الإسلام دين ليست به شريعة لسياسة الدولة والمجتمع، هو ـ وعينا أم لم نع ـ دعوة تمنح المشروعية لسلطان الأجنبى المتغلب وفلسفة قانونه الغريبة عن روح الأمة وهويتها الحضارية، ذلك أن «الإسلام يقصد من تأسيس الدولة الإسلامية أمرين:

(١) الباب الثانى من الكتاب الثانى [ص ١٥٢ من طبعة الأصل].
(٢) الباب الثانى من الكتاب الثانى [ص ١٣٦، ١٣٧ من طبعة الأصل].
(٣) الباب الثانى من الكتاب الأول [ص ٣٤ من طبعة الأصل].

أحدهما: إجراء أحكامه العادلة ونظمه الكافلة بسعادة الحياة، إذ لا يقوم عليها بحق إلا من آمن بحكمتها وأُشرب قلبه الغيرة على تنفيذها.

ثانيهما: الاحتفاظ بكرامة أوليائه وإعزاز جانبهم حتى لا يعيشوا تحت سلطان مخالف يدوس حقوقهم، ويرفع أبناء قومه أو ملته عليهم درجات»؟![1].

والذين يجعلون الإسلام «دينًا» لا «شرعًا»، سيهدرون، ضمن ما يهدرون من «مقاصد الشريعة» مقصد «الجهاد»، الذى تجاوز كونه سبيلًا «لحفظ الدين»، وأصبح فى مواجهة الاستعمار الأجنبى السبيل الأول لحفظ مقاصد الشريعة كلها؟!. ذلك «أن المقاصد التى تقصدها الشريعة السماوية ترجع إلى حفظ النفس، والدين، والعقل، والعرض، والنسب، والمال. فالقصاص، مثلًا مشروع لحفظ النفس، وحد الزنا لصيانة النسب، وحد القذف لصيانة العرض، وعقوبة شارب الخمر لصيانة العقل، والجهاد لحفظ الدين، بل الاستعمار الأجنبى دل على أن الجهاد مشروع لحفظ الدين والنفس والعرض والمال، ويرشد إلى هذا قوله تعالى: ﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗ﴾[2] [3]... فللشريعة الإسلامية، فى الواقع الإسلامى، دور تحريرى.. وهى ليست مجرد نصوص!

ولقد كان طبيعيًّا للرجل الذى أدرك دلالة سيادة الشريعة وأحكامها على استقلال الأمة ودولتها، أن يبصر دلالة سيادة «الشريعة» الاستعمارية فى بلادنا على خضوعنا لهذا الاستعمار... فأحكام الشريعة الإسلامية هى قانون الأمة الطبيعى، وفى سيادتها، بدلًا من الفلسفة القانونية للحضارة الغازية، مظهر من مظاهر الاستقلال.. «وإذا كانت القوانين الوضعية لا يخضع لها المسلمون بقلوبهم، ولا يتلقون القضاء القائم عليها بتسليم، كان تقريرها للفصل بينهم غير مطابق لقاعدة الحرية، إذ المعروف أن الأمة الحرة هى التى تساس بقوانين ونظم تألفها وتكون على وفق إرادتها أو إرادة جمهورها. فالشعوب الإسلامية لا تبلغ حريتها إلا أن تساس بقوانين ونظم يراعى فيها

(١) الباب الثانى من الكتاب الثانى [ص ١٤٦ من طبعة الأصل].
(٢) سورة التوبة الآية ٨.
(٣) الباب الأول من الكتاب الثالث [ص ٢٠٠ من طبعة الأصل].

أصول شريعتها، وكل قوة تضرب عليها قوانين تخالف مقاصد دينها حكومة مستبدة غير عادلة. فالذين ينقلون قوانين وضعها سكان رومة أو لندرة أو باريز أو برلين، ويحاولون إجراءها فى بلاد شرقية، كتونس أو مصر أو الشام، إنما هم قوم لا يدرون أن بين أيديهم قواعد شريعة تنزل من أفق لا تدب فيها عناكب الخيال أو الضلال، وأن فى هذه القواعد ما يحيط بمصالح الأمة حفظًا، ويسير بها فى سبيل المدنية الراقية عَنَقًا[1] فسيحًا. ولو قيض الله لشعوب هذه الأمة الإسلامية رؤساء يحافظون على قاعدة حرية الأمم، لألفوا لجانًا ممن وقفوا على روح التشريع الإسلامى، وكانوا على بصيرة من أحوال الاجتماع ومقتضيات العصر، وناطوا بعهدتهم تدوين قانون يقتبس من أصول الشريعة ويراعى فيه قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد. وبغير هذا العمل لا يملك المسلمون أساس حريتهم، ولا يسيرون فى سبيل سعادتهم آمنين»[2]!

فسيادة أحكام الشريعة فى الأمة، وهيمنتها وهيمنة فلسفتها بالمؤسسة القضائية الوطنية قسمة من قسمات «الاستقلال الحضارى»، بدونها ستظل سيادة الأمة منقوصة، وحريتها ناقصة، حتى ولو حققت «الاستقلال السياسى»، فأصبح لها «عَلَم» و«نشيد»؟!

ومن هذه «الزاوية النضالية»، وبهذا «المنطق التحريرى» أبصر الشيخ الخضر مهمة «الخلافة» الإسلامية، ودورها التوحيدى للأمة، ومردود هذا الدور وفعاليته فى مواجهة التحديات التاريخية التى فرضها الاستعمار الغربى على عالم الإسلام.. «فالخلافة لا تزيد على ما يسمى دولة، إلا أنها رابطة سياسية تجعل شعوبًا مختلفى العناصر والقومية يولون وجوههم شطر رايتها بعاطفة من أنفسهم واختيار. ومن هذه الوجهة ينظر إليها بغاة الاستعمار بعين عابسة، ويحاول الغِرّ، الذى ينخدع ببهرج آرائهم، أن يطوى رايتها ويمحو أثرها[3]»؟!..

(١) العنق ـ بفتح العين والنون ـ هو السير السريع.
(٢) الباب الثالث من الكتاب الثالث [٢٤٣، ٢٤٤ من طبعة الأصل].
(٣) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٨٧ من طبعة الأصل].

لقد كانت الحصن الذى جمع المسلمين، على امتداد تاريخهم الطويل، فى مواجهة الغـزاة... وحتى فـى لحظات ضعفها ومرضهـا، كانت «الرمز» الذى ظل الاسـتعمار علـى عدائه له وسـعيه لمحوه، مخافـة أن يتداركها التجديد والإصـلاح فتعود حصنًا للمسـلمين، يجمع وحدتهم، ويحول بين الاسـتعمار وبين التهام أوطانهم واستنزاف ثرواتهم واحتلال عقلهم بفكرية التغريب!..

هكـذا أدرك الشـيخ الخضر خطـر دعوى «علمانية الإسـلام» على قضيـة القضايا بالنسـبة للأمـة.. قضيـة: رفضهـا لسـلطان الأجنبى، ونهوضهـا لانتـزاع حريتهـا من الاستعمار.

* * *

وإذا كان كتـاب [الإسـلام وأصول الحكم] قد ذهب فى تشـويه صورة «الخلافة» الإسـلامية، تاريخيًّـا، إلى حـد الافتراء الـذى جعلها قهرًا مسـلحًا واسـتبدادًا بالأمر، مـن دون الأمة، باسـم الله!.. فإن كتاب الشـيخ الخضر قد برئ مـن «رد الفعل» الذى يبيض وجه هذه الخلافة دائمًا، حتى ولو كان ذلك بالزور والبهتان!.. بل إن الرجل لا يرغب فى إدارة المعركة حول اسم النظام وعنوانه.. فالدولة الإسلامية هى المطلب.. وليسـت «الخلافة» هى الشـكل الوحيد ولا الاسـم المفرد لهذه الدولة الإسـلامية.. وفـارق بيـن أن ننتقد تراثنا فـى نظم الحكم لنقتـرب من مقاصد الإسـلام فى «الدولة الإسـلامية»، وبين أن يكون هذا النقد سـبيلًا إلى التخلى عن شـرط «إسلامية الدولة» وتجريد الإسـلام من شـرعه ومدخلـه فى السياسـة وتنظيم المجتمعـات.. «فلم يدع أحـد قط أن صلاح شـأن الرعية وصيانة شـعائر الديـن مربوطان باسـم الخلافة، وأن لقب الخليفة كالرقية النافعة، يذهب بها كل بأس، أو الدعوة المستجابة، ينزل عندها كل خير، والذى نعلمه ويعلمه أشـباه العامة من المسـلمين أن الخلافة لا تريك آثارها وتمنحـك ثمارهـا من منعـة وعزة وعدالة إلا إذا سـارت على سـنة العـزم فى الأمور والحكمة فى السياسة»[(١)].

(١) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٩٠ من طبعة الأصل].

وإذا كان العصر الحديث قد ألح ويلح على إعلاء مكانة الأمة فى تسيير شئون الدولة والمجتمع، فليس هناك، فى نهج الإسلام السياسى، ما يعارض هذا الاتجاه.. بل إن هذا هو نهج الإسلام الأصيل فى هذا الباب «فالقوة المشروعة للخليفة لا تزيد على القوة التى يملكها رئيس دولة دستورية، وانتخابه فى الواقع إنما كان لأجل مسمى وهو مدة إقامته قاعدة الشورى على وجهها، وبذله الجهد فى حراسة حقوق الأمة، وعدم وقوفه فى سبيل حريتها[1]... وشكل بعض الحكومات القائمة على خليفة ووزراء ومجلس نيابى يجرى انتخابه تحت ظلال الحرية التامة لا يخالف الشكل الملائم للخلافة الحقيقية بحال[2]..» بل لقد ذهب الإسلام السياسى فى شروط الخليفة إلى الحد الذى يجعل من دولته «الواقع» القريب من «مثال» «المدينة الفاضلة»!. فلقد «قرر جمهور أهل العلم فى شروط الخليفة أن يكون بالغًا فى العلم رتبة الاجتهاد وأن يكون ذا رأى وخبرة بتدبير الحرب والسلم، وأن يكون شجاعًا لا يرهب الموت الزؤام فما دونه، وأن يكون عادلًا لا تأخذه فى الحق لومة لائم. وتعرف مزية العدل باختبار سيرته فيما كان يتولاه من أعمال قبل منصب الخلافة أو بما تدل عليه التجارب والمشاهدة الطويلة من استقامته وشرف همته وإنكاره ما يفعل الظالمون بغيرة وحماسة..»[3].

وليست صحيحة ولا دقيقة ولا صادقة تلك الصورة الشوهاء التى عممها صاحب [الإسلام وأصول الحكم] على مجمل نظام الخلافة الإسلامية عبر التاريخ الإسلامى.. «فلقد أتى عليها حين من الدهر وهى لا تنتضى حسامها ولا تلمع بإنذارها ووعيدها إلا فى وجه عدو يتربص بالمؤمنين الدوائر، أو ثائر عصفت به ريح الأهواء وماله من أولى الألباب ولى ولا عاذر. وأدركها زمن بعدت فيه عن حقيقتها، فخلطت عملًا صالحًا وآخر سيئًا، وربما كان إثمها فى بعض الأحيان أكبر من نفعها»[4]..

(١) الباب الأول من الكتاب الأول [ص ١٣ من طبعة الأصل].
(٢) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٨٤ من طبعة الأصل].
(٣) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٨٢ من طبعة الأصل].
(٤) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٦٤ من طبعة الأصل].

فالتعميم فى تصوير الخلافة بصورة «القهر المستبد باسم الله غريب عن المنهج العلمى فى دراسة التاريخ...

أما الصورة العثمانية للخلافة، والتى أتاحت لأعداء «الدولة الإسلامية» تشويه صورة الخلافة، بإطلاق وتعميم، فإن الإسلام السياسى حجة عليها وعلى سلاطينها، وليست هى بالحجة على هذا الإسلام!.. «ولو أن المتأخرين من سلاطين آل عثمان أعطوا للخلافة شيئًا من حقوقها وراعوا ما أمر الله به من وسائل استقامتها لما انفرط عقد هذه الممالك الإسلامية وأصبح كل قطعة منها تحت سلطة أجنبية تستبد عليها فى حكمها وتتصرف فى رقاب شعوبها وأموالهم كيف تشاء»[1].

لكن المرض لا يبرر الإعدام.. والفساد لا يستدعى اليأس من الإصلاح.. فإذا كانت الخلافة الإسلامية لا تعدو: «الدولة الإسلامية الجامعة»، «فليس إصلاح شأنها ـ [إذا فسد] ـ وإعادتها إلى سيرتها المثلى ممن يغارون على مصلحة الشرق واتحاد شعوبه ببعيد»[2]؟!.

هذا عن الخلافة فى التاريخ..

* * *

ولقد كانت الفكرة الجوهرية والمحورية لكتاب [الإسلام وأصول الحكم] هى دعوى أن الإسلام دين لا دولة، ورسالة لا حكومة، ويا بُعد ما بينه وبين السياسة وتنظيم المجتمعات!.

وبعض الذين تصدوا لنقد هذا الكتاب بلغوا فى معاداة هذه الدعوى مبلغ «رد الفعل»، حتى لقد بدت فى أقوالهم رائحة تصور الحكومة الإسلامية «حكومة دينية» تشبه تلك التى عرفتها أوروبا حاكمة «بالحق الإلهى»... ذلك أنهم تحدثوا عن «وحدة» الدين والدولة، مقابل دعوى «الفصل» بينهما!..

---

(١) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٨٧ من طبعة الأصل].
(٢) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٦٤ من طبعة الأصل].

لكن هذا الموقع ـ موقع «رد الفعل»، الغريب عن روح الإسلام وجوهره ـ لم يكن هو الموقع الفكرى للشيخ الخضر عندما نقض كتاب الشيخ على عبد الرازق... فهو قد تبنى موقف علماء الكلام المسلمين، من مختلف تيارات فكر أهل السنة، الذين قرروا أن «الخلافة ـ الإمامة ـ الدولة» ليست من أصول الدين ولا أركانه ولا عقائده، وأنها من الفروع.. ومن ثم فلا حجة لمن يدعى «علمانية الإسلام» بسبب خلو القرآن من الآيات التى تنص على «الخلافة ـ الإمامة ـ الدولة»، فمكان الفروع، ليس بالضرورة هو القرآن الكريم... واستمرارًا لهذا النهج الإسلامى العريق قال الشيخ الخضر: «إن الخلافة ليست من نوع العقائد[١]... وبحثها يرجع إلى النظر فى حكم عملى لا فى عقيدة من عقائد الدين. ومما يترتب على الفرق بين الأحكام العملية والعقائد أن الأحكام العملية يكتفى فيها بالأدلة المفيدة ظنًا راجحًا، وأما العقائد فإنها لا تقوم إلا على براهين قاطعة... فلا غضاضة على حكم الخلافة إذا لم يرد به قرآن يتلى، إذ ليست الخلافة زائدة على إمارة عامة تحرس شعائر الدين وتسوس الناس على طريق العدل، ولم يكن وجه المصلحة من إقامة هذه الإمارة بالخفى الذى يحتاج إلى أن يأتى به قرآن صريح... فالقرآن لم يصرح بحكم الإمارة العامة اكتفاء بما بثه فى تعاليمه من الأصول التى تبينها السنة ويرجع إليها الراسخون فى العلم عند الحاجة إلى الاستنباط، ولأن فى الأمر بإطاعة أولى الأمر عبرة لأولى الألباب...»[٢]! فإذا استدل علماء الإسلام على وجوب «الخلافة ـ الإمامة ـ الدولة الإسلامية» بضرورتها، لأن «ترك الناس فوضى لا يجمعهم على الحق جامع ولا يزعهم عن الباطل وازع، يفضى إلى تبدد الجماعة، وإضاعة الدين، وانتهاك حرمة الأموال والنفوس والأعراض، فإنهم ـ [بهذا الاستدلال] ـ إنما يطبقون قاعدة شرعية، وهى قاعدة: «الضرر يزال» أو قاعدة: «ما لا يتم الواجب المطلق إلا به، وكان مقدورًا، فهو واجب»[٣].

ومن هذا الموقع الفكرى، الذى يرى وجوب «الدولة الإسلامية» ـ وليس أى دولة ـ دون أن تكون هذه الدولة عقيدة من عقائد الدين أو ركنًا من أركانه ـ أنكر الشيخ

(١) الباب الثانى من الكتاب الأول [ص ٣٣ من طبعة الأصل].
(٢) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص ٧٤، ٧٥ من طبعة الأصل].
(٣) الباب الثانى من الكتاب الأول [ص ٢٦ من طبعة الأصل].

الخضر إسلامية الصورة التى صور بها الشيخ على عبد الرازق الخليفة المسلم، ورفض ما قاله صاحب [الإسلام وأصول الحكم] عن طبيعة سلطات الخليفة فى الإسلام.. لقد قال على عبد الرازق، عن الخليفة: إن «ولايته عامة ومطلقة، كولاية الله تعالى ورسوله الكريم».. وعلق الخضر على هذه العبارة فقال: «إنها من مبالغاته التى تضع للخلافة فى نفوس المستضعفين من الناس صورة مكروهة، ولو كان المؤلف ـ [على عبد الرازق] ـ يمشى فى بحثه على صراط سوى لتحرى فيما ينطق به عن المسلمين أقوالهم المطابقة، وهم لم يقولوا إن ولاية الخليفة عامة ومطلقة كولاية الله، فإن الله يفعل ما يشاء فيمن يشاء، ولا يسأل عما يفعل، والخليفة مقيد بقانون الشريعة ومسئول عن سائر أعماله. وكذلك رسول الله ـ ﷺ ـ له خصائص لا يحوم عليها الطير ولا يبلغها مدى البصر، منها أن تصرفاته نافذة ولا تتلقى إلا بالتسليم، وتصرفات الخليفة قد تقابل بالمناقشة والنقض والإنكار..»(١).

وفى صراحة وحسم يقرر الشيخ الخضر أن الأمة الإسلامية هى مصدر السلطات التى فوضت بعضًا منها للخليفة والإمام، فلا علاقة لطبيعة سلطاته بتلك التى زعمتها الكهانة والدولة الدينية للأباطرة والملوك الذين جعلوا سلطانهم مستمدًا من الله... لقد زعموا نيابتهم عن الله.. بينما الخليفة الإسلامى نائب عن الأمة ووكيل عنها.. «ولم نعثر على كلمة ـ [فى فكر علماء الإسلام] ـ تنبئ ـ ولو بطريق التلويح ـ أن سلطان الخليفة مستمد من سلطان الله، وقصارى ما يستنتج من كلماتهم عنها ومباحثهم فيها أن الله أوجب على الناس إقامة إمام، وأن ولايته تنعقد إما بمبايعة أهل الحل والعقد أو بعهد من الخليفة قبله، وأنه إذا سعى فى السياسة فسادًا، كان للأمة انتزاع زمام الأمر من يده ووضعه فى يد من هو أشد حزمًا وأقوم سبيلًا..»(٢).

فالإسلام يوجب «الدولة الإسلامية»، التى تسوس الناس بشريعته، وتحفظ بيضته.. وفى ذات الوقت ينكر مزاعم القائلين بسلطان إلهى لرأس هذه الدولة.. فلا هى «العلمانية» التى تفصل «الدين» عن «الدولة» ولا هى «الكهانة ـ والدولة الدينية ـ

(١) الباب الأول من الكتاب الأول [ص ١٠ من طبعة الأصل].
(٢) الباب الأول من الكتاب الأول [ص ١٤ من طبعة الأصل].

والحكم بالحق الإلهى ونيابة الحاكم عن الله».. وإنما هى «الدولة المدنية» الحاكمة والمحكومة بشريعة الإسلام.. وبعبارة الشيخ الخضر: «إن شارع الإسلام يقصد إلى أن يكون للمسلمين دولة ذات صبغة دينية[١]... ورياسة غير منفصلة عن الدين... وإمارة مرتبطة بالدين[٢].... فالإسلام دين وشريعة وسياسة، وعلى الدولة أن تضع سياستها فى صبغة إسلامية[٣]... لأن الإسلام عقيدة وشريعة ونظام اجتماعى، فهو بالنظر إلى أصول العقائد التى هى باب الإيمان به. إنما يدعى إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، إذ لا يمكن لبشر أن يدخل فى قلب بشر عقيدة إلا أن يقرنها بما يثبتها فى النفس من برهان أو إقناع. وأما الشرائع والنظم الاجتماعية، فإن التجربة، فى القديم والحديث، دلت على أنها لا تقوم فى أمة ولا يطرد نفاذها إلا أن تكون شدة البأس بجانبها والسيوف من ورائها. فلا بد للإسلام من دولة ذات شوكة لتقوم على إجراء هذه الشرائع والنظم وتحول بينها وبين قوم لا يبصرون..»[٤].

وإذا كانت دعوى صاحب [الإسلام وأصول الحكم] أن الرسول ـ ﷺ ـ كان «مبلغًا» فقط، لم يكلف «بالتنفيذ»، هى دعوى متهافتة لم يقلها قبله قائل، من الشرق أو الغرب، من المسلمين أو من غيرهم، فإن الشيخ الخضر يتحدث عن ولاية الرسول، رافضًا أن تقتصر على القلوب دون الأجسام ـ وهى دعوى على عبد الرازق ـ ويقول: إن «النظر يقضى بأن الولاية على القلوب لا تكفى فى صيانة الحقوق وحفظ النفوس والأموال والأعراض، وأنه لا بد من ولاية يكون شأنها تنفيذ قوانين المعاملات والعقوبات فيمن يطغى به الهوى أو يتخبطه الغضب وإن كان من المؤمنين. فولاية الرسول ـ ﷺ ـ كانت على القلوب ثم على الأجسام، وكانت ولاية هداية وتدبير لصالح الحياة، وكانت رياسة دينية وسياسية، وكلاهما من عند الله، ولا بعد بين السياسة والدين إلا فى نظر قوم لا يكادون يفقهون حديثًا[٥]... لقد كان الرسول الأعظم مظهر السلطة التشريعية، ومصدر السلطة التنفيذية. فالحكمة تجرى

(١) الباب الأول من الكتاب الثالث [ص ١٩٧ من طبعة الأصل].
(٢) الباب الثانى من الكتاب الثالث [ص ٢٢١ من طبعة الأصل].
(٣) الباب الثالث من الكتاب الثالث [ص ٢٤٤ من طبعة الأصل].
(٤) الباب الثانى من الكتاب الثانى [ص ١٤٣ من طبعة الأصل].
(٥) الباب الثالث من الكتاب الثانى [ص ١٦٧، ١٦٨ من طبعة الأصل].

على لسانه، ودم النفوس الخبيثة يجرى على سنانه. يرسل الموعظة الحسنة تحت مثار النقع، ويسن القانون العادل وهو يقاتل وحوشًا غابها الرماح، ولقد كان تشريعه الحكيم أو عزمه النافذ عبرة لأولى الألباب..»[1]!

وإذا كان «الدين» وضعًا إلهيًّا ثابتًا؛ فإن «الصبغة الدينية» للدولة الإسلامية وسياستها لا تعنى ثبات نظم هذه الدولة وثبات قوانينها، ولا تعنى «الإلهية» و«الثبات» لهذه النظم والقوانين جميعها... فالثابت هو «المقاصد والفلسفات والغايات» وبعض قليل من الأحكام التى تعلقت بثوابت لا تتغير ولا تتطور بتغير الزمان والمكان، أما ما عدا هذا القليل فهو متغير ومتطور يلعب فيه العقل المسلم والإبداع التشريعى للمسلمين الدور الأول والأعظم دونما قيد إلا الروح العامة لشريعة الإسلام والمصلحة المبتغاة للأمة الإسلامية... فلقد «أجمع المسلمون على أن إصلاح السياسة شطر من مقاصد الإسلام - [ولكن] - هل ادعوا، مع هذا، أن الإسلام رسم للسياسة خطة معينة ووضع لكل واقعة حكمًا مفصلًا؟!. الحق أنهم لم يفعلوا ذلك، بل ملأوا كتبهم ببيان أن الشريعة فصلت بعض أحكام لا تختلف فيها أحوال البشر، ثم وضعت أصولًا ليراعى تطبيقها على الوقائع حال الظروف الحافة بها، ومن هذه الأصول قاعدة: «رعاية المصالح المرسلة»، وقاعدة: «العادة محكمة»، وقاعدة: «سد الذرائع»، وقاعدة: «المشقة تجلب التيسير»، وقاعدة: «ارتكاب أخف الضررين» وقاعدة: «الضرر يزال»[2]... ولقد عنيت الشريعة، فى الأكثر، بتفصيل ما لا تختلف فيه مصالح الأمم ولا يتغير حكمه بتغير الزمان والمكان، وذلك ما يرجع إلى العقائد والأخلاق ورسوم العبادات، ثم جاءت إلى قسم المعاملات والسياسات فأتت على شىء قليل من تفاصيله، وطوت سائره فى أصول عامة ثلاث:

إحداها: أن أحكام هذا القسم تختلف بحسب ما يقتضيه حال الزمان وتطور الشعوب، فإذا وقعت الواقعة أو عرضت الحاجة نظر العالم فى منشئها وما يترتب عليها من أثر، واستنبط لها حكمًا بقدر ما تسعه مقاصد الشريعة ومبادئها العليا.

---

(١) الباب الأول من الكتاب الثانى [ص ١١٢ من طبعة الأصل].

(٢) الباب الثالث من الكتاب الثانى [ص ١٧٧ من طبعة الأصل].

ثانيها: أن وقائع المعاملات والسياسات تتجدد فى كل حين، والنص على كل جزئية غير متيسر، علاوة على أن تدوينها يستدعى أسفارًا لا فائدة للناس فى كُلْفة حملها.

ثالثها: أن الشريعة لا تريد أسر العقول وحرمانها من التمتع بلذة النظر والتسابق فى مجال الاجتهاد[1].

ولذلك وجدنا فقهاء المسلمين يجتهدون، كل من منظوره، وعلى ضوء واقعه، ووفق مقتضيات عصره، يجتهدون فى «وضع» القوانين الإسلامية المسترشدة بروح الشريعة والمحكومة بمنطقها الإسلامى العام.. فهم «ينظرون إلى المصالح ويوازنون بينها وبين المفاسد.. كما ينظر إليها أصحاب القوانين الوضعية، من حيث عظمها وصغرها، ومن حيث ما يترتب عليها فى الخارج من آثار نافعة أو عواقب سيئة»[2].. ثم يصوغون القوانين، التى كونت تراثنا فى فقه المعاملات.

فالذين يتصورون أن «إسلامية القانون» فى الدولة الإسلامية تعنى إلزام الحاضر باجتهادات الماضى، أو إلزام كل عالم الإسلام باجتهاد واحد، لا يفقهون هذا الجانب من سياسة الإسلام... بل إن بلوغ عالم الإسلام فى التقارب والتضامن والاتحاد درجة إقامة الخلافة الواحدة، أو الحكومة الواحدة لا يعنى وحدة النظم والقوانين إذا ما اختلف الواقع فى إطار عالم الإسلام.. ذلك «أن أخذ الأمم الإسلامية بحكومة واحدة لا يقتضى توحيد قانونها السياسى أو القضائى، بل يوكل أمر كل شعب إلى أهل الحل والعقد منه، فهم الذين ينظرون فيما تقتضيه مصالحه، ولا يقطعون أمرًا حتى يشهدهم من أوتوا العلم بأصول الشريعة لئلا يخرجوا عن حدودها ومقاصدها... فالتشريع الإسلامى قائم على رعاية المصالح، وما هى إلا المصالح التى توضع فى ميزانه المستقيم، وهذا الميزان المستقيم لا يبخس شعبًا من الشعوب مصلحته التى يشهد بها العقل السليم، ولا يفصّل حكمًا واحدًا يجريه على كل شعب وفى كل زمان،

---

(١) الباب الثانى من الكتاب الثانى [ص ١٥٤، ١٥٥ من طبعة الأصل].

(٢) الباب الأول من الكتاب الثالث [ص ٢٠١ من طبعة الأصل].

إلا إذا لـم تختلـف فيه مصالح الشعوب، فإن اختلفت اختلافًا يعقلـه العالمون فلكل شعب حكم وسياسة، وذلك تقدير العزيز العليم..»[١].

فالدولة الإسلامية: دولة دستورية.. ورأسها: حاكم دستورى.. وأمتها: هى مصدر السلطات.. وقانونها إبداع وثمرة لعبقرية فقائها، يصوغون أغلبه بالاجتهاد المحكوم بروح الشريعة ومصلحة الأمة المرتبطة بظروف الزمان ومقتضيات المكان... وهى، فى ظل الخلافة والحكومة الواحدة، أشبه بعصبة الأمم الإسلامية وجامعة الدول الإسلامية منها بالدولة الواحدة التى يسود فيها القانون الواحد والنظام الواحد فى واقع متغاير رغم وحدة الإسلام!..

وإذا كان هذا هو حال «الإسلام السياسى»، وإذا كانت تلك هى قاعدة «سياسة الإسلام».. فهل بنا من حاجة «لعلمانية» الحضارة الغربية، نتنكر باستعارتها لطبيعة إسلامنا؟!. وألا يرعوى أولئك الذين يزيفون تاريخنا السياسى وفكرنا الإسلامى السياسى، لا لشيء إلا لافتعال التماثل بينه وبين تاريخ الكهانة الكنسية فى أوربا العصور المظلمة والوسطى، بل ويزيفون صورة الإسلام، بجعله «علمانية» أو «كهانة».. لا لشيء إلا ليبرروا استعارتهم «للعلمانية» الغربية.. فهم يستوردون «مشكلة ليستوردوا لها «الحلول»؟!.

هكذا نظر الشيخ الخضر إلى القضية المحورية والجوهرية فى كتاب [الإسلام وأصول الحكم].. وحدد حيالها رؤيته لموقف الإسلام.

* * *

(١) الباب الثالث من الكتاب الثانى [ص ١٧٩، ١٨٠ من طبعة الأصل].

ضلالة فصل الدين عن السياسة
للإمام الشيخ محمد الخضر حسين

[١٢٩٣ ـ ١٣٧٧هـ ـ ١٨٧٦ ـ ١٩٥٨م]

فى هذا الكتاب يقول الإمام الشيخ محمد الخضر حسين:

* «هناك ثلاث حقائق، كل واحدة منها شطر من الإسلام:

١ ـ عموم رسالة محمد ـ ﷺ.

٢ ـ واشتمال شريعته، بنصوصها وأصولها، على أحكام ما لا يتناهى من الوقائع.

٣ ـ وكون هذه الشريعة أحكم ما تُساس به الأمم.

* ومن يدعى أن الإسلام توحيد وعبادات، ويجحد أن يكون فى حقائقه ما له مدخل فى القضاء والسياسة هو غير مؤمن بالقرآن ولا بمن نزل عليه القرآن..

لقد جاء الإسلام بأحكام وأصول قضائية، ووضع فى فم السياسة لجامًا من الحكمة، ومن ينكر ذلك فقد تجاهل القرآن والسنة ولم يحفل بسيرة الخلفاء الراشدين، الذى كانوا يزنون الحوادث بقسطاس الشريعة، ويرجعون عند الاختلاف إلى كتاب الله وسنة رسول الله.

أما الذين يبتغون من الحاكم أن يخلق أحكامه من طينة ما يوافق أهواءهم فهم الذين لم يدخل الإيمان فى قلوبهم.

إن فى القرآن أحكامًا كثيرة ليست من التوحيد ولا من العباءات، كأحكام البيع والربا والرهن والدَّين والإشهاد، وأحكام النكاح والطلاق واللعان والولاء والظهار والحجر على الأيتام والوصايا والمواريث، وأحكام القصاص والدية وقطع يد

السارق وجلد الزانى وقاذف المحصنات، وجزاء الساعى فى الأرض فسادًا، بل فى القرآن آيات حربية فيها ما يرشد إلى وسائل الانتصار..

وفى السنة الصحيحة أحكام مفصلة فى أبواب من المعاملات والجنايات.

وفى سيرة أصحاب رسول الله ـ وهم أعلم الناس بمقاصد الشريعة ـ ما يدل على أن من يدعو إلى فصل الدين عن السياسة إنما تصوّر دينًا آخر وسماه الإسلام!

إن السياسة لا تجد فى الدين ما يقف دون مصلحة، ولا تجد منه ما يحمل على إتيان مفسدة..

* والرؤساء الذين لم يحافظوا فى سياسة شعوبهم الإسلامية على أحكام الشريعة وآدابها، إنما أُتوا من ناحية جهلهم بسماحة شرع الإسلام وسعة قواعده ومقاصده. وإذا كان على غير هؤلاء الرؤساء تبعة، فعلى أولى الحل والعقد من فضلاء الأمة وعلمائها إذا أهملوا علاجهم، ولم يبذلوا فى دعوتهم إلى الاستقامة جهدهم..

* وليس فى الإسلام سلطة دينية إلا على معنى أن الأمير ينفذ أحكام الشريعة المفصلة فى الكتاب والسنة، أو المندرجة فى الأصول المأخوذة منهما..

ولم يترك الإسلام السلطة التى وضعها فى أيدى الأمراء مطلقة عن التقييد، وإذا استهان بعض الأمراء بقواعد الشورى فإن التشريع تام، والوزر على من لم يأخذ نفسه بما قرره الشرع العزيز..

* وإن سبب اختلال النظام العام أو أحكام الخلافة، هو انقسام الأمم الإسلامية إلى دول انقسامًا غير مصحوب بشىء من التحالف والتعاطف.. فوهن المسلمين جاء من جهة استقلال كل أمير بطائفة من المسلمين استقلالًا يقطع بينها وبين الدولة العظمى صلة التناصر والتعاون، لا من جهة أن رعاية الدين داخلة فى سياسة كل دوله.

* وليس فى الإسلام سلطة دينية تشبه السلطة الكاثوليكية.. وإنما السلطة الدينية فى الإسلام لكتاب الله وسنة رسوله ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

❋ إن فصل الدين عن السياسة هدم لمعظم حقائق الدين، ولا يقدم عليه المسلمون إلا بعد أن يكونوا غير مسلمين.. ولو أعلن المسلمون فصل الدين عن السياسة لظلوا بغير دين.. وليست مصيبة المسلمين فى تركهم السياسة مربوطة بالدين ـ كما يزعم البعض ـ وإنما فى ذهولهم عن تعاليم دين لم يدع وسيلة من وسائل النجاة إلا وصفها، ولا قاعدة من قواعد العدل إلا رفعها»[1].

❋ ❋ ❋

(١) ضلالة فصل الدين عن السياسة. سلسلة «فى ظلال الإسلام» ـ طبعة دار المعارف. القاهرة سنة ٢٠١٣م.

الإسلام والدولة المدنية

الدولة الإسلامية دولة مدنية، تقوم على المؤسسات، والشورى هى آلية اتخاذ القرارات فى جميع مؤسساتها، والأمة فيها هى مصدر السلطات، شريطة ألا تحل حرامًا أو تحرم حلالًا جاءت به النصوص الدينية قطعية الدلالة والثبوت.

هى دولة مدنية، لأن النظم والمؤسسات والآليات فيها تصنعها الأمة وتطورها وتغيرها بواسطة ممثليها، حتى تحقق الحد الأقصى من الشورى والعدل، والمصالح المعتبرة التى هى متغيرة ومتطورة دائمًا وأبدًا.

والأمة فى هذه الدولة الإسلامية هى مصدر السلطات، لأنه لا كهانة فى الإسلام، فالحكام نواب عن الأمة وليس عن الله، والأمة هى التى تختارهم وتراقبهم وتحاسبهم وتعزلهم عند الاقتضاء.

وسلطة الأمة التى تمارسها بواسطة ممثليها الذين تختارهم بإرادتها الحرة، لا يحدها إلا المصلحة الشرعية المعتبرة، ومبادئ الشريعة التى تلخصها قاعدة: «لا ضرر ولا ضرار».

والدولة الإسلامية دولة مؤسسات، لأن فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - الجامعة لكل التكاليف الاجتماعية والسياسية - لا يمكن إقامتها فى الواقع المعاصر إلا بواسطة المؤسسات، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

بل إن الدولة الإسلامية الأولى التى قامت بالمدينة المنورة، على عهد رسول الله ﷺ قبل أربعة عشر قرنًا، قد قامت على مؤسسات دستورية ثلاث:

١ ـ مؤسسة المهاجرين الأولين ـ الأمراء.

٢ ـ ومؤسسة النقباء الاثنى عشر ـ الوزراء.

٣ ـ ومجلس الشورى ـ المكون من سبعين عضوًا.

وكانت الخلافة فيها بالبيعة والاختيار، وحق «الدولة» فى طاعة «الأمة» مشروط باستقامة الدولة فى أداء المهام المفوضة إليها من الأمة، «أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم».

فالمؤسسة مبدأ عريق فى الدولة الإسلامية، تستدعيه وتؤكد عليه التعقيدات التى طرأت على نظم الحكم فى العصر الحديث، ولأن الدولة الإسلامية دولة مؤسسات، كانت القيادة فيها والسلطة جماعية، ترفض الفردية والديكتاتورية والاستبداد، ولهذه الحكمة السامية لم يرد فى القرآن الكريم مصطلح «ولى الأمر» بصيغة الفرد ـ وإنما جاء التعبير بصيغة الجماعة «أُولى الأمر»، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٨، ٥٩].

فسلطة الاجتهاد والتشريع التى تستنبط الأحكام هى سلطة جماعية كذلك، مع التأكيد على أن تكون هذه السلطة الجماعية من الأمة معبرة عن هويتها ومصالحها.

والسياسة فى الرؤية الإسلامية ليست من أمهات العقائد الدينية، وإنما هى من الفروع والفقهيات. أجمع على ذلك أئمة الفكر السياسى السنى عبر تاريخ الإسلام، ولذلك فإن الاختلاف فى السياسة معاييره «الخطأ والصواب» و«النفع والضرر» وليس «الكفر والإيمان».

والدولة الإسلامية تعتمد التعددية الدينية والسياسية والفكرية فى الأمة، ليس باعتبارها فقط من تجليات الحرية وحقًّا من حقوق الإنسان، وإنما باعتبار هذه التعددية ـ فوق ذلك ـ سنة وقانونًا كونيًّا واجتماعيًّا، لا تبديل له ولا تحويل، فالواحدية

هـى فقط للخالق ـ سـبحانه وتعالى ـ أما من عداه ومـا عداه ـ فى عوالم الخلق ـ فقائم على سنة التعدد والتمايز والاختلاف.

ولغير المسلمين فى المجتمع الإسلامى والدولة الإسلامية كامل حقوق المواطنة، وعليهم كامل واجباتها، مثلهم فى ذلك مثل المسـلمين.. وبنص عهد رسـول الله ﷺ للنصارى سنة (١٠ هـ): «لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين وعلى المسلمين ما عليهم حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم».

فوحـدة الأمة، والمسـاواة فى المواطنة لا يتأثـران باختلاف العقائـد الدينية، التى مردّها وحسابها إلى الله سبحانه وتعالى يوم الدين.

والشـورى فى الرؤية الإسـلامية هى آلية اتخاذ القرارات فى كل ميادين الاجتماع الإسـلامى، من الأسـرة إلى الدولة، وعبر كل مؤسسـات المجتمـع، بل هى صفة من صفات المؤمنين:

ففى الأسرة: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وفـى المجتمـع والأمـة: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩)﴾ [الشورى: ٣٦ ـ ٣٩].

وفى الدولة والسلطة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهذه الشـورى مُلزمة، لأن الأمة أو جمهورها لا تجتمع على ضلالة: «إن أمتى لا تجتمع على ضلالة» (ابن ماجة).

فالعصمة فى النظام الإسـلامى للأمة، وليست لحاكم أو فقيه أو زعيم أو حزب أو جماعة من الجماعات.

ولقد كانت الشورى ملزمة حتى فى عهد النبوة، ورسول الله ﷺ هو القائل لأبى بكر وعمر: «لَوْ اجْتَمَعْتُمَا فِى مَشُورَةٍ مَا خَالَفْتُكُمَا» (أحمد فى مسنده)، والقائل: «لَوْ كُنْتُ مُؤَمِّرًا أَحَدًا دُونَ مَشُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ، لَأَمَّرْتُ ابْنَ أُمِّ عَبْدٍ (عبد الله بن مسعود)» (الترمذى وابن ماجة وأحمد)، ولقد مدح القرآن الكريم ملكة سبأ لأنها تحكم بشورى مؤسسة الملأ أُولى الأمر: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢]، وذم فرعون لتفرده بالسلطة: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

ولذلك أجمع فقهاء الأمة على «أن الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزلُه واجب، وهذا مما لا خلاف فيه» (القرطبى فى الجامع لأحكام القرآن).

ولأن الانفراد بالسلطة هو باب واسع من أبواب الاستبداد والطغيان، ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]. كان تبادل السلطة بين تيارات السياسة والفكر فى المجتمع الإسلامى، بالرجوع إلى الأمة ـ مصدر السلطات والمستخلفة عن الله ـ هو المحقق لتجدد الحياة السياسية، والحيلولة دون الاستبداد والطغيان.

ولأن التوازن هو سر الحياة، والعاصم من الانحراف، كان تعدد السلطات والمؤسسات وتوازنها السبيل المحقق للعدل فى المجتمع والدولة الإسلامية، فكما أن للتشريع مؤسسته فإن للقضاء مؤسسته وللتنفيذ كذلك.. والتوازن بين هذه المؤسسات وسلطاتها هو المحقق للعدل الذى تبتغيه الأمة من وراء قيام هذه المؤسسات، ولأن الأمة فى الدولة الإسلامية هى مصدر السلطات، فإن التشريع تتولاه المؤسسة التشريعية، فى إطار مبادئ الشريعة وقواعدها، انطلاقًا من المبدأ القرآنى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [النساء: ٨٣].

لقد عرفتْ نُظُم الحكم فى الحضارة الغربية نظامين شهيرين:

١ ـ دولة الكهانة الكنسية: فى العصور الأوربية ـ وكانت الدولة فيها دينية كهنوتية، تحكم باسم السماء والتفويض الإلهى المزعوم، أى أنها عرفت «اللاهوت»، و«السلطة المعصومة» (السماء فالدولة) ولا وجود للأمة وسلطتها فى هذا النظام.

٢ ـ والدولة العلمانية: التى تختارها الأمة، وفيها «الأمة»، و«الدولة النائبة عن الأمة» ـ (الأمة فالدولة) ـ ولا وجود فيها للشريعة والمرجعية الدينية.

أما الدولة الإسلامية، فإنها نظام متميز وفريد، فالسيادة فيها للشريعة الإلهية، والأمة فيها هى مصدر السلطات، والمستخلفة عن الله ـ شارع هذه الشريعة ـ والدولة فيها مختارة من الأمة ومستخلفة عنها ـ (الشريعة ـ فالأمة ـ فالدولة).

فهى الدولة الوحيدة الجامعة بين هذه المكونات الثلاث: الشريعة.. والأمة.. والدولة.. ولذلك، فإنها الأقدر على تحقيق المصالح الشرعية المعتبرة للأمة، فى حدود الحلال والحرام الدينى ومنظومة القيم التى اجتمعت عليها جميع الشرائع السماوية.

بهذه السطور أمهد بين يدى القارئ لأبواب هذا الكتاب ـ عن (مفهوم الدولة فى الإسلام) للباحث الشاب: أحمد صلاح سالم، والذى سيجد القارئ فيه فكرًا يجمع بين العمق والسلاسة والتوازن، كما سيجد فيه شهادة على أن بلادنا غنية بالطاقات الفكرية الشابة، التى تحمل هموم الأمة، والتى نرجو أن تُفتح الأبواب أمام إبداعاتها، حتى لو اختلف البعض منا مع جوانب فى هذه الإبداعات..

سائلين المولى ـ عز وجل ـ أن ينفع بهذا الكتاب، وأن يسدد خُطا كاتبه على طريق الإبداع الفكرى، إنه ـ سبحانه وتعالى ـ خير مسئول وأكرم مجيب(١).

---

(١) انظر كتاب [الدولة المدنية فى الإسلام] أحمد صلاح سالم ـ طبعة مركز الحضارة العربية القاهرة سنة ٢٠١٧م.

الإسلام والسياسة

السؤال الأول

معظم بلدان العالم، بما فى ذلك دول إسلامية كثيرة، تأخذ بنظام الأحزاب السياسية، فهل يتفق ذلك مع الإسلام؟ وهل يمكن أن تقوم الأحزاب على أسس طائفية ودينية؟

* «الحزب السياسى»: فى الاصطلاح المعاصر ـ يطلق على «مجموعة من المواطنين، يؤمنون بأهداف سياسية وفكرية ـ (أيديولوجية) ـ مشتركة، وينظمون أنفسهم بهدف تحقيق أهدافهم وبرامجهم، بالسبل التى يرونها محققة لهذه الأهداف، بما فيها الوصول إلى السلطة فى المجتمع الذى يعيشون فيه»[١]..

وكثيرون من الناس يظنون أن تبلور الأفكار والأيديولوجيات السياسية فى أحزاب منظمة ومتعددة، هى ظاهرة من الظواهر التى تميزت بها الحضارة الغربية قبل غيرها، وأن أمم الحضارات الأخرى قد أخذتها عن الغربيين.. وإذا كانت الجزئية الأخيرة ـ وهى أخذ الشعوب غير الغربية ظاهرة التعددية الحزبية عن الغرب ـ صحيحة، فإن السبب فى ذلك هو تأثر النهضات الحديثة لهذه الشعوب بالنموذج الحضارى الغربى، بسبب التأثير والهيمنة الغربية الحديثة والمعاصرة على حضارات تلك الشعوب.

أما فيما يتعلق بتاريخ وأصالة ظاهرة التعددية الحزبية فى الفكر والعمل السياسى، فإنها ـ وعلى الأخص فى النموذج الحضارى الإسلامى ـ قديمة وعريقة.. وسابقة على معرفة الغرب لها بقرون.

---

(١) انظر (موسوعة السياسة) ـ مادة «حزب سياسى» ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ١٩٨١م.

ذلك أن «مشروعية» التعددية السياسية فى النظرة الإسلامية، إنما تتأسس على «مشروعية» التعددية بإطلاق. والإسلام يرى التعددية سنة من سنن الله، سبحانه وتعالى، فى كل ما عدا الذات الإلهية، فالواحدية هى لله وحده، وما عداه قائم على التعددية، والازدواج، والتوزان، والارتفاق.

ففى اللغات والأجناس والأقوام والشرائع والأفكار تعددية.

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾[1].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[2].

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[3].

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾[4].

فالتعددية والاختلاف هى القاعدة والأصل، وهى سنة الله، سبحانه وتعالى، فى الخلق المادى، وفى الاجتماع البشرى، وفى الآراء والأفكار. والمفسرون فى تفسيرهم لقوله سبحانه ﴿ولذلك خلقهم﴾ يقولون: «وللاختلاف خلقهم»[5]!

ويزكى التعددية فى النظرة الإسلامية ـ والأحزاب السياسية جزئية من جزئياتها وفرع من أصلها ـ قاعدة ومبدأ وأصل وواجب وضرورة «الحرية» بالنسبة للإنسان. فالحرية فطرة فطر الله الإنسان عليها، وهى ـ الحرية والاختيار ـ السبب فى التكليف، فهى الأمانة التى حملها الإنسان، بعد أن أبت حملها السموات والأرض

(١) سورة الروم: الآية ٢٢.
(٢) سورة الحجرات: الآية ١٣.
(٣) سورة المائدة: الآية ٤٨.
(٤) سورة هود: الآيتان ١١٨، ١١٩.
(٥) القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) جـ٩ ص ١١٥. طبعة دار الكتب المصرية.

والجبال. فكل ما عدا الإنسان يسبح بحمد الله طبعًا لا اختيارًا.. أما الإنسان فهو الحر المختار، وإذا كان الناس قد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا، فمن اختار مذهبًا سياسيًّا فهذا الاختيار هو الإعمال لأصل الفطرة الحرة، فإذا توافق مجموع من الناس على هذا المذهب، وتواصوا بالعمل على نصرته وتطبيقه ـ من خلال تجمع ـ حزب ـ فهم على طريق إعمال أصل من أصول الفطرة الإنسانية، فطرة الحرية.

على أن هناك ضوابط للتعددية.. وللحرية، فى النظرية الإسلامية..

ففى «الأصول» ـ أصول العقيدة والشريعة والأخلاق ـ هناك «وحدة»، هى التى تحقق للأمة الإسلامية وحدتها عبر الزمان والمكان، ضامنة لها وحدة الهوية والجوهر، والتواصل الحضارى.

أما فى «الفروع» ـ التى تشمل تفاصيل العمران ومتغيرات السياسة والاجتماع والاقتصاد والنظم والتنظيمات.. فإن «التعددية» واردة. وفى إطار هذه «الفروع» يأتى الاجتهاد والتجديد، لا كمجرد «حقوق» للإنسان، بل «كفرائض» إلهية على هذا الإنسان.

فهناك مساحة، «للوحدة» ـ وحدة الأمة فى «الأصول» ـ لا يجوز فيها الافتراق، ولا التعددية، ولا التحزب. وهناك مساحة «للتعددية» ـ تعددية الأحزاب والمدارس الفكرية والتيارات المذهبية ـ هى مساحة «الفروع» والمتغيرات، سواء فى علوم الدين أو علوم الدنيا والعمران البشرى، ومنها سياسة الدولة والمجتمعات.

وهذا الجمع الإسلامى بين «الأصول» التى لا افتراق فيها.. وبين «الفروع» التى هى مساحة للاجتهادات والتنوع والتيارات والأحزاب، هو الذى يحقق «التطور» استجابة لضرورات الزمان والمكان ـ مع الحفاظ على وحدة الأمة فى الهوية والتواصل الحضارى أى الجمع بين الوحدة فى «الثوابت» والتعددية فى «المتغيرات».

تلك إشارات إلى بعض القواعد التى تتأسس عليها نظرة الإسلام للتعددية ـ ومنها تعددية الأحزاب السياسية.

أما من حيث مصطلح «الحزب»، فى التراث الإسلامى، فهو مصطلح معروف.. ولقد استخدم فى معرض التعبير عن أصحاب الفكر والاتجاه المتميز، ممدوحًا كان ذلك الفكر أو مذمومًا، فكما أطلق القرآن على المشركين وصف «الأحزاب».

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[1].

فقد أطلق المصطلح ـ «حزب» ـ على المجتمعين على النهج الإلهى.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[2].

ولقد كان المسلمون ـ فى صدر الإسلام ـ يسمون، أحيانًا، «حزب محمد»! وفى الحديث الشريف، يروى أنس بن مالك، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قوله: «يقدم عليكم أقوام هم أرق منكم قلوبًا» قال أنس: «فقدم الأشعريون، فيهم أبو موسى الأشعرى، فلما دنوا من المدينة كانوا يرتجزون، يقولون:

غدًا نلقى الأحبة محمدًا وحزبه[3]

بل إن السورة القرآنية التى حملت اسم «الأحزاب» لم تتحدث قط عن «أحزاب الشرك»، وإنما تحدثت عن نساء النبى، ﷺ، ورضى عنهن، واللاتى جاء فى صحيح البخارى إطلاق لفظ الحزب على تجمعهن فى إطارهن.. فعن عائشة، رضى الله عنها «أن نساء رسول الله كن حزبين، فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة، والحزب الآخر أم سلمة وسائر نساء رسول الله، ﷺ...»!

فالمصطلح ـ مصطلح ـ الحزب» ـ ليس غريبًا على تراث الإسلام.

وإذا نحن نظرنا إلى الحضارة الإسلامية، التى مثلت العمران المصطبغ بصبغة الإسلام، فإننا نجد كل «الفرق» الإسلامية ـ من الخوارج، إلى المعتزلة، إلى الشيعة الإمامية، إلى السلفية، إلى الزيدية، إلى المرجئة ـ إلخ.. إلخ.. قد نشأت جميعها نشأة

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢٢.

(٢) سورة المائدة: الآية ٥٦.

(٣) رواه الإمام أحمد.

سياسية، وكانت تيارات وتنظيمات سياسية ـ أو كانت السياسة واحدة من أبرز مهامها وقسماتها ـ فهى «أحزاب» سياسية، ذات مناهج فكرية متميزة، وذات سبل متميزة فى الإصلاح الفكرى والسياسي[1]. وكذلك الحال ـ إلى حد ما ـ مع المذاهب الفقهية ـ حنفية.. ومالكية.. وشافعية.. وحنبلية.. وزيدية.. وجعفرية.. وإباضية.. وظاهرية ـ إلخ.. فجميعها تيارات فكرية، ومدارس سياسية، وأغلبها «تنظيمات»، تبلورت مناهجها بالاجتهاد الجماعى، وتميزت كل واحدة منها عن سواها برؤية فى الإصلاح ـ الفكرى والاجتماعى والسياسى ـ ومارست العمل لوضع هذا المنهاج فى الممارسة والتطبيق..

بل إننا ننبه على أن بواكير التنظيمات الحزبية السياسية فى تاريخنا الحديث، إنما جاءت امتدادًا لتراثنا المؤمن بالتعددية، وليست تقليدًا للتجربة الغربية، فـ «الحزب الوطنى الحر» الذى كونه جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ) ـ (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م) بمصر ـ فى سبعينيات القرن التاسع عشر، وكذلك «جمعية العروة الوثقى» ـ التى كونها فى ثمانينيات ذلك القرن مع الإمام محمد عبده، وأيضًا «جمعية أم القرى» التى كونها عبد الرحمن الكواكبى (١٢٧٠ ـ ١٣٢٠هـ) ـ (١٨٥٤ ـ ١٩٠٢م) أواخر القرن التاسع عشر، هى تنظيمات حزبية سابقة ـ فى خبرات التنظيم التى جسدتها لوائحها ـ على تجارب الغرب فى التنظيم الحزبى.. فهى امتداد لتراثنا فى التعددية السياسية والفكرية.. ولخبرات حضارتنا فى التنظيمات العلنية والسرية[2]؟!.

فعلى حين عاشت الحضارة الغربية ـ قبل ليبراليتها الحديثة تنكر التعددية ـ التعددية الدينية ـ بل وحتى تعددية المذاهب داخل الدين الواحد!! ـ تميزت الحضارة الإسلامية بالإيمان بالتعددية، كسنة من سنن الله فى الخلق، المادى والبشرى والفكرى.. وتجسد إيمانها هذا فى الممارسة والتطبيق. وما غربة هذا الأمر ـ المؤسس على فطرة الحرية التى

---

(١) انظر كتابنا (تيارات الفكر الإسلامى) طبعة القاهرة ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

(٢) انظر تقديمنا (للأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ص ١١٥ ـ ١٣٣ ـ فصل «التنظيم السياسى» ـ طبعة بيروت ١٩٧٩م. وانظر لائحة «جمعية العروة الوثقى» فى الجزء الأول من تحقيقنا (للأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) جـ١ ص ٥٧٩ ـ ٥٨٥ طبعة بيروت ١٩٧٢م.

فطر الله الإنسان عليها، وعلى فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، و«الأمة» ـ الجماعة ـ الحزب ـ التى تسعى لإقامة هذه الفريضة.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١).

وما غربة هذا الأمر ـ الأصيل إسلاميًّا ـ على ذهن البعض، حتى ظنوه «وافدًا غربيًا»، إلا بفعل «الانقطاع»، الذى أحدثه فى تاريخنا الحضارى عهد التراجع والانحطاط، فبهذا «الانقطاع». غابت عن عقلنا الحديث والمعاصر صلات وأنساب وجذور للأحزاب والتنظيمات السياسية فى ديننا الإسلامى وفى تراثنا الحضارى!.

أما عن موقف الإسلام من قيام الأحزاب السياسية على «أسس طائفية ودينية»، فواجب ـ لجلاء هذا الموقف ـ الإشارة إلى عدد من الحقائق:

ـ إن الإسلام، فى المجتمعات ذات الأغلبية الإسلامية ليس فكرًا «طائفيًّا»، ولا أيديولوجية «طائفية»، بل هو عقيدة الأمة وشريعتها وأيديولوجيتها، أو على الأقل هو فكر الجمهور.. فلا يصح أن يوصف الحزب الإسلامى بأنه ـ فى هذه المجتمعات ذات الأغلبية الإسلامية ـ حزب طائفى.

ـ وأن الممنوع إسلاميًّا هو التحزب والتفرق فى أصول الدين وثوابته، أما التعددية والحزبية فى السياسة، فإنها تعددية وحزبية فى «الفروع» ـ وكل تيارات أهل السنة الفكرية تجعل الدولة ـ الخلافة والإمامة والعمران البشرى من «الفروع» ـ ومن ثم، فالاجتهادات المتعددة، والتنظيمات والأحزاب المتعددة بتعدد هذه الاجتهادات، أمر وارد وطبيعى فى نظر الإسلام.

ـ فالأحزاب الإسلامية، تقوم وتجتهد وتختلف فى «الفروع» ومن ثم، فقيامها على أساس الأيديولوجية والفكرية الإسلامية أمر طبيعى ووارد..

ـ وأن الحزب «الطائفى» هو الذى تقتصر عضويته على طائفة من المواطنين دون سواها، وهذا هو الذى يقسم المجتمع إلى طوائف مغلقة، وهو ما لا يحقق المصلحة

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

المبتغاة من وراء قيام الأحزاب السياسـية.. وهى مصلحة المشـاركة فى العمل العام، والاهتمام بشئون الأمة كلها، والإسهام فى العمران البشرى جميعه.

وإذا كانت النصرانية، مثلًا، رسالة روحية، تهتم بخلاص الروح، ومملكة السماء، وتـدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، وليس فيها نظام مدنى وشـريعة للعمران الحياتى. وإذا كانت الأحزاب الإسـلامية، إنما تقوم وتتعدد وتتنافـس فى إطار «الفروع»، وفى نطـاق «فكرية الأمة» فيجب أن تفتح عضوية الأحزاب الإسـلامية لكل مواطن مؤمن ببرنامـج هـذه الأحـزاب، بصرف النظـر عن عقيدتـه الدينية. إن الشـريعة الإسـلامية هى شـريعة الأمة، بل وشـريعة الشـرق كله. وإن فقه المعاملات الإسـلامى هو إبداع فقهـاء الأمة، فى إطار مبادئ الشـريعة، وميـراث كل الأمة، وهما ـ الشـريعة.. والفقه (القانـون الإسـلامى) ـ ليسـا بديلًا للنصرانية الشـرقية، وإنمـا هما بديـلان للعلمانية الغربية وللقانون الغربى.. فالأحزاب المؤسسـة لإقامتهما هى أحزاب قومية، وليست طائفيـة وهذه الحقيقة يؤكدها أبـو القانون المدنى الحديث الفقيه الدكتور عبد الرزاق السـنهورى باشـا (١٣١٣ ـ ١٣٩١هـ) ـ (١٨٩٥ ـ ١٩٧١م) عندما يقول: «إن المدنية الإسلامية هى ميراث حلال للمسلمين والمسيحيين واليهود من المقيمين فى الشرق، فتاريخ الجميع مشترك، والكل تضافروا على إيجاد هذه المدنية»[1].

وإذا كان مـن حـق الإنسـان ـ مسـلمًا أو غيـر مسـلم ـ أن يكون له اجتهـاد فيما هو موضوع للاجتهاد ـ أى فيما عدا الأصول الاعتقادية ـ وأن يقيم مع من يتفقون معه فى هـذا الاجتهـاد جماعة أو جمعية أو حزبًا، للتعبير عن هذا الاجتهاد، وللسـعى لوضعه فى الممارسة والتطبيق، فليس من حق هذا الإنسان أن يحجر على الآخرين الانخراط معـه فى هذا الحزب الذى أقامه ما داموا آمنوا باجتهاده والتزموا بمنهجه.. فالأحزاب المغلقـة ـ دينيـة أو عرقيـة أو فئويـة أو طبقيـة ـ لا تحقق مصلحة للأمة، بـل فيها ضرر محقـق ـ بصـرف النظر عـن الدين أو العـرق أو الفئة أو الطبقة، وإنمـا يجب أن تكون

(١) (عبد الرزاق السنهورى من خلال أوراقه الشخصية) إعداد: د. نادية السنهورى، د. توفيق الشاوى ص ١١٨ ـ طبعة القاهرة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

الأحزاب مفتوحة الأبواب ـ العضوية ـ لكل مواطن، بصرف النظر عن الانتماء الدينى أو العرقى أو الطبقى.

وإذا رأى أبناء أقلية دينية أن ديانتهم ـ سواء أكانوا مسلمين وسط أغلبية نصرانية، أو نصارى وسط أغلبية مسلمة ـ أيديولوجية تقدم اجتهادًا لإصلاح العمران السياسى والاجتماعى، فإن لهم الحق ـ المؤسس على فطرة الحرية.. وعلى حق التفكير والتعبير والمشاركة فى شئون الأمة ـ أن يقيموا لهم حزبًا مسترشدًا بهذه الأيديولوجية التى يعتنقونها، شريطة ألّا يحجروا على أحد مشاركتهم فى هذا الطريق وهذا التنظيم الذى أقاموه.

السؤال الثانى

الديمقراطية وتشكيل المجالس النيابية بالانتخاب، هما أساس النظام السياسى المعاصر، فهل هذا من الإسلام، أم أن الإسلام له نهج آخر فى الحكم يحقق مصالح العباد، وما هو؟

❋ الديمقراطية Democracy نظام سياسى اجتماعى غربى النشأة، عرفته الحضارة الغربية فى حقبتها اليونانية، وطورته نهضتها الحديثة والمعاصرة ـ وهو يقيم العلاقة بين أفراد المجتمع والدولة وفق مبدأ المساواة بين المواطنين ومشاركتهم الحرة فى صنع التشريعات التى تنظم الحياة العامة، وذلك استنادًا إلى المبدأ القائل بأن الشعب هو صاحب السيادة ومصدر الشرعية.. فالسلطة، فى النظام الديمقراطى، هى للشعب، بواسطة الشعب، لتحقيق سيادة الشعب ومقاصده ومصالحه[١].

هذا عن «فلسفة» الديمقراطية..

أما «النظام النيابى» الذى ينوب فيه نواب منتخبون عن الأمة، للقيام بمهام سلطات التشريع، والرقابة والمحاسبة لسلطات التنفيذ.. فهو من «آليات» الديمقراطية، التى توسلت بها تجاربها عندما تعذرت «الديمقراطية المباشرة» التى تمارس فيها

(١) انظر (موسوعة السياسة) ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ١٩٨١م.

الأمة كلها، وبشكل مباشر، هذه المهام والسلطات، توسلت بها إلى تحقيق مقاصد الديمقراطية.

وفى التساؤل حول موقف الإسلام من الديمقراطية، وهل هو قابل لها بإطلاق، أم رافض لها بإطلاق؟ أم أنه قابل لها مع بعض التحفظات؟ يحسن أن ننبه على أن الإسلام ـ فى الأمور الحياتية والنظم والآليات التى تحقق مقاصده وفلسفاته ـ ليس مغلقًا ضد كل ما هو «وافد» و«أجنبى».. كما أنه ليس بالذى يقبل أى «وافد» دونما نظر واجتهاد.. وإذا كان الاجتهاد فريضة دينية فى الفكر الإسلامى، فمن باب أولى أن يكون هذا الاجتهاد واردًا فى الفكر الديمقراطى؟!

وإذا كان البعض يضع «الشورى» الإسلامية بديلًا «للديمقراطية»، فإن النظرة الإسلامية الموضوعية والفاحصة للعلاقة بين الشورى وبين الديمقراطية تنفى تناقضهما بإطلاق، أو تطابقهما بإطلاق، وتزكى التمييز بينهما، على النحو الذى يكتشف مساحة الاتفاق ومساحة الاختلاف بينهما..

فمن حيث الآليات والسبل والنظم التى تحقق المقاصد والغايات من كل من الديمقراطية والشورى، فإنها تجارب وخبرات إنسانية، ليست فيها ثوابت مقدسة، عرفت التطور فى التجارب الديمقراطية، وتطورها وارد فى تجارب الشورى الإسلامية، وفق الزمان والمكان والملابسات.. والخبرة التى حققتها تجارب الديمقراطية فى تطور الحضارة الغربية، والتى أفرزت النظام النيابى، والتمثيل عبر الانتخابات، هى خبرة غنية وثروة إنسانية، لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنها تطوير لما عرفته حضارتنا الإسلامية مبكرًا، من آليات «البيعة» وتجاربها.

أما الجزئية التى تفترق فيها الشورى الإسلامية عن الديمقراطية الغربية، فإنها لا تكاد تعدو الخلاف حول:

لمن السيادة فى التشريع ابتداء؟؟

فالديمقراطية تجعل «السيادة» فى التشريع ابتداء للشعب والأمة، إما صراحة، وإما فى صورة ما أسماه بعض مفكريها «بالقانون الطبيعى»، الذى يمثل، بنظرهم، أصول الفطرة الإنسانية.

«فالسيادة»، وكذلك «السلطة» ـ فى الديمقراطية، ـ هى للإنسان ـ الأمة والشعب.

أما فى الشورى الإسلامية، فإن «السيادة» فى التشريع ابتداء، هى لله، سبحانه وتعالى، تجسدت فى «الشريعة»، التى هى «وضع إلهى»، وليست إفرازًا بشريًّا ولا طبيعيًّا. وما للإنسان فى «التشريع» هى سلطة البناء على هذه الشريعة الإلهية، والتفصيل لها، والتقنين لأصولها، والتفريع لكلياتها، وكذلك لهذا الإنسان سلطة الاجتهاد فيما لم ينزل به شرع سماوى، شريطة أن تظل «السلطة البشرية» محكومة بإطار الحلال والحرام الشرعى، أى محكومة بإطار فلسفة الإسلام فى التشريع.

ولذلك، كان الله، سبحانه وتعالى، فى الرؤية الإسلامية، هو «الشارع»، لا الإنسان. وكان الإنسان هو «الفقيه»، لا الله. فأصول الشريعة ومبادئها وثوابتها وفلسفتها إلهية، تتمثل فيها حاكمية الله، والبناء عليها، تفصيلًا وتنمية وتطويرًا وتفريعًا واجتهادًا للمستجدات، هو فقه وتقنين تتمثل فيهما سلطات الإنسان، المحكومة بحاكمية الله.

ذلك ملمح متميز للشورى الإسلامية عن الديمقراطية الغربية.

ولهذا التميز صلة وثيقة بنظرة كل من الحضارتين ـ الغربية والإسلامية ـ لحدود تدبير الذات الإلهية، وحدود تدبير الإنسان، وللعلاقة بين الإنسان وبين الله.

ففى النظرة اليونانية القديمة ـ وخاصة عند أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م) ـ نجد أن الله قد خلق العالم ثم تركه يعمل وفق طبائعه وقوانينه، دون تدخل أو رعاية إلهية دائمة.

وهذه النظرة لحدود التدبير الإلهى وجدناها فى النهضة العلمانية الغربية تعتمد على المبدأ الإنجيلى الذى يجعل ما لقيصر لقيصر وما لله لله، فيفصل بين إطار التدبير الإلهى الذى وقف عند «الخلق» ـ وبين إطار التدبير الإنسانى الذى أعطاه السيادة فى تدبير العمران الدنيوى، دونما قيود من الحاكمية الإلهية على هذه السيادة والسلطة البشرية.. ذلك أن الإنسان، فى هذه النظرة الغربية، هو «سيد الكون».. ومن هنا كانت له «السيادة» فى التشريع مع «السلطة» فى التنفيذ.

أما فى النظرة الإسلامية، فإن الله سبحانه وتعالى:

﴿لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾(١)..

فتدبيره لم يقف، فقط، عند «الخلق»، وإنما له أيضًا «الأمر»، المتمثل فى «الشريعة» التى أنزلها لتكون إطارًا، ودعا الإنسان إلى الالتزام بإطارها فى هذه الحياة.

ولأن النظرة الإسلامية لمكانة الإنسان فى الكون، لا تجعل هذا الإنسان «سيدًا للكون»، وإنما تراه «خليفة» عن «سيد الكون»، فلقد رأت هذا «الخليفة» محكومًا، فى أدائه لأمانة الاستخلاف وعمارة الأرض، ببنود عقد وعهد الاستخلاف، التى هى «الشريعة الإلهية»، فهو ـ بعبارة الإمام محمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ) ـ (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م): «عبد لله وحده، وسيد لكل شىء بعده»!

إنه ـ الإنسان ـ فى النظرة الإسلامية: حر.. قادر.. مريد.. مستطيع.. فى حدود أنه خليفة عن الله القادر بلا حدود؟!

«فالسيادة» فى التشريع ابتداء، هى للحاكمية الإلهية، المتمثلة فى «الشريعة السماوية»، وللإنسان فى «التشريع» سلطة الفقه والتقنين، شريطة ألا يخرج عن حدود الشريعة أو روحها وفلسفتها.

تلك هى، على وجه الحصر والتحديد، الجزئية التى تتمايز فيها الشورى الإسلامية عن الديمقراطية الغربية. أما ما عدا ذلك من تأسيس الحكم والسلطة على رضا الأمة ورأى الجمهور واتجاه الرأى العام، وجعل السلطة فى اختيار الحكام، وفى مراقبتهم ومحاسبتهم، وفى عزلهم هى للأمة.. وكذلك اختيار الآليات والسبل النيابية لتكوين المؤسسات الممثلة لسلطات التقنين.. والتنفيذ والرقابة.. والقضاء.. فإنها على وجه الإجمال، مساحة اتفاق بين الديمقراطية الغربية وبين الشورى الإسلامية.

وكذلك الحال مع مبدأ الفصل بين السلطات ـ سلطات التشريع والتنفيذ والقضاء ـ وهو المبدأ الذى تعارفت عليه الديمقراطية الغربية، فإنه مما تقبله الشورى الإسلامية.. بل ربما ذهبت فيه تجربة الحضارة الإسلامية أبعد مما ذهبت التجارب الغربية.. فمن الممكن ـ فى الرؤية الإسلامية ـ تمييز سلطة الاجتهاد والتقنين عن

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٤.

سلطة أهل الحل والعقد ـ الذين يختارون السلطة التنفيذية ويراقبونها ويحاسبونها ـ وفى ذلك ما يجعل سيادة القانون فوق سلطة الدولة حقيقة وفعلًا.. لا كما هى الحال، فى التجربة الديمقراطية، التى آلت فيها سلطة التشريع للبرلمان المكون من أغلبية الحزب الحاكم، والذى هو خاضع للسلطة التنفيذية، «فالهيئة البرلمانية» لحزب الأغلبية منحازة للسلطة التنفيذية إلى الحد الذى جعل سيادتها عليها اسمية إلى حد كبير، أما استقلال سلطة خاصة بالاجتهاد والتقنين، مع التزامها بحاكمية الشريعة الإلهية، فهو الأقرب إلى مبدأ الفصل الحقيقى بين السلطات، والأكثر تحقيقًا لسيادة القانون على بقية السلطات.

وهكذا رأينا انتفاء التضاد، وانتفاء التطابق بين كل من الشورى الإسلامية والديمقراطية الغربية.. ورأينا كيف يتفقان فى مساحات واسعة، وخاصة فى الآليات والسبل والمؤسسات.. مع التمايز فى قضية «السيادة فى التشريع الابتدائى».. التى جعلتها الديمقراطية الغربية للإنسان ـ صراحة، أو تحت اسم «القانون الطبيعى».. على حين جعلتها الشورى الإسلامية لله سبحانه وتعالى، مع عدم حرمان الإنسان من حق التشريع والتقنين فى إطار حدود الشريعة الإلهية وروحها وكلياتها.

إن الشورى ـ فى حقيقتها ـ هى اسم من «المشاورة».. والمشاورة: هى استخراج الرأى.. فهى ـ فى حد ذاتها ـ أدخل فى «الآليات»، آليات استخراج الرأى، وهى ـ بهذا الاعتبار ـ لا يمكن أن تكون نقيضًا لآليات الديمقراطية.. أما التمايز بينهما فإنه يأتى فى الموضوع الذى نُعْمِلُ فيه هذه الآليات ـ وفى نطاق عمل الآليات. فعلى حين لا تعرف الديمقراطية حدودًا إلهية لسلطات عمل وإعمال آلياتها.. تميز الشورى بين نطاقين من «الأمر».. أمر هو لله.. أى تدبيره الذى اختص به سبحانه:

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾.

و«أمر» أى تدبير هو فى مقدور الإنسان، وفيه تكون شوراه

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1].

(١) سورة الشورى: الآية ٣٨.

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[١].

وبحكم خلافة الإنسان عن الله سبحانه وتعالى، فإن «أمره.. وتدبيره» ـ حاكميته الإنسانية محكومة بإطار «أمر الله، وتدبيره»، التى هى حاكمية الله وحدود شريعته الإلهية..

ففى المرجعية.. وفى الفلسفة.. وفى الحدود يرد التمايز بين الشورى والديمقراطية.. وليس فى الآليات.. كما يرد التمايز فى بعض المقاصد والغايات.. فالديمقراطية ـ كفكر وضعى وفلسفة دنيوية ـ لا تمد بصرها إلى ما هو أبعد من صلاح دنيا الإنسان، بالمقاييس الدنيوية لهذا الصلاح، على حين نجد الشورى، كفريضة إلهية، تربط بين صلاح الدنيا وسعادة الآخرة، فتعطى الصلاح الدنيوى بعدًا دينيًّا، يتمثل فى المعيار الدينى لهذا الصلاح.

تلك هى أبرز وجوه الأشباه والنظائر.. وأهم الفروق بين الشورى الإسلامية والديمقراطية الغربية.

السؤال الثالث

كيف تحدد الشريعة مواصفات وسلطة رئيس الدولة وواجباته على نحو يمنع إساءة استخدامها؟ وما الضمانات التى تضعها لمنع قيام حكم ديكتاتورى؟

* فى القرآن الكريم آيتان أوجزتا حدود وطبيعة وضوابط العلاقة بين الحاكم والمحكوم. والخطاب فى أولى هاتين الآيتين يتوجه إلى الحكام:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[٢].

فإذا نهض أولوا الأمر ـ ومنهم الحكام ـ بهذه التكاليف: ـ أداء الأمانات إلى أهلها، أى النهوض بما فوضت إليهم الأمة من مهام واختصاصات، لتعود ثمرات

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

(٢) سورة النساء: الآية ٥٨.

هذا التفويض على أصحاب المصالح الحقيقية، أى الأمة التى فوضت لهم ذلك، والتزموا العدل ـ بمعناه العام ـ فى النهوض بهذا التفويض، إذا أدى أولوا الأمر هذه الأمانات، على هذا النحو العادل، استحقوا بقاء التفويض، أى طاعة الرعية للرعاة، ولذلك جاءت الآية الثانية، بمثابة جواب الشرط، فوجهت الخطاب للأمة قائلة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[١].

وفى هذه الآية الثانية نلاحظ معانى لها دلالات مهمة:

ـ فالذى يكسب الأمة صفة «الإيمان» ـ (الذين آمنوا) ـ هو الالتزام بالمرجعية الإسلامية ـ طاعة الله وطاعة الرسول (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) ـ وهى المرجعية المتمثلة فى البلاغ القرآنى، وفى السنة التشريعية الصحيحة.

ـ وطاعة أولى الأمر ـ ومنهم الحكام ـ مشروطة بأن يكونوا من الأمة المؤمنة ـ (منكم)، الملتزمة بمرجعية وحاكمية القرآن والسنة، فخروجهم عن هذا الالتزام يسقط بيعتهم ويلغى تفويضهم ويُحِلُّ الرعية من طاعتهم. وعن هذه الحقيقة من حقائق هذا التعاقد بين الحاكم والمحكوم جاءت عبارة الصديق أبى بكر، رضى الله عنه، فى أول خطاب له عقب البيعة له، عندما قال: «أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم..»[٢].

ـ والمرجعية فيما يحدث من تنازع بين الحاكم والمحكوم هى للقرآن والسنة.

﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

ومنطقة التنازع هذه لا يمكن أن تكون إلا فى شئون العمران الدنيوى؛ لأن فرائض الدين وعقائده وشعائره قد فصَّلها الوحى وبينتها السنة على النحو الذى لم يجعل التنازع فيها واردًا.

---

(١) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٢) النويرى (نهاية الأرب فى فنون الأدب) جـ١٩ ص ٤٢. طبعة دار الكتب المصرية. القاهرة.

.. وعن هذه الحقيقة ـ فى تحديد المرجعية عند التنازع ـ جاء النص فى أول دستور لأول دولة إسلامية ـ الدستور الذى حكم دولة المدينة على عهد رسول الله ﷺ ـ والذى سمى بـ «الصحيفة» و«الكتاب» ـ فنصت «مادته» السادسة والأربعون على:

«وأنه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يُخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ـ وأن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره»[1].

ـ ولأن الإسلام منهاج شامل للدولة وكل ميادين العمران، جعلت هذه الآية الالتزام بمرجعية الكتاب والسنة فى المنازعات الحياتية ـ سياسة الدولة وعمران المجتمع ـ شرطًا لصدق إيمان أطراف النزاع ـ الرعية والرعاة ـ بالله واليوم الآخر.

﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾

على هذا النحو أوجزت الآيتان مبادئ وأحكام وضوابط: تفويض المحكومين للحكام، وأداء الحكام لأمانات التفويض، وارتباط طاعة أولى الأمر ـ الذين ورد التعبير عنهم بصيغة الجمع ـ تزكية للجماعية! ـ وليس بصيغة المفرد ـ نفيًا للانفراد!.. ارتباط طاعة الرعية لهم بكونهم من الأمة المؤمنة والمطيعة لله وللرسول، وتحديد المرجعية الحاكمة عند التنازع ـ مرجعية الكتاب والسنة.

وانطلاقًا من هذه الضوابط القرآنية.. ومن السنة العملية التى جسدتها دولة الرسول، ﷺ، ودولة الخلافة الراشدة ـ وهما فى الفكر السياسى الإسلامى بمثابة «السوابق الدستورية»ـ كان البناء السياسى الذى أبدعه أئمة الإسلام فى الفكر السياسى حول «مواصفات وسلطات رئيس الدولة» وحول الضمانات التى تحول بين السلطة وبين إساءة استخدام صلاحياتها.

ـ ففى مباحث «الإمامة والخلافة» نجد حديثًا مفصلًا عن صفات الإمام والشروط التى لا بد وأن تتوافر فيه. ويمكن إجمال هذه الشروط فى خمسة شروط:

---

(١) انظر نص الدستور فى (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة) ص ١٥، ٢١. جمعها وحققها: د. محمد حميد الله. طبعة القاهرة ١٩٥٦م.

١ ـ **أن يكون حرًّا**، حتى يستطيع التصرف فيما فوض إليه من عمل، وهذا الشرط، الذى كان يراد به ـ قديمًا ـ نفى الرق والأسر ـ يمكن أن يشمل الآن: نفى العمالة السياسية والحضارية والتبعية للأعداء!

٢ ـ **وأن يكون عاقلًا**، بما يعنيه العقل، ليس فقط من نفى الجنون، بل ونفى الوعى الزائف، الذى يحجب حقيقة العقل ونعمته عن أسرى الوعى الزائف!

٣ ـ **وأن يكون مسلمًا**، لأن صاحب السلطة العليا فى الدولة الإسلامية هو «سائس للدنيا بالدين، وحارس للدين».. فله ـ مع المهام الدنيوية مهام دينية، كواحد من المؤمنين وإمام لهم ـ وليس كمتميز عن المؤمنين فى الإيمان ـ عهدت إليه الأمة باختصاصات فوضته فى القيام بها.

٤ ـ **وأن يكون ذا رأى ومعرفة بالأمور**، حتى ينهض بها، وحتى يستطيع أن يختار ويولى من لا بد من توافر الرأى والمعرفة فيهم.

٥ ـ **وأن يتصف بالعدالة**، بالمعنى الشامل للعدالة ـ بمعنى ألا يكون فاسقًا ـ فسق رأى واعتقاد، أو فسق جارحة ـ لأن منصب الإمام أعظم من «الشاهد» ومن «الأمير» ومن «القاضى ـ الحاكم».. وإذا كانت العدالة شرطًا فى الشاهد والأمير والقاضى، فهى فى الإمام أولى وأوجب(١)...

تلك هى خلاصة الفكر الإسلامى فى «صفات» رئيس الدولة والشروط الواجب توفرها فيه.

ـ أما سلطات رئيس الدولة وواجباته، فإنها سلطات «التنفيذ للشريعة والقانون والأحكام».

فالإمامة والخلافة ـ رئاسة الدولة ـ وما نسميه اليوم بـ «الحكومة» هى «السلطة التنفيذية»، فليس لرئيس الدولة سلطان فى القضاء ولا فى التشريع، وحتى توليته وتعيينه للقضاة، فإنها لا تعنى تبعيتهم له، فهم نواب عن الأمة، ولذلك لا ينعزلون

(١) انظر كتابنا (الإسلام وفلسفة الحكم) ص ٣٦٠ طبعة القاهرة ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

بموت رئيس الدولة أو عزله ـ رغم تعيينهم بقرار منه ـ على حين ينعزل الولاة بعزله أو موته..

وهذه الحقيقة ـ التى تؤكد فصل وتميز السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية ـ فى فكر الإسلام وفى تجربة حضارته ـ تشير إلى معنى آخر بالغ الأهمية فى ضبط حدود ومعنى «الدولة» فى الفكر السياسى الإسلامى، يميزها عن معناها وحدودها فى الفكر السياسى الغربى.. «فالدولة» فى الفكر السياسى الغربى كيان معنوى مطلق، ودائم، وله «السيادة».. ورغم وظيفته «التنفيذية» إلا أنه يجمع إليها ـ عمليًّا ـ سلطة التشريع!

«فللدولة» سيادة، وهى تشرع بحكم هذه «السيادة» التى ادعتها لنفسها.. والحزب صاحب الأغلبية فى البرلمان هو ـ الجامع ـ عمليًّا ـ بين سلطة التنفيذ ـ الممثلة فى «حكومته» ـ وبين سلطة التشريع ـ الممثلة فى «هيئته البرلمانية»!. الأمر الذى يضخم من حجم «الدولة» على حساب «الأمة» ومؤسساتها!

أما فى النظرة الإسلامية، فالدولة ليست كيانًا ثابتًا ولا مطلقًا ولا صاحب «سيادة»، وإنما هى من «الدولة» بمعنى «التداول..والتبدل»! وليس لها حق التشريع، حتى وإن كان الإمام فيها من المجتهدين؛ لأن «السيادة» فى التشريع هى للحاكمية الإلهية، وللشريعة، التى هى وضع إلهى.. وأهل الاجتهاد والفقه والتقنين مستقلون عن الحزب الحاكم وعن السلطة التنفيذية. فسيادة الشريعة، واستقلال هيئة الاجتهاد والفقه والتقنين ضابط يحدد نطاق السلطة التنفيذية ويحدها ويحصرها فى «التنفيذ» للقانون. الأمر الذى يجعل السيادة فى الدولة الإسلامية ليست «للدولة» وإنما هى «للشريعة».. فتظل الأمة هى المستخلفة عن الله، وتظل كل السلطات مجردة من فكرة «السيادة»، التى تفتح للطغيان أوسع الأبواب؟!.

ـ وإذا كان تعدد السلطات ـ سلطة اختيار الحاكم ومراقبته ومحاسبته وعزله (أهل الحل والعقد) ـ وسلطة القضاء، والحكم بين الناس ـ وسلطة الاجتهاد والفقه والتقنين ـ وسلطة التنفيذ ـ رئيس الدولة والحكومة... إذا كان تعدد هذه السلطات واستقلالها ضمانًا من ضمانات أن لا تنفرد السلطة التنفيذية بالأمور فتستبد بها، فإن النموذج الإسلامى ـ النظرى والتطبيقى ـ قد تميز بميزة مهمة فى هذا الميدان، ألا

وهى توسيع نطاق سلطات الأمة، بواسطة مؤسساتها، فى ذات الوقت الذى يزيل فيه وهم «السيادة» عن «الدولة» ويحدد نطاق تفويضها فى «تنفيذ» الشريعة والقانون.. ونحن عندما نتأمل مسيرة الحضارة الإسلامية نرى هذه الحقيقة، ونعلم منها سر إبداع الأمة لهذه الحضارة، فى مختلف ميادينها، رغم أن الانحراف كان قد وقع من السلطة التنفيذية ـ «الدولة» ـ عن الشورى إلى «الملك العضود».. فلقد بقى نطاق هذا الانحراف محدودًا بمحدودية نطاق سلطان «الدولة». وظلت الأمة، بواسطة مؤسساتها ـ مؤسسات الاجتهاد والإبداع الفكرى والتعليم والصحة والقضاء والاقتصاد بل والجهاد إلخ.. وجميعها مؤسسات أهلية، قامت على الأوقاف والجهود الطوعية، وبها ظلت الشريعة حاكمة، تصبغ الحضارة بالصبغة الإسلامية.. بل وتقسر حتى الحاكم المنحرف على «إعلان» الالتزام بالهوية الإسلامية وحاكميتها!

هكذا كان تضييق النموذج الإسلامى لنطاق «الدولة»، وتوسيعه لنطاق «الأمة» أعظم الضمانات ضد الاستبداد. ثم ضد عموم بلوى الاستبداد عندما سلكت «الدولة» طريق الاستبداد!

كما كانت الشروط التى اشترطت فى رأس الدولة عاملًا آخر من عوامل الضمانات التى ترجح كفة المشاركة على كفة الاستبداد.

وكان تعدد السلطات ـ المتجسدة فى مؤسسات ـ أهم هذه الضمانات ضد الانفراد بالسلطة الذى هو المقدمة للطغيان. وصدق الله العظيم:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾[1].

السؤال الرابع

ما النظام الذى وضعه الدين الحنيف لضمان أن يكون للرعية رأيها فى حياتها ومصير وطنها ولإلزام الحاكم بالأخذ به؟ وهل شرّع للمسلمين وسائل معينة للرقابة على الحاكم وتقويمه وعزله إن لم يحقق مطالبهم الحياتية والدينية؟

(١) سورة العلق: الآيتان ٦، ٧.

* بعد أن وضع الإسلام «مبادئ» العلاقة بين الحكام والمحكومين، فأوجب على الحكام ـ وكل ولاة الأمور ـ أداء الأمانات التى فُوِّضَتَ إليهم إلى أهلها، مؤكدًا بذلك أن الرعية هى صاحبة الحقوق، وأن كل ولاة الأمور عمال لديها وأجراء عندها. وأكد، كذلك، اعتماد معيار «العدل» فى الحكم بين الناس، ثم رتب على ذلك وجوب طاعة الرعية لولاة الأمر، ضابطًا الطاعة بكونها فيما يحقق طاعة الله دون معصيته، ومنبهًا على أن المرجعية عند التنازع إنما هى لكتاب الله وسنة رسوله، ﷺ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾[1].

بعد أن جاء الوحى «بالمبادئ» المقننة لهذه العلاقة، جاء البيان النبوى ـ من السنة العملية والقولية ـ ليضع «النظم» التى تكفل سيادة هذه «المبادئ» فى المجتمعات الإسلامية، وذلك لأن الإسلام ليس مجرد «فكر نظرى» ولا «وصايا أخلاقية»، وإنما تميزت شريعته بأن رسولها، ﷺ، قد جسدها فى «الواقع» أمة ودولة وحضارة، عاشها الناس وتواتر بذكرها التاريخ.

وهذه «النظم» التى جسدتها مقومات دولة المدينة، على العهد النبوى والخلافة الراشدة، وممارساتها، جاء «الفكر السياسى الإسلامى» ففصل الحديث حولها، حتى قامت فى هذا الفكر معالم هادية فى الضمانات المقررة للرعية كى يكون لها رأيها فى شئون حياتها ومصير وطنها، والرقابة والمحاسبة والتقويم لولاة أمورها إن هم انحرفوا عن أداء الأمانات والعدل فى الحكم بين الناس..

ونحن إذا شئنا ـ فى حدود ما يسمح به المقام ـ أن نشير إلى بعض من أبرز هذه «النظم ـ الضمانات» التى تجعل للأمة السلطة الحقيقية، بحكم خلافتها عن الله، سبحانه وتعالى، على ولاة أمورها، بحكم نيابتهم عن الأمة فى تصريف ما فوضت إليهم من أمور، فإننا نجد فى مقدمة هذه «النظم ـ الضمانات»:

---

(١) سورة النساء: الآيتان ٥٨، ٥٩.

أولًا: فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. وهى التى تمثل الدعوة الإلهية الموجهة إلى الأمة كى تشارك فى شئون الدولة والمجتمع وسائر ميادين العمران، ليس باعتبار هذه المشاركة مجرد «حقوق» للرعية، وإنما باعتبارها «فريضة إلهية» و«واجبًا دينيًّا» و«تكليفًا شرعيًّا».. فصاحب «الحق» يستطيع أن يتنازل عنه إن هو أراد واختار، لكن الإسلام يجعل من الاهتمام بالشئون العامة، والمشاركة فى هذه الشئون ـ وبها يتكون «الرأى العام» المراقب والمحاسب لولاة الأمور، بل ولنفسه!.. فريضة إلهية يأثم من يقصر فى النهوض بأدائها، بل ويجعلها فريضة كفائية، أى فريضة اجتماعية، هى أهم وآكد من فرائض العين ـ الفردية ـ بدليل أن التخلف عن فرض العين ـ كالصلاة والصوم مثلًا ـ يقع إثمه على الفرد، بينما التخلف عن الفرض الكفائى ـ الاجتماعى ـ كالمشاركة فى شئون المجتمع، والمراقبة والمحاسبة لأولى الأمر مثلًا ـ يقع إثمه على الأمة جمعاء!

فبفريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يؤسس الإسلام المناخ والعوامل والحوافز الصانعة «للرأى العام» المشارك فى شئون الأمة، حتى لنستطيع أن نقول إن المسلم لا يستطيع أن يقيم دينه كفرد، ولا بد له، كى يقيم هذا الدين، من أن يعيش عضوًا حيًّا فى جسد حى لأمة واحدة «مثل المسلمين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[(١)].

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[(٢)].

و«من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم».

فالقيام بهذه الفريضة صفة من صفات خيرية الأمة المؤمنة:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[(٣)].

(١) رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد.

(٢) سورة المؤمنون: الآيتان ٥٢.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

وإذا كان التكليف بهذه الفريضة موجهًا إلى الأمة فلقد دعا القرآن إلى إقامة المؤسسات التى تنهض بهذا الفرض الاجتماعى.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(1).

بل لقد علمنا القرآن أن هؤلاء الذين ينهضون بهذه الفريضة ـ بشكل «منظم، ومؤسسى» ـ عندما يتواصون بالحق، ويصبرون على نصرته، هم الذين يرفعون لعنة الخسران عن أن تعم جنس الإنسان!

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾(2).

وثانيًا: لم يكتف الإسلام فى ميدان «النظم ـ الضمانات» بالثقة القائمة بين الرعية وولاة أمورها، حتى عندما كان ولاة الأمور رسولًا ينزل الوحى ليقوِّم اجتهاداته كحاكم للدولة، وصحابة كانوا كالنجوم بأيهم اقتدى السارى اهتدى إلى سبل الرشاد! وإنما جسدت سنة نبيه، ﷺ، فى تجربة دولة المدينة معالم «المؤسسات» التى تمارس الرعية بواسطتها المشاركة فى الشئون العامة والمراقبة والمراجعة والمحاسبة لمن يحملون الأمانات.

* ففى بيعة العقبة ـ التى مثلت «الجمعية التأسيسية» التى أقامت الدولة الإسلامية، وعقدت العقد الحقيقى لنشأتها ـ عندما حان وقت البيعة، طلب الرسول، ﷺ، من حضور هذه البيعة «اختيار» أولى المؤسسات الدستورية التى قامت فى ذلك التاريخ البعيد والمناخ البسيط! فقال للأنصار: «اختاروا منكم اثنى عشر نقيبًا».. فقامت مؤسسة «النقباء الاثنى عشر» التى مثلت «الوزراء ـ المؤازرين ـ والمشيرين» فى الدولة الإسلامية الأولى، وقامت «بالاختيار»! وأعضاء هذه «المؤسسة» هم: أسيد ابن خضير، وسعد بن خيثمة بن الحارث، ورفاعة بن عبد المنذر، وأبو أمامة أسعد بن

---

(1) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

(2) سورة العصر: الآيات ١ـ٣.

زرارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، ورافع بن مالك بن العجلان، والبراء ابن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وسعد بن عبادة بن دليم، والمنذر بن عمرو ابن خنيس، وعبادة بن الصامت[١]...

ومع «مؤسسة» النقباء الاثنى عشر ـ «الوزراء ـ المؤازرين ـ والمشيرين».. قامت فى ذلك التاريخ «هيئة المهاجرين الأولين» ـ من قادة بطون قريش، السابقين إلى الإسلام ـ فكانت هيئة «الأمراء» ـ وفيها كان: أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن ابن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وأبو عبيدة بن الجراح[٢]..

ولقد كانت لكل مؤسسة من هذه المؤسسات ـ الدستورية.. السياسية ـ اختصاصاتها المحددة فى الإمارة والوزارة والاستشارة وتنظيم العلاقة بين الرعية والرعاة[٣].

لقد كان الرسول النبى معصومًا فيما يبلِّغ عن الله، لكنه، كحاكم للدولة، كان مجتهدًا.. ومع أن الوحى كان ينزل ليقوِّم اجتهاداته إذا صادفت غير الأولى، فلقد أقام دولة الإسلام على الشورى.. وعلى شورى «المؤسسات».. فسن للمسلمين سنة «المؤسسات» التى تجعل للأمة «نظمًا» تحقق «ضمانات» ألَّا يفضى الانفراد بالسلطان إلى الطغيان:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾[٤].

وثالثًا: حرص الفكر الإسلامى ـ الذى يجب أن يكون مادة التربية والصياغة لعقل الأمة ووجدانها، ومن ثم المحرك والمحدد لسلوكها وممارساتها ـ حرص هذا الفكر على تضييق نطاق اختصاصات «السلطة ـ الدولة» فى حدود «التنفيذ» للقانون، مع

---

(١) انظر (موسوعة السياسة) مادة «البيعة» ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٧٩م.
(٢) انظر كتابنا (الإسلام وحقوق الإنسان) ص ١٠٨ طبعة القاهرة ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩م.
(٣) انظر كتابنا (الإسلام وفلسفة الحكم) ص ٥٦ وما بعدها. طبعة القاهرة ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩م.
(٤) سورة العلق: الآيتان ٦، ٧.

التأكيد على هيمنة الشريعة الإلهية على الأمة والدولة، ومع استقلال هيئة الاجتهاد والتقنين عن «السلطة ـ الدولة». وكل ذلك لحساب توسيع دائرة اختصاصات «الأمة» وسلطانها وسلطاتها، وهذا «ضمان» ضد جور ولاة الأمر، وخاصة إذا تجسد هذا «الفكر» فى «ضوابط قانونية» وفى «مؤسسات»، وهو ما جسدته السنة النبوية العملية، كسابقة دستورية فى تاريخ دولة الإسلام وحضارته.

وحرص هذا الفكر الإسلامى أيضًا على تأكيد أن حامل الرسالة والأمانة هى «الأمة»، فهى المستخلفة عن الله، سبحانه وتعالى، وليس الحاكم.. بل ولا طبقة من الطبقات أو شريحة من الشرائح الاجتماعية. فكل من يلى سلطة أو يتولى مسئولية، إنما هو نائب عن الأمة وأجير لديها، فالإسلام دين الجماعة.

وفى هذا الفكر ـ الذى يوسع اختصاصات «الأمة» ويضيق من نطاق سلطان «الدولة» ـ إذا هو أصبح الزاد الذى يغذى عقل الأمة ووجدانها ـ «ضمان» من ضمانات إلجام غرائز الاستبداد لدى ولاة الأمور.

ورابعًا: وأخيرًا وليس آخرًا ـ لقد انفرد الإسلام ـ انطلاقًا من فلسفته المتميزة التى ارتفعت «بحقوق الإنسان» إلى مرتبة «الفرائض.. والضرورات» ـ انفرد بجعله مراقبة الأمة لولاة أمرها، ومحاسبتها لهم، وأخذها على أيديهم، بالعزل السلمى أو الثورى ـ فريضة دينية، وواجبًا شرعيًّا، وليس مجرد «حق» من حقوق الإنسان؟!.

لقد كان نص البيعة ـ أى صيغة التعاقد ـ بين الرسول، ﷺ، وبين «المؤمن» شاملًا لـ «السمع والطاعة» ـ عندما تكون الطاعة لله، وأيضًا على «أن نقول بالحق أينما كنا، ولا نخاف فى الله لومة لائم»[1].

وكان الرسول، ﷺ ـ وهو رأس ولاة الأمر ـ يربى المسلمين على فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. وبفكر مستقبلى يقنن لما سيأتى من عهود الجور والانحراف، فيقول ـ فى التربية السياسية للأمة على مقاومة الجور: «إنه يستعمل

(١) من حديث عبادة بن الوليد بن عبادة ـ عن أبيه، عن جده ـ رواه مسلم.

عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضى وتابع»[1].

ففى مواجهة الجور: الحد الأدنى للموقف المقبول إسلاميًّا هو الكراهة والرفض، والموقف الأولى والواجب هو الإنكار ـ بأى وجه أمكن من وجوه الإنكار ـ أما الرضى والمتابعة فهو موقف «الإمعات» الذى نهى عنه الإسلام!

وعندما سأل الصحابى حذيفة بن اليمان، رضى الله عنه، رسول الله ﷺ، عن «مشروعية الثورة» فى تغيير نظم الجور والفسق والضعف، جاءت سنة الإسلام واضحة فى هذا المقام:

«قال حذيفة بن اليمان: يا رسول الله أيكون بعد الخير الذى أعطينا شر، كما كان قبله؟

ـ قال: نعم.

ـ قلت: فبمن نعتصم؟

ـ قال: بالسيف»[2]!.

ولقد اتفق جمهور أئمة الإسلام ومذاهبه على «وجوب» ـ وليس فقط «جواز» ـ الثورة لتغيير النظم الجائرة إذا هى ظلمت، أو فسقت، أو ضعفت عن النهوض بالأمانات المفوضة إليها، مع اشتراط أغلبهم لتحقق شروط التمكن التى تجعل نجاح الثوار مؤكدًا أو راجحًا.. حتى لا يكون الأمر تمردًا وفتنة تجر على الأمة الويلات دون تحقيق مقاصد التغيير[3]!

فالجور والفسق.. فسق الرأى أو الجارحة ـ والضعف، يسقط ـ تلقائيًّا ـ واجب الطاعة عن الأمة للحكام، ويُحلُّ الرعية من بيعتها لهم. وعلى هذه الحقيقة أجمع

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أبو داود والإمام أحمد.

(٣) انظر كتابنا «الإسلام وفلسفة الحكم» ص ٤٨٥ وما بعدها.

علماء الإسلام، وعبرت عنها كلمات الصديق أبى بكر، رضى الله عنه: «أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم»!

فإذا لم يعتزل الحاكم، كان على الأمة ـ فريضة وتكليفًا ـ عزله بالسلم إن أمكن.. وإلا فبالثورة، إذا أمكن ذلك دون فتنة تفوق شرورها ومفاسدها شرور ومفاسد جور الحكام الجائرين!

تلك بعض من «النظم» و«الضمانات» التى جاء بها الإسلام لتحقيق سلطان الأمة على حياتها، وعلى مصير وطنها، والتى تضمن تصويب مسار السلطة فى النظام الإسلامى حتى تحقق وظيفتها الإسلامية: أداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بالعدل بين الناس!

السؤال الخامس

هل يمكن إقامة تنظيم دولى على أسس دينية، كجامعة الدول الإسلامية مثلًا؟ وهل يجوز لدولة إسلامية أن تبرم حلفًا عسكريًّا مع دولة غير إسلامية أو أن تدخل فى وحدة معها؟

* المسلمون، تتنوع شعوبهم وأجناسهم وألسنتهم وقومياتهم، لكن هذا التنوع لا يعدو أن يكون تمايزًا فى إطار «أمة واحدة»، وحدها الإسلام فى العقيدة والشريعة والحضارة ومعايير الأخلاق والسلوك. ووحدة الأمة ـ أى الجماعة ـ الإسلامية حقيقة قرآنية تعبر عن إرادة إلهية.

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾(١).

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾(٢).

وهذه الوحدة، التى صنعها الإسلام، وصبغها بصبغته، قد أهَّلت الأمة الواحدة لأن تعيش فى وطن واحد، سماه علماء الإسلام ومؤرخوه «دار الإسلام».. وهذا

(١) سورة الأنبياء: الآية ٩٢.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٥٢.

الوطن الإسلامى عاش حينًا من الدهر تحت سلطة «دولة» واحدة، وحينًا آخر تعددت فيه «الدول». لكن كل تاريخ الإسلام والمسلمين، إلى ما قبل التجزئة التى فرضتها الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة على المسلمين، قد احتفظ ـ حتى مع تعدد «الدول» ـ بوحدة الأمة فى العقيدة والشريعة والحضارة ومعايير الأخلاق والسلوك.. بل واحتفظ كذلك بوحدة «الدار ـ الوطن».. فكان المسلم ـ بل والمواطن من أهل الكتاب ـ ينتقل بحرية تامة عبر الأقاليم والإمارات والولايات، ويقيم أنَّى شاء وحيث أراد، فيعامل ـ دون إجراءات جديدة ـ معاملة المواطنين فى المكان الذى يستقر فيه، له كل حقوقهم وعليه ما عليهم من واجبات.. فجمعت «دار الإسلام» بين «الوحدة» فى حقوق المواطنة وواجباتها، وبين «تنوع وتعدد» «الدول» و«الحكومات».

ولذلك، استقر الرأى فى الفكر السياسى الإسلامى ـ منذ بداية تاريخه وحتى عصرنا الحديث ـ على أن الإسلام جنسية ووطن ودار واحدة لأمة واحدة، لا تمزقها «الجنسيات» ـ بالمعنى الغربى ـ و«الامتيازات» الخاصة بالجنسيات المختلفة.

وعندما ورد إلى الأستاذ الإمام محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ] ـ [١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] ـ وهو مفتى الديار المصرية ـ سؤال: «فى المسلم إذا دخل بمملكة إسلامية، هل يُعَدّ من رعيتها؟ له ما لهم وعليه ما عليهم، على الوجه المطلق؟ وهل يكون تحت شرعها فيما له وعليه، عمومًا وخصوصًا؟ وما هى الجنسية عندنا؟ وهل حقوق الامتيازات، المعبر عنها عند غير المسلمين «بالكبيتولاسيون» ـ (Capitalations) ـ موجودة بين ممالك الإسلام مع بعضهم بعضًا؟؟».. جاء فى فتوى الأستاذ الإمام على هذا السؤال:

«... إن وطن المسلم من البلاد الإسلامية هو المحل الذى ينوى الإقامة فيه، ويتخذ فيه طريقة كسبه لعيشه، ويقر فيه مع أهله، إن كان له أهل. ولا ينظر إلى مولده، ولا إلى البلد الذى نشأ فيه، ولا يلتفت إلى عادات أهل بلده الأول، ولا إلى ما يتعارفون عليه من الأحكام والمعاملات، وإنما بلده ووطنه الذى يجرى عليه عرفه وينفذ فيه حكمه هو البلد الذى انتقل إليه واستقر فيه، فهو رعية الحاكم الذى يقيم تحت ولايته، دون

سواه من سائر الحكام، وله من حقوق رعية ذلك الحاكم ما لهم، وعليه ما عليهم، ولا يميزه عنهم شيء لا خاص ولا عام.

أما الجنسية فليست معروفة عند المسلمين، ولا لها أحكام تجرى عليهم، لا فى خاصتهم ولا عامتهم، وإنما الجنسية عند الأمم الأوروبية تشبه ما كان يسمى عند العرب عصبية، وهو ارتباط أهل قبيلة واحدة أو عدة قبائل بنسب أو حلف يكون من حق ذلك الارتباط أن ينصر كل منتسب إليه من يشاركه فيه، وقد كان لأهل العصبية ذات القوة والشوكة حقوق يمتازون بها على من سواهم.

جاء الإسلام فألغى تلك العصبية، ومحا آثارها، وسوى بين الناس فى الحقوق، فلم يبق للنسب ولا لما يتصل به أثر فى الحقوق ولا فى الأحكام. فالجنسية لا أثر لها عند المسلمين قاطبة، فقد قال ﷺ: «إن الله أذهب عنكم عُبِّية الجاهلية ـ (أى عظمتها) ـ وفخرها بالآباء، وإنما هو مؤمن تقى وفاجر شقى، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب»[(١)]، وروى كذلك عنه: «ليس منا من دعا إلى عصبية»[(٢)].

وبالجملة، فالاختلاف فى الأصناف البشرية، كالعربى والهندى والرومى والشامى والمصرى والتونسى والمراكشى، مما لا دخل له فى اختلاف الأحكام والمعاملات بوجه من الوجوه. ومن كان مصريًّا وسكن فى بلاد المغرب وأقام بها جرت عليه أحكام بلاد المغرب، ولا ينظر إلى أصله المصرى بوجه من الوجوه.

وأما حقوق الامتيازات، المعبر عنها «بالكبيتولاسيون» فلا يوجد شيء منها بين الحكومات الإسلامية قاطبة.. هذا ما تقضى به الشريعة الإسلامية، على اختلاف مذاهبها، لا جنسية فى الإسلام، ولا امتياز فى الحقوق بين مسلم ومسلم، والبلد الذى يقيم فيه المسلم من بلاد المسلمين هو بلده، ولأحكامه عليه السلطان دون أحكام غيره. والله أعلم...»[(٣)].

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) وفى البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه والإمام أحمد: «ليس منا من دعى بدعوى الجاهلية.

(٣) تاريخ هذه الفتوى ٩ رمضان ١٣٢٢هـ ـ ١٧ نوفمبر ١٩٠٤م ـ انظرها فى (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) جـ ٦ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٥. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت ١٩٧٤م.

هكذا استقر الفكر السياسى الإسلامى على أن وحدة الأمة فى الدين والحضارة قد أثمرت واستلزمت وحدة دار الإسلام، حتى مع تعدد الإمارات والولايات والحكومات، بل إننا نستطيع أن نقول إن الخلافة الإسلامية، حتى عندما كانت واحدة، قد تميزت فى دار الإسلام، تحت حكمها، الولايات والأقاليم!

وعندما فرض الاستعمار الغربى ـ وخاصة بعد سقوط الخلافة العثمانية ١٩٢٤م ـ التجزئة الكاملة على عالم الإسلام، ذهب الفكر الإسلامى يبحث عن شكل جديد يحقق «وحدة» دار الإسلام، ويحافظ على وحدة الأمة، دون تجاهل لواقع التجزئة، وتعدد الدول والحكومات، أو قفز على «الواقع» الذى كرسه الاستعمار. وكان من أبرز الاجتهادات الإسلامية فى هذا الميدان، كتاب الفقيه الأستاذ الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا [١٣١٣ ـ ١٣٩١هـ] ـ [١٨٩٥ ـ ١٩٧١م]: «فقه الخلافة.. وتطورها»[١].. والذى قدم فيه صورة الخلافة الإسلامية المنشودة فى شكل «عصبة أمم إسلامية» تتعدد فيها الحكومات، مع إعادة الوحدة إلى دار الإسلام.

هذا عن الموقف الإسلامى من العلاقة الإسلامية بين حكومات وأقطار عالم الإسلام.. وهو موقف له منطلق عَقَدِيّ، مؤسس على وحدة الأمة، التى تستدعى ـ للمحافظة على مقوماتها ـ وحدة الدار، وهو ـ فى ذات الوقت ـ يلبى احتياجات وضرورات التضامن التى تفرضها صراعات القوى والمصالح على الساحة العالمية.

إن خريطة عالمنا المعاصر تتحرك نحو إقامة التكتلات والوحدات، سواء بروابط إقليمية، أو حضارية، أو أيديولوجية.. فالوحدة الأوروبية، وإن استهدفت المصالح المادية، إلا أن الإيديولوجية الليبرالية، والتراث النصرانى، والبعد الحضارى الغربى، هى منطلقات ومكونات فى صنع هذه الوحدة، بل إن هذه العوامل التى تجعلها تفتح أبوابها لشعوب أوروبا الشرقية، التى تشترك معها فى هذه المنطلقات، بعد أن انهار التكتل الأيديولوجى الماركسى الذى كان يجمعها ـ منظمة الكوميكون وحلف

(١) هذا الكتاب ـ فى الأصل ـ رسالة دكتوراه ـ بالفرنسية ـ من باريس ١٩٢٦م. انظر ترجمته العربية. طبعة القاهرة ١٩٨٩م.

وارسو ـ وكذلك الحال مع المنظمات الإقليمية، عربية وإفريقية وآسيوية.. وفى أمريكا اللاتينية إلخ.. إلخ.

وعندما حدث حريق المسجد الأقصى فى ٢٨ أغسطس ١٩٦٩م اهتز الضمير الإسلامى.. فانعقد أول مؤتمر قمة للبلاد الإسلامية فى سبتمبر من نفس العام، وتأسست فى العام التالى «منظمة المؤتمر الإسلامى».. وهى التى تمثل ـ وخاصة إذا دبت فيها روح الحياة الحقة ـ عصبة الشعوب الإسلامية.. وإذا حدث وعادت أغلب حكوماتها عن خلط الإسلام بالعلمانية فى تشريعاتها، والتزمت بالإسلام عقيدة وشريعة وحضارة وخلقًا، فتحولت إلى «دول» إسلامية، أمكن، يومئذ، أن تتطور من منظمة «مؤتمر إسلامى» إلى منظمة «دول» إسلامية. وبهذا التطور، تكون قد استجابت لضرورات الواقع المعاصر فى التكتل على أساس المصالح المادية، وحققت المبدأ الإسلامى فى وحدة دار الإسلام، المؤسسة على مبدأ وحدة أمة الإسلام فى العقيدة والشريعة والحضارة والأخلاق.

وجدير بالذكر، أن وحدة أمة الإسلام، ووحدة دار الإسلام لا تعنى عزلة المسلمين عن المشاركة فى الحياة الدولية، سواء من خلال المنظمات الإقليمية مع الدول غير الإسلامية، أو من خلال المنظمات الدولية، بل ومن خلال الأحلاف مع الدول غير الإسلامية، ما دامت هذه المشاركات والتحالفات تحقق للمسلمين مصلحة، أو تدفع عنهم مضرة، أو تحقق نفعًا عامًّا للإنسانية، المسلمين منها وغير المسلمين. فتحقيق المصلحة الشرعية المعتبرة، للمسلمين وللإنسانية كلها، ودفع المضرة والمفسدة عن المسلمين وعن الإنسانية، هما معايير الموالاة والمعاداة فى علاقات المسلمين بغير المسلمين. وهذه المعايير هى التى أوجزت التعبير عنها آيات القرآن الكريم التى تقول:

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا
يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾[١].

فالذين لا يقاتلون المسلمين فى الدين، ولا يخرجونهم من ديارهم ـ بالاقتلاع والتهجير، أو باغتصاب مقدراتهم وحريتهم فى اتخاذ قرارات إدارة شئونهم! ـ ولا يظاهرون ويعينون على إخراجنا من ديارنا، نحن فى حل من إقامة العلاقات والتحالفات ـ على اختلاف درجاتها معهم، ما دامت محققة لمصلحة من المصالح الشرعية المعتبرة للإسلام والمسلمين.

السؤال السادس

ما مدى الصواب فى القول بأن للدول الإسلامية المعوزة حقًّا أصيلًا فى ثروات الدول الإسلامية الثرية، وأن للمسلم ـ بصفته هذه ـ حق العمل والعيش فى أى بلد إسلامى؟

* الإسلام دين الجماعة، دون إنكار لتمايز هذه الجماعة ـ الأمة ـ إلى أفراد وطبقات، لكنه يقيم العلاقة بين مكونات الجماعة ـ الأمة ـ على التوازن، وليس على المساواة الكاملة، التى تلغى التمايز وتنكر الفروق، ولا على الفوارق الفاحشة التى تُحِل «الخلل» الاجتماعى محل «التوازن» الاجتماعى، فتمزق روابط الأمة الواحدة!

فالأمة، فى الرؤية الإسلامية، واحدة.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾[٢].

وعلاقة مكونات الأمة الواحدة ـ أفرادًا وطبقات وشعوبًا وقبائل ـ بالكيان الواحد لهذه الأمة، هى علاقة الأعضاء المتعددة والمتميزة، فى القوة والعطاء والأهمية والاحتياجات، بالجسد الواحد الجامع لهذه الأعضاء. فهناك «الوحدة» وهناك

(١) سورة الممتحنة: الآيات ٧ ـ ٩.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٩٢.

«التميز» فى إطار التضامن والتكافل والتفاعل و«الحس الحى» للجسد الواحد باحتياجات كل عضو، على النحو الذى يضمن «حياة» الكيان العام!

وعن هذه الحقيقة يعبر حديث رسول الله، ﷺ، الذى يقول فيه: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[١].

وانطلاقًا من هذا المبدأ الإسلامى العام والجامع، كانت نظرة الإسلام إلى الثروة فى أرض الإسلام ومجتمعاته. وهى نظرة جمعت ـ بالوسطية ـ بين حقوق التكافل بين كل الأمة، وبين اختصاص الأفراد والطبقات والأقاليم فى أمة الإسلام وداره، على النحو الذى يقيم الميزان والتوازن ـ أى العدل والوسطية.. فعدل الله، سبحانه وتعالى، هو «الميزان» الذى أنزله، مع الكتاب، لتستقيم كل شئون الاجتماع، فى الكون وفى البشر.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾[٢].

﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾[٣].

وتشريعًا لهذه الوسطية فى علاقة المسلمين بالثروات والأموال، جاء حديث القرآن الكريم عن أن المالك الحقيقى ـ مالك الرقبة ـ فى الأموال والثروات هو الله سبحانه وتعالى، وعن أن الناس، مطلق الناس، مستخلفون فى هذه الثروات والأموال، فهم فيها ـ كأفراد وطبقات وأقاليم ـ مالكون مجازيون، ملكية منفعة وتنمية لهذه الثروات والأموال.. على النحو الذى يحقق مصلحة الجسد العام ـ الأمة ـ وكل عضو من أعضاء هذا الجسد العام:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[٤].

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) سورة الشورى: الآية ١٧.
(٣) سورة الحديد: الآية ٢٥.
(٤) سورة البقرة: الآية ٢٩.

﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾[(١)].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[(٢)].

فهو الخالق والمالك الحقيقى للثروات والأموال، وهو الذى أفاضها فى الطبيعة التى خلقها وسخرها للإنسان الذى استخلفه فى حيازتها والانتفاع بها والتنمية لها.

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾[(٣)].

ولهذه الوسطية الجامعة بين «ملكية الله الحقيقية» للثروات والأموال، وبين «ملكية المنفعة والاستخلاف التى للإنسان» فى هذه الأموال والثروات، جاءت إضافة «المال»، فى القرآن، إلى «ضمير الجمع» فى سبع وأربعين آية، وإلى «ضمير الفرد» فى سبع آيات، لتنبه على حقوق الجسد الواحد ـ الأمة ـ مع مراعاة حقوق مكونات هذا الجسد ـ الأفراد والطبقات والأقاليم.. الأمر الذى جعل الإمام محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] يعلق على هذا المقصد القرآنى بقوله: إن الله، سبحانه، قد أراد أن ينبه بذلك على «تكافل الأمة فى حقوقها ومصالحها، فكأنه يقول: إن مال كل واحد منكم هو مال أمتكم»[(٤)]!. ومن قبله قال الزمخشرى [٤٦٧ ـ ٥٣٨ هـ ١٠٧٥ ـ ١١٤٤م] ـ صاحب تفسير «الكشاف» ـ وهو يفسر آية الاستخلاف فى الأموال: «إن مراد الله هو أن يقول للناس: إن الأموال التى فى أيديكم إنما هى أموال الله، بخلقه وإنشائه لها، وإنما مَوَّلكم إياها،وخوَّلكم الاستمتاع بها، وجعلكم خلفاء فى التصرف فيها، فليست هى أموالكم فى الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب»[(٥)]!

(١) سورة الرحمن: الآية ١٠.
(٢) سورة الجاثية: الآية ١٣.
(٣) سورة الحديد: الآية ٧.
(٤) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) جـ٥. ص ٢٠١. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت ١٩٧٢م.
(٥) (الكشاف) جـ٤ ص ٦١ طبعة الحلبى ـ القاهرة.

وعندما يكون الإنسان ـ فردًا أو طبقة أو إقليمًا ـ وكيلًا ونائبًا فى حيازة الثروات والأموال.. المملوكة على الحقيقة لله ـ فلا بد وأن يلتزم بحدود بنود عقد وعهد الاستخلاف والإنابة والتوكيل، الذى يحرم «الكنز» و«الاحتكار» عن أعضاء محتاجين فى الجسد الواحد للأمة. ولذلك اتفق الأئمة: ابن عباس [٣ق.هـ ـ ٦٨ هـ ـ ٦١٩ ـ ٦٨٧م] والحسن البصرى [٢١ ـ ١١٠ هـ ٦٤٢ ـ ٧٢٨م] وقتادة بن دعامة السدوس [٦١ ـ ١١٨ هـ ٦٩٣ ـ ٧٦٥م] وغيرهم من المفسرين على أن الإنفاق المطلوب فى الآية الكريمة:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

اتفقوا على أن «العفو» ـ المطلوب إنفاقه ـ «هو ما فضل عن العيال. فالمعنى: أنفقوا ما فضل عن حوائجكم، ولم تؤذوا فيه أنفسكم فتكونوا عالة..»[2]!

وإذا كانت وجوه الإنفاق قد تعددت، وسميت ـ حتى فيما هو غير الفرائض ـ مثل الزكاة ـ «حقوقًا» للمستحقين والمعوزين، فلا شك أن إعادة استثمار الفوائض المالية فى المصالح الإسلامية، بديار الإسلام، هو لون من ألوان الإنفاق الإسلامى، إذا التزم بضوابط الإسلام فى المعاملات المالية.. لأنه إخراج لهذه الفوائض من إطار الكنز والحبس والاحتكار..

ولقد جاءت السنة النبوية لتبين هذا البلاغ القرآني؛ فقال رسول الله، ﷺ، فيما رواه ابن عمر ـ «من احتكر طعامًا أربعين ليلة فقد برئ من الله تعالى وبرئ الله تعالى منه ـ وأيما أهل عَرْصَة أصبح فيهم أمرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله تعالى»[3]! فليس من المسلمين من بات شبعان وجاره جائع. والجوار هنا ـ بمنطق وحدة الأمة ـ كالجسد الواحد ـ شامل لكل أقاليم الأمة وأفرادها وطبقاتها، خصوصًا بعد أن جعلت

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٩.

(٢) القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) جـ٣ ص ٦١. طبعة دار الكتب المصرية.

(٣) رواه الإمام أحمد.

وسائل الاتصال الحديثة عالم الإسلام كالعَرْصة الواحدة، أى الميدان والحى والقرية الواحدة.

وإذا كانت الزكاة ركنًا من أركان الإسلام الخمسة، فإنها لو جمعت على النطاق العام، وصرفت فى مصارفها، لكانت مصدرًا لتكافل الأمة فى الثروات والأموال، يتعدى خيره حدود الدول والأقاليم.

وكذلك الحال فى الكثير من التشريعات المالية الإسلامية. فمثلًا يوجب الإسلام على كل الثروات المركوزة فى باطن الأرض ـ صلبة أو سائلة ـ خمس قيمتها ـ وفى الحديث النبوى: «فى الركاز الخمس»[1]. وكذلك الحال فى كثير من الثروات.

وإذا كان القرآن يحذر من أن يصبح المال دُولَة ـ متداولًا ـ بين القلة الغنية.

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[2].

فإن السنة النبوية ـ القولية ـ قد قررت الاشتراك بين المسلمين فى المصادر المالية التى تمثل ضرورات الحياة: «المسلمون شركاء فى ثلاث: الماء، والكلأ، والنار. ومنعه حرام»[3].. ثم جاءت السنة العملية، فى «المؤاخاة»، التى تمت بين المهاجرين والأنصار، استجابة للضرورات الاقتصادية، لتضع هذا «الفكر» فى «الممارسة والتطبيق»[4].

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجة ومالك ـ فى الموطأ ـ والإمام أحمد. وانظر فى ذلك (كتاب الأموال) ـ لأبى عبيد القاسم بن سلام ـ وباب الخمس فى المعادن والركاز ـ ص ٤٣٠ ـ ٤٣٥ ـ وباب الخمس فى المال المدفون ـ ٤٣٦ ـ ٤٣٩ ـ وباب الخمس فيما يخرج البحر من العنبر والجوهر والسمك ـ ص ٤٤٠ ـ ٤٤٣ ـ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩م.

(٢) سورة الحشر: الآية ٧.

(٣) رواه ابن ماجة والإمام أحمد.

(٤) انظر: ابن عبد البر (الدرر فى اختصار المغازى والسير) ص ٩٦. تحقيق: د. شوقى ضيف. طبعة القاهرة ١٩٦٦م.

وإذا كانت وحدة «أمة الإسلام»، تستلزم وحدة «دار الإسلام»، حتى لو تعددت أقاليمها وولاياتها وحكوماتها، فإن المسلم إنما يمثل إسلامه، بالنسبة له، جنسية إسلامية، تجعل السياحة والإقامة والعمل فى أى مكان من «دار السلام» حقًّا إسلاميًّا لا جدال فيه.

وإذا كانت الوحدة الأوروبية توشك أن تحقق ذلك للمواطن الأوروبى، عبر دولها وأقاليمها، فإن سبق الإسلام إلى تحقيق هذه «الأممية الإسلامية»، وإلى تأسيسها على قواعد الإيمان الدينى لهو ملمح من الملامح الجديرة بالإحياء والتنويه؟

السؤال السابع

ما هى الحقوق السياسية للأقليات الدينية فى دولة إسلامية؟ وهل يمكن اختيار رئيس الدولة ورئيس الوزراء والوزراء منها؟

* فى القرآن الكريم، وفى الآيتين الثامنة والتاسعة من سورة «الممتحنة» يحدد القرآن الكريم معايير الإسلام فى الموالاة والمعاداة بين المسلمين وغير المسلمين:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)﴾.

وانطلاقًا من هذه الآيات المحكمة فالمواطنون من أبناء الأقليات الدينية ـ الكتابيون ـ الذين يعيشون مع الأغلبية المسلمة، ويشاركونهم الانتماء للوطن، والولاء له، هم شركاء فى المواطنة، لهم البر والعدل، فريضة من الله على الأغلبية المسلمة.

وإذا كان الإسلام قد جعل من التعددية فى الشرائع الدينية سنة من سنن الله فى الاجتماع الدينى، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1].

(١) سورة المائدة: الآية ٤٨.

فإن دستور دولة الإسلام الأولى، فى المدينة، على عهد رسول الله، ﷺ، قد قرر التمييز بين «أمة» ـ جماعة ـ الدين، وبين «أمة» ـ جماعة ـ الرعية السياسية.. فحرية التدين تحدد خطوط تمايز الجماعات المختلفة فى الدين، على حين تجمعها جميعًا رابطة المواطنة الواحدة والرعية السياسية فى الدولة الواحدة.. فهناك نوعان من الموالاة:

(أ) موالاة فى الدين بين أهل كل دين، تظهر فى المناصب والتنظيمات ذات الطبيعة والشروط والوظائف الدينية، والتى ترعى الشئون الدينية لأهل كل دين، وفيها لا ولاية لغيرهم عليهم.. بصرف النظر عن القلة والكثرة العددية لهذه الجماعات والملل الدينية..

(ب) وموالاة فى الشئون العامة للدولة المشتركة، تظهر فى المرجعية التى تعبر عن هوية الدولة ورسالتها.. وهذه المرجعية والهوية والرسالة تتحدد تبعًا لأغلبية المواطنين.. ولشمولية الإسلام الدولة مع الدين ـ وهى خصيصة تميز بها عن النصرانية خاصة، تلك التى وقفت عند خلاص الروح ومملكة السماء، تاركة ما لقيصر لقيصر وما لله لله.. مع تأكيد أن إسلامية المرجعية فى هوية الدولة لا تعنى انتقاصًا من المساواة فى الحقوق أو تمييزًا فى الواجبات الحياتية بين كل المواطنين من أبناء كل الديانات.

وعن هذه الحقيقة الدستورية جاء فى «الدستور» ـ الصحيفة ـ الكتاب ـ الذى حكم علاقات الرعية بعضها ببعض، وعلاقاتها بولاة الأمر، فى دولة الإسلام الأولى: «وأن يهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم».

فتقررت ـ فى هذه «المواد» المساواة فى الحقوق والواجبات.

ثم تقررت إسلامية المرجعية فى هوية الدولة ورسالتها، بالنص على: «وأنه ماكان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله..»[1].

والأمر الذى يجعل من إسلامية المرجعية فى هوية الدولة ورسالتها أمرًا لا ينتقص من حقوق المواطنة لغير المسلمين، فى الدولة ذات الأغلبية الإسلامية، أن «إسلامية الدولة» من حيث «إسلامية قانونها» هو مطلب دينى للإسلام، لا يقابله مطلب نصرانى للنصرانية. فالنصرانية التى لم تأت بشريعة للدولة والسياسة والاقتصاد وشئون العمران الدنيوى، والتى تركت ما لقيصر لقيصر وما لله لله، لا يضيرها، ولا ينتقص من حقوق أبنائها «إسلامية قيصر ـ الدولة».. لأنها فى كل الحالات قابلة بـ«قانون» ينظم العلاقات فى الدولة، فإذا كان هذا القانون إسلاميًّا، يعبر عن الهوية الإسلامية للدولة، فإنه لا يمثل انتقاصًا منها، ولا بديلًا عنها، فضلًا عن أنه ـ مع عدله مع كل الرعية ـ هو جزء من الاعتقاد الدينى للأغلبية التى تعايشها وتواطنها.

ولقد أكد هذه الحقيقة ـ حقيقة قيام المساواة فى حقوق وواجبات المواطنة، بين الأغلبية المسلمة وبين الأقليات الكتابية ـ «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» ـ مع «إسلامية الدولة» ـ فى هويتها ورسالتها وحضارتها وثقافتها ـ أن هذه الإسلامية لم تقم كبديل عن «نصرانية الدولة» فى المرحلة التى سبقت فتوحات الإسلام وقيام دولته الإسلامية. فالنصرانية الشرقية ـ والتى هى دين لا دولة ـ قد ظلت ديانة مضطهدة فى الشرق، حتى جاء الإسلام فأمن أهلها لأول مرة فى تاريخهم النصراني؟!. فدولة الإسلام كانت بديلًا لدولة الروم البيزنطيين المستعمرين، ولم تكن بديلًا لدولة نصرانية وطنية شرقية، ولذلك كانت تحريرًا للنصارى وتأمينًا للنصرانية، ولم تكن انتقاصًا لحق من حقوقهما.

ولقد بلغ الإسلام فى التأسيس لوحدة الأمة فى المواطنة، على اختلاف دياناتها، أن شرع لتعدد الديانات فى الأسرة الواحدة ـ وهى لبنة الأمة والشعب ـ فبزواج المسلم

(١) انظر نص الصحيفة فى (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة) ص ١٥ ـ ٢١. طبعة القاهرة ١٩٥٦م.

من الكتابية، يكون للأولاد المسلمين أم كتابية وأخوال كتابيون! ـ الأمر الذى يؤسس وحدة الأمة بدياناتها المتعددة، على التعددية التى قررها الإسلام فى لبنات الأساس.

وإذا كانت سنة: «**لهم ما لنا وعليهم ما علينا**» قد مثلت عنوانًا على تراث من المبادئ والتشريعات والممارسات ضمنت العدل والمساواة بين أهل الديانات المتعددة فى دولة الإسلام، حتى لقد انفردت حضارة الإسلام بتجسيدها لهذه التعددية بين الحضارات الأخرى، فإن الفكر الإسلامى، والممارسة الإسلامية قد أكدا أن إسلامية هوية الدولة ومرجعيتها ورسالتها الحضارية ـ فضلًا عن أنها حق من حقوق الأغلبية المسلمة فى أن تحكم بأيديولوجيتها ـ بالمنطق الديمقراطى.. وحق الإنسان فى أن يحكم بالقانون الذى تريده الأغلبية ـ والذى لا يخل بالعدل والمساواة بالنسبة للأقليات... إن هذا الفكر وهذه الممارسة قد ميزا بين الولايات التى فيها «رسالة دينية إسلامية»، فمن الطبيعى أن يليها مسلم، وبين الولايات التى لا تحمل «رسالة دينية إسلامية»، وفيها يتساوى كل المواطنين، على اختلاف الديانات التى يتدينون بها.

فعندما نكون بصدد تكوين هيئة للاجتهاد الإسلامى فى الشريعة الإسلامية والقانون الإسلامى.. فلا بد من اشتراط الإسلام فى أهل هذا الاجتهاد، وعندما نكون بصدد خبرات أهل الذكر فى الشئون الحياتية فلا مجال للتمييز بين عقائد أهل الذكر هؤلاء.. وكذلك عندما نكون بصد تكوين هيئات ومؤسسات المراقبة والمحاسبة للحكومات ـ البرلمانات ـ فلا مجال للتمييز بين المواطنين بسبب الاعتقاد الدينى..

وعندما يكون القاضى ـ كما كان قديمًا ـ مجتهدًا فى الدين الإسلامى، فلا بد وأن يكون مسلمًا، أما إذا كان القاضى منفذًا للقانون ـ كما هو الغالب الآن ـ فلا مجال للتمييز بين عقائد القضاة.

وعندما تكون لرئيس الدولة الإسلامية ولاية دينية ـ رغم كونه حاكمًا مدنيًّا... مثل إمامته للأمة فى الصلاة، وقيادته الدعوة إلى الإسلام والجهاد فى سبيل نصرة الإسلام.. وقضاء المظالم وفق شريعة الإسلام.. إلى آخر ولايات حراسة الدين الإسلامى، فضلًا عن سياسته للدنيا بهذا الدين.. فإننا نكون أمام شروط فى رأس

الدولة لا تتحقق إلا إذا كان مسلمًا.. فحجب غير المسلم عن هذا المنصب ليس انتقاصًا من المساواة فى المواطنة، وإنما هو لغيبة شروط لا بد منها فيمن يلى هذه الولاية ذات الرسالة الإسلامية، غيبتها عن غير المسلمين!..

ومثل ذلك مثل المواطن الذى لم تجتمع فيه شروط منصب من المناصب، فإن ذلك لا ينتقص من حقوقه فى المواطنة الكاملة، وإنما هو أمر يتعلق بغيبة الشروط اللازمة فيمن يلى هذا المنصب.

وإذا كانت إسلامية الدولة، هى مطلب دينى إسلامى، وفى غيبتها لا يكتمل إسلام الدولة والأمة، وإذا كانت هذه الإسلامية للدولة ـ التى يرمز لها إسلام رئيس الدولة ـ ليست بديلًا ولا نقيضًا لعقيدة نصرانية توجب نصرانية الدولة وقانونها ونظامها ـ ومن ثم رئاستهاـ.. فإن الذين يطرحون مطلب تولى نصرانى، مثلًا الرئاسة لدولة أغلبيتها مسلمة، إنما يفتعلون «مشكلة» ثم يبحثون لها عن «حل»! فالدولة ليست شريعة نصرانية حتى يطلبها النصرانى بحكم نصرانيته، وإنما هى شريعة إسلامية، يطلبها المسلم استكمالًا لإسلامه.. ففى ولايتها بُعْدٌ دينى إسلامى. وإذا كان المسلم مطالبًا بأن يدع الولايات ذات الرسالة النصرانية للنصارى، فإن الولايات ذات الرسالة الإسلامية والبعد الدينى الإسلامى، والشروط الإسلامية، لا بد وأن يشترط فيها إسلام متوليها.

وإذا كان غريبًا ـ ومستحيلًا ـ أن يطلب مسلم بريطانى أن يكون ملكًا على بريطانيا ـ وملكتها ـ بنص الدستور ـ حارسة الكنيسة ـ فإن من الغريب ـ دينيًّا.. وديمقراطيًّا ـ أن نجعل الولايات ذات الرسالة الدينية فى الدولة الإسلامية «مشكلة. ومطلبًا» فى علاقات الكتابيين كأقليات بالأغلبية المسلمة فى الدولة الإسلامية!!

لقد قرر الفقه الإسلامى ـ منذ عصر الماوردى [٣٦٤ ـ ٤٥٠ هـ ـ ٩٧٤ ـ ١٠٥٨م] ـ أن «ولايات ووزارات التفويض» ـ ذات الرسالة الدينية الإسلامية ـ هى اختصاص إسلامى.. بينما «ولايات ووزارات التنفيذ» ـ التى لا تحمل رسالة دينية إسلامية ـ

هى مشاع مفتوح لأهلها من الكتابيين[١].. ومارس المسلمون، من خلال دولهم الإسلامية، تطبيق هذا الاجتهاد الإسلامى..

ولقد آن الأوان للإقلاع عن افتعال «مشكلات»، ثم البحث عن «حلول ـ مفتعلة» لها. فتخصيص «الولايات ذات الرسالة الدينية الإسلامية» للمسلمين.. هو كتخصيص «الولايات ذات الرسالة الدينية النصرانية» للنصارى، لا يعنى ذلك انتقاصًا من حقوق المواطنة بالنسبة لمن يحجب عن ولاية هذه الولايات.. لأن هذا الحجب هو إلى الافتقار إلى شروط هذه الولايات أقرب منه إلى التمييز الذى يخل بحقوق المواطنة.

إن المساواة بين المواطنين حتى فى الدولة التى تكون رعيتها كلها مسلمة، لا يعنى توافر كل شروط جميع المناصب فى كل مواطن مسلم.

وولاية منصب ما هى حق لمن تجتمع فيه شروطه.. وليس فى ذلك إخلال بمبدأ المساواة فى المواطنة، حقوقًا وواجبات، تلك التى سنها رسول الله ﷺ عندما حدد علاقة المسلمين بالكتابيين فقال: إن «**لهم ما لنا وعليهم ما علينا**».

السؤال الثامن

ما رأى الإسلام فى الصلح مع إسرائيل وإقامة علاقات تعاون اقتصادى وعلمى وثقافى معها؟ وهل يمكن الدخول فى ترتيبات أمنية معها؟ وهل يمكن لدولة إسلامية أن تستعين بها لمواجهة دولة إسلامية أخرى؟

* إن الموقف الإسلامى من دولة إسرائيل ـ فى جوهره وحقيقته ـ ليس موقف «إسلام» من «يهودية»، ولا موقف «مسلمين» من «يهود».. أى ليس صراعًا دينيًّا خالصًا.

فعلى الرغم من اعتبار القرآن اليهود هم ـ والمشركين ـ الأشد عداوة للمؤمنين ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾[٢].

(١) انظر للماوردى «الأحكام السلطانية».
(٢) سورة المائدة: الآية ٨٢.

وهى حقيقة قرآنية صدق عليها الواقع التاريخى فى علاقة اليهود بالإسلام والمسلمين، لأنهم قد ساروا على سنة إسقاط المعايير الأخلاقية فى تعاملهم مع الآخرين.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

على الرغم من ذلك، كانت الحضارة الإسلامية الحضارة الوحيدة التى تمتع فيها اليهود بالأمان، بل والامتيازات، حتى كادوا ـ وهم الذين استعصوا على الاندماج فى الأوطان التى عاشوا فيها ـ يندمجون فى أوطان ديار الإسلام.. ففلاسفتهم غدوا جزءًا من الفلسفة الإسلامية، و«نحو» العبرية ـ فى الأندلس ـ تأثر «بنحو» العربية وقواعدها.. وكذلك «عروض» الشعر العبرى تأثر «بعروض» الشعر العربى.. بل لقد أصابهم ما أصاب المسلمين من مد وجزر وسعد ونحس وأمن وخوف فى كثير من بقاع الإسلام فى فترات كثيرة من تاريخ المسلمين..

ولقد وقف وراء هذه العلاقة المتميزة موقف الإسلام من الديانات الأخرى، ومن أبنائها، وإيمانه بالتعددية، واحترامه لحرية التدين وللخصوصيات الاعتقادية، وتركه الفصل فى الخلافات على هذه الجبهة الدينية للخالق، سبحانه وتعالى:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[2].

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[3].

تلك هى نظرة الإسلام والمسلمين لليهودية واليهود.

لكن الاستعمار الغربى، الذى فشل فى ظل غزوته الصليبية (٤٨٩ ـ ٦٩٠هـ) ـ (١٠٩٦ ـ ١٢٩١م) فى استمالة الأقليات النصرانية الشرقية إلى جانبه، كى يتخذ

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٣) سورة المائدة: الآية ٤٨.

منها ثغرة للاختراق وموطئ قدم فى بلادنا، قد ركز على هذا الهدف منذ بدء غزوته الحديثة، فأصدر بونابرت [١٧٦٩ ـ ١٨٢١م] وهو يحاصر «عكا» عام ١٧٩٩م نداء إلى يهود العالم يعرض عليهم «المشاركة» والمساعدة فى بناء إمبراطوريته الشرقية مقابل إعادة «ملك بنى إسرائيل» إلى اليهود!!. ومنذ ذلك التاريخ بدأت قصة اليهود ـ وخاصة الصهاينة ـ كشريك أصغر فى المشروع الغربى للهيمنة على وطن العروبة وعالم الإسلام.. وتنقلت هذه «الشراكة» مع مواقع «النجم الصاعد» فى الهيمنة الغربية.. فرنسا.. فإنجلترا.. فالولايات المتحدة الأمريكية، حتى قامت إسرائيل دولة عام ١٩٤٨م، وتوسعت عبر حروبها المتتالية مع العرب.

إذن، فدولة إسرائيل، فى النظرة الإسلامية، ليست «اليهودية» كدين، ولا «اليهود» المتدينين باليهودية، وإنما هى جزء من المشروع الغربى لاحتلال الأرض وكسر الشوكة وإعاقة التقدم فى وطن العروبة وعالم الإسلام. فجوهر الصراع ليس دينيًّا.. وإنما هو اغتصاب أرض الإسلام، واقتلاع المسلمين وإخراجهم من ديارهم، وإقامة قاعدة ورأس حربة لمشروع الهيمنة على عالم الإسلام.

وللإسلام من هذه القضية ـ قضية اغتصاب الأرض والإخراج من الديار ـ موقف حسمه القرآن الكريم عندما قال:

﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾[1].

فلا موالاة ولا سلم بين المسلمين وبين من يخرجونهم من ديارهم ويظاهرون على إخراجهم من الديار. بل إن موقف الإسلام من هذه القضية ليتأكد ويزداد حسمًا ووضوحًا، عندما نعلم أن المسلمين الأوائل، تحت قيادة رسول الله ﷺ، لم يحاربوا مشركى قريش لمجرد شركهم ورفضهم التدين بالإسلام، فالحرب للإكراه على الدين مرفوضة إسلاميًّا، وهى لا تثمر «إيمانًا» بل «نفاقًا» يدينه الإسلام؟!. وإنما حارب المسلمون المشركين لأنهم اعتدوا على المؤمنين، وفتنوهم عن دينهم، ولأنهم

---

(١) سورة الممتحنة: الآيتان ٨، ٩.

أخرجوهم من ديارهم؟!. والذين يتأملون آيات القرآن الكريم التى جاء فيها «الإذن» بالقتال، بعد الهجرة، و«التحريض» على هذا القتال، يرون كيف كان «الإخراج من الديار» فى مقدمة أسباب الإذن بالقتال والتحريض عليه:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾[١].

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١)﴾[٢].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٣].

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾[٤].

﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾[٥].

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾[٦].

(١) سورة الحج: الآيتان ٣٩، ٤٠.
(٢) سورة البقرة: الآيتان ١٩٠، ١٩١.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢١٧.
(٤) سورة الأنفال: الآية ٣٠.
(٥) سورة الإسراء: الآية ٧٦.
(٦) سورة محمد: الآية ١٣.

﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾(١).

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾(٢).

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾(٣).

فمشروعية الجهاد، ووجوب القتال، ليس لمجرد المغايرة فى الاعتقاد ـ شركًا أو يهودية ـ وإنما للإخراج من الديار.

وإذا كان مشركو قريش قد أضافوا إلى إخراجهم المؤمنين من ديارهم وأموالهم محاولتهم أن «يُثْبِتُوا» رسول الله، ﷺ، أى أن يحبسوه، أو يثخنوه بالجراح، فهذا ما تجاوزت فيه دولة إسرائيل الحدود مع العرب والمسلمين، على امتداد ثلاثة أرباع القرن حتى الآن.

وإذا كان مشركو قريش قد أضافوا إلى ذلك «فتنتهم» المسلمين عن دينهم، فإن إسرائيل تعلن على الملأ أن دورها فى «الشراكة الغربية» لم ينته بسقوط الشيوعية، وإنما دورها القائم والقادم فى محاربة اليقظة الإسلامية، لحساب الغرب، دور كبير، ولا يمكن للغرب أن يستغنى عنه، ورئيس دولتها «حاييم هيرتزوج» هو القائل: «إن إسرائيل تصدت فى الماضى لخطر الشيوعية والاتحاد السوفييتى. وإن لإسرائيل دورًا فى المستقبل، بعد زوال الاتحاد السوفييتى، وهو التصدى لخطر الأصولية الإسلامية

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩٥.

(٢) سورة الحشر: الآية ٨.

(٣) سورة التوبة: الآيتان ١٣، ١٤.

على نطاق منطقة الشرق الأوسط كلها[١]؟! إن العالم يجهل الخطر الأكبر الذى يهدده وهو الأصولية الإسلامية[٢]..»!

إذن، فاغتصاب الأرض، والإخراج من الديار، وقتل المسلمين، وفتنتهم عن دينهم، وإجهاض كل محاولاتهم للنهوض، هى جوهر الصراع مع دولة إسرائيل ـ كقاعدة لمشروع الهيمنة الغربية، وأداة للإذلال الاستعمارى للمسلمين.. ومن ثم، فإن الموقف الإسلامى من هذه الدولة هو الجهاد، كفرض عين على كل مسلم ومسلمة، حتى تحرير الأرض، خصوصًا وأنها ليست «أيَّ أرض»! وإنما هى الأقصى المقدس ـ أولى القبلتين، وثالث الحرمين ـ الذى بارك الله حوله:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٣].

فالعلاقة به آية من آيات الله، والأرض المغتصبة هى وديعة وأمانة عمر بن الخطاب لدى الأمة الإسلامية. فللقضية «خصوصية» تؤكد الموقف الإسلامى العام من اغتصاب الأرض والإخراج من الديار والقتال فى الدين والفتنة فى الاعتقاد.

هذا هو الموقف الإسلامى من دولة إسرائيل.

أما جواز «الصلح» معها؟.. فقضية تحتاج، إسلاميًّا، إلى تحرير مضامين المصطلحات. فإن كان المراد «بالصلح»: السلم الدائم.. فهذا لا يجوز، لأن فيه تكريسًا لاغتصاب الأرض والإخراج من الديار، والفتنة فى الدين.

وأما إذا كان المراد «بالصلح»: الهدنة التى تفرضها توازنات القوى، وضرورات السياسة والحرب، داخليًّا ودوليًّا.. فذلك جائز، شريطة أن تقدر الضرورة بقدرها، وأن يتفق عليها أولو الأمر ـ أى كل أهل الذكر والشوكة فى الأمة، بالإجماع أو بالأغلبية، وبشرط السعى الجاد والحثيث لتسخير الإمكانات اللازمة لتجاوز عوامل هذه الضرورة وأسبابها.

---

(١) انظر صحيفة «الأهالى» المصرية ـ عدد ٨/ ٤/ ١٩٩٢م مقال للكاتب محمد سيد أحمد ـ ص٢.

(٢) من خطاب له فى البرلمان البولندى بتاريخ ٢٩/ ٥/ ١٩٩٢م

(٣) سورة الإسراء: الآية ١.

فالهدنة ـ حتى ولو سميت «صلحًا» ـ هى الجائزة، وليس السلم الدائم، الذى يعترف بثمرات الاغتصاب، ويديم آثارالعدوان، ويهمل تنمية أسباب القوة لاسترداد الحق السليب!

وهذا هو الذى صنعه رسول الله، ﷺ، مع مشركى قريش، فى «صلح الحديبية» ـ فى ذى القعدة عام ٦ هـ ـ مارس ٦٢٨م ـ فلقد كان هذا الصلح «هدنة» موقوتة بعشرة أعوام «يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضًا»(١) ـ وإن كان المؤرخون قد سموها «صلحًا ـ لكنها لم تكن «سلامًا دائمًا» مع الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم وفتنوهم فى الدين!.. ولقد كرس المسلمون جهدهم يومئذ فى نشر الإسلام، وتقوية الدعوة، حتى جاء يوم الفتح المبين!

وفى الهدنة ترد: الترتيبات الأمنية وغيرها مما يحقق ضرورات الفرقاء المتهادنين.. وهى ضرورات تقدر بقدرها.. شريطة ألَّا تكون عوامل لتكريس الواقع الظالم، وإنما لا بد وأن تدفع وتساعد على تهيئة الأوضاع التى تزيل الضرورات، وتسمح بالجهاد لاسترداد الحقوق السليبة.

أما عن الموقف من جواز «استعانة دولة إسلامية بدولة إسرائيل على دولة إسلامية أخرى»، فهذا منكر ومحرم لا يجوز أن يقترفه مسلم، فردًا كان أو جماعة أو دولة.

إننا، إسلاميًّا، منهيون عن موالاة إسرائيل.. ومن باب أولى لا يجوز لنا أن تبلغ موالاتنا لها حد الاستعانة بها على فريق من المسلمين.

وإسرائيل تجسد مقولة القرآن الكريم:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾..

فكيف يجوز ـ شرعًا وعقلًا ـ الاستعانة بأشد الناس عداوة ضد جزء من الأمة الإسلامية؟!

(١) انظر: ابن عبد البر [الدرر فى اختصار المغازى والسير] ص ٢٠٥. تحقيق: د. شوقى ضيف. طبعة القاهرة، ١٩٦٦م.

إن الاستعانة بإسرائيل فى مواجهة دولة إسلامية أخرى هى مولاة للعدو، منهى عنها بنص القرآن الكريم، وفيها اتخاذ هذا العدو «بطانة» ضد عضو من أعضاء جسد أمة الإسلام، والله، سبحانه وتعالى، يحذرنا من ذلك، وينهانا عنه عندما يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾[١].

السؤال التاسع

يرفض البعض مفهوم القومية العربية كأساس للتعاون بين الدول العربية، ويقولون إن الرابطة الدينية الإسلامية هى الأساس الوحيد للتجمع والانتماء بين الدول، فهل هذا صحيح؟

* الإسلام دين الفطرة السليمة..

﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[٢].

وعندما يعود الإنسان إلى فطرته السليمة، التى فطره الله عليها، فسيجد أن لديه ولاء وانتماء إلى «الأهل» ـ بمعنى الأسرة والعشيرة، ثم إلى «الشعب» فى الوطن والإقليم الذى ينتسب إليه، ثم إلى الأمة ـ الجماعة ـ التى يتكلم لسانها ـ وهى الأمة بالمعنى القومى ـ ثم إلى الأمة ـ الجماعة ـ التى يشترك معها فى الاعتقاد الدينى، ثم إلى الإنسانية، التى خلقه الله وإياها من نفس واحدة، دون أن يكون هناك تناقض أو تعارض بين هذه «الدوائر» فى «الولاء والانتماء».. فهى أشبه ما تكون بدرجات سلم واحد، يفضى بعضها إلى بعض، ويدعم أحدها الآخر وخاصة إذا خلت مضامينها من الأفكار الشاذة التى تقحم عليها التناقضات.

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٨.

(٢) سورة الروم: الآية ٣٠.

وكذلك الحال إذا عاد الإنسان إلى فطرته السليمة، فإنه سيجد له حنيناً خاصًّا إلى المكان الذى ولد فيه، وولاء للوطن الذى يحمل جنسيته والذى ضمن له الرعاية والخدمات.. وولاء وانتماء للوطن الأكبر، الذى كونت ذكريات انتصاراته وطموحاته وآماله وآلامه مخزون التاريخ والتراث الذى شكل ويشكل تميز هوية هذا الإنسان، دونما تناقض أو تعارض بين هذه الدوائر المتسعة والمتتالية والمترابطة لوطن هذا الإنسان؟!.

إذن، فافتعال التناقض بين الانتماء العربى وبين الانتماء الإسلامى ـ لدى بعض من الإسلاميين، وبعض من القوميين ـ هو ثمرة لغيبة منهاج الفطرة السليمة فى النظر لقضية الانتماء ودوائره.. أو هو ثمرة لسوء الفهم الذى أحدثته مضامين غريبة وشاذة وخاطئة وضعت فى أوعية مصطلحاتنا، فأدت إلى خلافات مفتعلة بين فرقاء لو حددوا مرادهم بالمصطلح الذى يرددون لزال الخلاف والاختلاف!

فمصطلح «القوم» ـ الذى اشتقت منه «القومية» ـ مصطلح عربى، بل وقرآنى.. وفى القرآن الكريم حديث عن العرب، قوم الرسول، ﷺ، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾(١).

فقوم الإنسان هم الدائمو الإقامة معه، والذين تربطهم معه الروابط التى اصطلح على تسميتها «سمات القومية»، وأولها رابطة اللسان ـ اللغة.

بل لقد حدد حديث رسول الله، ﷺ، دور اللغة العربية فى تحديد دائرة القوم العرب، عندما استنكر أن تكون العصبية العرقية والنسبية هى التى تحدد من هو العربى، فقال: «ليست العربية بأحدكم من أب أو أم، وإنما هى اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربى»(٢)!

فإذا اتفق الفرقاء الذين يفتعلون الخلاف حول تبنى أو رفض «القومية العربية» وحول علاقتها بدائرة «الجامعة الإسلامية».. إذا اتفقوا على استبعاد المفهوم العرقى

(١) سورة الزخرف: الآية ٤٤.

(٢) (تهذيب تاريخ ابن عساكر) جـ٢. ص ١٩٨. طبعة دمشق.

العنصرى للقومية ـ وهو مفهوم غربى وافد إلينا من الفكر القومى الغربى ـ وإذا اعتمدوا معيار «العربية» ـ «اللغة والثقافة» ـ لتحديد دائرة العروبة وأبنائها، زال الخلاف المفتعل بين دائرة الانتماء القومى ـ والقومية العربية ـ وبين دائرة الانتماء الإسلامى ـ والجامعة الإسلامية، بل إنهم سيكتشفون قاعدة للعلاقة بينهما ورباطًا للاتفاق، ذلك أن اللسان العربى، الذى يحدد من هو العربى هو فى ذات الوقت لسان الإسلام وقرآنه الكريم.. وبدون عروبة اللسان لا يمكن للمسلم أن يبلغ درجة الاجتهاد فى الدين واستنباط الأحكام من القرآن، فكأنما «العقل المسلم» للدولة الإسلامية لا بد وأن يكون «عربيًّا» فى أية قومية من قوميات الإسلام؟!.

فتحديد مضمون مصطلح «العروبة»، ومعيار «العربى» هو الذى سيفك الاشتباك المفتعل بين القوميين والإسلاميين، وبين الرابطة القومية العربية والرابطة الدينية الإسلامية، وعند ذلك يعود الجميع إلى دوائر الانتماء، التى صنعتها الفطرة السليمة: الوطن الإقليمى، فالوطن القومى، فالمحيط الإسلامى، الذى يضم قوميات إسلامية، كالجزر التى يحتضنها المحيط، دون تنافر أو تناقض أو عداء!

وهذا التحديد، الذى ينفى المفهوم العرقى للقومية، سينفى أيضًا المفهوم الضيق للوطنية، بالمعنى القطرى والإقليمى، ليس بمعنى إسقاط «الوطن ـ الإقليم ـ القطر»، وإنما بمعنى عدم الوقوف عند دائرته كنهاية للأفق والمطاف.. فالوقوف عند الدائرة «الوطنية ـ القطرية ـ الإقليمية» هو مفهوم عنصرى ضيق الأفق لمصطلح «الوطنية».. وكذلك الحال مع الوقوف عند «الدائرة القومية ـ العربية»، مع إسقاط الدائرة الإسلامية.. هو الآخر مفهوم عنصرى ضيق الأفق لمصطلح «القومية العربية».. وإذا نحن اكتشفنا واعتمدنا علاقة الأخص بالخاص بالعام بالأعم لدوائر «الوطنية» و«القومية» و«الجامعة الإسلامية» و«الإنسانية»، انتفت هذه التناقضات المفتعلة، بإحلال منهاج الفطرة الإنسانية السليمة محل المفاهيم العنصرية الطارئة على حياتنا الفكرية العربية الإسلامية!

والأمر الذى يزيد من شذوذ هذا الخلاف المفتعل بين دوائر الانتماء هذه، أن كثيرين من أعلام النهضة الإسلامية الحديثة قد كتبوا فى هذا الموضوع مؤكدين تكامل هذه الدوائر للانتماء، نافين أى تناقض بينها.

فإمام الإصلاح القومى والإسلامى فى المغرب العربى، الشيخ عبد الحميد بن باديس [١٣٠٥ ـ ١٣٥٩ هـ ١٨٨٧ ـ ١٩٤٠م] له فى هذه القضية كتابات كثيرة.. منها مقال كتبه فى ذكرى ميلاد الرسول، ﷺ، جعل عنوانه: «**محمد، ﷺ، رجل القومية العربية**».. وفيه يقول: «**هذا هو رسول الإنسانية ورجل القومية العربية، والأمة العربية، الذى نهتدى بهديه، ونخدم القومية العربية خدمته، ونوجهها توجيهه، ونحيا لها، ونموت عليها، وإن جهل الجاهلون.. وخدع المخدوعون.. واضطرب المضطربون..**»[١]؟!

وهو نص واضح وحاسم لا يحتاج إلى أى تعليق[٢]!

وأبرز أئمة الإصلاح الإسلامى فى القرن الرابع عشر الهجرى، الشيخ حسن البنا [١٣٢٤ ـ ١٣٦٨هـ] ـ [١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م] هو القائل عن علاقة التكامل والتساند بين دوائر الانتماء «الوطنية» و«العربية» و«الإسلامية»:

«إن الإخوان المسلمين يحبون وطنهم، ويحرصون على وحدته، ولا يجدون غضاضة على أى إنسان أن يخلص لبلده، وأن يفنى فى سبيل قومه، وأن يتمنى لوطنه كل مجد وكل عز وفخار.. وأن يقدم فى ذلك الأقرب فالأقرب رحمًا وجوارًا..

ثم إن الإسلام الحنيف نشأ عربيًّا، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب، وجاء كتابه الكريم بلسان عربى مبين، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان يوم كان المسلمون مسلمين، وقد جاء فى الأثر: إذا ذل العرب ذل الإسلام. وقد تحقق هذا المعنى حين زال سلطان العرب السياسى، وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم، فالعرب هم عصبة الإسلام وحراسه.. والعروبة هى كما عرفها النبى، ﷺ،

(١) (كتاب آثار ابن باديس) جـ ٢ مجلد ٢ ص ١٧ ـ ٢١ طبعة الجزائر ١٩٦٨م.

(٢) انظر فى النصوص المشابهة ملحق كتابنا (الإسلام والعروبة) ص ١٥١ ـ ٢٦١. طبعة القاهرة ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م.

فيما يرويه ابن كثير عن معاذ بن جبل، رضى الله عنه: «ألا إن العربية اللسان، ألا إن العربية اللسان».

ومن هنا كانت وحدة العرب أمرًا لا بد منه لإعادة مجد الإسلام وإقامة دولته وإعزاز سلطانه، ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها.

ثم إن الإسلام، كما هو عقيدة وعبادة، هو وطن وجنسية، قضى على الفوارق النسبية بين الناس.. فهو لا يعترف بالحدود الجغرافية، ولا يعتبر الفوارق الجنسية الدموية، ويعتبر المسلمين جميعًا أمة واحدة، ويعتبر الوطن الإسلامى وطنًا واحدًا مهما تباعدت أقطاره وتناءت حدوده.

فالقومية الخاصة هى الأساس الأول للنهوض المنشود.. والوحدة العربية هى الحلقة الثانية فى النهوض.. والجامعة الإسلامية هى السياج الكامل للوطن الإسلامى العام.. ثم إننا نريد الخير للعالم كله.. فلا تعارض بين هذه الوحدات بهذا الاعتبار، فكل منها تشد أزر الأخرى وتحقق الغاية منها»[1]؟!

ذلك هو منهاج الفطرة الإنسانية السليمة فى رؤية تعددية وتكامل دوائر الانتماء.. وهو المنهاج الذى التزمه كل الذين نجت مناهجهم من المفاهيم الشاذة والغريبة التى أُقحمت على مصطلحاتنا فى «الوطنية» و«القومية»، كما نجت مناهجهم من التعصب لدائرة انتماء واحدة مع إدارة الظهر للدوائر الأخرى!

السؤال العاشر

يدعى البعض أن الإسلام لا يسمح بالمعارضة السياسية، ويتعامل معها بالسيف، ويحرم اختلاف الرأى، ويرفض فكرة الأغلبية، فما هو وجه الحقيقة فى ذلك؟

(١) انظر: رسالة المؤتمر الخامس ص ٤٩ ـ ٥٠. طبعة القاهرة ١٩٧٧م.

* ما دام من حق الحاكمين أن يؤيدهم المحكومون إذا هم أحسنوا، فإن من حق المحكومين أن يعارضوا الحاكمين إن هم أساءوا!.. بل إن هذه المعارضة، عند الإساءة، هى من حقوق الحاكمين على المحكومين أيضًا!

فولاة الأمور وحكام المسلمين هم نواب عن الأمة، فالسلطة الحقيقية الأصلية هى للأمة، والحاكمون ليسوا بمعصومين، وكل بنى آدم خطاء.. والخطأ فى الولايات العامة أكثر وقوعًا من الخطأ فى الشأن الخاص، وآثاره الضارة أكبر وأعم، ومن ثم فالوزر عليه أشد وأثقل. ولصاحب الحق الأصيل سلطان لا ينازع فى مراقبة وكيله ونائبه وخليفته فى أداء ما فوض إليه من مهام، كى تنجز هذه المهام على النحو الذى أراده صاحب الحق عندما عقد لنائبه عقد الوكالة والإنابة والتفويض!

وفى التجربة السياسية الإسلامية الأولى، كانت الشورى ـ وهى استخراج الرأى من المشيرين استخراجًا ـ تعنى فيما تعنى تشجيع المحكومين على المشاركة بالرأى، مؤيدًا كان هذا الرأى أو معارضًا لولاة الأمور.

بل إن ولاة الأمور المسلمين، فى دولة الخلافة الراشدة، كانوا ينبهون الرعية على ضرورة المعارضة تنبيهًا. وأبو بكر الصديق، هو الذى سن سنة الإلحاح على الرعية فى مراقبة الحاكم ومحاسبته ومعارضته، عندما قال فى أول خطبة له بعد بيعته بالخلافة: «إنى قد وُلِّيت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى، إنما أنا مثلكم، فإن استقمت فاتبعونى، وإن زغت فقومونى.. أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم!»[1].

وعندما فتح المسلمون، على عهد عمر بن الخطاب، العراق والشام ومصر، حدثت معارضة كبيرة من جمهور كبير من الجند الفاتحين، وفيهم نفر من كبار الصحابة، لسياسة عمر الجديدة فى الأرض المفتوحة.. حتى لقد كان عمر يستجير

(١) انظر نص الخطبة فى: النويرى (نهاية الأرب فى فنون الأدب) جـ ١٩ ص ٤٢ ـ ٤٥ طبعة دار الكتب المصرية.

بالله من شدة المعارضة وقسوتها عليه.. ثم حسم الخلاف ـ بعد أن تأزم ـ بالشورى والتحكيم[1]؟!

وعندما بويع لأبى بكر بالخلافة، عارض البيعة له، وامتنع عن مبايعته فريق من الصحابة، أنصارًا ومهاجرين، وكان فى المعارضين سعد بن عبادة ـ من «النقباء الاثنى عشر» ـ ولقد مات فى عهد عمر، على معارضته لخلافة أبى بكر وعمر، ودون أن يبايع لهما؟!. وكان من المعارضين كذلك على بن أبى طالب.. والذى ظل ممتنعًا عن البيعة لأبى بكر أشهرًا، قيل إنها ستة وقيل إنها ثلاثة[2]!.

ولا يحسبن أحد أن السماح بالمعارضة السياسية فى التجربة الإسلامية هى خصيصة راشدة، ترجع إلى تقوى وورع الخلفاء الراشدين، الباحثين عن النصح لدى الرعية كى لا يتمادوا فى الخطأ فتزداد ذنوبهم فى الحساب يوم الدين!

ففضلًا عن هذا العامل ـ التقوى والورع ـ الذى يجب ألا يكون خصيصة راشدية، وإنما خصيصة إسلامية، بل وإنسانية، وفضلًا عما تحققه المعارضة من ترشيد للحكم يسهم فى نجاح الحاكم والمحكوم كليهما، فإن المعارضة ـ فى النظرة الإسلامية ـ مؤسسة على عدد من الأصول والمنطلقات، التى تمثل أسسًا وثوابت فى النظرية السياسية الإسلامية، وذلك من مثل:

حرية الإنسان: إن الإسلام يعتبر الحرية فطرة فطر الله الإنسان عليها.. وكلمة عمر ابن الخطاب.. «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا» تعبير دقيق عن فلسفة الحرية فى الإسلام، كفطرة إنسانية، تفسدها قيود الاستبداد والاستعباد، بل إن القرآن الكريم يعتبر أن تحرير الإنسان من القيود والأغلال هو من جماع رسالة محمد، ﷺ، الذى بعثه الله للناس كى

﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[3]؟!

---

(١) انظر وقائع هذا الخلاف فى (كتاب الأموال) لأبى عبيد القاسم بن سلام ـ ص ١٣٥ وما بعدها. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩م.

(٢) انظر قصة هذه الأحداث فى كتابنا «الإسلام وفلسفة الحكم» ص ٧١ ـ ٩٢ طبعة القاهرة ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

ولقد وضع أئمة الإسلام «الحرية» فى مقام «الحياة»، وجعلوا «الرق» بمثابة «الموت»! حتى وجدنا الإمام النسفى [٧١٠ هـ - ١٣١٠م]. وهو يعلل كون كفارة القتل الخطأ هى تحرير رقيق من رقه، يقول: «إنه (أى القاتل) - لما أخرج نفسًا مؤمنة من جملة الأحياء، لزمه أن يدخل نفسًا مثلها فى جملة الأحرار، **لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها من قبل أن الرقيق ملحق بالأموات**، إذ الرق أثر من آثار الكفر، والكفر موت حكمًا».

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾(١) (٢).

وعندما يكون الإنسان حرًّا فى «تأييد» صواب ولاة الأمر.. فمن الطبيعى أن يكون حرًّا كذلك فى «معارضة» ما يراه غير صواب!

* **فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر**: وهى - كأصل من أعظم أصول الفكر السياسى الإسلامى - لا تجعل «المعارضة» للأخطاء فى السياسات مجرد «حق» من حقوق الإنسان، وإنما تجعلها فريضة إلهية وتكليفًا دينيًّا.. فالمعارضة السياسية، فى جوهرها، ليست سوى إنكار المنكر السياسى.. وهو فريضة من الله على كل مسلم ومسلمة، كأفراد، وكهيئات وجماعات منظمة.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(٣).

وهو معيار لخيرية الأمة.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(٤).

وبتخلفه تحل على الأمة كلها لعنة الله، كما حدث لبنى إسرائيل.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٢.

(٢) «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» - تفسير النسفى - جـ ١ ص ١٨٩. طبعة القاهرة ١٣٤٤هـ.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩ ﴾[١].

ولهذا البلاغ القرآنى فَصَّل وطَبَّق البيان النبوى.. عندما حض على إنكار المنكر ومعارضته، بل وتغييره ـ تأكيدًا على أن المعارضة ليست مجرد تسجيل مواقف، وإنما هى تغيير يقدم البدائل: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[٢]!.

وأهمية تنوع وتدرج أساليب المعارضة ودرجاتها، هى دعوة كل الأمة المؤمنة إلى المشاركة فى العمل العام، دون عذر لمتخلف وسلبى بحجة قلة أو ضعف أو انعدام الإمكانات.. فلا أقل من الرفض بالقلب، إذا لم يستطع الإنسان المعارضة والتغيير وتقديم البديل، بالقول والكتابة، أو بالفعل والتطبيق؟!. فليس وراء هذه الحدود مكان أو أثر لإيمان فى قلوب السلبيين!.

بل إن السنة النبوية تعلمنا أن التفريط فى إقامة هذه «الفريضة الاجتماعية» لا يفسد «دنيانا» فقط، وإنما هو «محبط» لأعمالنا، يحول بينها وبين أن تفتح أبواب السماء لدعائنا؟!. فالله أقرب إلينا من حبل الوريد، لكنه لا يسمع للذين لا يعترضون على المنكر فى اجتماعهم البشرى: «لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأْطُرُونه ـ (تجبرونه) ـ على الحق أطرًا، أو ليضربن الله بعضكم ببعض، ثم تدعون فلا يستجاب لكم»[٣]!. و«إذا رأيتم الظالم فلم تأخذوا على يديه يوشك الله أن يعمكم بعذاب من عنده»[٤]!

ولمشقة هذا الطريق.. ولما يكلفه لأصحابه من مشقات، وخاصة فى عصور الجور والاستبداد، رغب الإسلام فيه، ونبه على أنه هو المنقذ من الخسران.. فالذين لا

(١) سورة المائدة: الآيتان ٧٨، ٧٩.

(٢) رواه مسلم والترمذى والنسائى والإمام أحمد.

(٣) رواه الترمذى وأبو داود وابن ماجة والإمام أحمد.

(٤) رواه الترمذى.

يتواصون ويتفقون وينتظمون فى الأمم والجماعات والمؤسسات القائمة على نصرة الحق، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، مع الصبر على تبعات هذا الطريق، إنما يرتدون بإنسانيتهم من مرتبة «أحسن تقويم» إلى «الخسران» فى أسفل السافلين!

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾[(١)].

ولذلك كان «أفضل الجهاد كلمة حق أمام سلطان جائر»[(٢)]!.

.. فمعارضة ما يستحق المعارضة.. فريضة.. وجهاد... بل إنها أفضل الجهاد ـ كما قال الرسول ﷺ!

ورغم هذا الموقف الإسلامى الواضح والحاسم ـ فى مشروعية المعارضة السياسية ـ عندما توجد دواعيها ـ وهى دائمًا موجودة للقيام بفريضة المراقبة والمحاسبة لولاة الأمور.. أى أن المعارضة وظيفة سياسية دائمة فى المجتمع، للرقابة والمحاسبة، أما رفع الصوت المعارض بإنكار المنكر فهو رهن بوقوع المنكر وقيامه.. وهى وظيفة لا تكفى فيها التكاليف الفردية، لتعقد الحياة السياسية والاجتماعية على النحو الذى تحتاج المعارضة والمراقبة والمحاسبة فيه إلى مؤسسات وتنظيمات، كى تتحقق من «المعروف» ومن «المنكر»، وكى تقدم «البدائل» فى «التغيير».. وهذا النهج المؤسسى المنظم، هو الذى زكاه القرآن عندما دعا إلى أن تتولى ذلك «أمة» أى جماعة، وعندما تكون المعارضة سياسية، أى فى العمران السياسى والاجتماعى والاقتصادى وشئون الدولة ـ وكلها من الفروع الإسلامية ـ التى يجوز فيها الاجتهاد.. وتعدد الاجتهادات ـ فإن تعددية جماعات المراقبة والمحاسبة والمعارضة تكون أمرًا طبيعيًّا..

رغم هذا الموقف الإسلامى، المؤسس لمشروعية المعارضة.. المنظمة.. فإن حينًا من الدهر قد جاء على الأمة الإسلامية، تراجعت فيها الشورى لحساب الانفراد بالسلطة والسلطان.. ثم حدث أن جاءت المخاطر الخارجية التى هددت وجود

---

(١) سورة العصر: الآيات ١ ـ٣.

(٢) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة والإمام أحمد.

الأمة.. من الغزوة الصليبية التى استمرت قرنين من الزمان [٤٨٩ ـ ٦٩٠هـ] ـ [١٠٩٦ ـ ١٢٩١م] ومن التحالف الصليبى مع الغزوة التترية الوثنية [٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م].. الأمر الذى كرس «حكم التغلب» ومد العمر فى عهد «الاستبداد»، حتى ظن نفر من الفقهاء أنه هو «القاعدة» لا «الاستثناء»؟!. فظهرت فى كتابات فقهية متأخرة آراء تركز على وجوب «الطاعة المطلقة»، من الرعية لكل «الأمراء»، بصرف النظر عن «عدل» هؤلاء الأمراء.. وتحذر من الخروج ـ المعارضة.. والثورة ـ على هؤلاء «الأمراء»، باعتبار أن فى ذلك خروجًا من «الإيمان» بالإسلام؟!. الأمر الذى مال بكفة الفكر ـ فى حقبة التراجع الحضارى الإسلامية ـ نحو «الطاعة» على حساب «الحرية»!

ولقد استند هؤلاء الفقهاء إلى تأويلات فاسدة، لأحاديث نبوية صحيحة، لكنهم أخرجوها ـ بهذه التأويلات الفاسدة ـ عن سياقها، أو معانى مصطلحاتها، كما عزلوها عن أحاديث أخرى، وردت فى ذات الموضوع، ومفسرة لها!..

ـ فمثلًا.. استندوا إلى حديث رسول الله، ﷺ، الذى يقول فيه: «من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن عصانى فقد عصى الله. ومن يطع الأمير فقد أطاعنى، ومن يعص الأمير فقد عصانى»[1].

ونسوا الحديث الآخر ـ بل الرواية الأخرى لذات الحديث ـ والتى وردت فى ذات الصحيح ـ صحيح مسلم ـ ونصها: «من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن عصانى فقد عصا الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى، ومن عصى أميرى فقد عصانى».

فالحديث هو عن «أمير» من الأمراء الذين اختارهم وعينهم رسول الله، ﷺ، وليس عن كل الأمراء، على امتداد حياة الإسلام والمسلمين؟!.

بل ونسوا ما هو أكثر من ذلك، وهو أن «الأمير» ـ فى مصطلح عصر النبوة ـ هو أمير الجيش وقائد القتال.. وليس الوالى والعامل ورئيس الدولة.. ولطاعة أمراء الحرب فى القتال مقتضيات ومقاصد وآليات مختلفة تمامًا عن شورى ومراقبة ومحاسبة ومعارضة الحكام فى شئون السلم والعمران؟!.

---

(١) رواه مسلم.

ـ كما استندوا إلى الحديث النبوى القائل: «من رأى من أميره شيئًا يكرهه، فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبرًا، فمات فميتته جاهلية»[(١)]!.

ووظفوا هذا الحديث فى الدعوة إلى «الطاعة التامة» لكل «الأمراء»، حتى فيما «كرهت» الرعية من سياساتهم!..

ولقد نسى هؤلاء الفقهاء أن الحديث، أيضًا هو عن «أمير» الحرب والقتال، وليس عن والى السلم والسياسة والعمران، وأن المطلوب هو عدم مفارقة صفوف الجماعة المقاتلة، حتى ولو رأى المقاتل من قائده أمرًا يكرهه.. وفارق بين ما نكره، فيدعو الحديث للصبر على المكاره، وبين ما يغضب الله ويخالف شريعته. وفيه «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق» و«لا طاعة فى معصية الله»[(٢)] و«لا طاعة لمن عصى الله»[(٣)]. و«لا طاعة فى معصية الله إنما الطاعة فى المعروف»[(٤)] وليس فى المنكر؟!

كما نسوا أن المعارضة للحاكم لا تعنى الخروج على «الجماعة»، لأنها موقف فى سبيل «الجماعة»، حتى ولو بلغت درجة «الخروج» على «الحاكم»!. فالمعارضة الحقة هى ـ فى الحقيقة ـ انحياز «للجماعة»، وليست خروجًا عليها!.

ـ كما استند هذا النفر من فقهاء عصور التراجع الحضارى والتغلب السياسى ـ وهم قلة بين فقهائنا ـ إلى حديث رسول الله، ﷺ، الذى يقول فيه: «من مات على غير طاعة الله مات ولا حجة له، ومن مات وقد نزع يده من بيعة كانت ميتته ميتة ضلالة»[(٥)]!

نسى هؤلاء الفقهاء أن «البيعة» التى يتحدث عنها الرسول، ﷺ، هنا هى «البيعة» التى بايعه المؤمنون بها، أى البيعة على الإسلام والإيمان، وبها ينتقل المبايع من الجاهلية إلى الإسلام ومن الضلالة إلى الهدى.. فهى ليست البيعة السياسية لحاكم

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه والإمام أحمد.

(٣) رواه ابن ماجة والإمام أحمد.

(٤) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والإمام أحمد.

(٥) رواه الإمام أحمد.

من الحكام.. وعن هذه البيعة المعينة، التى يؤدى الخروج منها إلى الكفر والضلالة، جاء حديث القرآن الكريم:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾[1]

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[2]

فتلك بيعة خاصة على الإيمان بالإسلام، وهذا مقام خاص لرسول الله، كمبلغ عن الله.. فبيعته بيعة لله.. وطاعته طاعة لله.. وموضوعها الإسلام ـ إسلام الوجه لله ـ بلا اجتهاد ولا رأى ولا شورى ـ من أمور السياسة والدولة والمعارضة والتأييد للحكام.!

ثم نسوا ـ هؤلاء الفقهاء ـ أيضًا، أن الحكام المتغلبين، أو الظلمة، الذين أرادوا تطويع الأمة لطاعتهم، قد تولوا السلطة بلا بيعة شرعية حرة معتبرة.. وأن ظلم الحاكم وجوره وفسقه وضعفه، هى أسباب مسقطة لطاعته، تُحِلّ الأمة من بيعتها له، حتى ولو كانت له فى عنقها بيعة حرة شرعية صحيحة، لأن فى الجور والفسق والضعف نقضًا لشروط التعاقد، وتخلفًا لصفات الحاكم وشروطه، وفق شريعة الإسلام!..

وهكذا تسقط شبهات بعض الفقهاء على مشروعية المعارضة السياسية، فى الفكر السياسى للإسلام.

أما موقف الإسلام من الاختلاف فى الرأى.. فلا بد لفهمه من التمييز بين:

(أ) الاختلاف فى الأصول ـ أصول العقيدة والشريعة.. وهذا هو الاختلاف المذموم لأنه «**فرقة فى الدين**»..

(ب) والاختلاف فى الفروع ـ فروع الدين والدنيا ـ مما لم يرد فيه نص محكم قطعى الدلالة والثبوت. وهذا هو المجال الطبيعى لتعددية الاجتهادات والمذاهب والمدارس الفكرية ـ سياسية وغير سياسية.. وهو اختلاف غير مذموم.

---

(١) سورة الفتح: الآية ١٠.

(٢) سورة النساء: الآية ٨٠.

أما رأى الإسلام فى موضوع «الأغلبية» و«الأقلية» فى الأصوات والآراء.. فلقد اعتمد الإسلام سبيل الاقتراع والتحكيم فى المشكلات.. وهذا نهج يعتمد رأى الكثرة من أصحاب الرأى.. وفى الفقه الإسلامى ـ سواء منه السياسى ـ فى بيعة الأئمة والخلفاء ـ أو فى مطلق الاجتهاد الفقهى ـ نجد الترجيح لرأى «الجمهور» ـ أى الأغلبية.. ويجب أن ننتبه إلى الأمر الذى يخلط فيه البعض، عندما يستدلون بآيات من القرآن الكريم على أن ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(١)] و﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[(٢)] و﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[(٣)]..

فهذه كثرة جاحدة للوحى الإلهى.. وأمام الوحى وأصول الإيمان، لا مجال للاقتراع وأخذ الأصوات، ولا للكثرة العددية.. أما فى ميادين الحكمة، والرأى، والاجتهاد الإنسانى، فإن رأى الكثرة يرجح رأى القلة.. ورأى «الجمهور» مقدم على رأى «البعض».. ولهذا شرعت «الشورى».. ولهذا قال ﷺ، لأبى بكر وعمر: «لو اجتمعنا فى مشورة ما خالفتكما» نزولًا على رأى الأغلبية ـ ٢:١ـ...؟

بل إن الإسلام ليبلغ فى احترام رأى الأغلبية والجمهور، إلى الحد الذى يجعل «العصمة» للأمة إذا اجتمعت على أمر من الأمور.. وفى هذا يقول الرسول، ﷺ: «إن أمتى لا تجتمع على ضلالة»[(٤)]!..[(٥)]

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢١.

(٢) سورة يوسف: الآية ٣٨.

(٣) سورة الرعد: الآية ١.

(٤) رواه ابن ماجه.

(٥) انظره بكتاب [فكر المسلم المعاصر ما الذى يشغله؟] طبعة مركز الأهرام للترجمة ـ القاهرة سنة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

العَلمانية

فى حديث أجرته إحدى المجلات الشهرية، مع قائد إحدى الدول العربية ـ وهى مسلمة، ليست فيها أقليات دينية ـ سألته المجلة عن رأيه فى تطبيق الشريعة الإسلامية؟.. فكانت الإجابة التى أدهشتنى.. بل وأذهلتنى وإن كنت لم أجد سبيلًا للتشكيك فى نسبتها إلى هذا الحاكم المسلم.. لأن المجلة ناطقة باسم نظامه، وممولة من خزائنه؟!. كانت الإجابة التى قال فيها:

ـ لا.. إن الله فى السماء، ونحن فى الأرض نصنع ما نشاء؟!.

وبعد الدهشة.. والذهول.. فكرت فى مضمون هذه الإجابة، فاكتشفت أنها التعبير الدقيق والصريح عن كل الذى يقول به العلمانيون؟!. فما العلمانية والعلمانيون إلا الدعوة والدعاة إلى عزل السماء عن الأرض، والكفر بالله كمدبر ومنظم وحاكم فى الاجتماع الإنسانى والعمران البشرى وإن آمن به كثير منهم كخالق للعالم والإنسان فهم يقفون بفعله، سبحانه وتعالى، عند مجرد «الخلق»، منتزعين منه، سبحانه، سلطات الحكم والتدبير والتشريع؟!.

إنه موقف كل تيارات العلمانية، وسائر مذاهب العلمانيين، ذلك الذى عبر عنه هذا الحاكم العربى المسلم بحدة كشفت وعرّت «النموذج العلمانى» حتى من «ورقة التوت»؟!.

فنحن إذا استثنينا «العلمانية ـ المادية» ـ التى يتبناها الماديون والدهريون الملاحدة ـ فإننا سنجد فيها تيارًا غالبًا يؤمن بالله خالقًا لهذا الكون وما فيه ومن فيه، ويعبد الله بأداء المناسك والشعائر الفردية.. وقد يكون منهم ورعون ومتنسكون فى الشعائر والمناسك والطقوس.. ولكنهم يعزلون الذات الإلهية عن تدبير شئون

العمران البشرى وحكم الاجتماع الإنسانى، قاصرين الحكم والتدبير فى هذه الميادين الدنيوية على «العقل.. والتجريب» وحدهما؟!. أى أنهم جاحدون للشريعة، متميزون عن المؤمنين بها، الذين يدعون إلى التدرج فى تطبيقها وتهيئة المجتمع لهذا التطبيق.

وهم، هنا، إذا شئنا رأى الإسلام فيهم: مؤمنون بالله، خالقًا للكون.. وكافرون به كمدبر وحاكم فى شئون الدنيا والدولة والاجتماع والسياسة والاقتصاد، وغيرها من شئون وميادين العمران.. فهم ليسوا كفارًا بإطلاق.. وليسوا بكاملى الإيمان.. إنهم مؤمنون ببعض الكتاب وكافرون ببعضه الآخر؟!.

* * *

والحقيقة التى لا بد وأن يعلمها هؤلاء العلمانيون ـ ومنهم جمهور مخدوع لا يعلم هذه الحقيقة ـ أنهم فى إيمانهم بالله، سبحانه وتعالى، قد زيفت عليهم صورة الإله!.. فنموذج الألوهية الذى يؤمنون به ليس هو النموذج الحق الذى علمنا إياه القرآن الكريم، وبينت لنا صفاته وأسماءه سنة رسولنا، ﷺ..

نعم هم يؤمنون بالله.. ويعبدونه.. لكن علمانيتهم قد جعلتهم «يشركون» مع الله «طواغيت» جعلوها الحاكمة والمدبرة، دون الله، فى الاجتماع البشرى والعمران الإنسانى.. فهم ـ فى الحقيقة ـ التى لا يعلمها كثيرون منهم ـ صنف من «المشركين».. يسيرون على درب أسلاف لهم من القدماء، آمنوا بالله خالقًا.. وكفروا به مدبرًا وحاكمًا.. وأشركوا معه، بل وأحلوا محله وبدلًا منه، فى تدبير الدولة والدنيا والعمران طواغيت جعلوا الاحتكام، فى تدبير العمران، إلى مرجعياتها، بدلًا من الاحتكام إلى الشريعة الإلهية التى هى المرجعية الإلهية فى حكم وتدبير الدولة والدنيا والعمران؟!.

* * *

إن فارقًا كبيرًا بين «الماديين ـ الدهريين»، الذين يجحدون وجود الله بإطلاق.. ويقولون كما عبر عن مذهبهم القرآن الكريم: ﴿وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾ [الجاثية: ٢٤].. فارق بين هؤلاء وبين «المشركين»

الذين يؤمنون بالله، لكنهم يعزلونه عن التدبير فى بعض الميادين، ويشركون معه آلهة وطواغيت وشركاء يتحاكمون إليهم فى حكم هذه المساحات والميادين، ويلتزمون بمرجعياتهم فى تدبير شئون هذه المساحات بدلًا من مرجعية الشريعة الإلهية التى تجسد حاكمية الله وتدبيره فى كل ميادين وعوالم الوجود، وفى العمران البشرى والاجتماع الإنسانى على وجه الخصوص..

فالتصور الوثنى الجاهلى للذات الإلهية، لم ينكر وجود خالق لهذا الوجود، ولكنه وقف فى تصوره لعمل هذا الخالق عند حدود «الخلق».. ثم أشرك معه شركاء آخرين فى «تدبير» شئون الحياة الدنيا، كان يحتكم إليهم «الوثنيون ـ المشركون» فى السلم والحرب، والسفر والحضر، والإقدام والإحجام.. وفى الكثير من ميادين الحياة والعمران.. تمامًا كما يصنع العلمانيون، الذين يؤمنون بالله خالقًا.. ثم يحتكمون، فى تدبيرشئون الدنيا والدولة والعمران الإنسانى إلى غير الشريعة التى وضعها، والتى تجسد إرادته وتدبيره ومعاييره فى حكم هذه الميادين!..

إن القرآن الكريم لم ينع على هذا التصور «الوثنى الجاهلى» إنكار الخالق للوجود.. وإنما نعى عليه الوقوف بعمل هذا الخالق عند حدود «الخلق» دون آفاق «التدبير» فى كل ميادين الوجود وسائر العمران.. ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[الزمر: ٣٨].

ففى هذا التصور «الوثنى الجاهلى المشرك» إيمان بالله، «خالقًا» لهذا الوجود، وعزلًا له عن «تدبير» شئون الدنيا، وإحلال «الشركاء» محله، وبدلًا منه فى هذا «التدبير».. تمامًا كما هو حال التصور العلمانى، الذى يؤمن بالله، خالقًا للوجود، لكنه يعزله عن «تدبير» الدنيا والدولة والعمران، مستبدلًا «العقل.. والتجريب» بالشريعة الإلهية، وذلك بدلًا من جعل «العقل.. والتجريب» سبلًا مؤمنة بهذه الشريعة، وعاملة على الاجتهاد فيها والتطوير لما فيها من فروع ومتغيرات!.. فالعلمانية تحل «العقل.. والتجريب» محل الشريعة، أى بدلًا من الله.. بينما «الإسلامية» تجعل من «العقل..

والتجريب» ومعهما «الوحى.. والوجدان» سبلًا للمعرفة، تتآزر وتتكامل فى هداية الإنسان إلى سعادة الدنيا والآخرة..

فهل يعلم العلمانيون الدرب الذى يسيرون فى تصورهم لذات الله، سبحانه وتعالى؟!.

وكذلك نجد الحال مع التصور «الأرسطى اليونانى» لذات الله.. فهو شبيه بهذا التصور «الوثنى ـ الجاهلى ـ المشرك».. فهو يتصور الله خالقًا لهذا العالم.. لكنه يزعم أن الله، بعد خلقه للعالم، قد ترك تدبيره للأسباب المادية الذاتية المودعة والمركبة فيه.. فعلاقة «الخالق» بالوجود ـ فى هذا التصور ـ «علاقة منطقية». كعلاقة المقدمة بالنتيجة.. وليست علاقة الراعى المدبر لشئون هذا الوجود؟!.

فإذا جاء التصور العلمانى للذات الإلهية، وآمن بالله خالقًا للوجود، وبالدين عقيدة وشعائر وعبادات.. ثم «حرر» العمران الإنسانى والاجتماع البشرى ـ فى السياسة والاجتماع والاقتصاد ومناهج البحث والقيم ـ من «الشريعة الإلهية»، ومن ضوابط ومعايير التدبير الإلهى لهذه الميادين.. فإنه، فى الحقيقة ـ رغم مرارتها ـ إنما يسير بأصحابه ـ العلمانيين ـ على درب «الوثنية ـ الجاهلية ـ المشركة» فى تصور الذات الإلهية.. وهى حقيقة قد لا يعلمها كثير من العلمانيين؟!.

إن التصور القرآنى للذات الإلهية، يتميز عن التصورات «المشركة».. فهو تصور «التوحيد»، و«الوحدانية» فى أقوى وأنقى صورها.. ولذلك، فهو لا يقف بنطاق عمل الذات الإلهية عند حدود «الخلق» فقط لهذا الوجود، وإنما يجعل الله، سبحانه وتعالى، الراعى والمدبر والحاكم ـ بقضائه.. وشرعه ـ لكل شئون الحياة، وسائر ميادين العمران..

فهو «الخالق» وهو «مدبر الأمر».. ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣].

وله، سبحانه وتعالى، «الخلق» و«الأمر» ـ أى التدبير ـ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وهو، سبحانه، الذى «خلق».. والذى «هدى».. ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

هذا هو التصور الإسلامى للذات الإلهية.. الذى تتنكب العلمانية والعلمانيون طريقه، عندما يريدون الله خالقًا معزولًا عن تدبير شئون الدنيا والدولة والاجتماع والعمران.. ويريدون الدين عقيدة وعبادات، لا شريعة فيه ولا قانونًا يضبط دنيا الناس.. وهم عندما يتنكبون طريق التصور الإسلامى للذات الإلهية، إنما يسيرون ـ دون أن يدرى كثير منهم ـ على درب «الوثنية ـ الجاهلية» القديمة، تستوى فى ذلك «وثنية ـ العرب» و«وثنية ـ اليونان»؟!.

تلك هى «الحقيقة ـ المرة»، التى تضع العلمانيين فى «سلة الشرك»، وإن لم تضعهم فى «سلة الدهرية».. فهم، بهذه العلمانية، مؤمنون بالله «خالقًا» وكافرون به «مدبرًا» للعمران الإنسانى.. وعندما يعرض موقفهم هذا على التصور القرآنى للذات الإلهية نجدهم قد آمنوا ببعض ما جاء به القرآن فى هذا التصور، وكفروا ـ كفر جحود.. أو كفر جهل ـ ببعضه الآخر.. فهم ليسوا كفارًا بإطلاق.. وليسوا كاملى الإيمان.. وإنما ـ بإشراكهم الشركاء مع الله فى حاكمية التدبير للدولة والدنيا ـ «مشركون»، يسيرون على درب المشركين القدماء؟!.

إن «مرارة» هذه الحقيقة قد تكون مفاجأة لقطاع كبير من العلمانيين.. لكن.. هل تسهم هذه «المرارة» فى إيقاظهم من الغفلة؟.. أم يظلون فى غيهم سادرين؟!.

إن «المعادن» و«المقاصد» هى معايير التمييز فى هذا المقام.. ففارق بين أصحاب «الاجتهادات الخاطئة».. وبين «العملاء الحضاريين».. فولاء الأولين لوطنهم وأمتهم ـ والإسلام هو سياج هذا الوطن.. وهوية هذه الأمة وحصنها فى الملمات وأمام كل التحديات.. أما الآخرون، فإن العلمانية هى سبيلهم إلى كسر شوكة الإسلام ـ حصن الأمة وهويتها ـ وطريق الاختراق والهيمنة والتبعية والإلحاق!..

ولقد صدق موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ ـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م] عندما قال: «إن المقلدين للتمدن الغربى، إنما

يشوهون وجه الأمة، ويضيعون ثروتها، ويحطون من شأنها.. إنهم المنافذ لجيوش الغزاة، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب؟!.

فهل يفيق العلمانيون من هذا «الخسران»؟!. خسران الدنيا والآخرة.. الذى وضعهم على طريق «التبعية للغرب» فى «الحضارة».. و«التبعية للشرك» فى «التصور لذات الله»؟!.

إن الآمال كبيرة فى أصحاب «الاجتهاد الخاطئ».. وإن لم تكن كذلك فى «العملاء الحضاريين»!.

* * *

وإذا كان الحوار مع المخالفين ـ فى الرؤية الإسلامية ـ يتعدى حدود «الفضيلة»، إلى حيث يصبح «فريضة» على القادرين عليه تجاه هؤلاء المخالفين.. فإن ما فى المكتبة الإسلامية المعاصرة من عشرات الكتب التى تتناول علاقة الدين بالدولة والمجتمع، فى الرؤية الإسلامية، إنما تمثل سبل وأدوات فى هذا الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين.

وإذا كانت كثير من الدراسات التى كتبت فى هذا الموضوع قد توجه بها أصحابها إلى النخبة و«الصفوة».. وكثير منها قد جاء كتبًا كبيرة.. فإن ميزة هذه الدراسة ـ التى نقدم لها ـ والتى كتبها الدكتور / مجدى قرقر.. إلى مختلف المستويات.. فللنخبة وللخاصة فيها نصيب، ولجمهور القراء فيها زاد كبير وحظ عظيم.

ونحن نأمل أن تؤتى هذه الدراسة ثمراتها الطيبة، إن شاء الله.. فهى كلمة طيبة، يوجهها عقل مسلم مخلص إلى من يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وهى، بقدر ما تفتح من سبل الرشاد أمام العلمانيين.. فإنها تقدم الحجج التى تحصن عقول الإسلاميين..

والله من وراء القصد.. منه نستمد العون والتوفيق(١).

---

(١) انظر بكتاب [بين الإسلام والدنيوية] للدكتور مجدى قرقر ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م.

الأزهر والعلمانية

منذ أن وفدت العلمانية إلى بلادنا ـ فى ركاب الغزوة الإمبريالية الغربية الحديثة ـ كان لكبار علماء الأزهر الشريف موقف شرعى ثابت، يرفض هذه العلمانية التى تسعى إلى تهميش الإسلام وعزل هداياته عن الحياة ـ كما تسعى إلى إذابة الأمة الإسلامية وإلحاقها بالمركزية الحضارية الغربية، ليتأيد ويتأبد احتلال الأرض ونهب الثروات.

وفى هذا الموقف الإسلامى الثابت..

يقول العلامة الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى [١٢١٦ ـ ١٢٩٠هـ ١٨٠١ ـ ١٨٧٣م]

إن لأهل أوروبا فى العلوم الحِكْميّة ـ [الفلسفة] ـ حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية.. وكتب الفلسفة بأسرها محشوة بكثير من هذه البدع.

* وينبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع، لا بطرق العقل المجرد.. فالذى يرشد إلى تزكية النفس هو سياسة الشرع.. وكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لاتثمر العاقبة الحسنى.

* وإن بحر الشريعة الغراء، على تفرّع مشارعه، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقى والرى، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية، لأنها أصل، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع..

والمعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما أخلّت بالحقوق.. ومن أمعن النظر فى كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية.. إذ الكتاب العزيز جامع لأنواع المطلوب من المعقول والمنقول،

مع ما اشتمل عليه من بيان السياسات المحتاج إليها فى نظام أحوال الخلق، كشرع الزواجر المفضية إلى: حفظ الأديان، والعقول، والأنساب، والأموال.. وشرع ما يدفع الحاجة على أقرب وقت يحصل به الغرض، كالبيع، والإجارة، والشركة أو المضاربة أو القرض، والمخابرة، والعارية، والصلح، وغير ذلك.. وكالزواج، وأصول أحكامها».

* * *

ويقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م]

* «إن فلاسفة المدنية الأوروبية وعلماءها قد عجزوا عن اكتشاف طبيعة الإنسان، والرجوع إلى فطرة التدين، التى هى الدوراء الذى يصقل النفوس ويعيد لها لمعانها الروحى..

* وإن أنفس المسلمين قد أُشربت الانقياد إلى الدين، حتى صار طبعًا فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرًا غير صالح للتربة التى أودعه فيها، فلا ينبت، ويضيع تعبه، ويخفق سعيه.. فما لم تكن معارفهم وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها فى نفوسهم..

ولذلك، فإن سبيل الدين لمريد الإصلاح فى المسلمين سبيل لا مندوحة عنها..

وإذا كان الدين كافلًا بتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم فى غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء فى إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟!

* والإسلام دين وشرع: كمال للشخص، وأُلفة فى البيت، ونظام للملك، امتازت به الأمم التى دخلت فيه عن سواها ممن لم تدخل فيه..

وهو لم يدع ما لقيصر لقيصر، بل كان من شأنه إن يحاسب قيصر على ما له، ويأخد على يده فى عمله..

* ولم يعرف الإسلام تلك السلطة الدينية التى عرفتها أوروبا.. ولا يجوز الخلط بين الخليفة عند المسلمين وبين ما يسميه الإفرنج «ثيوكرتيك»، أى سلطان إلهى.. فليس فى الإسلام سلطة دينية بوجه من الوجوه.. بل إن قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من الأساس هو أصل من أجلّ أصول الإسلام..

والحاكم فى الإسلام حاكم مدنى من جميع الوجوه.. توليه الأمة، وتحاسبه، وتعزله عند الاقتضاء.. والشريعة الإسلامية وافية بسد حاجات طلاب العدل فى كل زمان ومكان».

* * *

ويقول الشيخ سعد زغلول باشا [١٢٧٣ ـ ١٣٤٦هـ ١٨٥٧ ـ ١٩٢٧م].

* «لقد قرأت كثيرًا للمستشرقين وسواهم، فما وجدت ممن طعن منهم فى الإسلام حِدَّة فى التعبير على نحو ما كتب الشيخ على عبد الرازق ـ فى كتاب [الإسلام وأصول الحكم].

وقد عرفت أنه جاهل بقواعد دينه، بل بالبسيط من نظرياته، وإلا فكيف يدعى أن الإسلام وليس دينًا مدنيًّا؟! ولا هو بنظام يصلح للحكم؟! فأية ناحية من نواحى الحياة لم ينص عليها الإسلام؟! هل البيع؟ أو الإجازة؟ أو الهبة؟ أو أى نوع آخر من المعاملات؟؟

ألم يدرس شيئًا من هذا فى الأزهر؟!

أو لم يقرأ أن أممًا حكمت بقواعد الإسلام فقط عهودًا طويلة كانت أنضر العصور؟!، وأن أممًا لا تزال تحكم بهذه القواعد، وهى آمنة مطمئنة؟!

فكيف لايكون الإسلام مدنيًّا ودين حكم؟!

أين كان هذا الشيخ من الدراسة الدينية الأزهرية؟!

* والذى يؤلمنى حقًّا أن كثيرًا من الشبان الذين لم تقو مداركهم فى العلم القومى، والذين تحملهم ثقافتهم الغربية على الإعجاب بكل جديد، سيتحيزون لمثل هذه الأفكار، خطأ كانت أو صوابًا، دون تمحيص ولا درس..

* وكم وددت أن يفرق المدافعون عن الشيخ بين حرية الرأى، وبين قواعد الإسلام التى تصدى كتابه لهدمها..».

* * *

وقال الشيخ جاد الحق على جاد الحق [١٣٣٥ ـ ١٤١٦هـ ١٩١٧ ـ ١٩٩٦م].

* «العلمانية: مذهب غربى، يدعو إلى التخلص من الدين، وعزله عن حركة المجتمع وشئون العمران ـ فى المعارف.. والتطبيق.. والسلوك.. يعزل الدين عن الدنيا، وذلك باستثناء خصوصيات فى العقائد والشعائر العبادية.. وهو مذهب مادى، وفكر خاطئ..

* ولقد ظهرت العلمانية ثمرة غربية لملابسات غربية، ذلك أن النصرانية تقول: إنها رسالة روحية، تحصر همها فى خلاص الروح، وفى مملكة السماء.. ولذلك كان تطلع كنيستها إلى شئون الدولة والعمران الدنيوى تجاوزًا لمبدئها الداعى إلى أن تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله..

فإذا جاءت العلمانية لترد النصرانية إلى داخل الكنيسة، ولتحصرها فى إطار علاقة الفرد بالخالق، جاز لها ذلك، بل وكان موقفها هذا تصحيحًا للخطأ الذى تجاوزت به الكنيسة الغربية حدود نصرانيتها..

* وليس هكذا الحال مع الإسلام.. الذى هو منهاج شامل للدين والدنيا.. للعقيدة والشريعة والحضارة والأخلاق..

للحياة الدنيا وللآخرة ـ التى هى خير وأبقى ـ فالإسلام يصبغ العمران بالصبغة الإلهية، ويضبط الخلافة الإنسانية بالشريعة الإسلامية، [ومقاصد شريعته تتغيا الحفاظ على كل مقومات الإنسانية والعمران.. بينما كلمة «الشريعة» لم ترد فى الأناجيل النصرانية على الإطلاق!..].

فالدعوة إلى إبعاد الإسلام ـ بالعلمانية ـ عن سياسة الدولة وشئون العمران، هو قطع لإحدى ساقيه، وتعطيل لإحدى رئتيه، وكفران ببعض آيات كتابه، ينتقص من كمال واكتمال الإيمان بهذا الإسلام..

ولذلك يبدو شذوذ الدعوة إلى العلمانية فى الواقع الإسلامى، باعتبارها دعوة إلى «حل» ليست له «مشكلة» فى عالم الإسلام؟!

* * *

وقال الشيخ الدكتور محمد البهى [١٣٢٣ ـ ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٠٥ ـ ١٩٨٢م].

* «العلمانية: نظام من المبادئ والتطبيقات يرفض كل صورة من صور الإيمان الدينى والعبادة الدينية.

* وليس للعلمانية مكان فى وجود الإسلام، فإما أن يوجد الإسلام ولا علمانية، أو توجد علمانية ولا إسلام.. إنها حل لوهم، وليست حلًّا لحقيقة قائمة فعلًا..

فحكومة الإسلام، فى تطبيق مبادئه، ليست إلهية، بل هى بشرية، تخضع للنقد، وتقبل الشورى والمطالبة بها..

إنه ليس هناك فى الإسلام حكومة إلهية من مجموعة من الناس أيًّا كان إخلاصهم فى عبادتهم لله، وأيًّا كانت منزلتهم منه إذا أخذنا بتعاليم القرآن واتبعنا مبادئه فى سياسة الحكومة، فهى حكومة إنسانية تخضع للخطأ والصواب..

* وفى الغرب، ومع تطبيق العلمانية، لم تزل الكنيسة ذات تأثير قوى عن طريق الأحزاب المسيحية فى العالم الكاثوليكى كله.

* وإذا كانت العلمانية فى الغرب قد فصلت بين سلطتين ـ الزمنية والدينية ـ فإن الإسلام ليس فيه سلطتين.. ولذلك كان تطبيق العلمانية ـ التى فرضها الاستعمار على بلاد الإسلام ـ فصلًا بين الدين الإسلامى وبين الدولة، أى إبعاد الإسلام عن الحكم وشئونه، إذ ليس فى الإسلام مكان لسلطتين ولا لحكومتين..

* وتدريجيًا ـ وفى ظل الاستعمار الغربى لبلاد الإسلام ـ أخذ يخف الرجوع إلى التراث الإسلامى والمصادر الإسلامية، ويتجه الاعتماد على ما للغرب من ثقافة وتشريع وتخطيط فى البحث والتعليم، وبذلك يضعف استقلال المجتمعات الإسلامية، بينما تشتد تبعيتها لصاحب القوة فى التوجيه وصاحب المصلحة فى إضعاف استقلال المجتمعات الإسلامية.

كما أخذ الدفع بحركة تحرير المرأة إلى الخروج عن المسار الإسلامى الصحيح، ليس عن طريق العلمانية وحدها، وإنما عن طريق الصليبية الدولية والإلحاد كذلك».

* * *

وقال الشيخ محمد الغزالى [١٣٣٥ ـ ١٤١٦هـ ١٩١٧ ـ ١٩٩٦م].

* لقد عرفنا من كتاب ربنا وسنة نبينا ـ ﷺ ـ أن الإسلام عقيدة وشريعة، عبادات ومعاملات، إيمان ونظام، دين ودولة.. دين شامل منذ بدأ من خمسة عشر قرنًا.. وبالإحصاء والاستقراء، نجد أن الإسلام دين الفرد والمجتمع والدولة.. إنه لم يترك شيئًا إلا وتحدث عنه، ما دام هذا الشىء يتصل بنظام الحياة وشئون الناس..

* وعرفنا من دراساتنا من التطبيقات الواعية التى ورثناها أن الدولة التى يقيمها الإسلام لا توصف بأنها علمانية، ولا توصف بأنها دينية على النحو الذى يفهمه الناس من كلمة دين، ومن الإيحاءات المحيطة بالحكومة الدينية كما عُرفت فى القرون الوسطى الأوروبية..

* وإذا كانت بعض الدول الآن ترى أن هدفها الأساسى هو رفع مستوى المعيشة.. فإن هذا المعنى يتجاوزه الإسلام، لأنه يتجاوز الدنيا إلى الآخرة، ويتجاوز الجسد إلى الروح، ويتجاوز عالمنا المادى إلى ما يرضى رب الناس الذى أبدع المادة والروح معًا، وله حقوق لا بد أن نؤديها، وله معالم لا بد أن نتعرف عليها ونقف عندها.

إن الحكومة فى نظر الإسلام، حكومة ولاؤها لله، وانتماؤها لهذه العقيدة، وعملها أن تتبين هدايات الله فى النفس والمجتمع والدولة، ثم تمشى فى ضوء هذه

الهدايات كى ترضى ربها، وتحقق بذلك سعادتها فى الدنيا والآخرة، فهى من هذه الناحية ليست دولة علمانية.

* وإن كلمة «دولة دينية»، بمعنى التعصب، أو بمعنى الضن بالكرامة المادية والأدبية على الآخرين، لم يُعرف فى تاريخنا. ولذلك أرفض أن أصف حكومتنا التى يقيمها الإسلام بأنها حكومة دينية بهذا المعنى الذى يثب إلى أذهان الأوروبيين، والذى نقله الاستعمار الثقافى إلى أعداد كبيرة من الغوغاء التى قرأت كثيرًا من الكتب ولكن لا تحقيق لها ولا علم، وظنت أن الإسلام حينما يقيم دولته الدينية يصنع ما صنعه الذين أقاموا (محاكم التفتيش)..

إن الحرية الدينية ابتداع إسلامى، فما عُرفت الحرية الدينية على هذا النحو إلا فى تراثنا، نظرية وتطبيقًا.. على الأعم الأغلب فى تاريخنا كله ـ ولا يخلو تاريخ من هنات ـ لكن تاريخنا لا يُعرف له نظير..

* وأنا أنظر إلى العلمانيين على أنهم قسمان:

١ ـ قسم له مقترحات حسنة فى الإصلاح، لكنه لا يعرف الشريعة الإسلامية ولا حقيقة الدين الذى ينتمى إليه، فهو يظن أن ما يقترحه ليس من الإسلام، أو بعيد عن الإسلام، أو أن الإسلام قد يضيق به، ولو كان واسع الأفق، واسع الاطلاع لأدرك أن ما يقترحه هو من الإسلام، لكنه ما فكر، أو غلبه التيار الثقافى الاستعمارى، فهو مع هذا التيار يقتبس أشياء غير صحيحة، ولو أنه أنصف لأصطلح مع دينه، ورجا الخير فى كنفه..

٢ ـ وهناك صنف آخر من العلمانيين، وجدته جريئًا على الله، كارهًا للإسلام، ضائقًا بالكتاب والسنة.. وهذا النوع من الناس لا بد أن أقف منه موقفًا فيه يقظة، فيه صرامة. لماذا؟.. لأن الأمة الإسلامية الآن فى فترة عصيبة من تاريخها، طمع فيها من لا يدفع عن نفسه، تربص بها كل عدو كان يخافها قديمًا، فإذا تركت دينى تعبث به الأهواء، وتركنا أمتنا تلعب بها عصابات لا تعرف شيئًا عن دين الله ولا دنيا الناس فإننى أكون خائنًا لهذا الدين، وخائنًا لهذه الأمة. ولذلك فنحن نرفض رفضًا باتًا كل من يقف بعيدًا ينبح قافلة الإسلام، ويؤذى الله ورسوله، ويتحدث بصفاقة غريبة عن

الحكم الإسلامى، وعن رجعيته، وعن تأخره ـ إلى آخر هذا الموضوع ـ نحن فى فترة من فترات الدفاع عن النفس، وعن الكيان..

* فى أوروبا، إذا قلت: الديمقراطى المسيحى فلا حرج، لكن لو قلت: الديمقراطى الإسلامى هنا، لقالوا لك: إخرس!..

إننا نريد من العلمانيين أن يتعلموا من إسرائيل، فاليهود الذين يحكمون فلسطين باسم نبى من الأنبياء احتقروا العلمانية، ورفضوا أن ينضووا إلا تحت مظلة الدين..

* تحت عنوان العلمانية ـ [فى بلادنا] ـ أُهمل كتاب لا ريب فيه، وتُنوسيت سنة مضيئة، وقُدمت بين يدى الله ورسوله أوهام وأهواء غاض منها الجد والشرف، ولم نجن منها إلا الصاب والعلقم!.

لقد استفحلت العلمانية ليتم تحت شعارها تغيير الفقه والتشريع، وتغيير الأدب والتربية، وتغيير العلاقة بالله، ومنع الاستمداد من وحيه! فالمطلوب ارتداد يتم بطريق التدرج أو الطفرة حسب الظروف والأحوال!.

وإذا كان غيرنا معذورًا فى نبذ مواريث له ناقضت العقل، وخاصمت العلم، وأشقت الجماهير، فما عذر الذين يطلبون منا أن ننسى دينًا قام على العقل والعلم، وجعل شرع الله حيث تتحقق مصالح الجماهير؟!

إننى أوصى الأجيال الناشئة بأن تلعن كل من يحقر لها دينها، وأن تتشبث بهذا الدين، وأن تعتمد على الله، وأن تمضى فى الطريق، وستنتصر يومًا إن شاء الله!.

* * *

وقال الشيخ محمد متولى الشعراوى [١٣٢٩ ـ ١٤١٩ هـ ـ ١٩١١ ـ ١٩٩٨م].

* «إن الخلاف بين الإسلام والعلمانية يدخل فى أصل الأصول.. فالتشريع الإسلامى شمل كل أمور الحياة.. من القمة.. من لا إله إلا الله.. إلى إماطة الأذى عن الطريق.. لقد جاء التشريع الإسلامى بنظام فيه حل لكل قضايا الحياة، حل ذهب إليه حتى الذين يدينون بغير الإسلام، لم يذهبوا إليه تدينًا، ولكن لأنهم وجدوها حلولًا مُثلى لكل قضايا الحياة التى عرضتهم. وهذا هو المعنى فى قوله تبارك وتعالى:

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح: ٢٨].

* ولقد حاول أعداء الإسلام أن يواجهوه سنوات طويلة، ولكنهم عجزوا، ثم تنبهوا إلى أن هذا الدين لا يمكن أن يُهزم إلا من داخله، وأن استخدام المنافقين فى الإفساد هو الطريقة الحقيقية لتفريق المسلمين، فانطلقوا إلى المسلمين اسمًا ليتخذوا منهم الحربة التى يوجهونها ضد الإسلام، وظهرت مذاهب من مثل العلمانية واليسارية.. كل هذا قام به المنافقون فى الإسلام، وغلفوه بغلاف إسلامى، ليفسدوا فى الأرض ويحاربوا منهج الله..

* إننا نريد أن نُحكم بالإسلام.. إن الغاية والقصد أن تكون المرجعية للشريعة الإسلامية، وأن يقوم الحاكم على عدالة تطبيقها.. أما من يحكم؟ فذلك أمر مرجعيته هى إرادة الأمة».

* * *

وقال الشيخ محمد حسين الذهبى [١٣٣٣ ـ ١٣٩٦هـ ١٩١٥ ـ ١٩٧٦م].

* «مخطئ كل الخطأ من لا يؤمن بمسايرة الشريعة الإسلامية لكل عصر، وصلاحيتها لكل جيل وقبيل.. ومنكر لعقله من ينكر أن الإسلام بتعاليمه ومراسيمه قد بلغ مرتبة الكمال التشريعى، حتى شهد له بذلك أعداؤه، ورجعوا إلى كثيرمن آرائه، وطبقوها على أنفسهم.

وقصير النظر من يتطلب لهذه الأمور المتجددة يومًا بعد يوم، نصًا صريحًا من القرآن أو السنة يمكن تطبيقه عليها، فالشريعة الإسلامية ـ سواء منها ما يرجع إلى الكتاب أو السنة ـ لم تجر أحكامها على طريقة واحدة من التفصيل والبيان، بل عالجت بعض المسائل على استقلال، وأدمجت كثيرًا من المسائل تحت قواعد كلية على المسائل الجزئية، ما جد منها وما يجد، وعلى هذا نفهم قول الله تعالى:

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨ ـ..]».

* * *

وقال الشيخ عطية صقر [١٣٣٣ ـ ١٥٢٧ هـ ١٩١٤ ـ ٢٠٠٦م].

* «إن العلمانية تعنى اللادينية.. والفصل مابين السياسة والدين.. وعدم المبالاة بالدين، وهى نزعة أو اتجاه أو مذهب اعتنقه جماعة فى أوروبا فى مقابل ماكان سائدًا فيها فى العصور المظلمة، التى تسلط فيها رجال الدين على كل نشاط فى أى ميدان، مما تسبب عنه ركود وتخلف حضارى بالنسبة إلى ماكان موجودًا بالذات عند المسلمين من تقدم فى كل المجالات.

والعلمانية، بهذا المفهوم، يأباها الإسلام، المنزه عن كل العيوب والمآخذ التى وجدت فى الأديان الأخرى، التى لعبت فيها الأصابع وحرفتها عن حقيقتها، ذلك لأن الإسلام هو دين الإصلاح الشامل، الذى ينظم علاقة الإنسان بربه وعلاقته بالمجتمع الذى يعيش فيه، ويوفر له السعادة فى الدنيا والآخرة على السواء، فهو دين ودنيا، دين ودولة، عبادة وقيادة..

* وليس فى الإسلام سلطة مقدسة مستمدة من سلطة الله، وليس فى البشر من هو معصوم من الخطأ، إلا من اصطفاه الله لرسالاته، والحكم من ذوى السلطان ليس لذواتهم، بل الحكم للدين أولًا وآخرًا، فكل شىء فيه اختلاف رأى يُرد إلى الله وإلى الرسول، أى الكتاب والسنة..

* والإسلام دين تقدم وتطور وحضارة، ليس جامدًا ولا متمسكًا بالقديم على علاته.. إنه دين صالح لكل زمان ومكان..

* والإسلام يرفض العلمانية، والمسلمون ليسوا فى حاجة إليها، إنما هم فى حاجة إلى فهم دينهم فهمًا صحيحًا وتطبيقه تطبيقًا سليمًا كاملًا»..

* * *

وقال الشيخ خالد محمد خالد [١٣٣٩ ـ ١٤١٦هـ ١٩٢٠ ـ ١٩٩٦م].

* «إن القرآن لم ينزل على قلب الرسول ـ ﷺ ـ ليتعبد به المؤمنون فحسب، بل وليكون أولًا منهجًا للحكم يحكم به الرسول أمته المسلمة بما أراه الله، أى بما رسم له فى هذا القرآن من سبيل وبما قنن فيه من قانون..

ويرفض القرآن ويدحض كل أفتيات على حكم الله، كل عدول عنه إلى حكم وضعى مريج ـ [ملتبس ومختلط] ـ فيقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾[المائدة: ٤٧ ـ...].

ويوبخ القرآن أولئك الذين ينحرفون عن حكم الله إلى حكم البشر:

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة: ٥٠ ـ...].

أجل. كيف يبتغى المؤمنون حكمًا غير حكم الله، وهو الذى أنزل إليهم الكتاب مفصلًا ومحكمًا وتبيانًا لكل شىء، وأرسل إليهم خاتم أنبيائه ورسله يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويدعوه ويدعوهم بقوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾[الشورى: ١٠..].

إن للإسلام دورًا غير هداية الناس، هو دور الحكم والحاكم الذى يحمى ذمارهم، وينظم حياتهم عن طريق دولته التى يجب أن تقوم وأن تبقى ما بقى فى الدنيا إسلام..

ودستور هذه الدولة ماثل فى كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة: وإجماع الأمة يتشكل وفق ما فى القرآن والسنة من أحكام..

فالقرآن فى الدولة المسلمة هو أبو القوانين فيها»..

وقال الشيخ الدكتور طه حسين [١٣٠٧ ـ ١٣٩٣هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م].

* «إن خلاصة الدين المسيحى لا تحب السياسة.. ولقد نصح الإنجيل بترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله.. لكن الإسلام لا يوصى بأن يترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله، وإنما جعل الأمر كله لله، وجعل سلطان قيصر مستمدًا من سلطان الشعب، وسلطان الشعب مستمدًا من سلطان الله. وجعل السياسة، إذن، أصلًا من أصول الدين، وركنًا من أركانه.

* وعندما بلغ محمد دار هجرته.. أسس هو وأصحابه هذه الدولة التى نشرت فى الأرض نور الدين الجديد.. الدولة التى ما زالت آثارها خالدة، وستظل خالدة إلى آخر الدهر..

* وإنه من المقطوع به أن الأغلبية لن تقبل ـ عند وضع الدستور ـ أن نخرج على ما أمر به الإسلام.. وليس هناك مقتض يسمح لنا بأن نعدل عن نص القرآن.. وإذا احترمت الدولة الإسلام فلا بد أن تحترمه جملة وتفصيلًا.. وذلك حتى لا يكون الإيمان إيمانًا ببعض الكتاب وكفرًا ببعضه الآخر..

* إن القرآن دين وشرع.. وإن مصادر التشريع هى: القرآن والسنة والإجماع والاجتهاد.. فكل ما يعرض للمسلمين من الأمر فى حياتهم من المشكلات يجب عليهم أن يردون إلى الله ورسوله».

* * *

وقال الشيخ الدكتور يحيى هاشم حسن فرغل [١٣٥١ ـ ١٤٣٢هـ ١٩٣٣ ـ ٢٠١١م].

* «إن العلمانية هى اللادينية أو الدنيوية..

* وليس للعلمانية مكان فى وجود الإنسان مع الإسلام، فإما أن يوجد الإسلام ولا علمانية، أو توجد العلمانية ولا إسلام..

إن الإسلام كما جاء فى القرآن الكريم: نظام يشمل الإنسان من جميع أقطاره، فى علاقته بالدنيا والآخرة، والشاهد والغائب، والعقل والقلب والروح والجسد، والفرد والمجتمع، بما لا يترك مدخلًا للعلمانية..».

* * *

وقال الشيخ الدكتور نصر فريد واصل:

* «إن الفصل بين الدين والدولة هو الفساد بعينه، مثل الفصل بين الروح والجسد..

وما نحن فيه الآن من فساد، سواء كان فى الحياة أو فى الاقتصاد أو فى الجانب الاجتماعى، أو ما نراه من قتل أو اغتصاب، أو ما نراه من أزمات الآن، سواء كان على المستوى المحلى أو العالمى، كلها بسبب الفصل الكامل بين الدين والدولة..».

* * *

وقال الشيخ الدكتور يوسف القرضاوى:

* «إن العلمانية هى اللادينية أو الدنيوية.. أى ما لا صلة له بالدين، أما ما كانت علاقته بالدين علاقة تضاد.. إنها السياسية اللادينية البحتة فى الحكومة.. إنها «بضاعة غربية»، لم تنبت فى أرضنا، ولا تستقيم مع عقائدنا ومسلماتنا الفكرية..

* ولقد كان لظهور العلمانية فى الغرب مبرراته الدينية، والفكرية والنفسية، والتاريخية والواقعية:

أ ـ فالمسيحية تقبل قسمة الحياة بين الله وبين قيصر..

ب ـ والمسيحية ليس فيها تشريع لشئون الحياة..

جـ ـ وليس فى الإسلام سلطة دينية بابوية..

د ـ وتاريخ الكنيسة غير تاريخ الإسلام..

* وإن تقسيم شئون الحياة إلى ما هو دينى وما هو غير دينى تقسيم غير إسلامى، بل هو تقسيم مستورد مأخوذ من الغرب النصرانى.. فلم يكن فى الإسلام أناس يسمون رجال دين، وآخرون يسمون رجال العلم أو السياسة أو الدنيا، ولم يعرف الإسلام سلطتين إحداهما دينية والأخرى زمنية أو دنيوية، ولم يُعرف فى تراث الإسلام دين لا سياسة فيه، ولا سياسة لا دين فيها. لقد كان الدين ممتزجًا بالحياة كلها، امتزاج الروح بالجسم، وكذلك كان الدين والعلم، أو الدين والدنيا، أو الدين والدولة فى الإسلام. فالعلمانية مرفوضة فى أوطاننا عامة، وفى مصر خاصة، بأى معيار احتكمنا إليه.

فالأصل لدى العلمانيين أن يبقى الطابع الغربى سائدًا غالبًا على عاداتنا وتقاليدنا فى المأكل والملبس والزينة والمسكن والعلاقة بين الرجال والنساء ونحوها، ضاربين عرض الحائط بما قيد الله به الفرد المسلم والمجتمع المسلم من أحكام الحلال والحرام.

والشيء الذى تقف العلمانية ضده بكل صراحة وقوة هو الشريعة التى تنظم بأحكامها الحياة الإسلامية وتضع لها الضوابط الهادية والعاصمة من التخبط والانحراف.. وإذا لم يُحكم المجتمع بما أنزل الله سقط لا محالة فى حكم الجاهلية..

ولذلك كانت العلمانية بمعيار الدين دعوة مرفوضة، لأنها دعوة إلى حكم الجاهلية، أى الحكم بما وضع الناس لا بما أنزل الله..

والمسلم إذا فُرضت عليه العلمانية فقد فُرض عليه أن يتحلل من دينه وما يوجب عليه ربه وماتُلزمه به شريعته..

وكما أن العلمانية ضد الدين.. فهى ضد الدستور نصًا وروحًا.. وهى كذلك ـ ضد إرادة الشعب، وضد الدعوة الديمقراطية.. لأن تحكيم شرع الله فى دنيا الناس مطلب شعبى تنادى به الجماهير من شتى الطبقات..»[1].

(١) انظر [الأزهر والعلمانية] بكتابنا [موسوعة الإسلام وقضايا العصر] طبعة نيو بوك ـ القاهرة.

حوار الإسلامية والعلمانية

«الإسلاميون».. و«العلمانيون».. مصطلحان شاع استخدامهما فى كثير من الأدبيات الفكرية والسياسية المعاصرة، المتخصصة منها والصحفية على السواء.

* **أما مصطلح «الإسلاميين»** ـ فمن العلمانيين من ينكر ويستنكر استخدامه كوصف لقطاع من المسلمين دون غيرهم ـ رغم أنه مصطلح قديم الاستخدام فى أدبيات الفكر الإسلامى القديم.. وشهير ذلك الكتاب الذى كتبه إمام الأشعرية، أبو الحسن الأشعرى [٢٦٠ ـ ٣٢٤هـ/ ٨٧٤ ـ ٩٣٦م] تحت عنوان (مقالات الإسلاميين)، بل إن هناك كتابًا آخر، يحمل نفس العنوان، كتبه واحد من أئمة المعتزلة، كان معاصرًا للأشعرى، وهو أبو القاسم البلخى [٣١٩هـ/ ٩٣٦م] إذن، فمصطلح «الإسلاميين» قديم، وليس من مخترعات الصحوة الإسلامية المعاصرة، كما يحسب بعض الناس.

وهذا المصطلح لا يستخدم ـ قديمًا ولا حديثًا ـ باعتباره مرادفًا لمصطلح: «المسلمين».. «فالمسلمين»: هم كل من يتدين بدين الإسلام، أمَّا «الإسلاميون» فإنهم طلائع الفكر والعمل الإسلامى، المشتغلون بصناعة الفكر، والذين يقودون العمل لوضع هذا الفكر فى الممارسة والتطبيق، فكل «إسلامى» هو مسلم، وليس العكس دائمًا بصحيح!

والذين ينظرون فى كتاب الأشعرى (مقالات الإسلاميين)، أو فيما بقيَ من كتاب البلخى، لا يجدون حديثًا عن جمهور المسلمين وعامتهم، وإنما عن الفرق الإسلامية والجماعات التى تمثل تيار الفكر الإسلامى، والتى تعمل بصناعة الفكر، وتجاهد من أجل وضعه فى الواقع، لينمو ويزدهر ويسود.

وبهذا المعنى المحدد لهذا المصطلح ـ «الإسلاميون» ـ شاع ويَشِيعُ استخدامه فى الأدبيات الحديثة، عنوانًا على طلائع وتنظيمات ومؤسسات وعلماء ومفكرى الصحوة الإسلامية، أولئك الذين يجتهدون ويجاهدون لقيادة الأمة؛ كى تنهض فتغير الكثير من الأفكار السائدة، وَتَسْتَبْدِلَ الكثير من معالم الواقع السائد، وفقَ مناهج الإسلام كما يتصور كل فصيلٍ من فصائل هذه الطلائع والتنظيمات والمؤسسات والعلماء والمفكرين، فإذا قلنا: التنظيمات الإسلامية أو المفكرون الإسلاميون، أو المؤسسات الإسلامية، فلا يعنى ذلك: نفى الإسلام، ولا نفى التدين به عن غيرهم ممن هم مسلمون، يؤمنون بالإسلام ويتدينون به، لكنهم لم يختاروا لأنفسهم مواقع الطلائع المجاهدة ـ على مختلف جبهات الجهاد ـ فى سبيل إعادة الصبغة الإسلامية، والمعايير الإسلامية، لتحكم تصورات الفكر، وحركة الواقع فى حياة المسلمين.

* **أمَّا مصطلح «العلمانيين»**.. فإنه، فى نشأته الغربية، قد عَنَى ويعنى: أولئك الذين رفضوا تدخل الكنيسة أو سيطرتها، وتدخل اللاهوت المسيحى ومعاييره فى شئون الدولة ومؤسساتها وفكرها الدنيوى، وجعلوا العالَم والواقع والدنيا المنطلق الوحيد والمصدر الأوحد للفكر وللممارسات الدنيوية فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والعلم والتعليم والإعلام، إنهم الطلائع الغربية التى قادت النهضة الحديثة فى الغرب، فى مواجهة الكنيسة ولاهوتها وسلطتها الدينية، فاستخلصت الدولة والمجتمع ـ أو حاولت ذلك ـ من قالب قدسية التصورات الكنسية، التى فرضت عليها الجمود والتخلف لعدة قرون.

أما عن الاستخدام العربى والإسلامى لهذا المصطلح «العلمانيون» فلقد جاء ثمرةً من ثمرات سيادة الفكر الغربى على الواقع الإسلامى، بعد عموم هيمنة الغزوة الاستعمارية الحديثة على ديار الإسلام، وأول من أدخل هذه الكلمة وكتبها هكذا: «عَالْمانى» ـ و«عالمانية» ـ نسبةً إلى العالَم ـ كمقابل لله والدين والمقدس ـ هو أحد المترجمين عن الفرنسية «إلياس بقطر المصرى» ـ والذى عَمِل مترجِمًا للحملة الفرنسية على مصر ـ [١٧٩٨ ـ ١٨٠١م] ـ والذى رحل إلى فرنسا؛ حيث عمل مدرسًا للعربية العامية بمدرسة اللغات الحية بباريس؛ كان إلياس بقطر هو أول من ترجم هذا

المصطلح عن الفرنسية، عندما ترجم المعجم الفرنسى إلى العربية سنة (١٨٢٨م)(١)، ثم.. وبالتدريج، شاع استخدام مصطلح «العلمانى» و«العلمانيين» على شريحةٍ من المفكرين والمثقفين الذين تَبَنَّوْا موقف الحضارة الغربية الحديثة فى ضرورة فصل الدين عن الدولة؛ لأنهم رأوا الإسلام ـ كما رأت أوروبا المسيحية ـ دينًا لا دولة، ومن ثَمَّ فلقد رأوا ضرورة أن تكون نهضتنا ـ كما كانت نهضة الغرب ـ علمانية، تفصل الدين عن الدولة، وتدع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله، هذا عن ضبط المصطلحات ـ «الإسلاميون».. «والعلمانيون» ـ وعن مضامينها.

❋ ❋ ❋

أمَّا عَمَّا تطرحه هذه الصفحات من ضرورة وأهمية الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين فى بلادنا الإسلامية، وفى الحركة الفكرية على امتداد ديار الإسلام، فإننا نقدم أفكارنا حوله فى عدد من النقاط الموجزة، طلبًا للحوار حولها، كتمهيد يضمن النجاح لهذا الحوار، وفى هذا المقام فإن هناك:

أولًا: دواعى الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين:

إن كاتب هذه الصفحات يؤمن بأن «التناقض الرئيس والْحَادَّ والمُلِحَّ»، فى ظروف الصراع الذى تعيشه أُمَّتُنَا، والتحديات التى تواجه نهضتنا ـ ليس هو التناقض بين الإسلاميين والعلمانيين من أبنائها، وإنما هو الصراع بين الأمة، بتياراتها المختلفة والمتعددة، وبين الهيمنة الغربية بصورها المتعددة: الحضارية، والسياسية، والاقتصادية، والعسكرية.. إلخ.. إلخ.. فتيارات الأمة المختلفة ـ ومنها الإسلاميون والعلمانيون ـ عندما تواجه هيمنة الغرب وتحدياته، لا بد وأن تكتشف هذه التيارات أن ما بينها من نقاط التقاء أو تقارب فى المواقف، يُرَجِّحُ ما بينهم جميعًا وبين الهيمنة الغربية من فواصل وتناقضات.

---

(١) انظر: «علمانى وعلمانية.. تأصيل معجمى»، د. السيد أحمد فرج، مجلة الحوار. العدد (٢) السنة الأولى (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).

وهنا قد يتساءل البعض ـ وله كل الحق فى هذا التساؤل: إذا كانت العلمانية خيارًا غربيًا ـ وهى كذلك فى رأينا ـ وإذا كان العلمانيون فى بلادنا ـ رغم الجنسية واللغة والمواطنة والدين ـ هم رافد متغرب، يمثل امتدادًا للفكر الغربى فى عقل الأمة ووجدانها، ألا يكون الأوفق والأدق أن نعتبرهم مع الغرب فى سلة واحدة ومعسكر واحد، فنرى ـ نحن الإسلاميين ـ أن ما بيننا وبينهم من تناقضات، هى ذات ما بيننا وبين الغرب ـ مصدر النَّسَق الفكرى الذى به يؤمنون وإليه يَدْعُون ـ من تناقضات؟.. وألا يكون ـ والحال هكذا ـ هذا التناقض القائم بين الإسلاميين والعلمانيين تناقضًا رئيسًا وعدائيًّا، يجعل الحوار معهم عبثًا؛ لأن الواجب معهم هو «الصراع» وليس «الحوار»؟!

هذا هو التساؤل المشروع والوجيه الذى لا بد من الإجابة عنه، قبل المُضِيِّ فى تعداد الأفكار التى نقترحها حول هذا الحوار.

وبادئ ذى بدء فإننا ممن يؤمنون بالعلاقة القائمة بين «الحوار» وبين «الصراع»! ففى كل «صراع» «حوار» ـ حتى وإن تعددت الأساليب! ـ وفى كل «حوار» «صراع»، يتخذ الشكل المناسب للموضوع ولدرجات التوافق والتقارب والاختلاف بين فرقاء «الحوار»!. فليس هناك سور صينى يعزل «الحوار» عن «الصراع»!

ثم.. ـ وهذا مهم فى قضيتنا ـ إننا يجب أن نميز فى تيار العلمانيين ببلادنا الإسلامية بين شرائح وفصائل ثلاث:

أ ـ العلمانيون الثوريون:

الذين هم الامتداد للعلمانية الثورية الغربية، تلك التى لم تقف من الدين عند حدود طلب الفصل بينه وبين الدولة، وإنما أرادت ـ لفلسفتها المادية الخالصة ولنزعتها الإلحادية المعلنة ولِموقفها الثورى ـ وطمحت وعملت على اقتلاع الدين والتدين من المجتمع بأسره، يجب أن نميز هذه الشريحة من شرائح العلمانيين فى بلادنا ـ وهى محدودة العدد والتأثير، والحمد لله ـ لأن الخلاف معها فى «الأصول»، وليس فى «الفروع»، وهى فى تقديرنا، غير مؤهلة ـ طالما بقيت فى مواقعها الفكرية هذه ـ لأن تكون طرفًا فى حوار فكريٍّ حول معالم مشروع حضارى لاستقلال الأمة

ونهضتها؛ فإن مثل هذه الشريحة هى فى واقع الأمر جزء من الامتداد السرطانى الغربى، يصعب، إن لم يكن مستحيلًا صلاحها لتكون طرفًا فى هذا الحوار!

ب ـ الداعون ـ بوعى لتبعيتنا للغرب:

وهذا الشريحة من شرائح التيار العلمانى فى بلادنا، وإن رفع أصحابها شعارات الدعوة إلى الاستقلال الوطنى، إلا أنهم يقفون به عند حدود الاستقلال الاقتصادى، لكنهم يعادون ما نسميه بـ «الاستقلال الحضارى»، استقلال الهُوية المتميزة عن هُوية الغرب؛ ولذلك فإن «الاستقلال» الذى يدعون إليه فى أوطانهم، هو فى حقيقته ـ (وعلى الجبهة الحضارية.. التى هى جوهر أى استقلال) ـ استقلال «الوطن ـ الإقليم» عن ماضيه وتراثه ومكوناته الإسلامية، وعن محيطه الإسلامى، وهم عندما يدعون هذا الوطن ـ الذى يعزله هذا «الاستقلال» عن هُويته الإسلامية، وعن أمته الإسلامية ـ إلى تبنى «الخِيار الحضارى الغربى»، فإنهم إنما يدعونه إلى الالتحاق والإلحاق الحضارى بالمركز الغربى، فهى حقيقةً ـ والحال هذه ـ دعوةٌ للتبعية، وليست للاستقلال، ودعاتها «عملاء» لحضارة الغرب، حتى وإن رفعوا شعارات «الاستقلال» عن الاستعمار السياسى الغربى لأوطانهم!

ولقد يتساءل البعض: هل هناك وجودٌ حقيقى لمثل هذه الشريحة فى التيار العلمانى ببلادنا؟!

ونحن نقول: نعم، إنهم ـ رغم قِلَّتِهِم ـ والحمد للَّه ـ موجودون، ولقد تخلَّق موقفهم هذا فى واقعنا الفكرى والعملى منذ الحملة الفرنسية على مصر، وتبلورت دعوتهم فى صورة استبدال الرابطة الحضارية الغربية برابطة الجامعة الإسلامية.. ولقد كانوا ـ ولا تزال بقاياهم ـ على وعيٍ بأبعاد موقف التبعية التى إليها يدعون وبها يبشرون؛ ذلك أن الرباط الجامع لأبناء هذه الشريحة من العلمانيين كان العداء للإسلام كدين، ولرابطة الجامعة الإسلامية، كرمز لوحدة أمة وديار الإسلام وكانوا فى الأساس، من غير المسلمين ـ كشرذمة من الأقباط الذين قادهم الجنرال يعقوب حنا [١٧٤٥ ـ ١٨٠١م] فى خدمة الحملة الفرنسية على مصر ـ وكبعض المثقفين الموارنة ـ الذين لم يجدوا فى مسيحيتهم بديلًا سياسيًّا لدولة الإسلام وحضارته،

فكان تبشيرهم بالخيار الغربى ونموذج الحضارة الغربية السبيل لتحقيق هدفهم فى إزاحة الإسلام عن أن يكون صبغةَ الدولة والنهضة والحضارة فى ديار المسلمين!

فهذه الشريحة من شرائح العلمانيين ببلادنا موجودة ـ وإن قل عددها، وافْتُضِحَ أمرُها ـ وهى لأنها شريحة «عملاء حضارة» ـ ليست صالحة ولا مُؤَهَّلَةً لأن تكون طرفًا فى هذا الحوار الذى تتحدث عنه هذه الصفحات.

جـ ـ دعاة فصل الدين عن الدولة من العلمانيين الوطنيين والقوميين:

وهؤلاء هم الذين نعنيهم عندما نتحدث عن الطرف العلمانى فى الحوار مع الإسلاميين؛ ذلك أن هذا الفصيل من فصائل العلمانيين ـ وهو الأكثر عددًا والأقوى نفوذًا فى مراكز التوجيه السياسى والثقافى والإعلامى فى الأنظمة والمؤسسات الوطنية والقومية ـ وَكَشريحة من شرائح التيار العلمانى، هم، فى جملتهم، مسلمون يتدينون بعقائد الإسلام، فالخلاف بينهم هو خلافٌ فى «الدولة»، هل تكون «إسلامية» بالمعنى الذى تعنيه هذه «الإسلامية» لدى الإسلاميين؟.. أم تكون مجرد دولة «مسلمة»، تتبنى الإسلام «الدين» وتحافظ على قِيَمه وشعائره، دون أن تَتَبَنَّى «دولة» الإسلام، وموقفهم هذا من «دولة» الإسلام، ليس ـ كما يحسب بعض الإسلاميين ـ «جحودًا» للشريعة، يرشحهم للدخول فى إطار «الكافرين»، وإنما مبعث هذا الموقف، لهؤلاء العلمانيين، من «دولة» الإسلام ـ هو الاعتقاد الذى كوَّنه لديهم الفكر الغربى بأن الإسلام لا يرفض العلمانية؛ لأنه ـ كالمسيحية ـ دينٌ لا دولة، يدع ما لقيصر لقيصر وما للَّه للَّه، إذن فموقفهم الفكرى هذا هو ثمرة من ثمرات هيمنة النَّسَقِ الفكرى الغربى على مؤسساتنا الفكرية والعلمية والتعليمية والإعلامية، وهى المؤسسات التى تعلَّم وتثقَّف وَتَكَوَّنَ فيها هؤلاء العلمانيون.

* * *

لقد فهموا إسلامنا على النحو الذى فَهِمَ به الغربُ المسيحية.. لقد تطلعوا إلى نهضة أمتنا على النحو العلمانى الذى تمت عليه نهضة الغرب، ولقد قرأوا تاريخنا الحضارى بمناهج الاستشراق، فرَأَوْه بعيون غربية.. فلما اجتهدوا فى تصورهم لعلمانية الدولة المسلمة، كان موقفهم ـ إذا شئنا الإنصاف ـ لونًا من خطأ المجتهدين،

وليس جحودًا للشريعة يدخلون به فى عداد الكفار، إذن، فالخلاف معهم هو فى إطار «الفروع» و«الدولة» ـ والتى هى بإجماع تيارات الفكر السُّنى من «الفروع».. كما أن تبنِّى هذا الفريق العلمانى لِمَا يتبنون من سمات وقسمات ومكونات الخِيار الحضارى الغربى ليس تبنى «العملاء»، الذين يدعون ـ بوعى ـ إلى إلحاق أمتهم وأوطانهم بالمركز الغربى، وإنما هو خطأ فى الاجتهاد الذى اجتهدوه، عندما حسبوا أن السبيل إلى الاستقلال عن الغرب وإلى التحرر من استعماره وهيمنته، هو فى تبنى أنماط من نموذجه الحضارى، فهو خطأ فى اختيار «أسلحة الاستقلال عن الغرب» وليس دعوةً واعيةً للتبعية لهذا الغرب، كما هو حال فريق «العملاء» من العلمانيين.

ثم إننا يجب أن نُقدِّر ـ كى نكون منصفين ـ موقف هذه الشريحة من مفكرينا ومثقفينا، عندما نظروا وقارنوا بين «الخيار الحضارى الغربى»، بتقدمه العلمى، وازدهاره الفكرى والأدبى والفنى، وبالتطبيقات العملاقة التى أنجزها هذا الخيار فى ميادين التقدم المادى.. وبين «الخيار الإسلامى»، فى صورته «المملوكية ـ العثمانية» ـ وهو الذى حسبوه الخيار الإسلامى الحقيقى والوحيد ـ فكان أن انبهروا بالخيار الغربى، فتبنوه، وأداروا ظهرهم للخيار الإسلامى، كاجتهادٍ خاطئٍ ظَنُّوه مزيدًا من الحرص على ضمان النهضة للمسلمين.

كما يجب أن نَعيَ دلالات «العودة» إلى تبنى «الخيار الإسلامى» ـ بدرجات متفاوتة ـ من قِبَل عدد متزايد من أعلام وعلماء ومفكرى هذا التيار، ونَقْدِ بعضهم «لموقف الانبهار» بالغرب، ولدعوة مماثَلَة الإسلام للمسيحية إزاء الدولة والقانون، فمنذ الدكتور محمد حسين هيكل باشا [١٣٠٥ ـ ١٣٧٥هـ / ١٨٨٨ ـ ١٩٥٩م] وموكب العودة هذا يؤكد تميز موقف هذا الفريق من تيار العلمانيين ـ تميزًا أساسيًّا وحقيقيًّا ـ عن موقف الشريحتين اللتين سبقت إشارتنا إليهما.. وفى ذلك ما يشهد على ضرورة وأهمية ومنطقية الحوار بين الإسلاميين وبين هؤلاء العلمانيين(١).

(١) ومن العلمانيين الذين تراجعوا عن تبنى العلمانية: د. طه حسين. وإسماعيل مظهر. وكذلك الشيخ على عبد الرازق.

كما يجب أن لا يؤثر فى اقتناعنا بهذه الحقيقة ما نراه فى السنوات الأخيرة من حدَّةٍ فى اللغة التى يتناول بها نفرٌ من هؤلاء العلمانيين «الخيارَ الإسلاميَّ»؛ ذلك أن مقولات الغُلُوِّ ومظاهر الجمود التى برز فى السنوات الأخيرة لدى بعض فصائل الإسلاميين، هى مما قد يَسْتَفِزُ حلمَاءَ الإسلاميين!.. فهل نستغرب أو نتعجب إذا هى أخافت نفرًا من العلمانيين فاستفزتهم ليستخدموا لغةً عنيفة وخشنة وغير لائقة فى الحديث عن هذا الغُلُوِّ وهذا الجمود، الذى حسبوه «الخيار الإسلامى الغالب»، كما حسب سلفهم النسقَ الفكريَّ للمماليك والعثمانيين «الخِيارَ الإسلامى الوحيد»؟!

إننا يجب أن نقدِّر هذه العوامل وهذه الملابسات، حتى لا تدفعنا الغفلة عن تأثيراتها بعيدًا عن التقييم الدقيق للموقع الفكرى الذى يقف فيه هذا الفريق من العلمانيين.

لقد ظل أسلافهم يميزون، فى النظرة والتقييم والتقدير، بين مدرسة التجديد والإحياء التى تبلورت من حول جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ/ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م] والإمام محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م]، وبين فصائل الجمود فى المؤسسات الإسلامية التقليدية، ودوائر الخرافة والشعوذة فى الطرق الصوفية.. ولعل فى تبلْوُر ووضوح تيار الاجتهاد والتجديد فى الصحوة الإسلامية المعاصرة، ما يعين هذا النفرَ من العلمانيين على تبين خطأ الموقف الذى لا يَرَى من الإسلام وخيارِه الحضارى إلا سمات الغُلُوِّ ومقولات أهل الجمود!

* * *

وأخيرًا ـ فيما يتعلق بدواعى الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين ـ فإن هناك حقيقةً واقعة يؤمن بها كاتب هذه الصفحات.. فحواها أن النهضة الإسلامية المنشودة لأمة الإسلام ودياره، والمشروع الحضارى الذى يجتهد المجددون الإسلاميون لصياغته ـ دليلَ عملٍ ينير الطريق أمام طلائع السَّاعين إلى هذه النهضة الإسلامية.. إن هذا العمل الكبير والمتشعب والمتنوع، لا يملك الإسلاميون وحدهم كل حقائقه وعلومه وفنونه وخبراته ومهاراته، فهى لا تقف عند علوم الشريعة، التى هى أغلب بضاعة أغلبيتهم، كما أن شروط هذه النهضة وعلومها وموادها ليست كلها دينًا خالصًا، ومن هنا يأتى الدور على ضرورة إسهام القطاع العلمانى فى هذا المشروع، وأيضًا ـ وهو

غنيٌّ عن التأكيد والتفصيل ـ فإن أيَّ مشروع لنهضة المسلمين لا يمكن أن يُتَصور بعيدًا عن الإسلام، وبالتالى دون الإسهام الأول والأكبر للإسلاميين، الأمر الذى يستوجب ضرورة هذا الحوار، الذى نتحدث عنه، بين الإسلاميين والعلمانيين!

هذا عن دواعى هذا الحوار.

* * *

وإذا كنا قد مَيَّزْنَا فى الحديث عن التيار العلمانى بين فصائله الثلاثة ـ وحددنا الفصيل الصالح والمؤهل ليكون طرفًا فى هذا الحوار.. فإن تفصيلًا شبيهًا بهذا يجب القيام به ونحن نتحدث عن الطرف الإسلامى فى هذا الحوار؛ ذلك أننا ممن يؤمن أن تيار الصحوة الإسلامية المعاصرة هو تيار عريض ومتعدد الفصائل والسمات والمواقف والمواقع، إلى الحد الذى يستحيل معه اختزاله فى جماعة واحدة، أو فصيل بعينه، دون غيرهما من الفصائل والجماعات.. فهناك:

أ ـ النُّصوصيون:

الذين يتعاملون مع «التراث» بالقدسية التى يتعاملون بها مع «الوحى الإلهى» و«السنة الثابتة»، وهؤلاء يعيشون فى الماضى أكثر مما يعيشون فى العصر، ويهملون نعمة العقل أو يغضُّون من شأنها، حتى ليسوِّيَنَّ نفرٌ منهم بينها وبين «الهوَى»!. ويضفون قدسية الدين على «تجارب» السلف، فيتوهمون ـ متجاهلين سنن الله فى التطور والتغير ـ إمكانية صبِّ الحاضر والمستقبل فى «تجارب» السلف، طالحًا كان أو صالحًا هذا السلف! إنهم لا يرون أبدع من ظواهر النصوص وَحَرْفِيَّتِها، ولا يبصرون النجاة إلا لذاتهم، فلا يعترفون «بالآخر» حتى من الإسلاميين، فضلًا عن أن يكون هذا «الآخر» علمانيًّا، ولذلك فلا سبيل إلى حساب هؤلاء النصوصيين كطرف من أطراف هذا الحوار.

ب ـ وفصيل الغُلُوِّ:

وهو ذلك التيار الذى علا صوته بحركة الصحوة الإسلامية فى العقود الأخيرة، فرفع شعارات من مثل «التكفير» و«الجاهلية»، وحكم بهما على الأمة الإسلامية

أو على دُولها ونُظُمِهَا ومجتمعاتها، وهذا الفصيل، الذى يمثل رَدَّ الفعل المحتج والغاضب على شيوع التحلل من منهج الإسلام الذى يحدثه التغريب هو ـ بحكم الغلو والغضب ـ عاجزٌ عن تقديم البديل العملى للنموذج الغربى، وعاجزٌ عن صياغة المعالم الحقيقية لخلاص الأمة من المأزق الذى يأخذ منها بالخناق، فضلًا عن أنه لغلوه وغضبه، لا يعترف «بالآخر» حتى من فصائل الإسلاميين.. ولذلك، كان طبيعيًّا استبعاد هذا الفصيل ـ فصيل الغُلُوِّ ـ من بين أطراف هذا الحوار.

جـ ـ الحركات الإسلامية الكبرى:

وإذا كانت الحركات الإسلامية الكبرى، هى فى أغلبها ـ حركات اعتدال، تقترب فى أغلب موافقها من موقع الوسطية الإسلامية ـ التى تمثل منهج الإسلام، وإذا كانت ـ لذلك ـ صاحبة مصلحة أكيدة فى الحوار مع العلمانيين.. فإن هناك محاذير تدعونا إلى التنبيه على ضرورة أن لا «يبدأ» هذا الحوار من جانب الإسلاميين بممثلين يمثلون هذه الحركات.. لا لفقرٍ فى الفكر لدى كثير من قيادات هذه الحركات.. (ولاثارات سياسية بين عدد من هذه الحركات وكثير من العلمانيين تُسَمِّمُ جَوَّ الحوار).. لأننا سنجد فى بعض هذه الحركات مفكرين لامعين ومتميزين هم فى طليعة علماء الإسلاميين المؤهلين لتمثيل الطرف الإسلامى فى هذا الحوار.. ولكننا نرى فى «الالتزام التنظيمى» لأعضاء هذه الحركات الإسلامية عائقًا دون توافر المرونة اللازمة على الأقل للمراحل الأولى فى هذا الحوار؛ ولذلك فإننا لا نحبذ بدأ هذا الحوار بهم، حيث إن ممثلى الطرف الإسلامى فيهم أعضاء ملتزمون بحكم عضويتهم فى هذه الحركات.. وهو نفس الشرط وذات المطلب الذى نحبذه فيمن يُمَثِّلُ الطرف العلمانى فى بدايات هذا الحوار.. إن الالتزام الحزبى إسلاميًّا كان أوعلمانيًّا ـ لا بد وأن يمثل قيدًا على «المرونة»، التى ربما كانت ضرورية لحرية المتحاورين، ولآفاق اجتهاداتهم، وخاصة فى المراحل الأولى، التى لا بد وأن تُقَامَ فيها الأُطُرُ والقواعد لحوار الإسلاميين والعلمانيين.

د ـ فصيل: الاجتهاد والتجديد لحضارة الإسلام:

وهذا الفصيل من فصائل الصحوة الإسلامية ـ على الرغم من أن الكثيرين يحجبون عنه الأضواء، ولا يعترفون بدوره وحجمه وأهميته ـ هو الذى نراه أكثر

فصائل الصحوة الإسلامية قدرةً وصلاحيةً لتبدأ به وعلى يديه المراحل الأولى من هذا الحوار، إن المكتبة الإسلامية قد استقبلت وتستقبل فى العقود الأخيرة العديد من الأعمال الفكرية الجادة، التى تمثل إبداع وتجديد واجتهاد هذا الفصيل فى ميدان تجديد الفكر الإسلامى، ومحاولة صياغة الإسلام نموذجًا حضاريًّا وخيارًا حضاريًّا بديلًا للنموذج الغربى.. وهذا الفصيل، وإن لم يتبلور كتيار واحد أو متحد، إلا أن من الأعلام والعلماء والمفكرين، بل وبعض المؤسسات، ما يرشحه ليكون الداعى والبادئ لهذا الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين.

ثانيًا: أهداف الحوار:

كثيرة هى الأهداف المرجوة من وراء هذا الحوار، ولعل فى مقدمة هذه الأهداف:

أ ـ اكتشاف العلمانيين للوجه الحقيقى للإسلام، ولطاقات مشروعه الحضارى، وإمكاناته فى تحقيق انتماء جماهير الأمة، وتحريكها نحو أهداف التحرر والتقدم والقوة والانعتاق من أَسْرِ التخلف الموروث والاستلاب الحضارى، وكذلك اكتشاف العلمانيين للوجه المشرق للصحوة الإسلامية، كتيار بعثٍ وإحياءٍ واجتهادٍ وتجديد، وتبديد الصورة الظالمة التى تصورها جميعها كرجعيةٍ وجمودٍ وَغُلُوٍّ وغضبٍ واحتجاجٍ.. وأيضًا اكتشاف الإسلاميين حقيقة موقف هذا الفصيل العلمانى، وكيف أن علمانيته ـ ليست ـ كما يتوهم بعض الإسلاميين ـ مرادفةً للعمالة والكفر والإلحاد، والكشف عَمَّا لدى هؤلاء العلمانيين من علوم وخبرات ومهارات وإمكانات من الأهمية بمكان توظيفها فى خدمة المشروع الحضارى الإسلامى.

والأمر الذى لا شك فيه أن اكتشاف كلٍّ من طرفى الحوار لحقيقة الآخر سيُفْضِى عبر الحوار ومراحله ـ إلى تحديد نقاط الاتفاق والمواقف المتقاربة، وكذلك تحديد نقاط الخلاف كمقدمة ضرورية لتعميق الأولى وتنميتها، ولتقليص الثانية وتحجيمها ومحاصرة آثارها، وذلك بمنهجٍ وروحٍ تحديد أيّ هذه النقاط والقضايا والمشكلات يدخل فى إطار «الخلاف الطبيعى» بين تيارات الفكر المتعددة فى المشروع الحضارى للأمة الواحدة؟.. وأيها لا يدخل فى هذا الإطار، فليس مطلوبًا ولا متصوِّرًا، فى المدى القريب والمنظور، أن يُفضى هذا الحوار إلى إنهاء كلِّ صور

الخلاف ونقاط الاختلاف ما بين الإسلاميين والعلمانيين، فهذا «الحُلْمُ ـ المثاليُّ» غيرُ متصوَّرٍ حتى داخل إطار الفصائل الإسلامية المتعددة، وإنما الهدف المرجوّ من هذا الحوار بالدرجة الأولى هو تحقيق الاتفاق على الأصول وتقريب المواقف حول نقاط الخلاف، عن طريق الفهم المشترك للمواقف مواطن الخلاف، وذلك حتى تنحصر نقاط الخلاف ـ كما أشرنا ـ فى نطاق ما هو خلافٌ طبيعى بين فرقاء تجمعهم الوحدة على أصول المشروع الحضارى، مع التميز والاختلاف فى الفروع والسُّبُلِ والوسائل والرؤى التى يُحبِّذها كل فريق لتحقيق هذه الأصول.

ب ـ وثانى أهداف هذا الحوار ـ وهو ثمرة للهدف الأول عندما يتحقق ـ هو رَأبُ الصدع القائم فى عقل الأمة وقدراتها وطاقات أبنائها، ذلك الصدع الذى حدث منذ أن نجح الاستعمار فى جعل التغريب خيارًا تتبناه «الصفوة»، و«النخبة» التى انبهرت بالنموذج الغربى فى التقدم.

وإذا كان صراع الإسلاميين والعلمانيين ـ كما هو حادث الآن فى واقعنا ـ يستنفد أغلب طاقات الفريقين وَيُبَدِّدُهَا، ليس فقط فى استهلاك الوقت والجهد فى معارك كثيرة غير مثمرة، وإنما أيضًا فى هدم كل فريق لمَا يبنى الآخر، الأمر الذى يجعل حصيلة كل فريق من الجهود التى يبذلها محدودة وضئيلة ولا تَنَاسُبَ بينها وبين هذه الجهود، فإن هذا الصراع يكاد أن يجعل الفريقين كمن يلعبون «لعبة شد الحبل»، دون أن يكون فيهما غالب أو مغلوب، فتقف طاقاتهما عند «الصفر»، لا تتعداه!.. وذلك هو منتهى ما يتمناه عدو هذه الأمة لطاقات أبنائها، إسلاميين وعلمانيين.

فعودة الوحدة إلى «عقل الأمة» ـ فى الأصول ـ مع حصر الخلاف والتمايز فيما هو من الفروع ـ يعود بعقل الأمة إلى الوضع الطبيعى.. الوضع الذى يكون فيه الخلاف مصدر ثراء فكرى وغِنًى فى الخبرات.. لا كما هو الحال عليه الآن مصدر هدر لأغلب إمكانات مختلف الفرقاء!

هذا عن أهم أهداف الحوار..

ثالثًا: قواعد وضوابط الحوار:

إنَّ التخطيط الجيد والمدروس لمراحل الحوار الأولى، سينهض بدور رئيسٍ فى نجاح هذا الحوار.. وإن توفير الحد الأقصى من ضمانات النجاح فيه سيكون مُعينًا على الوصول إلى أعظم النتائج فى أقرب الأوقات، وبأقل قدر من الخسائر والجراح، وعلى سبيل المثال ـ لا الحصر ـ فإن من الأهمية بمكان أن تتوفر لبدايات هذا الحوار مثل هذه القواعد والضوابط والضمانات:

أ ـ أن تتكون للإعداد له «لجنة تحضيرية» مشتركة، تضم عددًا متساويًا من فريقى الإسلاميين والعلمانيين.

ب ـ أن يُراعَى فى اختيار أعضاء «اللجنة التحضيرية» وكذلك فى اختيار من سينضمون إليهم فى مراحل الحوار الأولى ـ علاوةً على التحرر من الالتزام الحزبى الذى سبقت إشارتنا إليه ـ أن يُراعَى فيهم تَوَفُّرُ الحد الأقصى الممكن من الصفات العلمية والخُلُقية التى تضمن الحد الأقصى من النجاح لهذا الحوار.. إنه «حوار حكماء» وليس مناظرةً إعلامية يتسابق أطرافها على اكتساب تصفيق العامة والجمهور.

ويجب أن يبدأ هذا الحوار بإسلاميين ذوى دراية بالفكر العلمانى، وبعلمانيين ذوى دراية بالفكر الإسلامى، وذلك حتى لا يكون شبيهًا «بحوار الطرشان»؟!. ذلك أن الفهم المشترك، واللغة المشتركة والاحترام المتبادل، هى من أهم مقومات البداية الناجحة لهذا الحوار.

جـ ـ أن يكون حوارًا مغلقًا بلا جمهور، وأن تُحجب مداولاته عن أجهزة الإعلام، حتى إذا بلغت نتائجُه تحقيقَ خطواتٍ إيجابية على درب الاتفاق أو التقارب، كان بالإمكان صياغة هذه النتائج لتُنشر فى شكل وثائق أو دراسات، لتكون مادة يدور حولها الحوار فى دوائر أوسع من الإسلاميين والعلمانيين.

د ـ أن يكون حوارًا متعدد المراحل.. تخطط لجنتُه التحضيرية لمراحله، ولجدول أعمال القضايا والمشكلات المناسبة لكل مرحلة من مراحله، بذلك يكون التدرج على درب هذه المراحل، معينًا على نجاحه وعاصمًا من القفز قبل الأوان فوق الأشواك والألغام التى تُجْهِضُ الحوار وتقتلعه من الأساس!

هذا عن بعض الأمثلة لِمَا يلزم لهذا الحوار من قواعد وضوابط تضمن له النجاح.

رابعًا: قضايا مرشحة كموضوعات «لأوراق عمل» فى هذا الحوار:

بالطبع، فإن حصر القضايا والمشكلات المرشحة لتكون جدول أعمال لهذا الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين، وإن تحديد ترتيب أولويات هذه القضايا.. هما من مهام «اللجنة التحضيرية» لهذا الحوار، كما أنه أمر خاضع للتغيير والتبديل وفق مصلحة الحوار، التى يتفق عليها المتحاورون.

وإذا كانت لهذه الصفحات أن تُرَشِّحَ عددًا من القضايا المثارة والتى تستحق أن تكون موضوعات لـ «أوراق عمل» يكتب فيها الفرقاء المتحاورون تصورات كل فريق لكل قضية قبل أن يبدأ حولها الحوار - إذا كان ذلك مناسبًا - فإن من هذه القضايا والمشكلات:

١ - ظاهرة الانقسام: فى «عقل الأمة» الإسلامية، منذ الغزوة الاستعمارية الحديثة لديار الإسلام - أسبابها - مظاهرها - سُبل التقارب والوحدة بين أطرافها..

٢ - الموقف من الموروث الفكرى: علاقة الماضى بالحاضر والمستقبل - الثوابت والمتغيرات - الإلهى الملزم، والبشرى المرشد فى هذا الموروث.

٣ - الموقف من الحضارات الأخرى، ومن الوافد الفكرى للحضارة الغربية على وجه الخصوص - هل عالمنا وطن حضاريٌّ واحد لحضارة عالمية واحدة؟ أم أن هناك تعدديةً حضاريَّة فيه؟ والتفاعل الحضارى، والتبعية الحضارية، والانغلاق والقطيعة الحضارية، والخصوصية الحضارية والمشترك الإنسانى العام فى الفكر.

٤ - الدولة الإسلامية والنظام الإسلامى دولة دينية؟ أم مدنية؟ أم إسلامية مدنية؟

٥ - التراث الإسلامى فى القانون - فقه المعاملات - والشريعة الإسلامية.. حدود الثابت وآفاق التطور.

٦ - الاجتهاد والتجديد والإبداع فى ميادين: معرفة الذات والآخر والإسهام فى الفكر العالمى من جديد.

٧ - الأقليات الدينية:

أ ـ الإسلامية فى الديار غير الإسلامية.

ب ـ وغير المسلمة فى ديار الإسلام.

٨ ـ دوائر الانتماء: الوطنى، والقومى، والإسلامى: التعدد والعلاقة والتناقضات.

٩ ـ الدعوات والحركات الإسلامية الحديثة والمعاصرة ـ الإيجابيات ـ والسلبيات ـ وظاهرة الغلو: حجمها، وأسبابها وعلاجها.

١٠ ـ الدعوات الفكرية والأحزاب العلمانية ـ وطنيةً وقومية ـ منابعها الفكرية ـ نجاحاتها ـ إخفاقاتها ـ مستقبلها.

تلك مجرد أمثلة لقضايا كثيرة مثارة فى الجدل الدائر بين الإسلاميين والعلمانيين، والحوار حولها، وحول غيرها مما يماثلها، لا يستهدف الوقوف عندها، بقدر ما يستهدف تحقيق الوحدة أو التقارب حول جزئيات يمكن ويجب أن تكون فى النهاية ملامح سمات وقسمات المشروع الحضارى الإسلامى، الذى لا غِنَى عن صياغته، دليل عمل لكل العاملين فى حقل النهضة الإسلامية، على اختلاف الاهتمامات والميادين والتخصصات.

إن الحوار ـ مطلق الحوار ـ بين العقلاء الذين يمتلكون عطاءً فكريًّا صالحًا ونافعًا، هو فى حد ذاته، وبصرف النظر عن انتماءاتهم الفكرية والمذهبية والاعتقادية ـ فضيلة من الفضائل..

وإذا كانت فصائل الإسلاميين فى أمسِّ الحاجة إلى الحوار فيما بينها.. فإن هناك أيضًا، حاجةً ماسَّةً إلى الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين.. وهو ما نرجو أن تكون هذه الصفحات فاتحةً لصفحات كتابه، إذا استوقفت أفكارها ومقترحاتها عقلاء الفريقين، فلم يمروا عليها مرور الكرام، القانع كل منهم بما لديه.. فكأن كُلَّ حزب بما لديهم فرحون!

والله من وراء القصد.. منه نلتمس السداد والتوفيق[١].

(١) انظر طبعتنا لندوة حوار الإسلامية والعلمانية ـ دار السلام ـ القاهرة سنة ١٤٣٣هـ سنة ٢٠١٢م.

العقل والعقلانية فى الإسلام

إن المشهد المعاصر، إزاء «العقل والعقلانية» ـ محليًا.. وعالميًّا ـ يشهد بتعدد المواقف ـ وأحيانًا تناقضها ـ إزاء العقل والعقلانية.. سواء فى الموقف المبدئى.. أو فى المقصود والمراد من هذه المصطلحات.

وإذا شئنا تصنيفًا إجماليًا للمواقف والمذاهب المعاصرة إزاء العقل والعقلانية.. فإننا واجدون:

١ ـ تيارًا نصوصيًا:

يقف أصحابه عند ظواهر النصوص، ويتنكرون للنظر العقلى. بل ويخلطون بين «العقل» وبين «الهوى»!. كما لا يميزون بين مفاهيم «العقل والعقلانية» لدى مختلف المذاهب والفلسفات والديانات والحضارات.

٢ ـ وتيارًا باطنيًا:

يدعى التصوف.. لكنه أقرب إلى «العُنوصية ـ الباطنية»، التى اعتمدت على «الحدْس»، دون العقل والنقل والتجارب الحية.. ولذلك تنكر هذا التيار الباطنى للعقل والعقلانية، كما اعتمد ـ فى التعامل مع النصوص الشرعية ـ على التأويل العبثى، الذى لا ينضبط بضوابط اللغة وثوابت الاعتقاد والمحكم من النصوص.

٣ ـ وتيارًا حداثيًا غربيًا:

له امتدادات متغربة فى واقعنا العربى والإسلامى.. ذهب إلى تأليه العقل، فجعل شعاره: «لا سلطان على العقل إلا للعقل وحده»! وبذلك أضفى على سلطان العقل

وقدراته طابع «الإطلاق»! مخالفًا بذلك دعوته إلى «النسبية» ـ التى أراد لها أن تشمل الوحى والدين!.

ولقد قاد هذا «الغرور العقلانى» هذا التيار التغريبى إى مخاصمة النص الدينى الإسلامى، وافتعال معركة وهمية بين «العقل» و«النقل»، وذلك تقليدًا لما عرفته المسيرة الحضارية الغربية، دون إدراك للتمايز الدينى والحضارى الإسلامى، الذى جاء «النقل» فيه معجزة عقلية.. والذى تقرر لغته العربية أن المقابل «للعقل» ليس «النقل»، وإنما هو «الجنون»!

٤ ـ وتيار ما بعد الحداثة:

الذى يحاول التمدد على أنقاض الحداثة الغربية، داعيًا إلى تفكيك منظوماتها ومسلماتها الكبرى حول «العقل» و«العلم» و«التقدم». والذى لا يقدم للإنسان سوى «العدمية» و«الفوضية» ـ ذات المنطلقات التلمودية!! ـ التى تصيب الإنسان بالشك العبثى فى كل شىء.. ومن ثم تحرمه من أى لون من ألوان «الأمل» و«الطمأنينة» و«اليقين».

٥ ـ أما التيار الخامس:

الذى تتميز مواقفه إزاء «العقل والعقلانية»، فهو تيار الوسطية الإسلامية، الذى يقيم عقلانيته على كتابى «الوحى» و«الوجود».. على نور الشرع ونور العقل، لتكون عقلانيته هذه عقلانية مؤمنة متوازنة، العقل فيها هو الأساس، والدين فيها هو البناء على هذا الأساس.

وفى هذه الدراسة، التى نقدم بين يديها، إسهام يحاول إبراز معالم هذه القضية، التى تمثل المدخل الأساسى والشرط الأول لحسن التعامل مع الدين والدنيا.. ومن ثم المنهاج العلمى الذى نجدد به ديننا الإسلامى لتتجدد به دنيا المسلمين.

والله نسأل أن ينفع بهذه الدراسة.. وأن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه.

(١)

العقل: ماذا يعني؟

على حين اتجهت الفلسفة الغربية ـ فى طورها اليونانى إلى اعتبار العقل: «جوهرًا مجردًا عن المادة، قائمًا بنفسه».

واتجهت فلسفة الحداثة الغربية ـ التى هى إحياء للفلسفة الإغريقية اليونانية ـ إلى اعتبار «الوعى» نشاطًا ماديًّا، هو انعكاس «للدماغ»، الذى حسبته «العقل»، ومن ثم جعلت «العقل.. والتعقل» مادة، وذلك حتى لا يكون هناك شىء فى الإدراك والمعرفة غير الحس والمحسوس والحواس.. وقال «هكسلى توماس». هـ ـ[١٨٢٥ ـ ١٨٩٠م]:

«يبدو أن الوعى متصل بآليات الجسم كنتيجة ثانوية لعمل الجسم لا أكثر، وأن ليس له أى قدرة كانت على تعطيل عمل الجسم، مثلما يلازم صفير البخار حركة القاطرة دون تأثير على آليتها».

وبهذا التوجه المادى، فى تعريف العقل والتعقل، وصلت هذه الفلسفة الغربية ـ فى قسمتها الرئيسية ـ إلى «الدهرية» القائلة: «بفناء التفكير والإرادة مع فناء الدماغ»[١].

على حين نحت الفلسفة الغربية ـ قديمًا وحديثًا ـ فى قسمتها الرئيسية ـ هذا النحو المادى فى تعريف العقل والتعقل والعقلانية.. لأن الطور الإغريقى لهذه الفلسفة كان العقل فيه بلا نقل ولا وحى سماوى.. ولأن طورها الحديث كان العقل فيه ثورة على اللاهوت الكنسى اللاعقلانى.. فلقد كان اتجاه الإسلام والمسلمين، فى تعرف العقل والتعقل والعقلانية مغايرًا ومتميزًا.

فالعقلانية الإسلامية نابعة من الدين.. وليست غريبة عن الدين، ولا هى ثورة عليه.. والكتاب المؤسس لهذه العقلانية الإسلامية هو القرآن الكريم ـ الكتاب المؤسس للدين والأمة والدولة والحضارة فى تاريخ الإسلام.. ورسالة العقل والعقلانية هى الانتصار للإسلام، وليست الثورة على هذا الإسلام.

(١) روبرت م. أغروس، جورج، ستانسيو [العلم فى منظوره الجديد] ص ٢٦، ٢٥ ترجمة كمال خلايلى طبعة الكويت ـ عالم المعرفة ـ ١٩٨٩م.

وبسبب من هذا التمايز والامتياز للعقلانية الإسلامية عن العقلانية الغربية تميّز التعريف الإسلامى للعقل.. فقال جمهور علماء الإسلام ـ من المتكلمين والفقهاء ـ:

«إن العقل ملكة وغريزة ونور وفهم وبصيرة، وهبها الله ـ سبحانه وتعالى ـ للإنسان.. ولذلك فهو ليس عضوًا ولا حاسة من الحواس.. أى أن وجوده فى الأذهان لا الأعيان.. وهو المستوى الأعلى ـ فى الإدراك ـ لما فوق الحواس».

ولأن القرآن الكريم قد استخدم مصطلح «القلب» للتعبير عن «العقل»، كان اتجاه جمهور علماء الإسلام إلى أن العقل محله القلب ـ لا بمعنى العضلة الصنوبرية ـ وإنما بمعنى «جوهر الإنسان».. مستدلين بالقرآن الكريم: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾[1].

إن المعقول هو ما تعقله بقلبك[2].. وهو نور الغريزة، مع التجارب يزيد، ويقوى بالعلم والحلم»[3].

هكذا تميز التعريف الإسلامى للعقل والعقلانية ـ فعل التعقل ـ منذ انبثاق النور القرآنى، الذى جعل العقل نورًا من أنوار الله يزامل هذا الدين الحنيف، ويمثل بالنسبة له أداة الفهم وقاعدة التأسيس.

وبسبب من هذا التأسيس الدينى للعقل والعقلانية فى الفلسفة الإسلامية والحضارة الإسلامية، كانت مهمة العقلانية الإسلامية هى الدفاع عن الإيمان الإسلامى بالمنطق العقلانى، الداعم للوحى الإلهى والنقل الإسلامى.. فشاعت فى مصادرنا الإسلامية والفكر الإسلامى عبارات من مثل:

«ما عُرف الله إلا بالعقل ولا أُطيع إلا بالعلم»

---

(١) الحج: ٤٦.

(٢) ابن منظور [لسان العرب]، طبعة دار المعارف، القاهرة.

(٣) الحارث المحاسبى [طبقات الشافعية] ـ والنقل عن: حسين القوتلى مقدمة تحقيق [العقل وفهم القرآن] للحارث المحاسبى، ص ١٤٧. طبعة بيروت ـ الثانية ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م.

«وحتى الصوفية المسلمون» فإنهم بالعقل رغبوا ورهبوا وزهدوا وانتقلوا إلى الرشد وعلوا فى الدرجات.. ولكل شىء جوهر، وجوهر الإنسان عقله، وجوهر عقله توفيق الله.. وكل زاهد زهده على قدر معرفته، ومعرفته على قدر عقله، وعقله على قدر قوة إيمانه»[١].

ولهذا التميز الإسلامى، فى تعريف العقل ووظيفة العقلانية، تميزت وظيفة الحكمة والفلسفة فى الإسلام عنها فى الحضارة الغربية.

ففى الغرب، كانت الفلسفة فى الحقبة اليونانية بديلًا عن الوحى والدين السماوى.. بينما كانت فى الحقبة الحديثة ـ منذ النهضة الأوروبية ـ ثورة على اللاهوت والدين..

أما فى النسق الفكرى والحضارى الإسلامى، فإن الصواب صوابان:

١ ـ صواب النبوة والرسالة، الذى جاء به نبأ السماء العظيم.

٢ ـ وصواب العقلانية، الذى تبدعه الحكمة الإنسانية والعقل الإنسانى.

فالعقل قائد والدين مَدد، ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقيًا، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائرًا، واجتماعهما ـ كما قال الله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[٢].

هكذا تميز تعريف العقل.. وتميزت وظيفة العقلانية فى النسق الفكرى والفلسفى بحضارة الإسلام.

* * *

وورد التعبير عن هذه الغريزة والملكة النورانية بلفظ «العقل» ـ الذى ورد فى القرآن الكريم فى تسع وأربعين آية.. عبر القرآن الكريم عنها بعدد آخر من المصطلحات منها:

---

(١) الحارث المحاسبى [الوصايا] ص ٨٦، و[رسالة المسترشدين] ص ٤٥ ـ والنقل عن المرجع السابق. ص ١٣٥، ٩٦.

(٢) النور: ٣٥. الراغب الأصفهانى [كتاب الذريعة فى مكارم الشريعة] ص ٢٠٣. تحقيق: د. أبو اليزيد العجمى. طبعة القاهرة ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٧م.

١ ـ القلب: «الذى هو لطيفة ربانية لها بالقلب الجسمانى تعلق. وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسان.. وبها يعبر عن العقل ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾[١] ـ أى عقل ـ كما يقول «الفراء» [٣٨٠ ـ ٤٥٨هـ / ٩٩٠ ـ ١٠٦٦م].

وفى التعبير عن العقل بمصطلح القلب جاءت الآيات القرآنية فى مائة واثنين وثلاثين موضعًا.. وهذا الجمع القرآنى بين مصطلحى «العقل» و«القلب» فى التعبير عن هذه الملكة والغريزة إشارة إلى جمع الإسلام ـ فى فلسفته وثقافته ـ بين «تقوى القلوب وعقل العقول» على النحو الذى يبرئ الفكر الإسلامى من انفصام الفكر بين «الخبراء» الذين لا عقول لهم و«الفقهاء» الذى لا عقول لهم!

أما الذين يقرأون القرآن دون أن تعقله قلوبهم ـ أى «لا يجاوز تراقيهم[٢]» فإنهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية» ـ كما يقول رسول الله ﷺ[٣].

٢ ـ واللب: «ولب كل شيء ولبابه: نفسه وحقيقته وخالصه وخياره. واللب العقل، ولب الرجل: ما جعل فى قلبه من العقل[٤]. واللب: هو العقل، سمى بذلك لأنه يمثل جوهر الإنسان وحقيقته»[٥].

ولقد ورد التعبير عن العقل بمصطلح «اللب» فى القرآن الكريم فى ست عشرة آية من آيات القرآن الكريم.

٣ ـ والنُّهَى: «جمع نُهْيَة، وهو العقل، وقد سُمى العقل بذلك لأنه ينهى عن القبيح[٦].. ولأنه يُنْتَهَى إلى ما أمر به ولا يُعدَى أمره»[٧].

ولقد ورد التعبير بالنّهى عن العقل فى آيتين من آيات القرآن الكريم.

---

(١) سورة ق: ٣٧.
(٢) الترقوة: مقدم الحلق فى أعلى الصدر.
(٣) رواه البخارى ومسلم.
(٤) [لسان العرب].
(٥) [معجم ألفاظ القرآن الكريم] ـ وضع مجمع اللغة العربية. طبعة القاهرة ١٩٧٠م.
(٦) [معجم ألفاظ القرآن الكريم].
(٧) [لسان العرب].

٤ ـ والفكر والتفكر: «أى التأمل.. وترتيب الأمور المعلومة لتؤدى إلى المجهولة.. وتصرف القلب فى معانى الأشياء لدرك المطلوب.. وسراج فى القلب الذى يرى به خيره وشره ومنافعه ومضاره.. ومصباح الاعتبار ومفتاح الاختبار.. ومزرعة الحقيقة ومشرعة الشريعة»[١].

ولقد ورد التعبير بالفكر والتفكر عن العقل فى القرآن الكريم فى ثمانية عشر موضعًا.

٥ ـ والفقه: الذى هو «التوصل إلى علم الغائب عن علم المشاهد»[٢].

ولقد وردت مادته فى القرآن الكريم ـ تعبيرًا عن العقل والتعقل ـ فى عشرين موضعًا..

٦ ـ والتدبر: بمعنى التأمل والتعقل والنظر والتفكير فى أدبار الأمور وعواقبها[٣].

ولقد ورد هذا المصطلح ـ تعبيرًا عن العقل والتعقل ـ فى القرآن الكريم فى أربع آيات.

٧ ـ والاعتبار: «بمعنى الاستدلال بالشيء على الشىء.. والتدبر والنظر والقياس.. والاعتبار»[٤].

٨ ـ والحكمة: التى هى الصواب فى غير نبوة.. ومعرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم.. وكل ما يتحقق فيه الصواب من القول والعمل.. وإحكام الأشياء وإتقانها»[٥].

ولقد ورد التعبير بالحكمة عن الصواب العقلانى بالقرآن الكريم فى تسع عشرة آية من آيات القرآن.

* * *

(١) [التعريفات].

(٢) [معجم ألفاظ القرآن الكريم].

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق. و[لسان العرب].

(٥) المصدرين السابقين.

فإذا أضفنا إلى هذه الآيات القرآنية، التى تحدثت صراحة وباللفظ عن العقل ومترادفاته، وهى التى بلغت مائتين وسبعة وستين آية (٢٦٧) ـ مئات الآيات القرآنية التى تستخدم المنطق العقلانى فى المحاورة والمخاطبة والاستدلال والإقناع، وفى تفنيد حجج الخصوم، وذلك دون أن تذكر مصطلحات العقلانية بألفاظها ـ وذلك مثل:

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾(١).

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾(٢)

وغيرها. وغيرها الكثير والكثير من الآيات.

وإذا أضفنا إلى هذه وتلك مائة آية قرآنية تصف الذات الإلهية بصفة (الحكيم) فهو ـ سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٣).

وإذا علمنا أننا ـ نحن المؤمنين ـ مطالبون بالتخلق بأخلاق الله، والتعلق بما هو ممكن وميسور من صفات كمالاته.

إذا علمنا ذلك، أدركنا مقام العقل والعقلانية فى الإسلام.. وخاصة من خلال الكتاب المؤسس للدين والأمة والدولة والحضارة: القرآن الكريم.

وإذا أضفنا إلى ذلك كله مئات الأحاديث النبوية التى جاءت فى فضل العقل ومكانته.

أدركنا هذا المقام السامى والمتألق للعقل والعقلانية فى الإسلام وفلسفته وحضارته.. وكيف تفرد الإسلام بهذا التميز والامتياز الذى لا نظير له فى أى نسق فكرى آخر.. دينيًا كان أو بشريًّا هذا النسق الفكرى.

---

(١) الأنبياء: ٢٢.

(٢) يس: ٨١.

(٣) النمل: ٩.

(٢)

التبلور المُبَكِّر للعقلانية الإسلامية

وإذا كان القرآن الكريم قد تحول ـ على يدى الرسول الله ﷺ ـ والذى معه من الجيل الفريد الذى صنعه الرسول ﷺ على عينه فى مدرسة النبوة ـ تحول إلى خلق وسجية وأمة ودولة وثقافة ومدنية وحضارة ـ ولم يقف عند المواعظ والوصايا والصلوات فى المحاريب.. فإن العقلانية المؤمنة التى تبلورت فى آيات القرآن الكريم وأساليبه فى المحاورة والاستدلال، سرعان ما تبلورت فلسفة إسلامية لها أعلامها ومدارسها وإبداعاتها منذ النصف الثانى من القرن الهجرى الأول ـ فى علم الكلام الإسلامى علم التوحيد.

فكما كانت الفتوحات الإسلامية ـ التى أزالت من الشرق القهر الحضارى للطاغوت الرومانى والفارسى الذى استمر شعرة قرون قبل ظهور الإسلام ـ كما كانت هذه الفتوحات قياسية فى سرعتها، التى لا نظير لها فى التاريخ ـ إذ فتح المسلمون فى ثمانين عامًا أوسع مما فتح الرومان فى ثمانية قرون!ـ

كذلك كان تبلور العقلانية الإسلامية فلسفة متميزة، هو الآخر، مبكرًا فى تاريخ حضارة الإسلام، لقد ضمت الفتوحات الإسلامية، فى القرن الهجرى الأول دولًا وأقاليم مترامية الأطراف من المغرب والأندلس إلى داخل حدود الصين ـ واحتضنت الدولة الإسلامية شعوبًا وقبائل وقوميات ولغات ومذاهب وديانات وفلسفات وملل ونحل مثلت كل ألوان الطيف لعالم ذلك التاريخ.

ولأن الإيمان بالإسلام هو تصديق قلبى يبلغ درجة اليقين، كان المبدأ الإسلامى المحكم ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾[١]. ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾[٢]. ﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾[٣]. ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) الكافرون: ٦.

(٣) الكهف: ٢٩.

﴿حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[1].. كان هذا المبدأ الإسلامى يعنى فى الواقع والتطبيق: تحرير الفتوحات الإسلامية أرض الشرق من استعمار الروم والفرس.. وتحرير ضمائر شعوب الشرق من القهر الحضارى والدينى والثقافى واللغوى والسياسى والاقتصادى الذى مارسه الروم والبيزنطيون فى الشرق لعشرة قرون.. وترك الناس أحرارًا ـ بعد هذا التحرير ـ وما يدينون.. حتى أن الدولة التى أثمرتها هذه الفتوحات الإسلامية كانت دولة إسلامية منذ الفتح، بينما كانت نسبة المسلمين فى رعيتها، بعد قرن من الفتح وقيام الدولة الإسلامية، لا تتجاوز ٢٠٪ من السكان[2]!!

ولقد نتج عن هذه المعادلة: دولة إسلامية.. ورعية تتدين وتتمذهب بمختلف الديانات والمذاهب ـ أن شهدت البلاد الإسلامية ـ وخاصة الحواضر ذات المواريث الفلسفية والمؤسسات الدينية ـ أوسع نشاط فى الحوار الفكرى بين المسلمين وغير المسلمين من النصارى واليهود والمجوس ـ المانوية والثنوية والزرادشتية ـ ومع السمنية ـ الذين كانوا يمثلون دهرية ذلك التاريخ، وأصحاب الفلسفة الوضعية فيه.

وفى خضم هذا الحوار الحر والواسع والعميق تبلورت العقلانية الإسلامية، لأن العقل والمنطق كانا السلاح الأول والأفعل فى عرض الإسلام والدفاع عن عقائده، وفى الرد على مقالات المخالفين ومقولاتهم.

ولكى ندرك «الضرورة» التى دفعت المسلمين إلى عدم الاكتفاء بالنصوص.. وإلى بلورة العقلانية التى جاءت بها وحثت عليها هذه النصوص، فى صورة فلسفة تمثل السلاح المناسب للتعامل مع المذاهب والمقولات الفكرية والدينية السائدة فى هذه البيئات الجديدة.. نضرب مثلًا من الأمثلة التى حفظها لنا التراث فى هذا المقام.

يروى أبو القاسم البلخى [٣١٩ هـ / ٩٣١م] فى كتابه [مقالات الإسلاميين].. عندما يحكى كيف كان حوار «الجهم بن صفوان» [١٢٨هـ / ٧٤٥م] مع علماء

---

(١) يونس: ٩٩.

(٢) فيليب فارج، يوسف كرباج [المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى]، ص ٤٦، ٤٧، ٢٥ ترجمة: بشير السباعى طبعة القاهرة ١٩٩٤م.

«السُّمَنِيّة» ـ الوضعيين.. القائلين «بحسية المعرفة» ـ أى أن الحواس هى المصدر الوحيد للمعرفة والإدراك.. يقول البلخى:

«ذكر أبو الحسن بن فرزويه: أن قومًا من السمنية أتوا جهم بن صفوان فقالوا له:

ـ هل يخرج المعروف [أى المعرفة] عن المشاعر الخمسة؟

فقال: لا.

ـ قالوا: فحدثنا عن معبودك الذى تعبده، أشيء وجدته فى هذه المشاعر [أى الحواس]؟

ـ قال: لا.

ـ قالوا: فإذا كان المعروف لا يخرج عن ذلك، وليس معبودك منها، فقد دخل فى المجهول!

ـ فسكت جهم»!!

ولقد كتب الجهم بن صفوان ـ عقب عجزه هذا وهزيمته أمام علماء السمنية ـ كتب بوقائع هذه المناظرة إلى زعيم المعتزلة «واصل بن عطاء» [٨٠ ـ ١٣١هـ ـ ٦٩٩ ـ ٧٤٨م].. فكتب إليه واصل:

«إن المعروف لا يخرج عن المشاعر الخمسة وعن الدليل.. فارجع إليهم الآن، وقل لهم: هل تفرقون بين الحى والميت؟ وبين العاقل والمجنون؟ فإنهم يعترفون بذلك، وإنه يُعرف بالدليل لا بغيره».

هنا، فى هذا الجزء من هذا النص، يقدم واصل بن عطاء الإضافة الفلسفية، «الديل العقلى»، الذى هو مستوى أرفع من المشاعر الحسية فى سبل المعرفة والإدراك.

فالعقل ليس مادة حتى يُدْرَك بالحواس والمشاعر.. وكذلك الجنون.. وكذلك الموت والحياة. فبدون الدليل العقلى لا يمكن مناظرة أصحاب المقولات الفلسفية المخالفين للإسلام.

وبعد أن ذهب الجهم بن صفوان ـ مرة ثانية ـ إلى علماء السمنية.. وقدم لهم الجواب الجديد ـ الذى أعلمه به واصل بن عطاء.. قالوا له:

ليس هذا من كلامك؟! فمن أين لك؟!

ـ قال: كتب إليّ به رجل من العلماء، بالبصرة، يقال له: واصل.

فخرج السمنية إلى واصل بن عطاء ـ بالبصرة ـ «وكلموه، فأجابوه إلى الإسلام»[1].

ولقد تحدث المستشرق «جب» Gibb [١٨٥٦ ـ ١٩٠١م] عن تفوق هذه العقلانية فى مقارعة خصوم الإسلام ـ ومنهم «الثنوية» الفارسية ـ فقال عن فرسان هذه العقلانية:

«إنهم استطاعوا أن يقارعوا الثنوية حجة بحجة، وأن يفحموهم، وأن ينشئوا الفلسفة الأخلاقية المستمدة من القرآن»[2].

فمنذ عصر الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بدأ تخلّق هذا التيار الفلسفى فى حضارة الإسلام.. التيار الذى لا يكتفى بالنصوص. ولا يقف عند ظواهر النصوص.

فمنذ عصر الصحابة.. بدأ التيار العقلانى فى التبلور.. معبرًا عن ضرورة استخدام العقلانية الإسلامية، النابعة من القرآن الكريم، للدفاع عن الإسلام فى الحوارات مع الذين لا يؤمنون بالنص الدينى الذى يصدق به المؤمنون بالإسلام.

(٣)

مكانة العقل والعقلانية فى تراث الإسلام

مما يلفت النظر فى تراث الإسلام شيوع الإعلاء لمقام العقل والعقلانية فى تراث الأغلبية العظمى لمذاهب الإسلام.. فباستثناء «أهل الحديث» الذى برعوا فى صناعة «الرواية» وتحفظوا كثيرًا على النظر العقلى و«الرواية» ومن ثم حرّموا الاشتغال بعلم الكلام ـ فإننا واجدون للعقلانية الإسلامية مقامًا عاليًا ومكانًا محلوظًا ووضعًا متميزًا

---

(١) [فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة]، ص ٢٢٦.

(٢) جب [دراسات فى حضارة الإسلام]، ص ١٦ طبعة بيروت ١٩٦٤م.

وممتازًا فى عموم تراث مذاهب الإسلام، على امتداد تاريخ هذا التراث، وعلى تنوع مذاهب أئمته وأعلامه. حدث ذلك فى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية.. وفى عصر الإحياء والتجديد الذى بدأت به أمتنا عصرها الحديث.

وإذا شئنا إشارات ـ مجرد إشارات ـ إلى شهادات الأئمة والعلماء التى تعلى من مقام العقل والعقلانية، فإننا واجدون أنفسنا أمام تراث تباهى به أمتنا من عداها من الأمم والحضارات، وعلى سبيل المثال: ـ

١ ـ لقد دار حوار بين الإمام على بن أبى طالب [٢٣ ق.هـ ـ ٤٠ هـ / ٦٠٠ ـ ٦٦١م] كرم الله وجهه ـ وبين أحد السائلين.. بدأه الإمام على بقوله:

ـ ألست تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم؟

ـ فقال السائل: بلى.

ـ فقال الإمام على: تعرف تفسيرها؟

ـ فقال: لا يا أمير المؤمنين، علمنى مما علمك الله.

ـ فقال الإمام: إن العبد لا قدرة له على طاعة الله إلا بالله، ولا على معصيته إلا به ـ عز وجل، يا سائل اعقل عن الله.

ـ فقال: عقلت.

فقال له: الآن صرت مسلمًا، قوموا إلى أخيكم المسلم وخذوا بيده[١].

فالعقل عن الله هو دليل الإسلام.

٢ ـ فإذا جئنا إلى هذه المدرسة العقلية، التى مثلت فرسان العقلانية الإسلامية.. والتى حاورت أصحاب المذاهب غير الإسلامية ـ الدينية منها والفلسفية ـ وردت شبهاتهم ـ ونشرت الإسلام فى الحواضر التى كانت فيها المواريث الفلسفية القديمة والمؤسسات الدينية غير الإسلامية ـ وهى مدرسة المعتزلة ـ أهل العدل والتوحيد..

(١) الإسفراييني [التبصير فى الدين] ص ٢٨ ـ والنقل عن: حسين القوتلى مقدمة [العقل وفهم القرآن]، ص ١٢٦.

فإننا نجد أنفسنا إزاء عقلانية مؤمنة، انطلقت ربما لأول مرة فى تاريخ الفلسفة ـ من الدين.. وجعلت مهمتها الأولى الدفاع عن الدين بالبراهين العقلية..

وفى هذه المدرسة نجد:

* الشك المنهجى: علمًا من العلوم.. يجب تعلمه للوصول إلى اليقين.. وعنه يقول الجاحظ [١٦٣ ـ ٢٥٥هـ، ٧٨٠ ـ ٨٦٩م]:

«فاعرف مواضع الشك، وحالاتها الموجبة له، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له. وتعلم الشك فى المشكوك فيه تعلّما، فلو لم يكن فى ذلك إلا تعرّف التوقف، ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه.. فلم يكن يقين قط حتى كان قبله شك، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك».

والعوام أقل شكوكًا من الخواص، لأنهم لا يتوقفون فى التصديق والتكذيب، ولا يرتابون بأنفسهم، فليس عندهم إلا الإقدام على التصديق المجرد، أو التكذيب المجرد، وألغوا الحالة الثالثة من حالات الشك التى تشتمل على طبقات الشك، وذلك على قدر سوء الظن بأسباب ذلك، وعلى قدر الأغلب..»(١).

ولقد أسست هذه المدرسة الفلسفية الإسلامية هذا العلم على المنطق القرآنى، الذى يؤسس العقائد على الحوار المفضى إلى اليقين.. ومثلوا لذلك بحوار خليل الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع ربه ـ سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢).

فمن هذا الحوار نتعلم منهج الشك: السؤال.. وتأسيس اليقين على التجريب.

كما استندت هذه العقلانية الإسلامية، فى تأسيس هذا الشك المنهجى، على منهاج النبوة الذى تعامل به رسول الله ﷺ مع الذين اعتراهم الشك، وطرأت عليهم

(١) الجاحظ [كتاب الحيوان]، ج٦، ص ٣٥ ـ ٣٧. تحقيق: عبد السلام هارون. طبعة القاهرة ـ الثانية.
(٢) البقرة: ٢٦٠.

الوساوس ـ من الصحابة ـ فاستعظموا ذلك. وذهبوا إلى الرسول ﷺ باحثين عن اليقين.

فلقد روى الإمام مسلم والإمام أحمد: «جاء ناس من أصحاب النبى ﷺ فسألوه:

ـ إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به؟!

ـ قال ﷺ: وقد وجدتموه؟

ـ قالوا: نعم.

ـ قال: ذلك صريح الإيمان «محض الإيمان».

فهنا.. تأسس صريح الإيمان ـ محض الإيمان ـ اليقين الإيمانى عبر الشك الذى جعلوه طريقًا إلى اليقين.

* ولذلك، وانطلاقًا من هذا الإنجاز غير المسبوق: تأسيس «فلسفة ـ دينية» و«عقلانية ـ مؤمنة» نظر المستشرقون الذين فقهوا هذه الحقيقة إلى هذا الإنجاز غير المسبوق بإعجاب واستغراب.. فقال المستشرق الإنجليزى «ألفريد جيوم»:

«إن قوة الحركة الاعتزالية مردها جهود أولئك الذين حاولوا أقصى ما فى طوقهم إقامة علم الكلام الإسلامى على أسس ثابتة من الفلسفة، مصرين فى الوقت نفسه على أن تكون تلك الأسس منطقية، ثم الانسجام بينها وبين الفلسفة التى يجب أن تدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية»(١).

وبعبارة المستشرق «جب»:

«فلقد استطاع المعتزلة أن ينشئوا الفلسفة الأخلاقية المستمدة من القرآن»(٢).

٣ ـ فإذا انتقلنا إلى «شهادة» أخرى لشاهد آخر، هوالإمام الحارث بن أسد المحاسبى [١٩٥ ـ ٢٣٤هـ / ٧٨١ ـ ٨٥٧م] الذى عاش وأبدع فى القرن الثانى

(١) جيوم: [الفلسفة وعلم الكلام]، ص ٢٧٩ ـ بحث منشور ضمن كتاب [تراث الإسلام] ترجمة جرجيس فتح الله، طبعة بيروت، سنة ١٩٧٢م،

(٢) [دراسات فى حضارة الإسلام]، ص ١٦.

الهجرى، والذى جمع فى عقله ووجدانه وإبداعه بين التصوف.. وعلم الكلام والفلسفة.. والسلفية، وجدنا مقام العقل عنده يتألق عاليًا حتى ليقول فيه:

«العقل: غريزة وضعها الله سبحانه فى أكثر خلقه.. ونور فى القلب كالنور فى العين.. يولد العبد بها، ثم يزيد فيه معنى بعد معنى بالمعرفة بالأسباب الدالة على المعقول».

والمعرفة عن العقل تكون.. وهو صفوة الروح.. ولقد سمى العقل لبا، ولب كل شىء خالصه، وقال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1].

وبالعقل عرف الخلق الله وشهدوا عليه بالعقل الذى عرفوه به من أنفسهم بمعرفة ما ينفعهم ومعرفة ما يضرهم.. وبه أقام الله على البالغين للحُلُم الحُجة.. وإياهم خاطب من قبل عقولهم ووعد وتوعد، وأمر ونهى وحض وندب.

ولقد روى فى التفسير لما قال الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾[2]: «اعقل ما أقول لك».. فالفهم والبيان يسمى عقلاً، لأنه عن العقل كان.. والله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾[3] أى أذُن عقلت عن الله تعالى، يعنى عقل عن الله ما سمعت أذناه، مما قال أو أخبر..

وإذا تم عقل المؤمن عن ربه أفرده عز وجل بالتوحيد له فى كل المعانى..

ولا غناء بالعبد عن التفكر والنظر والذكر ليكثر اعتباره، ويزيد فى علمه، ويعلو فى الفضل.. فمن قل تفكره قل اعتباره، ومن قل اعتباره قل علمه، ومن قل علمه كثر جهله، وبان نقصه، ولم يجد طعم البر، ولا برد اليقين، ولا روح الحكمة.. فما أقربه فى حياته من حياة البهائم التى لا تعرف إلا ما باشرته بجوارحها..

ولقد جعل الله العقول معادن الحكمة، ومقتبس الآراء، ومستنبط الفهم، ومعقل العلم، ونور الأبصار، إليها يأوى كل محصول، وبها يُستدل على ما أخبر به من

(١) الزمر: ٩.

(٢) طه: ١٣.

(٣) الحاقة: ١٢.

علم الغيوب، فبها يقدرون الأعمال قبل كونها، ويعرفون عواقبها قبل وجودها، وعنها تصدر الجوارح بالفعال بأمرها، فتسارع إلى طاعتها. أو تزجرها لتمسك عن مكروهها..

ولقد استخلص الله من عباده خالصة من خلقه، فهمت عنه قوله بعقولها، فاتسع لها ما خفى عن الأبصار..

وأعظم العاقلين عند الله ـ عز وجل ـ العارفون عقلًا عنه ومعرفة به، الذين أقروا بالعجز أنهم لا يبلغون فى العقل والمعرفة كنه معرفته..»[1].

٤ ـ وفى القرن الثالث الهجرى يقول الإمام أبو الحسن الماوردى [٣٦٤ ـ ٤٥٠هـ/ ٩٧٤ ـ ١٠٥٨م]:

«إن السبب المؤدى إلى معرفة الأصول الشرعية والعمل بها شيئنان:

أحدهما: علم الحس، وهو العقل، لأن حجج العقل أصل لمعرفة الأصول، إذ ليس تُعرف الأصول إلا بحجج العقول..

وثانيهما: معرفة لسان العرب، وهو معتبر فى حجج السمع خاصة»[2]. وإن لكل فضيلة أسًّا، ولكل أدب ينبوعًا، وأسُّ الفضائل وينبوع الأدب هو العقل، الذى جعله الله تعالى للدين أصلًا وللدنيا عمادًا، فأوجب التكليف بكماله، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه وألف به بين خلقه مع اختلاف هممهم ومآربهم، وتباين أغراضهم ومقاصدهم، وجعل ما تعبدهم به قسمين: قسمًا وجب بالعقل، فوكده الشرع، وقسمًا جاز فى العقل، فأوجبه الشرع. فكان العقل لهما عمادًا..»[3].

* * *

(١) الحارث المحاسبى [مائيةالعقل وحقيقة معناه]، ص ٢٠١ ـ ٢٣٥. و[فهم القرآن]، ص ٢٦٦، ٢٦٧. دراسة وتحقيق: حسين القوتلى. طبعة بيروت، سنة ١٣٩٨ هـ، سنة ١٩٧٨م.

(٢) الماوردى [أدب القاضى] ج١، ص ٢٧٤، ٢٧٥. طبعة بغداد، سنة ١٩٧١م.

(٣) الماوردى [أدب الدنيا والدين]، ص ١٩. طبعة القاهرة، سنة ١٩٧٣م.

٥ ـ فإذا جئنا إلى حجة الإسلام أبوحامد الغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ/ ١٠٦٨ ـ ١١١١م] الذى مثل ـ منذ القرن الخامس الهجرى وحتى الآن ـ «ظاهرة فكرية» غطت ميادين: الفقه.. والأصول.. والفلسفة.. والمنطق.. والكلام.. والتصوف.. والأخلاف.. فإننا سنجد له صياغات كثيرة وبديعة وعميقة ـ بل وغنية ـ حول مقام العقل.. ودور الوسطية الإسلامية فى تميز العقلانية الإسلامية المؤمنة ـ تميزها عن الغلو النصوصى، الذى يقف أصحابه عند «الأثر».. وعن الغلو العقلانى الذى يصطنع أهله التناقضات بين العقل والشرع.. وفى ذلك يقول الغزالى:

«إن مثال العقل: البصر السليم عن الآفات والآذاء.

ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء.

فأخلق بأن يكون طالب الاهتداء المستغنى بأحدهما عن الآخر، فى غمار الأغبياء.

فالمعرض عن العقل، مكتفيًا بنور القرآن، مثاله: المتعرض لنور الشمس مغمضًا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان.

فالعقل مع الشرع نور على نور(١).

وأنَّى يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر، وينكر البحث والنظر؟!. أو لا يعلم أنه لا مُستند للشرع إلا قول سيد البشر ﷺ؟!. وبرهان العقل هو الذى عُرِف به صدقه فيما أخبر؟

إن العقل أولى باسم النور من العين، بل الحق أنه يستحق الاسم دونها»(٢).

وعند إشراق نور الحكمة يصير الإنسان مبصرًا بالفعل بعد أن كان مبصرًا بالقوة. وأعظم الحكمة كلام الله تعالى، فيكون منزلة ايات القرآن الكريم عند عين العقل منزلة نور الشمس عند العين الظاهرة، إذ به يتم الإبصار، فبالحرى أن يسمى القرآن

(١) الغزالى [الاقتصاد فى الاعتقاد]، ص ٢، ٣. طبعة صبيح ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.
(٢) الغزالى [مشكاة الأنوار]، ص ٣٦. طبعة القاهرة ـ ضمن مجموعة ـ ١٩٠٧م.

نورًا، كما يسمى نور الشمس نورًا، فمثال القرآن، نور الشمس، ومثال العقل: نور العين، وبهذا يفهم معنى قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾(١).

* * *

٦ ـ فإذا جئنا إلى إمام الفقه والإفتاء وأبرز المجددين فى تاريخنا الوسيط.. وفيلسوف السلفية وأعمق نقاد المنطق الأرسطى.. وصاحب الجهود المتميزة فى النظر الفلسفى، وتميز الفلسفة الإسلامية بالعقلانية المؤمنة.. شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ ـ ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨م].. فإننا واجدون لديه كتابًا يلخص عنوانه مذهب الإسلام فى العقلانية: [بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول].. وفيه يقول:

إن ما عرف بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه منقول صحيح قط. وقد تأملت ذلك فى عامة ما تنازع الناس فيه فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها، بل يُعلم ثبوت نقيضها الموافق للشرع. وهذا تأملته فى مسائل الأصول الكبار، كمسائل التوحيد والصفات ومسائل القدر والنبوات والمعاد وغير ذلك..

ووجدت ما يُعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط، بل السمع الذى يقال إنه يخالفه إما حديث موضوع أو دلالة ضعيفة فلا يصلح أن يكون دليلًا لو تجرد عن معارضة العقل الصريح، فكيف إذا خالف صريح المعقول؟

هكذا تألقت العقلانية الإسلامية فى عصر الازدهار لحضارة الإسلام..

وهكذا سادت مناهج التفكير فى معظم مذاهب المسلمين، باستثناء «أهل الحديث»، الذين غلبت عليهم «صناعة الرواية» أكثر من «ملكة الدراية» والذين وصف أبو حامد الغزالى رائدهم الإمام أحمد بن حنبل [١٦٤ ـ ٢٤١هـ/ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م] بأنه «لم يكن ممعنًا فى النظر العقلى»(٢).

---

(١) التغابن: ٨. الغزالى [الاقتصاد فى الاعتقاد]، ص ٢، ٣. طبعة صبيح ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.

(٢) أبو حامد الغزالى [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة]، ص ١٠. طبعة القاهرة، سنة ١٩٠٧م.

(٤)

تراجع العقلانية الإسلامية

فى خط سير الحضارات هناك دورات وتبادل للمواقع.. بين التقدم والتخلف.. بين النهوض والهبوط ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[١]. ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[٢].

وفى تقرير هذه السنة الاجتماعية ـ سنة التداول والدورات فى خط سير الأمم والحضارات ـ يقول رسول الله ﷺ:ـ [لا يلبث الجور بعدى إلا قليلًا حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد فى الجور من لا يعرف غيره، ثم يأتى الله تبارك وتعالى بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يولد فى العدل من لا يعرف غيره][٣].

ولقد جاء حين من الدهر تراجعت فيه العقلانية الإسلامية، ضمن ظاهرة التراجع الذى أصاب الحضارة الإسلامية.. فسادت الركاكة لغتنا العربية.. وطغت المحسنات الشكلية على شعرنا العربى.. وحل الجمود والتقليد محل الاجتهاد والتجديد فى مذاهب الفقه الإسلامى.. وانتشرت البدع والخرافات بدلًا من التصوف الحقيقى.. وتراجع علم الكلام الإسلامى، وشاعت مقولة: «من تمنطق فقد تزندق»!.

وكانت لهذا التراجع الحضارى الذى شمل العقلانية الإسلامية ـ أسباب عديدة منها الداخلية والخارجية:

لقد تصاعد الصراع بين «الشعوبية الفارسية» وبين الطابع العربى للخلافة والحضارة فحسب الخليفة العباسى المعتصم [١٧٩ ـ ٢٢٧هـ ـ ٧٩٥ ـ ٨٤١م] أن الحل هو فى تكوين جيش الدولة والخلافة من المماليك الترك المجلوبين من وسط

(١) آل عمران: ١٤٠.
(٢) النساء: ١٢٣.
(٣) رواه الإمام أحمد.

آسيا بحسبانهم قوة محايدة بين الفرس والعرب، تكون طيعة فى يد الخلافة، لا ولاء لها نحو الفرقاء المتصارعين..

ولقد اختار المعتصم مدينة «سامراء» معسكرًا لهذا الجُند المماليد.. لكن تضخم هذه المؤسسة العسكرية المملوكية قلب الموازين.. فبدلًا من أن تكون أداة طيعة بيد الخلافة فى بغداد، غدت الخلافة «لعبة» بيد هؤلاء العسكر المماليك.. بل وأصبحت «سامراء» هى العاصمة بدلًا من «بغداد»!.

فلما جاء عهد الخليفة «القادر بالله» [٣٨١ ـ ٤٢٣ هـ ـ ٩٩١ ـ ١٠٣١م]، الذى حرم ـ بمرسوم غريب عن روح الإسلام.. سمى «الاعتقاد القادرى».. حرم مقولات العقلانية الإسلامية.. وعلم الكلام.. وفكر العدل والتوحيد.. كان هذا الانقلاب على العقلانية الإسلامية قد أخذ طريقه إلى ميادين الفكر فى بلاد الإسلام..

ولقد وصف الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] هذا «الانقلاب» على العقلانية الإسلامية وروحها العربية، وصفًا عبقريًّا، أشار فيه إلى أبعاده الثقافية والحضارية، عندما قال:

«انظر، كيف صارت مزية من مزايا الإسلام ـ [تسامح المساواة] ـ سببًا فيما صار إليه أهله!.

كان الإسلام دينًا عربيًّا، ثم لحقه العلم فصار علمًا عربيًّا، بعد أن كان يونانيًا. ثم أخطأ خليفة ـ [المعتصم العباسى] ـ فى السياسة، فاتخذ من سعة الإسلام سبيلًا إلى ما كان يظنه خيرًا له ـ ظن أن الجيش العربى قد يكون عونًا لخليفة علوى ـ لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبى ﷺ، فأراد أن يتخذ له جيشًا أجنبيًا من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التى ظن أنه يستعبدها بسلطانه ويصطنعها بإحسانه، فلا تساعد الخارج عليه، ولا تعين طالب مكانه من الملك ـ وفى سعة أحكام الإسلام وسهولته ما يبيح له ذلك.

هناك استعجم الإسلام وانقلب أعجميًا:ـ

خليفة عباسى أراد أن يصنع لنفسه، وبئس ما صنع بأمته ودينه، أكثر من الجند الأجنبى، وأقام عليه الرؤساء منه، فلم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء، واستبدوا بالسلطان دونهم، وصارت الدولة فى قبضتهم، ولم يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الإسلام، والقلب الذى هذبه الدين..»!![1].

ومنذ ذلك التاريخ.. وفى بطء.. كما هو شأن التطورات الحضارية والتغيرات الفكرية، بدأ تراجع القسمة العقلانية فى تاريخ الإسلام.

ـ ثم جاءت مخاطر الحملات الصليبية، التى دامت قرنين من الزمان [٤٨٩ / ٦٩٠هـ ـ ١٠٩٦/ ١٢٩١م].. ومعها ـ وأثناءها ـ الحلف الذى أقامه الصليبيون مع الوثنية التترية، التى اجتاحت المشرق الإسلامى والعربى، وأحدثت بهما من الدمار المادى والفكرى ما فاق التصورات.. وكذلك نزعات «الاستقلال» التى انتشرت فى أطراف الدولة الإسلامية.. جاءت كل هذه المخاطر لتهدد وجود الدولة والأمة والحضارة، الأمر الذى جعل الأمة تسلم القياد للعسكر المماليك.. وتمنح الزمام ـ مضطرة «للعضلات» بدلًا من «العقل والعقلانية».. فطال عصر العسكرة التى سادت الدولة، وانعسكت على الحياة الفكرية والعلمية والحضارية، الأمر الذى أحل التراجع الحضارى محل الازدهار، وأصاب العقلانية الإسلامية بالنزيف الذى جعلها تتراجع، وتكاد أن تتوارى طوال حكم العسكر المماليك.. والعسكر الانكشارية العثمانيين..

وقد ظل الحال كذلك حتى «صدمة» الاحتكاك الغربى العنيف بالشرق الإسلامى، تلك التى تمثلت فى غزوة «بونابرت» [١٧٦٩هـ ـ ١٨٢١م] لمصر [١٢١٣ هـ ـ ١٧٩٨م].. الأمر الذى استنفر فى الأمة عوامل المقاومة، فبدأت تحيى مواريثها فى العقلانية، لتجدد بها حياتها، ولتقطع الطريق على التغريب والغزو الفكرى والعقلانية الوضعية اللادينية التى أخذت فى التسلل إلى بلادنا فى ركاب الغزاة الغربيين.

وبذلك أخذت أمتنا تمسك بخيوط النهضة واليقظة والتقدم من جديد.

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص ٣١٧، ٣١٨. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

(٥)

عقلانية الإحياء الإسلامى الحديث

(١) كان الشيخ رفاعة الطهطاوى [١٢١٦/ ١٢٩٠هـ ـ ١٨٠١ ـ ١٨٧٣م] التلميذ النجيب لشيخ الأزهر حسن العطار [١١٨٠/ ١٢٥٠هـ ـ ١٧٦٦/ ١٨٧٤م] الذى احتك بعلماء الحملة الفرنسية. وأدرك ضرورة التجديد الفكرى لمواجهة التغريب القادم فى ظلال عسكرية الغزاة.. ولقد أعلن ذلك عندما قال: «إن بلادنا لا بد أن تتغير، ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها»!

ولقد رشح العطار رفاعة كى يذهب إلى باريس إمامًا للبعثة التعليمية التى أرسلها محمد على باشا [١١٨٤/ ١٢٦٥هـ ـ ١٧٧٠/ ١٨٤٩م] إلى هناك [١٨٢٦ ـ ١٨٣١م].. وأوصاه أن يكتب مشاهداته فى تلك البلاد، لمعرفة ما لدى «الآخر» وللتفاعل الحضارى اللازم لنهوض بلاد الإسلام.

ولقد رأى الطهطاوى فى باريس ـ بعين العالم المسلم: ـ

(أ) علومًا طبيعية، وتطبيقات لهذه العلوم الطبيعية، قد غدت «مدنية»: تقيم العمران المزدهر للواقع المادى فى تلك البلاد.. وأدرك أن هذه العلوم ـ التى سماها «العلوم الحكمية».. علوم التمدن المدنى» هى مشترك إنسانى عام، بل وأدرك الأصول والجذور لهذه العلوم فى حضارة الإسلام وتراث المسلمين.

(ب) وفلسفة وضعية، وعقلانية لا دينية، مليئة بالحشوات الضلالية، ومخالفة لكل الكتب السماوية. جعلت الفرنسيين ـ كما سبق وأعلن: الجبرتى:

«دهرية معطلين، وللمعاد والحشر منكرين، وللنبوة والرسالة جاحدين[١]».

فكتب الطهطاوى داعيًا إلى أخذ العلم الطبيعى وتطبيقاته عن الحضارة الغربية.. وإلى رفض عقلانيتهم الوضعية اللاتينية. وإحياء العقلانية الإسلامية ـ المؤسسة على الشرع والعقل ـ لتكون البديل الإسلامى فى هذا الميدان.. كتب فقال:

---

(١) الجبرتى [مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس ص ٣٤. تحقيق: حسن محمد جوهر، عمر الدسوقى طبعة القاهرة ١٩٦٩م.

أيـوجـد مـثـل بـاريـس ديـار شـمـوس الـعـلـم فيها لا تغيب
ولـيـل الـكـفـر لـيـس لـه صباح أمـا هــذا، وحـقـكـم، عجيب!

إن تحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشارع... والتكاليف الشرعية والسياسية التى عليها مدار نظام العالم، مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة الخالية عن الموانع والشبهات، لأن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لنا أو التعبدية التى يعلم حكمتها المولى سبحانه، وليس لنا أن نعتمد على ما يُحَسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه..

ولا عبرة بالنفوس القاصرة الذين حكَّموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التى ركنوا إليها تحسينًا وتقبيحًا، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدى الحدود، فينبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع لا بطرق العقول المجردة..»[1].

هكذا بدأت الدعوة إلى إحياء العقلانية الإسلامية ـ المؤسسة على الشرع والعقل ـ فى مقابل العقلانية الوضعية المادية الغربية، التى هى حشوات ضلالية مخالفة لكل الكتب السماوية..

فعقلانيتنا الإسلامية لا تتنكر للتحسين والتقبيح بالعقل، وإنما ترجع إلى الشرع ـ أيضًا ـ فى هذا التحسين والتقبيح.. لتكون عقلانية مؤمنة، قائمة على ساقى «العقل» و«الشرع» كما هو طابعها دائمًا وأبدًا..

نعم ـ لقد تجلى هذا الوعى بتميز العقلانية الإسلامية فى فكر الطهطاوى، الذى كان أول عين إسلامية رأت النموذج الحضارى الغربى فى العصر الحديث.

* * *

(٢) فإذا انتقلنا إلى رائد مدرسة الإحياء والتجديد فى عصرنا الحديث، تلك التى جددت وجاهدت لإخراج أمتنا من مرحلة التراجع الحضارى.. ورسمت معالم المشروع الحضارى للبعث الإسلامى الحديث. جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤/

(١) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى] جـ ٢ ص ١٥٩، ١٦٠، ٧٩، ٣٢، ٤٧٧، ٣٨٦. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت ١٩٧٣م.

١٣١٤هـ - ١٨٣٨/ ١٨٩٧م] فإننا واجدون لديه صياغات متميزة وممتازة فى مقام العقل والعقلانية الإسلامية.. وفيها يقول:

«إن الدين الإسلامى يكاد يكون منفردًا بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل، وتوبيخ المتبعين للظنون، وتبكيت الخابطين فى عشواء العماية، والقدح فى سيرتهم.

هذا الدين يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان فى أصول دينهم، وكلما خاطب، خاطب العقل، وكلما حاكم حاكم إلى العقل، تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل وانطفاء نور البصيرة.. وقلما يوجد من الأديان ما يساويه أو يقاربه فى هذه المزية، وأظن غير المسلمين يعترفون لهذا الدين بهذه الخاصة الجليلة.

إن العقل مشرق الإيمان، فمن تحّول عنه فقد دابر الإيمان.

وإن فرقًا بين ما لا يصل العقل إلى كنهه، فيعرفه بأثره، وبين ما يحكم العقل باستحالته، فالأول معروف عند العقل، يقر بوجوده، ويقف دون سرادقات عزته، أما الثانى فمطروح من نظره، ساقط من اعتباره، لا يتعلق به عقد من عقوده، فكيف يصدق به وهو قاطع بعدمه؟!.

إن أول ركن بُنِى عليه الإسلام: صقل العقول بصقال التوحيد، وتطهيرها من لوث الأوهام.. وسعادة الأمم لا تتم إلا بصفاء العقول من كدرات الخرافات وصدأ الأوهام، فإن عقيدة وهمية لو تدنس بها العقل لقامت حجابًا كثيفًا يحول بينه وبين حقيقة الواقع ويمنعه من كشف نفس الأمر، بل إن خرافة قد تقف بالعقل عن الحركة الفكرية. وتدعوه بعد ذلك أن يحمل المثل على مثله، فيسهل عليه قبول كل وهم، وتصديق كل ظن، وهذا مما يوجب بعده عن الكمال، ويضرب له دون الحقائق ستارًا لا يخرق، وفوق ذلك ما تجلبه الأوهام على النفوس من الوحشة وقرب الدهشة والخوف مما لا يخيف والفزع مما لا يفزع..

(٣) أما المهندس الأكبر لفكر اليقظة الإسلامية الحديثة.. الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦/ ١٣٢٣هـ - ١٨٤٩/ ١٩٠٥م] فلقد كونت نصوصه فى العقلانية

الإسلامية عملًا نفيسًا، مثّل ـ بعد أن جمعناه ونشرناه فى كتابنا [الإصلاح بالإسلام] ـ ديوانًا لهذه العقلانية الإسلامية المؤمنة.. ولقد قال فيه ـ ضمن ما قال:

«إن الإنسان كَوْن عقلى، سلطان وجوده العقل.. والعقل هو الفرقان الذى يفرق بين الحق والباطل.. وهو جوهر إنسانية الإنسان، وأفضل القوى الإنسانية على الحقيقة.. بل هو قوة القوى الإنسانية وعمادها.. والكون جميعه صحيفته التى ينظر فيها، وكتابه الذى يتلوه، وكل ما يقرأ فيه فهو هداية إلى الله وسبيل الوصول إليه..

ولقد تآخى العقل والدين لأول مرة فى كتاب مقدس، على لسان نبى مرسل، بتصريح لا يقبل التأويل، وتقرر بين المسلمين كافة ـ إلا من لا ثقة له بعقله ولا بدينه.

أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل، كالعلم بوجود الله، وبقدرته على إرسال الرسل، وعلمه بما يُوحى إليهم وإرادته لاختصاصهم برسالته، وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة، كالتصديق بالرسالة نفسها.. كما أجمعوا على أن الدين إن جاء بشيء قد يعلو على الفهم فلا يمكن أن يأتى بما يستحيل عند العقل..

فالله يخاطب فى كتابه الفكر والعقل والعلم بدون قيد ولا حد، والقرآن قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم.. فهو معجزة عرضت على العقل، وعرفته القاضى فيها، وأطلقت له حق النظر فى أنحائها، فالإسلام لا يعتمد على شىء سوى الدليل العقلى والفكر الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى، فلا يدهشك بخارق للعادة، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية..

والمرء لا يكون مؤمنًا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به. فمن ربى على التسليم بغير عقل، و العمل ولو صالحًا، بغير فقه، فهو غير مؤمن، لأنه ليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان، بل القصد منه أن يرتقى عقله وتتزكى نفسه بالعلم بالله والعرفان فى دينه، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته فى دينه ودنياه، ويكون فوق هذا على بصيرة وعقل فى اعتقاده..

فالعاقل لا يقلد عاقلًا مثله، فأجدر به أن لا يقلد جاهلًا دونه..

وبهذا الأصل، الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبى ﷺ، مُهدت بين يدى العقل كل سبيل، وأُزيلت من سبيله جميع العقبات، واتسع له المجال إلى غير حد..».

ـ «لكن العقل البشرى وحده ليس فى استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته فى هذه الحياة.. وقد يكون من الأعمال ما لا يمكن درك حُسنه، ومن المنهيات ما لا يعرف وجه قُبحه، وهذا النوع لا حسن له إلا الأمر ولا قبح له إلا النهى «إن مجرد البيان العقلى لا يدفع نزاعا، ولا يرد طمأنينة.. وإذا قدرنا العقل البشرى قدره، وجدنا غاية ما ينتهى إليه كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض الكائنات التى تقع تحت الإدراك الإنسانى.. أما الوصول إلى كنه حقيقته فمما لا تبلغه قوته[1].

تلك لمحات ـ مجرد لمحات.. وإشارات ـ مجرد إشارات ـ على امتياز الإسلام بالعقل والعقلانية التى مثلت مع الوحى الإلهى الرسولين اللذين تجسد فيهما «اللطف الإلهى» بالإنسان، الذى خلقه الله فسواه، ونفخ فيه من روحه.. وفضله ـ لذلك ـ حتى على الملائكة المقربين.. والذى حمل أمانة الاختيار والمسئولية فى عمران هذا العالم وفق «الكتاب» و«الحكمة».. أى نور الشرع ونور العقل، لتكون حياة الإنسان نورًا على نور[2]..

(١) محمد عبده [الأعمال الكاملة] جـ٥ ص ٤٢٨، ٢٩٨، جـ ٣ ص ٣٥٦، ٣٥٧، ٢٨٢، ١٥١، ٢٧٩، ٢٨١، جـ ٤١٤، جـ٣ ص ٣٩٦، ٣٩٩، ٤١١، ٣٧٩، ٣٩٧، ٣٢٥، ٣٦٥، جـ٩ ص ٤٣ ـ ٤٦. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت ١٩٧٢م وطبعة القاهرة ١٩٩٣م.

(٢) انظر بكتاب [مشكلات العالم الإسلامى وعلاجها فى ظل العولمة] طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة سنة ١٤٢٨ هـ سنة ٢٠٠٧م.

فى كتاب الاجتهاد
للشيخ الأكبر محمد مصطفى المراغى

[١٢٩٨ ـ ١٣٦٤هـ ـ ١٨٨١ ـ ١٩٤٥م]

هذا كتاب فى الدفاع عن حق العقل المسلم فى الاجتهاد.. وفى معارضة إغلاق بابه، ومعارضة الجمود عند ظواهر النصوص دون مراعاة لما يستجد من المصالح والأعراف، ومعارضة الجمود الذى يقف عند اجتهادات القدماء التى ارتبطت بزمان غير الزمان.. وفيه جهد اجتهادى لتفكيك وتفنيد حجج أهل الجمود والتقليد.

* وفى هذا الكتاب نرى الشيخ المراغى مجتهدًا، إن لم يكن بالمعنى المطلق فبمعنى الاجتهاد الذى ينظر فى اجتهادات المذاهب الفقهية جميعها، ويوازن بينها، ويرجح ما يراه الراجح من هذه الاجتهادات.. أى أنه مجتهد فى المذاهب الفقهية جمعيها، وليس فى مذهب واحد منها.. ثم إنه مجتهد فيما استجد فى الواقع الحياتى المعيش.

* وفيه تتجلى إحاطة الإمام المراغى بمصادر الفقه الأساسية ـ الأصولى منها والفروعى التى تتجلى بين يديه وفى عقله وقلمه سهلة طيِّعة ميسورة، إلى الحد الذى يجعلنا نتحسر على الحال الذى وصل إليه «علماؤنا» هذه الأيام!

* وإذا شئنا ـ فى هذا التقديم لهذا البحث فى الاجتهاد ـ إشارات ـ مجرد إشارات ـ كاشفة ومضيئة لما فيه من أفكار تتعلق بهذا المبحث، الذى هو معيار «الحياة والإحياء» للفقه الإسلامى، والذى تمثل غيبته «الموت والموات» لعقلنا الفقهى، فإننا نقف عند هذه الإشارات لهذه الأفكار:

* «إن المدارك المثمرة للأحكام الفقهية أربعة، وهى: الكتاب والسنة والإجماع والعقل».

* والاجتهاد منه المطلق، ومنه الاجتهاد فى المذهب.. وشروط الاجتهاد المطلق ـ كما حددها أبو حامد الغزالى فى [المستصفى من أصول الفقه] ـ شرطان:

«أحدهما: أن يكون محيطًا بمدارك الشرع، متمكنًا من استثارة الظن بالنظر فيها، وتقديم ما يجب تقديمه، وتأخير ما يجب تأخيره.

والشرط الثانى: أن يكون عدلًا مجتنبًا للمعاصى القادحة فى العدالة. وهذا يُشترط لجواز الاعتماد على فتواه، فمن ليس عدلًا لا تقبل فتواه، أما هو فى حق نفسه فلا، فكان العدل شرطًا لقبول الفتوى لا شرطًا لصحة الاجتهاد».

* والقول بغلق باب الاجتهاد غلط، وهناك إمكانية ـ بل وجوب ـ للاجتهاد.. «إن قفل باب الاجتهاد غلط تأباه قواعد الأصول.. وليس الاجتهاد ممكنًا عقلًا فقط، بل هو ممكن عادةً، وطرقه أيسر مما كانت فى الأزمنة الماضية، فقد توافرت مواد البحث فى كل فروع العلوم على نحوٍ لم يكن ميسورًا فى العصور الأولى، كما أن مذاهب الفقهاء جميعهم مدونة، وأدلتها معروفة.

والواقع أنه فى أكثر المسائل التى عرضت للبحث وأفتى الفقهاء فيها لم يبق للمجتهد إلا اختيار أيٍّ من آرائهم فيها، أما الحوادث التى تجدّ فهى التى تحتاج إلى آراء محدثة..

ومع احترامى لرأى القائلين باستحالة الاجتهاد، فإنى أخالفهم فى رأيهم، وأقول: إن فى علماء المعاهد الدينية فى مصر من توافرت فيه شروط الاجتهاد، ويحرم عليهم التقليد..

وليس الاجتهاد عندى منصبًا لا يتجزأ، بل يجوز أن يقال للعالم إنه مجتهد فى بعض الأحكام دون بعض، فمن عرف النظر القياسى فله أن يفتى فى مسألة قياسية وإن لم يكن ماهرًا فى علم الحديث.

وشروط الاجتهاد الجزئى سهلة المنال، فليس على مريد الاجتهاد فى مسألة من مسائل البيع والطلاق إلا أن يعرف آيات البيع والطلاق، وأحاديث البيع وأحاديث الطلاق، ويعرف ما نسخ منها وما بقى، ويعرف مواقع الإجماع ليتجنب المخالفة بعد أن يكون على بصيرة فى فهم اللغة وفنون المنطق والكلام وآراء الفقهاء..

والأصل فى الدين أنه لا حجة على مسلم إلا فى دليل من الأدلة الشرعية، وكل قادر على تناول الحكم فيها يجب عليه أن يدع تقليد الرجال أيًّا كانوا، وإذا تعذر على مسلم أن ينال الأحكام من أدلتها وجب عليه أن يقلد ويسأل أهل الذكر..

ويحرم على المجتهد شرعًا أن يعمل بغير رأيه، سواء أكان مجتهدًا مطلقًا أو مجتهدًا فى مسألة أو مسائل خاصة، والمقلد الذى يستطيع النظر فى الأدلة وترجيح بعضها على بعض يجب عليه أن يعمل بما يترجح عنده بالدليل ولا يجوز له أن يتخير، ومن لا يستطيع الترجيح يتخير أو يعمل بما يطمئن إليه قلبه..

* والواجب توسيع الخيارات أمام المقلد.. فالمقلد لا يلزمه التزام مذهب معين لا يتعداه.. وعلى المقلد معرفة أدلة من يقلده إن استطاع..

«فليس على المقلد التزام مذهب معين دائمًا؛ لأن التزامه غير ملزم؛ إذ لا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله، ولم يوجب الله ولا رسوله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل من الأمة فيقلده فى دينه فى كل ما يأتى ويذر دون غيره..

ويجوز تقليد غير الأئمة الأربعة متى صح النقل عنهم، وفُهم مرادهم..

وإن تقليد إمام من غير معرفة دليله لمن يستطيع النظر فى الأدلة وفهمها، وترجيح دليل على دليل ـ أمر يأباه الدين وتأباه أقوال الأئمة، ولم يكن معروفًا فى الصدر الأول، ولم يكن يرضاه أحد لنفسه، وإذا لم يكن الاجتهاد ميسورًا، سواء أكان جزئيًا أو مطلقًا، فليس يعسر على من مَرِن على الأدلة فى العلوم العقلية وعلوم الفقه أن يرجح دليلًا على دليل، ويعمل بما تطمئن إليه نفسه..».

* وفى التشريع الإسلامى مرونة فى الأحكام تسع الناس عبر الزمان والمكان.. وفيه توسيع للخيارات أمام العقل الفقهى.. ومن آليات المرونة: العمل بالقول

الضعيف.. ومراعاة متغيرات الزمان والمكان واختلاف الأعراف والمصالح.. وهناك جدل بين الأعراف والنصوص.. وخضوع النصوص الخاصة للنصوص العامة التى تنفى الحرج وتتغيَّا اليسر..

«فنصوص كبار الفقهاء تشير إلى جواز العمل بالقول الضعيف.. والقاضى يلجأ إلى غير مذهبه للضرورة.. ويعمل بغير المشهور من مذهبه إذا نص السلطان على ذلك.. ويجوز العمل والإفتاء بالقول الضعيف فى مواضع الضرورة.. كما يجوز العمل بالضعيف للشخص فى خاصة نفسه وللفتوى إذا تحقق المفتى الضرورة.. ويمنع التخيير إذا كان الغرض من الالتجاء إلى القول الضعيف الشهوة والغرض اتباعًا للهوى وابتغاء حطام الدنيا.. والقول الضعيف عندما يُختار للعمل به لمصلحة من مصالح الأمة لا يبقى ضعيفًا، بل يصير راجحًا..

وما ضاق على الناس أمر إلا اتسع حكمه.. وإن تغيير ما اعتاده عامة أهل العصر فى عامة بلاد الإسلام لا حرج فوقه.. وللمفتى الآن أن يفتى على عرف أهل زمانه وإن خالف زمان المتقدمين.. وليس له الجمود على المنقول فى كتب ظاهر الرواية من غير مراعاة الزمان وأهله، وإلا ضيع حقوقًا كثيرة، ويكون ضرره أعظم من نفعه.. ولا بد للمفتى من ضرب اجتهاد ومعرفة بأحوال الناس، ومن جهل زمانه فهو جاهل..

ولا يجوز أن تجمد الفقهيات الاجتهادية أمام حوادث الزمن، وأمام ما يجد فيه من عادة ومصطلحات وهى قابلة للتجدد وقابلة للتغير أمام العرف العام وأمام العرف الخاص.. فعمر بن الخاطب ـ رضى الله عنه ـ أسقط الحد عام المجاعة؛ لأن الضرورة قامت عذرًا عنده درأ به الحد.. والحنفية تركوا القياس وهو أحد الأدلة الشرعية، بالعرف العام، وخصصوا النص بالعرف العام؛ إذ العرف قد لا يطرأ إلا بعد قرون من ورود النص فيظل النص معمولًا به قرونًا طويلةً، ثم يجدّ العرف فينقبض النص ويقتصر على ما وراء المتعارف ويأخذ المتعارف حكمًا آخر خلاف حكم النص، فيصير الشىء مباحًا بالعرف بعد أن كان حرامًا بالنص.. ولقد أجاز الفقهاء التعامل بالدراهم بالعدد بدلًا واستقراضًا وإن تفاوت وزنها، مراعاةً للعرف ومراعاة للضرورة، وفى هذا خروج على النص جملةً؛ لأنه إلغاء للمعيارية بالكيل والوزن..

والأحكام المستفادة من النصوص قليلة جدًّا بالنسبة للأحكام الاجتهادية؛ فالأحكام الاجتهادية قابلة للتغير بالعرف العام والخاص، والأحكام المستفادة من

النص قابلة للتخصيص بالعرف العام باتفاق، وبالعرف الخاص على رأى بعض الحنفية..

فهل توجد مرونة فى القوانين تسع الناس أكثر مما فى هذه الأحكام؟ وهل يصح مع هذا أن يقول أحد إن قواعد الفقه جامدة لا تسع الناس فى كل عصر ومكان؟..

الحق أن هذا ظلم لهذه القواعد، ولكنه ظلم جرَّه تزمُّتُ الفقهاء المحدثين الذين لم يفهموا روح الدين ولا روح الفقهاء المتقدمين..

إن العمل بالعرف هو عمل بالأدلة الشرعية، وعمل بما يستفاد من مدارك التشريع فى مواطن كثيرة، وإن شئت فقل: إنه الكتاب؛ ففى الكتاب:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وهذان النصان يجب أن تبقى سيطرتهما تامةً على جميع التشريع الإسلامى، فإذا ما وجدنا أن العمل بالنصوص الخاصة يوقع فى الحرج لحدوث ضررٍ ما أو لحدوث عرف عام يوجب تركُه الحرج، وجب أن تقف النصوص الخاصة عن عملها فى تلك المواطن، وأن يعمل بالنص العام القاطع الموجب لنفى الحرج. من ذلك تعلم أن العرف ليس دليلًا، وأنه لم يعمل به لاعتباره دليلًا، وإنما يعمل به امتثالًا للدليل العام القاطع الموجب لنفى الحرج..

هذا هو الفقه الذى لا يمكن لشخص يقدِّر عقله أن يحيد عنه، فإن استطاع العلماء سد باب الاجتهاد المطلق فلن يستطيعوا سد باب الاجتهاد الخاص، وإن استطاعوا فلن يستطيعوا سد باب الاجتهاد فى المذهب لاختيار رأى يلائم عرفًا عامًّا أو خاصًّا أو اختيار رأى قضت به ضرورة عامة أو خاصة.

والحق أن الاجتهاد فى المذهب لم ينقطع فى أى عصر من العصور الماضية، وهو باقٍ إلى الآن، فالحوادث لا نهاية لها، ولا يمكن أن تحدها الكتب ويحوطها الحصر، وفى كل يوم تجد للقضاة والمفتين حوادث لا عهد للكتب بها فيستنبطون لها أحكامًا طبقًا للقواعد العامة، وتنسب هذه الأحكام إلى مذهب القضاة والمفتين، ويستمر هذا ما بقيت الدنيا وما احتاج الناس إلى القضاء والإفتاء..».

* والسياسة الشرعية هى النظم التى لم يرد بها الكتاب والسنة، والتى لا تخالف الكتاب والسنة.. «ذلك أنه لما كانت نصوص الكتاب والسنة لا تفى بتفصيلات الحوادث جميعها فى كل زمان ومكان، كان من الحتم أن توضع النظم، وهذا ما نسميه السياسة الشرعية.. لذلك كانت السياسة مما لا يستغنى عنها مذهب من المذاهب، ولا تستغنى عنها دولة من دول الإسلام.. ولا يجوز لولى الأمر النهى عن واجب ولا الأمر بمحرم، أما ما عدا ذلك فيجوز أن يضع له من الأنظمة ما يرى فيه مصلحة الأمة».

* وطاعة ولى الأمر فى الإسلام لها ضوابط.. «لقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].

أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، وأعاد الفعل إعلامًا بأن طاعة رسول الله تجب استقلالًا من غير عرضٍ على ما أمر به الكتاب.. ولم يأمر بطاعة ولى الأمر استقلالًا، بل حذف الفعل، وجعل طاعتهم فى ضمن طاعة الرسول إيذانًا بأنهم إنما اعتبروا تبعًا لطاعة الرسول، فمن أمر ونهى بطاعة الرسول وجبت طاعته، ومن أمر بخلاف ما جاء به الرسول فلا سمع له ولا طاعة.. ولقد صح عنه ﷺ: «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق».

ثم إن وجوب الطاعة لهم ما داموا على الحق، فلا تجب طاعتهم فيما خالف الشرع، إنما الطاعة فى المعروف..

وقد يقال: إن الله تعالى هو الحاكم، وليس لأحد غيره أن يُحِلَّ ويحرِّم. وهذا صحيح، غير أن الحكم الذى يحدث عند أمر الإمام ونهيه لم يحدث بأمره ونهيه، بل حدث بأمر الله تعالى، وخطاب التكليف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ يتوجه إلى الناس عند أمر الإمام أو نهيه، فالأمر من قِبل الإمام سبب فى توجه الخطاب، كما أن الزوال سبب فى توجه الخطاب بإقامة الصلاة، فالذى أحلَّ وحرَّم هو الله..».

رسالة فى الزمالة الإنسانية
للشيخ الأكبر محمد مصطفى المراغى

[١٢٩٨ ـ ١٣٦٤هـ ـ ١٨٨١ ـ ١٩٤٥م]

إن الزمالة الإنسانية حاجة طبيعية، وليست نظرية فلسفية.. وفى الحياة والمجتمعات جدل بين التضامن والتفرق.. «ولقد تولدت فكرة الزمالة فى الجماعات الساذجة، ونمت الفكرة بنمو الجماعات، ولقد امتد سلطانها فشملت القبائل، ثم نمت حتى وسعت الشعب والأمة.. ثم أخذت فى الاتساع حتى شملت النوع الإنسانى كله.. ففكرة الزمالة ليست نظرية فلسفية، بل هى حاجة طبيعية تولدت فى النوع البشرى منذ دور الطفولة..

ومع شعور الإنسان بالحاجة إلى الزمالة، ومع أن العقل يقتضيها، فقد كانت عوامل التفرق دائمًا ملازمة لهذا الشعور، لأن الإنسان لا يسيره العقل وحده، ولكن تسيره أيضًا حب الأثرة والغيرة، والخوف والشك، وقد أضيف إلى ذلك اختلاف الأديان والمذاهب.

* ودواء هذا التفرق هو التدين؛ «إذ لا أعتقد أن التقدم العلمى والفلسفى بقادر على التغلب على عوامل التفرق وإزالة آثارها، فقد شاهدنا الحروب تزيد هولًا ووحشيةً كلما ازداد تقدم العلم، وأنه أمضى أسلحتها..

إن المتدين عندما يعالج هذه المشكلة يجب أن يذكر أن الأديان كلها قد اعتمدت فى الإنسان على أصلٍ راسخٍ من غريزة التدين، ودفعته إلى الثقة بأن العالم مجموعة متناسقة تسودها قوة مدبرة حكيمة عادلة..

يجب أن يكون المهيمن على عمل الإنسان من داخل الإنسان، وهو خوف الله. وهذا الشعور يرفع الإنسان إلى ما فوق الاعتزاز باللون والدم والجاه والطبقة والثروة، ومن هنا تقوى طماعية المتدين فى قبول تلك الغاية المرجوة من الأخوة الإنسانية مهما عز ذلك أو بعد، ولكن بقدر ما تحتمل ذلك طبيعة الإنسان..

وكل ما فى الأديان مما يتعلق بالمجتمع البشرى أسس صالحة ترمى إلى الخير، وإلى أن يكون الفرد عضوًا نافعًا فى المجتمع، يعاشر أخاه بالمعروف، ويدفع عنه النوائب..».

* والإسلام يؤسس للزمالة الإنسانية.. «فلقد نبه القرآن لوحدة الأبوين، الموجبة للتعارف والتعاون والتناصر، والمبعدة عن التناكر والاختلاف والتخاذل، ولم يُقم وزنًا لشرف المولد وكرم الجنس، ووضع معيارًا للتفاضل لم يعرفه الناس من قبل وهو تقوى الله:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

وطلب القرآن إلى المسلمين إحسان معاشرة غيرهم من أهل الأديان والمذاهب إلا فى حالة العدوان. وقد عمل الرسول الأكرم ﷺ وخلفاؤه الراشدون من بعده على وفق هذه المبادئ السامية، حتى أبيح الإصهار إلى أهل الكتاب، مع ترك الحرية للزوجة، وعدم منعها من شعائر دينها.

إن فى أصول الإسلام أقوى الدعائم التى ترتكز عليها الزمالة الإنسانية، فهو يقرر أنه لا إكراه فى الدين، ويقول للرسول ﷺ:

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

ويقرر أن الدعوة إلى الله تكون بالحكمة والموعظة الحسنة:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

ويخاطب العقل وينبِّه إلى التفكير فيما خلق الله، ويرفع العلم والعلماء، ويقول نبى الإسلام: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق. ويقول له الله تعالى:

﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ويحث على البر والرحمة، وعلى مواساة الضعفاء والفقراء، بل وعلى الرفق بالبهائم، حتى جعل نفقة البهيمة الضالة واجبة فى بيت المال، وجعل للفقراء حقًّا مفروضًا فى أموال الأغنياء، وجعل الجناية على نفس واحدة جنايةً على الإنسانية، ووضع قواعد صارمة لعدم العبث بالنظام».

* ولقد شهد التاريخ صراعات باسم الأديان، مثَّلت ـ ولا تزال ـ أثقالًا على الذاكرة الإنسانية.. «فالإنسانية ـ تطيف بخيالاتها ذكريات من جلادٍ قاسٍ مخيفٍ، أدار رحاه الخلاف الدينى.. لكن المتدين مع ذلك كله يعاوده أمله القوى، ويدرك أن تلك الذكريات المروعة وذلك البعد عن الغاية النبيلة ليسا أثرين لنقصٍ فى طبيعة التدين أحدث ذلك كله، بل إن ذلك فى الحق إنما سببته غلبة واقعية الحياة على مثالية التدين، فتحكمت الحياة فى التدين، حين كان ينبغى أن يحكِّم الدين فى الحياة».

* وإن بؤس الواقع المعيش إنما يتمثل فى انحراف أهل الأديان عن مقاصدها الحقيقية.. «فمما يثير العجب ويضاعف الألم أن أهل الأديان يحشدون جنودهم ويعدون عدتهم لمقاتلة بعضهم بعضًا مقاتلة أسرفوا فيها، وجعلتهم ضعفاء أمام عدوهم المشترك، وسلكوا طرقًا فى التناحر مخالفة لأبسط قواعد المنطق، مما جعلهم سخرية أمام العلماء وأمام الفلاسفة، وجعل كل جهودهم عقيمة النتائج، فقد تركوا التأثير على الإنسان من ناحية عقله الذى هو موضع الشرف وموطن العزة والكرامة، واستعملوا طرق الإكراه والإغراء بالمال وغيره من الوسائل، وركن بعضهم إلى القوى المادية للدول، ونسوا أن الإيمان لا يحل فى القلب بالإكراه، وأن العلم لا ينال إلا بالدليل. وكان عليهم بدل هذا كله أن يتعاونوا على درء الخطر، وأن يحاربوا هذه الشهوات الجامحة، وهذه الإباحية التى يئن منها العقلاء، وهذه العادة المستحكمة،

التى تجر الويلات على الآمنين بين حين وآخر، وتستعار لها أسماء كاذبة من المدنية والنظام والحرية».

* وإذا كان التدين هو وسيلة الزمالة الإنسانية، فإن رؤساء الأديان لا بد أن يكونوا القدوة فى هذا الميدان وعليهم توجيه الطاقات إلى المخاطر الحقيقية التى تحدق بالبشرية جمعاء.. «إن الدعوة إلى تنمية الشعور الدينى المشترك يجب أن تسبقها الزمالة بين رؤساء الأديان أنفسهم، فهم أقدر من غيرهم على إدراك هذه المعانى السامية، وأولى الناس بأن يفهموا أن الخطر الذى يداهم الإنسانية لا يجئ من أديان المخالفين، وإنما يجئ من الإلحاد ومن المذاهب التى تقدس المادة وتعبدها، وتستهين بتعاليم الأديان وتعدها هزؤًا ولعبًا».

* وعلى أهل ـ الأديان واجبات: «فجهودهم يجب أن تتوجه إلى:

١ ـ إزاحة العلل التى حالت دون تأثير الشعور الدينى فى تقريب ما بين الناس، وهى إما تلوُّثُه بالشوائب المفرقة، وإما ضعفُه وتحلله.

٢ ـ ومن الواجب التعاون بين أهل الأديان على تقوية الشعور الدينى.

٣ ـ وعلى إعزاز مركز الأديان أمام العلم وأمام الفلسفة الأدبية والفلسفة الاجتماعية، وأمام تيارات التقدم العقلى والتحرر الفكرى.

ولا شك فى أن تقوية هذا الشعور وإعزاز مركز الأديان يقى الحياة الإنسانية من خطر هؤلاء (المستنيرين) وقدرتهم حين تتحكم المادة وتقوى فيهم الرغبات غير الشريفة.

ثم إذا استطاع أهل الأديان كسب هؤلاء وإيجاد الشعور الدينى فى قلوبهم، فإنهم يكونون قوة فعالة فى تنمية وسائط الإخاء البشرى، ذلك بقوة إحساسهم ودقة إدراكهم، واستطاعتهم فهم ما فى الأديان من معانٍ روحية سامية مجردة عن المادة يصعب فهمها على أكثر العامة ممن لم يهذبهم العلم وتنر طريقهم الفلسفة».

أما وسائل تحقيق الزمالة الإنسانية بين أهل الأديان فمنها:

١ ـ إيجاد هيئة تعمل على تنقية الشعور الدينى من الضغائن والأحقاد.

٢ ـ وتوجيه الوعظ الدينى فى الأديان المختلفة إلى الاتجاه الإنسانى.

٣ ـ وجمع كل ما فى الدين من المعانى الإنسانية السامية العامة، وإذاعة ذلك بمختلف الوسائل فى مختلف اللغات.

٤ ـ وجعل الدعاية للأديان والتبشير بها قائمًا على أساس عقلى محض..

٥ ـ وإيجاد هيئة تقوم بتقوية الشعور الدينى، وبخاصة فى الطبقات المستنيرة، فتعنى بتأييد مركز التدين أمام البحث العلمى والتفكير الحر، تأييدًا يقوم على احترام العقل وإعطائه حقه الكامل فى البحث النزيه التماسًا للمعرفة، فيعتمد هذا التأييد على مقابلة الدليل بالدليل، وعلى الإقناع بطرق الإقناع الصحيحة، مع البعد عن الوسائل الإرهابية، والتضليل، وعن الارتكان على السلطة الروحية المستبدة، وبالجملة يبتعد عن الأخطاء الماضية التى دفعت الإنسانية ثمنها باهظًا مرهقًا.

٦ ـ وإيجاد شعبة تحتفى بالآراء الخلقية وبيان الفضائل.

٧ ـ وشعبة تتبع الدراسات الاجتماعية، كالاشتراكية والشيوعية وما إلى ذلك، تبين منها موضع الخير وناحية الحق، وتكشف عن موضع الهوى الجامح والرغبة النهمة المفسدة لشرف الغرض من الحياة.

٨ ـ والعمل على توجيه التشريع إلى تأييد الأصول العامة المشتركة فى الأديان فيقاوم الزنا، وتُحمَى الأسرة، ويعاقب على الكذب والغيبة والنميمة والدس والوقيعة ولو لم تصور فى جرائم مادية، وتُحَد الحرية فى التمتع وأسباب الشهوات، وتُحَرم المنافسة غير الشريفة، ويعاقب على الجشع والخداع والتغرير، إلى غير ذلك مما جاءت الأديان لاستئصال شروره وتطهير الإنسانية من أدناسه».

مقدمة
فى صلة الإسلام بإصلاح المسيحية
للشيخ الأكبر محمد مصطفى المراغى

[١٢٩٨ ـ ١٣٦٤هـ ١٨٨١ ـ ١٩٤٥م]

«لقد تحقق الاتصال المادى بين الإسلام والمسيحية من خلال الحروب فى الشرق والغرب، وتبادل الأسرى، والفتح وبسط رواق الحكم والسلطان الإسلامى فى الغرب، وغزو الفرنجة بلاد المسلمين، واختلاط الجند فى الشرق والغرب، واستعانة المسلمين بغيرهم فى مرافق الدولة وأعمال الحكومة، واستعانة غيرهم بهم فى ذلك، والوفود التى تفد من الجانبين للصلح وتقرير العلاقات، أو لورود البلاد، والانتفاع بما فيها من مناخ وموارد، وتبادل التجارات».

* كذلك تحقق الاتصال المعنوى بين الإسلام والمسيحية «عندما مر الغرب بحقبة طويلة كان فيها غارقًا فى الأمية والجهالة، فجاءت حركة نقل المعارف الإسلامية، وترجمتها، وترجمة القرآن نفسه، وتعلم اللغة العربية واللغة العبرية؛ لأنهما لغة العلم، والواسطة لدراسة العلوم الإسلامية، وعناية الملوك والأمراء، ورجال الدين بهذه الحركة، والتأثر بأعلام العلماء الإسلاميين، كابن سينا، والغزالى، وابن رشد. وكل ذلك ثابت.

ولقد أثر هذا الاتصال أثره، وعمل عمله. وكان ذلك أمرًا طبيعيًّا، يدركه كل من راقب سير الوجود، وسير العلم فى هذا الكون».

* ولقد كان للمعارف الإسلامية دورها فى الإصلاح المسيحى.. «وإذا كانت للإصلاح الدينى فى المسيحية عوامل متعددة، فلقد كانت المعارف الإسلامية حاملة

للعناصر التى يمكن أن تصاغ منها أمنية المصلحين، جذبت الأبصار إليها، ووجهت العقول نحوها، وخلقت مزاجًا أعانهم على ما اختاروه..

لقد وجد دعاة الإصلاح المسيحى فى الإسلام الدين الذى لا يعترف لأحد كائنًا من كان بسلطة دينية على أحد، إلا ما أعطى للإمام (ولى الأمر) من حق فى المباحات يوجبها أو يحظرها وفقًا للمصلحة العامة، وإلا ما أوجبه على العامة من استفتاء العلماء فيما لا علم لهم به. أما العلماء فلهم حق تفسير الكتاب والسنة وحق استنباط الأحكام منهما، فى الحكم على الوقائع المستحدثة، وعليهم العمل بما اعتقدوه أو ظنوه حكمًا لله، ولا يجوز لأحد منهم أن يقلد غيره، وأن يتنازل عما هداه إليه اجتهاده، وكلمة الإمام الشافعى فى الأخذ بتفسير الصحابى معروفة: «كيف آخذ بقول من لو عاصرته لحججته؟».

وقد أثمر العقل ثمراته التى حفلت بها الأرض فى ظلال القرآن، وتحت راية السنة المطهرة، وخلَّف العلماء هذا التراث الخالد الذى نعتز به وتعتز به البشرية قاطبة.

والإسلام هو الذى قرّب الفلسفة وقدّمها، فكان له شأن فى تحرير العقل البشرى فى الغرب.

والإسلام هو الذى يقرر أن الله وحده هو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، ومن ثم ينكر الاعتراف لرجل الدين حتى تصح التوبة ويمحى الذنب.

كما ينكر بيع الغفران، ولا يرى أن تزر وازرة وزر أخرى، بل كل نفس بما كسبت رهينة. ولقد اتفق المسلمون على أنه لا حاكم إلا الله، حتى الذين قالوا بحكم العقل قالوا إنه يدرك حكم الله، ولا ينشئ حكمًا، فالله وحده صاحب السلطان، واتفقوا على أن ما جاء فيه وحى فمرده إلى الوحى.

وهذه الأصول هى أصول إسلامية بلا شبهة، قد وجدت فى الإصلاح المسيحى.

لقد قدم الإسلام أصوله الحقة للغرب، وقدم له المعرفة، ووجه العقل والوجدان، وأزال الأغشية عن البصائر، فمن المحتمل جدًّا أن يكون له فضل هذا الإصلاح.

خطاب
فى إصلاح الأزهر
للشيخ الأكبر محمد مصطفى المراغى

[١٢٩٨ ـ ١٣٦٤هـ ـ ١٨٨١ ـ ١٩٤٥م]

لقد بلغ الأزهر فى ظل التراجع الحضارى «أن بعض العلماء ممن شاهدناهم لم يكونوا يحسنون التعبير عن أغراضهم، ولا تزال منهم بقية إلى اليوم.

وكان العلماء أيضًا لا يدرسون شيئًا من العلوم العامة، كالتاريخ والحساب والهندسة وتقويم البلدان.. وكان فيهم علماء يحرِّمون تقويم البلدان والتاريخ والحساب، ويكتبون مقالات فى الجرائد ضد هذه العلوم.

ومنذ أربعين سنة[1] قرأ لنا أحد شيوخنا كتاب الهداية فى الفلسفة فى داره، على شرط أن نكتم الأمر لئلا يتهمه الناس ويتهمونا بالزيغ والزندقة. وكان ولاة الأمور يَشْكون من أن القضاة لا يعرفون الأرقام، ولا يعرفون طرق التوثيق، ولا يعرفون من العلوم العامة ما يجب أن يعرفه شخص يتولى الحكم بين الناس».

* والإسلام هو سبيل الإصلاح، «إذ لا يوجد دواء أنجع من الدين لإصلاح أخلاق الجماهير. وإن حياة المجتمعات لا تدين لنوع واحد من أنواع الإصلاح إلا إذا صبغ بصبغة دينية يكون قوامها الإيمان. والخُلُق هو العمود الفقرى للأمم، لا يمكنها أن تنهض بغيره، وأسهل طريق لتكوينه هو طريق الدين إذا صلح تعليمه وهذب دعاته».

* والأزهر هو الحامل لرسالة الإسلام.. «والدين الإسلامى يطلب من أهله السعى إلى معرفة كل شىء فى الحياة.. ولقد كان للعقل عند سلف علماء الأمة حرمته، وله

(١) أى قبل أربعين سنة من سنة ١٩٣٥م.

حريته التامة فى البحث، وكان الاجتهاد غاية يسعى إليها كل مشتغل بالعلم متفرغ له. والإسلام منهاج شامل، فيه عبادات وعقائد وأخلاق، وفقه فى نظام الأسرة، وفقه المعاملات، مثل البيع والرهن، وفقه فى الجنايات..

ولقد هوجم الإسلام أكثر من غيره من الديانات السابقة، هوجم من أتباع الديانات السابقة، وهوجم من ناحية العلم، وهوجم من أهل القانون؛ لهذا كانت مهمة العلماء شاقة جدًّا، تتطلب معلومات كثيرة:

تتطلب معرفة المذاهب قديمها وحديثها، ومعرفة ما فى الأديان السابقة، ومعرفة ما يجدُّ فى الحياة من معارف وآراء، ومعرفة طرق البحث النظرى وطرق الإقناع، وتتطلب فهم الإسلام نفسه من ينابيعه الأولى فهما صحيحًا، وتتطلب معرفة اللغة وفقهها وآدابها، وتاريخ التشريع وأطواره، وتتطلب العلم بقواعد الاجتماع».

* والأزهر هو مصباح مصر الذى ينير لها عالمها الإسلامى، وهو واسطة العقد بينها وبين الأمم الإسلامية الأخرى.. «ولذلك يجب على الأمة المصرية، وهى تحمل راية الأمم الإسلامية، أن تنقى هذا المصباح (الأزهر) من الأكدار، وأن توجد له جهازًا قويًّا يستمد نوره منه على طريقة تتناسب مع ما جدَّ فى العالم من أطوارٍ فى العلم وفى التفكير وفى الحوار والتخاطب وفى طرق الاستدلال والبحث.

إن من واجب الدولة المصرية أن تحافظ على كرامة هذا المعهد القديم، وأن ترد إليه مجده، فإنه واسطة اتصال وثيق بين الأمة المصرية وغيرها من الأمم، وإذا أُحسن استخدام هذه الوساطة عادت بفائدة أدبية ذات قيمة على الشعب المصرى.. إن الأزهر الشريف هو شيخ المعاهد الإسلامية فى مصر وغيرها من البلاد.. إنه هو الذى يدرس الدين الإسلامى، الذى أوجد أممًا من العدم، وخلق تحت لوائه مدنية فاضلة، وكان له الأثر الضخم فى الأرض..

ومتى تم تنظيم الأزهر وأخذ مكانته فستعود إليه ثقافة الأمم الإسلامية وتطلب منه علماء ومرشدين، خصوصًا إذا عُلِّمت فيه اللغات التى يحتاج إليها المرشد إذا ذهب إلى بلد من البلاد الإسلامية.

وإن للمسلمين فى الأزهر آمالًا كثيرة وكبيرة.. «ومن الحق أن يتنبَّه إليها أهله ومن هذه الآمال:

أولًا: تعليم الأمم الإسلامية المتأخرة فى المعارف وهدايتها إلى أصول الدين وإلى فهم الكتاب والسنة ومعرفة الفقه الإسلامى وتاريخ الإسلام ورجاله.

ثانيًا: إثارة كنوز العلم التى خلفها علماء الإسلام فى العلوم الدينية والعربية والعقلية.

ثالثًا: عرض الإسلام على الأمم غير المسلمة عرضًا صحيحًا فى ثوب نقى خال من الغواشى المشوهة لجماله، وخال مما أدخل عليه وزيد فيه، وخال من الفروض المتكلفة التى يأباها الذوق ويمجها طبع اللغة العربية.

رابعًا: العمل على إزالة الفروق المذهبية، أو تضييق شقة الخلاف بينها».

* ويجب تطوير المناهج الدراسية بالأزهر.. «بحيث يدرس القرآن دراسة جيدة. وأن تدرس السنة دراسة جيدة، وأن يُفهما على وفق ما تتطلبه اللغة العربية فقهها وآدابها من المعانى، وعلى وفق قواعد العلم الصحيحة، وأن يبتعد فى تفسيرها عن كل ما أظهر العلم بطلانه، وعن كل ما لا يتفق وقواعد اللغة العربية».

* «ويجب أن تهذب العقائد والعبادات وتنقى مما جد فيها وابتدع».

* «وتهذيب العادات الإسلامية بحيث تتفق والعقل وقواعد الإسلام الصحيحة».

* ويجب أن يدرس الفقه الإسلامى دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب، وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة، وأن تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها فى الكتاب والسنة، والأحكام المجمع عليها، والنظر فى الأحكام الاجتهادية لجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والأعراف وأمزجة الأمم المختلفة كما كان يفعل السلف من الفقهاء. ولو أن الأمة المصرية وجدت من الفقهاء من جارى أحوال الزمان وتبدُّل العرف والعادة وراعى الضرورات والحرج لما تركت هذا الفقه إلى غيره، لأنه يرتكن إلى الدين الذى هو عزيز عليها».

* «ويجب أن تدرس الأديان ليقابل ما فيها من عقائد وعبادات وأحكام بما هو موجود فى الدين الإسلامى، ليظهر للناس يسره وقدسه وامتيازه عن غيره فى مواطن الاختلاف. ويجب أن يدرس تاريخ الأديان وفرقها وأسباب التفرق وتاريخ الفرق الإسلامية على الخصوص، وأسباب حدوثها».

* «ويجب أن تدرس أصول المذاهب فى العالم قديمها وحديثها، وكل المسائل العلمية فى النظام الشمسى، والمواليد الثلاثة[1]، مما يتوقف عليه فهم القرآن فى الآيات التى أشارت إلى ذلك».

* «ويجب أن تدرس اللغة العربية دراسة جيدة كما درسها الأسلاف، وأن يضاف إلى هذه الدراسة دراسة أخرى على النحو الحديث فى بحث اللغات وآدابها».

* «ويجب أن توجد كتب قيمة فى جميع فروع العلوم الدينية واللغوية على طريقة التأليف الحديثة، وأن تكون الدراسة جامعة بين الطرق القديمة (فى عصور الإسلام الزاهرة) والطرق الحديثة المعروفة الآن عند علماء التربية. وعلى الجملة أن يحافظ على جواهر الدين وكل ما هو قطعى فيه محافظة تامة، وأن تهذب الأساليب ويهذب كل ما حدث بالاجتهاد، بحيث لا يبقى منه إلا ما هو صحيح من جهة الدليل وكل ما هو موافق لمصلحة العباد».

* «ويجب أن يدرس القرآن الكريم والسنة المطهرة دراسة عبرة وتقدير، لما فيهما من هداية ودعوة إلى الوحدة، دراسة من شأنها أن تقوى الرابطة بين العبد وربه، وتجعل المؤمن رحب الصدر هاشًا باشًّا للحق، مستعدًّا لقبوله، عاطفًا على إخوانه فى الإنسانية كارهًا للبغضاء والشحناء بين المسلمين».

«إننا نريد إصلاح أعز شىء على نفوس الجماهير، ونريد بهذا الإصلاح تقويم هذه الأمة ونهوضها»..

«ويجب إصلاح التأليف للكتب.. ولست أدافع الآن عن الكتب القديمة (بل وأرجو من الله أن يمكننا من الاستغناء عنها بأحسن منها).. فنحن فى حاجة إلى

(١) الجماد ـ والنبات ـ والحيوان.

رسل بين القديم والحديث ليخرجوا لنا حديثًا جيدًا، فلا بد لنا من علماء فيهم من القوة ما يستطيعون معه تصوير ذلك فى أسلوب حديث؛ ولذلك فإنه يجب أن يراعى فى النظام الجديد للأزهر عدم إهمال طرقه الأصلية فى البحث وفهم الكتب».

مقدمة
فى العظمة المحمدية
للشيخ الأكبر محمد مصطفى المراغى

[١٢٩٨ ـ ١٣٦٤هـ ١٨٨١ ـ ١٩٤٥م]

إن العظمة المحمدية هى عظمة بلا ضفاف «إن نبى الإسلام ـ صلوات الله عليه ـ شبيه بالوجود، فقد جد العلماء منذ أشرقت الأرض بنوره يتلمسون نواحى العظمة الإنسانية فيه، ويتلمسون مظاهر أسماء الله جلت قدرته فى عقله وخُلُقه وعلمه. ومع أنهم استطاعوا الوصول إلى شىء من المعرفة، فقد فاتهم حتى الآن كمال المعرفة، وأمامهم جهاد طويل، وبُعد شاسع وطريق لا نهاية له».

والنبوة اصطفاء لمن يعد لهذا الاصطفاء.. ونبوة محمد ﷺ عامة وخالدة وخاتمة، فهو وحده شمس الهداية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. «إن النبوة هبة لا تنال بالكسب، ولكن حكمة الله وعلمه قاضيان بأن تمنح للمستعد لها والقادرعلى حملها: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

ومحمد ﷺ أُعد لأن يحمل الرسالة للعالم أجمعه، أحمره وأسوده، إنسه وجنه، أُعد لأن يحمل رسالة أكمل دين، ولأن يُختم به الأنبياء والرسل، وليكون شمس الهداية وحده إلى أن تنفطر السماء وتنكدر النجوم، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات».

إنه بشر يوحى إليه «والوحى لا يلازم الأنبياء فى كل عمل يصدر عنهم وفى كل قول يبدر منهم، فهم عرضة للخطأ، ولكنهم يمتازون عن سائر البشر بأن الله لا يقرهم على الخطأ بعد صدوره ويعاتبهم عليه أحيانًا..

ولقد جاء الوحى مفصلًا قاطعًا فى كل ما يخص ذات الله ووحدته وصفاته وكيفية عبادته، ولم يكن كذلك فيما يخص النظم الاجتماعية للأسرة والقرية والمدينة والدولة منفردة ومرتبطة بغيرها من الدول. فهناك مجال واسع للبحث عن عظمة النبى ﷺ قبل الوحى، وهناك مدًى فسيح للبحث عن تلك العظمة بعد الوحي».

ولا بد من النظرة النقدية لمدونات السيرة النبوية فى ضوء الضابط لحقائق هذه السيرة: القرآن والسنة.. ذلك أن سيرة النبى صلوات الله عليه وعلى آله ـ كسائر العظماء، أضيف إليها ما ليس منها، إما عن حب وهوى وحسن قصد، وإما عن سوء قصد وحقد، غير أنها تمتاز عن سير العظماء جميعهم بأن منها شيئًا كثيرًا ضمه الوحى الإلهى وضمن حفظه القرآن المطهر، وشيئًا كثيرًا روى على لسان الحفاظ الثقات من المحدثين، وعلى هذه الأسس الصحيحة يجب أن تبنى السيرة.

لقد جعل القرآن العقل حكمًا والبرهان أساس العلم، وعاب التقليد وذم المقلدين، وأنّب من يتبع الظن، وقال:

﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٣٦].

وعاب تقديس ما عليه الآباء، وفرض الدعوة بالحكمة لمن يفقهها. ولم تكن معجزة محمد ﷺ القاهرة إلا القرآن، وهى معجزة عقلية. وما أبدع قول البصيرى:

لـم يمتحنا بما تعيا العقول به   حرصًا علينا، فلم نرْتب ولم نهمِ

وفى منهاج النظر فى الرسالة المحمدية، نجد: الشك طريق اليقين.. والتجرد من الآراء المسبقة لاختبار المقدمات.. «انظر كتب الكلام ترهم يقررون أن أول واجب على المكلف معرفة الله. فيقول آخرون: لا، إن أول واجب هو الشك، ثم إنه لا طريق للمعرفة إلا البرهان، وهو وإن كان نوعًا من القياس إلا أنه يجب أن تكون مقدماته قطعية حسية أو منتهية إلى الحس، أو مدركة بالبداهة، أو معتمدة على التجربة الكاملة أو الاستقراء التام، على ما هو معروف فى المنطق وكل خطأ يتسرب إلى إحدى المقدمات أو إلى شكل التأليف مفسد للبرهان.

وقد جرى الإمام الغزالى على الطريقة نفسها، وقد قرر فى أحد كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء ثم فكر وقرر، ورتب ووازن، وقرب وباعد، وعرض الأدلة وهذبها وحللها، ثم اهتدى بعد ذلك كله إلى ما اهتدى إليه من الآراء، وإلى أن الإسلام حق، وقد فعل هذا ليجافى التقليد، وليكون إيمانه إيمان المستيقن المعتمد على الدليل والبرهان، ذلك الإيمان الذى لا يختلف المسلمون فى صحته ونجاة صاحبه.

وأنت واجد فى كتب الكلام فى مواضع كثيرة حكاية تجريد النفس عما ألفته من العقائد، ثم البحث والنظر. فطريق التجريد طريق قديم، وطريق التجربة والاستقراء طريق قديم، التجربة والاستقراء التام وليدا الملاحظة، فليس هناك جديد عندنا، ولكن هذه الطريقة القديمة بعد أن نسيت فى التطبيق العلمى والعملى فى الشرق، وبعد أن نشأ التقليد وأُهدر العقل، وبعد أن أبرزها الغربيون فى ثوب ناضج، وأفادوا منها فى العلم والعمل، رجعنا نأخذها عنهم، ونراها طريقة فى العلم جديدة».

وأمام اختلافات الفلسفات وتقلبات النظريات لا بد من الوحى الصادق، مع العقل.. وهذا الطريق يؤكد أن المستقبل للإسلام وحده.. «إن الفلسفة والآداب تبدل ثيابها على تعاقب الأجيال.. كما تبدل النساء أزياءها، بل لقد سرى التبدل إلى قواعد العلم التى لم تكن طوال الأجيال الماضية موضعًا للشك، ونظرية النسبية اضطرب لها العلماء، وسرعان ما قام من يهدمها.. ولعل هذه الحيرة ستخفف غلواء العلماء المعتزين بالعقل وحده، وتلويهم يومًا من الأيام إلى الدخول فى حمى الحق، وحصن اليقين، وهو الوحى الصادق، وهو القرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة.

يقول بعض علماء الكلام: إن الإطلاع على علم تشريح الأفلاك وعلم تشريح الإنسان يدل أوضح الدلالة على شمول العلم الإلهى لدقائق الوجود، وأنا أقرر أيضًا أن العلم والكشف عن سنن الوجود وعجائبه سيكون نصير الدين، وسيقرب إلى العقل الإنسانى طريق فهم ما كان غامضًا مبهمًا، وما كان فوق طاقة العقل إدراكه من قبل، مصداقًا لقوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

إن هذا الدين المحمدى سينقذ البشر مما هم فيه من الحيرة وينتشلهم من ظلمة المادة، ويبصرهم بنور الإيمان، ويوجههم إلى النور الإلهى، فيدركون به سعة رحمته التى وسعت كل شىء، وعظمة مجده الذى تسبح به السموات والأرض وكل شىء فيهما، وعزته التى تتضاءل أمامها الموجودات.

إن الإسلام سينشر لواءه على العالم، وسيكون أشد الناس عداوة له اليوم هم أشد الناس غيرة عليه ودفاعًا عنه، وسيكون هؤلاء الغرباء عنه هم أنصاره وأهله. وكما نصره أول أمره الغرباء عن البيئة التى نشأ فيها، فسينصره آخر الأمر الغرباء عن لغته ووطنه. وقد بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء.

وإذا كان النبى ﷺ خاتم الأنبياء، وليس للعالم بعده هاد مرشد، وكان دينه أكمل دين بنص الوحى القاطع، فلا يمكن أن يقف أمره على ما هو عليه الآن، ولا بد أن يمحو نورُه نورَ غيره كما تمحو الشمس أضواء غيرها من الكواكب».

❊ ❊ ❊

هكذا تحدث الإمام المراغى فى هذا الكتاب الذى نقدم بين يديه. وما هذه الإشارات التى اخترناها إلا قبسان من نور هذا الكتاب، وقطرات من بحر الأفكار التى سبحت فيه.. آثرنا أن نجعلها دليل القارئ لهذا الكتاب.

والله نسأل أن ينفع به، وأن يجعل نفعه فى ميزان حسنات هذا الإمام العظيم.. إنه ـ سبحانه وتعالى ـ خير مسئول وأكرم مجيب[١].

(١) نشرنا هذا الكتاب ـ الجامع لهذه النصوص.. وللدرسات التى قدمنا بها ـ هدية مع مجلة الأزهر شعبان سنة ١٤٣٦هـ.

القاضى عياض
بطاقة حياة القاضى عياض

[٤٧٦ ـ ٥٤٤هـ ١٠٨٤ـ ١١٤٩م]

* هو: أبو الفضل، عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبى السبتى.

يرجع نسبه إلى قبيلة يحصب بن مالك ـ من حمير عرب اليمن. أندلسى الأصل، انتقل أجداده إلى مدينة فاس ـ بالمغرب ـ ثم انتقل جده عمرون إلى مدينة سبتة.

ولد فى سبتة فى النصف الثانى من شعبان ٤٧٦هـ يناير ١٠٨٤م،

* طلب العلم بالأندلس سنة ٥٠٨هـ ١١١٤م.. وتتملذ على كوكبة من علماء قرطبة.. ولقد درَّس له وأجازه نحو من مائة من كبار علماء عصره.

* ولى قضاء سبتة وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره.. وحسنت سيرته فيها.. ثم ولى قضاء غرناطة ـ بالأندلس ـ سنة ٥٣١هـ ١١٣٧م.. ثم عاد ثانية إلى قضاء سبتة.

* عاصر دولتى المرابطين [٤٤٨ ـ ٥٤١هـ ١٠٥٦ ـ ١١٤٦م] والموحدين [٥٤٢ ـ ٦٦٨هـ ١١٢٩ـ ١٢٦٩م] وثار مع أهل سبتة ضد دولة الموحدين سنة ٥٤٣هـ ١١٤٨م.. فأخمد ثورتهم عبد المؤمن بن على [٤٨٧ ـ ٥٥٨هـ ١٠٩٤ـ ١١٦٣م] فعادوا إلى طاعة الموحدين.. وأمره عبد المؤمن بسكنى مراكش.

* كان عالم المغرب والأندلس فى عصره.. وإمامًا فى الحديث وعلومه.. ومن أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم وبالنحو واللغة.. وأحد كبار فقهاء المذهب المالكى.. كما كان حافظًا.. ومؤرخًا.. وناقدًا.. ومفسرًا.. وأصوليًّا.. وشاعرًا.. وخطيبًا.

* أجلسه أهل الأندلس للمناظرة عليه فى المدونة [الكتاب العمدة فى المذهب المالكى] وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره إلا بسنوات قليلة كما أجلسوه للشورى.

* تتلمذ على يديه كثير من العلماء، منهم ابن القاضى أبو عبد الله محمد [٥٧٥هـ ١١٧٩م] وأبو القاسم ابن بشكوال [٤٩٤ ـ ٥٧٩هـ ١١٠١ ـ ١١٨٣م].

* ولقد تحدث عنه الحافظ ابن الأبار [٥٩٥ ـ ٦٥٨هـ ١١٩ ـ ١٢٦٠م] فقال: «كان لا يُدْرَك شأوه، ولا يبلغ مداه فى العناية بصناعة الحديث وتقييد الآثار، وخدمة العلم، مع حسن التفنن والتصرف الكامل فى فهم معانيه، إلى اضطلاعه بالأدب، وتحققه بالنظم والنثر، ومهارته بالفقه، وينبوع المعرفة، ومعدن الإفادة وإذا عُدَّت رجالات المغرب فضلًا عن الأندلس حُسب فيهم صدرًا».

وقال عنه ابن فرحون [٧٩٩هـ ١٣٩٧م]: كان إمام وقته فى الحديث وعلومه، عالمًا فى التفسير وجميع علومه، فقيهًا، أصوليًّا، عالمًا بالنحو واللغة، وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، بصيرًا بالأحكام، عاقدًا للشروط، حافظًا لمذهب مالك رحمه الله تعالى شاعرًا مجيدًا، ريان من الأدب، خطيبًا بليغًا».

وقال عنه الحافظ الذهبى [٦٧٣ ـ ٧٤٩هـ ١٢٧٤ ـ ١٣٤٨م]: «لقد استبحر من العلوم وجمع وألف، وسارت بتصانيفه الركبان».

* ولقد توفى القاضى عياض بمراكش فى جمادى الآخرة وقيل فى رمضان سنة ٥٤٤هـ ١١٤٩م.

* وخلَّف لأمته غير سيرته التى تحدث عنها معاصروه فقالوا: «إنه كان من أهل العلم والذكاء والفهم والفطنة والنبل والحلم والصبر واليقين والسماحة والجود، والصلابة فى الحق.. كما كان كثير الصداقة، جميل العشرة..».

* خلف لأمته غير هذه السيرة آثارًا فكرية قاربت الثلاثين منها:

١ ـ [الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ] وهو من أفضل ما كتب فى السيرة النبوية.

٢ ـ [ترتيب المدارك وتقريب المسالك فى معرفة أعلام مذهب الإمام مالك] حوى أكثر من ألف وخمسمائة ترجمة.

٣ ـ [مشارق الأنوار على صحيح الآثار] فى تفسير غريب حديث الموطأ والبخارى ومسلم.

٤ ـ [الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع] فى مصطلح الحديث.

٥ ـ [الأجوبة المخيرة عن الأسئلة المحيرة].

٦ ـ [الجامع فى التاريخ].

٧ ـ [الغُنية] ذكر فيه تراجم شيوخه.

٨ ـ [أخبار القرطبيين].

٩ ـ [العيون الستة فى أخبار سبتة].

١٠ ـ [التنبيهات المستنبطة فى شرح مشكلات المدونة والمختلطة] فى فروع الفقه المالكى.

١١ ـ [إكمال المعلم بفوائد مسلم].

١٢ ـ [بغية الرائد فيما فى حديث أم زرع من الفوائد].

١٣ ـ [الصفا بتحرير الشفا].

١٤ ـ [الإعلام بحدود وقواعد الإسلام] للمتعلمين من الأطفال].

١٥ ـ [العقيدة].

١٦ ـ [السيف المسلول على من سب أصحاب الرسول].

١٧ ـ [مختصر شرف المصطفى ﷺ] لعبد الملك بن محمد النيسابورى [المتوفى سنة ٤٠٦هـ ـ ١٠١٥م].

١٨ ـ [غريب الشهاب].

١٩ ـ [سر السراة فى أدب القضاة].

٢٠ ـ [غنية الكاتب وبغية الطالب].

٢١ ـ [تاريخ المرابطين] ـ انتهى فيه إلى سنة ٥٤٠هـ ـ ١١٤٦م.

٢٢ ـ [غنية الكاتب وبغية الطالب فى الصدور والترسل].

٢٣ ـ [القواعد].

٢٤ ـ [مصالح الأفهام فى شرح الأحكام].

٢٥ ـ [نظم البرهان على صحة جزم الأذان].

٢٦ ـ [ديوان خطبه].

٢٧ ـ [ديوان شعره].

٢٨ ـ [مذاهب الحكام فى نوازل الأحكام] جمع فيه ابنه محمد «أجوبته فيما نزل فى أيام قضائه من نوازل الأحكام».

* رحمه الله وأحسن مثوبته ومثواه[1].

---

(١) انظر فى التعريف بالقاضى عياض:

أ ـ الزركلى خير الدين [الأعلام] طبعة بيروت.

ب ـ [الموسوعة العربية] طبعة دمشق سنة ٢٠٠٥م.

ج ـ سركيس [معجم المطبوعات العربية والمعربة] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م.

د ـ عمر رضا كحالة [معجم المؤلفين] طبعة دمشق سنة ١٣٣٨هـ ـ ١٩٥٩م.

هـ ـ البغدادى [هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين] طبعة إستانبول سنة ١٩٥١م. وابن تغرى بردى [النجوم الزاهرة] ج٥. طبعة دار الكتب المصرية.

الشفا بتعريف حقوق المصطفى
للقاضى عياض

[٤٧٦ ـ ٥٤٤هـ ١٠٨٤ ـ ١١٤٩م]

فى هذا الكتاب منهاج متميز فى كتابة السيرة النبوية:

* فمن كتب السيرة «حوليات» تسجل «تاريخ» السيرة النبوية وفق السنوات المتواليات، جامعة أحداث كل سنة من السنوات على حدة.

* وأخرى تسجل أحداث السيرة وفق تتابعها على مر سنواتها.

* أما هذا الكتاب فإنه ديوان فى «فنون فقه السيرة والتاريخ»، تناولت أقسامه وأبوابه وفصوله ألوان هذه الفنون وفقهها بالتفصيل.. مع الاستفادة مما سبقت كتابته فى هذا الميدان..

* وفوق ذلك، ورغم عنوانه الذى يشير إلى [التعريف بحقوق المصطفى] ﷺ إلا أنه قد جاء للتعريف بحقوق كل أصحاب النبوات والرسالات.. فهو ديوان جامع لفقه فنون سير النبوات والرسالات على امتداد التاريخ..

* ولقد أدرك علماء الإسلام، منذ وقت مبكر فى عصرنا الحديث قيمة هذا الكتاب وامتيازه، فطبع طبع حجر بمصر سنة ١٢٧٦هـ ١٨٥٩م.. وبهامشه شرح عليه هو [المدد الفياض بنور الشفا للقاضى عياض] للشيخ حسن العدوى الحمزاوى [١٢٢١ ـ ١٣٠٣هـ ١٨٠٦ ـ ١٨٨٦م] وهو من كبار علماء الأزهر الشريف، الذين شاركوا فى الثورة العرابية، وحاكمه الإنجليز عندما احتلوا مصر سنة ١٢٩٩هـ ١٨٨٢م..

كما ضمت هذه الطبعة ـ فى أولها كتاب الإمام جلال الدين السيوطى [٨٤٩ ـ ٩١١هـ ١٤٤٥ ـ ١٥٠٥م] [مناهل الصفا فى تخريج أحاديث الشفا]..

ثم أعيدت طباعة القسم الأول منه ـ طبع حجر بالآستانة مطبعة خليل أفندى ١٢٩٠ هـ ـ ١٨٧٣م.

ثم أعيدت طباعته بالمطبعة العثمانية فى الخامس عشر من شعبان سنة ١٣١٢هـ ـ ١٨٩٥م..

ثم توالت طباعته بعد ذلك بمختلف بلاد الإسلام.. وتركت أفكاره بصمات ملحوظة فى كتب التوحيد والسيرة النبوية عند الكثيرين من العلماء والمجددين.. ومنهم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] فى كتابه [رسالة التوحيد]..

ونحن فى التقديم لهذا الكتاب الذى تغرى مئات الأفكار الواردة فيه بأن تكون ضمن هذا التقديم نكتفى بالوقوف عند الإشارة، مجرد الإشارة، إلى قضايا أربعة، تمثل نماذج «للمسائل الشائكة» التى أثارت جدلًا فى الفكر الإسلامى، وفى كتابة السيرة النبوية على وجه الخصوص، وذلك لتنبيه القارئ على أن هذا الكتاب قد تميز وامتاز «بالفقه الاجتهادى.. والاجتهاد الفقهي» فى كثير مما جاء فيه.

وأولى هذه القضايا:

هى قضية الإعجاز والمعجزات فى تاريخ النبوات والرسلات.. ففى تراث النبوات السابقة كانت المعجزات مادية، تدهش العقل، ولا تحتكم إليه.. وتقوم حجة على من شهدها، دون أن يكون لها خلود.

ولقد حرص الذين دونوا تراث تلك النبوات على الإكثار من عدد هذه المعجزات التى نسبت إلى أنبياء بنى إسرائيل ـ ومنهم عيسى عليه السلام.

وفى هذا الكتاب [الشفا] وعند الحديث عن معجزات إمام أولى العزم من الرسل.. وخاتم الأنبياء ـ محمد بن عبد الله ـ ﷺ حرص القاضى عياض ـ ككثير من كتاب السيرة على التأكيد على حقيقة أن رسول الله ﷺ «هو أكثر الرسل معجزة وأبهرهم آية وأظهرهم برهانًا».

لكنه تميز عن كثير من كتاب السيرة بتمييزه المعجزة القرآنية عن المعجزات المادية.. «فالمعجزة القرآنية قد عُلمت قطعًا، ونُقلت نقلًا متواترًا، فلا مرية ولا اختلاف فيها.. وهذا القرآن فيه من المعجزات ما لا يحصى عدده.. فكل آية أو آيات منه بعددها وقدرها معجزة، ثم فيها نفسها معجزات».

أما القسم الثانى ـ وهو المعجزات المادية «فإنه لم يبلغ مبلغ الضرورة والقطع.. سواء ما اشتهر منه وانتشر، ورواه العدد وشاع الخبر به عند المحدثين والرواة ونقلة السير والأخبار.. أو ما اختص به الواحد والاثنان، ورواه العدد اليسير ولم يشتهر اشتهار غيره».

فالقرآن الكريم هو المعجزة التى عُلمت قطعًا، ونُقلت تواترًا.. وفيها ما لا يحصى من وجوه الإعجاز وألوان المعجزات.. وبها وحدها وقع التحدى.

وليس كذلك المعجزات المادية، التى لم تبلغ مبلغ الضرورة والقطع، ولم يقع بها التحدى.

والقضية الثانية:

هى بشرية الرسول ﷺ، وما أضاف الإعجاز إلى هذه البشرية من مفارقة للواقع والبشرية.

فالرسول ﷺ بشر كامل البشرية، بل هو الإنسان الكامل، لكن اصطفاء الله له من بين البشر، واستخلاص الله له، وصنعه على عينه قد جعل فيه ما يتجاوز البشرية، ويؤهله للصلة بالملأ الأعلى، والتعامل مع الملائكة.. الأمر الذى جعله حلقة الوصل بين أهل الأرض والعوالم غير الأرضية.. بين عالم البشر والملأ الأعلى، وفى هذا يقول القاضى عياض ـ عن الرسل والأنبياء: «إن ظواهرهم وأجسادهم وبنيتهم متصفة بأوصاف البشر، طارئ عليها ما يطرأ على البشر من الأعراض والأسقام والموت والفناء ونعوت الإنسانية.

أما أرواحهم وبواطنهم فمتصفة بأعلى من أوصاف البشر، متعلقة بالملأ الأعلى، متشبهة بصفات الملائكة، سليمة من التغير والآفات، لا يلحقها غالبًا عجز البشرية

ولا ضعف الإنسانية، إذ لو كانت بواطنهم خالصة للبشرية كظواهرهم لما أطاقوا الأخذ عن الملائكة، ورؤيتهم، ومخاطبتهم، ومخالتهم، كما لا يطيقه غيرهم من البشر..

ولو كانت أجسادهم وظواهرهم متسمة بنعوت الملائكة، وبخلاف صفات البشر، لما أطاق البشر ومن أُرسلوا إليهم مخالطتهم، فجعلوا من جهة الأجسام والظواهر مع البشر، ومن جهة الأرواح والبواطن مع الملائكة، فبواطنهم منزهة عن الآفات، مطهرة عن النقائص والاعتلالات».

وثالث هذه القضايا:

الموقف مما عرف واشتهر فى كتب السيرة والتفسير «بقصة الغرانيق»، فرغم ما شاع فى كتب السيرة والتفسير عن «قصة الغرانيق» وأن الشيطان قد ألقى على لسان النبى ﷺ أثناء الصلاة مدح أو ثان قريش ـ اللات والعزى ومناة فقرأ

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠].

وأضاف ما ألقاه الشيطان على لسانه: «تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجي»، حتى نبهه جبريل عليه السلام إلى مخالفة ذلك لما أوحى الله به إليه.

رغم شيوع هذه القصة فى كثير من كتب التفسير والسيرة، إلا أن القاضى عياض قد فصّل فى تفنيدها تفصيلًا متميزًا وممتازًا، يبرهن على عقل الفقيه الذى قرأ به المرويات، وفى ذلك قال: «لقد قامت الدلائل الواضحة بصحة المعجزة على صدقه ﷺ وأجمعت الأمة فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شىء منها بخلاف ما هو به، لا قصدًا ولا عمدًا ولا سهوًا ولا غلطًا، ولو جوزنا عليه الغلط والسهو لما تميز لنا من غيره».

ومضى القاضى عياض إلى تفنيد «حديث» الغرانيق رواية ودراية، فقال:

«وأعلم أكرمك الله أن لنا فى الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين: أحدهما فى توهين أصله، والثانى على تسليمه:

أما المأخذ الأول: فيكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم، ولا شك فى إدخال بعض شياطين الإنس والجن هذا الحديث على بعض مغفلى المحدثين ليلبس به على ضعفاء المسلمين.

وأما من جهة المعنى: فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ ونزاهته من مثل هذه الرذيلة، إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله، وهو كفر، أو أن يتسور عليه الشيطان ويشبّه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه، حتى ينبهه جبريل عليه السلام، وذلك كله ممتنع فى حقه ﷺ، أو يقول ذلك النبى ﷺ من قبل نفسه عمدًا، وذلك كفر، أو سهو، وهو معصوم من هذا كله.

وقد قررنا بالبراهين والإجماع عصمته ﷺ من جريان الكفر على قلبه أو لسانه لا عمدًا ولا سهوًا أو أن يتشبه عليه بما يلقيه الملك مما يلقى الشيطان، أن يكون للشيطان عليه سبيل أو أن يتقول على الله لا عمدًا ولا سهوًا ما لم ينزل عليه وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧].

وقال تعالى: ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾ [الإسراء: ٧٥].

فالأمة مجمعة على عصمة النبى ﷺ من الشيطان وكفايته منه لا فى جسمه بأنواع الأذى ولا على خاطره بالوساوس.

ولقد ذهب القاضى عياض إلى سد كل الثغرات التى نفذ منها شياطين الإنس مستغلين «بعض مغفلى المحدثين» ومنها ثغرة أن الرسول ﷺ كان يسهو فى صلاته، أى أن السهو جائز عليه فلم لا نقول إنه قد سها فتلا ما ألقاه الشيطان فى قراءته؟!

ذهب القاضى عياض إلى سد هذه الثغرة بالتمييز بين السهو والنسيان؛ فالرسول ﷺ معصوم من النسيان فيما يبلغ عن الله ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ٦].

أما سهوه ﷺ فى الصلاة فإنه كان انشغالًا بمعانيها ومضامينها عن حركاتها، فهو انشغال بها لا غفلة عنها، «فالنبى ﷺ كان يسهو ولا ينسى، ولذلك نفى عن نفسه النسيان؛ لأن النسيان غفلة وآفة، والسهو إنما هو شغل، فكان النبى ﷺ يسهو فى صلاته ولا يغفل عنها، وكان يشغله عن حركات الصلاة ما فى الصلاة، شغلًا بها لا غفلة عنها».

وحتى فى أمور الدنيا الخارجة عن التبليغ للرسالة فإن الرسول ﷺ «معصوم عن أن يقع خبره على شىء من ذلك بخلاف مخبره، لا عمدًا ولا سهوًا ولا غلطًا، وأنه معصوم من ذلك فى حال رضاه وفى حال سخطه، وجده ومزحه، وصحته ومرضه. على ذلك اتفق السلف وأجمعوا عليه».

أما ما قاله ﷺ فى واقعة تأبير النخل، فقد «كان ذلك رأيًا لا خبرًا» فقد يجتهد فى أمور الدنيا رأيًا مغايرًا للواقع، لكنه لا يخبر بشيء مغاير للواقع أبدًا.

أما رابع القضايا الشائكة:

فهى الموقف من تكفير المتأولين، الذين لم يصرحوا باسم الكفر، وإنما قالوا قولًا يؤدى إليه.

وفى هذه القضية القديمة الجديدة تحدث القاضى عياض عن اختلاف الأئمة فى الحكم على هؤلاء المتأولين لكنه أورد «أن أكثر قول الإمام الأشعرى [٢٦٠ ـ ٣٢٤هـ ٨٧٤ ـ ٩٣٦م] هو ترك التكفير، وأن الكفر خصلة واحدة، وهو الجهل بوجود البارى تعالى».

كذلك أفاض القاضى غياض فى إيراد آراء العلماء المحققين الذين يوجبون الاحتراز من التكفير فى أهل التأويل (فإن استباحة دماء المصلين الموحدين خطر، والخطأ فى ترك ألف كافر أهون من الخطأ فى سفك محجمة من دم مسلم واحد، وقد قال ﷺ: «فإذا قالوها [يعنى الشهادة] عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله».

«فالعصمة مقطوع بها مع الشهادة، ولا ترتفع ويستباح خلافها إلا بقاطع، ولا قاطع من شرع ولا قياس عليه، وألفاظ الأحاديث الواردة فى الباب معرضة للتأويل، فما جاء منها فى التصريح بكفر القدرية، وقوله: «لا سهم لهم فى الإسلام»، وتسميته الرافضة بالشرك، وإطلاق اللعنة عليهم، وكذلك فى الخوارج وغيرهم من أهل الأهواء فقد يحتج بها من يقول بالتكفير.

وقد يجيب الآخر بأنه قد ورد مثل هذه الألفاظ فى الحديث فى غير الكفرة على طريق التغليظ، وكفر دون كفر، وإشراك دون إشراك. وقد ورد مثله فى الرياء، وعقوق الوالدين والزوج، والزور، وغير معصية، وإذا كان محتملا للأمرين فلا يقطع على أحدهما إلا بدليل قاطع، وما ورد فى قتل الخوارج «طوبى لمن قتلهم أو قتلوه» يمكن أن يقال فيه إنما كان ذلك لخروجهم على المسلمين وبغيهم عليهم، بدليله من الحديث نفسه «يقتلون أهل الإسلام فقتلهم ها هنا حدًّا لا كفرًا، وليس كل من حكم بقتله يحكم بكفره».

أما «الذين فارقوا دين المسلمين، وحكم القرآن بكفرهم فإن التوقف فى كفرهم هو تكذيب للنص، أو شك فيه، والتكذيب أو الشك لا يقع إلا من كافر..».

تلك إشارات إلى مكانة هذا الكتاب [الشفا بتعريف حقوق المصطفى] بين كتب السيرة النبوية، وإلى تميزه وامتيازه بين آلاف الكتب التى صنفت فى هذا الميدان.

وتلك نماذج من القضايا الهامة والشائكة التى تضمنها هذا الكتاب.

بقى أن نقول: إننا قد رجعنا فى هذه الطبعة إلى:

١ ـ طبعة المطبعة العثمانية سنة ١٣١٢هـ ١٨٩٤م التى أعيد تصويرها بمكة المكرمة سنة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

٢ ـ وطبعة مكتبة التراث ـ بالقاهرة سنة ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م، وهى الطبعة التى خرجت الأحاديث الواردة بالكتاب ـ تلك التى سبق إلى تخريجها الإمام السيوطى فى كتابه [مناهج الصفا فى تخريج أحاديث الشفا].

وإننا قد استفدنا فى التعليقات على متن الكتاب بما جاء بكتاب [مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء] للعلامة تقى الدين أبى العباس أحمد بن محمد بن يحيى الشُّمُنيِّ [٨٠١ ـ ٨٧٢هـ ـ ١٣٩٩ ـ ١٤٦٨م] الذى زيلت به مكتبة التراث طبعتها لكتاب [الشفا].

سائلين المولى عز وجل أن ينفع بهذه الطبعة لهذا الكتاب الفريد، إنه سبحانه وتعالى خير مسئول وأكرم مجيب[١].

(١) انظر طبعتنا لهذا الكتاب هدية مجلة [الأزهر] عدد ربيع الأول سنة ١٤٣٦هـ ـ يناير سنة ٢٠١٥م.

الدكتور نظمى لوقا
بطاقة حياة أ.د نظمى لوقا

[١٣٣٨ ـ ١٤٠٧هـ ١٩٢٠ ـ ١٩٨٧م]

* هو: أد. نظمى لوقا.. ولد بمدينة دمنهور ـ عاصمة محافظة البحيرة ـ لأسرة قبطية.. الصورة المعلقة على جدار منزلها هى صورة الزعيم سعد زغلول باشا [١٢٣٣ ـ ١٣٤٦هـ ١٨٥٧ ـ ١٩٢٧م]

وكان حلم والده أن يكون ابنه البكر ـ فى الفصاحة والقانون ـ مثل مكرم عبيد باشا [١٣٠٧ ـ ١٣٨٠هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٦١م]

* وعندما انتقلت الأسرة ـ بحكم العمل ـ إلى مدينة السويس، عهد به والده إلى شيخ ضرير ـ الشيخ عبد الله البخارى أحد تلاميذ مدرسة الإمام محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] ـ الذى كان يتولى الإمامة والخطابة فى أحد مساجد السويس ـ كى يعلمه ويربيه، ويحفظه القرآن ـ مثل مكرم عبيد ـ فتلقى تعليمه وتربيته بالمسجد، وحفظ القرآن وهو فى التاسعة من عمره، وطبع لسانه على الفصاحة التى صاغتها بلاغة القرآن وذخائر الشعر العربى، وبهذه الفصاحة تميزت ملكاته الإبداعية..

* لكن الفتى لم يحقق حلم والده بدراسة القانون رغم دراسته بمدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة وإنما اختار الفلسفة ميدانًا لفكره وإبداعاته.

* نشأ متسامحًا، يحتضن عقله وقلبه الحقيقة أنَّى وجدها.. وتزوج من مسيحية بروتستانتينية، رغم مخالفة ذلك لتقاليد كنيسته الأرثوذكسية.

* ارتبط بمدرسة الأستاذ عباس العقاد [١٣٠٦ ـ ١٣٨٤هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٦٤م] وصالونه الفكرى.

* وفى دمنهور ـ وهو فى السابعة عشرة من عمره ـ أصدر أول كتبه: [الله فى نظر الناس وكما أراه] فاستقبله الأستاذ أحمد أمين [١٢٩٥ ـ ١٣٧٣هـ ١٨٧٨ ـ ١٩٥٤م]

استقبالًا حسنًا.. وقدم مؤلفه إلى عميد الأدب الدكتور طه حسين [١٣٠٧ ـ ١٣٩٣هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م]، الذى خصص له منحة فى كلية الآداب لدراسة الفلسفة.

* وكان كتاب: [محمد الرسالة والرسول] ـ الذى صدر سنة ١٩٥٩م ـ حصيلة فكر شغله منذ سنة ١٩٤٨م ـ أى لعشر سنوات ـ فجاء حدثًا فريدًا من كاتب مسيحى يكتب هذا الذى كتب عن رسول الإسلام ورسالة الإسلام..

* ومن كتبه ـ كذلك:

٢ ـ وامحمداه.

٣ ـ محمد فى حياته الخاصة.

٤ ـ أبو بكر حواريّ محمد.

٥ ـ عمر بن الخطاب.. البطل والمثل والرجل.

٦ ـ عمرو بن العاص.

٧ ـ على مائدة المسيح.

٨ ـ أنا والإسلام.

٩ ـ الحقيقة عند فلاسفة المسلمين.

١٠ ـ الموسوعة الإسلامية الكبرى.

١١ ـ الله: وجوده ووحدانيته.

١٢ ـ التقاء المسيحية والإسلام.

١٣ ـ بين فلسفتى والدين.

١٤ ـ نحو مفهوم إنسانى للإنسان، للوجود، للمطلق.

١٥ ـ رقيق الأرض.

١٦ ـ فرويد يحدثك عن الحرام.

* وفى ميدان الترجمة كان له إنتاج غزير.. منه:

١٧ ـ الأدب الأمريكى: رؤية عالمية.

١٨ ـ التطور السيكولوجى للطفل.

١٩ ـ رقصة الحياة.

٢٠ ـ الزواج وأخلاقيات الجنس.

٢١ ـ شين أروع روايات الغرب الأمريكى.

٢٢ ـ الطريق إلى بئر سبع.

٢٣ ـ علم النفس التطبيقى.

٢٤ ـ فرويد يفسر أحلامك.

٢٥ ـ كيف تحكم أمريكا ـ بالاشتراك.

٢٦ ـ كيف تقاوم التوتر العصبى.

٢٧ ـ مكافحة الضوضاء: النضال فى سبيل الهدوء.

٢٨ ـ نقطة مقابل نقطة.

* غضبت عليه الكنيسة ـ بسبب كتاباته الإسلامية ـ فتهرب كاهن الكنيسة ـ بدمنهور ـ من الصلاة على جثمانه عندما توفى.. ورفض العاملون بالكنيسة إدخال تابوته للكنيسة.. فدفن بمقابر الأقباط دون الصلاة عليه!..

* وغضب منه بعض المسلمين، لأنه ـ رغم كتبه التى بهرتهم ـ ظل مسيحيًّا صليبة ـ كما قال ـ حتى الممات!.

* أهدى كتابه: [محمد الرسالة والرسول] إلى السائرين فى الظلمة، وإلى من يلوح لهم من أنفسهم فجر جديد، وأيضًا إلى الروح العظيم مهاتماغاندى..

* وفى تقديمه لهذا الكتاب ألقى الرجل المزيد من الأضواء على نشأته وتربيته وحياته ومنهاجه ـ كما أفاض فى كتابه [أنا والإسلام] فى الحديث عن منهجه فى التعامل مع الإسلام خاصة والديانات بوجه عام.

* ولقد اهتمت الدولة بهذا الكتاب، فقررته على المدارس الثانوية سنة ١٩٦١م.. وكتب له مقدمة كمال الدين حسين [١٣٣٩ ـ ١٤٢٠هـ ١٩٢١ ـ ١٩٩٩م] ـ وزير التربية والتعليم حينذاك.. وأرسل له المجاهد المجدد الأستاذ فتحى رضوان [١٣١٣ ـ ١٣٨٥هـ ١٨٩٥ ـ ١٩٦٦م]. رسالة تحية وتقدير. وكذلك صنع العلَّامة الشيخ أمين الخولى [١٣١٣ ـ ١٣٨٥هـ ـ ١٨٩٥ ـ ١٩٦٦م].

* وهكذا مثل د. نظمى لوقا مدرسة فى العدالة الفكرية، والإنصاف الدينى والشجاعة الأدبية، تحتاج إلى أن تسلط عليها المزيد والمزيد من الأضواء.. كما تحتاج إلى الاستلهام والاحتذاء..

* يرحمه الله[1] القائل فى محكم كتابه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] ـ صدق الله العظيم.

(١) د. نزار أباظة، محمد رياض المالح: [إتمام الأعلام]. طبعة دار صادر ـ بيروت سنة ١٩٩٩م.

محمد الرسالة والرسول
للدكتور نظمى لوقا

[١٣٣٨ ـ ١٤٠٧هـ ١٩٢٠ ـ ١٩٨٧م]

مئات ـ وربما آلاف ـ الكتب التى كتبها مسلمون عن النبوات والرسالات التى سبقت رسالة محمد بن عبد الله ـ عليه الصلاة والسلام.

ولم يستغرب أحد صدور هذا الكم الهائل من المؤلفات التى تناولت هذه الرسالات وقادتها ورموزها بالحب والإجلال والتعظيم والتقدير.. ذلك أن قرآن المسلمين قد جاء مصدقًا لما بين يديه من كتاب ـ مطلق الكتاب.. ونبى الإسلام والمؤمنون به لا يفرقون بين أحد من رسل الله.. والوعى القرآنى يعلم المؤمنين به أنهم جزء من الأمة الجامعة لكل من آمن بجميع الأنبياء والمرسلين على امتداد تاريخ النبوات والرسالات..

* كذلك شهدت مكتبة الاستشراق العديد من الدراسات التى أنصفت رسول الإسلام ورسالة الإسلام.. والتى كتبها هؤلاء المستشرقون «بعقولهم» المنصفة، وليس «بقلوبهم» المحبة، لأنهم ظلوا على دياناتهم التى لا تعترف بالإسلام دينًا سماويًّا، ولا بمحمد نبيًّا ورسولًا.. أو على فلسفاتهم وأيديولوجياتهم التى وقفت خارج نطاق الإيمان الدينى، أو على هامش هذا الإيمان الدينى.

* أما هذا الكتاب ـ الذى كتبه الدكتور نظمى لوقا ـ فلقد جاء فريدًا، وربما غير مسبوق.. فكاتبه قد كتبه بعقله وقلبه وعواطفه وكل كيانه.. وذلك على الرغم من أنه قد ظل حتى وفاته يؤكد أنه مسيحى، وأنه «قبطى صليبية» ـ كما كان يجب أن يقول.. فالعدل الذى تناول به صاحب هذا الكتاب رسالة الإسلام ورسول الإسلام قد تجاوز «العدل المنطقى والعقلاني» إلى حيث جمع بين هذا اللون من العدل والإنصاف

وبين عدل القلب والعاطفة والمحبة والوجدان.. رغم أن الرجل قد ظل مسيحيًّا حتى الممات..

ومن هنا كانت فرادة هذا الكتاب.. بل وقرادة كاتب هذا الكتاب.

* ويزيد من فرادة هذا الكتاب أنه لم يكن ثمرة اللحظة سريعة وعابرة.. وإنما جاء حصيلة دراسة عميقة استمرت عشر سنوات لرسالة الإسلام ولرسول الإسلام.. وأنها لم تقف عند هذا الكتاب، وإنما أثمرت بناء فكريًّا كبيرًا، تمثل فى العديد من الكتب الإسلامية التى أبدعها هذا «الكاتب ـ الفيلسوف» الفريد..

* * *

وإذا كان لا بد ـ فى التعريف بهذا الكتاب الفريد ـ من إشارات إلى بعض الملامح التى جاءت فيه.. فإن القارئ سيجد فيه ـ ضمن ما سيجد ـ حديثًا عن أن:

* اليهودية: كانت ديانة توحيد وتنزيه. ولكنها ديانة شعب معين دون سائر الشعوب، فهى، إذن، ليست الدين الذى يهتدى به الناس كافة ويجدون فيه شبع حاجتهم الفطرية إلى العقيدة..

والإله الواحد عند بنى إسرائيل صارت الصفة الغالبة عليه أنه رب الجنود، وأنه القوى المنتقم الجبار الغضوب.

* وأن المسيحية ـ التى جاء بها المسيح عليه السلام ـ لا ما أُلحق بها من تأويل ـ هى دين القلب الإنسانى.

* ولذلك، فلقد كانت البشرية فى حاجة إلى عقيدة جديدة، يجتمع عليها العقل والقلب جميعًا، وتصحح ما ترددوا فيه من الأخطاء فى تفهم ما سبق من عقائد ورسالات.. هذا الدين المرموق هو دين البشر. ولقد كان الإسلام هو الذى انبرى للنهوض برسالة هذا الدين..

إن دعوة الإسلام صادقة لذاتها.. والإسلام لا يقاوم الحياة، بل يقر الفطرة البشرية على تقديسها، وصيانة ينابيعها من الأكدار.. ولا فصل فيه بين حياة الروح وحياة الجسد حيث لا انفصال لهما فى واقع الجبلة، التى جبلها خالقها الحكيم الخبير..

والإسلام لا يلغى العقل ولا يجحد المادة، ولكنه يضعهما فى حدودهما، ولا يعدو بهما قدرهما الحق، فهما بغير القيمة الروحية، لا يجديان الإنسان فتيلًا.

وكل مكان فى الأرض الطاهرة يصلح مسجدًا ومحرابًا. لا هياكل بعد اليوم، ولا كهانة بعد اليوم، ولا وسطاء بين الله والإنسان بعد اليوم، ولا وصاية على ضمائر الناس، فكلهم أمام الرحمن سواء..

فالإسلام هو الصراط المستقيم.

* والقرآن لا يدع شائبة من ريب فى مسألة وحدانية الله، ولا فى تنزيهه عن الشرك والتعدد.. وفى ذلك نقض لعقائد الشرك، وتصحيح لعقائد أهل الكتاب أيضًا.. لقد بدت العقيدة الإلهية فى الإسلام ناصعة الصفاء فى تجردها من الشرك وشبهاته، ومن النقص وشوائبه..

عقيدة واحدة بسيطة، يقطع الإيمان بها الطريق على كل حيرة وخوف، ويبعث الطمأنينة فى كل نفس.. وباب هذه العقيدة مفتوح لكل إنسان، لا يُصد عنها أحد بسبب جنسه أو لونه.

لقد جاءت رسالة الإسلام متلافية أوجه الغموض فى العقيدة الإلهية، وأوجه العسر والعنف وأوجه إغفال الدنيا وفطرة البدن والروح فى كيان واحد.

* وإن الشريعة الإسلامية التى تقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة: ٨] هى الشريعة ـ الأدعى للإنصاف، والأنفى للإجحاف والعصبية.. إنها شريعة الإخاء، وشريعة الحرية، التى لا تعرف قيصر، ولا تعرف عقدة إثم، ولا تعنو حياة الخلق فيها لغير الله.

إنها شريعة العدل.. شريعة المساواة، لا شريعة التسوية.

* ولئن كان أقوام يؤمنون بأن الله ينتقم من الأحفاد لآثام أجدادهم الغابرين، وأن حصرم الآباء يضرس به البنون، فالقرآن قاطع فى نفى هذا الجور المستعصى على الفهم: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

إن القاعدة الإسلامية العامة: «لا ضرر ولا ضرار» هى أحكم القواعد فى جميع شئون البشر ومعاملاتهم فسلام على المنصفين المقسطين الذين لا يجرمنهم شنآن قوم على ألا يعدلوا. وسلام على الصادقين.

* ومبدأ: «أعطو ما لقيصر لقيصر وما لله لله» مبدأ قسم العالم، فجعل شطره لله وشطره لقيصر.. وجعل من قيصر فى الدنيا ندا لله فى عالم الغيب والسريرة..

ولقد جاء القرآن فمحا تلك القسمة محوًا، وجعل الأمر كله لله، ووحد مملكة الحق سفلًا وعلوًا.. فلا قيصر بعد اليوم بين قوم يؤمنون بأن لا إله إلا الله: ﴿ لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ ـ الأعراف: ٤٥ ـ ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨].

ولذلك كان على الرسول، وهو الحاكم الأول زمانًا ومقامًا وقدوة، أن يشاور المؤمنين فى الأمر.. فالحاكم يقوم باسم الأمة..

فالله أكبر، لا قيصر بعد اليوم.. ولا كهان ولا أحبار.. بل لله الأمر جميعًا.. فالإنسان لا يعبد إلا ربًا واحدًا، وحكامه فى الأرض خدامه وصالحوه، وهو على نفسه ودينه وكيل مسئول، وليس عليه فيها جبار.

* وليس فى الإسلام ـ على حقيقته ـ عقيدة رجعية تفرق بين الجنسين فى القيمة، بل إن المرأة فى موازينه تقف مع الرجل على قدم المساواة، لا يفضلها إلا بفضل، ولا يحبس عنها التفضيل إن حصل لها ذلك الفضل بعينه فى غير مطل أو مراء.

ورسول الإسلام، فى حياته الخاصة، لم يشارك فى فراشه أحدًا مدة حياة خديجة، وقد طال زواجهما ربع قرن تقريبًا، وهو طور الفحولة فى حياة الإنسان ما بين الخمسة والعشرين والخمسين ولم تتعدد زوجاته إلا بعد وفاتها.

وبرخصة الطلاق ـ وهو على ثلاث مراحل ـ نأى الإسلام بالزواج عن أن يكون «عاهة مستديمة». والحكمة فى جواز زواج المسلم بالكتابية، دون العكس، أن الإسلام يعترف باليهودية والنصرانية ولا يجحدهما، ومن ثم يضمن للكتابية الاحتفاظ بدينها وهى زوج للرجل المسلم، بينما جرى تقليد رجال الدين فى اليهودية والمسحية

على إنكار الإسلام، الأمر الذى يجعل المسلمة غير آمنة على دينها فى كنف الكتابى فليست المسألة إذن عصبية أو تحيزًا فى كثير أو قليل.

* ورسول الإسلام هو أول رسول بُعث إلى الناس وانبرى لدعوتهم إلى دينه من غير مدد من المعجزات الخاطفة للإبصار الخالبة للألباب.

إن تأييد دعوة حق بخارقة غير طبيعية مسألة لا تُستساغ إلا فى حالات انحطاط العقل البشرى، لهذا كان لا بد للعقل البشرى فى طور رشده أن تأتيه الدعوة إلى الهداية بأسلوب عقلى صرف، يحترم فطرته وبداهته.. وتلك قرينة أخرى على أن دعوة الإسلام جاءت موافقة ـ للتطور الطبيعى للبشرية ـ تاريخًا، ونضوجًا، ورشدًا.. لذلك كان رسول الإسلام هو خاتم الرسل، وكانت رسالته هى خاتمة الرسالات.

إن رسول الإسلام هو رسول صدق.. رسالته الصدق الصراح بغير تعديل أو تحوير.. لا ينطق عن الهوى ـ وهو أوفى الناس بالمعروف، وأحفظهم للوداو، وأبرهم وأقسطهم.. إنه الرسول الأمين حقًّا.. والعدل عنده مبدأ وخُلق، وليس وسيلة..

ولو كان القرآن من صنع الرسول ما حرص على أن يكون فيه كأحاد الناس لا يزيد. ليس عليه إلا البلاغ. لقد كان رسول الإسلام مشغولًا بأن يسود نفسه، لا بأن يسود الناس..

وكان قمة شاهقة فى الزهد لا يطيقها كثيرون..

إنه لسان السماء.. الصادق الأمين. فسلام عليه بما هدى من سبيل، وما قوّم من نهج، وما بين من محجة، وسلام على الصادقين.

* * *

هكذا تحدث الرجل الفريد ـ د. نظمى لوقا ـ فى كتابه الفريد ـ [محمد الرسالة والرسول] ـ عن رسالة الإسلام ورسول الإسلام ـ عليه الصلاة والسلام.

* * *

ولم يكن غريبًا أن تتباين المواقف إزاء هذا الكتاب..

* فالمسيحيون قد غضبوا على هذا الكاب وصاحبه غضبًا شديدًا.. لكنه ظل غضبًا مكتومًا!..

* والمسلمون سعدوا بهذا الكتاب سعادة غامرة ـ لكن فريقًا منهم سخطوا على صاحب الكتاب عندما أكد أنه لا يزال مسيحيًّا، «وقبطيًا صليبية» كما كان يقول.. فلقد كان هذا الفريق ـ لسذاجته ـ يريد أن يفرح باعتناق هذا الكاتب دين الإسلام.

* أما الموقف الثالث إزاء هذا الكتاب، فكان موقف الدولة.. والنخبة، التى رأت فى هذا الكتاب برهانًا على الإنصاف والعدل الذى سلك الشرائع السماوية فى سلك التطور والتقدم، والذى رآها درجات فى سلم الدين الإلهى الواحد، الذى تواكب شرائعه الواقع المتطور، والذى وصل إلى مرحلة الختام والخلود بشريعة محمد بن عبد الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ولقد تجلى هذا الموقف الثالث ـ ضمن ما تجلى ـ فى:

١ ـ ترحيب الدولة بهذا الكتاب.. فلقد قررته على المدارس الثانوية سنة ١٩٦١م.. وكتب له وزير التربية والتعليم ـ حينئذ ـ كمال الدين حسين [١٣٣٩ ـ ١٤٢٠هـ ١٩٢١ ـ ١٩٩٩م] مقدمة هامة، جاء فيها:

«ما الإسلام؟.. وما المسيحية؟.. وما الموسوية الحق؟.

هل هى إلا أديان سماوية تنزلت على البشر فى مراحل مختلفة من حياتهم ليستشرقوا إلى المثل العليا، ويتمسكوا بالخُلق والفضيلة، ويتعاونوا على البر والتقوى، ويرتبطوا إلى الله الخالق القادر ارتباط الحب والرجاء والخشية، فيعيشوا ما عاشوا على الأرض إخوة متحابين، يجمعهم على الفضائل الإنسانية إيمان مشترك بالله الواحد الذى خلقهم وإليه مصيرهم جميعًا فى يوم لا ريب فيه. إيمان بالله الواحد، وتطلع إلى المثل العليا فى التعايش الإنسانى، واستمساك بالخلق والفضيلة فى السلوك الفردى والاجتماعى، وأخوة إنسانية جامعة تحصّن البشر ضد الأثرة والاستعلاء والبغى. وتربط بعضهم إلى بعض برباط الحب والتعاون ورجاء مشترك إلى الله أن يشملهم يوم يصيرون إليه بالرحمة والرضوان.

تلك هى المبادئ العامة فى ديننا المشترك، نستحضرها جميعًا، وتعيننا فى كل صلاة نصليها، وفى كل صيام نرتفع به فوق مستوى شهواتنا، وفى كل زكاة نؤديها لنؤكد الأخوة الإنسانية بين بعضنا وبعض، فى كل رحلة حج نرحلها من قريب أو بعيد لنصل إلى رحم الإنسانية المؤمنة بالله.

مبادئ عامة لا يختلف فى الإيمان بها ذو دين عن ذى دين غيره، على تعدد الأسماء والصفات والبقاع والمجتمعات، وما يستتبع تعددها من اختلاف فى بعض الموازين أو فى بعض الوسائل.

دعوة واحدة تنزلت من إله واحد لعالَم واحد تعاقبت أجياله على نسب مشترك من عهد آدم وحواء، وتعاقبت أنبياؤه برسالات ربهم إلى جيل بعد جيل من هؤلاء الأجيال ليكونوا تعبيرًا متطورًا لمعنى تلك الدعوة يتلاءم مع تطور هؤلاء الأجيال من غير نقص فيها ولا زيادة، لأنها دعوة أزلية أبدية منذ خلق الله تعالى الخلق إلى أن يجمعهم فى ساحة رحمته وعد له.

موسى وعيسى ومحمد.. هم أنبياء هذه الدعوة الواحدة الأزلية الأبدية، لا يختلف أحد منهم عن أحد فى مبدأ من مبادئها ولا غاية من غاياتها مهما اختلفت الأزمان وتطورت الجماعات من عهد نبى منهم إلى عهد نبى، فكان التعبير المتطور لمعنى تلك الدعوة على لسان كل نبى والغاية واحدة والإيمان واحد والإله واحد.

معنى لم يفطن له كثير من الناس فى كثير من العصور، وفطن له د. نظمى لوقا.. فأضاء مصباحًا قوى الضوى، خليقًا بأن يهدى إلى طريق الرشاد.

كتاب عن محمد الرسول.. خطرت فكرته على قلب مسيحى عربى يؤمن بالله بالعقل ويؤمن بالإنسانية. درس محمدًا إنسانًا ودرسه داعيًّا للدين ومرشدًا إلى هدى، ودرس دينه مرحلة من مراحل التطور الحضارى فى المجتمع الإنسانى. ودرسه نبيًّا ورسولًا، فآمن إيمان القلب والعقل جميعًا بأنه نبى رسول، بقلب المؤمن وعقل الإنسان وفكر الباحث.

درس نظمى لوقا حياة محمد بن عبد الله، ثم أفرغ دراسته موجزة فى كتابه «محمد الرسالة والرسول» ليكون لبنة فى أساس بناء وحدة فكرية روحية تجمع قومنا على إيمان مشترك بالله الواحد وبالفضيلة وبالمثل الإنسانية وبالقيم الروحية.

إننا نحن المسلمين من أبناء الأمة العربية نتعرض فى هذه الأيام لكيد شديد يتربص بنا من يمين وشمال، دعوات آثمة ترد إلينا من الشرق ومن الغرب لنتخلى عن ديننا ونتحلل من روابطنا لمثلنا ومبادئنا ونكفر بالله الواحد لنعتنق دين «سارتر»[1] أو دين «كارل ماركس»[2]. الشيوعية الملحدة فى الشرق، والوجودية المنحلة فى الغرب تحاولان هذه الأيام متعاونتين أو متنافستين، أن تقضيا على مقوماتنا وعلى وجودنا وعلى إرادتنا وإنسانيتنا بالقضاء على ديننا وعلى إيماننا بالله الواحد لنقع فريسة سهلة لأى المعسكرين المتعاونيين على الفساد المتنافسين فى الشر والمنكر.

ونحن المسلمين والمسيحيين فى هذه الأرض المباركة، أرض النبوات، مهبط الوحى. وطن الحب والسلام والرحمة، مشرق الحضارات الإنسانية.. لا نريد، ولا يريد الله أن تنتكس الإنسانية فى وطننا، ولا أن يرتكس فى الفساد والإثم قومنا، ولا أن نذل بعد عزة فى أوطاننا، وديننا هو حصن قوتنا، وهو درع الوقاية لنا، وإيماننا المشترك بالله الواحد هو الذى يعضمنا من الهوان والذلة، لأن الله وحده هو الذى نخاف ونرجو، فلا طاقة لأحد بالسيطرة علينا ومعنا الله.

نحن المسلمين والمسيحيين فى الأمة العربية نؤمن بوحدة أمتنا، ونؤمن بوحدة ديننا، مُثلًا ومبادئ لتعايش الإنسان، ونؤمن بأنبيائنا رسلًا لهداية البشر وتقدم الإنسانية، ونؤمن بالله الواحد، ونتقيه فى كل ما نأخذ وما ندع من أمورنا وأمور الناس، ليكون المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام والمحبة».

(١) سارتر ـ جان بول ـ (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠م] أبرز رواد الوجودية المتشائمة وممثليها. عبر عن فلسفته الوجودية فى كثير من أعماله الأدبية. من أعماله «الوجود والعدم» و«طرق الحرية» و«الأيدى القذرة» و«الجدار».

(٢) ماركس ـ كارل ـ [١٨١٨ ـ ١٨٨٣م] فيلسوف الشيوعية الأشهر. ومنظر المادية الجدلية والمادية التاريخية من أعماله «رأس المال». وكتب «البيان الشيوعي» بالتعاون مع فريدريك أنجلز [١٨٢٠ ـ ١٨٩٥م].

هكذا جمعت المقدمة التى صدرت بها الدولة الطبعة التى قررتها على المدارس الثانوية سنة ١٩٦١م.. هكذا جمعت وأوعت، عندما عبرت عن موقف دينى وحضارى وإنسانى متألق فى الوعى الفكرى بالواقع المحيط.

٢ ـ أما النخبة والصفوة، فلقد عبر عنها فارس الكلمة، المجدد المجاهد الأستاذ فتحى رضوان [١٣٢٩ ـ ١٤٠٩هـ ١٩١١ ـ ١٩٨٨م] الذى كتب إلى صاحب هذا الكتاب يقول:

«السيد الدكتور نظمى لوقا.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فإنى أرجو أن تأذن لأحد مواطنيك فى الوطن العظيم مصر، وفى الوطن الأكبر العالم، وطن الجميع، أن يكتب إليك من غير سابق صلة أو تعارف، فإن كتابك عن محمد الرسالة والرسول خير بديل عن صديق لكلينا يقدم كلامنا لصاحبه شأن الكتاب الناجح أو الصادق دائمًا فى عقد الصلة بين الكاتب وقرائه.

كما أرجو ألا يتبادر إلى ذهنك أن كتابك حفزنى على تحرير هذا الخطاب لأنك أدرت الحديث فيه عن محمد نبى المسلمين وأنا مسلم وأنت من المسيحيين، فتأليف الكتب عن الإسلام من مسيحيين سبقك إليه كُتّاب كبار من مسيحيى أوروبا وأمريكا، ولم يروا فى ذلك حرجًا. وإن كان فضلك أكبر من فضلهم جميعًا، إذ أن ما تدرعت به من شجاعة الإقدام على هذا العمل الأدبى أكثر مما احتاجوا إليه بكثير، فاختلاف الظروف والبيئات والملابسات يجعل من عملك شيئًا أقرب إلى المغامرة والمجازفة بالصلات والصداقات والمصالح، لذلك فإنى اكتب هذا لأعلن إليك أن الطابع الإنسانى فى كتابك قد مس شغاف قلبى أكثر من أى شىء آخر فيه، على جماله كله، فقد جرى بأسلوب من يحب الناس، ويحب الخير لهم، ويحب الأخيار فيهم، ويحب لهم أن يعيشوا متآخين صافية نفوسهم مشرقة بالود والتسامح قلوبهم...».

هكذا كتب فارس الفكر والوطنية فتحى رضوان إلى الدكتور نظمى لوقا..

٣ ـ أما الموقف الثالث فكان لشيخ الأمناء العلامة الشيخ أمين الخولى [١٣١٣ ـ ١٣٨٥ هـ ـ ١٨٩٥ ـ ١٩٦٦م] ـ الذى سبق له وشارك فى المؤتمر الدولى لتاريخ الأديان ـ ببروكسل ـ سنة ١٣٥٤ هـ سنة ١٩٣٥م ـ وقدم فيه بحثًا فريدًا عن «صلة الإسلام بإصلاح المسيحية»، لمس فيه فكرة تطور الديانات، ومواكبة هذا التطور للتقدم الإنساني[١]. فلقد كتب عن كتاب الدكتور نظمى لوقا يقول:

«... إلى العقول القوية والقلوب الكبيرة التى تدرك من الذين أسمى معانيه وأنبل أغراضه... منذ بضعة وعشرين عامًا أهديت بحثًا عن «صلة الإسلام بإصلاح المسيحية»، أردت أن ألفت به أحرار الفكر أطهار القلب إلى أن الصلة بين الدينين ليست إلا أثرًا لظاهرة اجتماعية فى حياة التدين البشرى، وأن البحث العلمى النزيه المحايد هو الذى انتهى إلى هذه الصلة بين الإسلام والمسيحية «دون أى رغبة فى كسب فخر وأى محاولة فى إحراز فضل.

ولقد نقلنى إلى هذه الآفاق التى تبدو بعيدة مترامية الأطراف، وأعاد إلى ذاكرتى إهداءً كُتب منذ ربع قرن.. فعل بنفسى كل هذا كتاب فرغت الساعة من قراءته، هو كتاب «محمد الرسالة والرسول» لمؤلفه الدكتور نظمى لوقا.

فإن الكتاب نفسه يحدث عن التطور الدينى، ويعرض صورًا فى حياة الأديان الثلاثة الكبرى اليهودية والمسيحية والإسلام، وينتهى ذلك إلى أن رسالة الإسلام جاءت مناسبة تطور البشرية الطبيعى.

على أن من الحق أن أصارح قارئى بأن جو التطور ليس هو وحده الذى حفزنى إلى الكتابة عما عنونت له هنا بالتطور النبيل، بل إن شعورًا قويًّا منبعثان من الكتاب هو الذى أجبرنى أو كاد يجبرنى على أن أكتب هذا الكتاب، وأبادر فأؤكد إن الذى دفعنى أو أجبرنى على هذه الرسالة ليس هو شعور المتدين المتعصب الذى يرى فى الكتاب انتصارًا لدينه أو كسبًا لنصير جديد يدافع عنه، أو حجة تؤيده، أو دليلًا ينهض فى وجه معارضيه.. كلا.. بل إن الذى دفعنى وأجبرنى إنما هو شعور يمضى فى عنفه

(١) ولقد نشر هذا البحث ـ بمقدمة الشيخ الأكبر الإمام محمد مصطفى المراغى [١٢٩٨ ـ ١٣٦٤هـ ١٨٨١ ـ ١٩٤٥م] سنة ١٩٣٩م. وقمنا بدراسته وإعادة نشره محققًا ـ بدار نهضة مصر سنة ٢٠٠٦م.

ودفعه إلى أن ينقلنى إلى الطرف المقابل تمام التقابل لهذا التعصب والتحيز والحمية الجاهلية التى تغمر نفس ذى الأفق المحدود، الغافل عن الوحدة الكبرى، والغاية العليا للتدين الإنسانى فى كل زمان سحيق مضى أو بعيد يقبل، وفى كل مكان من الأرض مجهول أو قريب منها معمور.

وتلك الطبيعة الإنسانية المترفعة فى الشعور هى التى ذكرتنى الإهداء المقدم إلى الذين يدركون من التدين أسمى معانيه، إذ تمثل لى فى قوة الدكتور نظمى لوقا هو أحد هؤلاء الذين هتفت بهم من وراء الغيب منذ بضعة وعشرين عامًا فى الأيام والشهور التى عشت فيها ألمس الصلة بين الإسلام والإصلاح المسيحى البروتستانتى فى نزوع علمى «.. لقد تمثل لى الدكتور نظمى لوقا أحد هؤلاء الداركين المرجوين» فإنه، وبعد القبطى الصليبية ـ كما يقول عن نفسه ـ يملك من أمر تلك النفس ما يستطيع معه أن يكتب عن محمد الرسول ورسالته، فيقول من القول المترفع ما لا أجد بعضه أحق من بعض بالإشارة إليه.

إنه فى بيان جلى يشرح العوامل التطورية التى سيرت حياة الأديان الثلاثة ووجهتها إلى أهداف بعينها فى دعواتهم، وبفهم تلك العوامل التى وضعت كل رسالة من هذه الرسالات فى مكانها من سائر أخواتها، وينتهى على ضوء تلك العوامل المسيرة للحياة والتاريخ إلى تقرير: إن الإسلام ختام الرسالات السماوية، وقد استغنت به وعنده الأديان عن توجيه آخر من السماء.

وفى حب للحقيقة أكثر من حبه لأفلاطون(١) كما قال فى أول كتابه ـ وفى تمثل، بل فى تقمص لروح غاندي(٢)، الذى كان يصلى بصفحات من براهما وآيات من التوراة والإنجيل والقرآن، يمضى فى شرح مقارنة لأمهات الأسس الإسلامية فى إفاضة وصراحة ووضوح، يصورهما استشهاده، أول ما استشهد بالآية القرآنية:

---

(١) أفلاطون [٤٣٧ ـ ٣٤٧ ق.م] من مشاهير الفلاسفة اليونان. تلميذ سقراط [٤٧٠ ـ ٣٩٩ ق.م] ومعلم أرسطو [٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م] من أعماله (الجمهورية) و(المحاورات) و(الشرائع).

(٢) غاندى موها نداس كرامشاند ـ الهاتما [١٨٦٩ ـ ١٩٤٨م] زعيم الهند الأشهر. قاد الهند فى المقاومة السلمية ضد الاستعمار الإنجليزى. ولقب بالمهاتما أى النفس السامية.

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ ﴾ [آل عمران: ١٩٩]. فإن مناجاته الروحية لأبى القاسم، وما يتراءى له من جوانب شخصيته الجليلة ـ هى مما لا تطيقه النفس البشرية إلا بعد استشراف لدنيا غير دنيا سكان هذا الكوكب المخلد إلى أرضه، المتهالك مع أوهامه، المتفانى فى سبيل تفاهاته.

يشعر قارئ «محمد الرسالة والرسول» أن باستطاعته البشرية الترفع المحلق عن موروثاتها ورواسبها الصلبة من أفعال آلاف الأجيال وشهواتها العنيفة وضعفها المتهالك أمام هذا وأشباهه مما ينقلها ويحول دون كل استعلاء منها، وهى حال الكثرة الكاثرة، بل حال الكل والجميع إلا قلة نادرة، لا يكاد يكون لها حكم. إننا جميعًا بكل ضعف بشريتنا لا ندرك من صلة الأديان المختلفة إلا العداوة والبغضاء والحقد والسخط على حطب جهنم المخالفين لنا، وتلك هى الآفة التى صبابها أهل الأديان على الحياة فى كل عصور التاريخ شواظًا من نار فى محارق مذابح ومعارك من المذهب النقى والعقيدة السليمة على الملاحدة والهراطقة المبتعدين.

إن شيئًا وراء ذلك كله فى أعماق نفسى وطوايًا روحى هو فى الحق الذى أثار ذلك الدفاع الغلاب فى نفسى عند قراءة كتاب «محمد» للدكتور نظمى لوقا، إنه حلم باهر قد تراءى للنفس حينًا ما منذ سنين لا تقل عن العشرين، أنعشت نسمة من تلك النسمان الإنسانية المنعشة فى دعوة ترددت أصداؤها من أقصى الغرب إلى أبعد الشرق تريد أن تستنفر أهل الأديان إلى أن يجعلوا أديانهم وسيلة من وسائل محاربة البغضاء والحقد بين الناس، وقلة تعاونهم مع تخليص دنياهم من آفاتها بما فى عقائدهم من خيرية وروحية.

وإلى هذا الحلم الجميل الفاتن نبهت محاولة الدكتور نظمى لوقا فى سبيل التسامى على أوهام البشرية، وردت هذا الحلم القديم ظلالًا من الرحمة وخيوطًا من النور تتراءى غير ضعيفة فى أفق الأمد الإنسانى الذى لا يصرعه اليأس..

إن كتاب «محمد الرسالة والرسول» يرد إلى العقول القوية والقلوب الكبيرة الثقة فى بلوغ الحياة على هذه الكرة المظلمة إلى ما يسلم أملها فى بلوغ القمر والدوران

مع الشمس. إن هذا الكتاب يقرأه كل ذى عقل قوى وقلب كبير من أى دين أو ملة، بل مع أى أفكار ترى أن التدين قدير على أن يكون ترفعًا نبيلًا يطهر النفوس ويحيى الآمال.

ومن أجل هذا رجوت، فى ثقة، أن يكون هذا الكتاب تطورًا نبيلًا فى نظرة كل ذى دين إلى ما يُرجى من خير للدنيا بالتدين...»(١).

* * *

هكذا استقبلت الطبعة الأولى من هذا الكتاب الفذ لهذا الكاتب الفريد..

(١) استفدنا كثيرًا فى هذه الدراسة من الدراسة الضافية التى قدم بها الأستاذ محمد الباز طبعته لكتاب «محمد الرسالة والرسول» التى نشرتها «كنوز للنشر والتوزيع» ـ القاهرة سنة ٢٠٠٧م.. ولقد قمنا بتحقيق هذه الطبعة الجديدة، وذلك بتخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ـ مع بعض التعلقيات التى رأيناها ضرورية لخدمة نص الكتاب.